

دولة بني العباس

الجزء الأول

الدكتور

شاكر مصطفى

الناشر

وكالة المطبوعات

٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

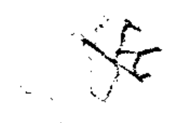
شاكر مصطفى

دولة بني العباس

الجزء الأول

الناشر
وكالة المطبوعات
٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

الطبعة الاولى ـ ايلول ـ سبتمبر ١٩٧٣



بين يدي الكتاب

لبعض عصور التاريخ ، كما لبعض الناس او الطير او الأرضين : حظوظ ومقادير : يخصب بعضها عطاء ونشاط يد وفكر في حين يفتقر غيره فهو الجديب الممسوح الملامح . وينال بعضها من الرعاية والبحث مالا تناله أعصر اخرى هي اجدر واحرى ... ويشتهر من هذا العصر او ذاك رجل او بلد او حدث بينما تغمر العتمة او غبار النسيان في عصر ثان رجالا لا اروع وبلادا لا اجمل واحداثاً لا اندر ولا اغرب ... هي التي تصوغ التاريخ .

والعصر العباسي الاول من العصور المحظوظة . لقد كان عصر عطاء وخصب كثير . ولقد بحث ثم بحث منذ القديم . الأنوار التي سلطت على رجاله واحداثه باستمرار تركته ماثل الوجود في الاذهان حتى كأنه ما يزال يتنفس ويعيش . ولعله ليس ، بعد عصر الرسالة والفتوح ، من عصر في التاريخ الاسلامي نال الحظوة التي نالها هذا العصر من الناس . ويبدو انه لهذا السبب بالذات ما يزال ثمة الكثير مما يمكن ان يبحث فيه او يقال عنه . العصور الوافرة الغنى هي في الوقت نفسه العصور التي يمكن أن يتكشف فيها كل يوم جديد ....

ولست إلى الزعم ان هذا الكتاب يأتي بالجديد الذي قد أريد منه او الذي قد يأمله منه الباحثون ولكنه محاولة متواضعة في هذا السبيل. وما كان له ان يعرف اسنان المطبعة لولا الرغبة في ان يلغي كتاباً سابقاً من

مثله صدر قبل خمس عشرة سنة وقد تحولت عن كثير مما جاء فيه من بحث وراي .

وإذا اخذ الكتاب اسم « دولة بني العباس » ثم لم يبحث من التاريخ العباسي كله سوى العصر الأول فلاننا نتناول فيه ، من جهة ، التاريخ السياسي فحسب. ولاننا من جهة اخرى نفرق - أو يجب ان نفرق - بوضوح بين عهد كانت الكلمة فيه والحكم والسلطان لبني العباس وعهود اخرى تلته ما كان لهم فيها ولا السلطة على حاجب القصر ... بلى ! هم الخلفاء بالبردة والقضيب والخاتم ولكنهم ليسوا اصحاب الدولة . دولة العباسيين الحقيقية إنما قتلت مع المعتصم . مصرعه كان مصرعها فلم يكن لهم بعدها من دولة ابداً . حتى حين اصابت الخلافة العباسية بعض اليقظة ما بين أواخر القرن السادس واقسام من القرن السابع بعده لم تكن اعمال أولئك الخلفاء الأخيرين اكثر من محاولة استيلاء على إمارة صغيرة حول بغداد في غفلة من المتسلطين الآخرين وعلى الطريقة التي كان فيها اي طامع في تلك العصور يقتطع إمارته اقتطاعاً ...

وقصة « دولة بني العباس » هي قصة الدولة التي كانت لمدة قرن علي الأقل هي دولة الدنيا الأولى . والدولة المسيطرة على مقدرات أكبر عدد من البشر - عدا امبراطورية الصين - والموجهة لاكبر عدد من الشعوب تحت يدها ومن حولها . دول معدودة على الاصابع فقط هي التي عرفها التاريخ دولا أولى في الأرض وبمثل هذه الهيمنة الواسعة ، فهي حتى في مسيرة التاريخ العام للبشرية مستحقة للمزيد من البحث والدراسة وتقويم الأثر .

على ان هذا الكتاب إنما عني خاصة بنواح ثلاث . السياسة الدينية والعلاقات الخارجية والأثر الاقتصادي في الاحداث . وإنما قصد إلى ذلك قصداً . فالعصر العباسي الأول ما يزال حياً فينا الى اليوم في حياته الدينية . العالم الاسلامي ما يزال الى يوم الناس هذا عالة على ذلك العصر

بالذات في مفهومه عن « الاسلام » . فقه هذا الدين بمذاهبه المشهورة الستة او السبعة الباقية إنما تبلور واجتمعت مادته وأركانه في ذلك العصر فمنذ يزال هو « الاسلام » وهو فكر الاسلام الرسمي حتى الآن . كان هو المتن وما كان بعده فانما هو شروح ورقص على الهوامش. ثم إن العلاقات الدولية تأخذ المزيد من اهتمام ونظر الباحثين الآن لانها صورة الروابط الانسانية ولأن هذه الروابط ما تنفك تزداد اثراً وشأناً بين البشر . وقد أسهم العصر العباسي الأول أوضح الاسهام في دفع تلك الروابط والعلاقات ، ووضع الخطوط الاولى في القانون الدولي . كان من اندر فترات التاريخ التي فهمت وقادت سياستها على اساس دولي فشعوب الارض كلها موضع اهتمام بفداد مرتبطة الاهتمام ببغداد . واخيرا فقد طالما اهملت العناصر المادية في تحليل الاحداث . وبالرغم من نقص الدراسات فقد حاولنا ان نعطي العامل الاقتصادي دوره . ليست الجيوش وحدها هي التي تسير على معدتها . كلمة نابليون هذه عمت الشعوب والانسان بعد ماركس . المعدة بيت الداء كلمة اضحت تنطبق أيضاً على التاريخ .

وإذا اقتصر هذا السفر ــ رغم سعته ــ على بحث الجانب السياسي من العصر العباسي الاول فانما هذا في الواقع هدفه . وإذا أطال احيانا في بحث الثورات وعدد ما يعدد من الفتن والمشاكل فيه فما ذلك عن رغبة في إبرازها ولا تقديرا لشأنها في التاريخ ــ وهي في معظم الاحيان ضئيلة الشأن والاثر ــ ولا تشنيعاً على ذلك الماضي الذي انقضى . فما التاريخ قصيدة هجاء أو مديح ، ولكنها ضرورة استكمال صورة العصر ، هي التي تملي ، والرغبة في لملمة أطراف الواقع التاريخي الغابر . على أنها دون شك ليست هي التاريخ ولا هي تاريخ هذا العصر . ولقد نكون أقرب الى الحق لو قلنا إنها شذوذه وإنها ما نشز عن حياة الناس العادية فيه وخرج على فعالياتهم الانسانية المنتجة فهدمها هنا وهناك . هي الصورة السلبية لا الواقع الايجابي ولا الفعالية الانشائية المعطاء . واذا كنا نرفضها كصورة للحياة العامة في ذلك العصر فما نوردها إذ نورد إلا ليكمل السياق ويصدق الخبر . وما نثرنا في حناياها من التفاصيل ــ وما اكثر ما تغص المصادر الاولى بالتفاصيل ــ إلا بالمقدار الذي يوضح التيارات الكبرى والملامح العامة

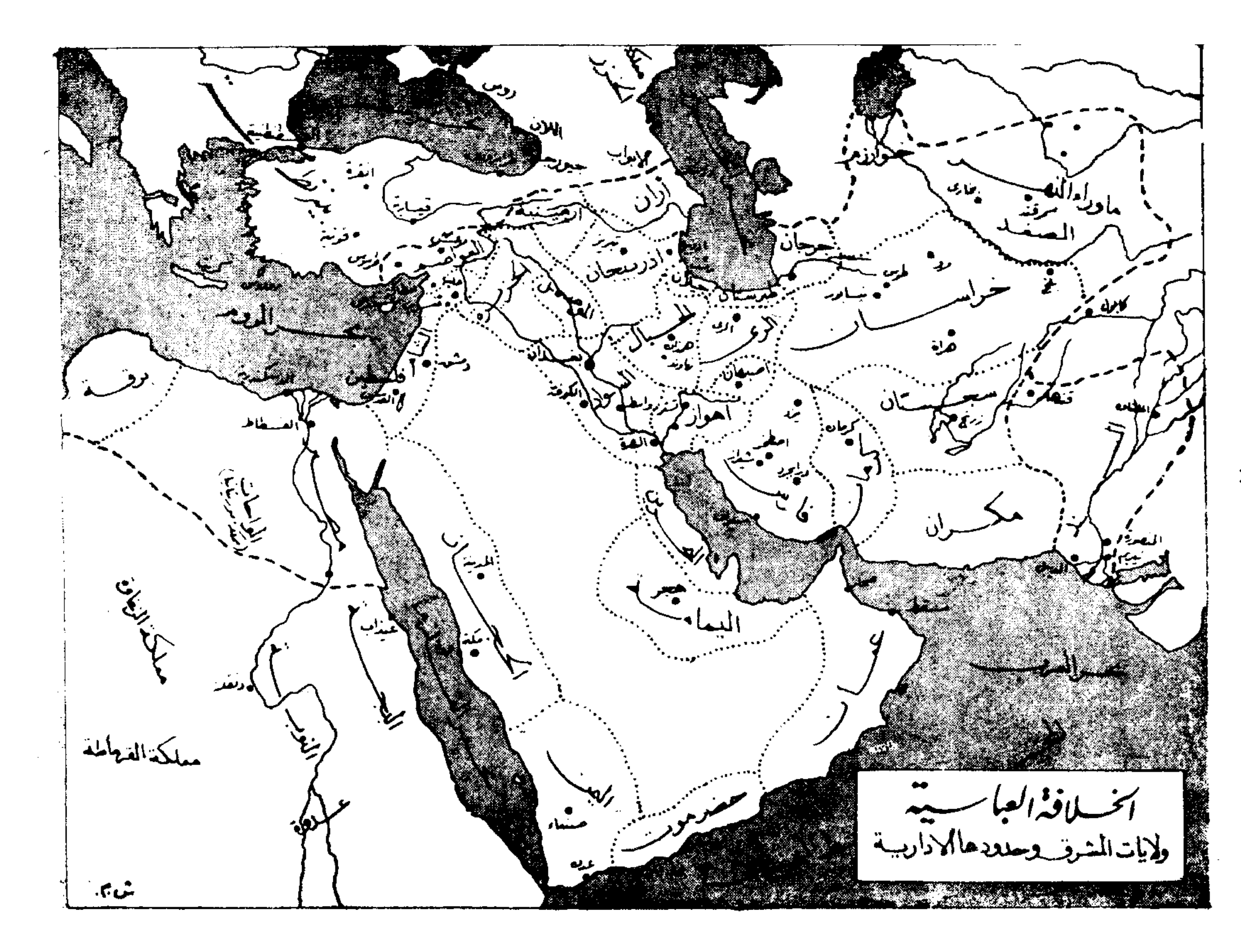
للعصر ، عـارفين أن مقـابل تلك الاحداث السـوداء ومن ورائها وبالرغم منها كانت ثمة حضارة كبرى تتكون هـي احـدى كبريات الحضارات في التاريخ ، وهي تاريخ هذه الأمة الحقيقي ... ولكن لبحث تلك الحضارة كتابها الآخر المختلف !..

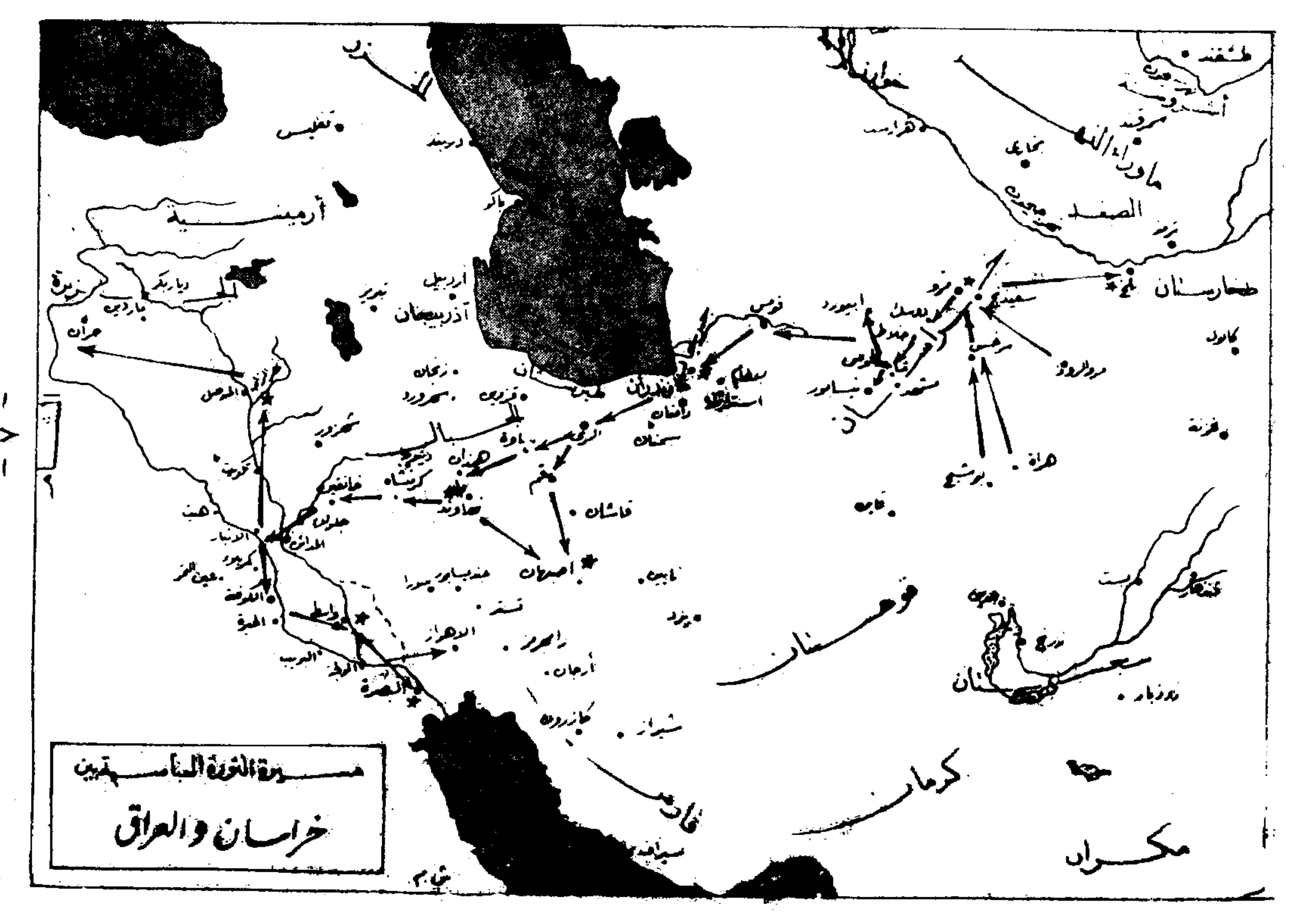
واخيرا فاذا استطاع هذا السفر ان يضيف كلمة جديدة واحـدة الى التاريخ العربي الاسلامي فهي حسبه . ولعله فعل !.

حزيران ١٩٧٣

د. شاكر مصطفى




الخلافة العباسية
ولايات المشرق وحدودها الادارية
خراسان
ماوراء النهر
الصغد
خوارزم
جرجان
اذربيجان
ارمينية
اران
الجبال
الري
اصبهان
اهواز
فارس
كرمان
سجستان
مكران
اليمامة
عمان
حضرموت
اليمن
الروم
برقة
مملكة النوبة
بحر العرب
بغداد
الكوفة
البصرة
دمشق
الفسطاط
المدينة
مكة
صنعاء
عدن
سمرقند
بخارى
هراة
الاسكندرية
ش ٢٠


خراسان والعراق
أرمينية
تفليس
دربند
باكو
آذربيجان
أردبيل
تبريز
زنجان
قزوين
ديار بكر
الجزيرة
حران
الموصل
شهرزور
حلوان
كرمانشاه
الدينور
همذان
نهاوند
قم
قاشان
أصبهان
الري
جرجان
سمنان
قومس
أبيورد
طوس
نيسابور
سرخس
مرو
هراة
بوشنج
مرو الروذ
طخارستان
بلخ
الصغد
ماوراء النهر
بخارى
سمرقند
أشروسنة
كابول
غزنة
الأنبار
عين التمر
الكوفة
الحيرة
واسط
البصرة
الأهواز
تستر
جنديسابور
رامهرمز
أرجان
كازرون
شيراز
يزد
فارس
كرمان
مكران
سجستان
زرنج
سيراف

الفصل الأوّل

العالم الاسلامي في نهاية العهد الأموي

إذا ذكر العصر العباسي بين عصور الاسلام انداحت في الخواطر صور أشتات فيها من يد الادب وألف ليلة ومن الشعر والخمر وحياة الترهل أكثر مما فيها من وقائع التاريخ • وفيها من أجواء الحضارة وخبر العلم والتجارة اكثر مما فيها من معرفة الأحداث ودخائل السياسة • وإذا كان العصر العباسي هو دون شك فترة الأوج في العطاء العربي الاسلامي فانه كان أيضا على المستوى نفسه في الخصب السياسي • وإذا كنا نعتبر العطاء الحضاري هو الأهم والأبقى في التاريخ فان ذلك العطاء إنما قام على خلفية سياسية عريضة لم تكن أقل منه خصباً وتفاعلا مع حياة الناس •

وبين عصر بني العباس وعصر الرسالة قرن وثلث القرن فقط توالى فيها على قيادة دولة الاسلام بعد الرسول الاعظم الخلفاء الراشدون فترة لم تزد كثيرا على ربع قرن ثم الأمويون قرابة القرن قبل أن تؤول الامور الى أحفاد العباس فيظلوا في قمة التاريخ الاسلامي وفي عنوانه ٥٠٠ سنة هي أطول مدة عرفتها أسرة في ذلك التاريخ وفي كثير من التواريخ الاخرى •

وإذا كان جيل العصر الراشد هو جيل الاسلام والفتوح وإقامة الدولة فان العصر الاموي عرف أجيال السيادة العربية وتكوين أوسع دولة عربية اسلامية موحدة في التاريخ ، وانتشار العرب على أقطار المشرق والمغرب فاتحين ومتوطنين، ودخول غيرهم معهم في الاسلام عقيدة ونظام حياة ، وتحول اللغة العربية الى لغة عالمية هي في الدين والسياسة والتجارة لغة الدنيا الاولى . ثم جاء بنو العباس فكان ظهورهم تعبيرا عن التطور الجديد الذي طرأ على التاريخ العربي الاسلامي وعلى أجياله وعلى تطلعات تلك الاجيال .

وقد استمر ذلك التطور يتفاعل ويعطي ثمراته ويأخذ أبعاده المميزة مدة قرن أو تزيد هي العصر العباسي الأول قبل أن تطرأ عليه عوامل وعناصر جديدة تضعه على مسار تطور آخر وترسم فيه ملامح عصر مختلف . وبالرغم من أن بني العباس ظلوا عنوان العصور التالية أربعة قرون أخرى واقترن اسمهم باسم بغداد حتى كانت هذه المدينة صورتهم الاخرى وكان سقوطها سقوطهم ، إلا إن القرن الاول من تاريخ بني العباس هو الفترة الوحيدة التي تستحق ان تحمل اسمهم كحكام فعليين،أما بعد ذلك فكانوا العنوان دون المضمون والرمز الديني السني في النفوس دون أبعاد على الارض أو أثر في السياسة والناس . دولة بني العباس الحقيقية هي إذن ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالعصر العباسي الأول . لأنه في الواقع العصر الاول والاخير .

ودراسة ذلك العصر هي في الواقع دراسة للمرحلة الثالثة التي دخلتها دولة العرب والاسلام في التاريخ. وبالرغم من أنها تحمل اسم العباسيين إلا إنها مرحلة متصلة الجذور والاعماق والتطورات بالمرحلة الاموية

السابقة ولم تكن انعطافا في ذلك التاريخ بقدر ما كانت تتمة واستمرارا له • ولهذا فقد يكون الدخول الى العصر العباسي ، أوضح وأعمق إن جاء عن طريق العهد الاموي وعن طريق التعرف الى الارض التي قام عليها ذلك العصر • وإنما وصلت الاسرة العباسية الى الحلول محل الاسرة الاموية المروانية في الخلافة لانها عرفت الاستفادة من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في ذلك العصر وأعطت مطامعها الشعارات الدينية ـ السياسية المناسبة•ولم تعمل أعنف العمل وأقساه وحدها ولكن عمل معها أيضا عدد من الظروف الملائمة • واذا كان فشل الثورات العلوية وقمعها بالشكل الدموي المرعب قد أعان الدعوة العباسية وعلمها الكثير فقد أعينت من جهة أخرى بما كان على أيدي الامويين من الثورات وماقام في مراكزهم بالشام من فتن وما فرقهم هم أنفسهم من نزاع عنيف كثير الدماء •

وهكذا إذن ليس بد في تفسير الظهور العباسي من التعرف الى العالم الاسلامي في نهاية العهد الاموي سواء من حيث اتساعه الجغرافي وتكوينه الديمغرافي أو حيث اتجاهاته الاجتماعية والاقتصادية وتياراته السياسية الدينية • ثم لا بد بعد هذا في تفسير النجاح العباسي من دراسة الحكومة الاموية في الناحيتين المالية والادارية،وفي مشاكل المال والادارة والثورات ومن دراسة بلاد الشام نفسها وما مزقها وجعل الأسرة الاموية فيها تقف في الفراغ والارض الخواء ومن دراسة تدمير الامويين لانفسهم قبل أن يدمرهم العباسيون •• ولا بد الى هذا وذاك أخيرا من أن نعرف الى أي مدى ساهمت العلاقات الخارجية مع الروم خاصة في التمهيد للنصر العباسي الذي جاء نهاية طبيعية ومنطقية لسلسلة الاحداث والظروف والاعمال التي سبقته •

١ ـ اتساع الدولة :

حين لحق صاحب الرسالة (ص) بالرفيق الاعلى لم تكن رقعة البلاد التي تدين له تجاوز شبه جزيرة العرب وينتهي النفوذ الاسلامي شمالا عند خط يمتد بين نهايتي الخليج العربي وخليج العقبة • وبعد موجتين من موجات الفتح (زمن عمر ، وزمن الوليد بن عبد الملك) وقبل أن يمضي على عهد النبوة قرن واحد كان خلفاء الرسول يحكمون أكبر امبراطورية جمعت إلى عهدهم في التاريخ (عدا امبراطورية آتيلا) •

ففي السنين الثلاثين الاولى من القرن الثاني للهجرة كانت حدود الدولة العربية الاسلامية تمتد في الشرق من حوض السند وراء جبال هند كوش وسليمان ، الى هضبة بامير والحوض الاعلى لنهر سيحون• أما أطرافها الشمالية فتنتهي في بوادي تركستان وان كانت ترافق حوض جيحون حتى بحيرة آرال وتمشي مع الشواطيء الجنوبية لبحر الخزر ، ثم الشواطيء الغربية حتى سفوح جبال القفقاس فتسايرها الى الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر الاسود •

وكانت الحدود تتأرجح بعد ذلك في خط كثير الاضطراب والتغير من تلك الزاوية حتى جبال كيليكيا وراء خليج الاسكندرونة مارة بهضاب ارمينيا العالية وبمنابع الفرات •

واذا كان العرب قد أخضعوا قبرص من بحر الروم (الابيض المتوسط) فان باقي الجزر فيه لم تكن حتى ذلك الوقت قد وقعت في قبضتهم أو نفوذهم • وكانت مياه هذا البحر تفصل فيما بين أملاكهم في افريقيا الشمالية

وبين الشواطيء الجنوبية للقارة الاوربية حتى مرسيليا فقط على ساحل فرنسا الجنوبي ، اذ كان المد العربي قد وصل منذ عهد قريب الي تلك المنطقة عابراً اليها عن طريق جبل طارق والاندلس وهضبة قشتالة وجبال البرانس •

ولم يكن العرب مسيطرين على شبه جزيرة ايبريا كلها فقد بقي منها للقوط الزاوية الشمالية الغربية وراء جبال كانتابريك (منطقة آستوريس وغاليسيا) •

أما في شمالي افريقيا فان المحيط الاطلسي والصحراء الافريقية الكبرى أوقفاهم عن التوسع • كما أن نفوذهم في وادي النيل كان ينتهي عند الشلال الأول فأهل النوبة على هدنة وحلف معهم • وهكذا كانت الامبراطورية العربية تضم ثلاث هضاب كبرى : ايران وآسيا العربية وايبريا عدا شمالي افريقيا كله •

ولم يكن في العالم اذ ذاك من امبراطورية تضاهي هذه الامبراطورية العربية الاسلامية • وأكبر الدول الباقية المتمدنة واهمها كانت دولة الروم البيزنطية التي ظلت معتصمة بالقسطنطينية وما حولها في الاناضول من جهة وفي البلقان من جهة أخرى • كما كانت ابرز الدول الاقطاعية في اوروبا الغربية ، دولة الميروفانجيين في فرنسا ، تحت وصاية شارل مارتل • أما في المناطق الممتدة بين شمالي البحر الاسود وقزوين فتقوم مملكة الخزر وأما إلى الشرق منها حتى بحيرة آرال وبلكاش فكانت تتنقل القبائل البدوية التركية التي تشكل بعض الدول • وأما في باقي العالم في الشرق الاقصى فكانت هناك امبراطورية الصين محكومة من اسرة تانغ ، وفي شمالها في منغوليا يسيطر خانات اويغوز (الغز الترك) ،

وفيما بين الهند الصينية وسيام والهند كانت تنتشر عدة ممالك وامارات صغــيرة •

وفترة العصر الأموي بعد العصر الراشد هي الفترة الوحيدة فـي التاريخ العربي الاسلامي التي كان فيها مفهوم «البلاد الاسلامية» ينطبق على كل من مفهوم الدولة العربية ومفهوم « الخلافة الأموية » • كانت المفاهيم الثلاثة واحداً في المعنى • ومنذ تسلم العباسيون الامر انفصل مفهوم البلاد الاسلامية عن المفهومـين الآخرين فصار هنـاك بلـدان اسلاميـان : العبـاسي ، والأمـوي الانـدلسي ودولتـان عربيتـان فيهمـا خـلافة عبـاسية يقابلهـا إمـارة أمويـة • ثـم مـا لبثنا بعـد ذلك أن رأينـا أنـه وإن ظـل مفهوم البـلاد الاسلامية ثابتاً فان الدول الاسلامية قد تعددت كما أن مفهومها لم يعد ينطبق على مفهـوم الخلافة إذ ظهرت ثلاث خلافات عباسية وفاطمية وأموية ووراء كل منها ، وضمن إطارها في النفوذ الديني أو السياسي أو في الولاء دول اسلامية متعـددة ••

٢ ـ السـكان :

كانت الامبراطورية الاسلامية تضم عناصر شتى من السكان جمع بينها الفتح الاسلامي ، ففي ايبيريا كان سواد السكان مـن العناصـر الايبيرية ومن القوط الغربيين (الفيزيقوط) ومن بعض اليهود والفاندال والرومـان •

وفي منطقة الاطلس من شمال افريقيـا وحتى ليبيايسكن البربـر الحاميون يختلط بهم على السواحل بعض الفاندال وبعض الرومان •

وفي مصر كان القبط سكان مصر الاصليون مع مجموعات صغيرة من الرومان وغيرهم في الاسكندرية خاصة ، وفي جنوب مصر : النوبيون وهم من العناصر الحامية ـ الزنجية .

وفي الشام كان العنصر السائد هو الآرامي مع مجموعات من اليهود في الجنوب وبعض العرب اليمانية (الغساسنة) على اطراف البادية حتى دمشق مع جزر محدودة من الروم واليونان في بعض المدن كعسقلان وانطاكية والقدس .

وفي العراق كانت الخلائط القديمة من البابليين والاشوريين والكلدان قد غابت وراء غطاء من العناصر الايرانية ، رقيق . ولكن كان ما يزال واضحاً فيها بعض العناصر الآرامية وتدعى في الشمال السريان وفي الجنوب النبط . كما كان عدد من القبائل العربية يرود اطراف العراق الغربية حتى الجزيرة العليا ومنها قبائل بكر وتغلب. أما في البطائح والأحواز من جنوب العراق فقد تجمعت أعداد كبيرة من الزنج المجلوبين عبيداً للعمل في الأرض وفلاحتها ، ومعظمهم من شرقي افريقيا ، كما كان هناك عناصر من « الزط » انتقلوا إلى البطائح من حوض السند قبل الاسلام وبعده .

وكانت عناصر من الارمن تتوزع بين بحيرة وان وبحر الخزر في ارمينية . وإلى الجنوب منهم ، في المناطق الجبلية ، بعض العناصر الكردية حتى حوض الزاب وديالي .

أما هضبة ايران فكانت عناصر الايرانيين والفرس تملؤها حتى اطراف بوادي تركستان حيث تقيم عناصر تركية صفراء ، وحتى الجبال

المطرقة على حوض نهر السند الذي تقيم فيه بعض العناصر الدرافيدية بطوائفها الطبقية الهندوسية •

وتتكلم هذه العناصر لغات مختلفة ، لها غالباً كتابات خاصة :

فالفيزيقوط كانوا قد تبنوا اللغة والكتابة اللاتينيتين (عن الرومان) •

وللبربر لغتهم الخاصة التي لا تكتب • كما ان للقبط كتابتهم (الديموطيقية) ولغتهم القبطية القديمة بجانب اللغة والكتابة اللاتينيتين (لغة الحكام الروم) واللغة والكتابة اليونانيتين (لغة الثقافة) وكانت عناصر الشام والعراق تتكلم وتكتب لهجات متعددة من اللسان الآرامي، اهمها اللغة السريانية والكتابة التابعة لها (والتي تحدرت عنها تحدراً غير مباشر الكتابة العربية) بجانب لغة وكتابة الحكام الروم والثقافة اليونانية • أما في ايران فقد كانت للفرس لغتهم الفارسية الراقية كما كان للهنود اللغة السنسكريتية التي كانت اللغة الاوردية قد بدأت بمزاحمتها • أما الاتراك فلهم لهجات غير مكتوبة •

وعدا الاختلاف في العنصر واللغة فهناك تعدد في اديان هذه المجموعة من الشعوب • فالقسم الغربي من الامبراطورية كان قبل الاسلام يدين بالمسيحية واذا كانت ايبريا الكاثوليكية وشمالي افريقيا الارثوذكسي حديثا العهد بهذه الديانة • وفيهما كثير من الوثنيين ؛ فقد كان للمسيحية في مصر والشام والعراق مذاهب راقية متعددة اهمها : المونوفيستية (اليعاقبة السريان) والمونوتيليتية (الروم الارثوذكس) والنسطورية •

أما بلاد ايران ففيها ديانات ثلاث يتفرع بعضها عن بعض : الزارادشية : وهي الأصل ودين الاكثرية • ثم المانوية : التي كانت

يقظة للزارادشتية في القرن الرابع والمزدكية المشاعية التي ظهرت في القرن السادس الميلادي • عدا جماعات من اليهود ومن النصارى النساطرة •

وعلى هذه المناطق والشعوب ذات اللغات والاديان انساحت منذ قرن واحد ومن قلب الجزيرة العربية عناصر عربية فاتحة تتكلم اللغة العربية وتدين بالاسلام •

وبالرغم من ان الحكم تم لها في هذه الامبراطورية المتعددة الالوان فانها لم تستطع ان تصبغ جميع تلك الرقاع بصبغتها الخاصة الا ببطء وبنجاح متفاوت : نجحت في تعميم الدين الاسلامي اكثر من أي شيء آخر ومع هذا فان اسلام ايران والعراق والشام ومصر استمر يجري تدريجيا حتى القرن الثالث وبين الفتح السياسي والفتح الديني حقبة طويلة الأمد• ولم يستغل المسلمون نفوذهم السياسي لفرض دينهم • بدليل انا لا نسمع عقب الفتوح أي خبر عن إجبار الناس على اعتناق الاسلام ، بينما نسمع بالعكس اخباراً متعددة عن اسلام جموع كثيرة من العراق ومصر وفارس ومن البربر خلال العهد الاموي وفي أواخره (حتى لقد هددوا مالية الدولة) ويتبين من هذا ان سواد الناس بقوا حتى اواخر القرن الاول غير مسلمين ، ولا سيما في الشمال والغرب من ايران وفي حوض السند وبين سكان ايبريا وجبال الاطلس وفي جبال وريف الشام ومزارع مصر ، كل ظل على دينه الاول لا يغيره •

ونجحت اللغة العربية اقل من نجاح الدين في الانتشار لانها تحتاج الى تعلم ومران • والمحاولة الكبرى لتعميمها انما تمت على يد عبد الملك في الشام واخيه عبد العزيز في مصر والحجاج واليه في العراق بما عملوا عليه من توجيه الناس اليها بتعريب دواوين الدولة • كما أعانها على

الانتشار ايضا أنها لغة الدين وان لها كتابة (كوفية) وأخرى لينة اشتقها العرب قبيل الاسلام عن الحيرية والنبطية وانتشرت بسرعة بينهم وبين الشعوب المفتوحة • ومع هذا فلا تتصور ان سكان الشام كانوا يفهمون كل شيء على حكامهم الامويين وان لغة التداول في مصر وفارس وبلاد الاطلس كانت غير القبطية والفارسية والبربرية • والخطوة الكبرى التي خطتها اللغة العربية لتحل محل اللغات المحلية كانت في العصر العباسي الاول حين اضحت لغة الثقافة والفكر في الحضارة الاسلامية ، بجانب كونها لغة الدين ولغة السياسة •

اما من الناحية العنصرية فان العرب الذين خرجوا من الجزيرة قد توزعوا مجموعات قبلية صغيرة أو كبيرة انتشرت في خراسان وفارس والعراق وارمينيا والشام ودلتا مصر وفي شمال افريقيا ، كما انتقلت الى الاندلس • وكونت في مختلف هذه المناطق طبقة واضحة من المستوطنين • وإذا كان لها في العراق ومصر مدنها كالكوفة والبصرة وواسط والفسطاط • فانها دخلت في صلب المدن الشامية كدمشق وحلب والقدس وقنسرين ، وفي المدن المغربية والاندلسية كما دخلت في المدن الايرانية والخراسانية كمرو وهمذان ونيسابور • وانتسب بعض العرب أحيانا الى هذه المدن • ولم تكن قوة العرب في هذه المناطق جميعا بأعدادهم ـ وهي اعداد هزيلة في بعض المناطق ـ ولكن باعتبارهم أصحاب الحكم والدين • وإذا انتصرت جموعهم في معركة التعريب فانما كان ذلك من الوجهة الثقافية (اللغوية والدينية) فقط ، اما عرقيا فقد اندمجت مع غيرها وذابت جزئيا أو كلياً في بعض الاحيان • وإذا استثنينا مركز التجمع العربي والتوطن في العراق والشام خاصة فقد قامت أهم مراكز التوطن العربية على جناحي الامبراطورية في أقصى طرفيها : في المشرق (خراسان) وفي المغرب (الاندلس) •

٣ ــ الاتجاهات الاجتماعية الاقتصادية :

من الصعب دراسة الاتجاهات الاجتماعية ــ الاقتصادية منفصلةعن الاتجاهات الدينية والسياسية في المجتمع الاسلامي ــ الاموي ، فقد كانت كلها متشابكة مرتبطة ، فلكل صيحة سياسية وجهد ديني متأثر بشكل أو بآخر بجذر اقتصادي ، ولكل فرقة دينية رأي سياسي مرتبط بمصالح مادية ، كما كان لكل حزب او نحلة أو فكرة مجموعة معينة من الناس تؤيدها وبلد تبنت فيه وأسباب اقتصادية دافعة. ولعل مشكلة (الحكم) كانت نقطة التقاء وافتراق تلك الاتجاهات المختلفة جميعاً .

وإذا نحن نظرنا في تكوين المجتمع الذي ساسه الخلفاء الامويون ميزنا فيه مبدئيا جماعتين : الجماعة المسلمة ، والجماعة غير المسلمة (أهل الذمة) .

لكن تمايزاً آخر كان يظهر ضمن الجماعتين ويقسمهما بدورهما الى أكثر من جماعة مما يمكن معه أن نرى في رعايا الدولة الاسلامية عدة طبقات بعضها يتصل تميزه بالدين وبعضها الآخر متصل التميز بالعرق أو بالمال أيضا . وإن لم تكن هذه الطبقات على أي حال طبقات مغلقة . فهناك :

أولا ــ العرب المسلمون ومنهم آل البيت ، والأسرة صاحبة الخلافة والصحابة ، والقواد والولاة وكبار أصحاب الاقطاعات ورجال الدولة وجانب واضح من الرعية هي قبائل العرب .

ثانيا ــ باقي المسلمين من ابناء الشعوب المغلوبة من قوط وبربر وقبط وروم وفرس وترك وهنود • وكان يطلق على هؤلاء أحيانا ولا سيما في منطقة العراق والشام اسم الموالي • كما كان يدخل تحت هذا الاسم أيضا العبيد المعتقون بما يستون به من رابطة الولاء لأسيادهم السابقين •

ثالثا ــ أهل الذمة وهم النصارى واليهود • كما اعتبر من الذمة أيضا الايرانيون الذين بقوا على دياناتهم ومذاهبهم من زارادشتية ومزدكية ومانوية • وهؤلاء الاخيرون كانوا ينبذون أحيانا ببعض الاسماء التي تحمل معنى الاحتقار • فاذا كان يطلق على نصارى الشام والعراق اسم النبط ، ونصارى مصر اسم القبط ، فان الفرس كانوا عند المنافرة والخصومة يدعون بالاعاجم والحمراء والعلوج •

ويختلف الوضع الاجتماعي الاقتصادي للجماعة العربية عن جماعة الموالى وأهل الذمة اختلافاً متفاوت الدرجة والوظيفة :

فأما **العرب** فقد كانت الفتوح قد نثرتهم ما بين مشارق الدولة الاسلامية الى مغاربها • وقد فرغت الجزيرة العربية أو كادت تفرغ خلال القرن الأول الهجري من كل تلك الزيادات السكانية التي كانت تشكل القوة الديمغرافية الضاغطة في مطالع أيام الفتح • وانتقلت كثير من القبائل العربية بكتلتها العامة الى الأمصار المفتوحة • في عملية انتشار بشرى عربي واسع وبشكل مجموعات مقاتلة ، كانت محطاتها الأولى في جنوب العراق وفي جنوب الشام • وقد اتجهت هذه الجماعات العربية منذ أواخر القرن الأول الهجري الى الاستقرار النهائي والى الحياة الحضرية في المراكز العسكرية التي نزلتها كدور هجرة (خراسان • الجزيرة وأرمينية • افريقية • الاندلس) • ومع أنها احتفظت ــ وهذا طبيعي ــ

بالكثير من القيم والمفاهيم والروابط القبلية الا إنها أصبحت ، في الواقع، جزءاً من مجتمعات مستقرة • ومع أنها لم تتحول الى الحرف والمهن إلا . إنها ــ مع احتفاظها بالصفــة العسكرية ــ شكلت طبقة مــن الملاكين والاقطاعيين الزراعيين والتجار • وشاركت في مختلف الفعاليات المدنية والفكرية ، في المناطق التي نزلتها • وإذا انصرفت القبائل الحديثة الهجرة عن الزراعة الى العمل العسكري فإن القبائل السابقة لها واشرافها خاصة قد تنبهوا الى قيمة الأرض وإلى إحياء الموات منها• وقد اعتبر الحكم الاسلامي كافة الأراضي في البلاد المفتوحة ملكاً لبيت المال لا علاقة لهــا بالغنــائم والتخميس وتركت في أيدي من بقي عليها من أصحابها يؤدون عنها ضريبة الخراج • أما ما أعطى للعرب المسلمــين منها بأمر الخلفاء في الفتوح فاعتبر أرضا عشرية •

وقد دمرت الفتوح العربية الاقطاعيات الساسانية والبيزنطية القديمة التي كانت ترتبط بالنبلاء وبالأسر الحاكمة وبالمعابد وردت تلك الملكيات باسم (الصوافي) إلى بيت المال أيضاً • ويمنح الخلفــة أو يؤجر تلك الأرضين أو يضمنها لمن يشاء مقابل خراج معين يدفع للدولة • وكان معظم المستأجرين أو الضامنين من العرب• وتحرر أقنان تلك الأراضي الاقطاعية بهذا الشكل فأصبحوا مزارعين لدى الاقطاعي العربي الجديد يدفعون له من الانتاج حصته• ولم يكن ثمة قانون ــ كالقوانين الساسانية والبيزنطية ــ يجبرهم على الارتباط بالأرض لا يفارقونها بل كان ثمة بالعكس مهرب واسع لهم منها عن طريق اعتناق الاسلام •

ويظهر أن السلطات الاسلامية الحاكمة لم تتوسع في تمليك الأراضي الخراجية وفضلت دوماً تأجيرها أو تضمينها ضماناً ، مما أغضب الجماعات العربية المتنفذة التي طمعت دوماً في توسيع اقطاعهــا وفي تملك ذالك

الاقطاع • ولما كانت الثورات من جهة وتحرر اقنان الأرض المزارعين وإسلامهم من جهة أخرى قد سمحت بهجرة زراع الريف بأعداد كبيرة الى المدن وبتفريغ الأراضي من المزارعين فقد اعتمد الكثير من المالكين على العبيد في العمل الزراعي • وقد استخدم الزنج خاصة في جنوب العراق • كما استغل هؤلاء الملاكون مرة ــ في العراق أيضاً ــ ثورة ابن الاشعث لاحراق الديوان وسجلات الأرض فيه وادعوا بملكية الأرض التي تحت ايديهم من الصوافي والأرض الخراجية[1] • وأهمية مثل هذه الحركة تظهر إذا عرفنا أن الأرض المملوكة للعربي المسلم تدفع العشر ، عشر الانتاج بينما تدفع الأرض الخراجية ضريبة لا تقل عن ٢٥٪ وتصل أحياناً الى ٤٠ ــ ٥٠ بالمائة • ولنلاحظ أيضاً أنه إذا كان دخول الشعوب في الاسلام قد أنقص موارد الخزينة من الجزية فإن تحويل الأرض من الخراج والايجار والضمان الى الملك العشري ــ وهي العملية التي كان يقوم بها المتنفذون العرب بمختلف الوسائل ــ كان ينقص بدوره تلك الموارد من جهة أخرى • وقد عانت السلطات الاموية عواقب ذلك وكان من اسباب انهيارها •

وصورة التوطن العربي في العراق تماثل صورته في الشام وفي خراسان ومصر وافريقية • ولكنا نلاحظ أن التوطن الذي جرى على الجبهات الاسلامية الحربية البعيدة عن المركز كخراسان وافريقيا والاندلس كان اكثر قلقاً ونقمة على السلطة الحاكمة واكثر حرية في العمل من العرب الذين توطنوا في الشام ومصر وحتى في العراق • وإذا كانت خراسان « ••• بها الناس وجمجمة العرب وفرسانها » كما يقول صاحب أخبار

---

(١) الماوردي ــ الاحكام السلطانية ص ١٨٣ .

الدولة العباسية[1] فقد كانت قبائل عربية كاملة بالمقابل تضطرب في افريقية والاندلس . وفي جميع الأحوال كانت الطبقة القديمة من المتوطنين العرب قد فضلت التقاعس عن حياة الحرب والتحول الى حياة الاستقرار والاقطاع الزراعي دون أن تفرط بما هو مقرر لها من « عطاء المقاتلين » . وكان المتوطنون اللاحقون يأتون فيزاحمون السابقين على هذا العطاء حتى لقد اضطر الخليفة هشام بن عبد الملك أن يأمر والي خراسان بمنع العطاء عن من يرفض الاشتراك في الحملات العسكرية فيما وراء النهر ويعطيه المقاتلة الجدد مما أثار العرب القدماء وأوجد ضمن الكتلة العربية أحياناً مجموعتين اجتماعيتين ــ عسكريتين متنافستين: مجموعة المستقرين السابقين ومجموعة المقاتلة الجدد .

بل إننا نلاحظ اكثر من هذا أن نوعاً من التقارب والتعاون أساسه التقاء المصالح ، كان يجمع ، أحياناً كثيرة، مابين الطبقات العليا من العرب والطبقات العليا من الموالي بل ومن الذميين أيضاً من سكان البلاد المفتوحة . وقد وجدت لذلك الفلسفة الاجتماعية الملائمة وقالوا إن الشريف من كل قوم نسيب للشريف من كل قوم . وهكذا ظل الدهاقين في ايران والرؤساء والوجوه في الشام ومصر تحت الحكم الأموي هم وجوه المجتمع ولو أن معظمهم لم يدخل الاسلام . وكانوا جميعاً على وفاق مع ما نستطيع أن نسميه بالارستقراطية العربية وقد تعاونوا معها وعاونوها وخاصة في تأمين الجباية وتنظيم الدواوين والسيطرة على التجارات والحرف .

وتأتي بعد العرب الطبقة الاخرى : طبقة **الموالي** .

---

(1) اخبار الدولة العباسية لمؤلف مجهول (تحقيق ونشر الدوري ـ المطلبي ، بيروت ١٩٧١) ص ٢٨٦ .

وقد كانت في الاصل من الذميين (الزارادشتيين في المناطق الايرانية المسيحيين في العراق والمناطق المحيطة بالبحر المتوسط) وقد شهد القرن الأول تناقص اهل الذمة لحساب طبقةالموالى الجديدة التي توسعت اعدادها تدريجياً ولكن بشكل مستمر واسع وحاسم بدخول سكان المدن خاصة في الاسلام وتبنيهم أحياناً اللغة العربية مع لغاتهم السابقة •

ومن الضروري أن نقرر مبدئياً أن جماهير الموالى بصورة عامة بل وأهل الذمة أيضاً كانوا يعيشون الحياة اليومية العادية مع العرب بكل مكان دون احتقار من جانب ولا عقد من الحقد من الجانب الآخر •وكان الموالي هم بشكل عام أصحاب الحرف والفعاليات الاقتصادية والوظائف والعلم في المدن كما كانوا هم الزراع في الريف • إلا إن ثمة بعض الأخبار والحالات التي كانت تكشف نوعاً من « التعالي » مارسه لسبب أو لآخر بعض العرب ضد الموالي وخاصة من الطبقات الوسطى والدنيا • وكانت هذه الحالات تسمح أحياناً كثيرة بإثارة وبتراكم الاحقاد العنصرية والطبقية والطائفية لدى الموالي كما تمهد لقيام الشعوبية ضد العرب • وكان يزيد هذه الاحقاد مرارة تغلغل مبادىء الاسلام في النفوس وتناقض أعمال بعض العرب مع مبادئه القائمة على المساواة والعدل •

وأسباب التعالي لدى العرب كثيرة : فالعروبة شرف لا يطوله الموالي الذين لم يظهر فيهم الاسلام ولا قاموا بالفتوح وليس لهم الحكم •ولهذا كان بعض العرب يشعرون بأفضليتهم كعنصر مميز رغم التناقض بين المبادىء التي بها يؤمنون ويبشرون والمفاهيم العنصرية والقبلية التي يمارسون •

ولم يتعال العرب على الموالي لجنسياتهم فقط ، ولكن لمهنتهم

أيضاً . فحرفة العرب : السياسة والحرب بينما يشتغل الموالي بالمهن اليدوية (على الاغلب) كالزراعة ، والصناعة ، واذا استخدم الموالي في الاعمال الكتابية والجباية فانهم قلما تولوا الوظائف النبيلة كالولاية والقضاء أو قبلوا في الجيش إلا مشاة وأما الفرسان فمن العرب .

وكان التعالي العربي يظهر خاصة ضد الموالي من الارقاء السابقين . وقد أبى العرب مقاسمة الموالي وهؤلاء منهم على الأخص ثمرات البلاد التي يفتحونها معهم فلم يجعلوا لهم « العطاء » أي الرزق الدائم الثابت الذي يعطاه المقاتلة العرب ومنحوهم بعض الغنائم عند الجهاد فأهل الكوفة سخطوا على المختار لهذا كله وقالوا له (عمدت الى موالينا وهم فيء افاءه الله علينا .... فأعتقنا رقابهم نبتغي الأجر ، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا ؟) ويعلق (الطبري) على هذا بانه « لم يكن فيما احدث المختار عليهم شيء هو أعظم من أن جعل للموالي نصيباً في الفيء» [1] .

وشمل الاستعلاء احياناً ولد الاماء فكانوا يسمونه « الهجين لانه معيب » وكان بنو أمية لا يستخلفون بني الاماء[2] ويقولون : «لاتصلح لهم العرب» .

وقد رضي الموالي مكانهم هذا من العرب اول الامر ، بفعل العاطفة

---

(١) الطبري ج ١ ص ٤٣ – ٤٤ ويراجع في هذا الموضوع كتاب (الموالي في العصر الاموي) لمحمد الطيب النجار وكلمة (مولى في دائرة المعارف الاسلامية) .

(٢) مثال ذلك نزع بيعة الحكم بن الوليد بن يزيد ، وتردد سليمان بن عبد الملك في عقد الولاية لابنه داوود لانه ابن أمة ... الخ (انظر مثلا ابن عساكر تاريخ دمشق (مخطوطة الظاهرية) ج ٥ ورقة ١١٩ وجه ، و ج ٦ ورقة ١٠ وجه) .

الدينية والتغلب العربي السياسي ولان معظمهم لم يكن احسن حالاتحت الحكم الساساني والبيزنطي ولعل أقدم محاولة ــ على رأي غولد زيهر ــ في اوساط الموالي لرفض النظرية القائلة بافضلية العرب هي تلك التي جرت زمن معاوية (وهي محاولة في اسلوب معتدل وتقوم على اساس ديني) اذ ثار موالي الخوارج برئاسة أبي علي الكوفي مولى بني حارث وقال الثوار : « انا سمعنا قرآناً عجباً يهدي للرشد فآمنا به » • وان الله بعث نبينا للناس كافة ولم يزوه عن أحد •

على ان الموالي خطوا خلال العهد الاموي خطوات واسعة في طريق التساوي مع العرب • وأهم ما اعتمدوا عليه ان يبرزوا في الناحية العملية والحياة العامة فقد كانت بأيديهم معظم وظائف الدولة الاساسية ومعظم الفعاليات الاقتصادية وان يبرزوا في الناحية العلمية الاسلامية خاصة لتعديل نقصهم الاجتماعي ، حتى كان معظم الفقهاء منهم • يتبين ذلك من الحديث الذي يرويه الدميري (حياة الحيوان الكبرى) (وابن عبد ربه في العقد الفريد يروي حديثاً مماثلاً)[١] وقد جرى بين الخليفة عبد الملك والفقيه الزهري اذ بيّن الزهري للخليفة ان عالم مكة ؛ وعلماء اليمن ومصر والشام والجزيرة وخراسان والبصرة عدا الكوفة كلهم من الموالي• على ان ذلك لم يعطهم عند الامويين الحقوق السياسية • ولهذا السبب كانت جماهير الموالي الواعية لمبادىء التسوية في الاسلام والناقمة من الاستغلال الضرائبي ردءاً وعدة جاهزة لكل حركة من الحركات السياسية والدينية ولكل فتنة • وقد دخلت لذلك في مختلف الاحزاب العربية • وإن لم يتوفر لدى هذه الجماهير أي طموح واضح للقيام بأي ثورة ذاتية أو تنظيمها بغية الاستقلال أو تغيير الاوضاع السياسية •

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٤ •

وأما أهل الذمة أخيراً فكانوا ــ فيما عدا أراضي الجزيرة العربية ــ هم الكثرة العددية الغالبة وبأيديهم الارض والزراعة كما أن بأيديهم المهن والحرف في المدن وطبيعي أنهم كانوا يعتبرون رعايا ذوي وضع خاص، وكانت الجزية هي التعبير عن اختلاف طبقتهم الاجتماعية ضمن الدولة الاسلامية . كما كان ابتعادهم عن العمل السياسي الحزبي ــ الـذي كان قاصراً على المسلمين العرب خاصة ثم الموالي ــ هو التعبير الآخر عن ذلك الاختلاف. إلا إنهم كانوا يتابعون حياتهم السابقة للاسلام في حرية كاملة في إطار العهود والمواثيق التي منحت لكثير من جماعاتهم عند الفتح . كما أنهم احتفظوا بتنظيماتهم الدينية فلهم الرؤساء الروحيون ولهم المعابد ولهم ما اعتادوا من طقوس وتقاليد ومواكب وأعياد ، ولهم مـا كانوا ينصرفون اليه من فاعليات اقتصادية متعددة ومن «وجاهات» اجتماعية متوارثة من أمثلتها أن برمك جد البرامكة قدم على هشام بن عبدالملك في الشام في موكب من ٤٠٠ من الشاكرية (الحرس على البغال) وهو لا يزال على الزارادشتية . وللذميين الى هذا وذاك نشاطاتهم الفكريـة الخاصة ولعل من أمثلتها الواضحة أن فيلسوف الايقونية وأبرز من دافع عنها ضد الأباطرة البزنطيين اللا أيقونيين وهو يوحنا الدمشـقي (فم الذهب) لم يكن لا في القسطنطنية ولا في بلاد الروم ولكن كان يعيش في دمشق وفلسطين في ظل الامويين ويتمتع بصداقة الخلفاء .

وإذا كان اختلاف الطبقة الاجتماعية للذمة لم يمنعهم من حريـة النشاط الاقتصادي والفكري الكاملة فانه لم يمنعهم من التعاون مـع الطبقات الحاكمة أوسع التعاون أحيانا وأبرز ما كان يظهر هذا التعاون في طبقاتهم العليا من رؤساء دينيين أو متمولين وملاكين كبار أو أسـر أرستقراطية .

وكانت علاقاتهم مع الخلفاء والامراء الامويين علاقات من الصداقة الواشجة ومن التعاون في الادارة والحكم ولعلنا نذكر ها هنا دخول الأخطل بصليبه وخماره على الخليفة ونقائضه مع جرير والفرزدق ونذكر بناء بعض الامراء الكنائس لامهاتهم النصرانيات (مثل خالد القسري) •

٤ ـ التيارات السياسية ـ الدينية :

كان ارتباط الفكر السياسي بالدين ، في تلك الفترة ، أمراً طبيعياً • لذلك كان لكل تيار سياسي منبعه الديني وسنده من القرآن والسنة • وإذا كان الامويون قد حكموا بالقوة والسياسة والعصبية فإنهم ـ وهم في الحكم ـ لم يكونوا في غنى عن دعم خلافتهم بالسند الديني الذي كان يتمثل خاصة في مبدأين :

١ ـ أن الخلافة على أساس « السنة » وبرأي « الجماعة » الاسلامية قد صارت إليهم فهم على هذا وحدهم الحكام الشرعيون ببيعة من الاكثرية المسلمة •

٢ ـ أن مايتم على الارض فإنما هو بإرادة الله • لأن الانسان مسير لا مخير • وفلسفة الجبرية كانت تقوم في أساس الفكر الأموي ولو أراد الله غير ما هو كائن لفعل •

وقد أورد حمزة الأصفهاني في معرض الدفاع عن العلويين نصاً هاماً يكشف أسس الرأي السياسي الأموي ومعطياته يقول: «•••وصوروهم (أي صوروا العلويين المناهضين للدولة) عند أعتام عرب الشام بصورة الخوارج على أئمة العدل • وقرروا عندهم أنهم شقوا العصا وأخرجوا أيديهم من الجماعة وحاولوا انتزاع الامامة من إمام وولي عهد إمام، طامعين في أن يغصبوه على حق موروث جعله من تقدمه أولى به منهم ••• حتى

مال عليهم (على العلويين) أولئك الاعتام باللعن والافتراء وقالوا لهم : « تباً لكم من معشر مفارقين للسنة والجماعة ، عاصين لخليفة الله • ثم غبروا قريباً من مائة سنة (مدة الحكم الأموي) يحذرون الناس ناحيتهم، يبغضونهم الى النفوس وينهون عن ملابستهم والاختلاط بهم •••»[1] ولا شك ان هذا الرأي هو الذي كان سائداً في العهد الأموي لا في الشام فحسب ولكن في مختلف الأقطار وخاصة في مصر وافريقيا حيث كان خلفاء بني أمية هم « الأئمة » وأصحاب « السنة والجماعة » و « أولو الأمر » الذين تجب لهم « الطاعة» ويبدو أن الدعاية الأموية وصلت لدرجة الادعاء بأن ثمة « سفيانياً » لا بد آت أو ان « المهدي » المنتظر هو من بني عبد شمس • أو انه عمر بن عبد العزيز •••[2] وذلك في محاولة لسلب المعارضين واحداً من أهم أسلحتهم •

أما التيارات المعارضة فكانت تمثل مجموعات قليلة أو كثيرة من الناس موزعة في بؤر خاصة من المجتمع الاسلامي بالمئات أحياناً وبالألوف أخرى لكنها لا تمثل « الجماعة » • وإن كان لكل منها منطلقه السياسي الديني أيضاً وكان لها من الأنصار من هو على استعداد احياناً كثيرة للموت دونها •

وقد كانت هذه الحركات والتيارات عديدة ويلاحظ انها جميعاً كانت تتشكل في مطلع الأمر من الطبقة الحاكمة (العرب) خلافاً فيما بينهم حول شخص الحاكم ونظام الحكم . وذلك بنتيجة الطريقة التي وصل بها

---

(١) حمزة الاصبهاني ، تاريخ سنى ملوك الارض ، طبعة مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦١) ص ١٦٠ ـ ١٦١ •

(٢) روى ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥ ـ ١ ص ٢٤٥) كما روى الطبري (ج ٦ ص ٥٦٦) شيئا من ذلك .

الامويون الى خلافة المسلمين ، ثم يدخلها الموالي ايماناً بها أو لمآرب أخرى من ورائها • وكان زعماء هذه الحركات يستغلون ــ مع الايمان ــ أوضاع الموالي الاجتماعية وما كان من سوء ادارة الامويين فيهم أحياناً ومن قسوة النظم المالية الجائرة ، لضمهم الى صفوفهم • وقادة «الشعوبية» الاوائل كانوا عامة من العرب الا بعضاً منهم •

والتيارات السياسية ــ الدينية الكبرى التي لعبت بالعهد الاموي وكانت السبب الأهم في اضطراباته هي :

آ ــ الشـــيعة :

أصـــل معنـــى اللفظ أنصـــار ، وقـــد اطلقت الكلمـــة أول الأمر على اتباع علي ولكن بعد وفاته • يقول الاشعري : « قيل لهـــم الشيعة لانهم شايعوا علياً رضوان الله عليه » وقدموه على سائر أصحاب رسول الله « لمزاياه الشخصية أو لاعتقادهم بحقه الوراثي في خلافـــة المسلمين » ثم أضحت الشيعة « اسماً للحزب الذي يشايع ابناء علي ويقول بالارث في الحكم ، وبحق آل البيت في هذا الارث » •

وقد سقي هذا الرأي بالدماء في موقعة كربلاء • فتحول من رأي سياسي نظري الى عقيدة إيمانية وحـــدت ما بين الشيعة على اختلاف فرقهـــا وسرعـــان مـــا دخلت الى هذه الافكار البسيطة أفكار أخرى لا سيما بعد أن ربطت الحسين بالفرس رابطة المصاهرة • فظهرت في التشيع فرق عديدة يمكن أن نقسمها الى قسمين :

أ ــ فرق المعتدلين : ويقولون ــ حسب ماذكر الشهرستاني ــ ،

والكليني في أصول الكافي ـ ان الامامة بالنص لا بالاختيار وانها في آل علي • ومن هؤلاء بصورة خاصة :

الزيديون : (انصار زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب) وقد برزت فرقتهم في أواخر العهد الاموي • وهم الذين نجد بقاياهم اليوم في اليمن •

ب ـ فرق الغلاة : تعددت فرق الغلاة والمتطرفين من الشيعة في العصر الأموي وكانت أهم منابتهم في البصرة والكوفة• فمنهم أصحاب الجعد بن درهم وأصحاب بيان بن سمعان، وأصحاب المغيرة بن سعيد العجلي• ومنهم الخناقون والرافضة والجناحية والبشيرية والخطابية والعميرية والبزيغية والمفضلية والمعمرية • وقد تعددت الفرق غلواً أو تطرفاً رغم تبرؤ آل البيت من الغلاة • ونفقت بعض الفرق على الناس لاستتارها بالزهد أو ببعض النظريات الفكرية أو بتفسير بعض آي القرآن على نحو خاص • وبنتيجة كل اولئك جاء الغلاة بآراء غريبة في الاسلام •

ويرى بعض المستشرقين ان « هذه الافكار التي نشأت في مبدأ أمرها في البيئات غير العربية انما كانت بقية من عبادة الملوك . التي كانت معروفة لدى الفرس ، بعد أن خالطها بعض العقائد الشرقية » ولعل الاصح ان نقول إن حركة الغلو كانت استمراراً لحركات دينية ظهرت في ايران وانتشرت في العراق قبل الاسلام . كما ان بعضها امتداد للآراء الدينية القديمة من مجوسية وبوذية ومزدكية ومانوية عند أناس أسلموا لاغراض مختلفة فكسوا آراءهم الحقيقية الثوب الاسلامي • وهي تمثل سخط الطبقات الدنيا المثقلة اجتماعياً ومالياً من جهة . ورد فعل الديانات التي غمرها الاسلام من جهة أخرى •

وأول فرق الغلاة : (السبئية) اتباع عبد الله بن سبأ ولهذا يطلق

اسم السبئية على كل الغلاة ، وهم ـ في رأي سيف بن عمر ـ أصل البلاء في الاسلام ، ومنهم تشعبت كما يذكر الشهرستاني أصناف الغلاة.

واول ما قامت عقيدة السبئية على مذهب الوصاية الذي اقتبسه ابن سبأ عن اليهودية ، دينه القديم ، بمعنى ان علياً وصي محمد (ص) وانه خاتم الانبياء بعده ، ثم تطورت الفكرة في السبئية الى القول بفكرة تجسد الالوهية ، فهم يزعمون ان جزءاً الهياً حل في علي وهـذا الجزء الالهي يتناسخ في الأئمة من بعده ، وقد لايظهر ذلك الجزء في العالم دوماً بل يجوز ان يعود إلى مهبطه السماوي (الغيبة) حتى يتجسد في شخص آخر (الرجعة) ويرى الشهرستاني ان هذه الآراء مأخوذة من المزدكية ، والبرهمية الهندية ، والفلاسفة والصابئة[١] .

وقد كان موطن السبئية : الكوفة وما حولها ، وأكثرهم من الموالي وقليلهم من العرب ، وأول ما ظهرت أهميتهم السياسية في حركة المختار بن ابي عبيد الثقفي (٦٤ ـ ٦٧ هـ) اذ استمال الموالي والسبئية وعرف بعض مبادئها ، ولم تمت الحركة بانهيار ثورته بل بقيت في الطبقات الدنيا وسنرى لها انتفاضة أخرى في مطلع العهد العباسي .

وبنتيجة حركة المختار ظهرت الكيسانية (انصار كيسان وهو اسم المختار)[٢] ومبادئها الاساسية متصلة بالسبئية لكنها تغلو فتنسب الى الأئمة الاحاطة بالعلوم الالهية ، وتذهب الى ان محمداً بن الحنيفة قد

(١) يرى السبئية ان ابا ملجم لم يقتل علياً ولكنه قتل الشيطان . وان علياً يزور الارض على السحاب والرعد صوته .

(٢) يذكر الاشعري القمي في المقالات والفرق (ص ٢١) أن كيسان مولى لعلي بن أبي طالب وأنه غير المختار بن أبي عبيد الثقفي .

احاط بالعلوم كلها لان اخويه الحسن والحسين عهدا اليه بالاسرار كلها وتعلم التأويل والباطن • وانتهى اعتقادهم الى وجوب انفراد الامام بتأويل الشرع (ويجمعهم القول بان الدين طاعة رجل) ـ كما ذكر الشهرستاني ـ حتى قال بعضهم ان طاعة الامام تبطل ضرورة التمسك بقواعد الاسلام • وتتفق الكيسانية مع السبئية في القول بالرجعة ولكن الفرق هو اعتبار الامام جزءاً من الاله او رمزا للعلم الالهي •

ومن هذه الكيسانية تفرعت الهاشمية : القائلون بانتقال الامامة من محمد بن الحنيفة الى ابنه (ابي هاشم) عبد الله اذ عهد محمد الى ابنه باسرار العلم • ويذكر الشهرستاني ان الهاشمية قالوا : « ان لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلا • والمنتشر في الآفاق من الحكم والاسرار مجتمع في الشخص الانساني وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الامام حقاً » • وقد ساعد تطرف الهاشمية هذا على تسرب كثير من الافكار الدينية القديمة اليهم • كما أدخل بينهم كثيراً ممن اسلم لطمع او لخوف دون فهم للدين • اذ وجدوا في التأويل توفيقاً بين عقائدهم الاولى وهذه العقيدة الجديدة •

واذا تورع الأئمة عن قبول ادعاءات المغالين وبرئوا منها او حاربوها فان ابا هاشم كان طموحاً يحاول الاستفادة منها • ويعتقد (فان فلوتن) « انه أول من نظم الدعوة وشجع شعور التقديس للامام والآراء المتعلقة بالتأويل » ويذكر ابن عبد ربه انه قام بأمر الشيعة وانهم كانوا يأتونه « ويقوم بأمرهم ويؤدون اليه الخراج » •

وقد ولد الحكم الاموي مع الخصومة الشيعية في مهد واحد وإذا استطاع معاوية ان ينتصر سياسياً على علي ويأخذ لقب الخليفة حتى في

حياته . فان خلفاء معاوية قاوموا بالقوة والدم حركات الشيعة ثورة بعد ثورة • وقد كانت « كربلاء »سنة ٦١ فاتحة السلسلة •

ولعل أهم الحركات الشيعية ، في العهد الاموي من بعد ذلكحركة التوابين سنة ٦٥ هـ للأخذ بثأر الحسين وثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي سنة ٦٦ ثم تلك الحركة الثورية التي قام بها زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب سنة ١٢١ أو سنة ١٢٢ • وإذا كانت فترة الهدوء طويلة بين التاريخين فإنما يعود ذلك من جهة إلى اسباب الارهاب والشدة التي أخذ بها الأمويون شيعة آل البيت وإلى تفضيل البارزين من آل علي سبيل الدعوة السرية (كأبي هاشم بن محمد بن الحنيفة) أو الهدوء (كمحمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ، ثم ابنهجعفر الصادق من بعده)•

وقد ظهرت ثورة زيد بن علي (وهو أخو محمد الباقر) في الكوفة زمن هشام بن عبد الملك ويبدو أن زيداً اعتبر نفسه الامام بعد وفاة أخيه (التي تمت مابين سنة ١١٤ ــ ١١٧) ولم يقبل أتباع الباقر بمشايعته كما ان اتباع محمد بن الحنفية كانوا قد انضووا مع الجماعة الهاشمية في الدعوة السرية العباسية ، لذلك لم يلق زيد الكثير من التأييد الشيعي • وحين أرسل هشام بن عبد الملك جيشه بقيادة يوسف بن عمران الثقفي لم يصمد أنصار زيد للمعركة ، فقتل زيد وصلب على باب الكوفة مدة طويلة[١] •

يقول الطبري « ••• ولما قتل زيد عمد رجل من بني أسد الى يحيى ابن زيد فقال له : قتل أبوك وأهل خراسان لكم شيعة فالرأي أن تخرج

---

(١) يذكر ابن الازرق الفارقي في تاريخ ميافارقين (مخطوطة المتحف البريطاني رقم ٥٨٠٣ ورقة ٧١ وجه) أنه « بقي مصلوبا حتى عشعشت (العصافير) في صدره » .

إليها »[1] • وخرج يحيى متخفياً إلى هناك وقد استطاع نصر بن سيــار إخراجه من مكمنه وأمنه بأمر الخليفة الوليد بن يزيد وأمر له بمال وهدايا على أن يسير الى الخليفة فلا يقيم بخراسان ولكن يحيى ثار في الطريــق فبعث إليه نصر بن سيار من قاتله حتى قتل سنة ١٢٥ •

إلا إن كثرة الدماء وتكرر الفشل وقوة السلطان الأموي زادت كثيراً من حذر العلويين كما زادتهم خبرة مع الزمن في أساليب المقاومــة السلبية وفي بث الدعوة السرية وقد استفادوا بمهارة فائقة من شهدائهم، في استدرار العطف على آل البيت المضطهدين ، ومــن مساويء الحكم الاموي . في ضم الانصار • ولهذا كان الشيعة أخطر الاحزاب في وجــه خلفاء دمشق لأنهم :

آ ــ أثاروا الاستياء العام ضد الامويين في كــل أمر وأظهروهم خاصة ككفار يضطهدون آل البيت (آل محمد) •

ب ــ اعطوا الحركات السياسية المعارضة للامويين قاعدتها الفكرية الواسعة ووضعوا لها المبادىء النظرية •

جـ ــ أتاحوا للموالي والفرس منهم خاصة ابراز أفكارهم الدينيــة الاولى في ثوب اسلامي •

د ــ باسمهم وعلى يد أنصارهم صار تهديم العرش الاموي •

---

(١) الطبري ج ٧ ص ١٨٩ ثم ص ٢٢٨ ــ ٢٣٠ ، ٢/١٧٢٣ ثم ١٧٧٠ فما بعد) •

ب ـ الخـــوارج :

وهم تلـك الفرقـة التي ظهـرت بـين أنصار عـلي وهـو عائد من صفين ، وخالفته في قبول التحكيم • وسواد هذه الفرقـة ـ كما يلاحظ الباحثون ـ كان من العرب البدو ومن أهل الردة الذين نزلوا الكوفة والبصرة بعد الفتوح الاولى ومن الجماعة التي قتلت عثمان •

ويرى (نيكلسون) ان الدافع الاساسي للحركة الخارجية دافـع ديني برغم مايشوبه من المظهر السياسي • والواقع ان نشأة الخـوارج سياسية اقتصادية محضة • وقد كانت حركتهم الأولى نوعـاً من النقمة البدوية على ما استأثر بهالقرشيون من الحكمو الغنائم والخراج والثروات بعد الفتح لأنهم فهموا الاسلام على انه التسوية فرفضوا وقاوموا التميز القرشي • وقد ظلت افكارهم سياسية حتى خلافة عبد الملك بن مروان اذ مزجوا بها بعض الابحاث الدينية . وصيحة (لا حكم الا لله) التي كانت صيحتهم الأولى والتي كانت تحمل بالضرورة من المعنى الديني بقدر مـا تحمل من المعنى السياسي والاقتصادي لم يكن لها من مؤدى عند التطبيق في اول الامر ، سوى تحكيم السيف •

ويرى بعض المستشرقين والكتاب ان الخوارج يمثلون الحركـة (الديموقراطية) في الاسلام لانهم يعتقدون ان الخلافة حق لكل عربي حر • ومنهم من ادخل على هذه الفكرة بعض التعديل ـ بعد دخـول الموالي في الحركة ـ فاشترط الاسلام والعدل بدل العروبة والحرية • وهم بهذا الشكل ، جماعة اليسار (وفيهم المعتدل والمتطرف) . مقابل الشيعة حزب اليمين (وفيهم بدورهم المعتدل والمتطرف البعيد التطرف)• واذا التقى الشيعة والامويون حول نقطة القبول بمبدأ الوراثة في الحكم فهؤلاء الخوارج خالفوا الطرفين لأنهم جعلوها شورى دائمة في كافـة المسلمين •

ثم انهم اعتقدوا ان العمل جزء من الايمان • فمرتكب الكبيرة ، رغم ايمانه . كافر، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض من الفروض •• وهكذا صبغ تعصبهم السياسي وجهة نظرهم الدينية ، فتطرفوا في الدين تطرفهم في السياسة . ورموا بالكفر وعاملوا معاملة الكفار ، كل من لا يقول بنظريتهم المتطرفة •

وقد انقسم الخواج فرقاً عديدة تزيد في رأي البغدادي صاحب (الفرق بين الفرق) على عشرين[1] ولكن الكبرى منها أربع أو خمس وتنسب كل منها إلى اسم صاحبها لانفراده برأيه الخاص • وهي بترتيب التساهل فالغلو :

أ ــ الصفرية وينسبون إلى عبد الله بن صفار التميمي او زياد بن الأصفر لكن « اكثر المتكلمين ــ في رواية المبرد ــ يرون أنهم الذين اصفرت وجوههم لما نهكتهم العبادة » • وهؤلاء هم جمهرة القعدة الذين لايرون ضرورة كبرى للقتال •

ب ــ الاباضية أصحاب عبد الله بن إباض المري وهم لا يكفرون باقي المسلمين ولا يستحلون دماءهم • (وبقاياهم اليوم في عمان وشمال افريقيا) •

ج ــ البيهسية أصحاب أبي بيهس الهيصم بن جابر •

د ــ الأزارقة وهم أرومة الخوارج الأساسية ، أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي ويعتبرون اكثر الفرق تشدداً واستحلالاً لدماء باقي المسلمين •

---

(1) انظر البغدادي ــ الفرق بين الفرق (مطبعة المعارف بمصر ١٩١٠) ص ٥٥

وهناك كذلك فرقة النجدات أتباع نجدة بن عطية الحنفي الذين لايرون ضرورة لاقامة إمام للمسلمين ... ولكل فرقة من هذه الفرق فقه خاص ، ولها مباحثها في مسائل القرآن والعلم والاثر والسير لكنها تتفق جميعاً من الناحية السياسية على رفض الحكم الأموي ووجوب الثورة على الظالمين . حتى القعدة منهم يرون أن الاصل هو الخروج لحرب الباطل والمفسدين والجور .

وقد حارب الخوارج الحكم الاموي باندفاع واصرار لا يصدران الا عن اصحاب العقائد الراسخة ، حاربوه منذ معاوية حتى مروان بن محمد . واستأثروا بمعظم جهد الحجاج في العراق لان بؤرتهم الكبرى كانت فيما بين حران وجنوبي العراق واطراف ايران الغربية . فلما كسرت شوكتهم مرة بعد مرة أيام عبد الملك بن مروان : بالتشرذم الذي أصابهم يوم « المحنة » أواخر سنة ٦٤ بعد أن انهزموا أمام اهل البصرة إلى الاهواز وانشقوا على ابن الازرق فرقاً ... ثم جاءتهم الضربات المتتالية بقتل نافع بن الازرق سنة ٦٥ وطرد جماعته الى فارس وصحارى كرمان ثم بحروب المهلب بن أبي صفرة وسحق تمرداتهم أيام الحجاج مرة بعد مرة خلال اكثر من خمس عشرة سنة ثم بمقتل نجدة بن عامر من قبل الخوارج انفسهم بعد أن امتد نفوذه مابين البحرين واليمن . ثم بانقسام جماعة قطري بن الفجاءة وسقوطه قتيلا في طبرستان سنة ٧٧ وانهزام شبيب الخارجي الى الاهواز وغرقه في نهر دجيل في تلك السنة نفسها .. كل ذلك جعل الخوارج يتمزقون على الآفاق فرقاً صغيرة توزعتها الارض الاسلامية في فارس وكرمان ومكران وارمينية واذربيجان وسجستان وخراسان ، في عملية نبذ وابتعاد عن المركز ...

وقد خمدت ثوراتهم الى حين بينما كان دعاتهم يبتغون مواطن

جديدة • ونجدهم في نهاية القرن الاول ومطالـع الثاني الهجري : في خراسان وكرمـان وفي عمان واليمن كما يظهرون أقوياء في افريقيا • ولم تعد القضية بالنسبة إليهم الان هي قضية « الخلافة » والحكم ولكنهم كما لاحظ (فان فلوتن) في هذه المرحلة الثانية « نصبوا انفسهم حمـاة للضعفاء والمضطهدين وحرباً على المستبدين والطغاة » • واضحى الجهاد بين الامويين والخوارج (بل بين الامويين وجميع الاحزاب المناوئة لهم اذ ذاك) جهاداً اجتماعياً دينياً يدور حول عدم الرضا بأي حكومة جائرة• واضحى خوارج هذه الفترة يحاربون بسيف الدين ويقارعون بحجج الاسلام لمبادىء اجتماعية ـ سياسية معينة ويتفقون أحياناً مـع بعض العلويين فيبايعونهم بعـد ان كان نزاعهم الاصلي نزاعـاً يكاد يكون « شخصياً » محضاً ينحصر في شرعية خلافة اشخاص معينين (علي او معاوية أو أخلافهما) •

وقد تكاثر الخوارج في عهد مروان الأخير في شمال العراق بخاصة بين قبائل بكر وشيبان • وحين قتل الوليد بن يزيـد خرج سعيد بن بحدل الشيباني في مائتي رجل بارض كفر توثا وخرج بسطام البيهسي في عدد من بني ربيعة ، في الجزيرة أيضاً • وقد اقتتل سعيد وبسطام فيما بينهما فقتل بسطام ومضى سعيد الى العراق لاضطراب الأمر ، واقتتال اليمنية والمضرية في الحيرة والكوفة ••• ولكن سعيداً مات بالطاعون وخلفه الضحاك بن قيس الشيباني الذي استطاع سنة ١٢٧ أن يدخـل الكوفة رغم اتفاق قيس ويمن عليه مع جند الشام ثم حاصر مدينة واسط وتمكن سنة ١٢٨ من ان يستولي على الموصل ثم اتجه الى الجزيرة فحاصر نصيبين ومعه ١٢٠ ألفاً بين فارس وراجل يغدق عليه الرزق • ونزل بعض قواده على الرقة في وادي الفرات الاوسط • مما اضطر مروان بن محمد أن يأتي إليهم بنفسـه • وسقط الضحاك قتيلا في المعركة التي جرت بأرض

كفر توثا سنة ١٢٨ وطاف مروان برأسه في الجزيرة[١] .

وطاردهم مروان بعد ذلك الى الموصل ثم الى جنوب العراق، فلم يرث قواده في اتباعهم حتى دخلوا فارس والاهواز واستطاع شيبان بن عبد العزيز اليشكري الذي خلف الضحاك في الزعامة أن يلحق مع جماعته بالبحرين وعمان فيستقر هناك ...

بينما استقر آخرون بزعامة شيبان بن سلمة (الصغير) في سجستان حيث تحالفوا مع عبد الله بن معاوية حفيد جعفر بن ابي طالب وبايعوه فلما هزم وهزموا هناك انصرفوا فبعض الى السند وبعض إلى خراسان .

ولم تهدأ نائبة الخوارج بذلك إذ سرعان ما اضطر مروان لأن يقاتل خارجة أخرى منهم هو أحد زعمائهم المشهورين في التاريخ . أبو حمزة الخارجي[٢] (واسمه المختار بن عوف الازدي السليمي) وأصله من البصرة وكان خطيباً ، شديد التدين شجاع الفتكة . ثار الرجل في حضرموت بعد ان تحالف وبايع لعبد الله بن يحيى (طالب الحق) في اليمن في أواخر سنة ١٢٨ ثم سار الى الحجاز سنة ١٣٠ فبسط سلطانه عليه ووصل المدينة فقاتله أهلها ومن فيها في معركة (قديد) فهزمهم ودخلها ثلاثة أشهر (أواسط صفر سنة ١٣٠ وشهري ربيع وبعض من جمادي الاولى) وتعد خطبته فيها نموذجاً للفكر الخارجي في هذه الفترة الأخيرة من العصر الأموي ..وقد حاول ابو حمزة وأصحابه المسير إلى الشام حتى ارسل عليهم مروان بن محمد قائده : ابن عطية السعدي فرد أبا حمزة في وادي

(١) تفصيل خبر الضحاك لدى الطبري ج ٧ ص ٣١٦ - ٣٢٣ و ٣٤٤ - ٣٤٨ ثم ٣٥٠ - ٣٥٣ (١٨٩٨/٢ - ١٩٠٨ ، و ١٩٣٨ - ١٩٤٢) ثم ١٩٤٥ - ١٩٤٨ .

(٢) تفصيل حبر ابي حمزة الخارجي ودخوله الحركة الدينية لدى الطبري ٣٧٤/٧ و ٣٩٤- ٤٠٢ ، (٢٠٠٨/٢ - ٢٠١٧) وانظر نص خطبته الهامة هناك ص ٣٩٥ وما بعد .

القرى وقتله ثم أجلى الخوارج عن المدينة ثم عن مكة ولحق بهم الى اليمن حيث عتل عبد الله بن يحيى عند صنعاء وبعث برأسه وبابنه الى مروان..

ولم يصف هذا النصر صفاء كاملا للخليفة مروان بن محمد فقد قتـل ابن عطية وهو عـائد يريد الحج في بضعة نفر مـن أصحابه . قتله بعض الأعراب ..

وهكذا برغم كل الدماء والجهود التي بذلها الخوارج ، لم يكن لعملهم في النهاية سوى أثر سلبي . اذ لم يستطيعوا أن يقيموا خلافتهم المثالية في مناطق واسعة . ولا لمدى طويل وإن تمركزوا في مناطق الاطراف، القصية مثل سجستان وعمان وافريقية (ما بين طرابلس والمغرب) . ولكنهم ساعدوا على إضعاف الدولة الاموية من ناحيتين :

آ ـ أضعفوا قواها العسكرية وشغلوها في فترات حاسمة مـن تاريخهـا .

ب ـ ساعدوا على تألب الناس ضد الامويين ، ومهدوا بأفكارهم لاثارة الموالى . ولجعل الجماهير اكثر استعداداً لقبول الدعوة العباسية.

ج ـ المرجئـة :

اسم المرجئة جاء من الارجاء أي التأجيل بمعنى أن هـذه الفئـة ترجىء الحكم على العصاة الـى اليوم الآخر . ولعـل التسمية إنمـا ترجع إلى الآيـة القرآنية الكريمة (وآخرون مرجون لأمر الله ، إمـا يعذبهم . وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم) .

ولم يكن المرجئة حزباً كونته حادثة معينة أو عقيدة محددة ، ولكنهم جماعة تشكلت تدريجياً خلال الاحداث السياسية في العصر الاموي ، واتخذت موقفاً سلبياً منها في الغالب ، بررته بأفكار دينية .

وليست لدينا نصوص أصيلة تكشف بصورة دقيقه عن عقيدة المرجئة ولعل أقدم تنفة تتناول الكلام عنهم قطعة شعرية للشاعر (ثابت قطنة) نظمها في عهد عبد الملك بن مروان يقول فيها :

نرجي الامور إذا كانت مشبهــة	ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمــون على الاســلام كلهم	والمشركون استووا في دينهم قددا
ولا أرى ان ذنبـا بالغ احـدا	م الناس شركا اذا ماوحد الصمدا
لانسفك الدم الا أن يـراد بنا	سفك الدماء طريقا واحـدا جددا
من يتق الله في الدنيـا فإن لـه	أجر التقى اذا وافى الحساب غـدا
وما قضى الله من امر فليس لـه	رد، ومايقض منشيء يكن رشدا
كل الخوارج مخط في مقـالتـه	ولو تعبـد فيما قال واجتهـدا
امـا علـي وعثمـان فـانهمـا	عبدان لم يشركـا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقـد شهـدا	شق العصا ، وبعين الله ماشهـدا
يجزي عليـاً وعثماناً بسعيهمـا	ولست ادري بحـق ايـة وردا
الله يعـلم مـاذا يحضران غـداً	وكل عبـد سيلقى الله منفـردا

وهذا النص الثمين يكشف لنا المبادىء الدينية السياسية لهـذه الجماعة التي كانت لا تقرن صحة الايمان بالعمل . وفي هذه النقطة بالذات نلمس الخلاف الأساسي بين المرجئة وبين الخوارج . ثم انهم يخالفونهم وأنصارهم في نقطة أخرى هـي عدم تكفيرهم الخلفـاء الثلاثة : عثمان وعلياً ومعاوية وأنصارهم ، اذ لا يمكن تكفير من آمن بوحدانية الله . والله وحده هو الديان .

والمرجئة بنتيجة هذا الرأي يجهرون بان جميع المسلمين اخوة في الدين • وقد سوى الايمان بينهم • وهــذا هو الوجــه الاجتمــاعي لهذه الفئة • إذ أضحـى كـل ما تنشده هـو العودة الـى المبـدأ الاسلامي في (التسـوية) بين الشعوب • فـ (إنما المؤمنون اخوة) • والعدل بين المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله •

وأما في الرأي السياسي فإذا جاز لنا أن نعتبر الشعار الذي رفعـه الحارث بن سريج وأصحابه في ثورتهم بخراسان وما وراء النهر مثلاً لرأي كافة المرجئة وأن نعتبر اعمالهم وتصرفاتهم نموذجاً للآراء السياسية التي يؤمنون بها فان هؤلاء طالبوا « بالبيعة للرضا » من المسلمين أي طالبوا بحكم ترضى عنه الأكثرية • وقد ثاروا على الأمويين لأنهم ظلموا وأساؤوا ثم هادنوهم حين وعدوا بالعدل واتباع الكتاب والسنة • فهم إذن يطالـبون بمن يرضاه المسلمون عامة لأنفسهم سواء كان من الأمويين أو من آل النبي أو من الناس شرط الحكم الاسلامي ويرون الثـورة بالسلاح على الحاكم الجائر وإن كانوا لا يستحلون الدماء إلا بعد الجدل والدعوة والاقناع[1] •

(١) يروي الطبري (ج٧ ص١٠٠/٢-١٥٧٥-١٥٧٦) قصـيدة هامة لنصر بن سيار ، والي خراسان والخصم السياسي للمرجئة يقول فيها ضدهم وضد الحارث بن سريج الثائر خاصة :

فامنـح جهادك من لم يرج آخـرة ... وكن عـدواً لقـوم لا يصلونا !
واقتل مواليـهم منـا وناصرهـم ... حيناً تكفـرهم . والعنهـم حينـا
والعائبـين علينـا ديننـا وهـم ... شـر العباد إذا خابرتـهم دينا

وإذا لم نكن ها هنا بحاجة إلى التوسع في أفكار المرجئة فمن المؤسف أن كتاباتهم ، فيما عدا القليل من النتف ، قد ضاعت وضاعت معها المواد اللازمة لعمل موازنة كاملة دقيقة بين تعاليمهم وتعاليم الفرق الاخرى المعاصرة لهم أو بين تعاليمهم والتعاليم التي قد يكونون تأثروا بها • وقد شوهت الشائعات ذات الجذور السياسية الكثير من أفكارهم ومواقفهم •

وإذا كان الارجاء قد ظهر بالشام فان آثاره ظهرت في اقصى الشرق، في خراسان • واذا كان كثير من المرجئة قد انضم للحركات المختلفة التي قامت ضد بني أمية ، فان حركة خاصة بالمرجئة قد انبعثت من خراسان يقودها تقي ورع مصلح اسمه الحارث بن سريج ظل ثائراً حتى مات سنة ١٢٨ هـ ولم تنته حركته بموته اذ لم يمض عام واحد حتى ظهرت الثورة العباسية على أعقابها •

وقيمة المرجئة كحزب سياسي ، لم تزد على أن اوضحت للموالي ، وخاصة في خراسان ، أن روح الاسلام ومبادئه لا تتفق مع السياسة الأموية •

د ـ المعتزلة :

وقد كان للمعتزلة والاعتزال دورهم السياسي الديني في العهد الأموي • ولو أن الظاهر العام يعطيهم الطابع الفكري وينأى بهم عن أجواء السياسة •

والقائلين سبيل الله بغيتنا ... لبعد ما نكبوا عما يقولونا ...
ارجاؤكم لزكم والشرك في قرن ... فأنتم أهل اشراك ومرجونا
لا يبعد الله في الاجداث غيركم ... إذا كان دينكم بالشرك مقرونا ...

يروى ابن خلكان[1] أن اسم المعتزلة إنما أطلقه قتادة بن دعامة السدوسي . الأعمى حين تلمس طريقه إلى حلقة الحسن البصري في مسجد البصرة فوقع على جماعة عمرو بن عبيد يتناقشون في ذات الله وصفاته والوعد والوعيد فقام عنهم يقول : انما هؤلاء المعتزلة ! (اعتزلوا طريق الجماعة من المسلمين) والمشهور الذي يرويه الشهرستاني[2] أن رجلا سأل الحسن البصري في مرتكب الكبيرة كافر هو أم مؤمن (فجعله الحسن منافقاً) واعترض تلميذه واصل بن عطاء وقال إنه غير مؤمن ولا كافر في منزلة بين المنزلتين ولما اختلف مع استاذه اعتزل عنه إلى اسطوانة اخرى في المسجد فقال الحسن : اعتزل عنا واصل فحملوا الاسم •

وإذا أدرك الحسن البصري عهد عمر بن الخطاب فقد اشتهر في عهد عبد الملك بن مروان وهشام ابنه وتوفي سنة ١١٠ هـ • وجذور عدد من الأفكار التي قال بها الحسن البصري وواصل بن عطاء إنما نبتت في دمشق على يد أمثال : غيلان الدمشقي ومعبد الجهني قبله وقد تكلم هؤلاء في القدر ونفوه وبالغ غيلان في ذلك حتى صلبه هشام بن عبد الملك على باب دمشق • ولعل في آرائه ظلا من التأثر بآراء معاصر له دمشقي كان من كبار علماء اللاهوت المسيحي هو يحيى الدمشقي الذي كان من دعاة حرية الارادة فالخير من الله والشر من العبد كما كان ينفي ــ كما نفى المعتزلة ــ الأسماء والصفات عن الله لأنه من المتعذر أن يدرك المحدود (الانسان) اللامحدود (الله) •

على أن آراء المعتزلة الأخرى تكونت فيما بعد وتركزت أصول

(١) ابن خلكان ــ وفيات ، طبع احسان عباس ــ بيروت) ج٤ ص ٨٥ (ترجمة ٥٤١) •

(٢) الشهرستاني ــ الملل والنحل ج١ ص ٤٨ (طبعة البابي ــ ١٩٦١) •

الاعتزال في خمس مسائل : التوحيد ؛ العدل ؛ الوعد والوعيد ؛ المنزلة بين المنزلتين ؛ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وابن حزم يجعل هذه الأصول الخمسة على الشكل التالي : القول بخلق القرآن . نفى رؤية السعداء لله تعالى يوم القيامة . نفى القدر . القول بالمنزلة بين المنزلتين . نفى الصفات .

ويسمى المعتزلة أنفسهم أهل التوحيد أو أهل التوحيد والعدل . لأنهم يعتبرون فكرتهم عن وحدانية الله وعن عدله أسمى أفكارهم وهو منفذ وعده ووعيده لأن الانسان هو خالق عمله ومسؤول عنه . وينفون عن الله الصفات لأنه ليس كمثله شيء ، والجعد بن درهم أول من نفى الصفات ثم أخذ عنه مقالته الجهم بن صفوان وعن طريق هذه الفكرة ظهرت الفكرة الأخرى القائلة بخلق القرآن لأن الله قديم ولا يمكن أن يكون كلامه إلا حادثاً بعده فلا يشاركه القدم وكل حادث مخلوق فالقرآن مخلوق .

وليس يستوي كافة المعتزلة في القول بمختلف هذه الآراء والتبسط في بعضها دون بعض ولذلك فقد تفرقوا طبقات وجماعات نسبت كل جماعة منها إلى رأس منها فهناك الواصلية (نسبة لواصل بن عطاء) والنظامية (أصحاب ابراهيم بن يسار النظام) والهذيلية (أتباع أبي الهذيل العلاف) والخابطية (أصحاب احمد بن خابط) والجاحظية ... وقد عد الشهرستاني منها اثنتي عشرة فرقة .

على أن هذه الفرق في معظمها انما تكونت وتكاملت في العصر

---

(١) ابن حزم ـ الفصل في الملل والنحل ج٢ ص٨٩ .

العباسي الأول وأما في العصر الأموي مابين أواخر القرن الأول ومطالع الثاني فكانت ماتزال على الواصلية الأولى فقط .

ولعل آراء المعتزلةالدينية على الشكل الذي بدأت التكون فيه لم تكن بذات أثر في الصراع السياسي ضد الأمويين إن لم تكن أقرب إلى المسالمة والسلبية فلم يكن المعتزلة فيما يتعلق بالحكم يطلبون اكثر من إمام عادل ولا يشترطون فيه أن يكون من أسرة أو نسب قدسي وقد يبرأون من معاوية ويقبلون الخروج على الامام الجائر ولكن إن توفر للجماعة الثائرة « من القوة والمنعة مايكفي لإزالة الجور ولا يصح الخروج الا مع امام عادل... » وهم في هذا أقرب الى الخوارج منهم لى الفكر العلوي .

ومع ذلك فثمة رأي لبعض المستشرقين (نيبرغ) يرى أن المعتزلة أيدوا الحركة العباسية وكانوا وجهها العقائدي أو فكرها الديني[١] ؛ بدليل انهم ظهروا مع الدعوة العباسية في وقت واحد وكان لهم دعاتهم الدينيون في كل الآفاق وأن أول زعمائهم واصل بن عطاء ثم عدداً من زعمائهم الآخرين كانوا قبل انهيار الخلافة الأموية وبعدها ميالين لآل البيت وعلى اتصال بالعلويين وبالعباسيين . يضاف إلى ذلك تلك الصداقة الواشجة التي كانت قائمة بين الخليفة المنصور وعمرو بن عبيد . وقد قاوم العباسيون الزندقة ودافعوا عن الإسلام بأسلحة الفكر الاعتزالي.

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية المختصرة (الطبعة الانكليزية) ـ مادة المعتزلة ص ٤٢١ـ٤٢٧ .

H.S. Nyberg , in shorter En . of Islam (gibb. Kramers - Brill - 1961)P·P· 421 - 427

ويلخص نيبرغ أفكاره بقوله :

١ ــ ان المعتزلة كانوا مندفعين متحمسين لقضية الخلفاء العباسيين ماعدا فرقة صغيرة منهم .

٢ ــ كان المعتزلة بشكل قطعي ضد الشيعة الغلاة والرافضة .

٣ــ كانوا أيضاً بشكل قطعي ضد الجهمية وإن تأثروا بها بعض التأثر .

٤ ــ كانوا قدريين . وجمعوا إليهم عدداً من الفرق التي كانت تؤمن بالقدر .

٥ ــ كانوا في خصومة جدية مع أهل الحديث الذين كانوا بدورهم يرفضونهم ثم أعلنوا بعد قليل اتهامهم بالهرطقة[1] .

وهذا ما أثر ــ حسب رأيه ــ تأثيراً عميقاً في موقف المعتزلة الديني (التيولوجي) وبالتالي في وقوفهم بجانب القضية العباسية . ولكن هذا الرأي كله لا يقوم على اكثر من الافتراض المنطقي الذي لا يجد المؤيدات الكافية في الوقائع التاريخية . لا سيما وان الفكر الاعتزالي كان . في أواخر العهد الأموي في مطالع تكونه ولم يتكون التكون الكامل بعد ولم يكن للرواد المعتزلة الأول من نشاط سياسي وخاصة واصل بن عطاء . وحتى عمرو بن عبيد ظل ــ رغم صداقته للمنصور ــ على مسافة بعيدة منه ومن الاشتراك في الحكم . لايعطيه إلا النصيحة والتقريع أحياناً . وليس يظهر للمعتزلة أي أثر في الدعوة العباسية ثم في الأعمال والسياسة الدينية للعباسيين من بعد ولعل الأصح أن نقول مع الاستاذ جب إن المعتزلة كانت حركة دينية أقدم من الدعوة العباسية ومستقلة عنها وأنها استغلت فيما بعد الخلافة العباسية لتحقيق أهدافها الدينية وليس العكس لا سيما إذا تذكرنا المجموعة المتباينة من الأفكار والجماعات الدينية التي استغلها العباسيون

(١) المصدر السابق ص ٤٢٣ ــ ٤٢٤

لنشر دعوتهم السرية في خراسان . ولقد يكون المعتزلة قد رحبوا بوصول العباسيين الى الحكم ــ فيما بعد ــ وانتظروا خيراً من تغيير الخطة الأموية بخطة اكثر ارتباطاً بالاسلام والعقيدة لكن من غير المحتمل أن يكونوا دعاة عباسيين ...

وكل ما قد يكون المعتزلة قد قدموه للحركة العباسية هي أنهم أضافوا إلى جملة المجموعات الدينية المناوئة للأمويين مجموعة دينية تحمل آراء لا ترضى بهم ولا ترضى عن أعمالهم .

٥ ــ الحكومة والادارة الأموية :

تعاقب على حكم الامبراطورية الاسلامية بعد الخلفاء الراشدين خلفاء الأسرة الاموية . بدأ عهدهم بمعاوية والفرع السفياني ، ثم تحولت الخلافة . بعد اربع سنوات من وفاة معاوية ، الى الفرع المرواني ، واستمرت فيه حتى سقوط الاسرة . على ان تعاقب الخلفاء الامويين لم يجر على سنة معينة . لقد ادخل معاوية نظام الارث على الخلافة ، ولكن مروان بن الحكم استن سنة اعطاء ولاية العهد إلى اكثر من واحد بعده . فكان لعمله هذا اسوأ الأثر في تفكيك البيت الحاكم اذ كانت العاطفة الابوية. التي دفعته ودفعت خلفاءه لهذا العهد المزدوج، هي نفسها التي
العاطفة الابوية . التي دفعته خلفاءه لهذا العهد المزدوج ، هي نفسها التي
تدفع من يتاح له الملك من اولياء العهد الى ازاحة اخيه من ولاية العهد الثانية واعطائها لابنائه ... ولم تكن تلك الازاحة تتم دون احقاد ودسائس ودماء . كانت تضعف شيئاً فشيئاً عصبية البيت الحاكم بعضه لبعض وقيمته امام الناس .

واكبر الشخصيات المروانية : عبد الملك وابناه الوليد وهشام .

وطد الأول الدولة وعربها ؛ وزاد الثاني في رقعتها • اما الثالث فقد ولي الحكم عشرين سنة (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ / ٧٢٤ ــ ٧٤٤ م) . ولكن بعد فترة من التقلبات السياسية دامت تسع سنوات وحكم خلالها ثلاثة خلفاء مختلفون في النهج السياسي بعضهم عن بعض ؛ ومختلفون عن اسلافهم واخلافهم أيضاً : سليمان بن عبد الملك وقد نكل باولئك القواد والرجال الذين كانوا السبب في عظمة أخيه الوليد واتساع الدولة • نكل بهم لانهم قيسيون وهو يماني الهوى • ثم عمر بن عبد العزيز الذي اتبع سياسة دينية شديدة الورع والحزم جرت عليه نقمة العناصر المسيطرة من الارستقراطية العربية وغير العربية ، لكنها انقصت موارد الدولة وتسببت مع الثورات من جهة ومع الركود التجاري الذي أصاب شرقي البحر المتوسط خلال النصف الاول من القرن الثامن من جهة أخرى في إيقاع الدولة في عجز مالي لم ينج الأمويون من آثاره وأخيراً جاء يزيد الثاني ابن عبد الملك وكان قيسي الميول فكال الصاع صاعين لجماعة أخيه سليمان •••

وبالرغم من ان هشاماً كان جدياً كثير الدأب والحذر . الا ان العوامل التي هدمت العرش الاموي تبلورت واخذت شكلها الجدي خلال عهده الطويل ؛ واستفادت كذلك من تردده • فلما جاء الوليد الثاني من بعده (قيسياً) واغتصب منه الحكم يزيد الثالث (اليماني) وجاء اخيراً مروان بن محمد (القيسي) . بعد مذبحة اهلية في العائلة المالكة بدمشق . ظهر بوضوح ذلك الصدع الذي يفكك الفئة الحاكمة ويجعلها تقتل بعضها بعضاً . حتى كأن الخليفة في الفترة الاخيرة كان زعيم حزب خاص اكثر منه حاكماً لامبراطورية عظيمة موحدة الاجزاء •

ولم يكن الانقسام مقصوراً على جماعة البلاط في الشام ولكنه

تعداها الى جميع الطبقة الحاكمة من العرب رغم توزعها بين الاندلس وخراسان ، فانقسمت مجموعتين : (قيس ويمن) حملتا الحقد عصوراً طويلة بعد ذلك ، وبلغ من تباغضهما ان ظلتا تقتتلان لأتفه الاسباب ٠ فقد قامت الحرب بينهما مثلا في الاندلس بضع سنوات فيما بعد في ورقة عنب ! وقد تحاربنا في دمشق سنتين من اجل بطيخة[1] !! اما في العهد الاموي فبلغ الامر باليمانية في خراسان ان تحالفت مع ابي مسلم الخراساني فدخل بها مرو ــ ولولاها ما استطاع ــ وطرد نصر بن سيار شيخ مضر (القيسية) وعامل الامويين ٠ كما ثارت اليمنية في فلسطين بزعامة سليمان بن هشام بن عبد الملك ضد مروان بن محمد في الوقت الذي كانت فيه صيحات الثورة تأخذه من كل جانب ٠

وهكذا فقدت دولة الامويين قوة (العصبية) التي لا يقوم الملك ــ كما يلاحظ ابن خلدون ــ الا بها ٠ وخسر آخر خلفاء بني أمية مروان الثاني بالاضافة الى ذلك ولاء اهل الشام ــ وهم الذين كانوا دوماً رده الامويين منذ معاوية ــ حين نقل عاصمته من دمشق الى حران شمال الجزيرة ٠

ومن الطريف ان نسوق ماذكره غرس النعمة بن هلال الصابىء في كتابه (الهفوات النادرة) قال : « ٠٠٠ ولما حاصر عبد الله بن علي (العباسي) دمشق لم يقدر عليها حتى وقع الخلف اليمانية والمضرية من أهلها واختلفوا وتلاعنوا في المساجد واقتتلوا بالأيدي والنعال فآل ذلك الى فتحها له ٠ وفي مدة ذلك الخلف نصبوا في الجامع قبلتين :

---

(١) ابو الفداء ــ المختصر في تاريخ البشر ج٢ ص١٣ ٠

هؤلاء (اليمانيون) يخطبون لبني هاشم ويصلون وأولئك (القيسيون) يخطبون لبني أمية ويصلون ...»[1]

وبالرغم من ان مؤرخي العرب ، ثم مؤرخي الفرنجة ، عنوا بدراسة هذا النزاع القبلي كعامل رئيسي في سقوط الامويين فإن بعضهم الآخر مثل (فان فلوتن) يرى انه لم يكن له الا" مكان ثانوي بين تلك العوامل الكثيرة التي انتهت بسقوطهم ، فان ذلك النزاع ، وان ساعد في اللحظة الاخيرة على نجاح الدعوة العباسية، فلم يكن له أثر ما في تلك الحالة الجديدة التي ظهرت عقب قيام تلك الدعوة .

وعلى أي حال فان عوامل اخرى تتعلق بسياسة الامويين العامة كانت تعمل عملها بجانب هذه الاحوال القبلية ولعل أهمها : مشاكل السياسة المالية وفشل السياسة الادارية واضطراب الشام مع أزمة الأسرة الأموية فيه .

١ ـ السياسة المالية الأموية ومشاكلها :

لم تكن الضرائب التي فرضت زمن عمر بن الخطاب ، على البلاد المفتوحة بالضرائب الثقيلة إذا قيست بما كانت عليه قبل الفتح . وإذا كان قوامها الاساسي ضريبتين اساسيتين هما : الجزية والخراج فقد كان النظام الضريبي عامة ، في صدر الاسلام متبايناً متنوع الاسس حسب ظروف الفتح والعهود التي اعطيت من منطقة الى اخرى فتارة ضريبة جماعية على بعض المدن (خراسان) وتارة الضريبة على الرأس (العراق . الجزيرة

---

(١) غرس النعمة ـ الهفوات النادرة (تحقيق الأشتر ـ دمشق ١٩٦٧) ص ١٠٧ .

مصر) وتارة تزيد في بلد وتارة تعفى أخرى وتارة نوعية وتارة نقدية وثالثة من النوعين ٠

وقد بذل الأمويون جهداً كبيراً لتوحيد ذلـك النظام وتنسيقه وتوطيد أسسه وجعله ذا طابع عربي ٠ حاول ذلك معاوية ببعض التدابير الجزئية لكن الذي بدأه فإنما هو عبد الملك بن مروان[1] (٦٥ـ٨٦/ ٦٨٥ـ٧٠٥) ثم أكمل العمل من بعد ابنه هشام[2] (١٠٥ـ١١٥/٧٢٤ـ ٧٣٤) في العراق والشام ومصر ٠

وقد حاول عمر بن عبد العزيز خلال ذلك إعطاء النظام الضريبي أسساً إسلامية ٠ بالغاء الجزية عمن أسلم واعتبار الأرض الخراجيـة

---

(١) من أمثلة التنظيم الضرائبي زمن عبد الملك ما جرى في الجزيرة : كانت جزية أهلها ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً ومثلهما من الخل في العام لكل رجل واعتبر الناس طبقة واحدة واعتبر القسم النقدي مـن الضريبة هو الجزية والقسم العيني ضريبة الارض فبعث عبد الملك الى عامله الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري فأحصى الجماجم واعتبر الناس كلهم عمالا بأيديهم وحسب ما يكسبه العامل في سنة كلها ثم طرح من ذلك نفقته من طعامه والكساء وطرح أيام الاعياد فوجد الذي يتبقى بعد ذلك اربعة دنانير لكل فرد فألزمهم ذلك . وتحولت الضريبة من العين الـى النقد . (راجع الخراج لابي يوسف ص ٢٣ـ٢٤)

(٢) من أمثلة ذلك ان عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراج مصر كتب الى هشام سنة ١٠٦ بأن أرض مصر تحتمل الزيادة ـ بسبب وفـرة خيرات البلاد ـ فزاد في كل دينار من الضريبة قيراطا (١/٢٤) وفرضت ضريبة على املاك الكنيسة والأساقفة كما فرضت جزية دينار واحد على الرهبان .

ملكاً لبيت المال فالخراج إيجارها ولا يجوز تحويلها الى أرض عشرية .. ولكن الخلفاء من بعده نقضوا تلك الأسس تحت ضغط الحاجة المالية .

ذلك أن موارد الدولة تقلصت بوضوح بعد عبد الملك وابنه الوليد ، لا بسبب الحرب الاقتصادية مع الروم فقط ولكن أيضاً بسبب كثرة الفتن وما تعطله من التجارة والزراعة وتطلبه من النفقات وبسبب كثرة تحويل الاقطاعيين أرضهم من أرض خراجية الى عشرية وبسبب نقص موارد الجزية بعد إقبال الشعوب المفتوحة على الاسلام . وقد قابل الأمويون ذلك بتدابير شديدة وغير شرعية . وبالرغم من أنهم لم يضعوا سياسة منظمة لزيادة الضرائب ــ وإن زادوها في بعض الحالات ــ إلا أنهم تشددوا في الجباية تشدداً ولد الكثير من التذمر بشكل عام من السياسة المالية وظهر ذلك خاصة في بعض المناطق أكثر من غيرها :

أ ــ فقد اتبع العمال والجباة طرقاً سيئة في الجباية : لا بسبب إلحاح الخلفاء أحياناً ولكن بسبب جشع العمال أنفسهم حتى لقد ندد بهم عمر بن عبد العزيز وسماهم « عمال السوء » .

ويروي الجهشياري[1] أن عامل مصر قال لسليمان بن عبد الملك : « يا أمير المؤمنين اني ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت فان رأيت أن ترفق بها وترفه عنها وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها وصلاح معايشها فافعل ، فانه يستدرك ذلك في العام المقبل » . فأجاب سليمان : « هبلتك أمك . إحلب الدر ، فاذا انقطع فاحلب الدم والنجا » .

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٥١ــ٥٢ .

ويذكر المقريزي[1] أيضاً أن عامل يزيد بن عبد الملك وعامل هشام من بعده قد تشددا على النصارى وزادا في الخراج في مصـــر • ويروي البلاذري : أن أحد أخوة الحجاج أذاق اليمن شر أنواع الجور فكان يصادر الاملاك والاموال وأثار حنقهم بفرض ضريبة معينة (وظيفة) عليهم وذلك عدا العشر الذي قرره الاسلام • وحدوث ذلك في ولاية عربية خالصة أمر له معناه • ولم يكن الحال بالعراق أحسن من هذا • فقد أمر عمر بن عبد العزيز ألا يأخذ العمال (جباة الخراج) في جبايتهم من الدراهم ، ما زاد وزنه على أربعة عشر قيراطاً ومعنى هذا أنهم كانوا يتقاضون الناس دراهم ثقيلة الوزن مما يزيد في قيمة الضريبة •

كما كان بعض العمال والجباة ، وخاصة الدهاقين يستعملون العنف والاهانة فيها رمزاً للاذلال والصغار • وأجحفوا في تقدير الخـــراج أحياناً فكانوا في فارس مثلا ، على ما جاء في طبقات ابن سعد يخرصون ، (يقدرون) الثمار على أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعرها الذي تباع به ويأخذونها فرقاً على ما قدروا لها من قيمة • وقد ذكر (فان فلوتن)[2] طريقة مخجلة لجباية الخراج لم يذكر مرجعه الاصلي فيها • وهي وان لم تكن صحيحة ، إلا أنها قد تكون صدى لاستياء الناس من طريقة الجباية • وفي كتاب الخراج لأبي يوسف ذكر اسلوك بعض الجبـــاة أحياناً سبل التعذيب كالتعريض للشمس المحرقة أو صب الزيت المحمي أو حمل بعض الحجارة أو جرار الماء في الرقاب ! كما كانوا يوقفون الممتنعين عن الدفع على قدم واحدة ساعات طويلة ، ثم يوثقونهم بحيث لا يستطيعون السجود للصلاة • وفي بلاد ما وراء النهر جرى مرة أن

(١) المقريزي : الخطط ج٤ ص٣٩٥ .
(٢) فان فلوتن : السيادة العربية (تعريب حسن ابراهيم) ص ٣٣ .

عمال الخراج ــ على مايذكر الطبري[1] ــ أقاموا الدهاقين في الشمس وخرقوا عليهم ثيابهم ثم ألقوا مناطقهم في أعناقهم • أما في شمالي افريقيا فكان المقصر في الجزية يلزم أحياناً بتسليم نسائه وأبنائه للبيع • وقد أبطل عمر بن عبد العزيز ذلك ، وكتب : أن من كانت عنده لواتية فليخطبها الى أبيها أو فليردها إلى أبيها •

ب ــ وفرضت في العهد الأموي ضرائب اضافية كالرسوم على الصناعات والحرف وأجور نقل وخزن نصيب الحكومة من الغلات • وأجور ضرب النقود • وفرض الضرائب على الارض زرعت أم لم تزرع • والضرائب على من يتزوج أو يكتب عرضاه وأرجعت العادة الضريبية الساسانية التي تسمى « هدايا النوروز والمهرجان » والجهشياري يذكر أن معاوية « طالب أهل السواد أن يهدوا له في النوروز والمهرجان ففعلوا فبلغ ذلك عشرة آلاف درهم »[2] • وربما كانت هذه الضرائب الاضافية ــ كما يذكر بندلي جوزي ــ [3] أشد وطأة من الضرائب الاصلية لأنها لم تكن محدودة ولا مستندة الى قاعدة مقبولة وانما تتبع أهواء العمال •

جـ ــ واتخذ العمال ولايتهم للثراء : يدل على ذلك ما شاع على الألسن إذ ذاك من اطلاق كلمة « آكل ولاية » على منصب الولاية وطالما قدمت الشكايات منذ عهد عمر بن الخطاب ضد مستغلي الولايات • وينقل

---

(١) الطبري ج٧ ص٢٥٦ (١٥٠٩/٢) •
(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص٢٤
(٣) انظر بندلي جوزي ــ من تاريخ الحركات الفكرية ص٤٢ •

البلاذري صدى لذلك قصيدة يتهم صاحبها عدداً من الولاة وحكام الرساتيق والمدن في فارس ، فيقول :

نؤوب إذا آبوا ونغزو إذا غزوا فأني لهم وفر ولسنا أولي وفر ؟

وقلما كان يعنى الولاة باخفاء أعمالهم فقد اعترف والي خراسان ليزيد بانه قد حصل له عشرين مليوناً من الدراهم فسوغه إياها[١] . وكان بعض الولاة يلتمسون من الخليفة اعفاء من قبلهم من الموظفين من تقديم بيان دقيق عما جمعوه من الاموال .

وبدل أن يتخذ الخلفاء التدابير لمحاسبة الولاة ومنع ظلمهم نجدهم يتبعون الطريقة التي كان لجأ إليها عمر بن الخطاب ـ لأسباب أخرى ـ وهي (المقاسمة)[٢] فهم يقاسمون العمال فوائدهم التي جمعوها بتلك الطريقة المعوجة . وهكذا رد معاوية مثلا نصف الثروة التي جمعها الى بيت المال « ليطيب له الباقي »[٣] ـ على قوله ـ ومعنى هذا أن بعض الخلفاء رضوا أحياناً بسوء تصرف العمال مع أهل البلاد . عدا أنه دليل على أن بعضهم كان يهمه مصلحة الخزينة المركزية بالدرجة الاولى .

واذا كان عبد الملك قد سن نظاماً دقيقاً للاستخراج «أو التكشيف» أي كشف مال الوالي بعد عزله ، فلم يعدم الولاة والموظفون الصغار

---

(١) الجهشياري ص٢٩ .

(٢) من نافلة القول أن نذكر أن من اتبع طريقة المقاسمة من خلفاء بني أمية كان يسيء تفسير واستغلال فكرة المقاسمة التي اتبعها عمر مع الولاة الذين أثروا في عهده مستغلين مناصبهم في التجارة وقبول الهدايا .

(٣) الطبري ج٥ ص ٣٢٧ (٢/٢٠٢) .

طريقة لتهريب أموالهم بايداعها عند غيرهم • كما اضحت طريقةالاستخراج وسيلة من وسائل الانتقام •

ولم تكن الاموال المختلسة بكميات قليلة • ويكفي مثلا لها ما ذكره الطبري من أن يوسف بن عمر استرد من خالد بن عبد الله القسري أكثر من سبعين مليون درهم وكان راتبه السنوي في ولايته للعراق حوالي عشرين مليوناً •

د ـ وبالاضافة لكل هذا فقد أخذ الأمويون الجزية ممن لا تجبعليهم، ففرضوا الجزية على الرهبان مثلا • يقول المقريزي(1) : « مأر (عبد العزيز بن مروان بن الحكم) باحصاء الرهبان فأحصوا وأخذت منهم الجزية وهي أول جزية أخذت من الرهبان »• ولعل ماهو أكثر شأناً من هذا أن الجزية أخذت من المغلوبين حتى بعد اسلامهم • كما فعل الحجاج مع الموالي في العراق ، وقد درس فون كريس ذلك وبين كيف استطاع الحجاج ارغام أولئك الذين كانوا يهربون من دفع الجزية بالاسلام ، على دفع الضريبة التي كانوا يدفعونها في عهدهم الكافر . وكيف أجبر الذين حولوا أرضهم الخراجية الى عشرية على دفع الخراج عنها كما كان من قبل • وكيف تجلت مقاومة الناس له في ذلك بثورة ابن الأشعث ، واحراق الديوان وسجلاته •

ولكي ترد الحكومة جماهير الموالي الى واجبهم نحوها وتسد في وجوههم كل أمل في الهرب من الضرائب ومن العمل الزراعي طردتهم

---

(1) المقريزي : الخطط ج٤ ص٣٩٥ .

من المدن وأرسلتهم الى القرى بعد أن وشمت أسماءهم على أذرعهم ، وقد طبقت هذه السياسة في خراسان كما طبقت في مصر . واذا كان عمر ابن عبد العزيز قد رفعها قائلا :« ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » فان الذين استخلفوا من بعده أعادوها على ما كانت ، وعمموها على افريقيا أيضاً . ويروي الجهشياري[1] أن يزيد بن أسلم والي شمالي افريقيا ليزيد بن عبد الملك أراد اتباع طريقة الحجاج هناك فقتلوه*. كما أن أشرس بن عبد الله السلامي أمير خراسان سنة ١١٠ فرض الجزية على المسلمين الجدد في بلاد الصغد فيما وراء النهر بعد أن كان أعلن اعفاءهم فأدى ذلك الى ثورة عارمة لم تنته إلا بمجيء نصر بن سيار سنة ١٢١ .

هـ ــ واخيراً فقد تلاعب الأمويون بالعطاء : فأنقصوه أو حرموه مستحقيه . فقد فرض عمر نظاماً خاصاً في العطاء للمسلمين ، ولكن سياسة الامويين لم تتفق مع هذا النظام . فكانوا تارة يغدقون المنح على المعارضين تألفاً لقلوبهم ، (كما فعلوا مع الحسن والحسين مثلا) . وكانوا تارة أخرى يمنعونها كما فعل هشام والوليد بن يزيد مع أهل الحرمين . أما الموالي فلم يكن لهم من العطاء نصيب . لأنهم لم يكونوا بعد قد أسلموا حين وضع النظام ، ويقال إن معاوية فرض لهم نصيباً زاده من بعده بعض الزيادة عبد الملك ثم سليمان ثم هشام ــ كما في العقد الفريد ــ غير ان هذا على مايظهر لم يكن ثابتاً ولعله غير صحيح بدليل استغراب العرب ونقمتهم على المختار حين فرض للموالي نصيباً من الفيء .. ولقد شكا خراساني مرة الى عمر بن عبد العزيز ان عشرين

---

(١) الجهشياري ص ٥٧ .

ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق !• ويذكرون من أسباب ثورة البربر على هشام بن عبد الملك أنهم كانوا يحاربون بجانب العرب ولا يمنحون العطاء الذي يمنحه هؤلاء •

ولقد كانت مساوىء الوضع المالي متفاوتة الوضوح والشدة حسب الولايات ولعل أقسى وجوهها ما كان في العراق وخراسان •

فقد اسندت الجباية في العراق الى الدهاقين « رؤساءالقرى »[1] من الموالي لأنهم أبصر بالجباية وأوفى بالامانة — على حد قول عبيد الله ابن زياد — وقد سارع هؤلاء الى اعتناق الاسلام فصاروا حلفاء للسادة العرب ، وجمعوا من ذلك ثروات طائلة ابتزوها من العامة •

وبعد أن فرض الحجاج إبقاء ضريبتي الخراج على الارض التي تحولت عشرية بانتقالها للعرب والجزية بعد الاسلام على من يسلم من الناس وضج العرب والموالي جاء عمر بن عبد العزيز فوضع حلا يتفق والاسلام ويحفظ حق الخزينة • إذ أعفى من أسلم من الجزية ، ولكنه اعتبر الخراج إيجاراً للارض الخراجية التي هي ملك مشترك للمسلمين• فمنع تحولها الى أرض عشرية • ولما كان لا يستطيع فرض ذلك بأثر رجعي فقد اعتبر سنة ١٠٠ هـ مطلعاً لهذا التدبير[2] ، وسمى تلك السنة (سنة المدة) وكتب بذلك كتاباً قرىء على الناس • وألغى الضرائب الاضافية كهدايا النوروز والمهرجان وضرائب الزواج وأجور البيوت ورسوم العرائض •

---

(١) اليعقوبي : ج٢ ص ٢٩ •

على أن اصلاحات عمر ماتت بموته • وكتب خليفته يزيد الثاني الى عماله : « أما بعد فان عمر كان مغروراً •• فدعوا ما عرفتموه في عهده وأعيدوا الناس الى طبقتهم الاولى أخصبوا أم أجدبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا • »

وقد دفعت كثرة الضرائب الملاكين الصغار الى ان يحتموا بالملاكين الكبار من طبقة العرب او من رجال الدولة • فكانت الارض تسجل باسم الحامي ويدفع مالكها الحقيقي جزءاً من حاصلاته لقاء الحماية من عبث العمال • وهذا هو (الالجاء) وقد كثر زمن الحجاج وألجأ عدد كبير من الملاكين أملاكهم لدى مسلمة بن عبدالملك •

ولعل من المشاكل الضرائبية الكبيرة التي لم يحلها العهد الاموي (ولا العباسي من بعده حتى عهد المعتضد) هي استيفاء الخراج من الناس في المناطق الشرقية من الدولة الاسلامية (العراق وايران والجزيرة أحياناً) اعتباراً من يوم النيروز كل سنة حسب العادة الفارسية السابقة ، أي في مطلع الربيع حين لا يكون الزرع قد استحصد ويضر هذا دوماً بالناس « فهم يقترضون ويتسلفون وينجلون عن أوطانهم (هرباً) •• وكثرت شكاياتهم وظلمهم •• » وقد كان الفرس يكبسون السنين فتتعدل « ••• فلما جاء الاسلام عطل ذلك » لما جاء في القرآن من أن « النسيء زيادة في الكفر » • وقد اجتمع الدهاقنة زمن هشام بن عبد الملك الى خالد القسري فشرحوا له هذا وسألوه أن يؤخر النوروز شهراً فأبى وكتب الى هشام بذلك فقال : اني أخاف أن لا يكون هذا من قول الله تعالى في النسيء ••• » وبقي الامر على حاله[1] •

---

(١) انظر في هذا ما ذكره البيروني ــ الآثار الباقية (طبعة سخاو)

وخلاصة الامر أن النظام المالي في عهد بني أمية كان نظاماً قديماً أضيف اليه أمور اسلامية جديدة وقد حاول الامويون إصلاح القديم والتوفيق بينه وبين المستحدثات الاسلامية ولكن التطبيق السيء والاستغلالي زاد في مساوىء النظام وظلمه • ولم يتنبه الامويون الى ما يجر ذلك عليهم من النقمة ، مع تطور الاحوال أو على الاصح انقلابها • والنقمة هي المرتع الخصب للعمل الثوري •

ولعل أبرز مايكشف عن هذه النقمة ، ماحوته برامج الثورات والأحزاب في أواخر العهد الأموي من اشارات ومطالب ووعود من هذه الناحية المالية : واذا كانت ثورات الخوارج قد استمرت تطالب كما كانت دوماً تطالب بالمساواة والعدل فان المرجئة الذين يبدأ فكرهم بالمساواة وترك حساب الظالمين لله طالبو في ثورة الحارث بن سريج بعد سنة ١١٦ في خراسان برفع الجزية عمن يسلم والمساواة في العطاء بين المقاتلة العرب والموالي• ويزيد الثالث (ابن الوليد بن عبدالملك) خرج سنة ١٢٦/٧٤٤ على الوليد الثاني وهو يؤكد على العدل وعلى عدم نقل مال بلد الى

ص ٣١–٣٢ ولعلنا نضيف هنا ان يحيى بن خالدالبرمكي حاول زمن الرشيد تأجيل النوروز (وبدء جباية الخراج) شهرين فتكلم أعداؤه فيه وقالوا إنه يتعصب للمجوسية فأضرب عن ذلك حتى كان عهد المتوكل الذي حاول التعديل سنة ٢٣٤ فقتل قبل ان ينفذه ونفذه من بعده المعتضد . وقد قال البحتري في ذلك يمدح المتوكل :

إن يوم النيروز قد عاد إلى العهد الذي كان سنه ازدشير
أنت حولته الى الحالة الاولى وقد كان حائراً يستدير
فافتتحت الخراج فيه فللأمة في ذاك مرفق مذكور
منهم الحمد والثناء ومنك العدل فيهم والنائل المشكور .

آخر قبل أن يكتفي أهله وعلى عدم إرهاق دافعي الجزية ارهاقاً يدفعهم الى « مايجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم »[1] وعلى عدم توسيع الملكيات الكبيرة . وعلى دفع الاعطيات سنوياً والارزاق كل شهر . وزيد بن علي ثار في الكوفة ١٢٢/٧٤٠ وبايعه الناس على كتاب الله وسنة رسوله وعلى الدفاع عن الضعفاء ورد العطاء الى من سلب منه وتوزيع الفيء بالعدل بين المستحقين وإعادة المقاتلة من المناطق النائية الى بلادهم ...

٢ ـ **السياسة الادارية** : يقول الجاحظ : « دولة بني مروان عربية أعرابية » ولعل هذه الملاحظة تلخص كل سياسة الامويين . وليس هذا النهج بغريب منهم ، فالعرب هم اصحاب الاسلام وجنود الفتح والحكام الأعلون ، ثم انهم لم يكونوا قدتخلصوا بعد مما كان بهم من جاهلية وعصبية . هذا الى ان الامويين لم يصلوا الى الحكم اعتماداً على رأي المسلمين ، او لسابقة لهم في الدين ، فجنحوا الى الناحية التي لهم بها سند ، ولهم فيها مجد سابق ،وهي العصبية العربية .

ولنلاحظ هنا ان الامويين لم يكونوا ، في نظر الجمهور والجماعة، غاصبين معتدين . وتلك الفرق التي سبق ذكرها ، إن حاربتهم ، فالجمهرة الكبرى من المسلمين ـ وهم من يعرفون بالجماعة ـ قبلوا بهم . ومن تاريخ هذه « الجماعة » في الواقع يتألف تاريخ الدولة الاسلامية على الحقيقة . واما ماعداها فطوائف ثائرة محدودة الاثر

---

(١) انظر خطبته بعد مقتل الوليد لدى الطبرى ج٧ص٢٦٨ـ٢٦٩ ة (٢/١٨٣٤ ـ ١٨٣٥) .

لم تجمع على واحدة منها كلمة المسلمين ، وان ملك بعضها ملكا واسعاً أوَ ضيقاً في بعض حقب التاريخ .

وقد استنتج المستشرق فانفلوتن[1] من بعض النصوص للشهرستاني ولحمزة الاصفهاني ان الناس كان يعتبرون الامويين « أهل السنة والجماعة » « وأئمة العدل » ، والسواد الاعظم من العرب كان يرى في حزب بني أمية حزب « الدين والنظام » . وترد لدى البلاذري والطبري وغيرهما عبارات تسمى عبد الملك مثلا « امام الاسلام » و « أمين الله » و « جنة الدين » . على أن عامة الناس ، إن كانوا يأخذون عليهم شيئاً ، ففي السياسة العامة فقط وأعمال العمال ، وليس في شرعية الحكم . يقول الطبري في سبب ثورة البربر في افريقيا آخر العهد الاموي : « ... مازالوا من أسمع أهل البلدان وأطوعهم الي زمان هشام بن عبد الملك .. حتى دب اليهم أهل العراق ... واستثاروهم » واضاف « .. أنهم ردوا على أهل الاهواء فقالوا إنا لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال ولا نحمل ذلك عليهم .. »[2]

أما الذين كانوا يناقشون شرعية العهد الأموي من أساسه فثلاث فئات كونت مايمكن أن يشبه في العصر الحديث الأحزاب السياسية . ولو شئنا أن نضعها في تصنيف متصل لوجدنا أن الحزب الأموي الحاكم كان يقوم في الوسط بينما تقوم عن يمينه الاحزاب الشيعية ماكان منها معتدلا ثم ماكان في طريق الغلو أما عن يساره فيأتي المتدينون الذين كانوا يرفضون ــ دون أن يثوروا ــ أساليب الحكم الاموي واستبداده ثم يأتي المرجئة. وفي أقصى اليسار تقوم الأحزاب الخارجية الثائرة دوماً والتي ترفض الأسرة الاموية أصلا كما ترفض غيرها . وإذا كان رأي

(١) فان فلوتن السيادة العربية ص ٧١ و ص ١٤٠ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٥٤ (٢٨١٥/١) .

الشيعة يحصر الخلافة في أسرة واحدة هي آل البيت فالخوارج بالمقابل يبيحونها لكافة المسلمين •

أولا ــ **الخوارج** : وقد انتشرت مبادئهم (ومبادىء الشيعة كذلك) وتطورت رغم مقاومة الامويين العسكرية ومجازرهم القاسية فيهم (وربما بسبب ذلك) وللاءمتها أيضاً لتلك الاحوال الاجتماعيةالجديدة التي نشأت في الدولةالعربية ، فيالشرق خاصة ، لاسيمامنذ عهد الحجاج، اذ انفصلت الدعوة الى الاسلام والعمل على نشره ، عن سياسةالامويين المالية والادارية لما بينهما من تعارض • وكان جواب الحكومة الوحيد على شعارات الخوارج الجديدة بطلب العدل والرجوع للدين ،هو اعلان الحرب عليهم جهاراً •

ثانياً ــ **الشيعة** : وقد اضطهدهم الامويون وأعملوا القتل في بعض آل البيت ، كما كانوا أحياناً يغرقونهم بالمال ، لضرورات سياسية • وكانوا ينظرون الى حركاتهم كأعمال تتعلق بسلامة الدولة ، بينما كان الشيعة يتلقون الضربات ، ويستغلونها في دعايتهم ، كعمل ضد الدين وضد عترة الرسول وآله •

ثالثاً ــ **المتدينون** : من قراء ومحدثين وفقهاء ، وكانوا ينكرونطريقة الأمويين في استلام الخلافة وسياستهم المخالفة للدين في الناس • ونحن ندين لكتاب الامامة والسياسة[1] (والمنسوب لابن قتيبة) بذكر رسالة يقول المؤلف إن الحسن بن علي قد أرسلها لمعاوية وسواء صحت الرسالة أم لم تصح ، فالمهم انها كانت تعبر عن عواطف دينية معينة وعن موقف التقاة من الحكم الاموي : انهم لم يروا فيه امتداداً لحكم النبي واصحابه ، ولكن حكماً قائماً على القوة • وهذه المسألة ــ كما يرى

---

(١) ابن قتيبة الامامة والسياسة ج١ ص ٢٨٤

خدابخش ـ من اعظم مصادر ضعف الامويين • كما انها تفسر المعارضة الدائمة لهم • وقد كتب دي غويا ايضاً : « ••• ويتجلى الموقف بكل وضوح في أحاديث يزيد بن المهلب والحسن البصري ••• اذ حين استولى يزيد على البصرة قال لأهلها : « ايها الناس إنا غضبنا لكم فانظروا لانفسكم رجلا يحكم فيكم بالعدل ويحكم فيكم بالسوية ويقيم فيكم بالكتاب والسنة ويسير فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين » • وقد قال رجل للحسن البصري : « كأنك راض عن اهل الشام » فقال : « قبح الله أهل الشام وبرحهم • أليسوا الذين أحلوا حرم رسول الله (ص) ثلاثة ايام واباحوه انباطهم واقباطهم لايتناهون عن سيئة ولاانتهاك حرمة ، ثم نصبوا المجانيق يرمون بيت الله » ومن خطبة لأبي حمزة الخارجي سنة ١٣٠ في المدينة « خلوا بيننا وبينهم (الامويين) فإن نظفر نعدل في احكامكم ونحملكم على سنة نبيكم ••• يا أهل المدينة ان تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين » •

ولاشك انه كان لسيرة بعض الخلفاء الامويين الاخيرين أثرها أيضاً في زيادة نقمة المتدينين على البيت الحاكم ، ولكن هؤلاء اكتفوا بالنقد والتهجم ، ولم ينتقلوا كالخوارج والشيعة الى العمل الايجابي • وقد اوجدت اقوالهم مبرراً للناس كي يتقاعسوا عن نصرة الامويين في اللحظات الحاسمة •

اما **الجماهير** العامة من المسلمين ـ وفيها الاعداد الكبيره من الموالي الذين كان العرب انفسهم ، يدلونهم بالامر الواقع تارة وبالدعاية تارات ، الى ماعلى رؤوسهم من جور اجتماعي ومالي ، فتقسمتا لفرق اعداداً كثيرة منهم ، حتى لقد كانت الاهواء السياسية قد توطنت في

المناطق المختلفة ، وعرف لكل صقع لونه المميز • يتبين ذلك من الوصية التي يذكرون ان محمد بن علي قد بعث بها الىصاحبه ابي مسلم الخراساني يقول : « أما الكوفة وسوادها فشيعة علي ، واما البصرة فعثمانية تدين بالكف واما الجزيرة فحرورية مارقة ، واعراب كأعلاج، واما أهل الشام فلايعرفون غير معاوية وطاعة بني امية ، واما مكة والمدينة فقد غلب عليهما ابو بكر ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الاهواء ••»

وقد بلغ الاستياء في الناس حداً بعيداً عبرت عنه تلك الاعداد الكثيرة من الثورات والفتن في السنين الاخيرة من العهد الاموي •

ففي الاندلس قام مؤنس احد قواد طارق بن زياد سنة ١٢٤ بثورة عمت الولايات الشمالية حيث توجد الجموع الكثير من البربر •فطرد العرب وزحف للاستيلاء على قرطبة • وقد سجل عدة انتصارات قبل ان يهزم عند طليطلة •

وفي شمال افريقيا ثار البربر سنة ١٢٤ بقيادة ميسرة المدغري(وهو خارجي) احتجاجاً على سوء سياسة الامويين فيهم ، فانتهت الثورة بمقتله • على ان البربر ثاروا مرة اخرى سنة ١٢٧ وطردوا عامل الامويين عليهم •

وفي مصر كانت الاضطرابات بين قيس ويمن بلغت أوجها من أجل الولاية حتى لقد تقلب على مصر بين سنتي ١٢٧ و ١٣٢ هـ ستة ولاة • وتلقت مصر مروان بن محمد وهو هارب اليها ، بالفتن والانتقاض ، في كل مكان •

وثار القبط ثورات عديدة منذ سـنة ١٠٧ هـ / ٧٢٥ السنة التي سجلوا فيها أولى ثوراتهم الكبيرة ثم اعقبتها ثورة أكثر عنفـاً رافقتها حملة بيزنطية كبيرة على الدلتا ١٢١/٧٣٩ ثم كانت سنة ١٢٧/٧٤٥ ثورة ثالثة ولكن من القبائل العربية في الدلتا هذه المرة احتجاجاً على فداحـة الضرائب • على أن ثورات القبط استمرت فيما بعد حوالي القرن •

وفي اليمن وحضر موت ثار أبو حمزة الخارجي (ومعه عبيد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق) واستطاع ان يدخل الحجـاز ويحتل مكة والمدينة ثم ارتد عنهما وقتل سنة ١٣٠ هـ •

وفي الشام قام نزاع مقيت على الخلافة . فلما تولاها مروان بن محمد وانتصرت به قيس اجتمع على أهل الشام ضربتان معاً : ركود الحركة التجارية بسبب الحرب الاقتصادية مع الروم . وتوقف تجارة البحر من جهة ، ونقل مركز الخلافة عنهم وما يقطع ذلك من مصالحهم المرتبطة بها من جهة أخرى • فكان من هذا الضيق المضاعف بالاضافة الى العوامل القبلية وغيرها أن ثار ثابت بن نعيم الجذامي (اليماني) في فلسطين فوصل حتى حمص • وثار أهل الغوطة وحاصروا دمشق بعد أن ولوا على انفسهم يزيد بن خالد القسري • وثار سليمان بن هشام في قنسرين وفي حمص وتدمر •• وشغل الخليفة باخماد هـذه الفتن اليمانية في قاعدة ملكه عن غيرها •

وفي العراق ثار أيضاً وأيضاً عبد الله بن معاوية بن جعفر بن ابي طالب وملك الكوفة والحيرة . وانضم اليه وبايعه جموع من بلاد فارس وكرمان والاهواز ، حتى وسليمان بن هشام الثائـر الاموي بالشام • ولكنه لم يستطع ان يصمد للخوارج فانهزم الى فارس • وقتلـه ابو

مسلم الخراساني • وانشق في تلك الاثناء والي العراق عبد الله بن عمر على الخليفة فبعث اليه الخليفة مروان من حاربه حتى ظهر الخوارج •

اما هؤلاء فقد استفادوا من الفوضى فانحدروا من الجزيرةالعليا بعد ان استخلفوا ابن بهدل الشيباني ، ولكنه اصيب بالطاعون قبل ان يتم له الامر في العراق • فقادهم الضحاك بن قيس الشيباني ودان له معظم العراق مع اذربيجان وارمينية وشهرزور • وقد قتل الضحاك حول ماردين • وبالرغم من ان شيبان اليشكري الذي ولي أمر الخوارج من بعده قد هزم مروان الا انه انهزم بعد ذلك • وتشتت امر هذه الفئة الخارجة سنة ١٣٠ هـ بعد وصول يزيد بن هبيرة والياً على العراق •

وفي جنوب العراق ثار كذلك الزنج أكثر من مرة • ولعل ثوراتهم كانت من أولى الثورات الطبقية في التاريخ الاسلامي • كانوا قد جلبوا بأعداد كبيرة للعمل في الأرض الزراعية الصعبة في جنوب العراق •وانما ثاروا نتيجة شروط معيشتهم القاسية • وقد سجل البلاذري خاصة وابن الأثير ثورتهم مرتين :

الأولى : في آخر أيام مصعب بن الزبير (حوالي سنة ٧٠ هـ) «إذا اجتمعوا بفرات البصرة ولم يكونوا بالكثير فأفسدواوتناولواالثمار وكثروا • وجمع لهم والي البصرة خالد بن عبد الله جيشاً فلما بلغهمذلك تفرقوا وأخذ بعضهم فقتلهم وصلبهم» •

الثانية : كانت سنة ٧٥ هـ • فقد استغلوا حركة ابن الجارود في البصرة «فاجتمع خلق كثير منهم بالفرات وجعلوا عليهم رجلا اسمه رباح ويلقب شيرزنجي يعني أسد الزنج وقد تلقب أيضا بأمير المؤمنينفأفسدوا فلما فرغ الحجاج من ابن الجارود أمر زياد بن عمرو وهو على شرطة

البصرة أن يرسل اليهم جيشاً يقاتلهم ففعل وسير إليهم جيشاً عليه ابنه حفص بن زياد فقاتلهم وقتلوه وهزموا أصحابه ثم أرسل إليهم جيشاً آخر جندله المحاربون من أخماس المدينة فهزم الزنج وقتلهم واستقامت البصرة ...» [1]

ويظهر أن استياء هذه الطبقة الزنجية الزراعية ظل كامناً مستمراً قوياً بدليل أنهم ثاروا ثورة كبيرة في مطالع العصر العباسي . وقد سجل المؤرخ الأزدي [2] في سطر عارض من كتابه تاريخ الموصل . كما سجل البلاذري أيضاً . ثورة «العبيد» في البصرة ١٤١ هـ . وما من شك في أن هذه الثورات الفاشلة كانت إرهاصاً ونماذج سابقة لثورة الزنج التي خربت البصرة فيما بعد ٢٥٥ هـ .

واما في خراسان أخيراً فقد كانت الخصومة على اشدها بين نصر ابن سيار والي الخليفة (القيسي) وبين جديع بن علي الكرماني (اليماني) وزاد في تأرثها : عصبية نصر . وقلة قوته . امام الزعيم اليماني وغيره من الثائرين . (فقد كانت ثورة الحارث بن سريج التي بدأت سنة ١١٦ لم تخمد بعد) . وقد حاول نصر بن سيار استرضاء الحارث واغراءه فلم يفلح . ولئن قتل الحارث سنة ١٢٨ فان مقتله لم ينه الثورة لانها برزت من جديد على يد الداعية العباسي ابي مسلم الخراساني الذي استطاع الاستفادة من الخصومة بين نصر والكرماني . ليوسع الشقة بين فرعي

---

(١) انظر الكامل لابن الاثير (حوادث سنة ٧٥ هـ) ج٤ ص٣٨٨ وانظر تفصيل ذلك لدى البلاذري انساب الاشراف (مخطوط استامبول) المصور في دار الكتب المصرية برقم ١١٠٣ المجلد ٧ الورقة ١٣و١٤ .

(٢) انظر تاريخ الموصل لابي بكر الازدي ص ١٧٣ .

العرب ، ويكسب اليه الانصار • والواقع انه ليس يعود نصر ابي مسلم والعباسيين ، الى ما اتفق لهم من قوة ، بقدر مـا يعـود الى ضعف الامويين وتحطم قوتهم بهذه الثورات المتتالية •

٣ ـ اضطراب الشام وأزمة الاسرة الاموية :

لم يكن الاضطراب الاجتماعي الاقتصـادي في المجتمع الأموي الأخير كافياً لتشكيل أي خطر على العرش الأموي ، ولا كانت التيارات السياسية التي قادها الشيعة أو الخوارج أو أصحاب الأفكار الأخرى بالكافية لهز ذلك العرش فقد استطاع الأمويون دوماً الانتصار عليها • وبالرغم من مشاكل السياسة الادارية والثورات ومساوىء السياسة المالية وما كانت ترهق من الناس فانها لم تكن مرة السبب الأول في التحرك ضد الامويين • تلك الامور كلها كانت تشكل إطار المشكلة • كـانت الحواشي المساعدة على الاستياء والنقمة ولم تكن الصميم الذي تنبع منه عناصر تدمير ذلك البيت • وقد كان بامكان بني أمية ان يستمروا طويلا في عرش الخلافة لولا أن ركائز حكمهم في مستقره في الشام من جهة وفي الأسرة الأموية ذاتها من جهة أخرى كانت تمر بأزمة حادة ؛ كانت تتحول التحول الانقلابي في تلك الفترة من أواخـر العصر الأموي • وها هنا ، في الواقع ، يجب أن نفتش عن السبب الاساسي في سقوط البيت الاموي •

ولو وضعنا أزمة التحول العنيفة هذه في مكانها من تطور التاريخ الاسلامي لوجدنا أنها كانت الأزمة الرابعة القاسية في مساره • لقـد سبقها أولا حركة الردة من قبل ، ثم فتنة عثمان وما تلاهـا حتى استقر الأمر لمعاوية • ثم كانت الازمة الثالثة منذ عهد يزيد الأول ، يوم بـرز

صراع أولاد الصحابة خاصة فيما بينهم حتى انتهى الأمر باستقرار الحكم حوالي سنة ٨٥ بيد البيت المرواني بعد السفياني • وغبرت بعد ذلك أربعون سنة مستقرة ظهرت في أواخرها في المجتمع الاسلامي ، وخاصة في الشام ، ظروف وأوضاع جديدة هزت استقراره وأوقعته منذ حوالي سنة ١٢٠ في الأزمة الرابعة التي أطاحت بالأمويين • وإذا عبرت الثورات والاضطرابات ، في تلك الفترة ، وعبر انتشار الاستياء في الناس . عن ظهور تلك الظروف والأوضاع الجديدة في العديد من مناطق الدولة فإن الأزمة أخذت شكلها الحاد الخطر في الشام ، مركز الحكم الأموي • وإذا اتجه بنو العباس بتلك الأزمة في خراسان لمصلحتهم فكانت طريقهم الى الخلافة فيما بعد فإن بني أمية لم ينتبهوا إلى أنها كانت تسير بالمقابل، في الشام، في اتجاه تدمير العرش الأموي، وقد أعجلت العناصر الواعية منهم ، وعلى رأسها مروان بن محمد . قبل أن تستطيع بناء التكوين السياسي الاجتماعي الجديد الكافي لحماية ذلك العرش •

والواقع أن الثورة العباسية على الأمويين إن كانت سوف تنجح عن قريب في إسقاط البيت الأموي فلأنها . في الدرجة الأولى . جاءت متواقتة مع وقوع هذا البيت في أزمته الحادة • ولأنها جاءت وهذا البيت كله ينتقل من طوره القديم الى طور يحاول أن يتلاءم فيه مع الاوضاع الجديدة • وقد فوجيء بالثورة قبل أن يستكمل عناصر الخلاص من تلك الأزمة التي نسميها تجوزاً بالازمة وقد يكون في إعطائها هذا الاسم بعض التشوية لواقعها الانقلابي • انها في الحقيقة عملية تطور جذري ونهضة أخيرة كان البيت الأموي في سبيل القيام بها سواء في الفرع المالك منه أو في عصبيته الحامية أو في نوع تلك العصبية ومكانها الجغرافي • والأزمة

جاءت من أن ذلك البيت وقد تخلى عن التكوينات السياسية التي حملته قرابة القرن لم يكن قد أنشأ بعد كافة تكويناته الجديدة حين تدفق الثوار من خراسان على العراق فكانت معركة الزاب كافية للقضاء عليه .

بدأت تلك الأزمة ــ النهضة حوالي سنة ١٢٠ أي في السنوات الأخيرة من عهد هشام بن عبدالملك . لكنها أخذت أبعادها المدمرة بعده في عهد الوليد ابن يزيد ، ثم يزيد الثالث ولم يكن صراع ابناء البيت الأموي يومذاك سوى مظهر من مظاهرها . فلما جاء مروان بن محمد لم يستطع رغم كفاياته الحربية والادارية وجهده الدائب الصبور أن يوقف العجلة الهاوية على المنحدر فسقط تحتها صريعاً . كانت عوامل الانهيار أقوى من مدى يديه في البناء . وعناصر تلك الأزمة التطورية مشتبكة وقد صبغت بالدماء أحياناً ويمكن أن نجملها في نقاط ست :

١ ــ انتقال مركز الحكم من جنوب الشام ومن دمشق بالذات الى شمالي الشام ثم الى الجزيرة .

٢ ــ سيطرة العصبية القيسية بعد طول تسلط العناصر اليمنية .

٣ ــ تبدل نوعية تلك العصبية : من جماعات مدنية الى جماعات عسكرية .

٤ ــ دبيب الخلافات العقدية بين أبناء البيت الحاكم ما بين جبرية وقدرية واعتزال .

٥ ــ نكبة جنوب الشام بالفتن والدمار من جهة وبالأوبئة من جهة أخرى .

٦ ــ انتقال عرش الخلافة ضمن البيت المرواني نفسه من أولاد عبد الملك بن مروان إلى أولاد أخيه محمد بن مروان .

والملاحظة الأساسية هنا أن ما نسميه في العهد الأموي بالعصبية القبلية بين قيس ويمن كان في الواقع . تعبيراً عن آراء سياسية . وكانت هذه العصبية نفسها تتطور لتأخذ شكل ودور الأحزاب السياسية في دولة بني أمية . ولهذا كانت رغم ظاهرها القبلي تتحول من الداخل إلى حزبين سياسيين يشترك فيهما أحياناً بعض اليمانيين مع القيسيين وبالعكس . ولكل حزب مراكزه الجغرافية وعقيدته الدينية ــ الفكرية، وزعامة من البيت الأموي نفسه وتنظيماته العسكرية . وفي أزمة المخاض لظهور هذين الحزبين بوضوح بين الأمويين في الشام ضربت الثورة العباسية ضربتها . وكانت معركة الزاب عند الموصل كافية لاحتلال الجزيرة والشام وإسقاط العرش الأموي ...

ولعلنا نلقي بعض الأضواء على هذه الأزمة إن بدأنا من جذورها الأولى فقد وصل هشام بن عبد الملك إلى الخلافة بعهد من أخيه يزيد الذي قدمه على ابنه لأنه كان شاباً بينما كان الوليد بن يزيد فتى صغيراً ولكنه في الوقت نفسه جعل ولاية العهد بعد هشام لابنه الوليد . وكان طبيعياً أن يفكر هشام في تحويل الخلافة لابنه مسلمة وفي أبعاد ابن أخيه الوليد عنها ووجد في الحياة اللاهية التي يحياها الوليد مطعناً واضحاً عليه لكن ابنه مسلمة لم يكن في الواقع أحسن حالا من ابن أخيه فتشدد على الاثنين التشدد الذي جعل الوليد يهرب إلى البادية ناقماً منتظراً موت هشام بينما كان رجال الحاشية من امثال ابراهيم ومحمد من بني مخزوم ، وبني القعقاع من عبس يحرضون هشاماً على خلعه ..

وقد فرح الكثيرون من بني أمية بوفاة هشام وولاية الوليد (الثاني) من بعده وهو الشاعر ، المقبل على الحياة ولذاتها . ولكن الوليد أدار ظهره لهم : ترك دمشق ، ليجعل مقره في «الغدف» بالبادية كما فعل من قبله هشام حين جعل مقره في الرصافة . وأنفق الأموال على حاشيته وفي الاعطيات والهبات جزافاً بينما أبعد الامويين . وتشدد في الانتقام من خصومه الذين كانوا يحرضون على خلعه فأثار ضده بني مخزوم وبني عبس ثم باع خالداً بن عبد الله القسري ، عامل العراق لهشام، من خصمه يوسف بن هبيرة فعذبه هذا حتى الموت ... وخالد من سادات اليمنية فلما قتل عمها الاستياء . وهكذا اجتمعت عناصر النقمة على الوليد ثم تراكمت حتى شكلت تياراً اشترك فيه اليمانيون والقيسيون والكلبيون وابناء القسرى وبعض من هضمت حقوقهم من الكتاب وبعض الأمراء من بني أمية ...

واستهتار الوليد ، مع قصر مدته وكثرة الناقمين عليه ، قد شوهت كلها سمعته في التاريخ وتركت للشائعات أن تنهشه نهشاً وتزعم في كثير من الظلم والكذب على الواقع . أنه مزق القرآن وشرب الخمر فوق الكعبة ... وهي شائعات سياسية كان القصد منها تبرير تلك المؤامرة التي حاكها الناقمون جميعاً لقتله .

ولم يكن الأمر بحاجة الى كل ذلك فإن المتدينين لم يكونوا بالراضين عن سيرته . لكن جماعة منهم هم «القدرية» كانوا هم الذين حملوا لواء تدميره . وكان هشام بن عبد الملك قد نفى هؤلاء القدرية خارج البلاد الى « دهلك »[1] فاستبقاهم الوليد هناك وكانوا ــ فيما

(١) هي جزر في البحر الاحمر تقابل مصوع وكان للامويين علاقات واسعة مع تلك المناطق .

يبدو ـ على علاقة واسعة ، من الناحية السياسية ، مع العلويين ويقولون ـ بخلاف الرأي الأموي الجبري ـ بحرية الانسان ومسؤوليتة عن أعماله ... وهكذا تراكمت عناصر الثورة على الوليد وتزعمها ابن عمه يزيد بن الوليد (يزيد الثالث أو الناقص) في دمشق فما هي إلا أن وصلت مجموعة من الثائرين الى «الغدف» لاتجاوز الألف حتى انهزمت حامية الوليد فدخل غرفته ووضع المصحف بين يديه وقال : يوم كيوم عثمان ! ... وكان ذلك !

وأعلن يزيد الثالث السير بسيرة عمر بن عبد العزيز . خطبته التي ألقاها لتبرير ثورته وخلافته اكد فيها تعهده بإنفاق خراج الأمصار فيها. وعدم إقامة الابنية والقصور والأخذ بالشورى ... الخ ولكن مصرع الوليد كان أول مصرع لخليفة أموي بعد عثمان . وقد نسي الناس منذ مقتل الامام علي أن الخلفاء يقتلون . كما كانت أول مرة في البيت السفياني تؤخذ فيها الخلافة بالقوة والقهر لا بالعهد والشرعية ، وهذا ما يفسر تردد الناس والولاة والامصار في البيعة ليزيد الثالث الذي ناصرته «القدرية» أوسع المناصرة وكاد يتشكل من حوله الحزب السياسي الأموي ـ اليماني ذو الرأي القدري والمتمركز في دمشق ولولا أن المنية فاجأته قبل أن يقضي ستة أشهر في الحكم ... فقضي في السنة نفسها التي قتل فيها الوليد سنة ١٢٦ .

ولقد استخلف يزيد الثالث من بعده أخاه ابراهيم بن الوليد بإشارة القدرية إلا إن بادرة يزيد نفسه في التسلط على الخلافة بالقوة وبقتل الخليفة الشرعي فتحت الباب ليطمع الأمراء الأمويون الآخرون بالعرش . وحين توفي يزيد الثالث كان شيخ بني أمية وأبرز رجالهم هو مروان بن محمد ، المحارب المجرب ذو الخمسة والخمسين عاماً . وكان طبيعياً أن يطمح للخلافة ولكنه أراد على ما يظهر استئصال الطامعين

الشرعيين فيها من أبناء بيت عبد الملك فأعلن البيعة لولـدي الخليفة القتيل : الوليد بن يزيد • وكان الولدان بدمشق أي في قبضة الخليفة الجديد ابراهيم • فكانت بيعة مروان لهما كافية لإلقائهما في السجن ثم تقديمها الى النطع ••• وأعلن مروان بن محمد المطالبة بدم الأخوين القتيلين • بعد أن كان يحارب لخلافتهما ، وكان جيشه يسير من الجزيرة الى الشام فلم يجد بعد هزيمته لقائد جيش ابراهيم من مقاومة تذكر حتى دخل دمشق على ابراهيم ••• ولم يجد صعوبة في أخذ البيعة لنفسه حتى من ابراهيم ، الخليفة القائم ذاته •

على ان خلافـة مروان بن محمـد لـم تنقـل الحـكم مـن بيت عبد الملك بن مروان إلى بيت أخيه محمد فقط ولكنها في الوقت نفسه قلبت مراكز الثقل في الحكم الأموي رأساً على عقب وأعطتها صيغاً وأمكنة وتكوينات جديدة كان من الممكن أن تدعم هذا البيت أحسن الدعم لولا أنها كـانت في أول نشوئها حين انتصر العباسيون في معركة الـزاب :

فقد كانت دمشق قد ضعفت الضعف الواضح بانتقال الخلفاء عنها منذ عهد هشام وبكثرة الأوبئة والطواعين التي أصابتها ، نتيجة لتكاثف السكان فيها ، وبضعف أوضاعها الاقتصادية إثر تحـول طرق التجارة العالمية إلى العراق والجزيرة • ثم جاء مروان فكرس إضعـاف دمشق نهائياً ، بعد طول الاهمال ، بنقل العاصمة منها إلـى الجزيـرة • نقل الدواوين والأموال ومقر الخلافة إلى حران ثم أنشأ في شرقي حران ، في المنطقة المسماة باسم الموصل[1] ، مدينة له • شق فيها الطرق وبنى

---

(١) انظر خبر ذلك في مادة الموصل لدى ياقوت في معجم البلدان •

السور وأقام المسجد الجامع وسكن وأسكن .. ليجعل منهـا عاصمة الدنيـا .

ولم تكن نقلة العاصمة أمراً عادياً فقد كان ذلك يعني التخلي عن أهل الشام أي عن العصبية والمنطقة والمدينة التي كانت ، منذ عهد معاوية الأول ، سند الحكم الأموي . وكلمة أهل الشام كانت دوماً تعني جنوب الشام منذ شمال حمص خاصة حتى العقبة وقـد يشمل أحياناً بعض الأرضين حتى قنسرين . وكتلة السكان العرب في هذا الشام كانت من قبائل كلب اليمانية وعلى هذه القبائل أقام معاوية حكمه ، وعليها أقامه مروان بعد أن كسب بها معركة مرج راهط، وإليها استند الخلفاء واحداً بعد الآخر حتى أخطأ يزيد الثاني فقضي على المهـالبة ثم جاء مروان فانسحب من المنطقة كلها ليستقر ضمن القبائل القيسية في الجزيرة ويعلن العداء للشام الجنوبي ولمن فيه . ولهذا فإنه حين انهزم قرب الموصل لم يستطع الوقوف في الشام كله وكانت أول محطاته ، بعد الجزيرة ، في مصر !

وقد رافق انتقال مركز الخلافة الى الجزيرة امران هامان بطلهما مروان أيضاً :

الأول : انتقال قطع كبيرة من الجيش الشامي الى الجزيـرة ، لتكون بجانب الخليفة هناك ولتتابع المعارك التي ظل يقودها اكثر من خمس عشر سنة في ارمينية وما وراء القفقاس حتى أرض الخزر في قلب روسيا وعلى نهر الفولغا . ولم يكن لهذا الانتقال ـ فيما عدا الناحية الاقتصادية ـ أن يترك الأثر الكبير لولا أن مروان المحارب القدير قد حطم التكوين القبلي للجيش واستبدل به تنظيماً آخر يعتمد علـى التجنيد التطوعي

ونظام الكراديس • لم يعد الجيش كتائب قبلية تجاهد في الصيف ثم نعود في الشتاء الى مراكزها ومنازلها بل أضحى فرقاً منظمة ، تعتمد على التدريب وترتبط بقائد يعهد إليه الخليفة بجمعها وتنظيمهـا وتحمل في النهاية اسمه (كالوضاحية والذكوانية) لا اسم القبيلة • اختفت اسماء القبائل من الجيش وحلت اسماء القواد بدلا منها وحلت الرواتب المنظمة بدل العطاء وأسهم الغنيمة • ومروان بن محمد لم يكن هو الذي أوجد هذا النظام ولكنه هو الذي كرسه وجعله نظامه ••• وهذا ما أوجد من حوله في الجزيرة مجتمعاً عسكرياً جديداً قد تكون قاعدتـه الواسعة قيسية ولكنها تضم أيضاً الكثير من اليمانيين المتطوعين للعمل الحربي • كما انه عطل بهذا الشكل نفسه عمل المجتمع الشامي الجنوبي من الناحية العسكرية وحوله نهائياً إلى مجتمع مدني بعيد عن التأثير في توجيـه سياسة الدولة •••

الثاني : تبنى الخليفة مروان وجماعته رأياً دينياً ـ سياسياً مميزاً هو الذي أعطى مروان لقب (الجعدي) • فإن هذا المجتمع العسكري ، ذا الزعيم والعاصمة والعصبية ، كان في الوقت نفسه ذا رأي دينـي خاص أيضاً هو مذهب الجعد بن درهم • وكان الجعد يقول ـ بين ما يقول ـ بأمرين :

أولهما : الجبرية ، وأن الانسان مسير غير مخير • الله خلق له أفعاله فليس له إلا تنفيذ مشيئة الله •

الثاني : نفي بعض صفات الله كالكلام • فالله لم يكلم موسى تكليماً ولا اتخذ ابراهيم خليلا بالمعنى الذي نفهمه من الكلمتين • وعلى هذا المنطق نفسه فالقرآن مخلوق • لأن كلام الله ليس ذاته وليس بالقديم ولكنه محدث •••

وإذا كان القول بالجبرية هو الرد الأموي الفكـري على الآراء العلوية التي كانت تقول بالاختيار ومسؤولية الانسان عن عمله ، فإن القول بنفي بعض الصفات عن الله كان يتلاءم مع مايجب أن يقول بـه المسلمون في مجتمع كمجتمع الجزيرة يتكون معظمه من النصارى كما يجاور الروم وهؤلاء وأولئك يؤمنون بان السيد المسيح كلمة الله وأنه ذاته ومنازعات الجدل النظري كانت لا بد أن ترافق العلاقات الحربية بين المسلمين وبين هؤلاء ...

وهكذا كان البيت الأموي يتجدد على نحو ما، ويحقق نهضته الخاصة على يدي الخليفة مروان: يتحول الى أبناء محمد بن مروان ويبني مجتمعاً عسكرياً ضمن عصبية جديدة في مستقر جغرافي مختلف وعاصمة مستحدثة وفي إطار أفكار دينية ـ سياسية خاصة ... هاجراً بذلك والى حد كبير المجتمع والعصبية والمكان الجغرافي والعاصمة والى حد ما الأفكار الدينية التي كانت تسانده قرابة القرن ... كان كذلك حين فوجيء بوصول الثوار العباسيين الى الزاب . وكانت الثورة من العنف والمفاجأة بحيث لم يستطع التكوين الجديد أن يصمد لها فسقط مروان رغم كل ما تحلى بـه من صفات الخليفة القوي المحارب الصبور تحت سنابكها لأن التكوين الأموي الجديد لم يكن من القوة ولا النضج بحيث يستطيع أن يسند ظهـره .

٦ ـ العلاقات الخارجية (الحرب الاقتصادية مع الروم)

بين عوامل سقوط العهد الأموي ثمة وجه سياسي اقتصادي مهمل لا يعيره الباحثون أي التفات رغم شأنه الكبير ، هـو تلـك الحرب الاقتصادية التي كانت قائمة بين الدولة العربية والروم مدة تزيـد على

أربعين سنة ، من أواخر ذلك العهد . وقد نجمت عن تلك الحرب الباردة أزمة اقتصادية قاسية في الشام ومصر خاصة لا تقل أثراً عن غيرها من الازمات في تدمير الحكم الأموي .

وبالرغم من أن هذه الناحية تحتاج الى المزيد من الدرس والتعمق إلا إنه ليس من الصعب تسجيل الخطوط العريضة لها[1] . والتي يمكن أن تكون الخلفية المادية للثورة وأحد الاسباب الاقتصادية الاساسية التي عملت على هدم العرش الأموي .

فإن توقف الفتوح قد انقص دون شك من موارد المقاتلين العرب ، ولكنه لم ينقص من موارد الدولة بالشكل الذي يجعلها تهتز وقد عوض الأمويون عن نقص الموارد المختلفة ، بعد موجة الفتوح الأولى بالاصلاح الضرائبي الذي تم زمن عبد الملك وخاصة في الشام ومصر والجزيرة والعراق (مع الحجاج) ، وكان الدخل العام في مصر وافريقيا وفي الشام خاصة حتى أواخر القرن الثاني من الوفرة بحيث يسمح بحياة اقتصادية مزدهرة على شواطىء البحر الابيض المتوسط قوامها حرية التجارة مع البيزنطيين وعبر أسطولهم وموانئهم في جنوب أوروبا ما بين ايطاليا والاناضول ، مع أوروبا الوسطى والغربية . وقد كانت هزيمة « ذات الصواري » البحرية ٦٥٥ قد اسلمت البحر المتوسط وتجارته لأيدي العرب . ولم يقاوم البيزنطيون التوغل التجاري العربي لأنهم كانوا أول المستفيدين منه كما أن هذا التوغل ظل على ما يظهر في الأيدي التقليدية

---

(١) درس ارشيبالد لويس جوانب من هذه العلاقات الخارجية في الفصل الثالث «فصل الغزو العربي» من كتابه : « القوى البحرية والتجارية في البحر الابيض المتوسط » .

للطبقات التجارية المحلية في شواطيء الشام ومصر كما ظل يجري بالنقود البيزنطية ودون أي تدخل أو توجيه من نظـام الحكم في دمشق •

وقد استفادت البلاد الشامية لا من وجود عاصمة الخلافةالاسلامية عندها وتدفق أموال الخراج والغنائم عليها فقط وتركز السلطات والقوى الامبراطورية في الشام ولكن من إلغاء مراكز المكوس القديمة التي كانت تقوم زمن الساسانين والبيزنطيين على الحـدود بين الشـام والعراق والجزيرة أيضاً • وبالمقابل فإن مصر التي طالما قاوم الساسانيون النشاط التجاري المتحرك منها واليها عبر البحر الأحمر أيام البيزنطيين والرومان من قبلهم حتى إنهم احتلوا في أواخر القرن السادس بلاد اليمن لإغلاق ذلك البحر على التجارية الرومية ، مصر هذه انطلقت حرة التبادل [1] في البحرين الأبيض والأحمر على السواء اللذين اتصل أحدهمـا بالآخر في عهد عمر بن الخطاب بخليج أمير المؤمنين • ولقد قال رحالة أوروبي زار الاسكندرية ٧٠٥ م هو (أركولف) ان الاسكندريـة غدت ملتقى تجارة العالم كله تتوافد عليها الاعداد الغفيرة من التجارة لشراء ما بها من البضائع • وهذا الرخاء في وادي النيل في مطالع القرن الثامن جعل الوالي يبعث الى دمشق يسألها أين يضع الموارد التي لم تعد خزائنـه تتسع لها فأمر أن يبنى بها المساجد ! أما ثراء شمال افريقيا والاندلس فتكشف عنه مبالغ الخراج الهائلة التي كان يرسلها ولاة تلك البقاع الى دمشق •

---

(١) لنلاحظ ان الوحدات البحرية العربية في البحر الاحمر ساعدت والي مصر في ثورته سنة ٦٨٤ ضد خليفة دمشق ونقلت هذه الوحدات قوات محاربة الى الحجاز سنة ٦٩٢ (انظر فييت : مصر العربية بالفرنسية) ص٣٩ و ص٤٤

الحرب الاقتصادية : وقد حدث في مطالع القرن الثامن تطور أدخل الاضطراب على مسالك التجارة التقليدية وطرقها البحرية والبرية في شرقي المتوسط : فقد حاول الروم البيزنطيون ان يبدلوا بالطرق المارة من بلاد العرب وبحارهم طريقاً آخر شمالياً يمر عبر البحر الأسود إلى بلاد الخزر ثم يتصل بالصين عبر السهوب التركستانية • ووطد الروم صلاتهم حتى المصاهرة مع ملوك الخزر في الوقت الذي حاولوا فيه مرات عديدة استغلال الجماعات المسيحية[1] على الشواطىء الشامية والمصرية لإثارة الفتن في البلاد الاسلامية وتقوية الاسطول الرومي لتظل مفاتيح التجارة في أيديهم • وقد شعر عبد الملك بن مروان بكل ذلك وبأن البيزنطيين يحاولون تدمير الوحدة الاقتصادية والتقليدية للبحر الابيض المتوسط التي أبقى عليها العرب بعد الفتح • وأنهم كما قال المؤرخ بيرين، «في حرب الحياة والموت مع الأمويين يحاولون استخدام كافة مالديهم من وسائل الحرب البحرية والاقتصادية» ولهذا ولأن الدولة الاسلامية كانت قد بلغت رشدها ونموها المستقر فقد خطا عبد الملك خطوة تعريب الدواوين ، والسكة ، وفرض الرقابة على بعض بضائع التجارة فمنع تصدير ورق البردي من مصر الى بيزنطة • وبدل شعار الثالوث عليه نصاً توحيدياً عربياً • أدخل عبد الملك بذلك عنصراً جديداً على حرب العرب للروم هو العنصر الاقتصادي الذي طالما استغله الروم قبل ذلك • وفي الوقت الذي فاوض فيه عبد الملك امبراطور بيزنطة لنقل بعض السكان (المردة) من سواحل الشام الى أرض الروم للخلاص منهم ، لم

---

(١) لم تنفع محاولة معاوية توطين بعض الجماعات من الفرس على الشاطىء الشامي ، في الحد من هذا الاستغلال الذي أخذ أبعادا واسعة زمن ثورة عبد الله بن الزبير ومطالع حكم عبد الملك . وكان « المردة » في لبنان هم راس الحربة في الدسائس الرومية .

تكن الحملات الحربية العادية بين الطرفين لتتوقف • وهكذا اتسعت الحرب بينهما في الميادين فأضحت برية ، بحرية ، سكانية ، اقتصادية •

وبالرغم من أن الامبراطور جستينان الثاني قد دخل القتال سنة ٦٩٣ جواباً على التدابير العربية وخسر ذلك القتال ثم دخل الحرب حين عاد إلى العرش مرة أخرى بغارة بحرية فاشلة على مصر سنة ٧٠٩ إلا إن الحرب الاقتصادية استمرت من بعده ومن بعد عبد الملك على يد ابنه الوليد الذي زاد ففرض الرقابة على حركة التجارة في مصر خاصة : فالسفن النيلية خاضعة للتفتيش ، ويقتل من قد يوجد عليها من الروم دون اذن مسبق ، وعلى التجار الحصول على جواز يسمح لهم بالسفر الى خارج القطر ولم يضعف من تلك التدابير ــ بل لعله زاد فيها ــ فشل الهجوم العربي الثالث ــ والأخير ــ على القسطنطينية سنة ٧١٧ ــ ٧١٨ •

وقد قابلت بيزنطة التدابير العربية بأشد منها وفرضت نوعاً من الحصار البحري التجاري ضد المسلمين في السواحل التي تخضع لها سواء في ايطاليا أو موانىء اليونان أو قبرص أو شواطىء الاناضول • ولما كانت لا تستطيع فرض الحصار الشامل بسبب حاجتها الى بعض البضائع التي لابد أن تمر عن طريق بلاد العرب كالتوابل فقد خصصت ميناء طرابزون على البحر الأسود ، ثغراً لدخول كافة التجارات العربية الى بيزنطة ، والهدف من ذلك تحويل الثقل التجاري من موانىء مصر والشام الى الداخل البري ، عبر العراق وأرمينية • وربطه بمرفأ آمن من الهجوم العربي وتحت يدها المباشرة يصبح نهاية للتجارة العربية معها •

ومنذ فشل الهجوم العربي الثالث على بيزنطة سنة ٧١٨ انتشرت القوة

البيزنطية البحرية في البحر الابيض المتوسط وامتلكت عدداً من الجزر المواجهة للشاطىء الأوروبي : جزر الباليار ، سردينية ، كورسيكا ، بعد أن شددت قبضتها على قبرص وكريت فأتمت بذلك امتلاك سلسلة المراكز الأمامية للمراقبة والحصار • وما من شك في أن الثورات والاضطرابات العديدة التي قامت في النصف الأول من القرن الثامن وخاصة بعد مقتل الوليد الثاني ١٢٦/٧٤٤ في افريقيا وفي مصر وفي الشام والعراق وخراسان لم تكن جذورها سياسة أو دينية فحسب ولكنها كانت أيضاً نتيجة الضائقة الاقتصادية المتزايدة بسبب هبوط الحركة التجارية عامة في شرقي المتوسط • والقيود التي فرضها الطرفان • كل من جانبه ، عليها • وقد تمادت هذه الثورات بدورها فتركت آثارها في ايقاف الحركة التجارية الداخلية وتعطيل الانتاج الزراعي •

ولعله من الهام أن نذكر أن آثار هذه الحرب الاقتصادية وصلت حتى الى فرنسا التي عانت بعد سنة ٧١٦ كساداً اقتصادياً واضحاً وانقطع تجار سورية ومصر عن موانئها الجنوبية وتوقفت منذ أواسط القرن ولمدة خمسين عاماً عن ضرب العملة الذهبية واكتفت بالعملة الفضية • وهجر البحر المتوسط عامة بعد أن كان مجاز التجارة الكبير بين الشرق والغرب •

وإذا عدنا إلى الشام مقر الخلافة الأموية وجدنا مما يلفت النظر أن يحاول مروان بن محمد الخلاص من ثورات الشام واضطراباتها بنقل عاصمته الى حران على طريق التجارة الحي بين العراق وطرابزون وأن لا يتحول الخلفاء العباسيون الأوائل ، أثناء بحثهم عن عاصمة

جديدة عن محور خليج البصرة ـ الموصل فتتعدد عواصمهم الأولى قبل أن يستقروا أخيراً في بغداد ثم بعد ذلك في سامراء وكلها مدن تقوم على هذا المحور نفسه •

وهكذا يظهر كأنما كانت نتيجة الحرب الاقتصادية مع الروم هي التي سوف تحدد مصير النظام الأموي • ويظهر كأنما سقطت الخلافة الأموية اقتصادياً قبل سقوطها السياسي بسبب التدهور الاقتصادي ـ التجاري في القطرين الأساسيين اللذين تستند إليهما وهما : الشام ومصر •

العمليات البحرية :

ولقد حاول الأمويون المقاومة العنيفة دون شك بعد فشل هجومهم على القسطنطينية سنة ٧١٧ ، فقد كان لديهم أسطول سورية وأسطول مصر ثم أضافوا إليهما بعد سنة ٧٠٤ أسطولاً افريقياً فأغاروا على قبرص سنة ٧٢٦ • وفرضوا عليها الجزية الضخمة ، ثم أغاروا عليها كرة أخرى سنة ٧٤٣ وحملوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى • وتعرضت صقلية في سنوات : ٧٢٧ ـ ٧٢٩ ـ ٧٣٠ ـ ٧٣٣ ـ ٧٤٠ ـ ٧٥٢ لغزوات الاسطول الإسلامي • وأغار العرب على سردينيا سنة ٧٣٥ و سنة ٧٥٢ ولم يهزموا إلا مرتين سنة ٧٣٣ و سنة ٧٣٥ ولكن الاسطول البيزنطي الذي كانت قواته تتكون من أسطول مركزي امبراطوري وأربعة أساطيل إقليمية ترابط ثلاثة منها في الحوض الشرقي من المتوسط والباقي في الحوض الغربي ، جمعت قياداته الشرقية ، في عهد ليو الثالث الايسوري ، بيد قائد أسطول جنوب الأناضول ، الذي أعطي لقب القائد العام للاسطول • وقد

استطاع هذا الاسطول ، بعد أن أضحى أضخم بكثير مما يلزم للحاجات الدفاعية في المنطقة ، في عهد قسطنطين الخامس ، أن يضيــق الخناق سنة ٧٤٧ على العمارة البحرية العربية التي كانت تزيد على ألف سفينة وأن يطوقها بالنار الاغريقية في شمال قبرص ويمزقها شر ممزق فلم ينج منها سوى ثلاث سفن هاربة •

وإذا كانت هذه المعركة البحرية الفاصلة سنة ٧٤٧ هي الجواب ، بعد مائة عام تقريباً ، على معركة ذات الصواري سنة ٦٥٥ ، وإذا كانت قد أعادت سيطرة الروم على البحر المتوسط ، فانها لحد كبير قــد ختمت جولات الصراع في الحــرب الاقتصادية مــع العرب وأعطت مفاتيحها للروم مدة طويلة بعد ذلك • وإذا كانت بيزنطة قد أيدت نصرها هذا بنصر آخر سنة ٧٥٢ أنهى السفن البحرية العربية تماماً : فإن الامويين كانوا قد زالوا قبل ذلك بسنتين وتولى الأمر من بعدهم العباسيون ، وكان النظام الاموي ، قبل أن يهزم في معــركة الزاب السياسية سنة ٧٥٠ قد هزم في المعركة الاقتصادية سنة ٧٤٧ •

٧ ــ الأمــل :

ان استعراض هذا الوضع كله يفسر لنا سوء الوضع العــام للخلافة الاموية ويفسر لنا تلك النظرة السوداء اليائسة التي كان ينظر بها رجال تلك الفترة إلى المستقبل والتي عبر عنها عباس بن الوليد الشاعر في قوله يخاطب الامويين :

انــي أعيذكــم بالله مــن فتــن
مثل الجبــال تســامى ثم تندفــع
ان البريــة قــد ملــت ســيادتكم
فاستمسكوا بعمــود الله وارتدعوا

ونرى هذا اللون الاسود مرة أخرى في قصيدة للحارث بن عبد الله الجعدي يقول فيها :

أبيت أرعى النجوم مرتفقا	اذا استقلت تجري اوائلها
من فتنة أصبحت مجللة	قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن	بالشام كل شجاه شاغلها
فالناس منها في لون مظلمة	دهماء ملتجة غياطلها
والناس في كربة يكاد لها	تنبذ اولادها حواملها

وقد كانت تعوز الامويين في تلك الفترة ــ مع تمزقهم الداخلي ــ القوة المعنوية الضرورية من طموح ناشيء أو مبدأ ديني لقمع تلك الثورة النفسية المتراكمة في النفوس أو لتبديدها أو امتصاصها بعمل ضخم .

وفي مثل هذه الاحوال ــ في العادة ــ يترقب الناس معجزة تنقذهم . وهذا ما يفسر لنا شيوع فكرة المهدي المنتظر في تلك الآونة بين الشعوب الاسلامية[1] وظهور أفكار أخرى غيرها قائمة على التنبؤ : كالتنبؤ ببعض الاحداث (ع بن ع بن ع يقتل م بن م بن م)[2] يعنون عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس يقتل مروان بن محمد بن مروان أو التنبؤ بمصير العالم أو برجعة عيسى بن مريم أو المهدي

---

(١) هذه الفكرة قديمة جدا ولئن شاع انها اسرائيلية الاصل فهي في الواقع منتشرة بين جميع الشعوب : تظهر في خرافة تيفون وخورس عند قدماء المصريين وفي خرافة ميترا لدى الفرس ، وفي كتب الصين القديمة وفي عقائد الهنود ، ولا تزال آثارها الى اليوم في اسكاندينافيا والمكسيك ولدينا نحن .

(٢) انظر الطبري ج٧ ص٣٢٠ (٢/١٩٠٣ ــ ١٩٠٤)

(المخلص ، المسيح) وهذه الفكرة الاخيرة قد صيغت إذ ذاك على الشكل التالي : سيظهر رجل ذو أعلام سود من المشرق ويزيل عرش بني أمية . وقد يخامرنا الشك في صحة ظهور هذه النبوءة بهذا الشكل في ذلك الوقت . لكننا نلاحظ ان محمد بن علي العباسي قد يكون أشار إليها في وصيته لابي مسلم حين ختمها بقوله : « أما بعد فاني أتفاءل الى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » . ولقد كان هذا التفاؤل في محله لانه بناه على ما يعرفه من الدعوة السرية العباسية .

ولعله من الهام أن نلاحظ أن الحزب الاموي حاول استغلال الفكرة نفسها لمصلحته وقد ادعى الامويون ، في نوع من الدعاية المضادة ، أن « المهدي » المنتظر هو من بني عبد شمس أو أنه عمر بن عبد العزيز أو أنه « أشج بني أمية » . روى ابن سعد في الطبقات الكبرى قول العرزمي : «... سمعت محمد بن علي (وانظر نسبة القول الى صاحب الدعوة العباسية الذي إن صح النقل عنه فقد قال ما قال سنة ١٠٠ وقبل تنظيم الدعوة) يقول : « النبي منا والمهدي من بني عبد شمس ولا نعلمه إلا عمر بن عبد العزيز » قال : « وهذا في خلافة عمر بن عبدالعزيز . كما روى ابن سعد قول أبي يعفور نقلا عن مولى لهند بنت أسماء : « ... قلت لمحمد بن علي : إن الناس يزعمون أن فيكم مهدياً . قال : إن ذاك كذلك . ولكنه من بيت عبد شمس . قال كأنه عنى عمر بن عبد العزيز ..» وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال لمن سأله عن المهدي : « هل رأيت الأشجع عمر بن عبد العزيز ... قال نعم . قال : فهو المهدي ...»[٢] .

---

(١) انظر الطبري ج٦ ص٥٦٦ (١٣٦٢/٢ ـ ٣)

(٢) ابن سعد الطبقات الكبرى ج٥ـ١ ص ٢٤٥

واستغل الامويون فكرة «السفياني» المنتظر ولعلها إشاعة تنبؤية راجت بعد انتقال العرش الاموي إلى المروانيين لكنها في أواخر العهد الاموي وجدت سوقاً رائجة • وقد حاول بعض السفيانيين تجسيد تلك الشائعة ومنهم أبو محمد السفياني ، زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية الذي ثار أولاً سنة ١٢٦ فحبس في حران وأطلقه مروان بن محمد سنة ١٢٧ ثم « خرج ودعا إلى نفسه فبايعه ألوف وزعموا أنه السفياني •••»[١] حين انتصر العباسيون •

على أن الناس عامة كانوا ــ فيما يظهر ــ أكثر ميلاً إلى تصديق النبؤات الاخرى التي تصوغ أمانيهم على شكل يخلصهم من الحكم الاموي • ومع أن الشك يحوم حول قصة من هذا النوع ذكرها الطبري فإنا نذكرها لانها قد تكون في أصلها ، وقبل وضع المعالم الواضحة من الاحداث في سطورها ، صحيحة • يقول : إن بعض اليمانية . بعد عودتهم من مكة تجادلوا مع نصر بن سيار في تدهور الامور واتهم كل طرف الآخر فقال رجل من أهل القرى حول جرو كان معهم : « أيها الامير • حسبك من هذه الامور والولاية • فإنه قد أطل أمر عظيم • سيقوم رجل مجهول النسب يظهر السواد ويدعو إلى دولة تكون • فيغلب على الامر وأنتم تنظرون وتضطربون ••» • فقال نصر : ما أشبه أن يكون لقلة الوفاء واستجراح الناس وسوء ذات البين »[٢] •

---

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق (مخطوط الظاهرية) ج٦ ورقة ١٨٥ وجه ويذكر في العيون والحدائق لمؤلف مجهول (طبعة دي غوية ج٣ ص١٢٠ ثم ص١٣٨ و ص١٣٩) أن أبا محمد هذا كان يحمل لقب السفياني منذ عهد هشام بن عبد الملك ويدعى ذلك .

(٢) الطبري ج٧ ص ٣٣٨ ــ ٣٣٩ (٢/١٩٣٠) .

الفصل الثاني

الثورة العبـاسية

١ ـ مقدمات الثورة : (البؤرة والدعوة) :

عرف الحكم الاموي نهاية الفاجعة سنة ١٣٢/٧٥٠ • وقد جاءت هذه النهاية شبيهة بالقدر المحتوم نتيجة عدد من العوامل والظروف اشتركت فيها من جهة الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة وما رافقها من مساوىء السياسة المالية والادارية ومن دعاية التيارات السياسية ـ الدينية المناوئة ، ومن التدهور الاقتصادي في الشام ، كما اشترك فيها من جهة أخرى عناصر أخرى بعضها من عمل بني العباس وبعضها من عمل الامويين أنفسهم • وإذا كانت العناصر الاولى عناصر ثانوية مساعدة ، فان الاخيرة كانت هي الاساسية والحاسمة • بل إن توافق العمل العباسي مع مرور الامويين بالازمة الحادة في الشام ، هو الذي قطع الحبل ببني أمية • فقد عرف الامويون هزات أقسى وأعنف واصطدم حكمهم بثورات أكثر خطراً وقوة من الثورة العباسية سواء في مكانها الجغرافي ، أو في رجالها وأنصارها فتجاوزوها وبقوا في سدة الحكم لانهم كانوا مالكين كل الملك مستقرين أقوى الاستقرار في قاعدتهم الكبرى في الشام • وإذا استطاعت الثورة العباسية أن تنجح حيث فشلت ثورات

ابن الزبير أو ابن الاشعث أو المختار أو الخوارج أو العلويين فإن الأسباب الاساسية إنما تعود إلى ثلاثة عوامل التقت على إنجاح بني العباس وإسقاط بني أمية :

١ ــ أزمة الامويين في الشام وانشغال الاسرة بتمزقها وبناء تكوينها الجديد في الجزيرة • وقد رأينا ملامح الصورة في ذلك وهي صورة يمكن اعتبارها ملامح نهضة أموية لم تكمل ولم يمهلها الوقت لاستكمال عدتها ومداها •

٢ ــ نجاح العباسيين في اختيار وفي كسب المكان الملائم للتحرك الناجح ، وهو خراسان ، فقد عثروا فيه على إقليم واسع ، غني ، بعيد عن متناول بني أمية ، كثير العناصر الناقمة ، نقمة كافية سواء في عمقها أو في سعتها وفي عدد من تتناولهم للقيام بثورة مسلحة ناجحة •

٣ ــ اعتماد بني العباس على دعوة سرية نظمت التنظيم الذكي الدقيق وعمل عليها العمل الدائب أكثر من ربع قرن حتى استطاعت أن تجمع حولها مختلف العناصر الناقمة وتدفعها في اتجاه الثورة ، تحت شعارات غامضة يتصل أهمها بالدفاع عن آل بيت الرسول (ص) الذين أصيبوا أمام القوة الاموية بعدد من النكبات والهزائم الدامية •

وإذا كانت أزمة الامويين هي العنصر السلبي في هذه العوامل الثلاثة فإن اختيار خراسان كبؤرة وتنظيم الدعوة كعمل سياسي كانا هما العنصران الايجابيان وكانا هما العمل العباسي الجديد المختلف عن الاعمال والثورات العلوية السابقة • وعند هذين العنصرين نقف ببعض التحليل :

ومن الهام أن نوضح ، منذ البدء ، أن ثمة صورة خاطئة أضفاها

بعض المؤرخين العباسيين ، من ذوي الاصل الايراني[1] ، على الحركة العباسية وتناقلها عنهم المؤرخون من بعد • ثم جاء بعض المستشرقين فأعطوها فلسفتها وصورتها العنصرية منذ أواخر القرن الماضي وتابعهم في ذلك أعداد من الباحثين العرب المحدثين وغيرهم • تلك هي الصورة التي تجعل الثورة العباسية على الامويين حركة فارسية ضد العرب • وتفسرها على أنها ثورة الموالي من الفرس ضد الطبقة العربية الحاكمة ، أي أنها حركة عنصرية واجتماعية • ولم تكن الحركة العباسية لا ثورة قومية ايرانية عنصرية ضد العرب ولا تمرداً طبقياً أو وطنياً ضد التمييز الاجتماعي أو التسلط العربي • وإذا كانت جغرافياً خراسانية انطلقت من إقليم إيراني ، وجرفت منها بهذا الشكل عناصر إيرانية عديدة فإنها كانت حركة عربية ــ إسلامية خالصة بمبادئها وزعمائها وأهدافها • وقد قام بها جماعة من العرب كانت تسكن جانباً من جوانب الدولة القصية (خراسان) ضد جماعة عربية أخرى حاكمة تمركزت في الشام • واستغل الثوار في سبيل غايتهم أفكاراً دينية ــ سياسية راهنة . واضطرابات سياسية قائمة ، وأزمات اقتصادية كان يعاني منها الحكم الاموي نفسه في الشام ومصر وآلاماً مالية ــ ضرائبية كانت تعاني منها مختلف الاقاليم سواء في المشرق أو المغرب •

والواقع أن الثلث الاول من القرن الثاني الهجري كان فترة أزمات ذات منابت مختلفة ومظاهر متعددة في المجتمع الاسلامي

---

(١) نقرأ مثلا هذا النص لدى حمزة الاصبهاني (تاريخ سني ملوك الارض ، ص١٦٠) «... لما كان ... الذين قاموا بنقل الدولة إليهم (الى العباسيين) من بني أمية عجم خراسان باخفائهم جندهم من العرب والاعراب ... » .

الواسع • التطورات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية التي تمت في ذلك المجتمع خلال قرن من الحكم الاسلامي تجاوزت به الاوضاع القائمة منذ أيام الفتوح الاولى ، وخلقت كثيراً من التخلخل في مؤسساته • وقد كانت الثورة العباسية محاولة لحل تلك الازمات ، كما كانت تعبيراً عن الرغبة في الخلاص منها • وكانت عبقرية الدعاة العباسيين أنهم جندوا لتأييد الدعوة جماعات واتجاهات متباينة الاهداف ، رأت كل منها في هذه الثورة على الامويين تحقيقاً لمصالحها الخاصة وحلاً لمشاكلها • أو أنها حسبت ذلك •

ولعل نجاح الحركة العباسية يتضح ، بالاضافة إلى ما رأينا من الصورة العامة لاوضاع الدولة الاموية ، من خلال أمرين :

الاول : سياسي اقتصادي يتعلق بأوضاع خراسان ، بؤرة الثورة •

الثاني : ديني ــ عملي يتعلق بتكوين الدعوة العباسية في الفكر والتنظيم •

اولاً : اوضاع خراسان ، بؤرة الثورة (الوجه السياسي ــ الاقتصادي)

ونوجه الاهتمام بين أقاليم الدولة الاسلامية إلى هذا الاقليم في أقصى المشرق : خراسان[1] لأن الثورة العباسية إنما تكونت

---

(١) خصص الباحث الدكتور محمد عبد الحي شعبان الجانب الاكبر من اطروحته سنة ١٩٦٠ (الجذور الاجتماعية والسياسية للثورةالعباسية) للبحث في اوضاع خراسان . كما كتب الدكتور صالح احمد العلي بحثاً

واكتملت سياسياً هناك • وتحليل الاوضاع في ذلك الاقليم يلقي الضوء على العوامل السياسية ـ الاقتصادية التي كونت الثورة وأعطتها مقومات النجاح • وبالرغم من أن تاريخ العراق بالذات ، في العصر الاموي ، كان يرشحه لقيادة الثورة التي تكتسح في يوم من الايام الحكم الاموي إلا أن قربه من الشام ، وكثرة الثورات الفاشلة فيه ، وبالتالي كثرة الشيع والاحزاب وتنبه الامويين الدائم له ، كل ذلك حرمه أن يكون مهد الثورة ونقلها إلى إقليم آخر ، تابع للعراق ، ومتصل به أوثق الاتصال عششت فيه التكوينات الأولى للتمرد ، فلما نضجت كل النضج قدمت ثمارها للعراق فكان هو الاقليم الذي قطف الثمار واستقرت به أسرة الثائرين •

وإذا تحدثنا عن خراسان من الزاوية السياسية الاقتصادية فيجب أن نميز ما بين ثلاثة مجموعات سكانية رئيسية فيها : العرب والايرانيين والترك الموجودين فيما وراء النهر • ولكل منها أوضاعه الناقمة الخاصة :

العــرب :

فحين افتتحت خراسان عقد العرب المسلمون مع مرزبان مرو معاهدة ترك فيهـا للدهاقين والمرازبة ، وهم الطبقة التي كانت لها السيادة ولها ملك الاراضي والضياع الواسعة والحكم السابق ، مهمة تقدير الضرائب وجبايتها • كمـا اشترطت المعاهدة افساح المجـال لاستيطان العرب في ذلك الاقليم • وقد أنشأ الامويون هنالك قواعـد

قيماً حول استيطان العرب في خراسان (مجلة كلية الاداب ـ بغداد سنة ١٩٥٩) •

ثابتة لمقاتلة العرب الذين كانوا يفدون من البصرة والكوفة خاصة مع قبائلهم وذراريهم للقتال فيما وراء النهر وقد استقر هؤلاء بعد سنة ٤٥ هـ • / ٦٦٥ خاصة وأخلدوا تدريجياً إلى حيــاة الاستقرار والتجارة والاستقلال الزراعي بدلاً من العمل العسكري • ولم يستقروا فــي المدن فقط مثل مرو التي وصفها الطبري بأنها « بيضة خراسان » ولكن في القرى المحيطة بالمدن أيضاً وخاصة حول مرو ، وحول بلخ حين اتخذها أسد بن عبد الله القسري مركزاً له وبنى القرى حولها لجنده • وكانت بعض القرى معروفة بأنها أزدية أو خزاعية أو طائية • وبلغ من اندماج هؤلاء العرب في المحيط الايراني الفارسي أن اتخذوا مع أسمائهم القبلية أنساباً للمدن التي سكنوها • فهذا مروزي (حــازم ابن خزيمة التميمي) وذاك طوسي (قحطبة بن شبيب الطائي ، والفضل ابن سليمان التميمي) وثالث كرماني (جديع بن علي الأزدي) أو بلخي أو نيسابوري ••• وتزوجوا الفارسيات وتكلموا اللغة الفارسية ولبسوا الملابس حتى صار من الصعوبة في عصر الجاحظ فيما بعد (أي في القرن الثالث الهجري) تمييز العرب المستقرين في خراسان عن سكان القرى الاولين • « ••• وقد نرى ـــ كما قال ـــ الناس أبناء الاعراب والاعرابيات الذين وقعوا إلى خراسان فلا نشك أنهم علوج القرى •••» وهذا كله قد يوضح معنى كلمات : « أهــل خراسان » و « أهل القرى » التي تستعمل في كتب التاريخ القديمة للدلالة على من نفر للدعوة العباسية فهي إنما كانت تعني العرب من السكان • وليس ثمة دليل على أن السكان الايرانيين أو الموالي هم الذين نفروا للثورة ولا دهاقينهم والمرازبة •

وجموع العرب المقيمين في خراسان لم تكن بالقليلة في العدد ولا الضعيفة في العدة ، وأول ما نزل العرب خراسان كان حين أرسل

زياد بن أبيه أيام معاوية نحواً من خمسة وعشرين ألفاً من البصريين ومثلهم من الكوفيين إليها • وخمسون ألف مقاتل تعني خمسين ألف عائلة تتوطن هناك • ثم انضمت إلى هذه الجموع أقسام من قبائل الأزد كانت تحركت من عمان إلى العراق ثم مشت مع زعيمها المهلب بن أبي صفرة الى خراسان حين ولاه الحجاج ذلك الاقليم • فكان في جيش خراسان يومذاك عشرة آلاف من الأزد ومثلهم من تميم ومثلهم من قيس وتسعة آلاف من بكر وسبعة من عبد القيس (من ربيعة) • ولحق بهؤلاء وأولئك جماعات أخرى جديدة في زمن هشام بن عبد الملك وقسمت الدولة في العطاء لهؤلاء كما كانت قسمت لسابقيهم ، وأحياناً على حساب هؤلاء السابقين الذين تقاعسوا عن الحرب فإنما كان عمل الجماعة العربية هناك حماية الحدود من الترك ونشر الاسلام ••

وهكذا تألفت الكتلة العربية في خراسان من مختلف القبائل : ففيها أهل اليمن وفيها من هم من ربيعة وفيها المضريون • ولم يكن ثمة أحزاب سياسية تمزق هذه المجموعة التي كان العمل الاساسي لها هو القتال على جبهة تركستان على أن هذا لا يعني أنه لم يكن بين عناصرها عصبيات وإحن قبلية تضع بعضها ضد بعض وتثير بينها الفتن بسبب المصالح والعطاء والاقطاعات والثارات • كما لا يعني أيضاً أنه لم يكن لديها ما يثيرها ضد الحكم الاموي فالواقع أنه كانت لها أوجاع ومنابع أخرى للشكوى والنقمة عليه • فمن كان من العرب قديم الاستقرار والتوطن تقاعس عن القتال ، فلما حرمه الامويون العطاء زمن هشام نقم عليهم معتقداً أن العطاء حق مكتسب دائم • والمقاتلة الجدد الذين كانوا يفدون لسد حاجة الجبهة التركستانية زاحموا القدماء على عطائهم وأخذوه ولكنهم نقموا على الحكم الاموي

سياسة « التجمير » التي اتبعها فيهم أي إبقاء المقاتلة على الثغور في الشتاء فلا تسرح إلى أهلها في خراسان • وكان يزيد في حفيظة المقاتلين أن الوالي الاموي كان ينقص في عطاء الجند كما يبخسهم حقهم في الفيء والغنائم ويحتجز الكثير منها لدمشق • يضاف إلى هذا أن الدهاقين الفرس المتحالفين مع الحكام كانوا هم الذين يتحكمون في فرض الضرائب وجبايتها من الموالي ومن العرب الذين يستقرون على السواء •

وهذا ماجعل للنقمة العربية هناك جذورا اقتصادية سياسية كما أوجد تكتلات قبلية جديدة بين العرب لاتستند الى العصبية القبلية القديمة التي اهترأت وملها الناس ولكن الى المصالح الجديدة للقبائل العربية المتوطنة في خراسان • وفي التحليل السياسي الذي ينسب الى محمد بن عبد الله العباسي والذي استعرض فيه أقاليم البلاد الاسلامية ومذاهبها السياسية واختار خراسان أعطى زعيم التنظيم ثلاثة أسباب لاختيار تلك البقعة مهدا للثورة • قال :

« ••• عليكم بخراسان فان هناك :

١ ــ « العدد الكثير والجلد الظاهر ••• وهم جند لهم ابدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب ••• » أي أنهم مقاتلون وكثيرون •

٢ ــ وهناك : « ••• صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم يقدح فيها فساد ••• » أي لاأحزاب سابقة ولاتمزق •

٣ ــ وهناك إلى هذا وذاك استياء عام من السلطة تعلنه : « ••• أصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة ••• » •

ومن الواضح أن محمدا بن علي رأس الدعوة انما كان يشير الى العرب في خراسان خاصة (فهم الجند هناك) ويرفض غيرهم لأن « البصرة عثمانية . والكوفة لآل علي والجزيرة حرورية مارقة والشام لطاعة الامويين ... »

ويبدو أن وحدة الصف العربي في خراسان كانت معروفة فحين ثار الحارث بن سريج سنة ١١٦ وقف بعض أصحابه يقول : « ياأهل خراسان . إنا كنا بمنزلة بيت واحد وثغرنا واحد ويدنا على عدونا (الترك) واحدة . وقد انكرنا ماصنع صاحبكم[1] » (يعني والي خراسان عاصم بن عبد الله) .

على أن عدوى التمزق القبلي مالبثت أن دبت الى هذه الجماعة العربية فانقسمت الى المجموعتين المعروفتين قيس ويمن . وخاصة في مرو حاضرة خراسان . وبعد موت الوليد الثاني وماتبعها من الشام .

وحين عين نصر بن سيار واليا على خراسان وتزعم القيسيين كان اليمانيون قد التفوا من حول جديع بن على الازدي (الكرماني) الا أن النزاع كا نواهي العصبية من جهة كما أن الناس سرعان ماملوه وضاقوا باستمراره من جهة أخرى لانه لم يعد له من أساس راهن وقد ظهر للعرب هناك من المصالح الجديدة وضرورات التكتل المختلفة ماجعلهم يتجهون نحو تطور قبلي مصلحي جديد . يقول صاحب كتاب العيون والحدائق : « ... ولما رأى الناس أن شيعة بني مروان قد وقع بينهم الخلاف وبعضهم يقتل بعضا وأن جديعا الكرماني قد قتل الحارث ابن سريج ، وتسلم مرو ، ثم ان نصراً قتل جديعاً ، وان علياً وعثمان

(١) الطبري ج٧ ص٩٧ (١٥٧١/٢) .

جديع مالا الى أبي مسلم وصادقاه وحلفا له دخل اكثر الناس في طاعته ... »[1] ويقول صاحب كتاب (أخبار الدولة العباسية) : « ... فطالت الفتنة بين نصر بن سيار وعلي بن الكرماني ومن كان بها من العرب حتى أضجر ذلك كثيرا من أصحابها وجعلت نفوسهم تطلع الى غير ماهم فيه والى أمر يجمعهم فتحركت الدعوة يدعو اليماني من الشيعة اليماني والربعي الربعي والمضري المضري حتى كثر من استجاب لهم وكفوا بذلك عن القتال والعصبية ... »[2] ولم تكن هذه الدعوة بالطبع عفوية ولكنها كانت بجانب جذورها العميقة المرتبطة بالمصلحة الاقتصادية ، تتيجة عمل النقباء والاثنى عشر للدعوة ـ والذين كانوا جميعاً ، غير واحد منهم ، من العرب . وعمل من معهم من نظراء النقباء وباقي الدعاة السبعين وكتلتهم المعروفة كلها عربية أيضاً وأيضاً .

وهذا التحول العربي نحو الاتجاه «الشيعي» العام ، الغامض الزعامة كان التحول الانقلابي الذي خسر معه نصر بن سيار ،والأمويون من ورائه ، قضيتهم لأن مختلف القبائل العربية انسحبت بذلك الى صفوف الثورة آملة بتغيير جديد . ولم ينفع نصر بن سيار ما أطلقه من الدعاية القوية البليغة لتشويه سمعة الشيعة العباسية ووصفه إياهم بالكفار الذين يعبدون الرؤوس والسنانير ، وبالرعاع ، وسقاط العرب وبالموالي والسفهاء والمجوس وبأنهم :

ليسوا الى عرب منا فنعرفهم ولا صميم الموالي إن هم نسبوا

---

(١) العيون والحدائق ص١٨٨ .

(٢) أخبار الدولة العباسية ص٢٤٨ .

فالعباسيون واجهوا ذلك بدعاية قوية مماثلة تستند الى أمر عملي وهو أنهم دعوا الى اجتماع بايعوا فيه سليمـــان الخزاعي شيخ النقباء العباسيين : «•• على كتاب الله وسنة رسوله وإظهار العدل وإنكارالجور ورفع الظلم عن الضعفاء وأخذ الحق من الأقوياء • وقالوا :

لسنا نحابي على الرحمن من أحد   فيما نطالب من مولى ومن عرب !

الايرانيون : : إذا كان التذمر السياسي والخلاف القيسي اليماني ومشاكل العطاء قد حولت انظار العرب المستقرين في خراسان ، بفعل الدعوة العباسية ، الى مشكلة الحكم والخلافة فإن الجماهير الايرانية كانت بعيدة في الواقع عن التفكير بهذه المشكلة التي لا تهمها كثيراً • بقدر ما تهمها المشكلة الاقتصادية المالية المتمثلـــة في الواقع الضرائبي القاسي وسوء الإدارة •

فمنذ الفتح وجدت في خراسان كما وجدت بعد ذلك في ما وراء النهر مثل بخارى وسمرقند ضريبة واحدة مفروضة تدفع نقداً تنفيذاً لمعاهدات الفتح •

وتسمى هذه الضريبة خراجاً أحياناً وجزية أحيانا أخرى مما يدل على تواجد المعنيين والضريبتين فيها هناك • وكان الدهاقين هم المشرفون على فرضها وعلى جبايتها تحت أنظار بعض العمال • ومن هؤلاء في زمن نصر بن سيار : بهرامسيس الذي لقبه نصربمانح المجوس وذكر أنــه « يمنحهم ويدفع عنهم ويحمل أثقـــالهم (أي ضرائبهم) على المسلمين (منهم) •••» •

وبهذا الشكل اتفقت مصالحهم مع رجال الدولة على حســـاب الرعية • ورضي الدهاقين ــ كما يقول المستشرق بارتولد ــ في العصور

الاسلامية الأولى في ايران بزوال شأنهم السياسي مقابل الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية التي نالوها في الاسلام[1] • فكان الوضع هناك كما قال شريف أعجمي لعربي : « الشرف نسب • والشريف من كل قوم نسيب للشريف من كل قوم ••» وهكذا لم يبادر الدهاقين الى الدخول في الاسلام فقط ولكن دخلوا مع الولاة المسلمين في حلف مصلحي ودي • وكانوا محل ثقتهم وتعاونهم[2] كما كانوا يساعدون الجيوش الاسلامية العربية ضد الاتراك فيما وراء النهر ويحتفون بكبار العرب ويتملقونهم بالهدايا الثمينة في الأعياد والنوروز والمهرجان[3] •

وكانت ضريبة الخراج تفرض في خراسان وما وراء النهر على الرؤوس لا على مساحة الأرض يقول الطبري : «خراج خراسان على رؤوس الرجال» ويقول اليعقوبي «وخراجهم على رؤوس الرجال يوجبون على كل رجل بالغ جزية •••»[4] • ومن السهل أن نفهم السبب في التفريق بين خراسان وغيرها في معنى الخراج وفي اختلاطه أو توحيده مع الجزية • إذ لو فرض الخراج على الأرض لوقع أكثره على الدهاقين وعلى كبار الملاكين العرب •

وحين نقص الخراج ونقصت بالتالي موارد الدولة بدخول الأعداد

---

(١) بارتولد ــ الحضارة الاسلامية (معرب) ص٦٥

(٢) ومثال ذلك علاقة نصر بن سيار بأمير بخاري تفشادة أو (طوق شيادة) الطبري ج٧ ص١٧٦ (١٦٩٣/٢) •

(٣) الطبري ج٧ ص٥٠٣ و ص٤٠٩ و ص٤٦٣ •

(٤) الطبري ج٧ ص٥٤ (١٥٠٧/٢) • اليعقوبي (هوتسما) ج١ ص٢٠٧

من الموالي في الاسلام ، اعتبر الولاة تلـك الضريبة خراجـاً لا جزية واستمروا في فرضها ، لا لأن إلغاءها يتعارض فقط مع المصلحة المالية للدولة والولاة ولكن أيضاً لإضراره بمصلحة الدهاقين جباة الضرائب وفارضيها على الناس . وقد ظهرت بارقة أمـل بالإصلاح الاسلامي الذي فرضه عمر بن عبدالعزيز لكن هذه البارقة انتهت إلى الالغاء السريع ثم جاء أشرس بن عبد الله السلمي «فزاد في وظائف خراسان (أي ضرائبها) واستخف بالدهاقين» فكان ذلك سبباً في نقمة الطرفين على الدولة .

الى أن جاء نصر بن سيار (١٢٥ ــ ١٣١) فحاول تنظيم الضرائب في خراسان على الوجه العادل إذ قرر اعفاء المسلمين الموالى من «الجزية» ولم يلاق صعوبة مالية في ذلك لأنه وجد مقابل الألـوف الثلاثين من الموالي المسلمين الذين أعفاهم ، ثمانين ألف مشرك لم يكن يدفع الجزية. ثم قسم خراسان الى مناطق ضريبية . وفرض على كل منطقة مبلغاً معيناً يجبى على الأرض أيا كان مالكها . أي أنه فصل مفهوم الجزيـة عن الخراج فألغى الأولـى عمـن أسلم وفرض الثانيـة على أصحـاب الأرضين[٢] .

---

(١) البلاذري ــ فتوح البلدان ص٥٢٦ (طبع المنجد) .

(٢) يستلفت النظر أن نصر بن سيار حين قام بهذه الاصلاحات ، خطب إثر عودته من بعض الغزو سنة ١٢١ فكشف عن بعض الامور الهامة المتعلقة بالقضية الضرائبية إذ قال : «الا ان بهرامسيس كان مانح المجوس يمنحهم ويدفع عنهم ويحمل أثقالهم على المسلمين . الا ان اشبداد بن جريجور كان مانح النصارى . إلا أن عقيبة اليهودي كان مانح اليهود يفعل ذلك . الا اني مانح المسلمين . امنحهم وأدفع عنهم واحمل اثقالهم عـلى المشركين . ألا إنه لا يقبل مني إلا توفى الخراج على ما كتب ورفع ... فأيما رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه أو ثقل عليه في خراجه وخفف مثل ذلك على المشركين فليرجع ذلك إلى المنصور بن عمر

وإذا كان طبيعياً أن ترضي هذه الاصلاحات سواد الشعب ولو أنها جاءت متأخرة ، إلا أنها أغضبت الطبقات المتنفذة من الملاكين العرب ومن الدهاقين[1] على السواء وهم الذين كانت لهم معاً ، وباستمرار ، اليد الواسعة في مقاومة المحاولات الاصلاحية الأموية في هذه الناحية •
ومن الهام أن نلاحظ في النهاية أن الموالي الايرانيين لم يكونوا جميعاً ناقمين على الحكم الأموي لدرجة الثورة • وإذا وجد فيهم أمثال أبي مسلم ، والداعية العباسي شبل بن طهمان والثائر مع المرجئة أبي الصيداء صالح بن طريف فإن كثرة الموالي وقفوا ، في نيسابور ، بجانب نصر بن سيار وقد قاومت بلخ أعنف المقاومة جنود المسودة • وخاض العباسيون الثائرون قتالا مريراً ضد أهل جرجان الذين بقوا على الولاء الأموي وطردوا جيش قحطبة أول مرة من بلدهم • ولم تتحرك المدن الايرانية الأخرى بجانب الدعوة إن لم تقف ضدها كما جرى في نهاوند •

(عامل الخراج) يحوله عن المسلم الى المشرك ...(الطبري ٧ ص ٧١٣/ ١٦٨٨/٢ – ١٦٨٩) •
وقد يعني هذا أن ضامني الخراج للدولة كانوا ثلاثة وراء عامل الخراج الأساسي الخاص بالمسلمين الموالي وبملاك الاراضي على اختلافهم فواحد للمجوس وآخر للنصارى وثالث لليهود (وهذا يكشف وجود جاليات من هؤلاء واولئك هناك) ويعني كذلك أن بهرامسيس كان يتصرف في الخراج يجمعه ويمنحه ويدفعه ويحوله على المسلمين الموالي وبعض المشركين فنصب نصر بن سيار نفسه « مانحاً » أي حامياً للمسلمين •
ويقصد هنا الموالي دافعي الضرائب ، ولهذا ورد عليه بعد أسبوع واحد من هذا الاعلان ثلاثون الف مسلم يدفعون الجزية فحول جزيتهم على المشركين المعفوين منها والذين انكشف له منهم ثمانون الفاً •

(١) الطبري ج٧ ص٢٩٦ (١٨٣٤/٢)

الترك وما وراء النهر : كانت منطقة مـا وراء النهر دار حـرب للمسلمين وممر تجارة • وما يفتح منها أو يدخل في الاسلام من أهلها الترك ، كان يتبع إداريا والي خراسان • وبعد أن فتح قتيبة بن مسلم هذه المناطق (طخارستان السفلى سنة ٨٦، اقليم بخاري ما بين ٨٧ ــ ٩٠) (٧٠٥ ــ ٧٠٨) ثم وادي جيحون وبلاد الصغد ما بين ٩١ ــ ٩٣/٧٠٩ــ ٧١١ ثم مقاطعات سيحون ما بين (٩٤ ــ ٩٧/٧١٢ ــ ٧١٤ حتى كشغر) انصرف الحكم الأموي إلى تثبيت النفوذ الاسلامي في تلك البقاع ونشر الاسلام ودفع الهجمات التركية من سهوب تركستان الشرقيـة وإعادة تسيير قوافل التجارة ، في طرقها القديمة التقليدية ؛ عبر تلـك السهوب إلى الصين •

وهنا ، في ما وراء النهر أيضاً • أبقى العرب المسلمون على نفوذ الأمراء المحليين وتعاونوا معهم وعاملـوا الناس معاملـة الايرانيين في خراسان ،في إطار معاهدات الفتح•لكن الأمراء كثيراً ما كانوا ينتقضون، لا سيما في فترات خصومة الولاة فتقع الثورات والحروب والنكبات على الشعب[1] • كما كانت الحروب مريرة طويلة مع الترك البـداة وراء الحدود الاسلامية • لإدخالهم في الاسلام وتأمين طرق التجارة من خلال أراضيهـم •

وقد أراد هشام بن عبد الملك وضع حد للفتن والمآسي في المنطقة

(١) مثال ذلك ثورة أمير فرغانة بعد قتيبة، وثورةبخارى وسمرقند.

فأمر عامله أشرس بن عبد الله السلمى وكان يسمى الكامل لفضله (١٠٩ — ٧٣٧/١١١ — ٧٣٩) أن يعد من أسلم في المنطقة برفع الجزية عنه • « فسارعوا — كما قال البلاذري — إلى الاسلام حتى انكسر الخراج » [١] وكان ذلك بجهود العامل أبي الصيداء صالح ابن طريف وعامل خراجه حسن بن أبي العمرطة فخاف أشرس مغبة ذلك على موارد الدولة لأن « في الخراج قوة المسلمين » كما قال «وتذمر الدهاقين» لأنهم يكرهون نشر دين فيه روح المساواة بينما امتنعوا انفسهم عن دفع الخراج وقالوا لأشرس : «ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً ؟ » • ويذكر الطبري[٢] والبلاذري أن أشرس عاد فأعاد الذي كان • ضيقه أول الأمر فاشترط لرفع الجزية شروطاً وكتب لعامله : « ••• بلغني أن أهل السغد وأشباههم لم يسلموا رغبة وإنما دخلوا في الاسلام تعوذاً من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراجه •••» • ولم يكف هذا التدبير على ما يظهر فعاد الوالي نفسه فبعث عاملا جديدا زوده بتعليمات تقول : «خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه •••» فألح العمال في الجباية واستخفوا بعظماء العجم وسلط (أحدهم) على الدهاقين فأقيموا وخرقت ثيابهم وألقيت مناطقهم في أعناقهم وأخذوا الجزية ممن أسلم من الضعفاء فكفرت الترك ••• » [٣] •

وقابل الناس هذه السياسة الخراجية القاسية بثورة عارمة في البلاد

---

(١) البلاذري — فتوح البلدان ص٥٢٦ (طبعة المنجد) ، الطبري ٧ ص ٥٥ •

(٢) الطبري ج ٧ ص ٥٤ — ٥٦ (١٥٠٧/٢ — ١٥٠٩) •

(٣) الطبري ج٧ ص ٥٦ (١٥٠٩/٢ — ١٥١٠) •

استمرت منذ ١١٠ حتى ولاية نصر بن سيار ١٢٥ وهاجر بعضهم خارج سمرقند بينما طلب آخرون معونة الترك البداة • ومن الهام أن نسجل هنا أن زعماء تلك الحركة لم يكونوا من الأتراك ولكن من العرب [١] ومنهم أحد الشعراء المجاهدين هناك : ثابت الازدي المعروف بثابت قطنة[٢] وقد بعث أشرس الى الثائرين من فرق جموعهم ١٠ وذهب الكثير من المسلمين الجدد قتلى • ويحدثنا النرشخي في كتابه أخبار بخاري عن جماعة اعتصموا بالمسجد الجامع من بخارى وأعلنوا بأعلى أصواتهم الشهادتين ومع ذلك سيقوا إلى القتل أو الاسترقاق لدى والي خراسان • ثم أطلقهم من بعد الوالي الجديد أسد بن عبد الله بن مروان • ـ

وأما ثابت قطنة فأخذ وسجن ثم خلاه الوالي بكفالة ووجهه في وجه للحرب فخرج عليه الترك واستشهد أنفة من أن « ينظر إليه بنو أمية مشدوداً مرة أخرى في الحديد » [٣] •

ثورة الحارث بن سريج : على أن عوامل الاستياء والثورة لم تذهب وقد عادت بعد ست سنوات فانفجرت من جديد على يد عربي آخر من المجاهدين ذوي الورع والزهد هو الحارث بن سريج بن ورد ابن سفيان بن مجاشيء • كان الرجل يجاهد ضد الترك ويبدو أنه تأثر

---

(١) يسجل الطبري (ج٧ ص٥٧) اسماءهم وفيهم ثلاثة من الأزد وواحد من بني تميم وآخر شيباني وثالث ضبي ورابع من بني العنبر . . « خرجوا اليهم لينصروهم » .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٥٦ (١٥٠٩/٢ ـ ١٥١٠) وإنما قيل له قطنة لان عينه فقئت فكان يضع عليها قطنة (البلاذري ص ٥٢٦) .

(٣) تفصيل أمره لدى الطبري ج٧ ص٦٠ ٥ـ ٥٩ (١٥١٠/٢ـ١٥١٥).

بعدالة قضيتهم نتيجة اعتقاده مذهب المرجئة فخرج على الحكم الأموي سنة ١١٦ في بلدة صغيرة من ماوراء النهر تدعى «النخذ» أو «أندخوز»•
ويلفت النظر في ثورة الحارث ثلاثة أمور :

الاول : أنه سرعان ما اجتمع حول الحارث جمع كثير ، يقال « ستين ألفاً » فيهم العرب ، من الحزبين المتنافرين مضر واليمن وفرسان أزد وتميم على السواء كما أن فيهم عدداً من الدهاقين الفرس والترك[1] (دهقان الجوزجان • وفارياب وملك الطالقان ودهقان مرو) •

الثاني : هو الدعوة التي جعلها شعار الثورة فقد كان يدعو إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه والبيعة « للرضا »[2] أي « من يرضى الناس لأنفسهم» •

الثالث : شعار السواد فقد سود الحارث لباسه • كما يسود العباسيون وسود راياته « وكان يظهر أنه صاحب « الرايات السود »[3] وجعل شعاره في هتاف أصحابه : يا منصور » •

---

(١) انظر الطبري ج ٧ ص ٩٦ (١٥٦٩/٢) .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٩٥ وقارن ذلك بتفسير كلمة « الرضا » في الطبري ج ٥ ص ٥٥٣ و ج ٥ ص ٥٤٥ و ج ٦ ص ٢٨٧ ولا ترد هاهنا كلمة (آل محمد) .

(٣) الطبري ج ٧ ص ٩٧ (١٥٧٠/٢) حيث يقول : « وعلى الحارث ابن سريج يومئذ السواد » ج٧ ص ١٠٠ (١٥٧٥/٢) حيث يقول : « ... أقبل الحارث الى مرو وقد سود راياته وكان يرى رأي المرجئة ... » . و ج ٧ ص ٣٣١ (١٩١٩/٢) إذ يقول : « ... وكان الحارث يظهر أنه صاحب الرايات السود .. » و ج ٧ ص ٣٣٣ (١٩٢١/٢) حيث يقول « ونادوا يا منصور بشعار الحارث » .

فهل كان الحارث عباسيا ؟ وهل كان شعار «الرضا» يخفي وراءه كلمة «من آل محمد» ؟ إن المصادر تنسب الحارث الى المرجئة ولا يبدو أن ثمة علاقة مابين العباسيين والحارث ولكن العناصر الثورية والشعارات التي استعملها الطرفان واحدة لدرجة أن ثورة الحارث يمكن أن تعتبر كالمقدمة والحركة التمهيدية أو التجريبية لثورة أبي مسلم فيما بعد ولم يكن بين نهاية الأولى ومطلع الثانية سوى سنتين (مابين ١٢٦ الى ١٢٨) .

تحرك الحارث بقواه من ما وراء النهر فغلب على بلخ والجوزجان والفارياب والطالقان ومرو الروذ ... واتجه الى عاصمة خراسان مرو (الشاهجان) وقد قال له بعض أصحابه : «مرو بيضة خراسان .وفرسانهم كثير . لو لم يلقوك إلا بعبيدهم لانتصفوا منك . فأقم . فإن أتوك قاتلتهم وإن أقاموا قطعت المادة عنهم» ولكن الحارث رفض هذا الرأي وسار الى مرو . وكادت مفاوضاته مع عاصم بن عبد الله الوالي تنجح ، لولا أن والياً جديداً وصل من الشام هو أسد بن عبد الله القسري ، في جند جديد فاضطر الحارث الى التراجع . تخلى عن البلاد التي فتحها وانسحب الى ماوراء النهر سنة ١١٨ وتابع هناك ثورته ولكن بجانب الترك ضد الحكم الأموي لإقرار حكم اسلامي عادل بدلا منه . «وكان يظهر أنه صاحب الرايات السود» ويمني أصحابه والناس أنهم « سوف يهدمون سور دمشق ويزيلون أمر بني أمية ..» [1] .

وبالرغم من وجود بعض الدهاقين مع ابن سريج ومن دفاعه عن الترك وبجانبهم فقد كانت جمهرة أصحابه فيما يبدو من العرب ، من ربيعة

---

(١) الطبري ج ٧ ص ٣٣١ (١٩١٩/٢) .

واليمن حتى لقــد ناشــده نصر بن سيار قائلا : « اذكرك الله في عشرين ألفاً من ربيعة واليمن سيهلكون فيما بينكم »[1] وقد كان يتحرج من الدماء والقتل لكثرة ما عرفت المنطقة من الدماءفيما يظهر ويفضل أصحابه على ذلك أساليب المناقشة والاقناع والمسالمة • اتبعوا ذلــك في معظم مواقفهم ولعل من ابرزها موقفهم عند حصار ترمذ إذ كان العرب وأهل القرى من أصحابه ينزلون على أبوابها فيبكون ويشــكون جور بني مروان ويسألون أهلها النزول إليهم على أن يسالئوهــم على حرب بني مروان فيأبون ذلك •• حتى قال له بعض أصحابه إن ترمــذ لا تؤخذ بالبكاء ولكن بالسيوف ! ويمكن أن يفسر هذا الموقف «الأخلاقي» في ثورة سياسية دموية كثورة الحارث على ضوء عقيدة الإرجاء التي تشلها جماعته • وكان جهم بن صفوان ، صاحب المرجئة الجهيمة من رؤوس أصحابه وإذا كان يعزى الى جهم على رواية ابن حزم الاندلسي ـ قوله : « إن الايمان عقد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانيــة •••» فهذا القول هــو الذي أوقف الحارث وأصحابه بجانب المسلمين الجدد من الترك يدافعون عنهم • ولعل بعض أفكارهم وأجوائهم يظهر في الكتاب الذي أرسله اصحاب الحارث الى الكرماني الثائر يقولون فيه : «••• نوصيكم بتقوى الله وطاعتة وإيثار أئمة الهدى وتحريم ماحرم الله من دمائكم فان الله جعل اجتماعنا كان الى الحارث ابتغاء الوسيلة إلى الله و نصيحته في عباده فعرضنا أنفسنا للحرب ودماءنا للسفك وأموالنا للتلف فصغر ذلك عندنا في جنب مانرجو من ثواب الله ونحن وأنتم إخوان في الدين وأنصــار على العدو ••• فاتقوا الله وراجعوا الحق فإنا لانريد سفك الدماء بغير حلها •••» •

---

(١) المصدر السابق نفسه .

وقد كان لهذا الايمان العميق ، بجانب مساوىء الادارة الأموية ، أثره في طول عهد الثورة واستمرارها • ولم تنته إلا بجهود نصر ابن سيار الذي كان من الحزم والمرونة السياسية بحيث فاوض الحارث وقاتله وداوره وانتهى بأن أخذ له الأمان من الخليفة سنة ١٢٦ خوفاً من أن يتفق مع الكرماني الثائر عليه • وأقبل الحارث «بعد اثنتي عشرة سنة (من الثورة) ، والاقامة بأرض الشرك « الى مرو ••• »[١]،(٢٧ جمادى الآخرة ١٢٧) •

وفي مرو طلب نصر بن سيار الى الحارث وأصحابه : أن يملوا على كاتبه ما يرضون من السير والسنن (للعمل) وأن يختاروا من يرضون من العمال لولاية الثغرين : سمرقند وطخارستان • وطلب الحارث وأصحابه حكم الشورى ولم يكن ذلك ممكن التطبيق فبدأ الخلاف • ومن الطريف أن الحارث بن سريج كتب سيرته فكانت تقرأ في طريق مرو والمساجد فأجابه قوم كثير[٢] وذات يوم ضرب بعض غلمان نصر قارئاً من قراء هذه السيرة فقامت الخصومة والقتال بين الجانبين في المدينة واتفق الحارث مع اليمانية وزعيمهم الكرماني الثائر فإذا بنصر يجد نفسه مطروداً من مرو ••• (الجمعة ٢٦ جمادي الآخرة ١٢٨) •

وبعد ثلاثين يوماً كان الحارث بن سريج جثة بغير رأس مصلوبة على باب مرو ••• كانت الخصومة قد مزقت الحلف الذي قام بينه وبين الكرماني • فأعلن اليمانيون القتال ضد الحارث وكان مع مائة من

---

(١) الطبري ج٧ ص ٢٩٤ (٢/١٨٦٨) •
(٢) انظر الطبري ج٧ ص ٣٣٢ (٢/١٩٢٠) •

أصحابه وعدة من بني تميم حين سقط قتيلا في معركة غير متكافئة على باب مرو ، بين الحائط (السور) والمدينة [1] .

على أن ثورة الترك في ما وراء النهر كانت بدورها قد خدمت نتيجة التدابير الاصلاحية والأعمال العسكرية التي قام بها نصر بن سيار هناك . والهدوء الذي تمتعت به تركستان في عهده القصير لم يكن كله هدوء الرضى والاطمئنان بدليل أن الأتراك المقهورين سرعان ما تجاوب بعضهم مع الصيحة العباسية وثورة أبي مسلم . ويبدو أن أعداداً منهم قد انضوت في يسر وسرعة تحت راية العباسيين السوداء التي رأوا فيها بعثاً لراية الحارث بن سريج وتحقيقاً لحلمه . وقد قاتلوا في ايران كما قاتلوا تحت قيادة قتيبة الباهلي في العراق .

ولعل هذا الاشتراك في الثورة ، مع ظفر أبي مسلم وتحقيقه للنبؤات القديمة هو الذي أغرى الأتراك بأن يدعوا نسبة أبي مسلم إليهم وبأن يحفظوا له في أغانيهم الشعبية ذكرى البطل القومي كما سمح للباحثين الأتراك المحدثين أن يتحدثوا عن تفسير تركي للثورة العباسية . وهي على أي حال ظلال بعيدة وظنون تفتقر الى الكثير من النصوص والوثائق والدلائل لتصبح في منزلة الحقائق .

وخلاصة الأمر أن كافة خطوط النقمة من عربية وايرانية وتركية

(٢) ينقل الطبري (ج ٧ ص ٣٤٢) أبياتا ذكر أن نصر بن سيار قالها في مصرع خصمه الحارث بن سريج ، قال :

يا مدخل الذل على قومه ... بعداً وسحقاً لك من هالك
شؤمك أردى مضراً كلها ... وغض من قومك بالحارك
ما كانت الأزد وأشياعها ... تطمع في عمرو ولا مالك ..

في خراسان جاءت في خدمة الثورة • وحين تحركت قوى الثوار بقيادة قحطبة بن شبيب الطائي من ذلك الاقليم النائي باتجاه الغرب ضد الأمويين كانت كثيرة العدد وقد قدرها صاحب كتاب الإمامة والسياسة «بثلاثين ألفاً من اليمنية والشيعة وفرسان خراسان» ومعظم هذه الجماعات كما قد نلاحظ عربية • أما الموالي من الفرس والترك فكانوا موجودين في الجانبين والذين حاربوا منهم في صفوف العباسين حارب مثلهم في صفوف الأمويين • ولم يكونوا يعملون بدافع قومي أو طبقي • ولاكان همهم الأول الوصول الى الحكم أو إلى بعضه ولكنهم كانوا يعملون في إطار الولاء العربي والمبادىء الاسلامية في التسوية وبدافع الارتزاق في بعض الأحيان وإن كان الدافع الذي جندهم ضد بني أمية إنما كان الاستياء العام من الجشع الضرائبي والقهر الاداري •

ثانياً ـ الدعوة العباسية (١) (الوجه الديني والعملي) :

ويبدأ امر هذه الدعوة بما يسمى : **ارث الكيسانية :**

فعهد الدعوة العباسية يرجع الى ما قبل سقوط الاسرة الاموية بثلث قرن • وهي مشتقة في الأصل من الدعوة العلوية •

---

(١) كتب الباحث الدكتور فاروق عمر فوزي فصولاكثيرةهامة حول هذا الموضوع بعضها في اطروحة : الخلافة العباسية وبعضها في عدد من المجلات العلمية بعنوان : «تقويم جديد للدعوة العباسية» ، و «نصوص ساعد اكتشافها على اعادة تقويم الدعوة العباسية » (الفصل الثاني) ثم في كرة اخرى في كتابة : «طبيعة الدعوة العباسية» (الفصل الثاني) ثم في كتابه «العباسيون الأوائل» وجميعها من نشره بين سنتي ١٩٦٨ و ١٩٧١

اذ يجمع عدد من المصادر الأولى على ان ابا هاشم عبد الله بن محمد بن علي من (الحنفية) بن ابي طالب صاحب الشيعة الهاشمية ، وفـد على سليمان بن عبد الملك وخاف الخليفة من طموحه ، فرحب به ولكن دس له في طريق عودته الى الحجاز من سمه • وبعضها يقول إنه مات موتـه الطبيعي • فلما شعر ابو هاشم بدنو أجله ، عرج في الطريق على الحميمة (وهي بلد في جنوب البحر الميت) وكان عبد الملك بن مروان قد اقطعها لعلي بن عبد الله بن العباس حين وفد هذا ليسكن دمشق ، فأساء الوليد بعد ذلك معاملته لما عرف طموحه للخلافة فانتقل سنة ٩٥ هـ الى الحميمة وبها توفي سنة ١١٨ هـ غير ان ابنه محمدا كان اقوى شخصية في ولـد العباس حتى في حياة ابيه • ويقال أن أبا هاشم حين وفد على محمد هذا في سنة ٩٧ أو ٩٨/٧١٥ ــ ٧١٦ أوصى له بالامامة بعد أن علمه الاسرار والعلوم ودفع اليه كتبه وصرف الشيعة نحوه ، وسلم اليه الدعاة ••• أو (الصحيفة الصفراء) ثم توفي سنة ٩٨ هـ[1] •

ويحوم الشك احيانا حول هذه الوصية ولا سيما حين تتساءل عن السبب الذي جعل ابا هاشم العلوي يعطي الامامة لفرع آخر من آل محمد لم يطلب حتى الآن ان يلي الخلافة ؟ ويرى فلهاوزن ان هـذه الوصية حسب روايتها ضعيفة • ولابد انها حصلت في وقت سابق لسنة ٩٨ لوجود شهود كثيرين عليها • وربما جاء ابو هاشم الحميمة فتحالف مع العباسيين ثم توفي ولاعقب لـه ، فعهـد الى محمد بن علي بأمر «الهاشمية» وجعلهم ينضمون الى محمد • ولم يظهـر في بني العباس طموح سياسي قبل علي بن عبد الله ثم ابنه محمد •

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص وابن خلكان ج١ ص ٤٥٤ •

هذه الوصية هي مايدعى في التاريخ الشيعي بميراث الكيسانية ، واعتبارا من تاريخها تبدأ الدعوة العباسية وهذا يعني على أي حال أن الطموح «العباسي» الى الخلافة ليس بذي جذور تاريخية بعيدة ولكنه يعود في أبعد الوقت الى أواخر القرن الأول الهجري ، وإذا كان محمد ابن علي العباسي هو منظم الدعوة السرية وصاحبها الحقيقي فان إبراهيم من بعده هو مفجر الثورة . وإخوة ابراهيم هم الذين قطفوا الثمار .

فترة الدعوة السرية التحضيرية :

بدأت هذه الدعوة بفترة سرية طويلة تمتد بين سنتي ١٠٠ ــ ١٢٨هـ أي منذ محمد بن علي حتى مجيء ابراهيم الامام . وعلى محور جغرافي مثلث يمتد مابين الحميمة في أرض الأردن وبين الكوفة في العراق حتى خراسان في أقصى المشرق الاسلامي .

كان محمد بن علي اول من قام بالامر ــ على ما يذكر الدينوري ــ وبث دعاته في الآفاق ، فهو المنظم الاول للدعوة العباسية ، وقد بقي على مقره في الحميمة .وكان صغر القرية وانعزالها في منطقة جرداء جنوبي الشام ووجودها تحت جناح دمشق ، بجانب الزهد المعروف عن علي بن عبد الله بن العباس ، والد محمد ، ومسالمته للأمويين تشكل كلها ستاراً حسناً للنشاط السياسي السري الذي انصرف إليه محمد . ولم يغادر الرجل قريته ولكنه جعل لنفسه داعية ، كالوكيل العام عنه في الكوفة .

واختيارهذا البلد:الكوفة كمركز لانطلاق الدعوةوللنشاط العباسي الثوري لم يكن اختياراً موفقاً فحسب ولكنه كان يدل في الوقت نفسه

على صدق البصيرة السياسية وحسن التدبير • فهي جغرافيــاً متوسطة الموقع بين الشام والبلاد الشرقية للدولة ، وعلى صلة مباشرة بخراسان• أما من الناحية السياسية فكان التوفيق أوضح وأشد وقد نستطيع أن نكشف في الوقت نفســه عــن السبب في اختيارهــا عاصمــة أولى للنصر العباسي بعد ذلك إذا تذكرنا الضربة الاقتصادية الساحقــة التي أنزلها بها الحكم الأمري منذ الحجاج • فقد استطاعت هذه المدينة أن تصبح في القرن الأول الهجري مركز صناعة الوشي والخز الرائجة في العالم الاسلامي وصناعة الطيب[1] كما اجتمعت فيها الاقطاعية العربية بأموالها وبما تدره أراضيها من خيرات التمور والحنطة وبما يغدق عليها من العطاء ••• ولعل هذا الغنى الاقتصادي هو الذي جعلها ذات جرأة سياسية ومشاركة طالما أغضبت الأمويين لا سيما مع وجود الميول العلوية والقبلية المناوئة فيها • فسلط عليها الأمويون الحجاج•قال عبد الملك بن عمر الليثي : «بينما نحن بالمسجد الجامع وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه أتانا آت فقال: هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق »[2] • وقد كسر الحجاج شوكة الكوفيين بتخريب ثروتهم الاقتصادية • رأى موالي الشيعة أعواناً لهم في ثورة ابن الأشعث فطرد الموالي جميعاً من المصرين أي طرد اليــد العاملة الخبيرة ، صاحبة المهن ثم ألح عليهــم بالضرائب المرهقــة حتى

---

(١) انظر الجاحظ ــ المحاسن والاضداد (طبعة ليدن) ص٣٤٢ • الاصبهاني ــ الاغاني ج٢ ص١٧٣ (ط. الساسي) . ثم انظر الثعالبي لطائف المعارف (ط • ١٨٦٧) ص١٠٤ وابن خلكان ــ الوفيات (ط • بولاق)

(٢) المبرد ــ الكامل (ط • القاهرة ١٣٣٩) مصر ج ١ ص٢٧١ وانظر ج ١ ص ٢٧٠

وانظر حمدون ــ التذكرة (ط • القاهرة ١٩٢٧) ص ١٠٦ ــ ١٠٧

دمرهم وحتى انحط الخراج نفسه وقال يزيد بن المهلب حين عرضت عليه ولاية العراق بعد الحجاج «لقد أخرب الحجاج العراق ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم صرت مثل الحجاج .. أدخل على الناس الحرب وأعيد عليهم تلك السجون ..»[1] وكان فيها من مساجين الحجاج أكثر من ثمانين ألفاً أخرجوا في يوم واحد زمن سليمان بن عبد الملك . وبالرغم من أن بعض الولاة قد حاولوا بعد ذلك السماح للموالي بالعودة للأمصار ، وكان الحجاج «قد نقش على يد كل انسان اسم قريته وطالت ولايته فتوالد القوم هناك فخبثت لغات أولادهم وفسدت طبائعهم» . ونسوا صنائعهم فلما ارتد المنقوشون رجعوا ـ كما قال المبرد ـ في صورة «الأنباط» (الفلاحين) الفقراء ...[2] ثم جاء الكوفة بعد ذلك ولاة ساروا فيها سيرة الحجاج مثل يوسف بن عمر الوالي بين سنتي ١٢٠ ـ ١٢٦ والذي جرى على ألسنة الكوفيين تشبيهه بالحجاج[3] فاجتمع هذا وذاك كله على جعل الكوفة مركزاً من أعنف مراكز النقمة على الأمويين ومن أكثرها نشاطاً وفاعلية . ولم يكن للعباسيين أن يجدوا بؤرة أكثر منها مواتاة للعمل الثوري السري وأحسن منها تغطية لدعاة «الإمام» وستراً عليهم في الوقت الذي تعطيهم فيه الكوفة أخصب التربة للعمل .

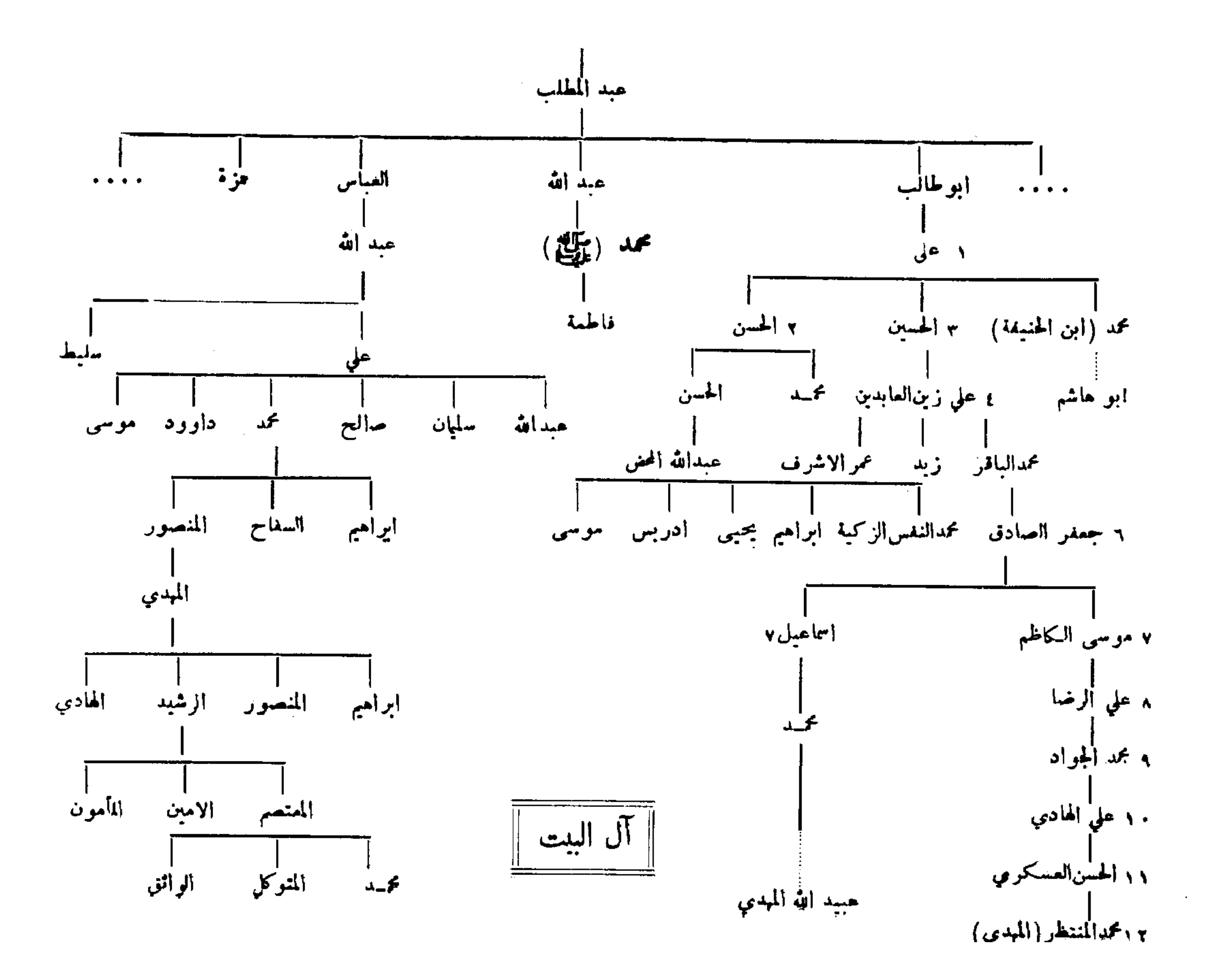
أما خراسان فسوف نرى عند دراسة أحوالها عن كثب أنها الاقليم الذي كان أحسن البؤر لنمو الثورة واكتمالها لا بسبب بعدها الجغرافي

---

(١) انظر المبرد ـ الكامل (ط . القاهرة ١٣٣٩) ج١ ص٨١

(٢) انظر الجاحظ ـ البيان والتبيين (ط . القاهرة ١٣٣٢) ج٣ ص ١٤٦

(٣) الطبري ج٦ ص ٥٢٣ (١٣٠٦)



آل البيت
عبد المطلب
ابو طالب
عبد الله
العباس
حمزة
١ علي
محمد (ﷺ)
فاطمة
عبد الله
محمد (ابن الحنيفة)
٣ الحسين
٢ الحسن
ابو هاشم
٤ علي زين العابدين
محمد
الحسن
محمد الباقر
زيد
عمر الاشرف
عبدالله المحض
٦ جعفر الصادق
محمد النفس الزكية
ابراهيم
يحيى
ادريس
موسى
٧ موسى الكاظم
اسماعيل ٧
٨ علي الرضا
محمد
٩ محمد الجواد
١٠ علي الهادي
١١ الحسن العسكري
١٢ محمد المنتظر (المهدي)
عبيد الله المهدي
علي
سليط
عبدالله
سليمان
صالح
محمد
داوود
موسى
ابراهيم
السفاح
المنصور
المهدي
ابراهيم
المنصور
الرشيد
الهادي
المعتصم
الامين
المأمون
محمد
المتوكل
الواثق

فحسب ولكن بسبب مشاكلها الكثيرة أيضاً سواء بين المتوطنين العرب فيها من قدامى وجـدد أو بين السكـان الأصليين من ايرانيين وترك وأهوائهم الدينية أو بين الدولة الأموية نفسها وممالك الترك المجاورة التي لم تكن تفتر معها الحروب ...

ويظهر من إجماع المصادر كاليعقوبي والطبري والدينوري وابن عبد ربه وابن خلكان على أن سنة ١٠٠ هـ . كانت السنة التي بدأ فيهـا محمد بن علي دعوته . ان خلافة عمر بن عبد العزيز كانت فرصة واسعة لنشاط أعداء الامويين[١] .

ويذكر الطبري ان محمد بن علي أرسل سـنة ١٠٠ هـ أبارباح ميسرة النبال . فأوفد هذا ثلاثة من الكوفيين الى خراسان ، وهنـاك انتخب احد الدعاة سبعين داعية واختار محمد بن علي سنة ١٠٣ أو ١٠٤ من بينهم اثني عشر نقيبـاً ومثلهم من نظراء النقباء (أي الوكلاء للنقباء) ويختص هؤلاء جميعاً بخراسان . فأرسل محمد بن علي اليهم ارشادات مكتوبة ... ولكن جملة شكوك تدوراولاحول هذا الترتيب المصطنع لهذه الأرقام : سنة ١٠٠ ثم ٣ ــ ١٢ ــ ٧٠ ثم ان الروايات الاخرى في الطبري نفسه تبين ان الامر لم يتسق بهذا الشكل المنظم ، عدا ان نجاح الدعوة المحدود اذ ذاك يشكك في ضرورة وجود تنظيم كهذا . هذا الى ان الاختلاف كثير في اسماء النقباء الأول . ولعل المؤرخين أطلقوا هـذا التنظيم الذي جرى في أواخر أيام الدعوة على الأيام الأولى لها . ولعلنا نستطيع أن نعرف مصدر هذا التنظيم وخطوطه ، ممـا ذكره صاحب

---

(١) الدوري ــ العصر العباسي الاول ــ ص ٢٢ ــ ٣٢ .

(أخبار الدولة العباسية) فقد تعرف محمد بن علي أول الأمر على الدعاة الكبار للحركة وكتب لهم سجلا ومنهم ميسرة وأبو مسلمة وبكير بن ماهان وحوالي عشرة آخرين • وكانوا جميعاً من قبيلتي بني مسلمة وهمدان • ومع أن مركزهم كان في الكوفة الا انهم اتخذوا فيها جانب الحذر الشديده وقد ترأس الدعوة أولا مابين سنة ٩٨ـ١٠٠ هـ • أربعة رجال • ولم يمض كبير وقتحتى قرر الإمام عملا بنصيحة بكير بن ماهان نقل مركز نشاط الدعوة إلى خراسان مع بقاء الكوفة نقطة ارتباط بين مرو والحميمة •••

وبكير بن ماهان هو الذي أدخل سليمان بن كثير الخزاعي الدعوة ، خلال زيارة مرّ فيها بخراسان • وحوالي سنة ١١٨ هـ • نظم بكير أو سليمان الدعوة العباسية تنظيماً محكماً وجعل لها اثني عشر نقيباً أربعة منهم من قبائل خزاعة وأربعة من تميم وواحد من كل من قبائل طي وشيبان وبجلة • أما الثاني عشر فمولى لبني حنيفة • وأن يكون احد عشر نقيباً من العرب وإنما يعطي الثورة هويتها الحقيقية [1] ، وإذا كنا لا نعرف الهوية الكاملة لباقي الدعاة السبعين الذين كانوا يلون النقباء

---

(١) لكشف دور العرب الحقيقي والرئيسي في الثورة العباسية يراجع:
- اخبار الدولة العباسية للمؤلف المجهول (نشر الدوري ـ المطلبي بيروت ١٩٧١) .
- تاريخ الموصل لأبي زكريا الأزدي (نشر علي حبيبة القاهرة ١٩٦٧)
- انساب الاشراف للبلاذري مخطوط استامبول (منه نسخة مصورة في دار الكتب المصرية) كما أن بعض اجزائه مطبول (الأول والرابع وقسم من الخامس) .
- تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول (نشر غرياز نيويج ـ موسكو ١٩٦٧)

فإن من نعرفه منهم يكشف أنهم بدورهم من العرب وفيهم عدد محدود من الموالي •

وقــد ألف النقبــاء الأثنــا عشر ما يشبه مجلس الشورى تحت رئاسة سليمان بن كثير الخزاعي • ويظهر أن لقب «نقيب» إنما اتخذ مما ورد في القرآن الكريم عن بني اسرائيل ومجلس شوراهم : «لقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم ، لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعززتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » • وقد تم اختيار الاعداد على نحو الرجــال السبعين الذين اختارهم موسى من قومه والنقباء الاثنى عشر لهم ، ونحو الرجال السبعين من الأوس والخزرج الذين وافوا الرسول ليلة العقبة من أهل المدينة • فتأثر العباسيون في تنظيم دعوتهم بالناحيتين معــاً : « فــإن سنتكم سنة بني اسرائيل وسنة النبي»[1] كما قال محمد بن علي في كتابه إليهــم •

ويبدو أن مرحلة طويلة من النضال ومن التطورات قد تمت ما بين سنة ١٠٠ وبين ١١٨ التي تكون فيها مجلس النقباء الاثني عشر وأن ثمة تنظيمات عقائدية ومالية وعملية قد تكاملت بالتدرج ما بين عهد ميسرة النبال وعهد سليمان ابن كثير الخزاعي ويذكر الطبري أن دعاة ميسر في خراسان، قبض عليهم سنة ١٠٢ ثم أطلق سراحهم • وفي سنة ١٠٣ انضم بُكَير بن ماهان الى الدعوة ودفع ماله لمحمد بن علي ، وكان كاتباً لامير السند من قبل ، واتفق ان

(١) اخبار الدولة العباسية (نشر الدوري) ص٢١٥ وانظر ايضاً فان فلوتن ص٩٦ (الطبعة الثانية) .

توفي ميسرة ، فعين محمد بكيراً محله . وفي سنة ١٠٧ و ١٠٨ نكل والي خراسان بالدعاة . كما ظهر بعضهم سنة ١١٣ فلقوا المصير نفسه .

وهذا مايدل على أن الدعاة كانوا يعملون ويقتلون ويسجنون كما كانوا يرسلون إلى مناطق متعددة من خراسان : إلى نساوأبيورد وبلخ ومرو وآمل وخوارزم . وكان معظمهم من العرب . وهذا هو جانب الفداء والايمان في الدعوة . ومن جهة أخرى فقدكان أتباع الدعوة يدفعون الخمس للإمام كي يقوم بواجبه في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهذا هو جانب التنظيم المالي من الدعوة .كما كان بعض النقباء ينتهز فرصة الحج ليلتقي بالإمام ويحمل إليه الخمس المفروض والهدايا وأخبار الدعوة ومراسلاتها ويحمل منه الكتب والمنشورات التي تنقل تعليماته إلى الاتباع ولدينا عدة نصوص من هذه الكتب ، وهذا هو جانب التنظيم العملي والعقائدي في الدعوة .

وقد استكمل هذا التنظيم في خراسان بعد الثورة . وكان ابو صالح كامل بن المظفر هو «صاحب السر» وإليه جمع الاموال وقسمتها وعطاء الجند وكتابة الكتب . فأعادوا النظر في التنظيم : واختاروا حرساً موثوقاً يقوم بأمر المراسلات ويحفظ ما يرد على الثورة من المال والغنائم وجعلوا رئاسته لابي اسحق خالد بن عثمان واختاروا أبا نصر مالك بن الهيثم للقيام بأمر العسكر فيحكم بينهم ويطرد المشبوهين منهم ، كهيئة أصحاب الشرط ، وجعلوا نصر بن مالك خليفته . وولوا القاسم بن مجاشع القضاء كما كان اسلم بن صبيح على الرسائل[1]..

---

(١) أخبار الدولة العباسية (نشر الدوري) ص ٢٧٩ ــ ٢٨٠

أما الصلاة فكانت لسليمان بن كثير .

ويبدو أن تنظيم الدعوةسنة١١٨ فياثني عشرنقيباًإنماجاء بعد نكسة انتكستها هذه الدعوة إذا أرسل بكير الى خراسان عمار بن يزيد ليرئس الدعوة فيها وهو من اقدم رجالها العالمين فبدل اسمه الى (خِداش) (ويخطيء فان فلوتن الذي تابع الطبري والمؤرخين المسلمين في تعليل هذا الاسم . على أساس المعنى العربي فقط للكلمة بأن عمار خدش الدين ومزقه فسمى بخداش ولعل من الاصح أن نفتش عن تفسير هذا اللقب في اللغة الفارسية)[1] . واستقر خداش في مرو ، ونجح نجاحاً طيباً . ولكنه زاغ وحاد الى الخرمية (من المزدكية) فسمح باشتراكية النساء والمال فقبض عليه والي خراسان وقتله سنة ١١٨ هـ .وتبرأ محمد ابن علي منه بعد مقتله لا قبله ، وأظهر غضبه على شيعته لاتباعهم تعاليم خداش . ثم رضي عنهم بعد مراسلات عدة . وتسلم الدعوة سليمان بن كثير الخزاعي .

وتوفي محمد بن علي سنة ١٢٥ هـ موصيا بالامر لابنه ابراهيم (الامام) وما من شك في أن محمداً كان عبقرية في التنظيم والصبر الطويل والإلحاح في متابعة الطموح فلما سلم الدعوة بعد سبع وعشرين من العمل الدائب إلى ابنه أرسل هذا سنة ١٢٦ بُكير بن ماهان الى

---

(١) قد يكون لقب خداش مشتقاً من خدا الفارسية بمعنى اله او ملك وصاحب مع اش الضمير الثالث الاضافي ويكون المعنى عند ذلك : سيد الدعوة وصاحبها وملكها . او قد يكون اللقب مأخوذاً من خديش بالياء لا بالألف بمعنى : رب العائلة او الملك وهو الاقرب . ولا ننس أن خداش قد زعم انه يحيط بالاسرار الإلهية . وقد تلقي هذه الناحية من مبادئه بعض النور على لقبه .

خراسان فجمع الاتباع في مرو فاعترفوا بابراهيم • ودفعوا اليه ماجمعوه من المال باسم الامام • ولكن بُكيراً توفي بدوره سنة ١٢٦ وعينابراهيم تبعاً لوصيته ابا سلمة حفص بن سليمان الخلال لرئاسة الدعوة سنة ١٢٧ وابو سلمة هذا هو الذي خرج بالدعوة الى طورها العلني •

ولا بد ان نلاحظ على فترة الدعوة السرية ملاحظات عدة :

آ ــ عمل الدعاة خاصة ضمن محور الحميمة ــ الكوفة ــ خراسان وبينما كان رأس المحور والحركة أي الحميمةمختفياًوراءستار كثيف من الكتمان كانت الكوفة مركز الدعوة السري ومقر الداعيةالاول للامام • وكان الدعاة منها حتى زمن خداش•ولكن خراسانكانتهدف الدعاية والبؤرة التي أثمرت فيها الدعوة[1] •

ب ــ كانت الدعوة عربية في زعامتها وأهدافها كما كان معظم الدعاة من العرب المتوطنين في ايران تبعتهم فيها عصبياتهم القبلية•وكانوا جميعاً من العرب المستقرين الذين فقدوا امتيازاتهم فأيدوا الثورة ضد الطبقة العربية التي تحالفت مع الأسرة الحاكمة واحتفظت بالامتيازات وتقاسمتها مع الارستقراطية الايرانية • أما الموالي عامة فمراكزهم ثانوية كما لم يلتحق منهم بالثورة إلا أعداد محدودة •

جـ ــ كان سير الدعوة بطيئاً أول الامر حتى خداش الذي نجح• وبدأنا نسمع عن دخول زعماء العرب المتوطنين وبعض الشيوخ المحليين

---

(١) خطب عبدالله بن علي في أهل الكوفة ،سنة١٣٢ فقال: «إنلكل أهل بيت مصراً وإنكم مصرنا» ! وذلك بعد إعلان البيعة لأبـي العباس في الكوفة .

(الدهاقين) في الدعوة لأول مرة سنة ١١٧ هـ ولا بد ان مجلس الشورى ــ على ما يرجح ولها وزن ــ ان صح وجوده ، قد تكوّن بعــد نجاح خداش ثم انحرافه •

أما اساليب الدعوة في هذا الدور فمختلفة :

آ ــ قال محمد بن علي لدعاته ، : «انطلقوا ايها النفر[١] فادعوا الناس في رفق وتستر» ، فكان الدعاة يجوبون خراسان تجاراً في الظاهر، ويراسلون الكوفة ومنها الى الحميمة • او يجتمعون في الحج • ولمـا كشف أمر بعضهم أوصاهــم الامام مرة اخرى بالكتمــان والرفق في الدعــوة •

ب ــ عني الدعاة بالتبشير في المناطق التي بلغ فيها العداءللامويين غايته : في خراسان وما وراء النهر ، حيث كان التذمر السياسي والمالي والاجتماعي لدى العرب المتوطنين خاصة ، ولــدى الموالي يسهل جلب الانصار • على انهم تخيروا هذه المناطق بالذات لغاية اخرى شرحهـا محمد بن علي في وصيته المعروفة لدعاته ، وسواء صحت الوصية أم لم تصح فما فيها يعرض الواقع قال : «••• عليكم بخراسان» فان هناك :

١) العدد الكثير «وهم جند لهم ابدان ••»

٢) وهناك صدور سليمة لم تتقسمها الأهواء والأحزاب •

٣) وهناك الاستياء والتذمر الشديد •

---

(١) انظر الدوري العصر العباسي الاول ص ٢٤ وما بعدها •

جـ ـ حاول الدعاة جمع كل المقاومة الشيعية في صفوفهم على اختلاف ألوانها • واظهروا غايتهم الاولى وهي قلب الحكم الاموي ، وأخفوا الثانية وهي السعي للخلافة لشخص معين ولم يظهروا للناس بثوب الطالب للملك ولكن بوشاح الثائر للحق • وعلى هذا فلم يكونوا يدعون لشخص ولكن (للرضا من آل محمد) أياً كان هذا الذي يرضاه المسلمون من آل البيت • (وقد جمعوا بهذا الشعار مابين رأي الشيعة من جهة ورأي المرجئة وبعض الخوارج من جهة أخرى) وكثيرا ما أعلنوا انهم ثاروا ليثأروا لشهداء العلويين • ولم يكن يعرف سر الدعوة الحقيقي الا خاصة الدعاة ، لأن العباسيين شجعوا هذا الوهم ، ابعاداً للشبهات والاضطهاد عنهم ، وايهاماً للعلويين ، الى حد أن (المنصور) بن محمد بن علي بايع في عهد هشام بن عبد الملك ، محمداً ذا النفس الزكية ابن عبد الله المحض بالخلافة لما اجتمع في المدينة عدد من بني هاشم واتفقوا على العمل لكسب الخلافة لمحمد هذا ، (إذا صحت رواية الاجتماع المذكور) •

د ـ اخفى غلاة الدعاة حقيقة عقائدهم عن المعتدلين ، وتساهل بعضهم في بعض العقائد الاسلامية • فأغروا الاهالي بتقربهم من العقائد العتيقة في البلاد كاشتراكية مزدك ـ كما فعل خداش ـ أو ببعض الأفكار الزارادشتية ـ كما فعلوا مع بهافريد •

هـ ـ كان لإهمال الولاة الامويين ولتحاسدهم وانشغالهم بمعالجة المشاكل الاخرى ، وللعصبية القبلية بين الحاكمين ، اثرها الكبير في نشر الدعوة وفي نجاحها •

ثالثا ـ الثورة العلنية والحرب

امتدت هذه الفترة بين سنتي ١٢٨ ـ ١٣٢ هـ وهـو دور ابي مسلم الخراساني في توطيد الثورة بخراسان .

ان مشكلة خداش وتوسع الدعوة ، وقلة براعة ابن كثير ونفوذه المحلي ، جعلت الامام يرسل ابـا مسلم الخرسانـي لرئاسة الدعوة هنـاك .

وشخصية هذا الداعية رغم شهرتها غامضة . وقد لحقتها مع الأيام الكثير من الاساطير والخيال الشعبي . وفي أصله اختلاف يعترف بـه المسعودي فيرى انه عربي[1] . بينما يذكر الفخري انه ولد باصفهان . ونشأ بالكوفة . ويقول الدينوري : انه ولـد بمـاه البصرة مما يلي اصفهـان .

ويذكر ابن خلكان أنه من قريةتسمى (سنجرد) أوماخوان قريبة من مرو وكان أبوه يجلب المواشي أحياناً الى الكوفة . ويكتب المسعودي: انه من قرية بسواد الكوفة . أما الطبري فيعين هذه القرية باسمخطرنية، وقد يؤيد هذا الخبر أن هذه القرية كانت لمجموعة فارسـية ، قدمت كثيراً من رجالها للحركات ضد الامويين .

---

(١) ادعى ابو مسلم ان امه كان امة لعمير بـن بطين العجلي باعها وهي حامل بـه . كما ادعى بعد نجاحه انه من نسل سليط بن عبد الله ابن العبـاس .

أما صاحب (أخبار الدولة العباسية) فيذكر بين الروايات التي يذكرها أن أبا مسلم ولد في بعض قرى أصفهان من أب فارسي وأم أمة واضطر والده ، لضيقه المالي أن يبيع الأمة وهي حامل بأبي مسلم إلى عيسى العجلي بن معقل أحد الملاكين العرب هناك • فولد الصبي وسمى ابراهيم ونشأ مع أولاد العجلى ، يخدمهم ويجمع لهم ريع مزارعهم في اصبهان والكوفة • وفي هذه المدينة الأخيرة كان يلزم أبا موسى ،عيسى ابن إبراهيم السراج من علماء الشيعة وعنه وعن بعض السجناء أخذ التشيع وحين اتصل بابراهيم الامام رسولا إليه أعجبه وسماه الامام : عبد الرحمن وكناه أبا مسلم • وابن خلكان يروي أنه من ولد بزرجمهر ومؤدى هذه الروايات المختلفة إذن أن أبا مسلم ايراني الاصل في الغالب •

على أن ثمة رأياً ذكره فامبري في تاريخ بخارى ويستند فيه إلى مخطوط قرأه ــ فيما يقول ــ في آسيا الوسطى يفصل حياة أبي مسلم ، ويذكر أن هذا الرجل تركي الأصل [1] وأن التركمان يعتبرونه واحداً منهم وقد حباه الله صفات الرسل فأنقذ العقيدة الاسلامية من الفساد • وليس شيء من ذلك بالثابت بعد كما أنه ليس بالثابت ما يرميه به الشاعر أبو دلامة حين يهجوه بأنه كردي الأصل فتلك شطحات شاعر قال فيها :

---

(1) أنظر فامبري ــ تاريخ بخارى (ترجمة الساداتي) ص٧٨ ويتبع الراي نفسه الباحثون الاتراك المحدثون في دائرة المعارف الاسلامية(الطبقة التركية) وهي محاولة لإظهار الدور الذي لعبه الاتراك في التاريخ الاسلامي. وقد لا تعني أكثر من اشتراك بعض العناصر التركية في جنود الثورة العباسية .

في دولة المهدي حاولت غـدرة ألا إن أهل الغدر آباؤك الكرد[1]

ولسنا نعرف على الضبط اسم أبي مسلم الأصلي : قـد رأينا في رواية أن اسمه الأول : ابراهيم وكان يكتب على نقوده عبد الرحمن بن مسلم . وابن خلكان يشير إلى ان هذا ليس باسمه الحقيقي . «وقيل إن اسمه عثمان وقد طلب إليه ابراهيم الامام تغييره»[2] ويذكر (صديغي[3]) ان اسمه الاصيل بهزادان ... ولسنا نعرف سنة ميلاده بالضبط ويقال إنه ولد سنة مائة للهجرة . وهذا يعني أنه بدأ قيـادة الثورة وعمره ثمان وعشرون سنة . ثم انا لا نعرف هل كان مولى أو عبداً ؟ كما لا نعرف متى دخل الدعوة ؟ ولا من الذي قدمه للامام : سليمان بن كثير ام بكير ابن ماهان ؟ وان كان الارجح انه دخلها وهو يعمل في الكوفة أجيراً عند بعض السراجين (عيسى السراج[4]) وان تاريخه فيها ليس ببعيد فهو لا يعود فيما يروي الطبري[5] إلى أبعد من ١٢٤ حين «اشتراه» بكير بن ماهان لما رأى من اندفاعه للتشيع ولكنه سرعان ما استرعى انظار دعاة الحزب العباسي والامام ابراهيم «بذكاء عقله وفهمه وحسن بصره وجودة ذهنه وحسن منطقه» ويظهر أنه كان جميل الهيئـة وعلى جانب حسن من الثقافة العربية والفارسية ، الى متانة في الاعصاب وذكاء في استغلال الظروف ، فتقدم في زعامة الدعوة[6] .

---

(١) اخبار الدولة العباسـية نشر (الـدوري) ص ٣٥٦ ، العيون والحدائق (نشر دي غوية) ص ١٨٣

(٢) ابن خلكان ــ وفيات ج٣ ص ١٤٥

(٣) الدوري ص ٢٨

(٤) فامبري ص ٧٧ ، واخبار الدولة العباسية ص ٢٥٣ و ٢٥٤

(٥) انظر الطبري ج٧ ص ١٩٨ (١٧٢٦/٢)

(٦) انظر الطبري ج٧ ص ٣٤٤ ثم ص ٣٥٣ (١٩٣٧/٢ و ١٩٤٩)

وفي ١٢٨ بعد أن «وقعت العصبية في خراسان (بين قيس ويمن) واضطراب الحبل» طلب سليمان بن كثير رجلا يقـود أمـر الحركة العباسية فوضع الامام شيوخ الدعوة في طاعة ابي مسلم • وأوصاه الا يخالف الشيخ سليمان بن كثير وزوده بتعليماته •

ويذكر الطبري [١] وابن قتيبة لابراهيم الامام الوصية التي أوصى بها أبا مسلم ، حين ارسله ، على الشكل التالي : «ياعبد الرحمن انك رجل منا أهل البيت ، فاحتفظ بوصيتي • وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين اظهرهم ، فان الله لايتم امره الا بهـم • وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في امرهم • وانظر هـذا الحي من مضر (قيس) فانهم العدو القريب الدار • فاقتل من شككت في امره ، ومن كان في امره شبهة ومن وقع في نفسك منـه شيء • وان استطعت الا تدع بخراسان لسانا عربياً فافعل • فأيما غلام بلغ خمسة اشبار تتهمهفاقتله•• ولا تخالف هذا الشيخ ـ يعني سليمان بن كثير ـ ولا تقصه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني •••» •

ولعل هذه الوصية مزيفة ومستقاة ، في قسم منها ، من واقعاعمال ابي مسلم • ولعلها وضعت بعد ان تم له الظفر ، والقسم الاخير منهـا (عن قتل العرب) يناقض مطلعها • فاذا صح القسم الاول فلا شك ان القسم الاخير مدسوس او محرف على الاقل • فابراهيـم الامام عربي وسليمان بن كثير المشرف على اعمال ابي مسلم خزاعي عربي • وشيوخ الدعوة الآخرون امثال قحطبة الطائي وابـي داوود الشيباني هم عرب أيضاً • وإذا كان العيني صاحب (عقـد الجمان) يروي ان سبعة ، من

---

(١) الطبري ج٧ ص ٣٤٤ (٢/١٩٣٧)

النقباء الاثني عشر . كانوا عربا فإنه قد ثبت من اسمائهم أن احد عشرا منهم كانوا من العرب[1] • ثم ان ابراهيم يطلب من داعيته ان يصطنع اليمانيين وكلهم عرب . ولولاهم ما انتصر • ويأمره بأن يتألف قلوب ربيعة (العربية) لينجح • هذا الى ان الثورة لم تعلن ضد العرب ولكن ضد الاسرة الحاكمة الاموية • والى ان هذا القسم من الوصية لم يطبق ولم يسمع شيء من مثله • وربما كانت الجملة في الأصل «ألا تدع لسانا مضريا» فحرفها بعض اعداء العباسيين الى «لساناً عربياً» وقد يؤيد رأينا أخيراً . في تهافتها . انها وردت عند الطبري دون اسنادوترد في ابن قتيبة . وهو مرتبك في بعض رواياته عن العباسيين . ولاذكر لها في اليعقوبي او ابن خلكان او المسعودي أو الدينوري . وان كان الاخير يروي ان أبا العباس أوصى ابا مسلم الا يدع بخراسان عربياً لايدخل في امره الا ضرب عنقه • وبين هذا الامر وبين قتل جميع العرب . فرق كبير • ويحق لنا ــ منطقياً ــ ان نرجح هذا الخبر الاخير من الدينوري • واعلنا نضيف أخيراً أن هذه الوصية سواء كانت زائفة أو صحيحة تكشف في نصها ذاته عن أمر هام جداً هو أن العرب وحدهم بمختلف أحيائهم وعصبياتهم لا الموالي الايرانيين أو الترك أو غيرهم ، هم الذين كانوا

---

(1) هؤلاء الدعاة هم : من خزاعة : سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وزياد بن صالح وطلحة بن رزيق .
ومن تميم : موسى بن كعب وعيسى بن كعب ولاحظ بن قريظ والقاسم بن مجاشع .
ومن طيء : قحطبة بن شبيب .
ومن شيبان : خالد بن ابراهيم .
ومن بجيلة : أسلم بن سلام .
ومن بني حنيفة : مولاهم شبل بن طهمان وهو الوحيد من غير العرب .

موضع اهتمام ابراهيم الامام والدعوة وهم الذين كانـوا مادة الثورة ومركز ثقلها • وعدم ورود إشارة إلى غير العرب يدل على أن من المسلم به أن الثورة العباسية عربية في رجالها . سواء في نظر الإمام ـ في حال صحتها ـ أو في نظر من زيف الوصية إن كانت زائفة •

٢ ـ تنظيم الدعوة وموقف نصر بن سيار :

اهتم أبو مسلم اول الامر بتنظيم الدعوة فبعث دعاتـه الى كل نواحي خراسان «يدورون كورة كورة في زي التجار» ثم «ولى على من بايعه في كل كورة رجلا من اهلها» كما ذكر الدينوري • ويؤخذ من ملاحظة للمستشرق بارتولد انه استفاد من تجربة خداش فحاول التوفيق بين الاسلام وبين العقائد المحلية لا سيما في عقيدة تناسخ الارواح • كما تسامح مع حركة زارادشتية الجذور ظهرت في نيسابور على يد رجل يدعى بهافريد قام بايجاد حركة إصلاحية تحت تأثير الاسلام تجمع ما بين بعض المبادىء الاسلامية والزارادشتية • ويبدو أن أبا مسلم شجع الرجل ليكسب عطف العامة من الفرس [1] • وقد كسب بهـذا وبذلـك عدداً كبيراً من الدهاقين والفلاحين على السواء • وقام بجولة في غربي ايران (جمادي الثاني سنة ١٢٩) لتنسيق العمل واستمالة طوائف الشيعة

---

(١) تخلى ابو مسلم حين انتصرت الثورة وشارفت دخول العراق عن بهافريد هذا وقتله (وسنعرض لذلك فيما بعد) . وربما أراد بذلك إرضاء المسلمين والموابذة من الزارادشتيين أو شاء التخلص منه في الوقت الذي كان يتخلص فيه من كافة الشخصيات القويـة والمراكـز ذات النفوذ في خراسان لينفرد بالسلطان فيه .

المبعثرة هناك . وبعث بقحطبة الطائي لابلاغ الامام نتائج عمله واستلام تعليماتـه .

ونجحت طرق ابي مسلم في العمل ؛ «فوافاه في يوم واحد اهل ستين قرية» كما يقول الطبري ويبالغ الدينوري في قوله انه «قد استجاب لدعوته جميع أرض خراسان» على أن هذا يدلنا على مبلغ انتشار الدعوة التي يرى بارتولد انها جمعت «الارستقراطية» الايرانية تحت رئاسة ابي مسلم . وهي إنما جمعت في الواقع خطأ المجموعة العربية اليمانية خاصة . ولم تقف في وجهه صعوبة البعد بين الاصقاع الخراسانية . اذ جعل لاجتماعاته باصحابه مواعيد معينة . وجعل سفيذنج . وهي قرية سليمان بن كثير الخزاعي ، مركزه الاول للثورة . ولكن الصعوبة الحقيقية كانت في جر كافة الكتل العربية لجانب الدعوة، والعمل فيها جنباً لجنب ... وقد استفاد ابو مسلم من ظرفين مواتيين في هذه الناحية :

اولا ــ كان عدد العرب قليلاً نسبياً في خراسان . ويقدرهم (ولها وزن) بمائتي ألف لكنهم كانوا جنداً وكانوا يشتركون جميعاً في النقمة على الحكم الأموي فهم إذن القوة الضاربة وإذا لم يحصروا انفسهم بالأعمال العسكرية بل امتلكوا الضياع في الارياف واستقروا ، واختلطوا بأهل البلاد لحد ما . وصار بعضهم يشعر بشيء مشترك مع الاهالي فقد تناسى معظمهم عصبيته القبلية بسبب ظهور أوضاع جديدة ومصالح خاصة أخذت تحل لديهم محل تلك العلاقة القديمة بينهم . ومع أن هذه الطبقة العربية الحاكمة لم تكن جبهة واحدة : فهناك اليمانيون الثائرون بزعامة الكرماني . وهناك حي ربيعة المتربص وهناك القيسيون، وكان الحكم في ايديهم . ووالي الخليفة نصر بن سيار منهم إلا ان

القليل منهم شعروا . مع نصر الوالي . بضرورة الدفاع القوي عن الحكم الأموي .

ثانيا ـ لم يكن مقر الخلافة في الشام أو في حران قادرا على معونة نصر بن سيار بأي قوة لكثرة الفتن على الخليفة مروان . فلما ظهر امر ابي مسلم استنجد نصر بمروان فكتب اليه الخليفة «أن احسم هذا الداء الذي ظهر قبلك بما عندك» ولكن الخطر ازداد ايضاً ، فاستنجد نصر ثانية وكتب متعجباً :

أرى بين الرماد وميض نار	ويوشك ان يكون لها ضرام
فإن لم يطفئها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهام ..
أقول من التعجب ليت شعري	أأيقاظ أمية أم نيام ؟
وإن النار بالعودين تذكى	وإن الحرب أولها كلام

فأرسل مروان الى والي العراق يزيد بن هبيرة ان يسارع لنجدة نصر . ولكن هذا لم يفعل . وشغل او تشاغل ـ على رأي المسعودي ـ بدفع فتنة العراق ، أو احتج بقلة ولاء العراقيين على ما يذكر الدينوري . وبقي ابن سيار لوحده في وجه العاصفة .

وكان نصر بن سيار من الكفايات الادارية النادرة وقد نجح كعامل في سمرقند ثم في بلخ قبل أن يعهد إليه الخليفة هشام ١٢١/٧٣٨ بولاية خراسان جميعاً وما وراء النهر فتميز بالحذر والعدل والمرونة وبعد النظر حتى أخضع بدو الترك إخضاعاً تاماً . ونظم الادارة الاقليمية فأعاد عاصمة الاقليم الى مرو (وقد كان الوالي أسد القسري قد ابعدها شرقاً الى بلخ) وعين الولاة المحليين على مدن خراسان من المضريين واليمانيين

وقام بإصلاح النظام المالي بعد أن أساء الدهاقين والمرازبة تطبيقه واستغلاله وعين لمراقبتهم ولإعادة فرض الضرائب على مستحقيها : منصور بن عمر وأعفى المسلمين من الضرائب الإضافية الثقيلة التي فرضها عليهم الدهاقين ليتألف قلوبهم .. الا إن عوامل الثورة كانت أقوى بكثير من جهوده .

وقد حطمت من قوى نصر دون شك تلك الأزمة التي قامت بينه وبين حكومة دمشق بعد مقتل الوليد الثاني . والتي استغلها جديع بن علي الأزدي الكرماني للثورة مع أصحابه اليمانيين على نصر وسلب الولاية منه . وقد صمد نصر للازمة حتى زالت وثبت مركزه بوصول يزيد الثالث القيسي الميول الى الخلافة كما استطاع ان يقبض على الكرماني ويضعه في السجن سنة ١٢٧ / ٧٤٤ إلا أن هرب هذا الرجل من سجنه سمح له بمعاودة الثورة ولم ينفع في إخمادها خضوع نصر للضغط وتسليمه باعادة العطاء لمن قطع عنه من اليمانية خاصة .

وثار في الوقت نفسه ثائر آخر في خراسان هو الحارث بن سريج المرجىء ضد نصر واتفق مع الكرماني فدخل الاثنان مدينة مرو بينما هرب نصر الى نيسابور . ومع أن الحليفين اقتتلا وسقط الحارث قتيلا على يد حليفه (رجب سنة ١٢٨ / نيسان سنة ٧٤٦) إلا إن نصراً لم يفرح طويلا بخلاصه من أحد خصميه لأنه كان يتهيأ لاسترداد مرو من الكرماني وينتظر مدد الخليفة الذي طلبه حين ورد عليه خبر تجمع (الشيعة) من مرو وضواحيها ...

بدأت المعركة سياسية أول الأمر بين الوالي ابن سيار وابي مسلم . فقد عمد الوالي الى جمع الجبهة العربية المتناحرة . عن طريق اثارة النعرة

العربية فيها لعلها تجتمع على حرب النابتة الجديدة التي ظهرت بقيادة أبي مسلم :

أبلغ ربيعة في مرو واخوتها ... أن يغضبوا قبل الا" ينفع الغضب؟
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم ... كأن أهل الحجا عن فعلكم غيب
وتتركون عدواً قد اظلكم ... ممن تأهب ، لا دين ولا حسب
ليسوا الى عرب منا فنعرفهم ... ولا صميم الموالي ان هم نسبوا
قوم يدينون ديناً ماسمعت به ... عن الرسول ،ولا جاءت به الكتب
فمن يكون سائلا عن اصل دينهم ... فان دينهم ان تقتل العرب !

ومع أن اللعب على أوتار العصبية القبلية كان نغمة قديمة تجاوزها العرب الخراسانيون بسبب مانجم لديهم من ظروف ومصالح جديدة فقد تجاوب بعضهم معها على ضعف واستطاع بنو بكر ان يصلحوا اولا بين نصر وشيبان بن سلمة الحروري وهو أحد القوى الثائرة التي اتفقت مع قوات الكرماني وكانت تشكل عنصراً من عناصر الاضطراب والخطر في خراسان . ثم تقرب نصر من جديع الكرماني واقترح الالتقاء بـه على أطراف مرو ، فقبل جديع بعد تردد ولكنه اغتيل في ذلك الاجتماع من قبل حاتم بن الحارث بن سريج (ثأراً لأبيه) . هل كان لنصر من يد في هذا الاغتيال ؟ ربما كان ذلك لأن نصراً صلب الرجل بعد قتله ومع هذا فقد اقتدى علي بن جديع الكرماني (الذي خلف أباه في الزعامـة) بشيبان و « تواادعت — كما يذكر الطبري[1] وابن خلدون — قبائل العرب من ربيعة ومضر واليمن على وضع الحرب ، والاجتماع عـلى

---

(١) الطبري ج٤ ص٣٦٧ (٢/١٩٦٩)

قتال أبي مسلم » وعاد نصر فاحتل مدينة مرو مما اضطر أبامسلم لأن ينسحب الى قرية الماخوان ولان يخندق فيها مع أصحابه الثائرين ولكن هذا الاتفاق لم يكن صميميا صادقا فما عتم ابو مسلم ان صد هجمة صغيرة قاموا بها ضده . وعمد بالمقابل الى تفريقهم بدهائه . ونجحت دبلوماسية أبي مسلم حيث فشلت مناورة نصر .

ولم يكن موقف الخراساني قويا في البدء — كما تصوره بعض المصادر كالدينوري وابن قتيبة والطبري — بل كان هو الذي يطلب ود بعض العرب . ولم يستطع المقاومة العلنية . بل جعل يكتب الى شيبان بذم اليمانية تارة ومضر اخرى . ويوصي الرسول بكتاب مضر ان يتعرض لليمانية ليقرؤوا ذم مضر . وللرسول بكتاب اليمانية انيتعرض لمضر ليقرؤوا ذم اليمانية . وقد استراب شيبان من الموقف كله فانسحب بجماعته الى بلدة سرخس واعترف له أبو مسلم بحكم مابين نيسابور وهراة وجباية ضرائبها . وكان ابو مسلم في الوقت نفسه قد أرسل للكرماني يقول : « أما تأنف من مصالحة نصر وقد قتل بالامس اباك وصلبه ؟ . ماكنت احسبك تجتمع مع نصر في مسجد تصليان فيه .. » وكتب الى الأزد يحذرهم مغبة الاتفاق مع نصر واصحابه : « لأن السلطان في مضر وهم عمال مروان وقتلة يحيى بن زيد » . واذا لم يتعرض ابو مسلم لنصر فقد نجح في تفريق اليمانيين والأزد عنه . فمالبث الكرماني ان اجتمع بأبي مسلم فاقتنع بقطع علاقاته مع نضر حين اعترف له بامارة خراسان وصلى وراءه . ومالبث الأزد أن انصرفوا عن حلف مضر .

٣ — نفير الثوار العلني وشعارات الثورة :

في هذه الفترة فيما يبدو وحين وصل الى نصر جواب الخليفة بان

يخسم الداء بما عنده استطاع نصر بن سيار ان يجند بجانبه اعداداكبيرة من الايرانيين سكان ماوراء النهر والمسين بالتاجيك وقد حاربوا تحت رايته وبقواعلى الولاء الاموي زمنا طويلا بينما استطاع أبومسلم ـ فيما يظهر أيضا ـ ان يكسب الى جانبه بسهولة بعض العناصر التركية فيما وراء النهر ومن خوارزم وقدحاربت بجانبه تحت الراية السوداء[1] • ويبدو أن هذه المشاركة التركية الاولى الناجحة تركت في الخيال الشعبي التركي أصداء عميقة من الفخر ظهرت فيما بعد في كثير من الاغاني الشعرية الشعبية •

وكانت أواخر سنة ١٢٩ واوائل سنة ١٣٠ هي الفترة الفاصلة في الموقف : اذ ترك ابو مسلم الخصومة تتسلح في مرو . وانسحب الى سفيذنج . وهي قرية بني خزاعة فأمر اتباعه بالحشد • يقول الدينوري : « فانجفل الناس على ابي مسلم من هراة وبوشنج ومرو الروذ . والطالقان ومرو ونسا وابيورد وطوس ونيسابور وسرخس وبلخ والصغانيان والطخارستان وختلان وكش ونسف فتوافوا جميعاًمسودي الثياب » وفي اليوم المعين ١٥ او ٢٥ رمضان سنة ١٢٩ رفع أبو مسلم

---

(١) انظر فامبري ـ تاريخ بخارى (ترجمة الساداتي) ص ٧٨ ويضيف فامبري (هامش ١ و٢) أنه قرأ في مخطوط يفصل حياة ابي مسلم وجده في آسيا الوسطى أن الجيش الذي هزم به قحطبة الأمويين في الزاب كان في أكثره من الاتراك . وأن أبا مسلم دخل الأغاني الشعبيةالحماسية وغنى الشعراء في مدحه وجعلوه بطلا قوميا كرستم لدى الفرس • وقد أفنى عمره في حرب المشركين من الفرس . وبعض القصص التي تجري حتى اليوم لدى الاوزبك والتركمان تقرنه في الجرأة وعجيب القتال بعلي ابن أبي طالب وما من شك في أن ذلك إنما لحق أبا مسلم بعد ان اشتهر ولعب الخيال الشعبي في تجاذبه وتضخيمه .

اللواء الاسود (الظل) والراية (السحاب) اللذين ارسلهما الامام إليه وهو يتلو الآية الكريمة التي كتبت على اللواء « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » . وقد أوجد الكتاب العباسيون فيما بعد تأويلات لاسمى الظل والسحاب أرادوا بها اضفاء بعض المعنى الديني على بني العباس يقول صاحب العيون والحدائق : « ... وتأويل هذين الاسمين الظل والسحاب أن السحاب يطبق الأرض وكذلك دعوة بني العباس وتأويل الظل أن الارض لاتخلو من الظل أبدا فكذلك لاتخلو الارض من خليفة هاشمي أبد الدهر ... »[1]

وفي هذه الفترة من بدء الثورة نظم الثائرون أمورهم في شبه دولة : لها صاحب الجند وصاحب الرسائل وصاحب الشرطة وحرس للقائد الثائر ورجال للمراسلات ولها صاحب المال والاعطيات .وجعلوا لأنفسهم معسكرا واسعا تخيروا له موضعا موافقا لحفر خندق حوله (من قرية الماخوان)واجتمع اليهم الواردون هناك . فما أهل هلال المحرم من سنة ١٣٠ حتى كان عددهم يزيد على عشرة آلاف ... »[2]

ووجد الثائرون قوة لم يكونوا يحسبون حسابها من قبل فلما بدت لهم استغلوها وهي العبيد الابقون . فاعلنوا قبولهم في الجند الثائر وكثروا حتى صير لهم أبو مسلم موضعا على حدة من خندقه[3] .

ويلفت النظر هنا شعار « السواد » في الثياب وفي الراية . فهل

(١) العيون والحدائق لمؤلف مجهول (طبع دي غوية ١٨٧١) ج٣ ص١٨٦
(٢) أخبار الدولة العباسية (نشر الدوري) ص ٢٧٦ ــ ٢٨٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٨١

اتخذ العباسيون هذا الشعار حدادا على شهداء آل البيت الذين ذهبوا ضحية استبداد الامويين ؟ ام اتخذ لمناقضة البياض شعار الامويين ؟قد يكون الرأي الاول هو الأصح فيما يتعلق بالثياب فقط (لاالراية)لاسيما وان الروايات التاريخية تؤيد ذلك ــ كما يقول دوساسي ــ وانالملابس السوداء كانت الملابس الرسمية في العهد العباسي اما ان البياض كــان شعار الامويين فليس ذلك بثابت • وقد استنتج (كريمر) من عبارة وردت في الاغاني عن الوليد انه كان يصلي في ثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة « ان شعار الامويين البياض » وبالرغم من انه رمز النظافة ــ على مايظهر ــ فلدينا من النصوص التاريخية مايدل على ان الامويين لم يقتصروا على الثياب البيض • فقد كانت العمامة شعارهم الرسمي •على انه ــ كما يقول فان فلوين [١] ــ « لايبعد ان يكون الامويون قــد اتخذوا البياض شعارا لهم بعد ان قامت الدولة العباسية وبعد ان اتخذ الخلفاء العباسيون السواد شعارهم • وقد ذكر الطبري وابن الاثــير حين عرض لثورات الشام ضد أبي العباس أن أهل الشام « بيضوا»[٢] مما يوحي بأن البياض قد يكون اتخذ في ذلك الوقت أوقبله شعاراً لبني أميــة •

اما الالوية السود فلم تكن يوما شعار الحداد • فقد كان لواء الحارث بن سريج في ثورته سنة ١١٦ اسود ، وكذلك علم بهلولالخارجي سنة ١١٩ وعلم ابي حمزة الخارجي سنة ١٢٩هـ ولم يكن احد من هؤلاء في حداد على آل البيت • ويرى فلوتن اننا « ربما استبنا السر في اللواء

---

(١) فان فلوتن ــ السيادة العربية ــ ص ١٢٤ وما بعدها .
(٢) انظر الطبري ج٧ ص ٤٤٤ وص٤٤٦ (٣/٥٣ و٥٦) وانظــر ابن الأثير ج٥ ص ٤٣٣ و ٤٣٤ .

الاسود من بيت في قصيدة للكميت الشاعر الشيعي وجهها للحارث بن سريج سنة ١١٧ هـ يقول :

والا" فارفعوا الرايات سودا   على أهل الضلالة والتعدي

فالعلاقة هي بين الالوية السود ومحاربة الضلالة والعدوان أي الكفر وتعدي حدود الله • وهذا يبين لنا معنى هذه المسألة التي اشار اليها (هساكر) وهي ان الالوية المذكورة تمثل لواء الرسول الذي كان يحمله في حروبه مع الكفار . ذلك اللواء الذي اتفقت جميع المصادر على انه كان اسود • ولهذا كانت ألوية الخوارج سوداء لانها تذكرهم بحرب الضلال والجور التي شنت على الكفار في عهد الرسول الذي يعتبرونه المثل الاعلى للكمال • ولعله لهذا ايضا (ومما يفيد ذكره هنا) كان لواء علي بن ابي طالب . الذي كان يحمله له (هذين) في صفين .اسود•

ويلفت النظر من جهة أخرى بين الشعارات التي رفعها الثائرون في تلك الفترة شعار : (يامحمد يامنصور) [١] وهو شعار استخدمته الدعوة العباسية بذكاء لاجتذاب اكبر عدد مسكن من عرب خراسان واذا كانت كلمة محمد تشير في الوقت نفسه الى الرسول العربي (ص) ودينه كما قد تشير الى محمد بن علي العباسي (الذي كان قد مات أو ذاك) فان صيحة يامنصور صيحة ثورية معروفة وقد طالما رفعت في

---

(١) يذكر الطبري (ج٧ ص٣٦٩) "أن أول من سود (في خراسان) هو أسيد بن عبد الله (في بلدة) نسا ونادى : يا محمد يامنصور . وسود معه مقاتل بن حكيم وابن غزوان وسود أهل أبيورد وأهل مرو الروذ وقرى مرو . . . " .

ثورات سابقة كثورة المختار الثقفي وعبد الرحمن بن الاشعث وزيد ابن علي • كما أن لهذه الصيحة رنينها الخاص لدى القبائل اليمانية لانها تذكرها بالمنقذ اليماني القحطاني المنتظر ، وبمنصور اليمن أو منصور حمير • وقد استخدمت في خراسان بالذات ، قبل سنوات معدودة من الثورة العباسية ، من قبل الثوار المرجئة مع الحارث بن سريج •

كانت جموع المسودة ماتزال تمشي الى « صاحب الالوية السود في سفيذنج » وقد سودوا أنصاف الخشب التي كانت معهم وسموها : كافر كوبات (أي عصا الكفار بني امية)[1] واقبلوا فرسانا وحمارة يسوقون حميرهم ويزجرونها (هرّ مروان) يسمونها لمروان بن محمد • وكانوا ــ والكلام هنا للدينوري ــ زهاء مائة الف رجل •

في تلك الفترة ــ على مايظهر ــ شجر خلاف بين ابي مسلم وسليمان ابن كثير ، زعيمي الدعوة ، فانتقل ابو مسلم الى قرية ماخوان تاركا قرية صاحبه • ثم دبر مقتله متخلصا بذلك من كل عقبة في طريقه ليصبح رئيس الدعوة الأوحد •

ولعله من الضروري أن نشير هنا الى أن هذا التدبير من ابي مسلم لم يكن الوحيد من نوعه • فقد سبقه أو أعقبه مقتل رجل آخر شكل خطرا على ابي مسلم هو عبد الله بن معاوية الجعفري رأس الفرقة

---

(١) استعملت هذه العصى الشبيهة بالعمد في ثورة المختار أيضاً (انظر الطبري ج٦ ص٧٦) . وكان اقدم أصحاب المختار هم من الموالي الساكنين في قرية خطرينة بسواد الكوفة ويذكر الطبري (ج٧ ص٣٦٠) أن أبا مسلم هو في الأصل من هذه القرية ذاتها .

الجناحية المتطرفة الغالية . فقد ثار الرجل في الكوفة سنة ١٢٧ والتحق بثورته عدد من الشخصيات العباسية الهامة كابي جعفر عبد الله بن محمد . وأبي العباس عبد الله بن محمد ، وعيسى بن علي (وهم رؤوس العباسيين فيما بعد) ولعلهم ظنوا أن بامكانهم استعجال الامر ضد الامويين قبل ثورة أخيهم ابراهيم الامام السرية أو حسبوا انهم لن يصلوا من هذه الى شيء مع وجود ابراهيم على رأسها فالتحقوا بابن معاوية حفيد علي بن ابي طالب وعلى أي حال فقد فشلت الثورة وهرب ابن معاوية الى خراسان حيث اعتقله ابو مسلم . وربما كان ذلك بتعليمات « الامام » ابراهيم بن محمد ،ثم قتله سنة ١٢٩/٧٤٦ لأنه يشكل خطرا على العباسيين بادعائه الامامة وبرفق شعار الثورة العباسية نفسه « الدعوة للرضا من آل البيت ... » . وانزاح بذلك عن أبي مسلم وعن الثورة ظل خطير .

٤ - جبهة نصر بن سيار

وبينما كان ابو مسلم يستغل كل لحظة من فترة التربص لزيادة قوته كانت جبهة نصر بن سيار قد تصدعت وكان الكرماني يحاصر مرو عاصمة نصر . ويظهر ، من روايتين للطبري ، ان ابا مسلم اضحى اذذاك من القوة بحيث حاول كل من الطرفين ان يتفق معه . ولكنه تربص حتى دخل الكرماني (مرو) على نصر سنة ١٣٠ وعندئذ دخلها مع المسودة وأوقف القتال بين الطرفين ، واصبح سيد الموقف .

وفي (مرو) ، بعد هذا النصر المبدئي . اخذ ابو مسلم البيعة على الجند من الهاشمية خاصة . ونصها كما جاء في الطبري : « ابايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه (ص) والطاعة للرضا من آل بيت رسول

الله (ص) وعلى الا تسألوا رزقاً ولاطمعاً حتى يبدأكم به ولاتكم ، وان كان عدو احدكم تحت قدمه فلاتهيجوه الا بأمر ولاتكم » • وفي هذه البيعة ايضاح لموقف الحركة العباسية اذ ذاك : فهم يعدون بالسير على الكتاب والسنة ويستمرون في كتمان اسم الامام بمعنى انه لم يكن بعد قد عرف ، ويؤكدون الطاعة المطلقة ويعاهدون على التجرد في العمل ويجب الا ننكر ماكان يضطرم في جموع المسودة من اندفاع عاطفي • ويذكرون ان صفوة جند ابي مسلم كانت من « الكفية » أو أهل الكف: ويفسرونها بانهم كانوا يكتفون من الرزق بكف (حفنة) من القمح او انهم بايعوا على الا يأخذوا مالا وان تؤخذ اموالهم ان احتيج اليها . يبتغون الجنة مقابل ذلك (أي يكفون عن الدنيا)[1] وقد يكون التفسير الثاني اقرب للصحة لكن في التفسيرين معا معنى الزهد والاخلاص المجرد للحركة •

بدأ النضال المسلح بين القوى العباسية والقوى الاخرى بفتح مرو: اذ ورد أمر الامام باعطاء قيادة الجيوش العباسية لقحطبة بن شبيب الطائي • فكان أول مافعله تصفية الجيب الخطر عنده : شيبان الخارجي لئلا يكون طعنة في ظهره فوجه ابا مسلم الى شيبان . الذي تحصن بسرخس ، بعد سقوط مرو • فطلب منه البيعة للامام فلما أبى هاجمه وانتصر فقتله • وفر باقي الخوارج واكثرهم من بكر . فالتحقوا بنصر في نيسابور وارسل نصر الى الخليفة ينذره بسوء الموقف قائلا : أأيقاظ

---

(١) في كتاب المقريزي : المقفى (مخطوط المكتبة الوطنية في باريس رقم ٢١٤٤ / ٨١ الورقة ٨٠ ظهر) يقول : « ... الكفية وهم الذين بايعوا على ان لايأخذوا مالا وان تؤخذ أموالهم ان احتيج إليها ويدخلون الجنة . ويقال إنهم أعطوا كفا من الحنطة فسموا الكفية .. »

أمية أم نيام ؟ فجاء الجواب باحالته في النجدة على يزيد بن هبيرة عامل العراق فاستبان اليأس لنصر لاسيما حين أرسل قواه الاخيرة مع ابنه ضد الجيش العباسي فهزم وقتل قرب طوس ، فتراجع نصر عندئذ من نيسابور (آخر شوال سنة ١٣٠هـ) بشيخوخته المتهدمة التي بلغت به الخامسة والثمانين الى قومس ، بينما كان ابو مسلم يدخل نيسابور ويجعلها مركزه . ولم ينس في الطريق اليها ان يتخلص من منافسة زعماء اليمن ، حلفائه منذ مرو فقتل عليا بن جديع الكرماني زعيم اليمانية ، وقتل أخاه عثمان والي طخارستان مع العديد من انصارهم بعد ان ادى تحالفه معهما غايته المرجوة .

٥ ـ موقف الخليفة الاموي :

ويظهر ان خليفة حران ، (مروان) لم يأخذ هذه الحركة على انها اكثر من ثورة من تلك الثورات التي تعود اخمادها ، فقد رأيناه لا يأبه لقوتها اول الامر ، ولا يعاون نصرا حين استنجده . فلما انهزم نصر بعد سحق ابنه تميم في سرخس على يد قحطبة الطائي من جهة والقاسم ابن مجاشع التميمي من جهة أخرى . أمر الخليفة واليه في العراق بارسال جيش من قبله ، فعهد هذا لبعض قواده (نباتة بن حنظلة الكلابي) بجيش لم يتعاون مع نصر . ولقيه قحطبة بن شبيب الطائي فتغلب عليه وقتله (ذي الحجة ١٣٠ / تموز سنة ٧٤٨) وفتح جرجان ثم لحق بنصر في قومس . فلم يقف ابن سيار في وجهه الا قليلا . وهرب الى همدان . ولم يحتمل جسمه المتهدم كل ذلك فتوفي شريداً في (ساوه) ربيع الاول سنة ١٣١ تشرين الاول سنة ٧٤٨ وانتهى ، في الواقع ، بموته الحكم الاموي في خراسان .

اما مروان فاستطاع ان يعرف صاحب الحركة القابع في الحميمة ، من كتاب وقع في يده منه ، فأمر عامله على البلقاء بالقبض عليه ، وعلى بعض اصحابه ، وحملهم الى حران ، وعرف الامام ألا نجاة له من قبضة مروان ، فبعث يعهد بالامر الى اخيه الاصغر ابي العباس عبد الله بن محمد ، وقد تحملت العائلة كلها هاربة ، في السر ، من الحميمة الى الكوفة . فاختبأت هناك (من المحرم أو صفر من سنة ١٣٢ / اب ـ ايلول سنة ٧٤٩) لدى رأس من اكبر رؤوس الدعوة في العراق : أبي سلمة الخلال الذي اصبح منذ تلك الفترة صاحب الامر والنهي في الحركة العباسية .

ويروي الجهشياري ان ابا سلمة انكر قدوم عائلة الامام عليه وقال: خاطروا بانفسهم وعجلوا[1] واراد ان يبقيهم خارج المدينة ولكنهم ذكروه بخطر ذلك . فقبل دخولهم البلد على كره منه . وأنزلهم دار الوليد ابن سعد الجمال مولى بني هاشم . وكتم امرهم نحوا من شهرين عن جميع القواد والشيعة من الخوف .

وقد حسب مروان ان الفتنة تنقطع بقتل ابراهيم فدس برأسه ـ كما يقولون ـ في « النورة » (الهباب) حتى مات وقتل باقي أصحابه[2] ولكن الجيوش التي كانت تسير من اجله ، دون ان تعرفه ، بقيت تسير من الشرق « مطلع سراج الدنيا » .

(١) انظر الجهشياري ـ الوزراء والكتاب (القاهرة ١٩٣٨) ص٨٥ .
(٢) يقول ابن الاثير : (ج٥ ص٤٢٢ ـ ٤٢٣) ان ابراهيم توفي اما تحت انقاض البيت الذي انهار عليه ، اودس له السم في الحليب . كما ان الباقين توفوا بالطاعون . ولعل الرواية الاخيرة صحيحة .

٦ ـ انتقال الثائرين الى العراق :

سار قحطبة مع ابنه الحسين سنة ١٣١ هـ غربا فدخلا بعد جرجان: الري ثم همذان ، ثم حاصرا الحامية الاموية في نهاوند فاحتلا البلدبعد ان هزما (معركة جابلق ٢٣رجب سنة ١٣١) نجدة بعثها ابن هبيرةلانقاذها بقيادة عامر بن صنبارة أقدر قواده • وبهذا اصبحت الخطوة التالية الى العراق ••• ولكن والي العراق يزيد بن عمر بن هبيرة كان قد تحرك نحوهما وعسكر في (جلولاء) على الطريق الجبلية التي تصل ارض الرافدين بهضبة ايران • وقد استطاع قحطبة ان يتجنب الاصطدام به ، وينفذ الى دجلة فيجتازه الى الفرات • فلما لحق به ابن هبيرة كان قد اجتاز النهر الى الضفة الغربية وعسكر في الكوفة ، فعسكر الامويون على الضفة الاخرى (الشرقية) تجاهه • وذات ليلة من مطلع سنة ١٣٢ (٨ محرم ـ ٢٧آب ٧٤٩) استطاع قحطبة ان يقوم بهجمة صغيرةمباغتة، عبر النهر ، انتصر بها على ابن هبيرة عند موقع يقال له (الفلوجة)وجعله ينسحب الى واسط • ولكن القائد قحطبة لقي حتفه بطريقة مبهمة في الليل بعد ذلك[١] • فتسلم ابنه الحسن القيادة ودخل الكوفة في ١١محرم سنة ١٣٢ (اثر ثورة قامت فيها بقيادة محمد القسري أخذ فيها البيعة لآل محمد) • فتلقاه فيها ابو سلمة الخلال الذيخطب في المسجد الجامع فاعلن أن الدولة هي دولة « الكوفة » أي جعلها العاصمة والمركز وزاد

(١) يقال إن عربيا لقيه وهو خارج بفرسه من الماء عابرا الفرات إلى الغرب بعد انتصاره على ابن هبيرة فهاجمه بالسيف ثـأراً لأولاد نصر بن سيار وتركه قتيلا في الماء (انظر الطبري ج٧ ص٤١٢ ـ ٣/٤١٧ ـ ١٢ حتى ١٨)

من أعطيات الجند فجعلها ٨٠ درهما في الشهر بعد أن كانت ٣٠٠ سنوية. أما الخواص والنقباء فلهم مابين ألف الى الفين ودون ذلك للقوادالصغار.

٧ ـ من هو الخليفة ؟

ينقضي بعد هذا التاريخ شهران ونصف الشهر لايتغير خلالهما الموقف العسكري الا في شمال ايران الغربي ، اذ كان مروان الخليفة قد ارسل ابنه عبد الله من العراق الشمالي . وكان قحطبة قد بعث اليه(ابا العون) الازدي فهزم عبداللهبن مروان عند شهرزور. وبهذا أضحى الجناح الشرقي من الدولة كله تقريباً بيد العباسيين . على انالذي تغير خلال هذه الفترة هو قيادة الدعوة . فقد برز فجأة اسم ذلك الكوفي : حفص ابن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال فعرف الناس ، ليس انتسابه للدعوة فقط ، ولكن عرفوا انه ايضا كبير دعاتها ، اذ انفرد بالامر ، وتسلم الرئاسة وتسمى « بوزير آل محمد » وعسكر بالجيش بحمام أعين قرب الكوفة . وفرق ـ على قول الجهشياري ـ « عماله على السهل والجبل ، وصارت الدواوين بحضرته ، والكتب تنفذ منه ،وترد عليه [1] » ويقول « انه أظهر الامامة الهاشمية . ولم يسم الخليفة . وتساءل الناس عن شخص ذلك الامام المجهول وراء هذه الثورة ؟ وعن مقره ؟ ولكن ابا سلمة لم يذكر اسم احد من العباسيين ، ولاكشف عن وجودهم بالكوفة . وشاء انينفرد وحده دون باقي رجال الدعوة بتفسير لغز « الرضا من آل محمد » وتعيين شخصيته من كبار آل البيت » .

وتذكر المصادر المختلفة ان ابا سلمة حاول نقل الخلافة للعلويين

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٨٦

وتتفق في القول إن هذه الفكرة قدراودته ، بعد ان علم بمقتل الامـام ابراهيم •ولكنها بعد هذا تختلف في تفسير هذه المحاولة • فالمسعودي يرى ان ابا سلمة خاف بعد مقتل ابراهيم الامام « اتتقاض الامروفساده. فشاء البيعة لعلوي » وفي الفخري انه « سبر احوال بني العباس فعزم على العدول عنهم الى بني علي » أي أنه رأى ان الفرع العباسي من آل محمد ليس فيه من هو قادر على استقطاب ولاء الناس او على الامساك بالامر • والطبري يذكر انه لماالح عليه القواد باظهار أبي العباس اجاب: « ليس هذا وقت خروجه ، لان واسطا لم تفتح بعد » ويقول اليعقوبي انه اخفى بني العباس وآل بيته لانه دبر ان يصير الامر الى آل ابـي طالب •

ولعل تفسير الامر ان الخلال كان علوي الميل وكل الكوفة ، مثله في ذلك • وقد اراد اهتبال الفرصة لتقوية مركزه في الكوفة ، وتحقيق أمله العلوي ، لاسيما والناس لايعرفون شخص « الرضا » وقد قتـل الامام وشيكا ، وليس لاخوته الباقين (أبي العباس وأبي جعفر) من سابقة أو قوة بارزة ضمن الدعوة ••• فقام بمحاولته •

ويقولون في تفصيل هذه المحاولة[1] : ان الخلال كتب الى ثلاثة من العلويين ليعقد الامر لاحدهم : جعفر بن محمد الصادق حفيدالحسين وعبد الله المحض بن الحسن بن الحسن ، وعمر الاشرف بن علي زيـن العابدين بن الحسين فأحرق الاول الكتاب ورفض عمر وقبل عبد الله • ويذكر اليعقوبي انه قال : « انا شيخ كبير وابني محمد (وهو ذو النفس

---

(١) انظر مثلا الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص ٨٦

الزكية) أولى بهذا الامر وارسل الى جماعة بني ابيه وقال بايعوا لابني محمد » .

ولكن البيعة لم تتم لان جعفرا الصادق حذر عبد الله ثم اقنعه قائلا : ومتى كان أهل خراسان شيعة لك ؟ أأنت بعثت ابا مسلم لخراسان ؟ أأنت أمرته بلبس السواد ؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أأنت كنت سبب قدومهم ؟ أو وجهت فيهم ؟ وهل تعرف فيهم أحدا ؟

وما من شك في أن حذر الزعماء العلويين وترددهم بجانب تعددهم وعدم اتفاقهم قد جعل فرصة الخلافة في هذه الفترة تفوتهم . وسمح للفرع العباسي بالبروز كمرشح ممكن وحيد . إذ بينما كانت الحيرة والتردد هما طابع المفاوضة مع العلويين . دبت الريبة في الخراسانية بالكوفة (وهم جند خراسان والتسمية هنا جغرافية وليست اثنولوجية وتعني خاصة الجند العرب القادمين من ذلك الاقليم) من تصرفات ابي سلمة وكلموه : « مالك تدعونا ومالنت لنا بامام ؟ » ثم اكتشف بعضهم مخبأ العباسيين ، فاخبر القواد فجاؤوا وعلى رأسهم أبو الجهم — على رواية الجهشياري[1] — الى ابي العباس ومعهم اصحابهم في السلاح وبايعوه (في ربيع الاول سنة ١٣٢/تشرين الاول سنة ٧٤٩) وجابهوا بهذا الشكل ابا سلمة بالامر الواقع فبايع واعتذر .

وأضحى أبو العباس عبد الله بن محمد أول السلسلة الطويلة في خلفاء بني العباس التي استمرت بعد ذلك ولمدة تزيد على ٥٠٠ سنة .

---

(١) انظر تفصيل الامر لدى الجهشياري ص ٨٦ — ٨٧

٨ ـ مبادىء الدعـوة :

قامت الدعوة العباسية على مبادىء ثلاثة :

آ ـ المبدأ الديني : وهو جعل الكتاب والسنة قانون جميع المسلمين • فهي تمثل لحدكبير الرغبة العميقة لدى العرب والموالي على السواء في تطبيق الاسلام التطبيق الاكمل •

ب ـ المبدأ السياسي : وهو حق بني هاشم في الخلافة دون تحديد لأي فرع من الهاشميين •

جـ ـ المبدأ الاجتماعي : الذي قد يلخصه قول شاعرهم :

لسنا نحابي على الرحمن من أحد   فيما نطالب من مولى وعرب

ويقصدون دمج المسلمين كافة من عرب وغير عرب في مجتمع اسلامي واحد يتساوى افراده في الحقوق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية • فالدعوة العباسية لاتمثل نوعا من الحركة القومية أو الشعوبية ضد العرب ولكنها في أبعد الاحوال تمثل اندحار الفكرة القائلة بارتباط الاسلام بجنس مسيطر واحد هو العرب •

وقد استغل الدعاة العباسيون في نشر هذه المبادىء ظروفاومبادىء وافكارا متباينة :

آ ـ الازمة الاقتصادية الناجمة عن الحرب الاقتصادية مع بيزنطة من جهة وعن تقلص موارد الدولة عامة من جهة أخرى •

ب ـ الضيق العام الناتج عن كثرة الفتن والثروات وتناحر العصبيات في العهد الاموي الاخير • ونستطيع لحدما أن نقول : أن

سقوط الامويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان بقدر ما كان نتيجة اضطراب الحكم في الادارة وفي الاستقرار بالشام •

ج ــ تذمر العرب في خراسان خاصة والموالي عامة من اوضاعهم الاجتماعية والسياسية •

د ــ النظام المالي المطبق في الدولة واضطرابه وضيق الطبقات المختلفة من العرب والموالي به •

هـ ــ التيارات الدينية القديمة : التي تسرب بعضها الى الاسلام وتساهل به الدعاة : كمبدأ التناسخ والحلول ، ومبادىء المشاعية المزدكية • وسيظهر أثر هذه التيارات الدينية في مطلع العصر العباسي باسم : حركة بهافريد والراوندية والخرمية ••• وغيرها •

هـ ــ الحركة العلوية وعطف الناس على آل البيت المضطهدين • وقد جرفت الدعوة العباسية معها واحتوت الكثير من الاراء المتطرفة التي وإن لم تكن هي القوة المحركة للثورة ولاعقيدة الغالبية العظمى من الثوار الا أنها حركت الحقد ضد الامويين بقوة وظهرت أشكالها المتطرفة في مطلع العصر العباسي باسم الهاشمية والعباسية والراوندية ••

و ــ الافكار « الاسرائيلية » التنبؤية التي كانت تبشر بمجيء منقذ « يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا » او بظهور « صاحب الاعلام السود » من المشرق او مجيء « المهدي » الخ •••

ان مبادىء الدعوة تلك ، وما استغلته من الاوضاع ، سيكون له نتائجه الايجابية والسلبية معا في العهد العباسي • وسيفسر لنا الكثير من سياسة العباسيين ، ومن الحركات العلوية والفارسية ، ومن الثورات لاسيما في عهودهم الاولى •

٣ ـ انهيار خلافة دمشق والقضاء على الامويين

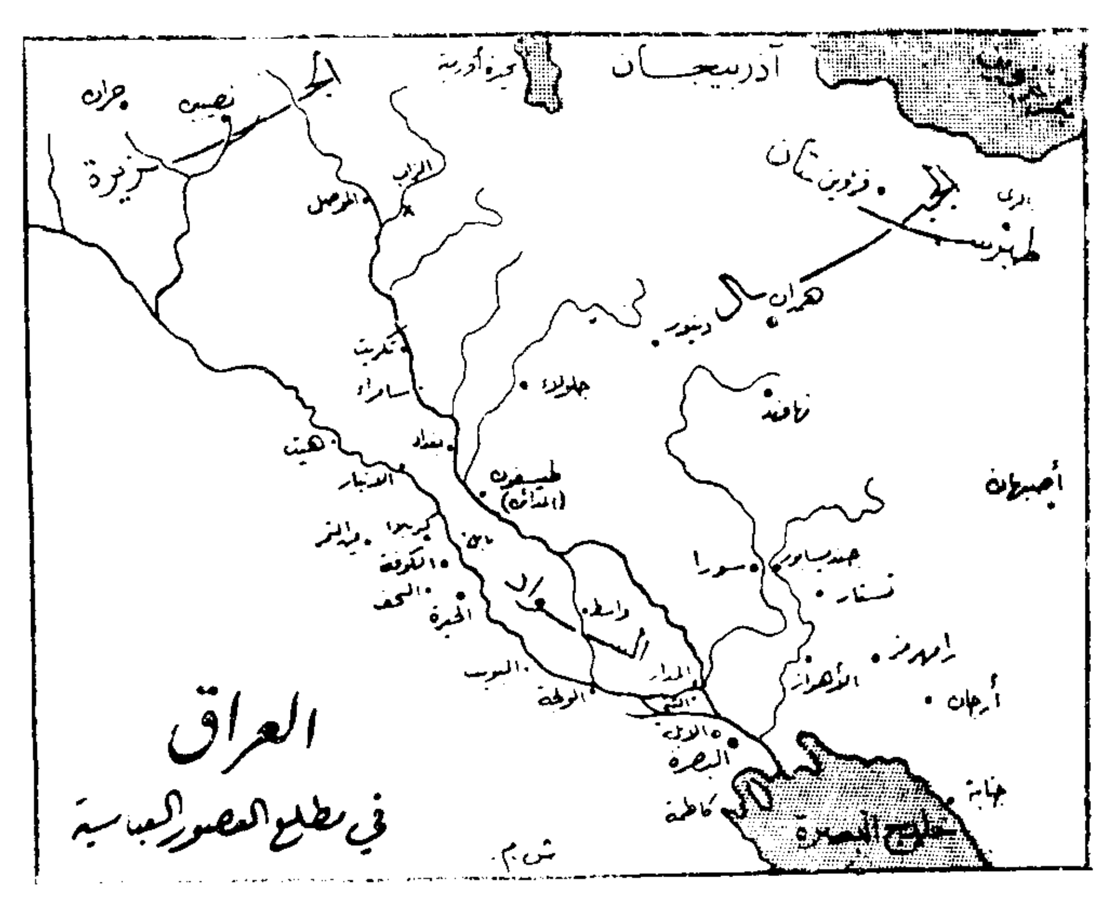
كانت البيعة لابي العباس بدء العمل لانهايته فقد ألقت على كاهله الشاب اعباء جساما لعل أخفها ضرورة التقرب من اهل الكوفة الذين لم يكونوا موثوقي الولاء ـ كما يقول ابن قتيبة ـ ولاكان هواهم مع بني العباس • ثم ضرورة الاعتماد والحذر في وقت واحد من ابي سلمة الخلال وزير آل محمد ، وهو غير مأمون الاخلاص ••• اما العبء الحقيقي فكان في الوضع العسكري الدقيق الذي كانت غليه الجيوش العباسية •

فدخول العباسيين للعراق من وسطه جعلهم كرأس جسر بين فكي « كماشة » اموية : فشمال العراق والجزيرة والشام ومصر والحجاز كانت لمروان الخليفة • وواسط والبصرة وما حولهما من جنوبي العراق كان لابن هبيرة وجيشه الاموي القوي • ولم يكن مع الثائر العباسي سوى خراسان وماوراءها والطريق الذي يصلها بأواسط العراق دون جنوبي فارس او شمالها الغربي • وقد استطاع ابو العباس رغم هذا الوضع القلق ان يثبت دعائم العرش العباسي •

أولا ـ توجه لضمان النصر على الخليفة الاموي ، وكان مروان قبل تسرب العباسيين للعراق قد بعث بابنه عبد الله في جيش تغلغل في بلاد ايران حتى جنوبي بحر الخزر متجها الى خراسان نفسها ، لكن القائد قحطبة الطائي ارسل اليه جيشا يقوده ابو العون الازدي فهزمه عند شهرزور • وتراجع عبد الله نحو شمالي العراق فاسرع ابوه لنجدته • وعلم ابو العباس ان ابا العون بحاجة الى نجدة أيضا فبعث اليه بحملة

يقودها عمه عبد الله بن علي • ويظهر أنه وعده بولاية العهد من بعـــده، ان فاز بسروان •

ويلفت النظر بهذه المناسبة ذكاء الزعامة العباسية سواء في عهـــد محمـــد بن علي أو ابنـــه ابراهيم او ابي العباس الابن الثاني • فقـــد اختاروا للزعامة للقيادة في خراسان خراسانيا هو أبو مسلم رغم أن الثورة عربية العناصر ثم حين اندفع الجيش الثائر الى العراق كان على قيادة عربي هو قحطبة الطائي فلما مات تلاه ابنه فلما كان دور الامويين والشام جعلوا على القيادةعباسيا صحيحا هو عمهم عبد الله بن علي • وسنرى مثل هذا التصرف في حرب المنصور لمحمد النفس الزكية الزعيم العلوي فيمابعد •



ومشى عبد الله العباسي في اربعين الفا متشحين بالسواد حتى خيولهم كأنما هم في موكب جنازة والتقى العباسيون بالجيش الاموي عند قرية الكشاف على نهر الزاب الكبير في شمال العراق[1] • وكان مروان في ١٢٠ الف مقاتل او اثني عشر الفا فقط (حسب روايتي الطبري ولعل الثانية هي الاقرب للصحة ولعلهم حوالي ٢٠ الى ٢٤ ألفا كماروى البلاذري) فجاز الخليفة النهر على جسر عقده • واستطاع ان يزحزح العباسيين أول الامر ، ولكن عوامل عديدة كانت تعمل في غير مصلحته :

آ ــ عدم تماسك جيشه وفتك العصبية به • يقول الطبري : «وقال مروان لقضاعة انزلوا فقالوا قل لبني سليم فلينزلوافارسل الى السكاسك ان احملوا فقالوا قل لبني عامر فليحملوا فارسل الى السكون اناحملوا فقالوا قل لغطفان •••»

ب ــ حاول مروان تقوية عزائم جنده بالمال فعرضه عليهم فتركوا الحرب لأخذه فلما ارسل ابنه لصدهم ظنوا أنها الهزيمة فهربوا •

جـ ــ كان جند مروان قد انهك من كثرة الحروب ولم يكن للخليفة من وقت لتنظيمه وإراحته •

د ــ كانت معنويات الجند الاموي ضعيفة بعكس خصومهم •وقد اتفق ان هبط مثلا سرب من الغربان السود على رايات العباسيين في المعركة ، فبان الجزع والقنوط في اصحاب مروان •

واتنهت هذه المعركة التي عرفها التاريخ باسم معركة الزاب (١١

---

(١) وردت عن معركة الزاب تفاصيل واسعة هامة في تاريخ الموصل لأبي زكريا الأسدي (طبع علي حبيبة ــ القاهرة ١٩٦٧) ص ١٢٥ ــ ١٣٣

جمادى الآخرة سنة ١٣٢/٢٥ كانون الثاني ٧٥٠) بهزيمة الجند الاموي بعد عشرة أيام من القتال وبختام الخلافة الاموية • وشوهد في نهايتها حصان مروان يجري في الميدان دون صاحبه • الا ان الخليفة المهزوم كان في ذلك الحين في طريقه الى الموصل ، فلما منعه اهلها من دخولها ، توجه الى حران • فلما لم ينجح بجمع جيش جديد ، قبل ان يدركه العباسيون تابع هربه الى حمص فدمشق وطارده الخطر الاسود اليها ، فأتم طريقه الى فلسطين • وبينما كانت الموصل وحران ثم حمص تقدم طاعتها لأبي العباس ، دون قتال ، كان مروان بن محمد يعبر صحراء سينا الى مصر ، حيث دهمه بعض الجندالعباسي بقيادةعامرالمسلى الموصلي ومعونة بعض الاقباط في كنيسة قرية بوصير فقتل وهو يحارب في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ وحز الموصلي رأسه وبعث به هدية لخليفةالكوفة الجديد •

ترى هل دارت بذلك الرأس المقطوع فكرة الاستنجاد بامبراطور بيزنطة قسطنطين ــ كما يقولون ــ او فكرة الاستقلال بافريقيا الشمالية؟ لسنا نستطيع الجزم بشيء من هذا ولكن أبا العباس سجد شكرا للهحين وصلته الهدية الدامية[1] •

وقد ذكر ابن عساكر بعضا من أولاد مروان بن محمـــد وأحفاده

---

(١) لعلنا نضيف هنا ان العباسيين لم يقتلوا خليفة أمويا واحدا سنة ١٣٢ وانما قتلوا خليفتين هما : مروان بن محمد واخوه لأمه ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي ولي الخلافة سبعين ليلة سنة ١٢٧ فلما دخل مروان دمشق خلع نفسه (صفر ١٢٧) واختفى وبقي حيا الى سنة ١٣٢ فقتل حينئذ فيمن قتل من بني أمية (انظر ابن عساكر تاريخ دمشق (مخطوط الظاهرية) ج٢ ورقة٢٧٩ ظهر ــ ٢٨٠ وجه . والسيوطي تاريخ الخلفاء ص٢٥٤) .

أسروا حين قتل بمصر وحملوا إلى ابي العباس فظلوا في السجون العباسية حتى أطلقهم منها هارون الرشيد[1] منهم الحكيم بن عبد الله حفيده ، وأبو عثمان ابنه ...

ثانيا ــ وجه ابو العباس قائده الحسن بن قحطبة لحصار يزيد ابن هبيرة في واسط ثم بعث اخاه ابا جعفر للاشراف على الحصار فشدد حضوره ــ كما يذكر الطبري والدينوري ــ من عزائم الجيش . ولكنه لم يفد في فتح المدينة التي استطاعت بمنعة حصونها ومهارة ابن هبيرة فيها ان تقاوم احد عشر شهرا . وقد حاول العباسيون احراق واسط عليه بان يملأوا السفن حطبا ويضرموا فيها النار ويسيروها في النهر ، ولكنها كانت محاولة فاشلة اذ هيأ ابن هبيرة حراقات تجر تلك السفن اللاهبة بالكلاليب ، ويظهر ان هذا القائد الاموي كان يأمل انتفاض البلاد على هؤلاء الثائرين . فلما قتل مروا نبدأت بينه وبين العباسيين معركة سياسية غلب فيها . فاتصل بالعلويين يدعوهم للمطالبة بالخلافة ليفرق صفوف خصومه ، وليكسب عطف اليمانية الموجودين في واسط، ولكن ابا جعفر عرف هذا منه فكتب الى اليمانية ان « السلطان سلطانكم والدولة دولتكم » ، « وكتب ابو العباس اليهم يطمعهم » وتابع ابو جعفر الحملة فكتب الى اصحاب ابن هبيرة « يستميلهم بالاطماع وينبههم على حظوظهم ويعرفهم انصرام دولة بني امية فاجابوه جميعا وكان زياد بن صالح الحارثي ــ عامل ابن هبيرة على الكوفة وأخص اصحابه عنده ــ أول من أجاب دعوة ابي جعفر » .

---

(٢) انظر ابن عساكر . تاريخ دمشق (مخطوط الظاهرية) ج٥ ورقة ١٠٣ ظهر ، وج١٩ ورقة ٧٣ ظهر

ووجدت الدسائس مع طول الحصار ، طريقها الى جيش ابن هبيرة ما بين قيس ويمن ، فتوقف الطرفان عن الحرب • ولم يكن يقاتل مع القائد سوى الصعاليك والفتيان[1] • فطلب الصلح ، وكتب له بالامان بعد طول مفاوضات[2]• وتسلم العباسيون واسط (أواخر سنة ١٣٢) ولكن العهد لم يرع • وقتل ابن هبيرة باشارة ابي مسلم ــ كما يذكر الطبري وابن قتيبة واليعقوبي ــ وكانت دعوى القتل انه اتصل بالعلويين لنقض الدولة العباسية كما يروي ابن أعثم الكوفي • وقد تردد ابو جعفر في قتله وأبقاه في حجرته ، فألح عليه ابو العباس الخليفة وكثرت كتبه بذلك ، حتى نفذ أمره وقتله مع ابنه داوود • وقد استتبع سقوط واسط سقوط البصرة بعدها وجنوب العراق كله • فقد والي الأمويين في البصرة هو سلم بن قتيبة الباهلي وقد اعتصم بها لا يسلمها للوالي العباسي الجديد سفيان بن معاوية المهلبي في انتظار مايكون من أمر ابن هبيرة وكانت قوته في نفوذه القبلي الواسع تعينه فلم يستطع سفيان دخول البصرة بالقوة • فلما استسلم ابن هبيرة ثم قتل انسحب سلم الى الحجاز وسقطت البصرة بدورها •••

وإذ ذاك استطاع أبو العباس ، لأول مرة ، أن يطمئن الى خلافته والى أمن مركزه في العراق بينما كان عمه الاول عبد الله يستصفي له الشام ومصر من الامويين ، وعمه الثاني داوود يأخذ له البيعة في الحجاز ، ومنابر معظم الاقطار الاسلامية تدعو له في نهاية الخطب باسم خليفة المسلمين •

---

(١) انظر الطبري ج٧ ص٤٥٤(٣/٦٧)

(٢) نجد نص الامان وهو بليغ قوي في كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (المخطوط ورقة ٢٢٣ ظهر ــ ٢٣٤ وجه) وفي كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

ثالثاً ــ رفع اللواء الاسود على دمشق (١٠ رمضان سنة ١٣٢) أي بعد ثلاث سنوات من رفعه في خراسان ، وبعد ستة اشهر من بيعة ابي العباس • وقد اجتمع عليها عبد الله وصالح ولدا علي بن عبـــد الله بن العباس وعدد آخر من قواد العباسيين •

واعتصم أهل دمشق وراء أسوار المدينة ولكن جهتهم الداخلية كانت متمزقة بين قيس ويمن لدرجة أنهم أقاموا في الجامع قبلتين وتلاسنوا وتلاعنوا وتضاربوا بالنعال • ودعا عبد الله بن علي اليمانيين في المدينة وأغراهم قائلا : «انكم وإخوتكم من ربيعة كنتم بخراســان شيعتنــا وانصارنا فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر ••» واستمعوا إليه فسقطت المدينة بعد أن قتل اليمانيون قائدها الوليد بن معاوية وفتحوا الأبواب (١٠ رمضان سنة١٣٢/٢٢نيسان سنة٧٥٠)على أن سقوطها كان بدء مجزرة مرعبة في الامويين بدأت في جوامعها واسواقها وبيوتها ثم انتشرت الى كل مكان به أموي وهـــدم حائط دمشق واستمر القتـــل ونبش قبور الامويين خمسة عشر يوماً وتجاوزت المجزرة الحـــد الـــلازم لتوطيد الدولة ، لتصبح ثأراً وانتقاماً شخصياً حقوداً : وكان بطل هذه المجازر التي تعددت ازمنتها وامكنتها عبد الله بن علي الذي لقب (بالسفاح)عن جدارة ، ولا نكاد نعرف لهـــا مثيلا في التاريخ غير حـــرب الوردتين الانكليزية التي استأصلت اسراً برمتها : فقد تعقب عبد الله وبنو العباس معه[1] الامويين في الشام كله وفي الحجاز (بطلها داوود بن علي) ومصر

---

(١) يروون من قول ابي العباس :

بني امية قد افنيت جمعكم فكيف لي منكم بالاول الماضي

ومن قول عمه عبد الصمد :

والعراق والجزيرة ، ونكلوا بهم تنكيلا بلغ احياناً حد المثلة (كالذي كان على نهر ابي فطرس [1] ، وفي حضرة ابي العباس في العراق) وانتهى الامر الى الطواف برؤوس كبار الأمويين في الشام وإلى نبش الموتى ، وبعثرة ما في القبور . وجلد الجثث[2] ولئن أصدر الخليفة كتاباً بالامان للجميع، فلقد نقض الامان بعد اعطائه . فاستتر من استتر من بني امية ،وهرب من أطاق الفرار وهم قلائل : بعضهم قصد الحبشة وبقي فيها حتى خلافة المهدي[3] ، وبعضهم وصل المغرب ومنهم عبدالرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك الذي انتقل الى الاندلس فاجتزأها من الدولة. واقام فيها من جديد الخلافة الاموية الثانية .

وبالرغم من تشابه بعض الروايات عن عمليات القتل الجماعي للأمويين مما يوحي بالشك فيها ومن وجود ظل للمبالغة أحياناً في بعضها

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها اخذي بثأري من بني مروان
ومن آل حرب ليت شيخي شاهد سفكي دماء بني أبي سفيان

ومن قول عمه عبد الله بن علي لبنات مروان بن محمد : لن نستبقي منكم احدا رجلا ولا امرأة . .

(١) يراجع في تفصيل ذلك أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص٤٧-٥٦؛ تاريخ الموصل لابي زكريا الأسدي ص١٣٨-١٣٩ وابن الاثير ج٥ ص ٤٢٩- ٤٣٢ والأغاني ج٤ ص٩٢ وما بعدها . وقد حقق فلها وزن موضع أبي فطرس بأنه عند كفر سابا في وادي نهر العوجا (فلها وزن - تاريخ الدولة العربية - مترجم - ص٥٢٤) .

(٢) يروون أن عمرو بن تمام القائد العباسي نبش قبر هشام بن عبد الملك فوجده صحيحاً لم يتلف منه سوى أرنبة انفه فضربه اسواطاً فانتثر ثم صلبه واحرقه بالنار وذراه بالريح . (انظر الأزدي - تاريخ الموصل ص١٣٨ وابن الاثير ٥/٤٣٠) .

(٣) الطبري ج٧ ص ٤٣٨ (٣/٤٦) ابن الاثير ٥/٤٢٧

وحب للتشفي في بعضها الآخر ، ومن وجود بعض الدلائل أحياناً أخرى على تسامح عدد من القواد العباسيين واستخدامهم اللين والرفق مع الأمويين والحركات الاموية أيضا ، ومن أنه لم يكن حتى عبد الله بن علي ولا أبو العباس أو ابو جعفر بالبعيدين عن هذا الرفق ، إلا إن مثل هذه الأعمال تجد تفسيرها فيما ذكره ، في ذلك الوقت نفسه ابن المقفع الذي قال في رسالة الصحابة «••• أما مايتخوف المتخوفون من نزواتهم (الأمويين) ••• فإنه لم يخرج الملك من قوم الا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدويخهم ••»[١] •

فما من شك في ان موقف العباسيين إذن كان في أول الأمر موقف القمع والشدة الدموية ثم مالبثت العواطف أن هدأت مع استقرار الدولة• فتوقف الذبح والقتل • وما من شك أن العباسيين كانوا أحياناً يستخدمون اللين إن وجدوا أن استخدامه لا يضر بالدولة ، وبين هذا وذاك وقعت دون ريب عدد من المذابح الرهيبة إما تشفياً أو إرهاباً كما لجأ العباسيون الى عقوبات أخرى ذكرها ابن المقفع نفسه في رسالة الصحابة يقول : «•• أخذ في أمر أهل الشام على القصاص • وحرموا ، كما كانوا يحرمون الناس ، وجعل فيؤهم الى غيرهم كما كان في غيرهم إليهم • ونحوا عن المنابر والمجالس والأعمال كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذي يضعه امراؤهم للعامة •••» ثم ينصح ابن المقفع بالرفق فيهم والسلوك معهم في سياسة أخرى •

---

(١) ابن المقفع • رسالة الصحابة (طبعة رسائل البلغاء القاهرة ١٩٦٤)

ولعله من الهام أن نسجل هاهنا ملاحظة أخيرة هي أن هذه القسوة التي استعملها العباسيون ضد الأمويين لم يكن لهـا في تاريخ علاقات هاتين الجماعتين مايبررها • فلم يقتل الأمويون من بني العباس سوى ابراهيم الامام ، بعد الثورة • وإذا كان العباسيون قد استعاروا أحقاد العلويين لتبرير عمليات القتل الجماعي للأمويين فـإن التفسير الحقيقي الوحيد لكل تلك الدماء هو الرغبة في الخلاص من أي منافسـة أموية محتملة على كرسي الخلافة •

★ ★ ★

الفصل الثالث

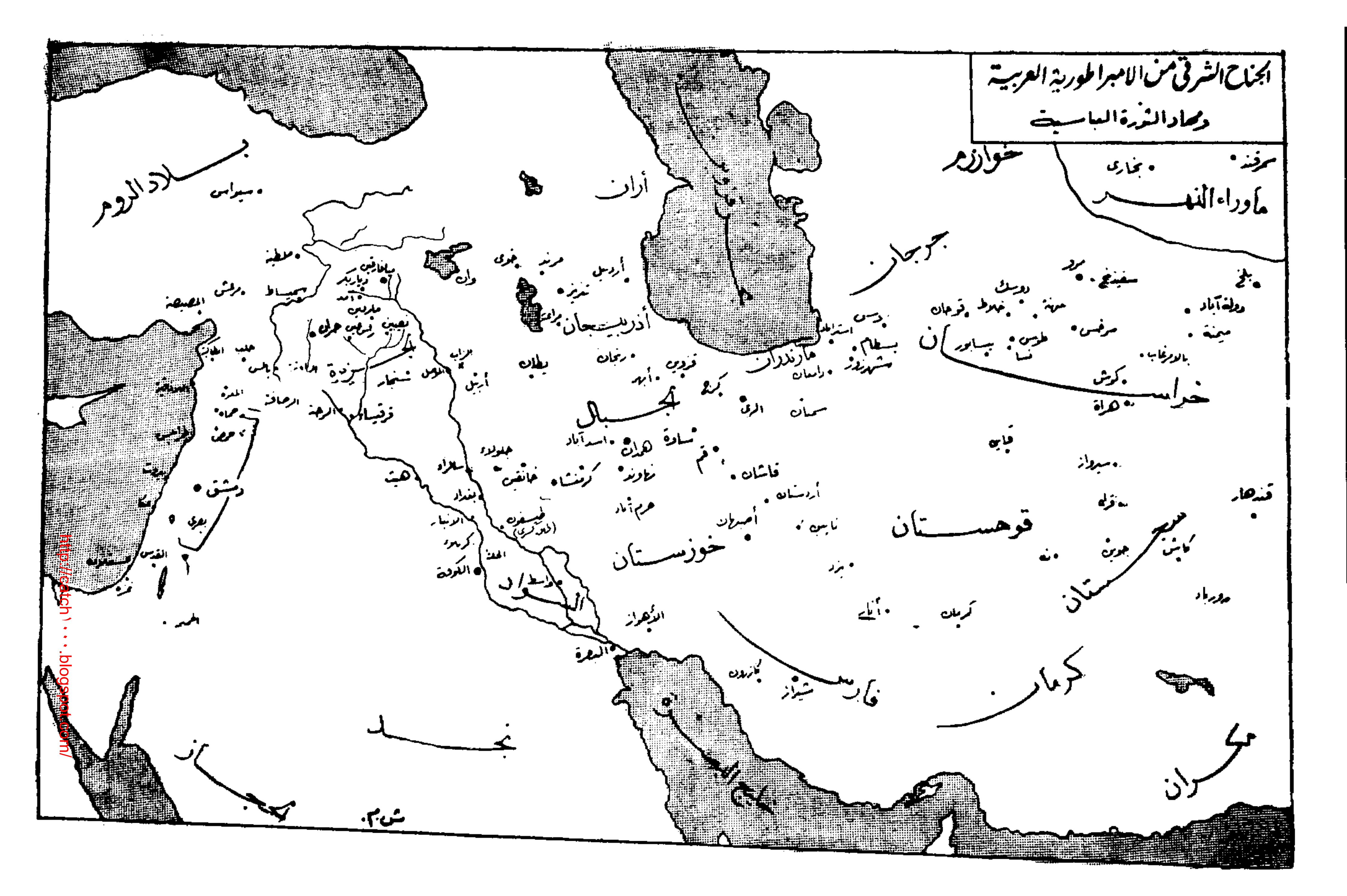
العباسيون

١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ و ٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م

استمر زمام الرئاسة العليا في العالم الاسلامي مدة خمسة قرون بيد بني العباس • ويصف صاحب الفخري دولتهم بانها «كانت دولة كثيرة المحاسن ، جمة المكارم ، اسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظمة ، والخيرات فيها دارة ، والدنيا عامرة والحرمات مرعية ، والثغور محصنة • وما زالت على ذلك حتى كانت اواخرها فانتشر الجبر واضطرب الامر وانتقلت الدولة ...»

١ ـ ميزات الحكم العباسي :

من الضروري أن ننبه منذ البدء ان ما نعنيه من ميزات الحكم العباسي لا يتناول حياة الخلافة العباسية منذ ظهورها سنة ١٣٢ حتى انهيارها على يد التتر سنة ٦٥٦ فذلك مطلب عسير التناول ومن الصعوبة بمكان التقاط ملامح عامة لدولة تطورت اطوارا عديدة خلال خمسة قرون



الجناح الشرقي من الامبراطورية العربية
ومهاد الثورة العباسية
خوارزم
ماوراء النهر
بخارى
بلاد الروم
سيواس
أران
جرجان
أذربيجان
أردبيل
تبريز
ملطية
مرعش
دمشق
بصرى
القدس
قرقيسيا
الرقة
الموصل
سنجار
إربل
حلوان
قرميسين
نهاوند
همذان
أسد آباد
ساوة
قم
قاشان
الري
سمنان
قزوين
زنجان
أبهر
الجبال
جرجان
طبرستان
بسطام
الدامغان
نيسابور
طوس
سرخس
مرو
بلخ
هراة
خراسان
قوهستان
قاين
خوزستان
أصبهان
الأهواز
البصرة
الكوفة
بغداد
واسط
هيت
سامراء
فارس
شيراز
كرمان
سجستان
قندهار
مكران
نجد
الحجاز
ش.م.

وإن احتفظت على القمة باسم الخليفة العباسي • إنما تنصب هذه الميزات التي نبحث عنها بشكل عام على القرن الأول خاصة من عهدها (١٣٢ ــ ٢٣٢) وإن شئنا التجاوز شملت القرن الثاني التالي له (٢٣٢ ــ ٣٣٤)• أما ما بعد ذلك مما يسمى بالعصر البويهي ثم السلجوقي فله ــ الى حد كبير ــ ميزاته الخاصة •

والقرن الأول من الخلافة العباسية هو وحده عهد الدولة العباسية الخالصة ثم سقط الحكم العباسي بين القواد الاتراك فأضحت هناك : خلافة عباسية لها بشكل متزايد الطابع الديني فقط مقابل «دول» فعلية مأامها علناً أو بشكل موارب قواد الجيش من الأتراك خاصة ، سواء في الأقاليم أو في بغداد نفسها • ولعله من الضروري كما نكون على الموضوعية والدقة أن نحصر الاهتمام بالقرن الأول •

ولعل أول ما نقف عنده في هذا الصدد هو تقييم الثورة العباسية في مسيرة التاريخ الاسلامي •

فمعظم المصادر تصور انتقال الخلافة من بني امية الى بني العباس كما لو كان نهاية عصر بائد وفاتحة عصر جديد ، او أنه انقلاب جذري في كيان الامبراطورية العربية الاسلامية • وكثير من الاوهام تتحدر من هذه الفكرة ، فإذا لم يكن انتقال الحكم من الراشدين الى الأمويين مجرد تغيير في نظام الحكم وكان انقلاباً في تكوين الدولة الاسلامية ومفاهيمها أعطاها أشكال ونظم الدول الأخرى السابقة لها ، معما يقتضيه الاسلام من تعديل فيها فان العصر العباسي الأول ، في واقعه العميق ، ليس اكثر كثيراً من انتقال عرش من اسرة لأخرى ، مع التعديلات التي تقتضيها سنة التطور • فاذا كان التاريخ لا يقبل الانقطاع عامة ، فانه

فيما يتعلق بتلك الفترة ، بين أواخر العهد الاموي واوائل العهد العباسي خاصة ، لم ينقطع • واذا سمي العباسيون حكومتهم «دولـة» فهذه التسمية تحتاج الى تحديد ، لانهم لم يخلقوها خلقاً جديداً • وكثير من انظمتهم وتقاليدهم وسياستهم كان استمراراً للعهد الاموي ونضجاً له وتطوراً طبيعياً لمؤسساته وعلومه وتياراته الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية • وما أدخله العباسيون من التعديل على السياسة العامة كان مبعثه الطريقة التي وصلوا بها الى الحكم ، وظروف الدعوة التي سبقت خلافتهم • كما ان ما يبدو من التباين بين عهدهم الأول والعهد الأموي فإنما مرده الى ما اقتضاه نقل مقر الخلافة الى العراق ، واتصال الدولة المباشر والمتكاثر مع الموالي الفرس واستخدامهم فيها ، من التغير• ولعل المقارنة بين العهدين تبين لنا ميزات العهد العباسي ومدى شبهه واختلافه مع العصر الاموي :

١ ــ يقول الجاحظ : «دولة بني العباس اعجمية خراسانية ،ودولة بني مروان عربية اعرابية» ويرى المسعودي انه في زمن بني العباس «سقطت قيادات العرب وزالت رياساتها وذهبت مراتبها» ويقول بيكر : «ان انتصار العباسيين معناه انتصار الفرس على العرب» • ويرى ولهاوزن «ان حكم العرب انتهى بمجيء العباسيين،وان الفارسية انتصرت على العربية تحت ستار الامية الاسلامية» والخطأ الأساسي في مثل هذه الأحكام عامل الزمن وانتقالها في الحكم من عصر الى عصر • فقد تكون هذه الافكار صحيحة في خطوطها العامة إذا اعتبرنا ما انتهت إليه السياسة العباسية بعد قرن من التطور لكنها دون شك مبالغ فيها وغير صحيحة إذا اعتبرنا النتائج المباشرة للانتصار العباسي على بني أمية • فلم ينته سلطان العرب بخلافة العباسيين ، لان الخلفاء كانوا عرباً هاشميين ، يعتزون بنسبهم ومناقبهم • وتقريبهم الفرس لم يمنعهم من

كيل الضربة تلو الضربة ، لهم ، منذ عهد ابي العباس حتى المأمون والمعتصم – على الاقل – واذا وصل الفرس الى الوزارة فعدد كبير من القواد والولاة كانوا عرباً ومن اقرباء البيت المالك • وحتى الفرقة الخراسانية في الجيش كانت في معظمها عربا كما كانت هناك فرق أخرى عربية وغير عربيـــة •

هذا الى ان الناس ظلوا ينزعون للفخر بالنسب العربي • ويشتري بعض الموالي النسب شراء • وحتى ابو مسلم نفسه ادعى النسبة العربية وسنبقى الى زمن ابي تمام (القرن الثالث للهجرة) نسمع الفخر بالعروبة وتراشق الهجاء بالنسب الفارسي •

وعدا هذا فان اللغة العربية ظلت لغة السياسة والثقافة وازدادت تعمما وانتشاراً وبدأت الترجمة من اللغات الاخرى اليها •

فحكم العرب اذن لم ينته بالعباسيين • ولكن الامتيازات التي كانت لهم على العناصر الاخرى في الدولة زالت • والعصر العربي الخالص في تاريخ الاسلام قد انتهى • والحياة العربيـــة الخالصة للحكـــام آذنت بالانقراض • فكانت دولة العباسيين «اسلامية» أممية ، ليس العـــرب أكثر من عنصر كبير وأساسي وحاكم من عناصرها ، بينما كانت دولة بني امية عربية فقط • وبعض الظروف السياسية كحركة ابي مسلم وثورة المأمون ، هي التي ابرزت الخراسانيين من بين شعوب الدولـــة ولكن الخلفاء لم يختصوا دوماً بهم ، ولا بهم وحدهم •

ونعود الى كلمتي الجاحظ والمسعودي فنجد أن الجاحظ ، الذكي الفؤاد ، المطلع على السياسة العباسية والذي عاصر فترة الأوج من دولة

بني العباس إنما كان يقصد بكلمته عن أعجمية هذه الدولة وخراسانيتها المعنى الجغرافي لا معنى الحكم والسياسة • ولعله إنما أراد ان يقول إن الدولة العباسية إنما قامت بدعم من منطقة أعجمية خراسانية بينما قام الحكم الأموي بدعم من المناطق العربية • وأما المسعودي فما من شك في أنه كان يحكم على دولة بني العباس من خلال عصره وما انتهى إليه الحكم والسياسة العباسيان في مطالع القرن الرابع بعد تطور قرنين على الأقل •

ويمكن القول في النهاية أن الدولة الاسلامية ، تحولت في العهد العباسي إلى دولة قوميات متعددة بعد أن كانت في العصر الأموي واحدة القومية بمعنى أن الجماعة الحاكمة ، أيام الأمويين كانت من العرب في غالبيتها العظمى وتحتها القوميات والشعوب الأخرى أما في العصر العباسي فتحول الحكم (وهو تحول بدأ بالتدريج منذ الأمويين) إلى حكم قوميات متعددة • جمع بينها الاسلام فكان فيه في طبقاته العليا: بجانب العربي الذي لم يخسر مكانته الايراني والتركي كما فيه البربري والأرمني والنبطي والزنجي والسندي ، نفذوا باعتناق الاسلام من طبقة المحكومين الى طبقة الحاكمين وشاركوا ، باعتبارهم مسلمين ، في إقامة وإدارة الحكم الاسلامي وفي الاستفادة من الفرص والآلاء التي يقدمها هذا الحكم • لم تتدهور قيمة العرب كوحدة عرقية وحضارية ــ خلافاً لما قال بعض المؤرخين والمستشرقين ــ أثناء تحول الدولة الاسلامية الى دولة شعوب متعددة ولكن برزت معهم الشعوب الأخرى واختفى بالتدريج التمييز الذي كان ظهر بشكل طبيعي في العهد الأموي بين العرب والموالي وإن بقيت أشكاله ومظاهره الخارجة بقاء القواقع بعض تلاشي المحار •

ومقابل هذا جرى العكس بالنسبة للخليفة فإذا كان في العصر

الأموي على مستوى غير بعيد من أي فرد من أفراد الطبقة الحاكمة العربية فقد ارتفع في العصر العباسي ليأخذ الصفة الدينية ويصبح قمة الارستقراطية المحدودة العدد والإطار التي يمثلها مجموعة آل بيت النبي في أوسع اشكالها أي مجموعة آل هاشم .

٢ - يقول صاحب الفخري : «ان هذه الدولة (يعني العباسية) ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك فكان أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تديناً والباقون يطيعونها رهبة او رغبة» . والحق ان العباسيين بحكم الطريق الذي اصطفوه اثناء الدعوة العباسية للوصول الى الخلافة ، اندفعوا في الاخذ بالصبغة الدينية . وتلك الدعوة التي استخدموها لتنفير الناس من الحكم الاموي تطورت في عهدهم ، ووجهت بكثير من الدهاء لكسب ثقة الامة ، وتثبيت حبها لهم .

لقد ادعى بنو العباس انهم يريدون احياء السنة وحكم العدل وارجاع الخلافة الحقة ، بدل الملك الذي اقامه الامويون . فارتدى خلفاؤهم البردة (كرمز لسلطتهم الدينية) في المناسبات الخاصة (كالجمع والاعياد) واحاطوا أنفسهم بالفقهاء وحاربوا الزنادقة . وتغيرت نظرية الحكم فبعد ان كان الخليفة الاموي اشبه بشيخ قبيلة يستمد قوته من رضى رؤساء القبائل وزعماء الناس ، اصبحت السلطة عند العباسيين مقدسة ومستمدة من الله . خطب المنصور قائلا : «ايها الناس انما انا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله اعمل فيه بمشيئته وإرادته . وأعطيه باذنه فارغبوا الى الله وسلوه ان يوفقني للرشاد والصواب وان يلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم ..» ويذكر المسعودي من قول احدهم في تعزية المهدي بابيه : « .. لاعقبي

أجل من خلافة الله على اولياء الله» . فالخليفة اذن خليفة الله . واتخذ خلفاء بني العباس لانفسهم بعد فترة وجيزة لقب الامام . وأخذ الطابع الديني للخلافة يعمق ويظهر ، كلما تسللت السلطات الدنيوية من يدي الخليفة . فكان الخلفاء يجرون على انفسهم الدثار الديني المقدس للتعويض عن السلطة الزمنية التي كانوا يفقدونها تدريجياً بضعفهم ، في العصر الثاني والثالث والرابع . حتى ادعوا ان السلطة ستبقى في ايديهم الى الابد لا تخرج منها حتى يسلموها الى عيسى بن مريم — كما يقول الاربلي — والا" فان نظام العالم سيختل (اذا ذهبت خلافتهم) وتحتجب الشمس ويمتنع القطر !!

ولعل تطور الالقاب فيهم يدلنا على اتجاه السلطة في الخلافة فمن السفاح والمنصور الى المهدي والرشيد الى المتوكل على الله والمستنجد بالله والقائم بامر الله ، نرى من معاني الالقاب كيف كانت الخلافة تضعف ومن دخول : «لفظ الجلالة» كيف كانت تتخذ الصبغة الدينية . ولا شك ان تحول الخلافة العباسية الى نوع من النفوذ الديني كان السبب في العمر الطويل الذي تمتعت به كما كان السبب في احترام الفرس والترك خاصة لها كمقام ديني أعلى .

ولكن هل كان الثوب الديني الفضفاض للخلافة يعني السياسة الدينية أي تحقيق الكتاب والسنة ؟ وهل حققت دولة بني العباس ، في عهدها الاول على الاقل ، آمال اولئك الذين اغرتهم وعود الدعوة « للرضا من آل محمد ؟ » يقول فانفلوتن[1] : « ان ذلك المثل الا على للعدالة والمساواة قد ظل وهما من الاوهام . ولم يكن جور النظام

---

(١) فلوتن ص١٣٢ وما بعدها

العباسي وعسفه منذ قيام الدولة العباسية ، باقل من النظـام الاموي المختل حفزاً للنفوس الى التمسك بعقيدة المهدي والتطلع الـى ظهوره لتخليصها من قسوة النظام الجديد وجوره • ويذكرنـا جشع المنصور والرشيد والمأمون وجور أولاد علي بن عيسى وعبثهم باموال المسلمين ، بزمن الحجاج وهشام ويوسف بن عمر الثقفي •••»

«ولدينا البراهين الكثيرة على فجيعة الناس في هذا العرش الجديد: من ذلك قول شريك الذي ثار في بخارى خلال خلافة السفاح : « ما على هذا اتبعنا آل محمد ، على ان نسفك الدماء ونعمل بغير الحق» • وكذلك الاضطرابات المستمرة في الجزء الشرقي للدولة العباسية (كخروج المقنع) وثورات الخوارج المتوالية وخروج يوسف البرم الذي لم يكن غرضه سوى « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » أضف الى هذا خروج رافع ابن الليث لسوء سياسة علي بن عيسى ••• وهكذا لم يكن ابو العطاء الشاعر هو وحـده الذي نعي على ذلـك النظام فساده بقوله :

يا ليت جور بني مروان دام لنا   وليت عـدل بني العباس في النار

ولعل الفرق بين العهدين العباسي والاموي هو ان المستفيد من الجور فيهما كان مختلفاً • فلم يكن قوام الجور العباسي ــ على الاقل ــ تسلط عنصر واحد من عناصر الدولة على العناصر الأخرى وهو مـا كان عماد النظام الاداري الاموي ، إذ أن الدين ــ دون الجنس ــ كان المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومـة والرعية لـدى بني العباس ، وانما كان سبب النقمة على العباسيين عدم العدل في حكمهم، بمعنى انه اذا انتصر بالحكم العباسي مبدأ المساواة الدينية فان العدل ــ على أي حال ــ لم ينتصر •

٣ ــ كثيراً ما يذكر الكتاب ان نظم الادارة العباسية كانت مقتبسة عن النظم الفارسية القديمة • والواقع كما قال (ديلافيــدا) «ان النظام الاداري الذي جرى عليه العباسيون هو في جوهره نظام الامويين» • فقد استمرت النظم الامويــة في الضرائب والادارة المحليــة والجيش والدواوين على رسمها ، في العهد العباسي • وتهجمــات الشعوبين في مخاصمتهم الطويلة للعرب هي التي طوقت الادارة العباسية بهذا الوهم• ولكنا لو درسنا الانظمة الساسانية ، وما كتبه كريستنسن[١] خاصة عنها (في كتاب ايران تحت الحكم الساساني) لتبين لنا انها كانت ابسط مما كانت عليه عند العباسيين • كما ان كثيراً من الانظمة العباسية لم يعرفها آل ساسان • فلم يكن الفرس مثلا يميزون بين كلمتي «جزية وخراج» ولم يعرفوا نظام الحسبة ولم يعرفوا في نظام البريد وظيفة التجسس على العمال والرعية (الامن العام) بالاضافة الى نقل الاخبار الخ ••• وأهم الفوارق بين أسس النظامين العباسي والاموي هي :

آ ــ لم يعد ثمة تفريق بين الشعوب الاسلامية فكان من الضروري ايجاد نظام جديد للمال ، يحل المشكلة التي اوجدها ،منذ العهد الاموي، قانون عمر بن الخطاب باعفاء العرب من دفع الضرائب ، باعتبارهم حماة الاسلام ، وتوزيع العطاء عليهم • وقد أوجد العباسيون هــذا النظام الذي لا يفرق بين العرب والفــرس ، في خدمة الحكومــة ، ويفرض للجميع على السواء مرتبات معينة • ولكن النظام القديم بقي قائماً ولم يلغ صراحــة •

ب ــ حلت بالتدريج محل الارستقراطية العربية التي كانت تحيط

---

(١) انظر الدوري العصر العباسي الاول ص ٤٤

بالعرش الاموي ، طبقة من الموظفين (بوروقراطية) قسمت درجات يسيطر بعضها على بعض • وكان على رأسها الوزير الذي وجد منصبه في العهد العباسي ، وظهر لقبه قبل مبايعة أول خليفة من خلفاء بني العباس، تعبيراً عن ضرورة وجود «الادارة المدنية» في الدولة الاسلامية وإثباتاً لوجودها • بعد أن استمر الأمويون منذ الفتوح العربية يربطونها بالادارة العسكرية • وظهرت بهذا الشكل طبقة الكتاب الذين لعبوا في تسيير الدولة العباسية دوراً يعدل دور ارباب السيوف ، او قد يفوقه ، وكثيراً ماكان الوزراء ينتقون من الكتاب ، ويحمل احدهم لقب «رب السيف والقلم» أو «ذي الرياستين» •••

جـ ـ اعتمد العباسيون على القوة في تنفيذ سياستهم اكثر من الامويين واعتمدوا ـ على رأي ابن الطقطقي ـ على الخدع والدهاء والغدر أكثر من اعتمادهم على القوة والشدة خصوصاً في أواخر عهدهم ، وكان ابو العباس (السفاح) أول من اشار الى هذا الاتجاه في خطبته التي افتتح بها عهده • وصار للجلاد مكان معلوم في البلاد بجانب العرش ليزيد في رهبة الخليفة • ويرى (ولهاوزن) ان العباسيين اقتبسوا وظيفة الجلاد من الفرس الذين كان لملوكهم حق الحياة والموت على الرعية •

٤ ـ لم تتغير الاتجاهات السياسية والدينية للمجموعة الاسلامية في مطلع العصر العباسي • فبقي حزب الشيعة العلوية قائماً واستمر الخوارج في الثورات ، وان اندمج المرجئة مع الايام «بالجماعة» • وسننتظر الى ما بعد عهد الرشيد لنرى همود الثورة الخارجية وانهيار ممثليها ، ولنرى انكماش الحروب القبلية وتقلصها الى الجزيرة العربية وسورية ، اي الى الاماكن العربية التي لا نفوذ للموالي فيها • أما حيث

ظهر شأن الموالي (كالعراق مثلا) وذر قرن الشعوبية والتهجم على العرب، فقد اضطر العرب لأن يكونوا جبهة واحدة •

ولم يظهر للامويين من حزب لان العباسيين نكلوا بهم نكالا شديداً حين ظفروا ؛ ولانهم اهملوا امر الشام وشجعوا الفتن فيها .ولأن الامويين اخيراً استطاعوا ان يقيموا لانفسهم منذ سقط ملكهم في دمشق ، دولة اخرى في الاندلس ؛ أي في ابعد قطر عن مقر العباسيين •

اما الحزب الذي استمر قائماً على حدته الاولى يناضل العباسيين فهو الحزب العلوي المخدوع ، وزعماؤه هم ابناء عم الخلفاء الجدد . اذ ظهر بسرعة ان الحلف العباسي ــ العلوي الذي مكنته روح البغض لعدو مشترك ؛ لم يكن بالحلف الذي يدوم طويلا بعد هلاك العدو • وبعد ان كان النضال هاشمياً ــ أموياً أضحى في الزمن العباسي نضالا بين آل هاشم انفسهم أي بين ابناء العمومة • ولم يكن موقف بني العباس أرحم او اقل قسوة من موقف الامويين مع آل علي • وليست (باخمرى) باقل من كربلاء ولاعمل المنصور بهم بأرحم من عمل عبد الملك ؛ وهذا ما يفسر ما يرويه الاغاني من جواب محمد ذي النفس الزكية لعمه الحسن بن الحسن بن علي حين سأله : لم تبكي على بني أمية وانت تريد ببني العباس ما تريد ؟ قال : «والله ياعم لقد كنا نقمنا على بني امية ما نقمنا ؛ فما بنو العباس الا" اقل خوفاً لله منهم • وان الحجة على بني العباس لأوجب منها عليهم • ولقد كان للقوم اخلاق ومكارم ليست لابي جعفر» • واذا كان الامويون قد خمدوا لانهم اجتزأوا لانفسهم جانباً من الامبراطورية العربية في أقصى الغرب ، فكانوا بذلك أول وأبعد المنشقين ، فان الحزب العلوي استطاع من بعدهم ، وبعد ان فقد الامل بزحزحة العباسيين ان يجتزىء جانباً آخر اقرب من الاندلس الى مقر

الدولة ، وهو شمالي افريقيا فأقام العلويون اولا دولة الادارسة ثم الدولة الفاطمية التي وصلت في الاتساع الى الشام وكادت ذات يوم ، في فتنة البساسيري ، ان تحل محل العباسيين في بغداد .

٥ ــ والعهد العباسي يعد تكملة للعهد الاموي في الحياةالاجتماعية والفكرية : فقد كان العهد الاموي عهد انتقال ظهرت فيه حضارة العرب البدوية بجانب حضارات الامم المغلوبة : فالتقت في بلاط الخلفاء وفي طبقات الشعب على السواء عادات العرب البدوية مع العادات الاجنبية ، وهكذا استمر وجود الاسواق ــ مثلا كالمربد ــ والتراشق بالشعر الخ ... في نفس الوقت الذي اخذ فيه العرب بعض ضروب الغناء والموسيقى عن الفرس . واقتبس البلاط الاموي في مطلع عهده بعض التقاليد البيزنطية كاستعمال الخصيان ومجالس الشراب باكاليل الزهور والريحان ، كالروم ، ولبس الثياب الحريرية ، والملابس الرسمية (الطراز) كما اقتبس في عهده الاول والاخير بعض نظم البلاط الساساني كهدايا النوروز والمهرجان وجلوس الخلفاء خلف ستارة في مجلس الغناء، وشرب الهفتجة (عادة فارسية لشرب الشراب مدة سبعة اسابيع في وقت معين من السنة) . وكذلك كانت القلنسوة الفارسية التي عمت الشرق في العصر العباسي معروفة ويلبسها الناس ، هي والثياب الفارسية ، في العهد الاموي .

وبالاضافة الى هذا فان التيارات الاجتماعية كالشعوبية والزندقة الخ ... انما ظهرت بوادرها منذ العهد الاموي ، وان برزت واضحة في العهد العباسي الاول .

أما في الحياة الفكرية فليس هناك من يشك في الصلة الواشجة بين

العهدين : فتحت الحكم الاموي ، ومنذ زمن معاوية ، في بعض النواحي، بدأت حركة التأليف : اذ بدأ جمع الشعر الجاهلي وظهرت بوادر حركة تدوين التاريخ ونشأت الدراسات الفقهية •

وترجمت بعض الكتب زمن الامويين • واذا كانت بعض المصادر تذكر الترجمة في عهد معاوية ، فمن الثابت ان خالد بن يزيد كان أول من أمر بترجمة بعض الكتب له عن اليونانية والقبطية • وكتب ذلك الامير بعض الرسائل في الكيمياء • وفي عهد عمر بن عبد العزيز ترجم ماسرجويه بعض الكتب السريانية ، وانتقل مركز الدراسات اليونانيةمن الاسكندرية الى حران وانطاكية ، فسهل ذلك انتشارها بين المسلمين • وترجم سالم ابن جبلة كاتب هشام ، بعض كتب ارسطو • كما ترجم ابنه جبلة عدة كتب من الفارسية الى العربية ، منها كتاب في تاريخ الفرس منذ بدءملكهم الى انتهائه ، ترجمه بأمر الخليفة هشامسنة ١١٣هـ وكانت نسختهمصورة ملونة بالأصباغ •

على ان حركة الترجمة هذه التي كانت فردية ومبعثرة في العصر الاموي تنظمت وصارت حكومية رسمية في العصر العباسي • ومبعث ذلك طبيعة التطور واستبحار العمران وما يقضيه •

اما عن التيارات الفكرية فقد بين كريمر[1] ان أهم مذهب فكري في العهد العباسي وهو الاعتزال (او القدرية) قد ظهر ونما ، كمذهب الارجاء ، في دمشق ، اول الأمر • ومسائله الأولى انما ظهرت في العهد الاموي ، وتأثرت لحد ما بأفكار وتعاليم رجال الدين البيزنطيين والكنيسة

---

(١) فون كريمر الحضارة الاسلامية ص ٤٥

الشرقية الاغريقية كما تبدو في كتابات مدرسة دمشق • يقول كريمر :
«••• ونحن نجد في كتابات يوحنا الدمشقي نظرية المعتزلة التي تقول بان الله يجازي الناس ويعاقبهم طبقاً لاعمالهم فقط» • وهي القاعدة الاساسية لفكرة المعتزلة عن الله (فكرة العدل) • ويضيف خدابخش :
«ان معبدا الجهني (٨٠هـ) هو اول من علم في دمشق نظرية حريةالارادة (وكان يقول بها يوحنا الدمشقي) • فأمر الخليفة بقتله ـ كما يذكر الذهبي ـ أو قتله الحجاج • وعلم هذه النظريةغيلان بن يونس(١١٠هـ) فقتله هشام • وكان الخليفة يزيد الثاني قدرياً وقيل ذلك عن مروان الثاني • كما ان واصل بن عطاء الذي ينسب الناس اليه الاعتزال في العادة هو أموي العصر أيضاً (٨٠ ـ ١٣١ هـ) •

٦ ـ ويمكن ان نجد بعض المقارنات الاخرى التي تبرز ميزات العصور العباسية :

آ ـ نقل العباسيون العاصمة من الشام الى العراق لتكون على طريق التجارة العالمية بين خليج البصرة والأراضي البيزنطية ليكونواهم اقرب الى انصارهم في خراسان وغير بعيد عن الشام والحجاز ومصر • وتبديل العاصمة بتبدل الاسرة الحاكمة والدول ظاهرة عامة ، لاحظها العلماء في تاريخ الشرق القديم كله ، وفي التاريخ الاسلامي بوجهخاص وقد كان لعمل العباسيين هذا آثاره السياسية والاجتماعية والفكرية ايضاً •

ب ـ لأول مرة ، في العهد العباسي تصبح حدود الخلافة غير حدود الاسلام • اذ لم يصل سلطان العباسيين ابداً الى الاندلس • ووجدت منذ خلافتهم الاولى دولتان اسلاميتان في دار الاسلام •

جـ ـ وأهمل العباسيون عامة الولايات الغربية من الامبراطورية وحصروا همهم في الجزء الشرقي ، فساعد ذلك على انفصال تلك الولايات المبكر عن الدولة ، كما ساعد على ظهور الدول العلوية فيها •

د ـ أدى بعد العراق عن البحر وقلة خطر البيزنطيين البحري على مركز الدولة الى اهمال العباسيين للاسطول • فتقلص النفوذ البحري المسلم في بحر الروم إلا في بعض العهود (الأغالبة والفواطم) •

هـ ـ أثر موقع العراق على الطرق التجارية الهامة في الحضارة العباسية فشجع الخلفاء التجارة وانتبهوا في اختيار موقع بغداد للناحية التجارية حتى أضحى المجتمع العباسي تجارياً زراعياً بعد ان كان زراعياً حربياً في العصر الاموي وحتى أضحى «التاجر» على حد قول متز رمز الحضارة العباسية •

٢ ـ أقسام التاريخ العباسي وميزات العصر الاول :

اعتاد الكتاب ان يقسموا تاريخ العباسيين الى فترات اربع :

١ ـ العصر الاول أو العصر الذهبي (١٣٢ ـ ٢٣٢هـ) (٧٥٠ ـ ٨٤٧ م) •

٢ ـ العصر الثاني أو العصر التركي (٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ) (٨٤٧ ـ ٩٤٦ م) •

٣ ـ العصر الثالث أو العصر البويهي (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ) (٩٤٦ ـ ١٠٥٥ م) •

٤ ـ العصر الرابع أو العصر السلجوقي (٤٤٧ ـ ٦٥٦ هـ) (١٠٥٥ ـ ١٢٥٨ م) •

والخطوط العامة لهذا التقسيم صحيحة غير ان التاريخ العباسي، بعد العصر الذهبي ، لم يكن أكثر من سلسلة اسماء الخلفاء . وقد سقط السلطان الحقيقي للعباسيين منذ مطلع العصر البويهي (خلافة المستكفي بالله ٣٣٣ هـ ــ ٩٤٦ م) . ولا شك أن العصر الوحيد الذي يمكن أن يسمى بحق العصر العباسي ويمكن أن تدعى فيه الدولة بالعباسية ، هو العصر الاول الذي لم يدم أكثرا كثيرا مما دامت دولة الامويين .

وقد دام العصر العباسي الاول قرناً كاملا (ما بين معركة الزاب سنة ١٣٢ وخلافة المتوكل على الله سنة ٢٣٢) وتوالى على عرش الخلافة في هذا العهد تسعة خلفاء هم في الجملة اقوى وألمع من عرف التاريخ العباسي على ذلك العرش :

١ ــ السفاح (١٣٢ ــ ١٣٦ هـ)	٦ ــ الامين (١٩٣ ــ ١٩٨ هـ)
٢ ــ المنصور (١٣٦ ــ ١٥٨ هـ)	٧ ــ المأمون (١٩٨ ــ ٢١٨ هـ)
٣ ــ المهدي (١٥٨ ــ ١٦٩ هـ)	٨ ــ المعتصم (٢١٨ ــ ٢٢٧ هـ)
٤ ــ الهادي (١٦٩ ــ ١٧٠ هـ)	٩ ــ الواثق (٢٢٧ ــ ٢٣٢ هـ)
٥ ــ الرشيد (١٧٠ ــ ١٩٣ هـ)	١٠ ــ المتوكل (٢٣٢ ــ ٢٤٧ هـ)

ولسنا هنا بحاجة الى تبيان خطأ دراسة التاريخ الاسلامي ، على الطريقة القديمة . حسب تعاقب الخلفاء في الزمن ، وذكر أعمالهم والثورات عليهم ... فالأصح دراسة الخلفاء أولا في ميزاتهم الشخصية، ثم دراسة التيارات السياسية والدينية في العصر ، كوحدة متشابكة ، ثم دراسة السياسة الخارجية وتطوراتها في عهودهم . وخطأ هذه الطريقة أقل وينحصر في انه يوجد شيئاً من الانفصال في وحدة ذلك التاريخ ،

وفي انه قد لايبرز العامل الشخصي للخلفاء في توجيهه • وهـذا العامل الشخصي يلعب في التاريخ الحاضر دوراً محدوداً ولكنه كان ركناً من أركان التاريخ القديم ويظهر أثره الواضح في الدولة الاسلامية بنتيجة ظروفها وطراز تنظيمها • ولهذا آثرنا الجمع بين الطريقتين بتقسيم العصر العباسي الاول الى عهود ثلاثة رئيسية :

١ ــ عهد التأسيس (وابرز خلفائه المنصور ونسمي العهد باسمه) ويمتد ستاً وعشرين سنة (١٣٢ ــ ١٥٨ هـ) •

٢ ــ عهد الاستقرار (وأبرز خلفائه الرشيد والمأمون) ويمتدستين سنة (١٥٨ ــ ٢١٨ هـ) •

٣ ــ عهد القلق (وأبرز خلفائه المعتصم) وهو قصير ، انتهى بظهور الاتراك على المسرح السياسي سنة ٢٣٢ هـ • ونرجح أن نضم إليه عهد المتوكل الذي قتله الاتراك سنة ٢٤٧ هـ • وسيطروا بعده تماماً على عرش الخلافة •

على ان هذا التقسيم يجب ألا يشغلنا عن الصفة الرئيسية التي يتميز بها العصر العباسي الاول ، والتي رافقته من مطلعه الى منتهاه ، وهي أنه كان عصر صراع بين قوى مختلفة متباينة يتكرر نزالها في كل عهد •

أولا ــ صراع بين عنصري الدولة في المشرق : العرب والموالي (الفرس الايرانيين) ، واذا كانت الدولة العباسية قد اهملت المغرب ومن فيه حتى استقل ، واتجهت للمشرق ، فان الذين كانوا يمثلون الموالي

المشارقة في الصراع هم الايرانيون[1]:فالارستقراطية الفارسية(الايرانية) صارعت الخلافـة ، في منصب الوزارة ، فصرعت مرة بعد مرة • وعامة الفرس (الايرانيين) قاموا ضد العرب بالحركات الشعوبيـة وبالثورات الدينية المختلفة الخ ••• وانتهى الصراع بتحول الخلفـاء الى عنصر جديد هو الترك منذ عهد المعتصم •

ثانياً ـ صراع بين العرب انفسهم على الحكم : بدأ الصراع بين آل محمد ، اول الأمر وبين الامويين ، وما كاد يغلب الامويون حتى انتقل الصراع الى آل محمد انفسهم بين علويين وعباسيين بل نجم أيضاً بين العباسيين انفسهم بين أولاد محمد بن علي واخوته واولاد اخوته •••

ثالثاً ـ صراع بين الطبقة الحاكمة التي تمركزت في العراق وبغداد وتمتعت بالترف . وبين الطبقات المحكومة التي كانت في الغالب فقيرة مظلومة • واذا كان الخوارج في آخر العصر الاموي قد تحولوا الـى الدفاع عـن المظلومين بجانب رفضهم لمبدأ الارث في الحكم ، فانهم هم الذين اضطلعوا طول العصر العباسي بقيـادة المظلومـين واثارتهم في خراسان نفسها وفي الجزيرة والبحرين وفي شمالي افريقيا • وقد استطاعوا ان يمهدوا في هذه البلاد الاخيرة للانفصال عن الدولة العباسية •

رابعاً ـ صراع بين العقيدة الاسلامية والعقائد الاخرى : ولا سيما العقائد الفارسية القديمة • وقد ظهرت بتأثير ذلك الزندقة • و خرج الاسلام من الصراع ، بفلسفة المعتزلة وبعدد من الافكار الدخيلة المارقة التي تجلت في الراوندية والخرمية والبابكية الخ •••

---

(1) يستعمل العرب في ذلك العصر كلمة فرس وفارس بمعنى ايران وايرانيين . ومن المعلوم ان فارس تعني المنطقة الجنوبية الغربية من هضبة ايران المطلة على الخليج العربي الذي دعاه اليونانيون لهذا السبب بالفارسي .

خامساً ـ صراع بين الحضارات المختلفة ادى الى تمازجها • ذلك ان العادة في مثل هذه العصــور الممتلئة بالفعاليــة والخصب ان ينعكس ذلك في حياتها الفكرية أيضاً • ولذلك برز في هذا العصر دور الترجمة . وظهرت الاسس الكبرى للحضارة الاسلامية •

وعلى ضوء هذه الصلات العميقة بين أحداث العصر العباسي الاول ومع التذكر الدائم لارتباط آخرها بأولها ودلالة وجوهها المختلفة علــى حقيقة واحدة خلفها ، يمكن أن ندرس هذا العصر الاول في فترات ثلاثة : فترة المنصور ، وفترة الرشيد والمأمون ، وفترة المعتصم •

١ ـ فترة المنصور وتأسيس الدولة (١٣٢ ـ ١٥٨)

الخلفــاء في عهد المنصــور :

هما اثنان فقط :

١ ـ **أبو العباس** عبد الله بن محمد علي بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب بن هاشم • ربيع الاول ١٣٢ ـ ذو الحجــة ١٣٦ هـ ٧٥٠ ـ ٧٥٤ •

حياته : ولد عبد الله عام ١٠٠ او ١٠٣ (وهو الارجح) بمعنى انه ولد مع الدعوة العباسية • وأمه ريطة بنت عبيد الله الحارثية • وكان فيما ذكر جعد الشعر ، طويلاً أقنى الانف . حسن الوجه واللحية • قضى عبد الله شبابه في الحميمة بالشام • ولاشك أنه أشرف على تطورات الدعوة العباسية منذ عهد خداش ، على الاقل ، وأسهم في العمل مع أبيه محمد ثم مع اخيه ابراهيم الامام في السنوات الاخيرة الهامة • ولما كان عربي الام فان ابراهيم قد اوصى له قبيل مقتله برئاسة الدعوة . دون اخيهما الآخر ابي جعفر ابن سلامة البربرية . مع ان هذا كان أسن منه •

البيعة : ولما وصل الكوفة هارباً بأهله ووصلت الجيوش العباسية اليها . قبل القواد والدعاة به للسبب نفسه وبايعوه بالخلافة البيعة الخاصة وخرج ابو العباس في اليوم التالي ، وهو متوعك ، الى المسجد في ثلة من الجند ، عدتها الفا فارس (اذ لم يكن — على ماروى ابن قتيبة — واثقاً من تأييد الكوفيين له) فتلقى من الناس البيعة العامة .

وتضطرب المصادر في تاريخ البيعة هذه . والمرجح انها كانت في ربيع الاول سنة ١٣٢ (اواسطه او اواخره) (تشرين الثاني — كانون الاول ٧٤٩م) ويقولون بعد ، ان ابا العباس صعد المنبر يوم ذاك وجلس عمه درجة دونه . عمه داوود بن علي . فخطب واقفاً على السنة ، وكان الامويون يخطبون جلوساً . فقال :[1] « الحمد لله الذي اصطفى الاسلام ... واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا ... القوام به والذابين عنه ، وخصنا برحم رسول الله وقرابته ... ووضعنا من الاسلام واهله بالموضع الرفيع اذ قال : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس آل البيت ويطهركم تطهيرا » « قل لاأسألكم عليه من اجر الا المودة في القربى » . فاعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ... تمم الله ذلك منة ومنحة لمحمد (ص) فلما قبضه الله اليه قام بذلك الامر من بعده اصحابه ... ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا واستأثروا بها وظلموا اهلها ، فأملى الله لهم حينا .. فلما آسفوه ، انتقم منهم بايدينا . ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا امتنا . وتولى نصرنا ... ليمن بنا على الذين استضعفوا في الارض .. »

---

(١) انظر نص الخطبة كلها في الطبري (الجزء السابع ص ٤٢٥—٤٢٦) القسم ٣/٢٩ — ٣٠ من الطبعة الأوربية .

«يا أهل الكوفة انتم محل محبتنا . انتـم الذين لم يتغيروا ولم يثنكم عن ذلك تحامل اهل الجور عليكم ، حتى ادركتم زماننا واتاكم الله بدولتنا فانتم اسعد الناس بنا واكرمهم علينا وقد زدت في اعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا السفاح المبيح والثائر المبير ...»

ولم يستطع ان يتابع الخطابة لوعكته فأتمها عمه داوود فقال[1]

«... الحمد لله شكراً شكراً شكراً ، الذي اهلك عدونا وأصار الينا ميراثنا من نبينا محمد (ص) . ايها الناس ... انما اخرجتنا الانفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمنا وما كرثنا من اموركم . ولقد كانت اموركم ترمضنا ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكـم واستذلاهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم . لكم ذمة الله تعالى وذمة رسول الله وذمة العباس ان نحكم فيكم بمـا انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله» .

«يا اهل الكوفة انا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى اتاح الله لنا شيعتنا من اهل خراسان ... فأحيا بهم حقنا وأظهر بهم دولتنا ... واد الكم على اهل الشام ونقل اليكم السلطان وعز الاسلام .. واعلموا ان هذا الامر (أي الخلافة) فينا وليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم ...»

هكذا وضع ابو العباس وعمـه في هاتين الخطبتين ، اللتين يصح اعتبارهما خطبة العرش ، الخطوط الكبرى للقضية التي يعملان لهـا وللسياسة التي يعد العباسيون باتنهاجها :

---

(١) يراجع نص الخطبة كلها في الطبري (الجزء السابع) ص٤٢٦-٤٢٨ (قسم ٣١/٣ ٣٤ من الطبعة الاوربية) .

١ ـ اكدا شرعية الثورة العباسية فرددا كرات كلمة «حقنـا» وبيّنا مكان العباسيين من الاسلام .

٢ ـ حملا على الظلم الاموي وبيّنا ان الثورة انما كانت على هذا الظلم وانتقاماً للناس .

٣ ـ وعدا بالحكم وفق كتاب الله وسنة نبيه .

٤ ـ تملقا اهل الكوفة بالمديح وبالوعـد بان تكـون الكوفة حاضرة العباسيين لكسب عطفهم القلبي[1] واستغل (داوود) ضغينةمحلية هي نقمة العراق على الشام ليثبت ذلك العطف . كما تملق الخراسانيين ولا شك انهم كانوا عدداً كثيراً في المسجد يومذاك .

على ان طيوفاً قوية من الريبة تطيف بهاتين الخطبتين : فالقارىء لهما يحسب ان الامر قد تم نهائياً للعباسيين . وان السفاح قد أخذ بيعة جميع الاقطار الاسلامية . فالخطأ بان يتحدثان عن «دولة بني العباس» وعن ان « الانتقام » قد تم من أهل الشام وانمروان[2] قد هزم وان الخلافة ستبقى في بني العباس حتى يسلموها لعيسى بن مريم .

والواقع كما سنرى بعد قليل ان ابا العباس لم يكن اذ ذاك اكثر من ثائر . وان بويع بالخلافة من جنده . ولم يكن له الامر من كل العالم الاسلامي فيما سوى الكوفة والطريق المؤدية الى الري وهمذان الى

---

(١) قال داوود بن علي من هذه الخطبة : ... فان لكل أهل بيت مصرا وانكم مصرنا .

(١) يقول داوود في الخطبة نفسها : «...وأدالنا الله من مروان ... ظن عدو الله ان لن نقدر عليه فنادى حزبه ورمى بمكائده فوجد أمامه وعن يمينه وشماله ... ما أمات باطله وجعل دائرة السوء تدور به ورد إلينا حقنا وارثنا .. قد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان . الشاب المكتهل (يقصد ابا العباس) الخ...»

خراسان • وكان عليه ان يعمل كثيراً قبل ان يدعى ان الامر تم له •

وثمة أمر آخر هو انه لم يكن من مصلحة العباسيين في تلك اللحظات الخطيرة القلقة من الثورة أن يدعوا بمثل هذه الصراحة والقوة ان الحق «حقهم» وانه لن يخرج منهم وانهم هم وحدهم آل البيت المخصوصون برحم رسول الله ، بينما معظم اشياعهم واهل الكوفة انفسهم من العلويين •

والارجح ان هاتين الخطبتين موضوعتان وضعا كاملا او محرفتان تحريفاً كثيراً ، أو انهما بعض الخطب التي القيت بعد مقتل مروان بن محمد وانتهاء الامر الاموي •

لقب السفاح :

انهمك ابو العباس بعد البيعة في جمع الامر من الامويين في يده واقتضى ذلك ان تبدأ مجزرة وصلت احياناً حد الوحشية بين العباسيين الظافرين والبيت الحاكم الاموي • وقد رأينا كيف قتل مروان الخليفة وابن هبيرة صاحب العراق وعشرات بعد عشرات من الامويين في كل مكان • وكيف وصل القتل حتى بلاط الخليفة الجديد اذ تناول السيف عنق ابي سلمة الخلال وزير آل محمد نفسه بتدبير من ابي العباس نفسه ••• وقد استفاض لدى المؤرخين انه لهذا السبب لقب بالسفاح بمعنى السفاك • ولكن منحه هذا اللقب يحتاج لبعض المناقشة •

فالذي يظهر ان لقب السفاح لحق متأخراً بابي العباس منذ القرن الرابع الهجري ، اذ لا نجد أثراً لنسبة هذا اللقب اليه في المصادر الاولى كالطبري والجهشياري وابن قتيبة واليعقوبي ، واول مصدر يذكره هو المسعودي ونعرف انه يعتمد احياناً على القصص ولعل الامر

التبس على بعض المؤرخين فخلطوا بين ابي العباس (عبد الله بن محمد) وبين عمه (عبد الله بن علي) الذي كان يدعى بالسفاح للمجازر التي قام بها في الشام حتى اضطر الخليفة للاخذ على يده . يقـول ابن قتيبة : «ذكروا أن ابا العباس ولى عمه عبد الله بن علي ــ الـذي يقال لـه السفاح ــ الشام[1]» . ويعدد اليعقوبي اولاد علي بـن عبد الله بـن العباس فيذكر بينهم «عبد الله الاصغر وهو السفاح[2]» وربما انسحب هذا اللقب . عند المسعودي . على ابـي العباس نفسـه وأخذه عنه المتأخرون . اذ عز عليهم أن يكون رأس السلسلة العباسية دون لقب كغيره . وأعانهم في هذا انهم وجدوا في خطبته الاولى قوله : «اناالسفاح المبيح» ففسروها على انه السفاك . وبعض المحدثين مازال يفسرها على انه كان يتهدد أهل الكوفـة الذين لا يبقون على ولاء او انـه توعد اعداءه ... والاصح ان تفهم بمعنى الرجل الكثير العطايا والمنح فالجملة التي تسبقها مباشرة تفسرها كذلك . يقول : «وقد زدت في اعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا السفاح المبيح» . وتسمية الكريم بالسفاح امر قديم في العرب . يقول نيكلسون : «مما يهمنا ملاحظته ان هذا الاسم قد اطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية ويقال ان سلمة بن خالد الذي قاد بني تغلب في يوم الكلاب الاول سمي السفاح لانه افرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة» . وقد ذكر السيوطي ان النبي (ص) قال : «يخرج

---

(1) يكرر ابن قتيبة نسبة لقب السفاح لعبد الله بن علي ست مرات .

(2) لما قام به عبد الله بن علي من السفك بالشام سمي السفاح وفيه يقول الشاعر :

وكانت أمية في ملكهـا	تجول وتظهـر طغيانها
فلما رأى الله ان قد طغت	ولم تطق الارض عدوانها
رماها بسفاح آل الرسول	فجـز بكفيـه اذقانهـا

رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن ، يقال لـه السفاح فيكون اعطاؤها المال حثياً» وقد لا يكون الحديث صحيحاً ولكنه ــ على كل حال ــ يدلنا على معنى الكلمة في الزمن الذي وضع الحديث فيه ، ويدلنا على نظرة الناس الى ابي العباس السفاح اذ ذاك . هذا الى ان اليعقوبي يذكر ان التقتيل لم يعرف عـن ابي السفاح الا قليلا . ويقول المقدسي «كان ابو العباس يكره الدماء» كما ذكر ابن قتيبة انه غضب كثيراً حين قتل عمه عبد الله : العالم الزاهد عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملك وأمره الا يقتل أحدا من بني أمية حتى يعلم به امير المؤمنين . ولا شك ان أبا العباس قتل الكثيرين . وبعضهم قتل انتقاماً وتشفياً ، ولكن الضرورة السياسية كانت تقضي ايضاً بذلك . ومثل هذه المقاتل تجري عادة عند كل توطيد دولة . وتكاد تتفق المصادر اخيراً على وصفه بالكرم وصلة ذوي الارحام والسماحة بالاموال بجانب وصفها له بالحلم وحسن الخلق والعقل والحياء وليس يتفق هذا لسفاح .

ولعله من الهام ان نضيف هنا أن المسعودي يعطي أبا العباس لقباً آخر غير السفاح هو المهدي[1] وقد أيدت الكشوف الأثرية هذا اللقب للخليفة العباسي الأول . ووجد الأثريون بمسجد صنعاء نقشاً ورد فيه اسم أبي العباس مقترناً بلقب المهدي . فكأننا أعطى هذا اللقب يومذاك بشكل شعبي أو في اليمن وحدها لإضفاء الصفة التنبؤية عليه باعتباره المهدي الذي ينتظره الناس . وتضارب اللقبين ، على أي حال ، مع عدم ذكر لقب مع اسم أبي العباس لدى المؤرخين المعاصرين له وإلى ما بعده

---

(١) المسعودي ــ التنبيه والاشراف ص٢٩٢ حيث يقول : « وقد كان لقب أولا بالمهدي » .

يقرنين دليل على أنه استمر على سنة الأمويين ولم يتخذ لنفسه لقباً •

وفاته :

بقي السفاح على عرش الخلافة اربع سنين وتسعة أشهر وتفشى الجدري في الأنبار أواخر سنة ١٣٦ فاصيب به الخليفة نفسه ومات به (١٢ ذي الحجة ١٣٦) وهو ابن ثلاث وثلاثين او ست وثلاثين سنة بعدان عهد بالامر الى اخيه ابي جعفر المنصور ومن بعده الى ابن اخيه عيسى ابن موسى •

٢ ـ المنصور :

ابو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (١٣٦ــ ١٥٨ هـ) ــ (٧٥٤ ــ ٧٧٥ م) •

نشأته :

ولد كأخيه أبي العباس مع ميلاد الدعوة العباسية سنة ٩٥ أو سنة ١٠١ من أم ولد بربرية تدعى سلامة • ولكنه تربى وسط كبار الرجال من جلة بني هاشم وصحب ــ كما يقول المسعودي ــ أباه وجده فنشأ فصيحا ملما بسير الملوك والامراء • وقد كان كثير الاسفار والتنقل فخبر الحياة والناس فلما استخلف أخوه لازمه • فكان يرى بقده الاسمر الطويل النحيف قائماً ابدا بجانبه • يحارب اعداءه ويصرف الامر معه وينوب عنه في الحج وقد كان عائدا من المناسك سنة ١٣٦ حين وصله النبأ بوفاة اخيه وانتقال الخلافة اليه •

ميزاته :

غطت شهرة المنصور السياسية على صفتة العلمية التي كان يعمل عليها قبل الخلافة وطلب من أجلها علم الكلام وخالط العلماء فقد كان المنصور . في شبابه الأول ، أواخر الدولة الأموية وفي أيام هشام بن عبد

الملك يجول في البلاد ويحضر المناظرات والحلقات الفكرية والدينية في مساجد المدينة والبصرة والكوفة والأهواز والموصل . وتذكر إحدى الروايات أنه عاد مرة من البصرة الى دار والده محمد بن علي في الحميمة بالشام فأخذ يتكلم في القدر ومسائل الكلام فمنعه أبوه من ذلك . ومن المعروف أنه كان على صلة وثيقة حميمة ، قبل الخلافة وبعدها مع عمرو ابن عبيد ، الزعيم المعتزلي في البصرة وكان يحضر حلقاته فيها . كما كان معروفاً علم المنصور بالحديث والأخبار والمغازي . ورغبة فيها هي التي جعلته يطلب إلى محمد بن اسحق وضع السيرة النبوية التي وصفها لتثقيف ابنه المهدي ومن مالك بن أنس وضع الموطأ .

ولدينا خبر ، يأتي في سيرة أبي أيوب المورياني الوزير ، يذكر أن أبا جعفر وفد مع عدد من بني هاشم على عبد الله بن معاوية والي مروان ابن محمد على إصبهان والأهواز وأن عبد الله بن معاوية والي مروان هرب أبو جعفر ببعض المال وكان والي البصرة قد نصب رصداً لهؤلاء الهاربين فوقع في يده وضربه بالسياط اثنين واربعين سوطاً حتى أشفق عليه أبو أيوب المورياني ، كاتب البصرة فشفع له ورمى نفسه عليه يفتديه من السياط حتى كفت عنه . فما زال أبو جعفر يذكر له هذه اليد[1] حتى كانت خلافته فاصطنعه وقربه وجعله وزيره بسبب هذه السابقة . وثمة خبر آخر يقول إن رجال الرصد في بعض البلاد قبضوا عليه وألزموه درهمين وألحوا في دفعهما فلم يستطع ذلك إلا بالجهد فهذا سبب بخله[2] .

---

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص٦٦

(٢) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء (المطبعةالسلفية) ص٢٦٣ نقلا عن ابن عساكر .

أما في الصفات الخلقية فقد عرف المنصور بالحذر واليقظة والدهاء. ويذكرون انه أوصى ان يحفر له مائة قبر وان يدفن في غيرها . وقد وصفه ابن هبيرة بقوله : «ما رأيت رجلا في حرب أو سلم أمكر ولا أشد تيقظاً من المنصور . لقد حاصرني تسعة شهور ومعي فرسان العرب فجهدنا كل الجهد حتى ننال من عسكره شيئاً فما قدرنا لشدة ضبطه لعسكره وكثرة تيقظه» . واشتهر بالجد يقول الطبري : «لم ير في دار المنصور لهو قط» كما تميز بالبخل والميل للاقتصاد حتى كان يدعى «الدوانيقي» و «ابا الدوانيق» وان كان يعطي الجزيل احياناً[1] . وقد عرف عنه الغدر ويذكر له المؤرخون غدرات ثلاثاً مشهورة (بابن هبيرة وبعمه عبد الله بن علي وبأبي مسلم) . وكان للمنصور نظام يومي في حياته لا يكاد يحيد عنه : كان ينظر صدر النهار في أمور الدولة فاذا صلى العصر جلس مع أهل بيته . فاذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والثغور . وشاور وزيره ومن حضر من رجال دولته فيما أراد من ذلك . فاذا مضى ثلث الليل انصرف عن سماره وقام الى فراشه فنام الثلث الثاني ثم يقوم من فراشه فيتوضأ ويجلس في محرابه حتى مطلع الفجر فيخرج للصلاة بالناس ثم يعود الى ايوانه لبدء العمل.. وكل هذه الصفات كانت تجعل من المنصور نموذجاً من أبرز النماذج لرجال الدول في الاسلام . عرف له هذه المزايا أحفاده فقلدوه كالرشيد والمأمون وعرفها المؤرخون فأطنبوا في ذكرها وترداد القصص حوله وحولها . وربما لخصها قول المسعودي إنه كان : «محنك السن حازم الرأي قد عركته الدهور ... لا يدخله فتور عند حادثة ... يسوس

(١) أعطى أعمامه في يوم واحد عشرة الاف درهم . وأكرم أهل الحجاز في احدى حجاته حتى كانوا يسمون عامه عام الخصب .

سياسة الملوك ويثب وثوب الاسد العادي ، لا يبالي ان يحرس ملكه بهلاك غيره ...»[1]

وهذه الشدة في السياسة والقسوة في البطش هما في العادة من ميزات مؤسسي الدول . ولم يكن أبو جعفر يقوم بذلك عن طبع دموي أو نشوة بالقوة ولكن عن تخطيط سياسي واضح في ذهنه . يروي السيوطي أن عبد الصمد بن علي قال للمنصور : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو قال : لأن بني مروان لم تبل رممهم . وآل ابي طالب لم تغمد سيوفهم . ونحن بين قوم قد رأونا الأمس سوقة واليوم خلفاء . فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة[2] ...

ولقب المنصور الذي اتخذه لنفسه يتفق اتفاقاً كاملا مع النتائج التي توصل إليها بسياسته . أمضى أولا تسع سنوات من خلافته لايعرف خلالها إلا بكنيته : أبي جعفر . فلما انتصر على محمد ذي النفس الزكية (الذي تلقب بالمهدي) اختار ابو جعفر لقب : المنصور لأسباب دعائية واضحة هي أنه هو «المنصور» الذي تتحدث عنه الملاحم اليمانية .وهو المنقذ الذي اختاره الله وأن دعوى ذي النفس الزكية بأنه المهدي دعوى باطلة بدليل أن الله هزمه . ولقد أعطى هذا اللقب الآخر عن عمد سياسي لابنه محمد المهدي حين اتخذ لنفسه لقبه الخاص فصار اتخاذ الألقاب منذ ذاك سنة عباسية دائمة .

وفاته : امتدت خلافة المنصور اثنتين وعشرين سنة وكان المنصور

---

(١) المسعودي ــ التنبيه والاشراف ص ٢٩٥ــ٢٩٦

(٢) السيوطي ــ تاريخ الخلفاء ص٢٦٧

مسعوداً يتسقط الاطباء من كل مكان لشفاء علته ويطلب ترجمة كتبهم . ويظهر انه كان لا يتبع نصائحهم فمات بسعدته . ويقول الطبري في رواية اخرى : «كان بدء وجعه الذي مات فيه حر اصابه من ركوب في الهواجر وكان رجلا محروراً على سنه ثم هاض بطنه ..» وكان في الطريق الى مكة حين وافاه الاجل فلم يبلغهـا وتوفي لست خلون من ذي الحجـة سنة ١٥٨ هـ .



الفصل الرّابع

توطيد الدولة ـ ١

الثورات المناوئة للعباسيين

اقتضى توطيد الدولة العباسية حوالي خمس عشرة سنة من الجهد اضطلع بأهم أعبائها أبو جعفر المنصور حتى في خلافة أخيه . وقد قضى خلالها على كافة الثورات والحركات الطامعة بالعرش العباسي وسحق كافة الثورات التي تهز الأمن الداخلي . قضى على الأمويين ، وعلى الثائرين من آل محمد ، من عباسيين وعلويين ، وعلى الخوارج كما قضى على ثورات المتمردين من الدعاة العباسيين ومن أصحاب المذاهب الدينية المنحرفة .

ويبدو أن توطيد الحكم العباسي قد اقتضى الكثير من الدماء . ذكر صاحب العيون والحدائق أنه «... قيل إنه أحصى القتلى الذين قتلهم الدعاة والشيعة بخراسان والعراق والشام وما أمر السفاح بقتله وما تولاه عمه عبد الله بن علي وأهله وأخوه فكانوا ستمائةألف ..»[1] وقد يكون هذا الرقم من قبيل المبالغات ولكنه يدل على أي حال على

---

(١) العيون والحدائق (طبع دي غويه ـ بريل سنة١٨٧١) ص ٢٠١ وقد خصص ابن الاثير فصلا كاملا في تاريخه لمن قتل في عهد أبي العباس (الكامل ج٥ ص١٦١ فما بعدها) كما خصص مثله أبو الفرج الاصبهاني في الاغاني ج٤ ص ٩١ـ٩٤

مبلغ ما دخل في وهم الناس وتقديرهم من كثرة القتلى والمجازر .

ولا شك أن السبب الأساسي في كثرة الدماء هو أن الدولة العباسية واجهت في مطلعها الكثير من المخاطر التي كانت تودي بها أكثر من مرة . وقد تمثلت هذه المخاطر في أربعة مشاكل كبرى: المشكلة الأموية، ومشكلة الطامعين من آل محمد : ولها فرعان عباسي وهاشمي، ومشكلة الخوارج . وهدفها جميعاً منازعة صاحب الخلافة على خلافته وقد استطاع المنصور ، بجهوده ويقظته أن يحفظ الدولة الجديدة ويبقيها : عباسية أولا وفي أسرته ثانياً .

١ ـ المشكلة الاموية (ثورات الامويين) :

شعر الأمويون في الشام متأخرين أنهم فرطوا في خلافتهم تفريط أهل العراق قديماً في علي بن أبي طالب أو ما هو أدهى . وأن الشام حالت اقليماً من الأقاليم الثانوية بعد أن كانت مركز الدنيا ومصب خراجها وأموالها وتجارتها ، ومنزل حكمها بل حالت اقليماً محروماً أيضاً ، مضيقاً عليه في الرزق والحركة . مشبوه الخطى . كما افتقر أهله وخاصة من البيت المالك السابق . يروي التنوخي في (المستجاد) « أن هشام بن عبد الملك خلف أحد عشر ابناً . أصاب كلا منهم في الميراث ألف ألف دينار فلم ير واحد منهم قط إلا وهو فقير وقد شوهد أحدهم وهو يوقد في أتون الحمام على ملء بطنه »[1] فعمدوا ، بعد أقل من سنة على قيام العباسيين إلى الثورة « وبيضوا » (أي لبسوا البياض الشعار الاموي) سنة ١٣٣/٧٥١ :

---

(١) التنوخي ـ المستجاد من فعلات الأجداد (طبع محمد كرد علي ـ المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٥٠) ص ١٨٤

١ ــ بيضوا في البلقاء وحوران والبثينــة بزعامة حبيب بن مرة المري وهو من قواد مروان بن محمد وفرسانه وقد وقف لعبد الله بن علي في جنوب الشام فقاتله في مواقع كثيرة خوفاً على نفسه وقومه القيسيين وقد استطاع عبد الله بن علي أن يقنعه بالأمان والصلح[١] لينصرف لحرب الثورة الأخرى .

٢ ــ وثاروا في الشمال بقنسرين بقيادة أبي الورد مجزأة بن الكوثر الكلابي القيسي وهو بدوره من أصحاب وقواد مروان وقد ثار غضباً لأولاد مسلمة بن عبد الملك ــ فيما يقولون ــ وأظهــر التبييض وقتل القائد العباسي الذي أصابهم وقتله . وكانت أهل حمص وتدمر وفيها قبائل كلب اليمانية ، فقدم عليه منهم ألوف بقيادة أبــي محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية الذي اتخذ الحسرة شعاراً له فنصب الثائرون أبا محمد هذا خليفة وكان يلقب بالبيطار (لأنه صاحب صيد) وقالوا : هو السفياني[٢] الذي كان يذكر . وقد كان هذا التحالف بين أبي الورد وأبي محمد خطيراً لأنه جمع القيسية واليمنية في حلف واحد في الشام مما يدل على ادراك الطرفين مدى الخطر العباسي على الشــام ومدى الخسارة بزوال الخلافة الأموية منه . ومع أن عدة من اجتمع بقيادة أبي الورد كان أربعين ألفا إلا إن عبد الله بن علي استطــاع ، مع أخيه عبد الصمد وحميد بن قحطبة الطائي أن يهزم هذه الجماعة في مرج الأحزم[٣]

---

(١) الطبري ٧/٤٤٢-٤٤٣ (٣/٥٢)

(٢) ذكر ابن عساكر ترجمة زياد السفياني (تاريخ دمشق ــ مخطوط الظاهرية ج٦ ورقة ١٨٥ وجه) .

(٣) لدى ابن العديم انها برج الاجم ويعطي ياقوت تفسير ذلــك بأنه موضع قرب الفراديس من نواحي حلب (راجع ابن العديم زبــدة الحلب ١/٥٥ وياقوت معجم البلدان ١/١٣٥) ، ونجد لدى ابن العديم نفسه تفصيل السبب في ثورة أبي الورد .

وثبت أبو الورد في نحو ٥٠٠ من أهل بيته وقومه فقتلوا جميعاً وبينما كان عبد الله بن علي يؤمن قنسرين ويدخلها كان أبو محمد ومن معه من قبائل كلب قد هربوا حتى لحقوا بتدمر ثم بأرض الحجاز وهناك عرف زياد الحارثي عامل المنصور بموضعه فقاتله حتى قتل وأخذ ولدين من أولاده أسرى فأرسلهما الى المنصور مع رأس أبيهما[١] .

٣ ــ وفي دمشق انتقضوا كذلك وبيضوا إذ ماكاد عبد الله بن علي ينسحب شمالا لحرب أبي الورد ويصل حمص حتى بلغه أن دمشق قد ثارت على حاميته التي تركها هناك وهي أربعة آلاف بقيادة ابي غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي وأن زعيم الثورة عثمان بن عبد الأعلى الأزدي هزم أبا غانم وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة وانتهب ماكان عبد الله بن علي قد تركه من ثقله ومتاعه مع أولاده في دمشق ، وإن لم يعرض لأهله ومنهم زوجته أم البنين النوفلية وبعض أمهات أولاده ...

على أن هزيمة أبي الورد في الشام فتت في عضد الثورة الدمشقية في انصراف عبد الله بن علي عائداً الى دمشق حتى هرب الثائرون وتفرقوا ، دون حرب . وآمن عبد الله أهل المدينة وجدد أخذ البيعة منهم ...

٤ ــ لكنه ما كاد ينتهي من دمشق حتى سمع بثورة سفياني آخر في حلب . هناك ثار العباس بن محمد حفيد معاوية[٢] عقب هزيمة أبي الورد «ولبس الحمرة وخالف» . وسار إليه في وقت واحد : عبد الله ابن علي من دمشق وجيش أرسله أبو جعفر ــ وكان على ولاية الجزيرة

---

(١) الطبري ج٧ ص ٤٤٢ ــ ٤٤٥

(٢) ابن العديم ــ زبدة الحلب ج١ ص ٥٦

وأرمينية واذربيجان يومذاك ـ بقيادة مقاتل بن حكيم العكي من الرقه.
وقبل أن يصل عبد الله الى حلب كان العكي قد واقع العباس السفياني
وهزمه ودخل حلب عنوة وجمع الغنائم وسار بهـا الى أبي جعفر في
حـران ...

وقضى عبد الله بن علي الشتاء في دابق ليسير بعد ذلك إلى ثورة
أخرى قام بها اسحاق بن مسلم العقيلي في سمياط والجزيرة .

٥ ـ وفي الجزيرة ما كادوا يسمعون بثورة أبي الورد حتى انتقضوا
أيضاً وبيضوا وساروا الى حران يحاصرونها على القائد العباسي موسى
ابن كعب . «ولم يكن لهم رئيس يجمعهم » فما كاد يصل إليهم إسحق
ابن مسلم العقيلي من أرمينية (حيث هرب حين بلغه هزيمة مروان)حتى
ولوه القيادة بينما كانت قبائل ربيعة قد ثارت بدورها في داروماردين
بزعامة رئيس لها كان من الخوارج الحرورية يقال له بريكة .

وأرسل ابو العباس أخاه «أبا جعفر فيمن كان معه من الجنودعلى
حصار ابن هبيرة في واسط ، فمضى حتى مر بقرقيسيا على الفرات وأهلها
مبيضون وقد غلقوا أبوابها دونه . ثم قدم مدينة الرقة (على الفرات أيضا)
وهم على ذلك ... فمضى نحو حران ..» .

ولم يستطع أبو جعفر قتال اسحق ومن معه قبل الانتهاء من جماعة
ربيعة وقتل بريكة الحروري ولكن الوقائع التي قادها ضد اسحقوأخيه
بكار عند الرها لم تنته إلى شيء حاسم . وكتب أبو العباس الى عمه
عبد الله بن علي في الشام وكان قد انتهى من ثوراته فاجتمع مع أبي جعفر
دون جدوى لأن اسحق كان قد تحصن في سميساط واجتمع إليهستون
ألف مقاتل من كافة أهل الجزيرة ، وامتد الحصار سبعة أشهر لاينالون
منه شيئاً واضطروا لمفاوضته ومكاتبته على الأمان ووثقوا له فيه وأعطوه

العهود وكان يقول : في عنقي بيعة لمروان فأنا لا أدعهـا حتى أعلم أن صاحبها مات أو قتل • فلما أثبتوا له مصرع مروان قبل الصلح ، ثم كان من آثر أصحاب أبي جعفر[1] •

٦ً ـ وثار أبان بن معاوية[2] بن هشام بن عبد الملك في أربعة آلاف من نخبة جند اسحق • ويبدو أنه استطاع رغم هزيمة أصابته أمام حميد ابن قحطبة أن يدخل سميساط ويتحصن بها فسار إليه عبد الله بن علي حتى فتحها عنوة •

٧ً ـ وثار أيضاً وايضاً أموي آخر هو محمد بن سعيد بن عبد العزيز الأموي واتفق في حركته ضد أبي جعفر ، والي الجزيرة ، مع ثائر آخر من الخوارج هو بكر بن حميد الشيباني • وقتل محمد بن سعيد في المعركة التي جرت مع قوات أبي جعفر •

٨ً ـ وثار كذلك أهل الموصل • ومع أن هذا البلد أغلق أبوابه في وجه مروان بن محمد بعد هزيمته في الزاب وأخذ الكثير من أهلـه أجرهم من المال والاقطاع والحبـاء جزاء موقفهـم المناصر للعباسيين إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور الثورة فيهم بعد قليل سنة ١٣٣ بسبب خيبة الأمل كما لم يمنع العباسيين ، حين اخمدوهم ، من أن يفعلوا بهم مالا يفعله «المسلمون» من القتل • فقد تولى الموصل يحيى بن محمد بن علي العباسي وشعر أن في أهلها « ميلا الى بني أمية »[3] وكانوا قد رفضوا قبله والياً عباسياً يدعى محمد بن صول هو مـن موالي خثعم ، فنزل يحيى العباسي الموصل في اثنى عشر ألفاً وأقام شهراً لا يظهـر لأهلها

---

(١) الطبري ٧/٤٤٧

(٢) ابن العديم فريدة الحلب ج١ ص٥٦

(٣) انظر لدى ابي زكريا الأزدي ـ تاريخ الموصل ص ١٤٥ و ١٥٠

شيئاً ينكرونه ثم دعا دعوة فقتل منهم اثنى عشر رجلا من الوجوه • فلما نفر أهل الموصل الى السلاح نادى مناديه : « من دخل الجامع فهــو آمن بأمان الله ورسوله» فلما اجتمع الناس هناك أقام على أبواب المسجد من قتلهم • ثم قتل النساء الذين يبكون قتلاهم والأطفال ثلاثة أيام وهلك من القتل الذريع[1] أحد عشر ألفا حتى سميت السنة سنة القتل وحتى كانت ذكراها تبكي الشيوخ فيما بعد فيقولون : «من زعــم أن هؤلاء مسلمون ؟» • وقد خربت اسواق المدينة في هذه الملحمة وبقيت مهجورة ثلاث سنين وهاجر الكثير من سكان المدينة إلى أذربيجان •

٩ ــ واستغل هذه الفرص سكان الجبل في لبنان فثاروا بدورهم ١٣٥/٧٥٢ بقيادة المقدم الياس وأغاروا على قرى البقــاع ونهبوها • فأرسل والي دمشق رسلا يسعون بالصلح فلما رفض الثائرون جرت معركة في قرية المرج (بالبقاع) قتــل فيها الياس • وحين عــاد عسكر الشام عاد أصحابه فدفنوه في مكان هناك قرب الجامع (ولعلها هي بلدة قب الياس اليوم)[2] •

---

(١) انظر في المصدر السابق ذاته تفاصيل المذبحة ص١٤٥ ــ ١٥٤ ويقول اليعقوبي ان عدة من قتل هو ١٨ الفا من صلب العرب غير الموالى والعبيد .

(٢) ينقل كردعلي في خطط الشام (ج١ ص ٧١٩ ــ ١٨٠) هذه الحادثة عن ماسماه بتواريخ الموارنة . وإنما ذكرت في تاريخ الطائفة المارونيــة لاسطفهان الدويهي الذي طبع سنة ١٨٩٠ وقد نقل يوسف الدبس في تاريخ سورية (ج٥ ص٢٩٢/٢٩٣) وناقش مصدرها الاساسي الذي هو تاريخ القلاعي وبين أنها قد لا تكون من أحداث هذه الفترة ولكن من الاحداث المتأخرة في القرن الثاني عشر أو السابقة في عهد عبد الملك بن مروان كما ورد في تاريخ القلاعي .

لكن الثورة لم تهدأ وأقام الثائرون مقدماً عليهم سمعان ابن أخت المقتول فسارت إليه عساكر الشام وكانت الحرب بينهم في قرية الشوير (أو المروج ؟) فانكسر العسكر الشامي وارتد راجعا بينما دام القتال بعد ذلك سنين عديدة •

١٠ ـ ويبدو أن ثورة الجبل اللبناني وجدت بعد ذلك سنداً قوياً من البيزنطيين كما استمدت اسبابها العميقة من ظلم عمال الخراج لأهل القرى الجبلية • ويذكر ابن عساكر أن من الوقائع التي وقعت زمن رياح ابن عثمان الذي ولي إمرة دمشق لصالح بن علي الهاشمي العباسي «أن الروم دخلوا طرابلس ثم ظهر في لبنان رجل من أهل المنيطرة شاب ممتلىء الجسم وذلك في سنة اثنتين او ثلاث وأربعين ومائة وسمي نفسه الملك ولبس التاج وأظهر الصليب واجتمع عليه أنباط جبل لبنان وغيرهم •••»

«ثم استفحل أمرهم فسبوا قرى البقاع فقتلوا المسلمين وأخذوا ما وجدوا •

وكتب بندار (وهذا هو اسم قائد الثورة)[1] الملك الى أهل بعلبك يعلمهم بمصيرهم ويأمرهم بقتالهم •••» ويبدو أنه هاجم بعلبك ونهب البقاع ولكنه وقع في كمين خسر فيه الثائرون الكثير من القتلى عند أسفل الجبل وطاردتهم القوى العباسية التي أرسلها صالح بن علي الى الجبال وسقط حصن المنيطرة الذي كان مقر الثورة • «وهرب بندار الى بلاد الروم • فكتب صالح بن علي يأمر بإخراج من بقي من الجبل

---

(١) اذا لم يكن الاسم لاتينياً أو يونانياً وكان صفة أطلقت على هذا الرجل فقد تكشف أنه من التجار المحتكرين للمؤن والبضائع فالبندار فارسية الاصل وتعني التاجر الذي يلزم المعادن ويخزن البضائع للغلاء . وكان في الفرس كذلك من يحمل اسم بندار كاسم علم .

وتفريقهم في بلاد الشام وكفورها يعني قراها[1] ••• » « وأقر من بقي منهم على دينهم وردهم إلى قراهم» •

وقد أشار البلاذري[2] الى هذه الحادثة وقال : إن سببها الشكوى من عامل الخراج في بعلبك كما ذكر أن الامام الأوزاعي (وهو في الأصل من مواليد بعلبك ومن ناشئة البقاع وقد استقر في بيروت) احتج على التدابير التي اتخذها صالح بن علي ضد أهل القرى وكتب إليه رسالة طويلة يقول فيها : «••• وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ••• فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى أن لاتزر وازرة وزر أخرى وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى عن رسول الله•••»

ومع أن هذه الثورات الشامية ــ الجزرية قد انتهت بسرعةوأحياناً بالأمان إلا إنها كانت في الواقع سبباً في زيادة حقد العباسيين على الشام وفي زيادة النكبة والتمادي في تتبع البقية الباقية من الأمويين وقتلهم بكل مكان كما كان بالمقابل سبباً في زيادة بغض أهل الشام للعباسيين• ذكر ابن عساكر أن المنصور قال مرة في مجلسه وهو والي الجزيرة : «يا أهل الشام • احمدو الله الذي رفع عنكم الطاعون في سلطاننا •فأجابه جعونة بن الحارث بن قرة من قبائل قيس : «الله أعدل من أن يجمعك علينا والطاعون»[3] فقتله المنصور •••

---

(١) ابن عساكر ــ تاريخ دمشق (تهذيب بدران) ج٥ ص٣٤١ (في ترجمة رياح بن عثمان) •

(٢) البلاذري ــ فتوح البلدان (طبعةالمنجد) ج١ ص ١٩٢ •

(٣) ابن عساكر ــ ج٣ ص ٣٩٢ (في ترجمة جعونة بن الحارث) •

وقد عرف ذلك عن أهل الشام لذلك العهد وسجله ابن المقنع في رسالة الصحابة إذ يقول : «... أما أهل الشام فإنهم أشد الناس مؤونة وأخوفهم عداوة وبائقة وليس يواخذهم امير المؤمنين بالعداوة ولايطمع منهم في الاستجماع على المودة ...» .

الواقع أن بعض الأخبار والدلائل تشير إلى أن التعصب للأمويين في الشام . وأحياناً في غير الشام أخذ طريقه سرباً في النفوس وعبر عن نفسه تارة في بعض الثورات اللاحقة وتارة في بعض الأعمال الفرّديةوتارة ثالثة في الشعر ورابعة في تأليف الكتب ، وخامسة في تكوين الفرق الدينية السياسية أو في بعض آراء المذاهب ، هذا عدا إقامة إمارة الاندلس .

١ ــ فمن الثورات مثلا ثورات الشامزمنالرشيدسنة١٧٤ثم ١٧٦ ثم ١٨٠ ثم ١٩٠ و ١٩١ وثورة دحية المرواني في مصر (بين سنة ١٦٥ ــ ١٦٩) وثورة حمص السفيانية (بقيادة العميطر علي بن عبد الله حفيد معاوية ١٩٤) الذي كان اصحابه ينادون في الأسواق : قوموا بايعوا مهدي الله !) . ثم ثورة سعيد بن خالد السفياني زمن المأمون وثورة أبي حرب المبرقع اليماني زمن المعتصم ... الخ .

٢ ــ ومن الأعمال الفردية ، أن جماعة في رصافة بغداد كانوا يسقون السويق والسكر والماء البارد ويقولون : اشربوا على حب معاوية ! وصار من عادة السائقين في العراق الترحم على معاوية عند سقاء الناس حتى أمر الخليفة المعتضد بمنعهم من ذلك ومنع القصاص من ذكر روايات تخص معاوية . وكان بين « حنابلة العراق غوال مشبهة يفرطون في حب معاوية ويروون في ذلك أخباراً منكرة » وكان فيأصفهان

أيضاً غلو في حب معاوية[١] حتى كانوا يحسبونــه مرسلا ولقــد ذكر المقدس في أحسن التقاسيم عن عابد زاهد هناك أنه حين أخبره عن حقيقة معاوية وأنه ملك أخذ يقول : أنت رافضي[٢] !

وبلغ الأمر ببعض الناس أن زيف ألقاباً للخلفاء الأمويين يضاهي بها الألقاب العباسية ويرويها فمعاوية هو (الناحر لحق الله) ويزيد (المستنصر) ومعاوية الثاني (الراجع الى الله) .. وعبد الملك (المؤثر لأمر الله) ... وعمر بن عبد العزيز (المعصوم بالله) .. الخ .

وقد نقل المسعودي روايتين من هذا النوع وناقشهما وردهما[٣].

٣ ــ وأما في الشعر فقد بكى الكثير من الشعراء الامويين كحكام وقتلى وذكروا تارة عهدهم وتارة قتلاهم وتارة فضائلهم . ولئن ذهب معظم هذا الشعر لما تشل روايته من معنى المعارضة للعباسيين من جهــة والتعصب ضد الشيعة وآل البيت من جهة أخرى فإن آثاره باقية نجدها منثورة ضائعة في تاريخ الموصل للأزدي وفي الطبري وابن قتيبة وثنايا الدواوين ومنها قصائد لبشار بن برد ومنقذ بن عبــد الرحمن الهلالي وابي عطاء السندي (في رثاء ابن هبيرة والي العراق الأموي) وأبي هرمة ومروان بن أبي حفصة القائل :

بنو أمية قومي اعتقوني ... وكل الناس بعد لهــم عبيد

وابي العباس الأعمى القائل :

خليت المنابر والأسرة منهم ... فعليهم حتى الممات ســلام

(١) المقدسي احسن التقاسيم (طبع ليدن) ص٣٨٩

(٢) المقدسي ــ احسن التقاسيم (طبع ليدن) ص٣٩٩ .

(٣) المسعودي ــ التنبيه والاشراف (طبعة الصاوي ــ القاهرة ١٩٣٨) ص ٢٩٠ــ٢٩١ .

وابن قيس الرقيات القائل :

ما نقموا من بني أمية إلا　　أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك فما　　تصلح إلا عليهم العرب !

وقصيدة أبي عبد الله بن عمر العبلي التي يعدد فيها مواقع المذابح :

أشاب المفارق (أو أفاض المدامع) قتلى (كذا)وقتلى بكثوةلم ترمس
وقتلى (يوج) وباللابتين ومن يثرب خير ما أنفس
وبالزاب قتلى ملوك ثوت وأخرى بنهر أبي فطرس
أولئك قوم أناخت بهم نوائب من زمن متعس
هم أضرعوني لرب الزمان وهم ألصقوا الرغم بالمعطس
فما أنس لا أنس قتلاهم ولا عاش بعدهم من نسي !

وقوله أيضاً :

فبنو أمية خير من وطيء الثرى شرفاً وأفضل ساسة امراؤها

٤ ــ وأما تأليف الكتب فقد ذكر المسعودي أنه قرأ حين كان في طبرية سنة ٣٢٤ كتاباً لمؤلف أموي مجهول في ٣٠٠ ورقة عنوانه (البراهين في إمامة الأمويين ونشر ما طوى من فضائلهم)[١] ولخص المسعودي ما فيه في صفحة كاملة وذكر أنه ينتهي الكتاب إلى سنة ٣٢٠ ويذكر خبر قدوم السفياني ورجوع الدولة كما كا نمن مصادر كتاب مروج الذهب للمسعودي • « كتاب التاريخ وأخبار الامويين ومناقبهم وذكر فضائلهم وما أحدثوه من السير في أيامهم من تأليف ابي عبد الرحمن خالد بن هشام الاموي »[٢] وقد ألف ابن أبي العجائز أحمد ابن حميد (من القرن الرابع نفسه) كتاباً في تاريخ

---

(١) المسعودي مروج ج١ ص ١٤ــ١٥ (طبعة × ×)
(٢) المصدر نفسه ص ٢٩١ــ٢٩٢

دمشق وذكر فيه بني أمية من كان منهم في الغوطة ومن كان بدمشق • كما ألف بعض أحفاد الأمويين الكتب في أحسابهم وأنسابهم كأبي الفرج والأصبهاني «حفيد مروان بن محمد» والأبيوردي صاحب كتاب أنساب آل أبي سفيان • وإذا لم نضف إلى ذلك مؤلفات الاندلسيين كابن حزم وابن عذارى فما من شك في أن الكثير من مثل هذه الكتب كان ذا انتشار وتداول محلي وبالتالي فقد ضاع مع الأيام •

وأما في الفرق الدينية والمذاهب فالناتتة والكرامية والحنابلةجميعاً كانوا يصرحوا بقبول الامامين علي ومعاوية معاً أو بافضلية معاويةوتأييد إمامته وكانوا ينتشرون في العراق وفارس واصبهان حتىهمذان والري• ولا نذكر اليزيدية لأنهم ليسوا ليزيد كما يصرحون ويصرح بعض المستشرقين في الأرجح ليزدن والزرادشتنيه الأولى •

وإذا كان التعصب الأموي في مطالعه قد تأثر ببغض العباسيين فلا شك أنه إنما استمر وأنتشر جواباً على التعصب العلوي والتشيع •

••• وفي هذا الوقت وجدت اسطورة (السفياني) طريقها معبداً الى نفوس الشاميين ؛ ولئن كانت هذه الفكرة قد اشتقت من الايمان بمسيح أو مهدي منتظر ؛ وكانت شائعة ولها حركاتها منذ اواخر العصر الاموي (ولقد يكون مبتدعها هو خالد بن يزيد بن معاذ كما يفهم من رواية للاغاني) وكان لها أيضاً وجوهها المختلفة ؛ اذ آمن اليمانيون (بالقحطاني المنتظر) والمضريون (بالتميمي) الخ ••• لئن كان ذلك فان هذه الاسطورة قد استيقظت الآن كرد فعل للاضطهاد العباسي المرعب ؛ في انتظار تجسدها في شخص أحد الامويين • وقد لحقها مع الايام كثير من الحشو والمحالات والآمال بسير «الخيل الشهب والرايات الصفر»

من الاندلس الى الشام والتنبؤ بما سيكون لهـا من الوقائع والزحوف الخ ... وقد استمرت هذه النغمة بالشام أكثر من مائتين وخمسين سنة إذ نجدها ، بعد عدة انتفاضات قد ظهرت سنة ٢٩٤ وحمل السفياني يومذاك الى بغداد[١] ثم تجدها أيضاً سنة ٣٨٥ إذ ظهر في الشام سفياني آخر حمل الى القاهرة فشهر ثم قتل[٢] ... هل تراها انقطعت بعد ذلك ؟ يظهر انها لم تنقطع لأنها كانت قد سجلت في كتب متداولة في الشام بين الأمويين وقد رأى المسعودي بعضها وتتحدث عن «.. ظهور السفيان في الوادي اليابس من أرض الشام في غسان وقضاعة ولخم وجذام وغاراته وحروبه ومسير الأموية من بلاد الاندلس إلى الشام وأنهم أصحاب الخيل الشهب والرايات الصفر ومـا يكون لهم من الوقـائع والحـروب والغارات والزحوف[٣] ...» .

خامساً ــ انفصال الاندلس :

ولعل أهم ما نجح بـه الأمويون ضـد العباسيين وانتقموا بـه لأنفسهم وملكهم هو اقتطاع أقصى جزء في غرب المملكة الاسلامية وإقامة إمارة أموية فيه ولم يكن في إمكان العباسيين أن يتنبأوا أن ذلك الذي استطاع الفرار ذات ليلة من انتقامهم في احـدى قرى الفرات : عبد الرحمن بن معاوية ، سيقتطع منهم جزءاً من المملكة الواسعة هو الاندلس، يبعث فيه الملك الاموي . ولم يكن في مقدورهم ان يرسلوا الجيوش الى اقصى الارض لاستصفائها قبل ان يتم الامر لهم في الذي بايديهم ،

(١) ابن الاثير ج٧ ص٥٥٧ وكرد علي يقول (خطط الشام١/١٧٧) انها انقطعت سنة ٢٩٤

(٢) انظر المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٨٥ و ص٢٧٨

(٣) التنبيه والاشراف للمسعودي (طبع الصاوي ــ القاهرة ١٩٣٨) ص ٢٩٢

لاسيما والمتغلب على الاندلس اذ ذاك : يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري لم يكن والياً اموياً ، ولكن كلمة العرب هناك اتفقت على توليته في انتظار انجلاء الموقف في الشرق •

وهكذا استطاع عبد الرحمن ، في غفلة وانشغال من الاسرة الجديدة ، ان يجمع لنفسه ، رغم التستر والقلة الدائمة من الانصار ، ما كفاه للدخول الى الاندلس سنة ١٣٨ والتغلب بالتدريج عليها •وأفاق المنصور من غمرة الاحداث التي حوله ، على هذا الاموي البعيد الدار، وعرف عجزه عن أخذه بالقوة فلجأ الى الحيلة والدهاء : بعث يستميله بالرسل وطفق يطري عزيمته وسماه «صقر قريش» ولكنه لم يظفر بشيء منه ، كما لم يظفر باثارة القلاقل ضده في بلده ، فقد ذكر المؤرخون[١] ثورة عباسية رفع علمها الاسود : العلاء بن مغيث اليحصبي سنة ١٤٦ ببعض نواحي الاندلس ولكن عبد الرحمن هزمها ، وبعث برأس العلاء وبعض أصحابه ، فألقيت سراً في السوق بالقيروان ، كما حمل منها الى مكة ، اثناء حج المنصور ، فبعثرت هناك ، ومعها العلم الاسود وكتاب كتبه المنصور للعلاء ••• ومنذ ذلك الدرس تيقن المنصور انه ليس بطائل الاندلس بنفسه ، فأخذ يتقرب من ملك الفرنجة ليعينه عليهـا • أي أضحى موقفه منها جزءاً من سياسته الخارجية •

٣ ــ الطامعون من آل محمد :

كان المنصور على يقين من انه لاخطر على عرشه من الامويين ،وان لا نصير لهم ، عنده من القوة ما يهدد دولة بني العباس • ولكن الخطر كان من أهله أنفسهم على هذا العرش الجديد : من عشيرته الاقربين بني العباس ، ومن اولاد عمه آل ابي طالب • ولقـد استطاع أبو جعفر أن

---

(١) ابن الاثير ج٥ ص ٥٧٥

ينقذ خلافته من الطرفين بالقوة وبالخداع ويحفظ الملك في بنيه خمسة قرون :

اولا ـ المشكلة العباسية :

تمرد عبد الله بن علي : هو عم ابي العباس وقائده الذي هزم مروان بن محمد • ويظهر ان ابا العباس وعد من يقضي على مروان بولاية العهد فلم يتقدم لذلك سوى عبد الله • وقد استصفى الشام لابن اخيه وتولاها من قبله • وكان ينتظر ان يؤول الامر اليه ولذلك فوجيء حين وصله خبر البيعة لابي جعفر المنصور ، وهو في موضع دلوك (شمال حلب) في الطريق الى حرب الروم بناء على تكليف أبي العباس • فنادى : الصلاة جامعة • وخطب في الجند والناس ان الامر له وبايعه الذين معه : وكان عامتهم من أهل الشام الذين يتمنون اضطراب الامر العباسي فتبعوه ، كما كان فيهم (١٧) الفاً من الخراسانيين الذين لا يعرفون سوى الولاء للقائد • وسار عبد الله بجموعه شرقاً باتجاه شمال العراق (أو خراسان) لينحدر منها عائداً الى جنوب العراق •

وإذا كان تاريخ عبد الله في خدمة الحركة العباسيةوفي إقامةالدولة، حافلا بالمآثر ويكفيه منه أنه أقامها ووطدها في دار ملك الأسرة السابقة بعد أن أخمد مختلف ثورات الشام فإن ثورته لم تكن ضد الدولة العباسية ولكن ضد شخص الخليفة • كانت شخصية اذن وليست لمبدأ ولا سند لها من دعوة سابقة أو وعد بخير مقبل أو حق مهضوم سوى ما ادعاه عبد الله بن علي نفسه من وعد أبي العباس له بالخلافة من بعده ويمكن بهذا الشكل اعتبارها أول مشكلة من مشاكل ولاية العهد في دولة بني العباس كما قد تعتبر استمراراً وشكلا جديداً لهذه المشكلة القديمة في العهد الأموي •

وتكشف المداولات التي ذكر المؤرخون انها دارت بين أصحاب عبد الله وقواده مدى الاضطراب والتردد الذي سادهم بسبب ثورته المفاجئة . وإذا تبعه بعض جنده من الخراسانية الذين لم يكن يهمهم إلا «الرضا من آل محمد» دون تحديد ولم يكن أبو جعفر الذي استخلف بذي علاقة معهم تفرض عليهم أي عبء معنوي تجاهه ، فإن الخراسانية حذروه من الشقاق وانسحب بعضهم من تأييده ثم غادروه بعد أن قتل بعضهم (كالهيثم بن زياد الخزاعي) وتآمر على بعضهم الآخر (كحميد بن قحطبة الطائي الذي دبر اغتياله في حلب فأحس بالأمر وخرج الى العراق) . ورفض ولاة أذربيجان وأرمينية وسميساط وحران تأييده لا لأنهم غير مرتبطين بنفوذه فحسب ولكن حفاظاً ، مع الآخرين ، على روابطهم مع أبي العباس وأخيه ابراهيم الامام ومع أبيهما محمد وهم أصحاب الدعوة الأساسيون .

وقد عوض عبد الله عن هؤلاء التحاق عدد كبير من أهل الشام به. يذكر البلاذري وابن قتيبة والمدائني أن أغلب القوادوالأشرافوالشيوخ الذين مشوا معه كانوا من الشاميين ، ومن «موالي بني أمية» «وفرسان أهل الشام» ومن «رجال مروان بن محمد» الذين ثاروا من بعده ثم هادنوا عبد الله بن علي . ولعل تنظيم عبد الله لدولته الجديدة يدل على هوية ثورته فإنه قد عين عدداً من زعماء الشام لأعماله : سمى زفر بن عاصم المهلبي لقنسرين والحكم بن صبغان لفلسطين وعثمان بن سراقة الأزدي لدمشق ومنصوراً الكلبي للشرطة كما كان من قواده البارزين بكار بن مسلم العقيلي . وهذا ما جعل ثورة عبد الله بن علي بجانب كونها شخصية . ثورة محلية ذات طابع شامي سواء في موقعها الجغرافي أو في جندها . أو في أطماع عدد من رجالها . وما من شك في أن

الشاميين وجدوا في ثورته الأمل في الخلاص من الدولة «الخراسانية» الجديدة وفي أن يستردوا وتسترد الشام معهم مركزها السابق في العهد الأموي • وكان من التناقض الخطر في حركة عبد الله بن علي أنها تستند الى جيش ذي ميول أموية في الغالب لتحقيق مطمح سياسي عباسي •

ويبدو أن أبا العباس وأبا جعفر كلاهما كانا يخشيان عمهما ويتوقعان أن يثور إذا اعطيت الخلافة لغيره • فأبو العباس عند موته كلف عيسى بن موسى (الذي صارت إليه ولاية العهد) أن يبعث وفداً برئاسة أبي غسان يزيد بن زياد حاجب أبي العباس ليخبر عبد الله بوفاة الخليفة واستخلاف أبي جعفر وأخذ البيعة منه • وأبو جعفر ــ ما كاد بدوره يصل العراق ــ ولم تكن ثورة عمه قد أعلنت بعد ــ أمر كذلك جيشاً يقوده صالح بن علي العباسي بالتحرك إلى الشام لأخذ البيعة بالقوة إن لزم الأمر • وكان ما توقعه أبو جعفر • فلم يجد الخليفة في قواده خيراً من أبي مسلم الخراساني يقاتل عمه • وقد أرسله بالرغم من شكه فيه وضيقه منه لأنه كان يخشى أن يتحرك أبو مسلم في خراسان والجيوش العباسية مشغولة في الشام • كما كان يأمل التخلص من أحدهما كما قال وزيره المورياني • « نحن لابي مسلم أشد منا تهمة لعبد الله . الا انا نرجو واحدة » •

والواقع أن أبا جعفر كان يرجو بجانبها واحدة أخرى هي أن يستطيع أبو مسلم اجتذاب الخراسانية الثائرين مع عبد الله بما له عليهم من دالة وصلات سابقة •

ولما كان أبو مسلم نفسه غير راغب في قتال عبد الله فقد قال ــ على رواية اليعقوبي ــ : «أمضي الى خراسان وأخلي بين هذين الكبشين فأيهما غلب كتبنا له ، سمعنا وأطعنا ، فرأي انا قد انعمنا عليه ...[1]»

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص٣٦٥ (طبعة بيروت ١٩٦٠)

ولكن كاتبه اقنعه بعكس ذلـك الرأي ، وتأمل ان يضيف الى مجده الحربي ، نصراً على عبد الله العباسي ، وذلـك بالتأثير على من معه من الخراسانية • وقال : «انما عامة جنده ومن معه من أهل خراسان وهم لايعصونني» •

بلغ من اهتمام أبي جعفر بالمعركة أنه أنفق على جيشه ما بين ١٢ الى ١٨ مليون درهم وزاد في أعطيات الجند وخرج فجعل معسكره عند دير الجاثليق على نهر دجلة وألحق بأبي مسلم جيشاً آخر يقوده الحسن بن قحطبة • ووزع الجند في المراكز الاستراتيجية على نهري الفرات ودجلة باتجاه الشام وبعث الى عبد الله قائداً من قواده (محمد ابن صول) يدعي الولاء له ليتجسس عليه ••• وقد قتل عبد الله هذا المتجسس إذ كشف أمـره •

وحين سار أبو مسلم في اتجاه الشام كان عبد الله بن علي قد سار يحاصر حران على صاحبها مقاتل العكي الذي ظـل على الولاء لأبي جعفر وأخذ المدينة بالأمان بعد أربعين يوماً من الحصـار[1] ثم ذهب فتحصن في بلدة نصيبين حين علم بوصول أبي مسلم إليه •

وقد استمرت الحرب بين القائدين خمسة شهـور من مطلع سنة ١٣٧ هـ «وأهل الشام أكثر فرساناً واكمل عدة» كما يقول الطبري ولم يظفر ابو مسلم من عبد الله بغرة أول الامر ، ولا سجل عليه نصراً ، لأنه تحصن في المناطق الجبلية بنصيبين • ولكن سوء تدبير عبد الله أوقعه في النهاية مهزوماً فقد :

---

(١) بعث عبد الله بمقاتل العكي مع ابنيه بالامان الى واليه عـلى الرقة : عثمان بن عبد الاعلى الازدي فقتله . ثم أخرج ابنيه بعد هزيمة عبد الله فقتلهما (الطبري ٤٧٥/٧).

١ ــ أضعف عبد الله جيشه حين استراب بالخراسانيين فقتل آلافاً منهم تبلغ سبعة عشر ألفاً (؟)[1] واستراب بحميد بن قحطبة الطائي فبعث به الى والي حلب لقتله ، فعرف حميد الامر ، وتحول الى ابي مسلم يعاونه ، ويدل على مواطن الضعف في عبد الله .

٢ ــ خدع ابو مسلم عبد الله عن مركزه الحصين ، اذ اعلن انه ماجاء الا" والياً على الشام ، وانه لن يقاتل . فخاف الشاميون على اهلهم وذراريهم فانسحبوا لحمايتها . واضطر عبد الله لمسايرتهم . فلما ترك نصيبين رجع ابو مسلم فتحصن فيها .

٣ ــ كانت المعركة الاخيرة في السابع من جمادى الاخرة سنة ١٣٧ . فمزق ابو مسلم جند عبد الله واضطره للفرار . ومنع ابو مسلم جنده من تعقبه . فمضى عبد الله الى أخيه سليمان والي البصرة فاختفى عنده وهرب أخوه الآخر عبد الصمد على الذي كان مسمى لولاية العهد وولاية الجزيرة فقبض عليه في الرصافة . وألح المنصور على عمه سليمان باظهار عبد الله ، واعطاه الامان[2] . ويقال انه اخذ من عبد الله البيعة ايضاً ولكنه حبسه لما ظهر . وابقاه في السجن تسع سنوات[3] بحجة

(١) انظر الطبري ج٧/٤٧٥ (٣/٩٤) وص٤٨١ (٣/١٠٢-١٠٣)

(٢) قصة هذا الأمان معروفة في تاريخ الادب فقد كتبه عبد الله بن المقفع الكاتب المشهور وتأنق في صوغه وفي إحكام ثغراته حتى لا يكون فيه مجال لنقض . وقد كلف ذلك ابن المقفع حياته لأنه قتل بسببه . ونجد النص الكامل لهذا الأمان خاصة في كتاب ابي بكر الأزدي ــ تاريخ الموصل ص ١٦٧-١٧٠

(٣) حاول المنصور قتل عمه بواسطة عيسى بن موسى ولما الح عليه أخبره عيسى انه قتله . وعند ذلك حرض المنصور اعمامه لأخذ ثار أخيهم من عيسى كي يتخلص منه بعد ان اعطى منصبه ــ اي ولاية العهد ــ لابنه المهدي فلما ثار الاعمام على عيسى اخرج عبد الله من السجن فاذا هو ما يزال حياً . وفشلت مؤامرة المنصور على الاثنين .

الخوف عليه من الخراسانية • ثم قتله سنة ١٤٧ هـ في ظروف غامضة ويقال إنه جعله في بيت أساسه ملح ثم افاض عليه الماء فانهار عليه •••

ولم يستثمر أبو مسلم نصره في نهب بلاد الشام أو إذلال أهلها ولا ولايتها أملا في العودة لقواعده في خراسان وحين ذهب وفد من الشام الى أبي جعفر معتذراً مستغفراً عن «الفتنة» التي أثارها عبد الله بن علي و«أغرى» بها الشاميين قبل الخليفة اعتذارهم ورد أملاكهم وضياعهم التي كان صادرها • على أن خزائن عبد الله بن علي وما فيها كانت من مشاكل أبي مسلم والخليفة والجند • فقد اعتبرها أبو جعفر من حقه وحده بينما احتوى أبو مسلم عليها • وطالب قادة الجند الخراسانة بأربعة أخماسها باعتبارها غنيمة • وتنازل أبو جعفر عنها لهم وزاد فضاعف لهم الجزاء •

ثانيا : المشكلة العلوية : محمد نفس الزكية ـ الثورة العلوية :

كانت البيعة لابي العباس مفاجأة غريبة دون شك للغلاة من العلويين ، كما كانت موضع اشمئزاز ونفرة لدى آل علي انفسهم • لان الطامحين منهم اعتبروها خدعة • واذا صح خبر المؤتمر الهاشمي الذي يتحدث الطبري والأزدي ، والاصفهاني والبلاذري وصاحب الفخري[١] انه تم في «ذيل دولة بني أمية» في موقع «الأبواء» قرب مكة سنة ١٢٧ / ٧٤٤ بدعوة من عبد الله المحض ـ على ما تذكر بعض الروايات ـ واتفق فيه على الدعوة السرية ، والبيعة لذي النفس الزكية : محمد بن عبد الله المحض ابن الحسن بن الحسن بن علي وانه قد حضر المجلس «اعيان بني هاشم علويهم وعباسيهم» ، وفيهم أبو العباس وأخوه أبو جعفر (المنصور) والامام جعفر الصادق •• واذا صح ذلك فبنو العباس خالفوا تلك البيعة الرسمية فيما بينهم وحرموا «الرضا من آل محمد»

(١) الفخري للطقطقي ص ١١٩

حقه • وربما لم يكن حديث المؤتمر صحيحاً بالشكل الذي ورد ولعله انفض دون اتخاذ قرار بالبيعة وهو الارجح ، ولكن ذلك يعني بالنسبة لنا شيئا هاما هو ان ابرز الطالبيين لدى قيام الامر العباسي هو محمد الملقب بالنفس الزكية من آل الحسن • يدل على ذلك ايضاً ان يزيد بن هبيرة كاتبه ، وهو محاصر في واسط ، يحرضه على طلب الامر لنفسه • ومع أن الامام جعفر الصادق لم يكن بأقل شاناً في رجال آل البيت من محمد ذي النفس الزكية إلا إنه فيما يبدو لم يكن بذي مطامح سياسية حتى إنه فيما يذكرون عارض في مؤتمر الأبواء مطامح محمد هذا وتنبأ للعباسيين بالخلافة •

وقد صانع ابو العباس آل علي جميعاً • ولعله كان يشعر بحقهم وبمرارة الخيبة التي منوا بها فسلك معهم سبيل الاكرام ، وخاصة آل الحسن منهم • وبالرغم من ان محمداً النفس الزكية رفض البيعة لابي العباس فقد قدم عبد الله المحض (والد النفس الزكية) على ابي العباس «فبره وآثره ووصله بالصلات الكثيرة ــ كما يقول اليعقوبي ــ وكان اذا بلغه عن محمد بن عبد الله امر يكلم اباه حتى اخذ منه عهداً بالولاء ، قال فيه «لك عهد الله وميثاقه ألا ترى منهما (أي من ولديه محمدواخيه ابراهيم) شيئاً تكرهه ماكان محمد في الدنيا وطفيء امر محمد في خلافة ابي العباس ، فلم يظهر منه شيء[1] •••»

---

(١) قال ابو العباس لعبد الله المحض :

اريد حباءه ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

فأجابه عبد الله :

وكيف يريد ذاك وانت منه بمنزلة النياط من الفؤاد ؟

انظر اليعقوبي ج٢ ص ٣٦٠

ولعل سياسة أبي العباس مع زعماء العلويين إنما كان سببها ذلك الشك الذي يحيط «بإرث الكيسانية» وبقصة «الوصية» من أبي هاشم الى محمد العباسي • وعدم تسليم آل أبي طالب بأن ذلك يسقط حقهم الشرعي في الحكم الذي تسلمه ــ دونهم ــ العباسيون • ولعل مؤتمر الأبواء خير دليل على ذلك الشك • لهذا أحل أبو العباس التودد محل البطش وصلة «الرحم» محل «شرعية الوصية» في سياسته مع العلويين ولكن ذلك لم يخمد حركات المتطرفين منهم خاصة وقد عرضت لهم الكثير من فرص التحريض على الثورة في العراق وخراسان نتيجة اتصال عدد من الزعماء أو الثائرين بهم ، بدءاً من أبي سلمة الخلال حتى شريك بن شيخ المهري ، مروراً ببسام بن ابراهيم ثم عبد الجبار الأزدي • من بعد •

على ان وفاة السفاح الوشيكة ، وتحول الخلافة الـى اخيه ابي جعفر (المنصـور) ، أثارت المشكلة العلوية وحركت آمـال محمد من جديد : لا سيما وابوه يشيع عنه انه «المهدي الذي بشر به» كما كان اهل الحرمين يحبونه كل الحب • ولا يخفى ما في ذلك من القوة له ، ومن الخطر على مركز الخليفة الديني ، وهو قد اضحى الى هذا وذاك في حل من العهد الذي قطعه ابوه للخليفة الاول ••• وهكذا وصلت الاخبار الى المنصور ان العلويين ، بزعامة محمد يتحركون •

كانت الحركة العلوية في الواقع قد أضحت ــ بعد سحق الأمويين ــ قطب المعارضة للعباسيين وقد نقلت الطوائف الناقمة علـى هؤلاء ولاءها كاملا إلى الجانب العلوي ــ عدا الشام ــ بالاضافة الى أن فكرة « المهدي » كانت من الجاذبية والاغراء بحيث يجتذب الطبقات الفقيرة وزمر البائسين في كل مكان •

ويظهر ان محمداً انتفع من درس الدعوة العباسية فاراد ان ينهج في دعوته وحركته منهجاً في التكتم والسر والتمهيد بالدعاية • فاختفى عن الأعين وبث الدعاة في الامصار ، من أهله : فارسل ابنه عبد الله الى خراسان ثم الى السند وابنه الحسن الى اليمن وثالث أولاده علياً الى مصر واخاه يحيى الى الري وطبرستان واخاه ادريس الى المغرب (ويظهر ان بعض هؤلاء قد ذهب الى هذه البلاد بعد فشل الثورة) اما اخوه ابراهيم فكان ساعده الاول وقد قام بالدعوة في البصرة •

وعلم المنصور ان في الافق العلوي امراً ، فلم يكن همه الا طلب (محمد النفس الزكية) والمسألة عنه وعما يريد • ودعا بني هاشم رجلا رجلاً يسألهم في خلوة ، عنه • فبعضهم هون أمر محمد ، وبعضهم حذر منه ومن وثوبه «فلما حج المنصور سنة ١٤١ هـ وتخلف محمد واخوه ابراهيم عن المثول بين يديه ، لم يبق لديه شك في نواياهما • فعمل بكل وسيلة على تعقبهما ولكن دون جدوى ، لأن الأمر كان قد جاوز مرحلة التمهيد الى العمل الفعلي • وقبض على أبيهما عبد الله المحض وسجنه لانه أبى أن يدله على مقرهما » •

واتخذت مطاردة أبي جعفر لمحمد وابراهيم ابني عبد الله المحض شكل الإلحاح العنيف الذي اضطرهما للهرب من الحجاز اكثر من خمس سنوات (ما بين سنتي ١٤٠ ــ ١٤٥) فإن الطبري يذكر أنهما ، أشفقا حين أخذ أبو جعفر والدهما «فخرجا الى عدن فخافا بها وركبا البحر حتى صارا الى السند فسعى بهما الى عمر بن حفص فخرجا حتى قدما الكوفة وبها أبو جعفر •••» ويروى عن أم ولد لابراهيم قولها : «لا والله ما أقرتنا الأرض منذ خمس سنين • مرة بفارس ومرة بكرمان

ومرة بالحجاز ومرة باليمن ...[1]» ويذكر خبر آخـــر أن ابراهيم ألم بالشام أيضا خلال هربه السري كما ألم بالموصل وقد عرف الفضل بن صالح بن علي العباسي أمره بعد ان كان هرب الى البصرة فكتب بذلك إلى أبي جعفر الذي «أمر بإذكاء العيون ووضع المراصد والمسالح ..»[2] وكان يسأل عنه حتى المنجمين ليجده[3] ...

وفي أثناء ذلك كان المنصور قد جعل وظيفة والي المدينة التحري عنهما . ولهذا اتهم واليه زيادة بن عبيد الله الحارثي بالتساهل ، وسجنه وصادره سنة ١٤١/٧٥٨ . وعزل الثاني محمداً بن خالد القيسري بعد أن أغدق عليه الأموال لعله يظفر بذي النفس الزكية ، وارســـل من بعده رياح بن عثمان بن حيان المري (رمضان كانون الاول ٧٦١) وهو شامي، قيسي ، من تلك القبيلة التي كان منها مسلم بن عقبة المري صاحب واقعة الحرة التي فتكت بالمدينة سنة ٦٤هـ ٦٨٣ الفتك الذريع . فتهدد المدينة بانه «الافعى بن الافعى ... والله لأدعنها بلقعاً» وذكرهم أنه ابن عم مسلم ابن عقبة وسجن ١٣ رجلاً من زعماء الطالبيين وتشدد . فلما تطاول عليه اهل المدينة هددهم المنصور «... لئن لم تنزعوا ليبدلنكم من بعد أمنكم خوفاً ، وليقطعن البر والبحر عنكم ...» واشتـــد رياح في تعذيب آل علي ، حتى بلغ بالناس ان حصبوه في المسجد فاستتر عنهم ، وعمد المنصور عدا ذلك الى بث المتجسسة والعيون من التجار ورقيق الاعراب والمدعين بالولاء العلوي في المدينة وظاهرها ، كما أخذ يبعث بالكتب على ألسنة قواده الى محمد ذي النفس الزكية ، يوهمه انهم معـــه ، ويدعوه فيها

---

(١) الطبري ج٧ ص ٦٢٢ (٣/٢٨٢-٢٨٣)
(٢) المصدر نفسه ص ٦٢٣ (٣/٢٨٣)
(٣) المصدر نفسه ص ٦٢٦ (٣/٢٨٨)

للظهور أو يبعث بها باسم الاقطار الاسلامية ... ولكنه مع كل هذا لم يظفر بمحمد وان ظفر باجباره على تعجل الثورة ، لا سيما حين حج المنصور سنة ١٤٤/٧٦٢ فحمل معه زعماء العلويين المسجونين الى الهاشمية في العراق . وبالرغم من أن الروايات والاساطير تلف بالغموض مصيرهم إلا ان النتيجة منها واحدة وهي أن أبا جعفر أمر بقتل عبد الله ومحمد بن عبد الله العثماني ومحمد بن ابراهيم بن الحسن ، ومات الباقون في السجن، لم يطلق إلا نفراً منهم بعد فشل ثورة ذي النفس الزكية والواقع أن محمداً تألم للنكال الذي نزل بأهله وبخاصة ما شاع من مقتل أبيه[1] وتوهم أن كل الامصار معه فقد خطب بأهل المدينة يوم ثار : «والله ما جئت هذه وفي الارض مصر يعبد الله ، الا وقد أخذت لي فيه البيعة » وأيدت موقفه فتوى الامام مالك بنقض بيعة المنصور (اذ قال لأهل المدينة انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين) وكان محمد قد قرر الثورة مع اخيه ابراهيم في يوم واحد بالمدينة والبصرة . ولكن ظلم رياح بن عثمان لأهله جعله يسبق الموعد ويمشي الى مسجد المدينة في ٢٥٠ رجلا لإعلانها بعد أن هاجم السجن فأطلق من فيه وهاجم دار الحكم فاعتقل رياحاً المري نفسه . أما اخوه فكان اذ ذاك مصابا بالجدري لا يطيق حراكا في البصرة . وقد بين محمد في خطبته الاولى اسباب الثورة بقوله : «... كا نمن امر هذا الطاغية عدو الله ابي جعفر مالم يخف عليكم وان أحق الناس بالقيام بهذا الدين ابناء المهاجرين والانصار ... اللهم انهم قد احلوا حرامك وحرموا حلالك

---

(١) البلاذري والمسعودي يذكر ان اعتقال اقرباء محمد وما شاع عن مقتل أبيه كان السبب في ثورته بينما يذكر الطبري والاصفهاني أن السبب هو اعتقال اخيه موسى الذي فشل في الدلالة على مكمن اخيه محمد لوالي المدينة رياح المري فاعتقله وارسل الى الهاشمية مما اضطر محمدا للظهور واستنقاذه .

وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت ••• اللهم فاحصهم عدداً واقتلهم بدداً •••» وهو يتهم كما نرى ابا جعفر (المنصور) بالطغيان وبالخروج عن حدود الله ويعلن حق أهل المدينة من المهاجرين والانصار (ليتألفهم) في الخلافة لاحقه الشخصي فيها ، ويعرف هذه الخلافة بانها «القيام بالدين» •••

أما أبو جعفر فكان يبني بغداد حين وصله خبر الثائر العلوي : فأوقف البناء واتجه لمعالجة الموقف • ويظهر انه لم يكن يريد الحرب ، إما خوفاً من قوة محمد أو لعدم استعداده ، أو لظهور حجة العلويين وميل الناس اليهم وحاجته لان يجد عذراً يبرر حربه لهم •

كما يظهر ان ابا جعفر اهتم بهذه الناحية الاخيرة اهتماماً واضحاً، لا سيما لدى الخراسانيين • فقد خطب فيهم منددا بآل علي مستعرضاً تاريخهم من وجهة نظره • ثم قال في ختام خطبته : «••• اني والله ياأهل خراسان ما أتيت من هذا الامر ما اتيت بجهالة • بلغني عنهم بعض السقم والتعرم • وقد دسست لهم رجالاً فقلت : قم يافلان قم يافلان وخذمعك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالاً يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة ، فدسوا اليهم تلك الاموال ، فوالله مابقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير الا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم واموالهم ، وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي ، وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي • فلا يرون اني اتيت ذلك على غير يقين •• وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل باشياعهم من قبل انهم كانوا في شك مريب[1]» •

---

(١) المسعودي ج٣ ص٢٢٦

ويظهر انه لهذا السبب آثر المنصور مراسلة محمد النفس الزكية، ومقارعته بالحجة اولا . اذ ان تلك المراسلات (والطبري يذكرها كاملة بنصوصها [١]) لم يكن لها من أثر في موقف الطرفين السياسي ، فكأنما كتبت للدعاية فحسب، وليس لاقناع الخصم. وشأنها ينحصر في احصائها احصاء واضحاً حجج كل من العلويين والعباسيين في حق الخلافة .عدا ايضاحها موقف كل منهما من الآخر اذ ذاك . وخلاصة تلك الرسائل :

١ ــ رسالة من المنصور يتوعد فيها محمداً ثم يعده إن رجع ، بالأمان له ولأهله ومن اتبعه وبمليون درهم .

٢ ــ جواب من محمد يبيّن فيه حقه ، ويعيرّ المنصور بهجنته . ويعرض عليه الأمان ايضاً دون ان ينسى تعييره بالغدر .

٣ ــ جواب من المنصور يبين بالحجة الفقهية حق العباسيين،وقيامهم بالعمل للخلافة حين عجز العلويون .

ومن الطريف أن أبا جعفر حين علم بثورة محمد وجد نفسه في حاجة الى استشارة عمه عبد الله بن علي بالرغم من أنه في سجنه . قال : «إن هذا الأحمق لايزال يطلع له الرأي الجيد في الحرب» وسأله فلما احتج بأن المحبوس محبوس الرأي قال أبو جعفر : لو جاءني حتى يضرب بابي ما أخرجتك . وأنا خير لك منه وهو ملك أهل بيتك . وقد ندد عبد الله أمام قادة أبي جعفر ببخله : «إن البخل قد قتله» ولكنه أشار بأن يجثم أبو جعفر فوراً على اكباد أهل الكوفة لأنهم شيعة أهـل البيت

---

(١) الطبري ج٧ ص ٥٦٦ فما بعد (٢٠٨/٣ فما بعد) ويذكرها كذلك البلاذري وابو زكريا الأزدي وابن عبد ربه وصاحب العيون والحدائق والمبرد . وينقلها عنهم معظم المؤرخين المتأخرين كابن الأثير وابن الجوزي والذهبي وابن خلدون .

وأنصارهم وأن يحفها بالمسالح (أي النقاط العسكرية) فلا يخرج أحد ولا يردها أحد إلا قطع عنقه • وأضاف أن على أبي جعفر أن يأتي بسلم ابن قتيبة من الري مع جنده وأن يكتب الى أهل الشام ليبعثوا إليه من أهل البأس والنجدة ما يحمل البريد ، وأن يحسن جوائز الجميع ويفرق الأموال لأنها سوف تعوض[1] •• وكانت هي نفسها الخطة التي اتبعها أبو جعفر • إذا استدعى الجند من الري والشام • وأقام بقسم منهم في الكوفة يقوم فيها بالمناورة اليومية وبإيقاد النيران بالليل كي يوهم الناس بكثرة عدده بينما بعث بأربعة آلاف فارس وألفي راجل ـ على قول المسعودي ـ عليهم ابن أخيه وولي عهده (عيسى بن موسى) ثم أردفهم بعد قليل ، بمحمد بن قحطبة في جيش كثيف • وكان اختيار عيسى لهذه المهمة أمراً مبيناً • فالمنصور أراد ان يتخلص منه • وقال : «لا أبالي أيهما قتل صاحبه» عدا ان الحاجة ماسة لوجود قائد هاشمي على رأس جيش يحارب علوياً كبيراً وفي المدينة •

على أن موقف محمد في المدينة لم يكن بالقوي ، في غير عطف الناس • فلا أخوه ثار في البصرة لتتوزع قوة المنصور بينهما • ولا الحجاز بالبلد الغني فيكفي فيه أصحابه • إذ لا مال فيه ولا سلاح ولا رجال ولا كراع • كما قيل وقتئذ له[2] وقد قطع الخليفة الميرة من الشام ومن مصر عنهم • وحفر محمد خندقاً حول المدينة (اقتداء بالرسول)فكان ذلك خطأ في الاستراتيجية العسكرية لأنه أتم بذلك حصارها الاقتصادي•

---

(١) الطبري ج٧ ص ٥٦٥ (٣/٢٠٦ـ٢٠٧)

(٢) ـ قيل لمحمد ان يخرج لمصر فرفض وقيل له : ألست تعلم انك في اقل بلاد الله فرساً وطعاماً وسلاحاً واضعفها رجالا . ألست تعلم انك تقاتل أشد بلاد الله رجالا واكثرها مالا وسلاحاً ؟

وخطب في أصحابه يخيرهم بين المقام معه أو الانصراف ــ وكانوا على تقدير الطبري ــ مائة الف فتسللوا حتى بقي في شرذمة ليست بالكثرة أغلبها من جهينة وبني شجاع وكاتب عيسى بن موسى بعضهم فتخلوا عنه .
وهكذا تجمعت الاسباب لإحباط امر محمد الثائر . وبينما كان بنو غفار ذوي الميول العباسية يسهلون دخول الخراسانية الى المدينة . قامت احدى العباسيات بخدعة لجند محمد[1] فانهزموا عنه في المعركـة حتى قتـل (١٤ رمضان ١٤٥/٦ كانون الاول ٧٦٢) ...وحمل رأسه الى أبي جعفر في العراق ليطوفه في أسواق الأقاليم ..

وإذا كانت للهزيمة ذيولها في الأوساط العلوية نقمة ويأساً فقدكان لها في المدينة ذيول من نوع آخر غريب . لقد ثارت فيها الطبقات الدنيا من العبيد لا من أجل المعاش ولكن حمية لأسيادهم المهانين ... ذلـك أن المدينة وقعت إثر الهزيمة فريسة الاضطراب والفوضى . وزاد في آلامها صفوف الإذلال التي تعرضت لها من مصادرة املاك الثائرين وتعسف السلطة وسوء تصرف الجند الخراساني . وقد تأثرت طبقات الفقراء والعبيد بالاضافة الى التجار بالحصار أولاً ثم بما أعقبه من نهب ومصادرة وعدوان على الناس والأموال . ثم وصل والي المدينة الجديد عبد الله ابن الربيع الحارثي في شوال سنة ١٤٥/كانون الثاني سنة ٧٣٦ فلم يفعل شيئاً لإيقاف جنده عند حدهم مما ملأ الناس تذمراً . فانفجرت الاضطرابات[2] في الأسواق من قبل العبيد السودان خاصة والموالي الذين ثاروا (في ٢٣ ذي

---

(١) دست الى المئذنة من صاح فيها بهزيمة محمد العلوي فتفـرق بقية المقاتلين عنه .

(٢) نجد تفاصيل الثورة في الطبري خاصة ج٧ ص ٦٠٩–٦١٤ (٣/٢٦٦ – ٢٧١)

الحجةسنة١٤٥لأسيادهم العرب ــ وربمابتحريض منهم ــ فقتلوا عددامن من الجند ونهبوا دارين كانا مخزنين لطعام الجند وفي هذا دليل على أن قلة المؤن وتهديد المجاعة كانا من محرضات هؤلاء الفقراء على الثورة • وقد تجمعوا بسرعة بعضهم الى بعض حين نفخوا في الابواق وتزعمهم زعماء منهم (وثيق ، يعقل الجزار ، رمقه ، مسعر ، أبو النار ،عنقود، أبو قيس) وأخرجوا المساجين من السجون بينما هرب والي المدينة الى ظاهرها وهم يطاردونه ••• كانت آلامهم الاقتصادية والاجتماعية قد أزدوجت مع آلام المدينة وأهلها فثاروا •

وشعر كبار أهل المدينة بالخطر فالزمام أفلت منهم لأن السودان «لا نظام لهم بدعوة وإنما أخرجتهم الحمية» وخافوا النكال من أبي جعفر و «اصطلاح البلد وأهله» فتزعم التهدئة جماعة منهم الاصبغ بن سفيان والحكم بن عبد الله والقاضي محمد بن أبي سبرة الذي كان في السجن لميوله العلوية فأخرجه السودان في الحديد فصار يصلي بالناس ••• فعادوا بهم الى المسجد ، ثم ذهبوا الى الوالي الهارب فأعادوه••• وانتهت الثورة بقطع أيدي أربعة من زعماء السودان المتمردين •

بالثورة السابقة لثورة ابراهيم بن عبد الله المحض (التي انتهت بالخلاص من العلويين) : وقد ثار ابراهيم في البصرة في مطلع رمضان سنة ١٤٥ أي بعد شهرين من اعلان أخيه محمد الثورة في المدينة لكن لم ينتفع الأخوان من توافت الثورتين لأن ابراهيم إنما خرج قبل أسبوعين فقط من مقتل أخيه ومع أن البصرة لم تكن دار ثورة لمثله بسبب مركزها الاقتصادي وموقعها في أقصى جنوب العراق وتنوع السكان والأهواء فيها ، وإيمان غالب أهلها «بالكف» «وعدم القتال» ورفض كل سلطة ، إلا إنها وقفت بجانب ابراهيم بسبب رفضها للعباسيين لا بسبب التشييع

لآل علي. وغلب الرجل على المدينة واستطاع أن يصرف بالحسنى والي البصرة العباسي (سفيان بن معاوية المهلبي) ويحتل دار الامارة ويتسلم بيت المال فيوزع ما فيه على أصحابه والطبقات الفقيرة المضطهدة التي كانت عدة لكل ثائر ٥٠ درهما للفرد. وكان في ديوانه للجند ٤ آلاف بصري وشذازة الفقهاء والمعتزلة والزيدية وأيده الامام ابو حنيفة وسفيان الثوري وبايعه الناس بعد مصرع أخيه ، وانتشر امره فيما بين البصرة الى واسط حيث كان يكثر الزط والزنج والقبط الفلاحون والمحرومون.. لكن الصدفة لعبت دورها في انقاذ الخليفة ابي جعفر : ذلك انه لم يكن لديه في موقفه الحرج أكثر من الفي رجل فكتب الى عيسى بن موسى ان يترك المدينة ويرجع بالرجال لقتال ابراهيم واستطاع — (وهو في جوار الكوفة — أن يأخذ هذه المدينة بالشدة والإرهاب قبل أن يصل إليها ابراهيم ففرض فيها الاحكام العرفية . ونظم الجند في ثلاث كتائب تقوم بأعمال الدورية في المدينة وتتناوب الدخول إليها وتوقد النيران الكثيرة في الليل بالمعسكر للإيهام. ومنع الدخول والخروج من الكوفة وأخذ تعهداً من بعض رجالها بالسكينة .. وفي الوقت نفسه أرسل أبو جعفر فاحتل الأهواز بواسطة خازم بن خزيمة وطرد والي ابراهيم عليها . وأتى من الري بسلم بن قتيبة الباهلي وجنوده لاستمالة بني باهلة في البصرة ..

كل ذلك وابراهيم ، بالمقابل متردد بطيء التحرك لا يستجيز لنفسه السير الى الهاشمية ومهاجمة أبي جعفر الذي كان في الواقع تهيء نفسه للهرب واللحاق بابنه في الري ولا مباغتة الكوفة لئلا تقع مجزرة يذهب فيها الابرياء وفضل مواقعه الجيش العباسي نفسه وجهاً لوجه . وقد كان ذلك ، اذ سرعان ما جاء الخبر أن ثورة المدينة قد أخمدت . وعاد عيسى المنتصر في ١٥ ألفاً فلقي ابراهيم سائراً نحو الكوفة في حوالي

عشرة آلاف • وكانت المعركة في باخمري (جنوب الكوفة) وهزم ابراهيم وقتل (٢٤ ذي القعدة سنة ١٤٥/١٣ شباط سنة ٤٦٣) بعد سبعين يوماً من مصرع أخيه • وحين وصل رأسه الى أبي جعفر تنفس الصعداء وقال :

وألقت عصاها واستقرت بها النوى　　كما قر عيناً بالاياب المسافر

أما قلق أبي جعفر وحرج مصيره في تلــك الأيام العصيبة فلعله يصورها ما رواه الطبري عن «السندي» وصيف أبي جعفر القائم بالمذبة على رأسه قال : «••• لما كشف أمر ابراهيم وغلظ أقام (أبو جعفر) على مصلى نيفاً وخمسين ليلة ينام عليه ويجلس عليه وعليه جبة ملونة قد اتسخ جيبها وما تحت لحيته منها • فما غير الجبة ولا هجر المصلى حتى فتح الله عليه [1] •••» •

وعلى أثر هذه الانتصارات على العلويين اتخذ أبو جعفر لنفسه لقب المنصور : بما يحمل اللقب من مفهوم ديني واسطوري تنبؤي •

٣ ـ مشكلة الخوارج :

تلك الخلافات التي جرت خلافاً بين اقرباء وابناء عمومة واخوة، على أمر مقرر فيما بينهم انه لهم • ولكن تلك الفرقة المسلمة (الخوارج) التي ترى ان الخلافة حق لكل مسلم ، كانت ما تزال منبثة بين المسلمين• ولم يكن رأيها في البيت الحاكم الجديد ليختلف عن رأيهــا في البيت البائد : فكلهم لا يصلح للخلافة ، ولم يختر اختياراً حراً صريحــاً ولم يستوف الشروط التي يجب توفرها في الإمام وكلهم يجب الخروج عليه ومقاتلته ، وعزله ان امكن وقتله •

---

(١) الطبري ج٧ ص٦٣٩ (٣/٣٠٦)

على أن المجموعة الخارجية كانت منذ أواخر العهد الأموي قد اختلفت عن عهدها الاول قبل قرن في ثلاثة أمور :

أ ـ كانت كتلة الخوارج من العرب وخاصة البداة فانضاف إليهم قبيل العهد العباسي بعض الايرانيين في فارس وكرمان وسجستان وخراسان وأعداد هائلة واسعة من البربر في افريقية والمغرب •

ب ـ كانت قضيتهم سياسية فقط فأصبحت سياسية اجتماعية • وكانوا يثورون لمشكلة الحكم فصار العدل الاجتماعي ورفض الظلم والدفاع عن الضعفاء من عقائدهم المحركة •

حـ ـ وكانت المواقع الجغرافية التي يتمركزون فيها ، في العهد الأموي هي الاقاليم المركزية ما بين الجزيرة والعراق حتى الاهواز وفارس ثم تحولوا منذ أواخر ذلك العهد الى أقاليم أكثر بعداً عن المركز: الى اذربيجان وسجستان وخراسان وكرمان وعمان واليمن وخاصة الى افريقية • كانت الضربات المتلاحقة نوعاً من القوة النابذة جعلتهم يلجأون إلى المناطق البعيدة عن المتناول القريب للسلطة دون أن يتخلوا بالطبع عن مراكزهم الأولى •

وبالرغم من أن قوة الخوارج كانت قد خضدت منذ العصر الأموي الأخير فإن مجيء العباسيين لم يغير موقفهم من الثورة وقد حاربوا بني العباس في صلابة وجلد لايقلان عما كان منهم في عهد بني أمية • ولم يكن قد مضى على أبي العباس فيالعرش سنة واحدة حين تحرك عليه الخوارج :

١ ـ في الجزيرة :

تحرك بريكة بن حميد الشيباني مع قبائل ربيعة ، في الجزيرة ، وهذه القبائل وتلك المنطقة كانت دوماً بؤرة الحركة الخارجية • وقد

انضم الى الثائرين بعض الأمراء الامويين مثل محمد بن سعيد بن عبد العزيز • وامتدت الثورة بين داراوماردين فوجه أبو جعفر ــ وكان والي الجزيرة ــ إليهم مقاتلا العكي فدحر بريكة أولاً فلما تحصن في جبل دارا حاصره حتى لقاه مصرعه •

٢ ــ في اذربيجان :

وثار مسافر بن كثير الشيباني أيضاً في اذربيجان وأرمينية ويعرف بمسافر القصاب[١] • وكان الضحاك بن قيس قد عينه عاملا على هذين الاقليمين قبل أن يقتل سنة١٢٨ وتبعه هناك جماعة كثيرةواستولى على عدد من المواقع (اردبيل ، البيلقان ، قلعة الكلاب •••) فتولى أبو جعفر ، في ولايته للجزيرة وأرمينية ، أمر قتاله وأرسل اليه بأمر أبي العباس القائد محمد بن صول ، الذي تمكن من هزيمته وقتله • وفر أتباعه إلى مناطق سجستان •

٣ ــ في عمان :

وتحرك خوارج عمان الاباضية[٢] وعلى رأسهم الجلندي بن مسعود الأزدي ، الذي أعطى الإمامة وأعلن استقلال منطقته في عاصمته (نزوة) كما تحرك الخوارج الصفرية بزعامة شيبان بن عبد العزيز اليشكري ، في جزيرة ابن كاوان (في الخليج) الذي أعلن أصحابه اختياره

---

(١) البلاذري فتوح البلدان (تحقيق المنجد) ج١ ص٢٤٦

(٢) ــ هم من الاباضية اتباع عبد الله بن إباض وقد توفي زمن عبد الملك وما تزال بقاياهم الى اليوم في زنجبار وحضرموت والمغرب وأما شيبان اليشكري هذا فكان من اتباع الضحاك بن قيس الذي ثار في عهد مروان بن محمد سنة ١٢٧ ثم قتل سنة ١٢٨ وهرب بعض اتباعه وفيهم شيبان الى عمان .

للإمامة أيضاً . فأرسل أبو العباس أحسن قواده خازم بن خزيمة التميمي، سنة ١٣٥ في جيش حمله البحر الى جزيرة ابن كاوان أولاً .ولكن شيبان انهزم أمامه وركب البحر مع أصحابه هاربين الى ساحل عمان لكن الجلندي تلقاهم هناك بالعداء ونصب لهم كمينا فيما يظهر فانتهى الأمر بعد القتال الشديد بمصرع شيبان وأصحابه ...

ووصل خازم بن خزيمة بعد ذلك فنزل الساحل ، عند بقعة صحراوية منه فخرج لهم الجلندي على شاطيء البحر ورفض اعلان الولاء للعباسيين وقاتلهم ثلاثة أيام كانت الحرب فيها سجالاً بين الطرفين حتى أشار بعض أصحاب خازم [1] عليه أن يأمر جنوده فيجعلوا المشاقة على أطراف الأسنة ويرووها بالنفط ويشعلوا فيها النار ليضرموا بها بيوت الخوارج الخشبية . فلما اشتغل الجلندي وأصحابه بعيالهم وبالحريق، تمكن خازم من وضع السيف فيهم فقتل عشرة آلاف منهم حملت رؤوسهم ، عن طريق البصرة ، الى السفاح .

على أن معركة (جفار) هذه وإن أنهت التمرد الخارجي في عمان إلا أنها لم تنه الوجود الخارجي فيها ولا ألغت الإمامة فقد ظل الإباضية هناك على مذهبهم وعلى اختيار إمام منهم فيما بعد . وقبل الولاة العباسيون ذلك وأول وال عباسي على عمان هو الذي دشن سياسة المرونة والاعتراف بالإباضية ونفوذهم في عمان ، فبقوا سادة المنطقة . ولا شك أن السبب الاساسي في ذلك إنما يعود إلى أن طريق التجارة العالمي بين البصرة والهند كان يمر بحراً بخليج عمان وكان العمانيون

---

(١) راجع في تفاصيل ابن الاثير ج٥ ص٤٥١-٤٥٢ والطبري ٤٦٢-٤٦٤ (٣/٧٨-٨٠)

بحارة ممتازين لا بد من ضمان الهدوء في بحرهم لتستقر التجارة ويأمن الطريق •

٤ ـ وما طال العهد بأبي العباس ليرى الثورة الخارجية التي قامت في الجزيرة سنة ١٣٧ بعد سنة من ولاية أخيه ، يقودها ملبّد بن حرملة الشيباني[١] الذي فرض نفوذه ما بين أذربيجان وأرمينية الى تكريت واحتل الموصل وقتل الحاميات العباسية الكثيرة • ولم يستطع قائد المنصور يزيد بن حاتم المهلبي ، أن يمثل دور عمه المهلب بن أبي صفرة فانهزم ، وانهزم من بعده قواد آخرون عديدون ، حتى وصل خازم بن خزيمة في ٨ آلاف مقاتل ولحق بالثائر الخارجي الى ما وراء الموصل في الشمال ، فانتصر وقتل ملبد في مذبحة لم تكن أقل شأناً من وقعة الجلندي ولا مواقع الامويين الاولى •

٥ ـ وتحركت الصفارية في أرمينية مرة أخرى ، فوجه المنصور قائده الحسن بن قحطبة عاملا عليها • واضطر الحسن أمام قوة الخوارج لطلب المدد من الخليفة • وانتهى بأن انتصر عليهم بعد أن قتل ـ على رواية اليعقوبي ـ في يوم واحد ستة عشر الف انسان • ثم انصرف الى تفليس ، فقتل من كان معه من الاسرى أيضاً •

٦ ـ وقد قامت عدا هذا وذاك ثورات أخرى للخوارج في الموصل خاصة ولكن بأعداد تافهة من مائة أو مائتين (كثورة عطية بن بعثر التغلبي وثورة حسان بن مجاهد الوادعي سنة ١٤٨/٧٦٥) ولكنها كانت تمردات ناقمة صغيرة ذات طابع بدوي تجتمع حول قائد ناقم حتى إذا قتل تفرقت •

---

(١) تفاصيل ثورة الملبد لدى الطبري ج٧ ص٤٩٥-٤٩٦ ثم ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩

٧ ـ وثار خوارج اليمن على أبي جعفر سنة ١٤٠ وكانوا بقية تلك الجماعة التي قادها قبل عشر سنوات أبو حمزة الخارجي حتى المدينة . وقد سلط عليهم أبو جعفر سنة ١٤١ أحد قادته الاشداء : معن بن زائدة الشيباني وهو من ربيعة مع تعليمات بأخذ الناس بالشدة فبقي هناك سنوات قتل فيها الكثيرين حتى أحفظ اليمانيين ضده . وحين عين أبو جعفر على البحرين واليمامة عقبة بن مسلم الأزدي اليماني أوقع المجازر الرهيبة بقبائل ربيعة فيها ثأراً لليمانيين .

وإذا رضي المنصور عن عمل الاثنين فانما كان ذلك لخطة سياسة اختطها في الخلاص من خوارج اليمن من جهة وتفجير التحالف التقليدي بين اليمن وربيعة من جهة أخرى وإثارة العصبية القبلية والثأر بينهما لئلا يتفق الطرفان عليه . ونجح المنصور بينما دفع الربعي واليماني ثمن أعمالهما فقتل معن في سجستان من قبل بعض اليمانية كما اغتيل عقبة اليماني في بغداد .

٨ ـ في سجستان : وتحرك الخوارج في أواخر عهد المنصور في أصقاع ايران الجنوبية في كرمان وفارس وخاصة في سجستان حيث كسبت هذه الحركات ، في الواقع ، بعض العطف من الموالي الايرانيين الذين وجدوا فيها تعبيراً عن نقمتهم المكبوتة ضد الحكم العباسي . وقد كانت أخطر تلك الثورات الخارجية وأهمها وأطولها عمراً تلك التي عرفتها منطقة سجستان(١) .

فهذه المنطقة الداخلية التي تمتد جغرافياً مابين حوض السند وخراسان كانت قد دخلت في إطار الفتح الإسلامي منذ عهد عثمان .

---

(١) يدخل قسم منها في غرب افغانستان الحالية وقسم في ايران .

وعاهدت • وترك لها الحكم العربي أميرها الذي يبدو أنه كان يلقب رتبيل وترك لها دياناتها • وكانت مناطقها الغربية زارادشتية أما في الشرق الجبلي فيبدو أنها كانت بوذية ولها معابدها وفيها أصنام من ذهب أعينها من ياقوت[1] أما عاصمة الامراء فكانت بلدة زرنـج في الاحواض الواطئة وكان الحجاج قد صالح هؤلاء الامراء على أن يدفعوا كل سنة ألف درهم[2] عروضاً لا مالاً • ثم انقطعت هـذه الإتاوة منذ عهد يزيد بن عبد الملك فلم يعد رتبيل سجستان يعطي أحداً من عمال بني أمية شيئاً ••

وفي أثناء ذلك كانت بعض الجماعات العربية قد توطنت في المنطقة وكان قسم واضح منها هو من تلك الجماعات الثورية المهزومة في العراق والجزيرة كما كان بعضهم من أهل الشام • وإذا هرب ابن الأشعث الى سجستان وانتحر هناك فان الجماعات الخارجية وجدت فيها مهرباً بعيداً أميناً واستطاعت أن تشكل فيها بؤرة واسعة ما لبثت أن أضحت ناشطة ديناميكية خطرة • ويروى « أن أول من دعـا أهل سجستان (يعني العرب المستوطنين فيها) الى رأي الخوارج رجل من بني تميم يقال له عاصم أو ابن عاصم » ويبدو أن التوطن العربي كان في المناطق الغربية المنبسطة أكثر منه في المناطق الشرقية

---

(١) يذكر البلاذري ان الفاتحين كسروا صنما من هذا النوع (فتوح البلدان ج٢ ص٤٨٦)

(٢) البلاذري (فتوح ص ٤٩٣) يرد لديه هذا الرقم الذي يبدو إنه يمثل الأتاوة الشخصية المفروضة على الملك وحده لا على المنطقة كلها ، فخراجها تجاوز ارقاما من مثلثات الالوف (انظر البلاذري ص ٤٩١ ، وانظر ابن حوقل ص ٣٥٧ ، وانظر اليعقوبي ص ٢٨٦)

الشمالية الجبلية الوعرة ، كما يبدو أن السكان الاصليين هم من تلك المناطق وهم زارادشتيون لم يقبلوا إلا الاقبال القليل على الاسلام مثلهم كمثل أهل خراسان وايران ولكنهم أكثر من هذا لم يبدو أي اهتمام بالمشاغل السياسية التي كانت تشغل رؤوس الخوارج • ولهذا فقد كانوا ــ فيما عدا من يدخل الاسلام منهم على أيدي الخوارج وعلى المذهب نفسه ــ خارج نطاق تلك المعركة التي كان هؤلاء يقودونها منذ العصر الاموي واستمروا عليها في العصر العباسي • ظلت الحركة الخارجية مذهباً غريباً لجماعة غرباء • ولكن أهل سجستان وأميرها كانوا ينظرون بعين الرضى دون شك الى تلك الملاحم والمعارك التي كانت تقوم بين هؤلاء الغرباء وبين خلفاء دولتهم • أو كانوا يتعاونون بالفعل مع تلك الثورات لأنها على الاقل تنتقم للظلم والتعسف الخراجي الذي كان الناس غالباً ما يلقونه من عمال الدولة وتعطيهم الفرصة للتعبير عملياً عن تذمرهم من الحكم الغريب وأصحابه •

ويبدو أن الثورات العديدة في خراسان ثم ما كان على يدي المنصور من الثورات الاخرى قد سمح لسجستان أن تتابع علاقاتها العادية مع الخلافة العباسية الناشئة دون أن تدفع لها الإتاوة « فلم يدفع رتبيل لعمال أبي مسلم » يوم كان صاحب خراسان أي شيء[1] بالرغم من أنه بعث إليهم ثلاثة عمال واحداً بعد الآخر قبل أن يقتل : بعث مالك بن الهيثم من أهل خراسان الذي طلب من سجستان إخراج من فيها من أهل الشام وأذن من يحميهم بالحرب ويبدو أنه أخرج جماعة من القيسية قبل أن يفتديهم الناس منه بألف درهم ثم أخرجوه

(١) البلاذري ــ فتوح ص٤٩٣

من البلد فبعث أبو مسلم عمر بن العباس من أحفاد حاجب بن زرارة فلما قتلوا أخاه حاربهم وحاربوه حتى جاء بدلا عنه أبو النجم عمران ابن اسماعيل •

وكذلك لم يدفع أمير سجستان شيئا من بعد لأبي جعفر المنصور الذي شغل عنه بما كان على يديه من المشاكل الثورية الى سنة ١٤٥ • فلما استقرت له الامور بعد ذلك اتجه الى فرض نفوذه الفعلي في سجستان وعين لها ابراهيم بن حميد المروزي الذي كان من الطبيعي أن يأخذ الناس بالخراج وأن يطالب رتبيل سجستان الذي كان انحاز الى المناطق الشرقية الجبلية بالإتاوة السنوية[1] •

ويظهر أن عودة النفوذ للحكم العباسي كانت ثقيلة سواء على السكان الاصليين والأمير من جهة أو على الجالية العربية ومعظمها قد أشرب الفكر الخارجي فتمخض ذلك عن ثورة خارجية انفجرت سنة ١٥٠ ولم يستطع ولي العهد المهدي أن يقوم حيالها بشيء كثير وطلب النجدات من أبيه • فقد استدعى المنصور على الفور واليه على اليمن : معن بن زائدة الشيباني • الذي كان قد برهن[2] بعنفه الدموي هناك — تسع سنوات— عن سيرة تشبه سيرة الحجاج في الفتك وإقرار النظام •

وتسمية معن لولاية سجستان وهو المعروف بتعصبه القيسي ضد اليمن يدل على أن الجمهرة الواسعة من عرب سجستان كانت يمنية

---

(١) خليفة بن خياط — تاريخ ج٢ ص٤٣٩ ونجد تفصيل الخبر لدى اليعقوبي — البلدان ص ٢٨٥
(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٣٧٢

كما يدل على محاولة تألف من بها من الخوارج القيسية الشيبانيين وقد رماهم المنصور بمعن رغم كبر سنه « فقدم سجستان وانصرف المهدي وأقام معن وبعث عماله عليها يجبون الخراج سنة ١٥١ • وكتب — كما يقول البلاذري — إلى رتبيل يأمره بحمل الإتاوة التي كان الحجاج صالح عليها • فبعث بإبل وقباب تركية ورقيق • وزاد من قيمة ذلك للواحد ضعفه فغضب معن[١] •••» وقام للحرب ولعل الطلب نفسه لم يكن أكثر من وسيلة لشن الحرب على امير سجستان الذي أعان أو تعاون مع الخوارج دون الدولة ولم يكن لغضب معن سوي هذا التفسير لأنه أعقبه بقصد منطقة الرخج (في الشرق) وعلى مقدمته يزيد ابن مزيد (ابن أخيه) فوجد رتبيل قد خرج منها ومضى الى ذابلستان ليضيف بها • ففتحها وأصاب سبايا كثيرة ••• » « وكانت عدة من سبي وأسر زهاء ثلاثين ألفاً » و « وطلب ماوند خليفة رتبيل الأمان على انه يحمله (معن) الى أمير المؤمنين فامنه وبعث به الى بغداد مع خمسة آلاف من مقاتلتهم فأكرمه المنصور وفرض له وقوده[٢] ••• » بينما « أقام معن لقتال من هناك من الخوارج حتى قتل منهم خلقاً عظيماً وافناهم[٣]» وخاف معن « شتاء الجبال وهجومه فعاد الى بست » من البطاح الواطئة حيث بنى لنفسه منزلا ولكن « قوماً من الخوارج أنكروا سيرته ولما رأوا أنهم لا قوة لهم بمحاربته استعملوا الحيلة فاندسوا

---

(١) البلاذري : فتوح ٤٩٣ — ٢٩٤ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٤

(٢) البلاذري فتوح ص ٤٩٤ وقد اسر في هذه الواقعة رجل اسمه زياد الرخجي سيكون لابنه الذي أسر معه مكانته في البلاط العباسي وهو فرج الرخجي ، وقد روى فرج نفسه بعض مشاهد تلك الواقعة الرهيبة.

(٣) اليعقوبي ج٢ ص٣٨٤ وانظر كذلك اليعقوبي في كتاب البلدان ص٢٨٥ .

مع فعلة كانوا يبنون المنزل وأخفوا سيوفهم في حزم القصب وتربصوا أياما حتى دخلوا عليه وهو يتحمم في قبته ففتكوا به[1]» .

ويتنازع دعوى الفتكة هذه ثلاث هجمات : فالمؤلف المجهول صاحب تاريخ سجستان يعزو مقتل معن الى ظلمه وطغيانه الاداري والمالي فأهل سجستان هم الذين دبروا اغتياله . والمؤرخون اليمانيون كالخزرجي يجعلون ذلك ثأرا قبليا يمنيا قام به اثنان من الحضارمة انتقاماً لأهلهما الذين قتلهم معن في اليمن فلحقوه بالثأر الى سجستان . وباقي المؤرخين ومنهم البلاذري واليعقوبي والطبري[2] ، وهم أقرب المؤرخين لذلك العهد يجعلونها مؤامرة خارجية . وبالرغم من أن الظلم الإرهابي والمالي قد يكون من بعض أسبابها ومن أن الذين نفذوها قد يكونون من اليمن إلا أنها كانت على الأرجح من عمل الخوارج بدليل أن يزيد بن مزيد الذي تسلم الولاية إثر مقتل عمه « تجرد (لهم) فقتل من الخوارج خلقاً عظيماً حتى جرت دماؤهم كالنهر ... »[3] كما قتل أصحاب المؤامرة ومنهم « أبو الغلام الطاقي[4] فلم ينج منهم أحد ... »

واشتدت وطأة (يزيد) على العرب والعجم من أهل سجستان ... فاحتال بعض العرب فكتب على لسانه كتابا الى المنصور يخبره أن كتب المهدي قد حيرته وأدهشته ويسأله أن يعفيه من معاملته (أي من التبعية له) فأغضب ذلك المنصور » كما أغضب المهدي فعزله وأمر بحبسه وبيع

---

(١) البلاذري ــ فتوح ص٤٩٤ ــ واليعقوبي ج٢ ص٣٨٤

(٢) انظر الطبري ج ٨ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٤ والبلاذري فتوح ص ٤٩٤ . وانظر الخزرجي مخطوط الكفاية والاعلام . وتاريخ سجستان (ط . طهران ١٣١٤) .

(٤) البلاذري ص ٤٩٤

كل شيء من زرنج • ثم إن كلم فيه فأشخص الى بغداد فلم يزل بهـا مجفواً ••• »[1] •

غير أ نالخوارج لم يرضهم أن يخرج يزيد سالما معافى عنأيديهم فلحقوه بمؤامرة اغتيال أخرى كانت الاولى والاخيرة من نوعها يقوم بها الخوارج في قلب بغداد على الجسر ويظهر أنهم كانوا جماعة كبيرة حين قاموا بها ••• يقول اليعقوبي إن يزيد « كـان يركب في موكب ضخم من موالي عمه وعشيرته فلم يظفروا له بغرة حتى صار على الجسـر ببغداد فشدوا عليه فترجل فقتل منهم خلقاً عظيماً وضربـوه ضربات بالسيوف وكانت وقعة جليلة ••• فلايعلم أن الخوارج دخلت قط بغداد ظاهرا فقتلت أحدا الا ذلك اليوم ••• » ولكن يزيد نجا من القتلوخرج من المعركـة ببعض الجراح التي « حركت أمره قليلا » ـ كمـا يقول البلاذري ـ لدى بلاط بغداد •••

أما خوارج سجستان فقد كان نجاحهم في قتل معن وإبعاد يزيـد من العوامل التي شجعتهم على متابعة الحركة الثورية متابعة فعالـة • وإذا كانت سجستان قد عرفت بعد ذلك زعيمـا خارجيا اسمـه عامر الشيباني الخارجي ثار مع ألف من أتباعه ثم قتل قبل مضي سنة عـلي ثورته • فا نالتحرك الخارجي هناك سوف يشهد في زمن المهدي والرشيد نشاطاً خطيراً واسعاً وإذا كان عامر الشيباني ، من العرب فسوف يكون الزعماء الخوارج المقبلون في سجستان من الموالي كيوسف البرم مولى ثقيف والحصين مولى ثعلبة وحمزة بن أترك فكأنما ظهرت بهؤلاءوتأيدت المرحلة الثانية للحركة الخارجية التي انتقلت في العهد العباسي مـن

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٩٤ـ٤٩٥

الاحتكار العربي والشكل البدوي الى النطاق الاسلامي الأوسع وإلى أيدي الموالي سواء في المشرق الاسلامي أوفي افريقيا والمغرب .

ولما كانت ثورات الخوارج لمبدأ يعتبرونه من الفروض الدينية فانه لم يكن لمصارعهم المتكررة الا تأثير محدود على انتشار الفكرة الخارجية وعلى معاودة الثورة . وهكذا نجدهم يعاودون الخروج كالعادة دون ملل . ولكن مصارعهم وفشلهم المتكرر وقلة انصارهم كل ذلك دفعهم بعيدا عن مركز الحكم لعلهم يأمنون اليد القوية للسلطة . وإذا كانت ايران أو عمان أو اليمن أو حتى سجستان ماتزال قريبة الموقع من العراق فقد كا ن من حسن الاختيار والتفكير بالنسبة اليهم إنشاء مراكز لهم وقواعد في أفريقية القصية . وهناك في الواقع قامت أقسى الثورات وأطولها عمراً .

٩ ـ خوارج افريقية والمغرب (الصفرية والاباضية) :

كانت منطقة افريقية والمغرب قد ظهرت فيها ومنذ العهد الاموي أسرة حاكمة وراثية محلية لحساب الامويين هي أسرة حبيب الفهري . وكان الوالي الاموي أيام انتصار العباسيين في المشرق هو عبد الرحمن ابن حبيب الفهري الذي استقل بالامر في بلاده دون الاعتراف بخليفة العراق . وكانت الدعوة الخارجية منتشرة متفشية بين البربر خاصة في تلك البلاد ، منذ مطالع القرن الثاني الهجري ، وتجد القبول لديهم بسبب مايجدون فيها من التسوية مع العرب من جهة ومن التعبير العملي الثوري عن استيائهم ورفضهم للظلم ولحكام المركز والمشرق من جهة أخر .

وقد وجد الفكر الخارجي هناك ، خلال العهد الاموي الاخير ، تربته الخصبة فاستغلها وانتشر الانتشار الواسع فلما كان الانقلاب

العباسي اغتنم الخوارج الفرصة فوسعوا من قواعدهم هناك وبرز منهم خاصة مجموعتان :

١) الصفرية (أتباع زياد بن الأصفر وكانوا لا يكفرون العقدة) وقد انتشرت أفكارهم في الاقاليم الغربية من افريقيا (الجزائر الحالية) والمغرب وتزعمهم أبو قرة المغيلي اليفرني الذي أعلن نفسه إماماً في تلمسان سنة ١٣٩ ــ ٧٥٧ ــ ٨

٢) الاباضية وقد استمالوا الناس في المنطقة الممتدة مابين طرابلس وتونس • وانتخبوا سنة ١٣٩ أيضا أبا الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري إماما آخر • وقد سبقت الصفرية الاباضية في الانتشار هناك كما كانت اكثر اتساعا في المناطق وقد استطاعت سنة ١٤٠ ان تحتل القيروان وأن تبني في السنة التالية سنة ١٤١ ــ ١٤٢ مركزا صفريا جديداً هو مدينة سجلماسة • وبذلك انقطع المغرب ــ لفترة ما ــ عن الخلافة في المشرق وخلص للخوارج الذين عرفوا في تلك الفترة عصرهم الذهبي في افريقيا ••• لاسيما وأنهم استغلوا انصراف العباسيين للشرق ومافي الشرق من فتن كما أنهم نالوا تأييد البربر ثم استكملوا أسباب السيطرة على المغرب كله بمقتل حبيب بن عبدالرحمن بن حبيب الفهري على يد الصفارية سنة ١٤٠ وانقراض الاسرة الفهرية التي كانت تسيطر على ولاية المغرب للامويين ثم لحسابها •

ولكن انقسام الخوارج وتصادم الفرقتين إحداهما مع الاخرى دمر السلطة الخارجية الناشئة فقد سارت الاباضية من طرابلس ضد الصفرية الذين احتلوا القيروان بحجة استنكار ماسفكوا من الدماء وارتكبوا من المعاصي والمنكرات والطغيان • واستطاع أبو الخطاب أن

يهزم الصفرية عند القيروان ويدخلها (صفر سنة ١٤١) ويعين لها والياً من قبله هـو عبد الرحمن بن رستم[1] الفارس .

وسير الخليفة أبو جعفر : محمدا بن الاشعث الخزاعي واليا على افريقيا سنة ١٤٣ في خمسين ألفا . بعد أن كان بعض قواده قد فشل في دخول هذه المنطقة سنة ١٤٢ فلم يكن حظ ابن الاشعث بأحسن منه لكنه استطاع بالخديعة والتظاهر بالانسحاب أن يباغت جيش أبي الخطاب ويسحقه (صفر سنة ١٤٤ / نيسان مايس سنة ٧٦١) « وظن ابن الأشعث أن مادة الخوارج انقطعت وإذا قد أطل عليه منهم أبو هريرة الزناتي في ستة عشر ألفا فلقيهم ابن الاشعث وقتلهم جميعا (ربيع الاول سنة ١٤٤) وكتب الى أبي جعفر بظفره وبرأس أبي الخطاب ورتب الولاة في الاعمال وبنى سور القيروان ... » وبلغ من الشدة حد الامر بقتل كل من يحمل اسما أمويا ... ولحق ابن الاشعث بالاباضية في المغرب الاوسط وقتل امامهم الجديد (عبد الله بن حيان لكنه لم يشأ أن يتابع الطريق بعد ذلك ليقضي على الدولة الخارجية الصغيرة التي أقامها عبد الرحمن بن رستم في بلدة (تاهرت) ولا على الدويلات الصفرية في طنجة وتلمسان وفي سجلماسة حيث نصب الصفرية لحكم الولاية أبا القاسم بن سمعون بن واسول المكناسي . فاستمر بعد فترة اضطراب قليلة على ولايته تلك حتى سنة ١٦٨ جعل من نفسه سدا بينها وبين الخلافة العباسية لكن نجاح ابن الاشعث لم يدم طويلا فسرعان ماسقط صريع النزاع القبلي بين قيس ويمن داخل جيشه إذ ثار عليه بعض

---

(١) يراجع في تفصيل هذه الحركات : ابن عذاري ــ البيان المغرب بيروت ج١ (ليدن) ج١ ص ٧١ــ٧٢ وص ٧٨ــ٨٥ ، ابن خلدون ج٤ ص ٤٠٩ــ٤١١ ، وابن الاثير ج٥ ص ٣١٣ــ٣٢٠ (حوادث سنة١٢٦)

الجند المضرية وحاصره وطرده من القيروان سنة ١٤٨/٧٦٥ ...

وقد أرسل المنصور بعده الاغلب بن سالم التميمي (جد الاسرة الاغلبية فيما بعد) الذي نجح في الولاية لكنه صرع بدوره في نزاع مع جنده سنة ١٥٠/٧٦٦ قبل أن يكمل السنتين ... وقد سمح هذا النزاع للحركة الخارجية أن تظهر من جديد فقد تحرك في هذه المرة الخوارج الصفرية : بقيادة أبي قرة بن دوناس اليفربي الذي نصب للامامة، ومشت معه قبائل زناتة أكبر قبائل البربر وأكثرها تشبعا بالمبدأ الخارجي. وتجمع الاباضية وراء امام من أبرز الائمة المحاربين هو أبو حاتم يعقوب ابن حبيب . واضطربت سياسة المنصور تجاه المغرب حتى إنه عين الحسن ابن حبيب الكندي قائد التمرد ضد الاغلب واليا على أفريقية املا في ان يجد لديه الغناء وفي انتظار العثور على قائد في مستوى المسؤولية وقد وجده في أبي جعفر عمر بن حفص العتلي المهلبي (من ولد قبيصة بن ابي صفرة) وكان يعرف « بهزارمرد » وهو لقب فارسي يعني ألف رجل ..

قدم ابن حفص القيروان في صفر سنة ١٥١ في ظرف كان فيه البناء الاقتصادي في افريقيا والمغرب قد اضطرب نتيجة الاضطراب السياسي والقحط فكثرت المجاعات وضروب البؤس والفقر مما جعل تحرك الخوارج عاما . وخرجت جموع البربر من كل فج مرة واحدة فأضحت الحاميات العباسية في أفريقيا أشبه بالجزر المحاصرة ضمن المجموع الثائر ويبدو أن ابن حفص استطاع أول الامر اقرار الهدوء في المنطقة ثلاث سنوات ثم انفجرت الثورة في جميع المغرب وافريقيا : أجمعت كافة القوى الخارجية على التحرك مرة واحدة: أبو قرة ، وابن رستم ، وأبو حاتم وقرى أخرى عديدة تزيد على اثنتي عشرة يذكرون

لها أرقاما هائلة من المقاتلة[1] .

وبينما كان ابن حفص في بلدة طبنة يعمل على إخماد الثورة تجمعت حوله كل القوى وقد استطاع تفريقها عنه بالدسائس والمال ليرجع فيجد عاصمة القيروان محاصرة من قبل أبي حاتم . وقد استمر الحصار ثمانية أشهر حتى وقعت في المجاعة وأكل الناس الدواب والكلاب . وحين سمع ابن حفص أن المنصور بعث نجدة لتخليصه مع يزيد بن حاتم بن قبيصة أنف لموقفه فبادر القتال حتى قتل (١٥ ذي الحجة سنة ١٥٤) . ودخل أبو حاتم القيروان .

أنفق المنصور على جيش يزيد بن حاتم مايقدر بـ ٦٣ مليون درهم جهز بها ستين ألف مقاتل . وماكاد يزيد يصل الى طرابلس سنة ١٥٥ حتى بادر أبو حاتم الى لقائه مع الاباضية وهزم طلائع الجيش عند جبل نفوسه ثم التقى الجيشان (ربيع الاول سنة ١٥٥) وبالرغم من استماتة ابي حاتم في الدفاع وتحصنه في المناطق الوعرة الا أنه خسر المعركة وخسر معها حياته . وقتل من جيشه حوالي ثلاثين ألفاً وظل العباسيون يقتلون الخوارج في جبل نفوسة قرابة الشهر ...

ثم غدا يزيد الى القيروان فدخلها (٢٠ جمادى الاخرة سنة ١٥٥) بينما تراجع الخوارج الاباضية بعد سحق ثورة أخرى قاموا بها في طرابلس الى المغرب الاوسط ... وتعقبهم يزيد في الجبال ويقولون انه

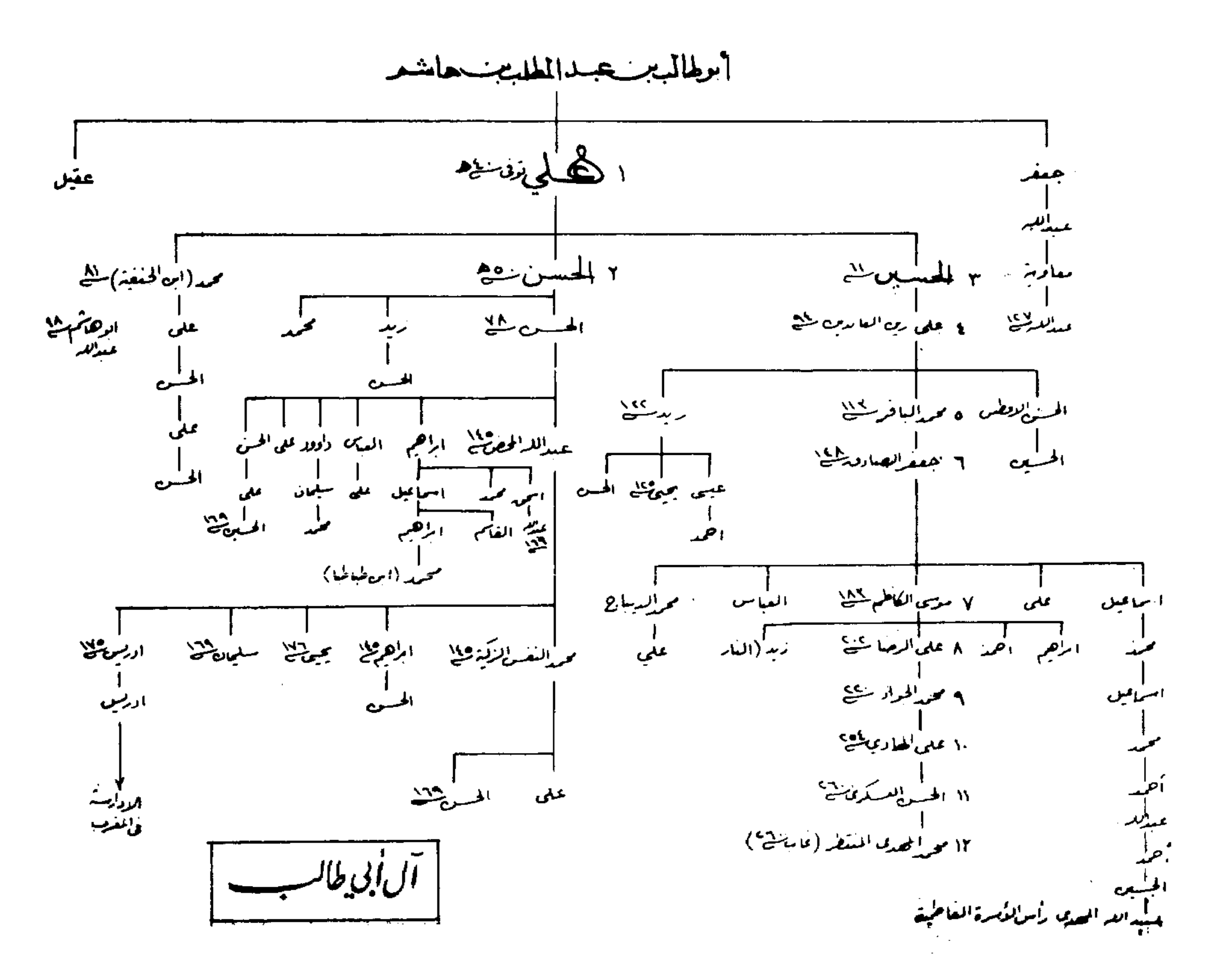
---

(١) ذكر ابن عذاري (البيان المغرب ـ ج١ ص ٩١) أن عدد قوات البربر مجتمعة كانت ٣٥٠ الفاً و ٤٠ الفاً مع ابي قرة عدا ٣٥ الفاً من الخيل و ١٣٠ الفاً كانت عدة جيش أبي حاتم .. وهي ارقام مبالغ فيها لا تدل على اكثر من وجود الجموع الكثيرة .

كان بين الخوارج وجند المنصور منذ بدأ عمر بن حفص قتالهم إلى نهاية أمرهم نحو من ثلاثث مائة وخمس وسبعين موقعة ....

ولكن يزيد استطاع أن يمنح بعد ذلك منطقة افريقيا والمغرب فترة من الهدوء والاصلاح الداخلي والعمران وتنظيم الحرف والاسواق والازدهار الاقتصادي لم تشهدها منذ أيام حسان بن النعمان وقد استمرت حتى وفاته في رمضان سنة ١٧٠ أيام الرشيد .





أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم
عقيل
١ علي
جعفر
عبد الله
معاوية
عبد الله
٢ الحسن
٣ الحسين
محمد (ابن الحنفية)
علي
أبو هاشم عبد الله
الحسن
علي
الحسن
محمد
زيد
الحسن
الحسن
عبد الله المحض
ابراهيم
العباس
داوود
علي
الحسن
اسماعيل
محمد
احمد
علي
سليمان
محمد
علي
الحسين
ابراهيم
القاسم
عبد الله
محمد (ابن طباطبا)
محمد النفس الزكية
ابراهيم
يحيى
سليمان
ادريس
ادريس
الادارسة في المغرب
الحسن
علي
الحسن
٤ علي زين العابدين
الحسن الأوطس
الحسين
٥ محمد الباقر
زيد
عيسى
يحيى
الحسن
احمد
٦ جعفر الصادق
اسماعيل
علي
٧ موسى الكاظم
العباس
محمد الديباج
علي
ابراهيم
احمد
٨ علي الرضا
زيد (النار)
٩ محمد الجواد
١٠ علي الهادي
١١ الحسن العسكري
١٢ محمد المهدي المنتظر
محمد
اسماعيل
محمد
أحمد
عبد الله
أحمد
الحسين
عبيد الله المهدي رأس الأسرة الفاطمية
آل أبي طالب

الفصل الخامس

توطيد الدولة ــ ٢

المشاكل الداخلية

لم تكن هذه المشاكل أخطارا كبيرة تستهدف العرش العباسي مباشرة ومن حيث الاساس ، ولكنها كانت انحرافات في مفهوم الحكم والدين تنجت عن الاشخاص الذين تولوا الدعوة العباسية بجهودهم وتأييدهم وعن الاقاليم التي قامت بها الدعوة ومابها من رواسب دينية واجتماعية واقتصادية وعن الطريقة الواسعة المتسامحة التي سلكها الدعاة العباسيون في العمل وفي جمع الانصار وبمعنى آخر ظهرت من ذيول الدعوة العباسية ، وفي أعقاب الثورة ، وبعد نجاحها مشاكل من انواع ثلاثة : بعضها يتعلق بزعماء الدعوة من الايرانيين خاصة ، وبعضها يتعلق بالشعب الايراني ممن تجند معها أملا في تطورات بعيدة ، أو ممن حركته الثورة لانتظار أو لمحاولة تحقيق تطورات سياسية ودينية واجتماعية ملائمة لآماله فلم يتحقق له ذلك .

ومعظم هذه المشاكل لم يكن هدفه المطالبة بالخلافة ولكنها هددت الامن الداخلي للدولة وكان أصحابها أشخاصا خطرين على شخص الخليفة أو على دين الدولة واستقرارها لاحركات ذات آراء سياسية مناوئة للسيادة العباسية . وكان من نتائجها توطيد الادارة العباسية

في مختلف الاقاليم ودعم سلطة الخلافة الجديدة واسلاميتها ومركزيتها وليس إلغاء تيارات سياسية قائمة في المجتمع الاسلامي ضد العرش •

وهذه المشاكل الكثيرة بنوعيها إنما نجمت عن أن العباسيين الاثنين اللذين تسلما الثورة جاهزة منتصرة الجيوش في العراق وغيره ونعني أبا العباس والمنصور أرادا أن يجعلا الدولة « عباسية » فقط ، ولهما فقط ، وفاقا للمفهوم الذي فهما به الدعوة والمبادىء • بينما كانت الثورة في دعوتها السرية • ثم في حركتها العلنية قد جرفت معها ولملمت أهواء شتى وأعواناً ذوي نوازع مختلفة وأعطت المجال بانتصارها لنمو كثير من المطامح لدى أعوانها الكبار ولم يكن يعدل غموض شعار (الرضا من آل محمد) إلا غموض المبادىء التي يدعو الدعاة لها كالحكم بكتاب الله وسنة نبيه وعدم المحاباة ورفض الجور الاموي •• الخ • كانوا يهدفون قبل قيام الدولة الى جمع كافة العناصر المعارضة للحكم الاموي في جهة واحدة وقد نجحوا في ذلك فلما تم لهم النصر اخذوا يصفون هذه العناصر لمصلحتهم ولان بعضها قد بدأ يعمل ضدهم حين تبين له أنه خدع قبل أن ينتصر العباسيون النصر النهائي كانوا في الواقع قد صفوا عددا من الاعوان الذين عاونوهم في مرحلة من المراحل : من امثال عبد الله بن معاوية الجعفري ، وشيبان الخارجي وبها فريد الفارسي ، والكرماني وأولاده • وإذا كان هؤلاء ليسوا من صلب الثورة ولكن من الروافد التي رفدتها • فان العباسيين لم يترددوا في تصفية أكثر أنصارهم أيا كانوا حين ثاروا يريدون فرض المفهوم « العباسي » الذي كانوا يفهمون واصطدم هذا المفهوم الثائر بالخط العباسي « الرسمي » الذي يرسمه الخليفة الجديد •

١ ـ ثورات الدعـاة :

وإذا كانت الثورات ، كالقطط ، تأكل أولادها فقد كان بين الثائرين والضحايا في الوقت نفسه الثلاثة الكبار الذين قامت على اكتافهم الدولة وكان فيهم عدد من الدعاة العريقين في الدعوة « للرضا من آل محمد» وفي الإخلاص للعباسية من أمثال : جهور العجلي ، عبد الجبار الأزدي ، خالد الذهلي بسام بن ابراهيم ، زياد بن صالح • وكان فيهم من ذلك عدد من الانصار العاديين ، وقد خلق هؤلاء وأولئك على السواءمشاكل داخلية مختلفة منها مثلا :

١ ــ منصور بن جمهور : الذي عينه أبو العباس واليا في السنة ١٣٢/٧٥٠ مكافأة له على ترك التولي للامويين في العراق والانحياز للعباسيين • فلما عين أبو مسلم للسند واليا آخر هو المفلس العبدي في نوع من عدم الاكتراث بأمر الخليفة لجأ منصور الى العصيان وقتل المفلس ورفض أمر أبي مسلم الذي أرسل عليه موسى بن كعب فقضى على جيشه وألجأه الى الهرب والموت عطشاً في الرمال[١] •

٢ ــ شريك بن شيخ المهري[٢] : ولعله كان من قدماء الدعـاة لكنه رفض سياسة العباسيين في الفتك والبطش الدموي وقال : ماعلى هذا بايعنا آل محمد وقام بثورة علوية في بخارى سنة ١٣٣ • انضمـت

---

(١) انظر خليفة بن خياط ـ التاريخ ص٢٣٢ـ ، ٢٥١ـ٢٥٢ ، الدينوري الاخبار الطوال ص٣٧٤ ، الطبري ٤٦٤/٧ (٣ـ٨٠) ، العيون والحدائق ص ٢١١

(٢) العيون والحدائق ص ٢١١ ، الطبري ٥٤٩/٧ (٧٣/٣) ، ابن الاثير ٤٤٨/٥ ، النرشخي ـ تاريخ بخارى ص ٦٢ فما بعد ، اليعقوبي ج٢ ص ٤٢٥ .

اليه فيها كافة العناصر التي خاب أملها في الحكم العباسي في ماوراء النهر وخراسان كما دعمه العلويون وانحاز اليه بعض عمال العباسيين. مما جعل حركته شعبية واسعة القاعدة (٣٠ ألفا) وجعل القضاء عليه صعبا . ولم يخسر شريك المعركة الا حين انفصل عنه أحد قادته من كبار بخارى : قتيبة بن تفشادة وانضم الى القائد العباسي زيادبن صالح الخزاعي . وقد قتل شريك في المعركة وأسر عدد كبير من أصحابه

٣ ــ وقد تولى زياد على الصغد وبخارى مكان شريك ومع أنه كان أحد النظراء السبعين في الدعوة[1] لكنه مالبث أنثار بدوره على تحكم أبي مسلم في الدولة وثار في بلخ قائلا : «لقد بايعناهم على العدل وإحياء السنن وما أبومسلم الا ظالم جائر يسير سير الجبابرة وانه مخالف قد أفسد قلوب أهل خراسان ... » ويبدو أن أبا العباس نفسه كانوراء هذه الحركة . لكن عددا من قواد زياد تركوه الى أبي مسلم الذي سار من مرو إلى آمل ثم إلى بخارى لاخماد الثورة . فهرب زياد الى بعض الدهاقنة (دهقان باركث) فوثب عليه الدهقان وجاء برأسه الى أبي مسلم[2] .

٤ ــ وأعلن عيسى بن ماهان وهو بدوره من قوادالثورة العباسية وأحد النظراء السبعين سخطه على ماجرى بزياد ومع أنه كان يحارب بسام بن ابراهيم العباسي الاخر الثائر إلا إنه أبلغ الناس أن الخليفة أبا العباس ساخط منكر لما فعل أبو مسلم « وقد تبرأ منه وبعث الي بعهدي

---

(١) أخبار الدولة العباسية (نشر الدوري) ص٢١٨ و ص٢٢٠
(٢) الطبري ٤٦٦/٧ (٣/٨١-٨٢)

على خراسان ... » ولكن أبا مسلم استطاع أن يتخلص بسرعة من عيسى إذ أرسل إلى رئيسه وصديقه أبي داود وخالد بن ابراهيم الربعي الذهلي بستة عشر كتابا وجدها من عيسى بذم أبي داوود ونقده قائلا : « ... هذه كتب العلج الذي صيرته عدل نفسك فدونك به » وطلب أبو داوود من عيسى أن يقدم عليه ويترك ثورة بسام فلما وصل اعتقله وكشف له الكتب وجلده ثم أسلمه الى جنده فأدخلوه في جوالق وضربوه بالاعمدة حتى مات[1] ..

وقد عظم على الخليفة أبي العباس مقتل عيسى وأرسل إلى ابي مسلم أن يأخذ أبا داوودبعيسى ويقتله فرفض أبو مسلم ذلك وبعث يبسط غدر أبي داوود ويضيف أن ابن ماهان لو ترك لكان منه من إفساد الناس وحملهم على المعصية والخلاف ماكان من زياد بن صالح صاحبه .

٥ — تمرد بسام بن ابراهيم : وكان الرجل في الاصل من أكبر أعوان نصر بن سيار ثم انضم للدعوة العباسية وفتح لها سرخس على شيبان الحروري . ثم كان احد قواد قحطبة الطائي في الزحف على العراق ثم قاتل عبد الواحد بن عمر في الأهواز ثم كان احد قواد عبد الله بن علي في احتلال الشام وإخماد ثوراته . وقد كلف عبد الله بعد هزيمة أبي الورد أن يلاحق الخليفة السفياني أبا محمد زياد (حفيد معاوية) الذي هرب الى تدمر ، لاجئا إلى مقاومة القبائل الكلبية هناك. ونجح بسام في احتلال المدينة ولكنه اختلف مع عبد الله بن علي أواخر سنة ١٣٢ هـ فأعلن الثورة وخلع أبا العباس ودعا لولد علي بن أبي طالب

---

(١) المصدر نفسه ٤٧٦/٧

لكنه لم يستطع البقاء بين قبائل كلب التي هزمها في تدمر لاسيما حين قل جنده بانفصال عدد كبير من الجند الخراسانية فقطع البادية الى العراق، وبعث أبو العباس إليه بجيش يقوده خازم بن خزيمة فالتقى في ناحية المدائن .فهزم بسام وقتل عامة أصحابه وهرب فاستخفى بالكوفة .

ويبدو أنه بعث الى الامام جعفر الصادق يعرض عليه الخلافة فخشي الامام أن يكون ذلك شركاً منصوبا للايقاع به ، واتصل بأبي العباس يكشف له الامر . ثم دلهم اسماعيل ابن الامام جعفر على مكمنه فقبضوا عليه وقتلوه وقتلوا ابنه معه[1] . هل كان ذلك زهدا في الخلافة من العلويين ؟ أم كان خوفاً من القوة السياسية ؟ أم ان القصة كلها مختلقة لتبرير قتل أحد كبار الدعاة ؟ إن قضيتي بسام وشريك المهري تدلان على الاقل على أن الكثير من الدعاة لم يقبلوا بعد بتفسير كلمة (الرضا من آل محمد) على أنها أبو العباس .

٦ — ثورة جهور بن مرار العجلي : وهذا بدوره من الدعاة ومن قواد قحطبة الطائي . وقد أرسله أبو جعفر المنصور سنة ١٣٦ فقضى على ثورة سنباذ في خراسان والري وقتل من أصحابه في الهزيمة نحوا من ستين ألفا وسبى ذراريهم ونساءهم قبل أن يقتل سنباذ نفسه وهو هارب دون أن تدوم ثورته أكثر من سبعين يوما .

واستولى جهور على خزائن سنباذ وكان فيها خزائن أبي مسلم الخراساني واعتبرها جهور فيئاً فوزعها على المقاتلين وطالبه أبو جعفر بها لانها من حقه ولان فيها أيضا خزائن عمه عبد الله بن علي وكان ابو مسلم قد احتواها ... واشتد اللجاج من الخليفة على جهور فخاف وخلع

---

(١) الأزدي — تاريخ الموصل ص١٤٠ ، ابن الاثير ٥/٤٥٠ (وهو يذكر الثورة سنة ١٣٤)

بيعة المنصور فلما أرسل الخليفة واليا آخر إلى الري قتله جهور وأعلن الثورة • ولم يكن له من أمل كبير في النجاح إذ توجهت نحوه ثلاثة جيوش من ثلاثة اتجاهات : أحدها من خراسان والثاني من الخليفة يقوده محمد بن الاشعث الخزاعي والثالث من شمال العراق يقوده عمر بن حفص المهلبي • ومع أن نخباً من فرسان العجم حاربت مع جهور وقاتلت القتال الشديد إلا أنه هزم بعد أن قتل الكثير من اصحابه ولحق جهور بأذربيجان لعله يجد الحماية لدى واليها يزيد بن حاتم المهلبي ويجد بعد ذلك الوسيلة لاسترضاء الخليفة لكنه أخذ في الطريق وقتله بعض أعوانه(١) •

٧ ــ وعبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي كان من الدعاة والقواد العباسيين في خراسان وقد جعل أبو العباس اليه الشرطة ثم أقره عليها أبو جعفر ثم أعطاه ولاية خراسان سنة ١٤٠/٧٥٧ وهناك اصطدم برؤوس الشيعة العباسية من العرب الذين لم يرضوا إلحاحه في الجباية وعسفه فيها فسجنهم وقتل بعضهم واتهمهم بالميل للعلويين وكان منهم خالد بن كثير ولكنه خشي ثورة الأزدي إن عزله فأراد أن يخفف من قوته أولا بأن طلب منه ارسال بعض النجدات لحرب الروم فاعتذر بأن الثغور مع الترك أشد خطرا وحين عاد المنصور فأبلغه أنه سيرسل اليه القوى لصد الترك عرف ماوراء هذه النجدات فأبلغ الخليفة أنه لا يجد عنده من الميرة مايكفي القادمين و •••

وحين أرسل المنصور ولي عهده المهدي يعاونه حازم بن خزيمة التميمي ضده كان الأزدي قد ثار مدعياً أن المنصور « دعاه لعبادته » ورفع

---

(١) الطبري ج٧ ص ٤٩٥ و ٤٩٧ (١٢٠/٣ و ١٢٢) •

شعار العلويين وبعث الى محمد ذي النفس الزكية أو الى أخيه أن يشخص الى خراسان ليبايعه ولكن أحدا منهما لم يستجب للدعوة الخطرة فنصب الازدي بعض العلويين واسمه ابراهيم بن عبد الله الحسني خليفة !.

ووصل خازم بن خزيمة فانحاز اليه بعض أنصار الازدي وأعانه آخرون عليه فانهزم ثم وقع في الاسر وحمل الى المنصور في هاشمية الكوفة سنة ١٤٢ فصلب فيها . لم يستجب المنصور لرجائه في أن يذيقه « ميتة شريفة ! »

٨ ـ عيينة بن موسى التميمي : وكان كما كان أبوه موسى من قدماء الدعاة . وقد عين الاب واليا على السند سنة ١٣٣/٧٥٠ عقب ثورة منصور ثم استدعاه أبو العباس وخلفه ابنه عيينة . ويبدو أنه تعصب على اليمانيين وقتل عددا منهم فلما عزله المنصور سنة ١٤٢/٧٥٩ ثار واعتصم بالبلد لكنه لم يصمد لجيش الخليفة كما لم يصدق معه اتباعه فتخلوا عنه . وكان هاربا نحو سجستان حين عرف به بعض اليمانية فبلغوا ثأرهم منه في كمين أقاموه له .

٢ ـ مصارع زعماء الدولة :

وإذا كانت هذه الانتفاضات محدودة الاثر ومحصورة في المشرق، وخاصة في خراسان ويدعى معظمها السخط على أبي مسلم لا على الدولة وقد انتهت كلها بقطع رؤوس أصحابها « ولم يكن لأبي مسلم ـ كما قال صاحب العيون والحدائق ـ فيها تدبير ولا كثرة جنود بل مجرد السعادة والاقبال وابتداء دولة مسعودة وانتثار حبل دولة قد ولت سعادتها

فلايفيدالسعي في اصلاحها ... »[1] فقد كان أخطر منها بكثير تلك المشاكل التي كان موضعها في عاصمة الدولة ومقرها وكان أصحابها هم أصحاب اليد العليا في قيام الدولة وتدبيرها وأصحاب السلطان الاقوى والاقدم فيها .

والواقع أنه لايكاد يذكر قيام الدولة العباسية دونأن تذكرأسماء كل من سليمان بن كثير الخزاعي وأبي سلمة الخلال ، وأبي مسلم الخراساني . ولكن هؤلاء أنفسهم إنما قتلوا جميعا بسيف العباسيين أنفسهم . ويعلل صاحب (الفخري) الاسباب قائلا : « ... وكأنالمخترع للدولة يكون عنده من الدالة والتبسط ماتأنف من احتماله نفوس الملوك وكلما زاد تبسطه زادت الانفة عندهم حتى يوقعوا به ...[2] » ولكن هذا السبب الشخصي على وجاهته لايكفي لتعليل تلك الفتكة التي تكررت في عهود كافة خلفاء العصر الاول تقريبا .

١ ـ فأما سليمان بين كثير الخزاعي فقد كان نقيب النقباءالعباسيين حين زحفت الثورة الى العراق فإنه كان هناك في حصنه المكين ... ولكن تعيين أبي مسلم لتلك الولاية أعاد الحزازات القديمة بين الطرفين منذ أيام الدعوة يوم كان أبو مسلم تبعاً للخزاعي .

وقدكان أبومسلم قد قص جناحا هاما من أجنحة الخزاعي حين أزال من الوجود أحد أقربائه الهامين وهو ختنه : أبوجعفر لاهز ابن قريظ التميمي[3] . وقد كان الرجل أحد النقباء الاثنى عشر من الدعوة،

---

(١) العيون والحدائق ص ٢١١

(٢) ابن طباطبا ـ الفخري .

(٣) يسميه صاحب إخبارالدولةالعباسيةلاهز بن قريظ انظر ص٢١٧، ٢٢٠، ٢٥٥، ٢٧٣ .. الخ ويسميه الطبري لاهزا أيضاً وإن كانت بعض المراجع تجعله باسم لاحظ .

أخذ فيها بوساطة الخزاعي مكان أبي المغيرة خالد بن كثير • وكان لاهز أحد ثلاثة اختاروا أبا مسلم نفسه للدعوة حين كان يعمل عند أبي موسى السراج وقد اتهمه أبو مسلم بأنه اتصل بنصر بن سيار وأشار عليه بالهرب أو ترك له فرصة الهرب حين طوقه ابو مسلم وكاد يقبض عليه • وقد يكون ذلك صحيحا • وشهد عليه فيه خالد بن كثير إياه فقال له أبو مسلم : يالاهز أتدغل في الدين ؟ وضرب عنقه[1] •

ولم يطب سليمان بن كثير نفسا بولاية أبي مسلم ويذكر عنه أنه قال مرة : اللهم سود وجه أبي مسلم كما سودت هذا العنقود واسقني دمه ••• » وقد انتظر حتى وصل أبو جعفر خراسان فاتصل به ويبدو أنه شكا له تسلط أبي مسلم وقال : « إنما كنا نحب تمام أمركم وقد تم بحمد الله ونعمته فاذا شئتم قلبناها عليه » • ووصل الخبر الى أبي مسلم فاستدعى سليمان بن كثير وقال : أتحفظ قول الامام : من اتهمته فاقتله ؟ قال نعم ! قال : فاني قد اتهمتك وأمر بضرب عنقه • وانصرف المنصور الى أخيه ابي العباس يقول : لست خليفة ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله ! والله ماتصنع إلا ماأراد[2] » •

وتغطية للقتل يبدو أن أبا مسلم اتهم سليمان بن كثير بالاتصال بعبيد الله بن الحسن الاعرج العلوي ليقلب معه الدولة علوية• وهو زعم يكذبه ماضي سليمان العباسي الطويل وان يكن ممكن الوقوع •

وقد ألحق أبومسلم بسليمان : ابنه محمدا بن سليمان • اتهمه بالخداشية ، والقول بالمبادىء الزارادشتية المغايرة للدين وأنه بال على

(١) انظر الطبري ج٧ ص٣٨٤–٣٨٤ (٢/١٩٩٤–١٩٩٥)
(٢) انظر ابن قتيبة الامامة والسياسة ص ٢٣٨–٢٤٠ ، الطبري ٤٥٠/٧ (٦١/٣)

كتاب الامام فقتله • فكان أول قتيل في الدولة العباسية بتهمة الزندقة •
وإذا لم يكن قتله بشيء كثير فقد كان قتل أبيه مع مكانته في الدعوة
دون استشارة الخليفة ودون علم أبي جعفر ، أخي الخليفة الموجود في
خراسان يحمل الكثير من الاعتداد والتحدي للخلافة وحين كتب أبو
مسلم بذلك إلى أبي العباس بلغ من استياء الخليفة وغيظه المكتوم أنه
لم يجبه بشيء •

٢ ــ وأما أبوسلمة الخلال الذي قضى في خدمة الدعوة العباسية
أكثر من ثلاثين سنة فقد صرعته أولا علويته ، ذلك ان أبا العباس لم ينس
له تلك البادرة في تحويل الخلافة الى العلويين • كما صرعه في الوقت
نفسه ، إدلاله بمنصبه (كوزير لآل محمد) الذي لم يكن يدين به لابي
العباس • يقول ابن قتيبة[1] : « كان ابو سلمة يظهر الادلال والقدرة
على أمير المؤمنين » ويذكر الدينوري انه كان ينفذ الامور « من غير
مؤامرة » (أي دون مشاورة) •

واذا كان هذا نتيجة طبيعية لظروف تلك الفترة ، فإنه كان بادرة
خطرة في الدولة الجديدة ، صدمت أبا العباس وأوحشته • ولكنه تردد
كثيراً في الطريقة التي ينفذ بها « اوتوقراطيته » في الحكم ، لأنه خشي
أن يكون أبو مسلم الخراساني درءاً لأبي سلمة • فاختار أن يكون أبو
مسلم في جانبه وأن يقتله ، إن أمكن ، بيده •

وتتفق المصادر (كالطبري واليعقوبي والفخري والجهشياري وابن
قتيبة) على ان صاحب فكرة القتل هو ابو العباس ، وإن أبا مسلم كان

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٣١

المنفذ لها . غير ان الدينوري[1] والمسعودي[2] ينفردان بتبرئة الخليفة ووضع المسؤولية على عاتق أبي مسلم ، حسداً منه لأبي سلمة على مركزه كوزير للدولة . ولعل الأرجح هي رواية المصادر الاولى التي تضيف إن أبا مسلم بعث من عنده بمن قتل أبا سلمة : « وجه مرار بن أنس الضبي فلقيه ليلاً فأنزله عن دابته ثم ضرب عنقه ... » ولم يكن قد مضى على وزارته ونفوذه إلا قرابة أربعة أشهر .

وما من شك في أن أبا العباس كان ذكي التدبير حين عهد الى أبي مسلم بتصفية صاحبه فانه أبعد عن نفسه التهمة بدم الرجل الذي خدمهم السنين الطوال وطمأن في الوقت نفسه أبا مسلم ، لئلا يخشى لنفسه المصير ذاته .

وأعلن للناس أن الخوارج هم الذين قتلوا الرجل وكان تعليق أبي مسلم على قتله : « إن حفصاً كان غاشاً لله ورسوله والأئمة فالعنوه » وأما عبد الله بن علي فقال : « كلب أصابه قدر فطاح ... » ! وعلق على ذلك الشعراء تعليقات ذات معنى . إذ قال أحدهم :

إن الوزير وزير آل محمد   أودى فمن يشناك كان وزيرا

وقال آخر :

ويح من كان مذ ثلاثين عاماً   يبتغي حتف نفسه غير آل!!

٧ ــ وأما ابو مسلم الخراساني فلم يكن بأقل خطراً وادلالاً من أبي سلمة وكان الخراسانيون أو بعضهم يتعلقون به ، لا كوال وقائد

---

(١) الدينوري ــ الاخبار الطوال ص ٣٦٨

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٠٣

فحسب ، ولكن كشخصية دينية أيضاً . فكا نمن الصعب جداً إزالة شبحه الطاغي على العرش . وقد عاد ابو جعفر المنصور سنة ١٣٣ هـ من خراسان فقال لأخيه « لست بخليفة مادام أبو مسلم حياً . فاحتل لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك فلقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه ، ومثله لا يؤمن غدره ونكثه » . ولم يكن نفوذه مقصوراً على الخراسانيين الذين أشربت قلوبهم حبه ، واتباع أوامره ، وايثار طاعته ــ على قول الدينوري ــ ولكنه كان ماثل النفوذ في العاصمة (الهاشمية) أيضاً رغم بعده . وكان ابو العباس لا يقطع أمراً دون رأيه ــ كما قال ابن قتيبة ــ الذي قد يكون في قوله بعض المبالغة ، وكان ابو الجهم بن عطية الباهلي عينا للخراساني ، عند الخليفة يكتب اليه بكل خبر .

ولم تكن علاقة أبي مسلم بأبي العباس أو بأخيه أبي جعفر بالعلاقة الطبيعية التي تكون بين خليفة وكبير رجاله بل كان فيها من الاعتداد والتحدي الشيء الكثير . وقد أوغر الخراساني صدر الخليفة وأخيه في أمور كثيرة :

فما كان بالهين عليهما قتل سليمان بن كثير الخزاعي دون معرفتهما ولئن هان كما هان قبله قتل الكثير من الدعاة الكبار على يد أبي مسلم فما كان بالهين أن يريا الى القسم الشرقي من الدولة العباسية يتصرف فيه أبو مسلم كما يشاء دون الرجوع إليهما بل وضد إرادة الخليفة أيضاً : يعين أبو العباس والياً في السند مثلاً (ابن جمهور) فيطرده أبو مسلم ويعين بديلا عنه (المفلس) ويسمى أبو العباس عمر عيسى بن علي لولاية فارس فيرسل أبو مسلم والياً آخر عليها هو محمد بن الأشعث مع تعليمات بقتل عيسى . وإذا لم ينفذها ابن الأشعث تحرجاً من قتل عم الخليفة فإنه طرد عيسى على أي حال وأخذ عليه العهد واليمين « بألا يعلو منبراً ولا يتقلد سيفاً إلا في جهاد ... » .

ولا شك ان مقتل ابي سلمة دونما ضجة ، قد شجع أبا العباس على التفكير جدياً في أمر أبي مسلم . ولكنه كان يخشاه ولما « ثقلت وطأته — كما قال الجهشياري[1] — على أبي العباس وكثر خلافه إياه ورده لأمر استنصح الخليفة خالدا البرمكي فأشار عليه بأمر فيه إضعاف لجيش الخراساني ، وقد تم ذلك ، وسر له ابو العباس » . ثم شاء أن يضعفه بالثورة فاستعمل زياد بن صالح والي بلاد ما وراء النهر ، للقيام ضده . وأمره ، ا ن رأى فرصة ، ان يثب على أبي مسلم فيقتله . ولكن الثورة سنة ١٣٥ هـ (٧٥٢ — ٧٥٣ م) فشلت بسرعة ، رغم الكتاب الذي يحمله زياد من الخليفة ، بتوليته على خراسان. ثم حاول ابوالعباس إثبات الوجود والنفوذ العباسي في خراسان بإرسال أخيه أبي جعفر إليها يزورها ويطلع عن كثب على الامور فحيا ابو مسلم مقدمه بقتل سليمان ابن كثير وعاد أبو جعفر مملوءاً رعباً وتحذيراً . ثم مر ابو مسلم بالعراق حاجا ، قبيل وفاة السفاح بأسابيع ، فحرض أبو جعفر أخاه على قتله ، ولكنه لا يزال يخشاه فرفض وكل ما فعله أنه أمر أبا مسلم ألا يأتي الهاشمية في أكثر من ألف رجل وكان معه ثمانية آلاف ففعل .

وآل الأمر سريعاً الى أبي جعفر المنصور وله هذا الرأي في أبي مسلم ، فكان طبيعياً أن يبدأ عهده بحل مشكلته . وقد وضع كل دهائه وحذره في ذلك . ولا شك ان تصرفات أبي مسلم أمام أبي جعفر ، قبيل الخلافة وبعدها ، قد عجلت فيوقوع الأزمة ، وملأت الخليفة الحذر ، بالحقد والخوف على سلطته .

وكانت علاقات الاثنين الاخيرة في فترة الحج ترشحهما للاصطدام

---

(١) الجهشياري ص ٩٣

المباشر • فقد كان أبو العباس قد عين أبا جعفر لإمارة الحج مما أغضب أبا مسلم وجعله يتحدى أبا جعفر طول الطريق • وإنما كان حج أبي مسلم في الاصل سياسياً وليس دينياً تماماً وكان يريد إثبات وجـوده في مقر الخلافة في العراق وفي مكة ، مهبط الاسلام وفي موسم الحج وأن « يصلي بالناس » كما يقول الطبري في الكعبة ، مقابل إثبات الوجود الذي حاوله أبو العباس حين أرسل أخـاه الى خراسان • ولهذا لم يأبه أبو مسلم لأبي جعفر فكان يتقـدمه بموكبه وينيف عليه في البـذخ والهبات والاعمال • ثم توفي السفاح والرجلان في طريق العودة فأبطأ أبو مسلم أياماً ـ فيما يقولون ـ في البيعة لأبي جعفر • كما يقولون إنه في الكوفة حرض عيسى بن موسى ، ولي العهد الاخر ، على الثورة وأخذ الخلافة ولكن عيسى رفض المغامرة •• ولقد هم أبو جعفر بأبي مسلم وهما بعد في الطريق • وكاد يبعث من يقتله (وهـو عطية بن عبد الرحمن) ولكن أصحابه أقنعوه بالتريث ليروا ما يكون من أمر بيعة الناس أجمعين •

وكان الرأي صواباً إذ اتفق في تلك الفترة أن ثار عبد الله بن علي عم المنصور . فاغتنمها الخليفة فرصة يضرب بها الخطرين القائمين عليه أحدهما بالآخر ، فيبعد الخراساني عن أنصاره في خراسان ويرمي بـه عمه ، لا يبالي أيهما قتل صاحبه ؟ وما كاد الاثنان يصلان العراق حتـى استدعى أبو جعفر أبا مسلم وكلفه السفر الى الشام لقمع ثورة عمـه عبد الله • ومع أن أبا مسلم لم يكن في نيته الدخول في هذه الخصومة إلا إنه وجدها فرصة لزيادة نفوذه وللبعد عن أبي جعفر فقبل ولم ينس الخليفة أن يبعث مع أبي مسلم بعدد من القواد الآخرين منهم الحسن بن قحطبة ، يراقب بأعماله • فكتب هذا إلى الخليفة كتاباً ملأه تصميمـاً على قتله : « ••• إني قد ارتبت بأبي مسلم منذ قدمت عليه • انه يأتيه

الكتاب من أمير المؤمنين فيقرؤه ثم يلوي شدقه !••• » وانتصر أبو مسلم على الثائرين في الشام وبعث الخليفة بمن يحصي غنائم أبي مسلم من عبد الله بن علي ، فغضب الخراساني وقال : « أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الأموال ؟ » وهم برسول الخليفة ، لولا أن منعه أصحابه ، وأن ادعى الرسول قدومه للتهنئة !

ويظهر ان أبا مسلم « عزم على الخلاف » إثر ذلك ، فانه قرر العودة الى خراسان عن طريق الزاب وحلوان في أعالي العراق دون أن يعود الى الهاشمية ويرى أبا جعفر الخليفة • وقد كتب الحسن بن قحطبة الى أبي جعفر يقول : « يا أمير المؤمنين إن الشيطان الذي كان ينفخ في رأس عبد الله (ابن علي) قد انتقل إلى رأس أبي مسلم » •

وكان أول خلاف علني ، بين الاثنين رفض ابي مسلم إطاعة أمر أبي جعفر بالبقاء بالشام والياً عليها وعلى مصر • قال : هو يوليني الشام ومصر ، وخراسان لي ؟ وكتب اليه : « ••• انه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ••• فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت •• حريون بالسمع والطاعة غير انها من بعيد حيث تقارنها السلامة ••• فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وإن أبيت إلاّ أن تعطي نفسك إرادتها ، نقضت ما أبرمت من عهدك ، ضناً بنفسي[1] » ورأى المنصور أن يقابل هذا التحدي والتهديد بالحيلة ، إذ لا قوة تنفع • فبعث اليه برسالة عتاب قاسية لينة معاً حملها صديقه عيسى بن موسى ، يقول فيها : « ••• فهمت

(١) الطبري ج ٧ ص ٤٨٣ (٣/١٠٤) •

كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم • فإنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة • فلم سويت نفسك بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك ••• وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك ••• » ووجه أبو جعفر اليه جرير بن زيد البجلي « وكان داهية عصره » ليسترضيه ويزين له زيارة أبي جعفر ، ويهدده ان خالف، أن يحاربه الخليفة بنفسه • وكتب في الوقت نفسه إلى أبي داود خالد الذهلي (والي خراسان في غياب أبي مسلم) بالامارة على خراسان وأطمعه ، فبعث أبو داوود ينذر الخراساني ، ألاّ يرجع إلاّ بإذن الخليفة ••• وحرض الخليفة عدداً من كبار العباسيين والقادة أن يكتبوا له بالطاعة والنصح بعدم التمرد •••

ونجح المنصور بالمناورة السياسية في سوق طريدته إلى قصره ، بحفاوة كبيرة • بعد أن كاد يفلت وبعد أن خرج المنصور من الانبار فأقبل حتى نزل المدائن ليعترضه على الطريق دون حلوان •••

ويروي الطبري[1] قصة طويلة عن حوار رفيقي الدعوة العباسية ، حين اجتمعا ، وعن التهم التي وجهها المنصور لابي مسلم وخلاصتها في روايات مختلف المؤرخين :

١ ــ عدم تحيته حين زار أبا العباس في الهاشمية وذكره باسمه لا بكنيته في بعض الرسائل •

---

(١) الطبري ج ٧ ص ٤٨٩ ــ ٤٩٢ (٣/١١٢ ــ ١١٦) .

٢ ــ تقديم اسمه على اسم الخليفة في الرسائل .

٣ ــ تقدمه على أبي جعفر في طريق الحج وعدم انتظاره .

٤ ــ تأخره في بيعة أبي جعفر .

٥ ــ تحريض عيسى بن موسى على التمرد وطلب الخلافة .

٦ ــ تدخله في شؤون أبي العباس .

٧ ــ قتل سليمان بن كثير الخزاعي دون استشارة الامام . وقتل أفلح بن مالك الفزاري الداعية الآخر . وقتل ٦٠٠ ألف من المسلمين صبراً ...

٨ ــ أخذه بعض متاع وجواري عبد الله بن علي لنفسه .

٩ ــ خطبته لأمينة بنت علي وادعاؤه النسب لسليط بن عبد الله ابن العباس .

١٠ ــ مراوغته ومحاولتــه الخروج لخراسان رغم استدعــاء الخليفة له .

وقد يكون المؤرخون قد أضافوا وتبسطوا وسطروا ما توهموه من الاتهامات والأجوبة بين أبي جعفر وأبي مسلم وإنما ساقوا كل ذلـك تبريراً وتعليلاً للنهاية المأسوية التي انتهى إليها أبو مسلم الذي وجـد لكل اتهام جواباً . ويقول الطبري : ان المنصور صفق في نهاية الحديث فأطبق أربعة من جنوده الاشداء بالسيوف على أبي مسلم (٢٥ شعبان ١٣٧ ﻫ) ورمى المنصور برأسه وببدر المال معه ، الى أصحابه ، فتفرقوا .. وخطب المنصور بتلك المناسبة يبرر هذا العمل بقوله : « ... انه من نازعنا هذ االقميص أجزرناه خبي هذا الغمد ، وان أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا ، على انه من نكث بنا فقد أباح دمه لنا ، ثم نكث بنا هو ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا . ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه » . بهذه الكلمات ، وبصرع أبي مسلم قبلها وبالجواب

الذي أجابه أبو جعفر استرحام أبي مسلم حين قال : استبقني لأعدائك فأجابه وأي عدو أعدى لي منك ؟ حدد الخليفة أبو جعفر مفهوم الدولة الجديدة الأوتوقراطي للسلطة وموقفها الحاسم من أصدقائها وأعدائها على السواء إما مس أحدهم سلطانها المطلق •

ولقد كان مصرع أبي مسلم موضوع بحث توقف عنده عدد كبير من المؤرخين وبالرغم من أن مؤرخينا القدامى جمعوا أسباب مصرعه في تلك التهم العشر التي وجهها إليه أبو جعفر وبعضهم كالذهبي ومؤرخي الفرق أضاف إليها اسبابا دينية إلا إن الباحثين المحدثين ، وخاصة المستشرقين أصرّوا على محاولة تقصي السبب الحقيقي لمصرع «صاحب الدولة العباسية» • فبعضهم بحث عنده عن الأفكار الدخيلة على الاسلام (بروكلمان : بارتولد) وبعضهم حاول كشف ميوله العلوية (بلوشيه) وبعضهم أعاده الى حجمه الحقيقي وإنه إنما تضخم اسمه ودوره فيما بعد (جيب ، كاهن) لكنه ما من شك في إن مقتله كان لسبب سياسي واضح يتعلق بما أضحى يشكله من الخطر على الاوتوقراطية العباسية الناشئة ومع أن مقتل أبي مسلم قد مر دون مضاعفات آنية حادة وقد «باعه أصحابه بالدراهم» كما قالوا هم أنفسهم حين قبلوا أموال أبي جعفر إلا إن ملحمة أبي مسلم تركت في أذهان الناس في خراسان وتركستان على السواء دوياً أخذ مع الأيام الصيغ الاسطورية ونسجت حول اسمه القصص الخيالية وأصبح البطل القومي الشعبي في خراسان ولدى الترك أيضاً الذين ادعوه لأنفسهم • وبينما كان عدد من الثوار في ايران يرفع شعار الثأر لأبي مسلم كمبرر للثورة على العباسيين كان أبو مسلم يغلغل في ضمير الناس ويتبناه الشيعة المتطرفون والفرس المتذمرون وتستغل اسمه ثورات الفرس فيما بعد من المقنع الى سنباذ الى استاذسيز ••• الى الرزامية والخرمية •

وكان لمصرع أبي مسلم ذيول تناولت أصدقاءه وقد قتل بعضهم من أمثـال :

ـ أبي الجهم الباهلي وهو أحد نظراء النقباء وقادة الجيش الـى العراق • اتهمه أبو جعفر بمراسلة الخراساني وموافقته على الاستياء من السياسة العباسية فدبر مقتله بالسم • سقاه إيـاه في سويق اللوز كما يـروون •

ـ ابي داوود خالد بن ابراهيم الربعي الذهلي : وقد كان الرجل أحد النقباء الاثني عشر ومن أعوان أبي مسلم الكبار وقـد عهـد إليه بولاية خراسان عند سفره الى الحج وأقره أبو جعفر عليها ليفصله عن أبي مسلم ويمنعه من العود الى خراسان •

على أن خالداً الذهلي لم يكن يتوقع ـ فيما يظهر ـ قتل أبي مسلم • فلما علم بذلك « أنكره وذكر المنصور ذكراً قبيحاً ونسبه الى القدر ••• وكتب أبو جعفر يأمره بالقدوم إليه فرفض • قال : « ••• ما يقربني عليه إلا لمسألتي عن أمور أبي مسلم وأمواله ثم قتلي بعد ذلك ••• يا أبا جعفر غر غيري ! » • كان خالد يعرف ما قدمت يداه من قبل حين قتل عيسى بن ماهان وأغضب أبا العباس فأمر أبا مسلم بقتلـه ولـكن الخراسـاني حمـاه •••

وعمد أبو جعفر الى التآمر فطلب الى أبي عصـام صاحب شرطة خالد في خراسان أن يغتاله • وأثار أبو عصام بعض الاضطراب والفوضى حول قصر الإمارة تمهيداً لمؤامرته وأطل خالد من شرفة القصر ليعرف الأمر ويبدو أن كثيراً من جنده أطل معه فوقعت الشرفـة ••• ومات الرجل !

••• وصار أبو عصام والي خراسان !

٣ ــ مشكلة عامة الايرانيين :

واجهت العباسيين أيضاً أيضا ، ومع كل المشاكل التي واجهتهم في مطلع عهدهم الأول مشاكل من نوع آخر ديني هذه المرة قامت في المواطن والمواقع التي انطلقت منها ثورتهم أي في ايران وخاصة في شمالها الشرقي خراسان • وكثرة هذه الحركات وإبكارها في الظهور وشدة بعدها عن الإسلام كل ذلك مما يحتاج الى التفسير وتدخل في هذا التفسير عناصر عدة كانت الأساس في تلك المشكلة وهي ترجع الى جذور سياسية دينية واقتصادية واجتماعية ونفسية •

فما من شك في أن الاسلام انتشر بين الايرانيين في العهد الاموي انتشاراً بطيئاً ولم يرافق انتشاره فهم عميق له ولا كان ــ حتى نهاية ذلك العهد ــ قد استطاع استئصال جذور الديانات الأولى وفروعهاهناك بين زارادشتية ومانوية ومزدكية ، من نفوس عامة الايرانيين بل وخاصتهم من المرازبة والموابذة والدهاقين ، وما من شك بالمقابل في أن نجاح الدعوة العباسية في الوصول الى الخلافة بعد انطلاقها الأول من أرض ايران ووجود جماعات ايرانية في قيادتها وفي رجالها قد أثار في الايرانيين آمالا عديدة متنوعة كان العباسيون بعيدين جداً عن تحقيقها ولعل أهمها الآمال في استعادة المكانة السياسية القديمة التي زادت بعد الفتح العربي ولعلها حلمت بزوال الحكم العربي كله وبزوال الاسلام أيضاً وإذا كانت الدعوة العباسية قد بشرت بالمبادىء الاسلاميةالخالصة من تسوية وعدل ورفض للظلم إلا إنها استغلت التشيع أيضاً وتبنته وقد وجد بعض دعاتها وأنصارها فيه مجالا لدس الرسوبات الدينية

القديمة لديهم والاقتباس منها (كما فعل خداش ثم بها فريد) بغيةاستقطاب العامة عن طريق المنزع الديني بعد استقطابهم عن طريق رفض الظلم الاجتماعي وقد تواءمت النظرية الشيعية في حق آل البيت مع نظرية الحق الإلهي المقدس القديسة في التراث الفارسي كما خطر دون شك لبعض الايرانيين أن يصلوا الى بعض المركز السياسي في الدولة الجديدة وموقف أبي سلمة وأبي مسلم بعد الثورة دليل واضح على ذلك • لكن الأمور لم تسر تماماً على مايشتهي الايرانيون • فقد نجحت الثورة وبويع أبو العباس ثم أبو جعفر من بعده بالخلافة ووصل عرب خراسان الثائرون الى المناصب ولكن قتل أبوسلمة ثم أبو مسلم كما قتل الكثيرون من الدعاة العباسيين من عرب وغيرهم وسرعان ما تبين الايرانيون أن شيئاً لم يتغير لا على مستوى الحكم ـ الذي لم يصبح لآل علي ـ ولا على مستوى السياسة العامةالتياستمرت مركزية دموية كالأمويين ولا على مستوى السياسة المالية التي استمرت بعيدة عن التسوية والعدل ولا تختلف في الجشع المالي عن الدولة السابقة •

وبالرغم من ان العناصر الايرانية لم تكن هي الأساس في الثورة العباسية وكانت عنصراً إضافياً فيها إلا إن الايرانيين شعروا بسرعة أنهم لم يجزوا بمقدار آمالهم التي ثارت في نفوسهم من جهة ولا ـ على الأقل ـ بمقدار ما أسهموا وقدموا من عون في تلك الثورة من جهة أخرى •

وإذا كان انتصار الدعوة قد جاء بالبيت العباسي إلى الحكم فإنه قتل أبا مسلم ـ وهو شاب في السابعة والثلاثين ، مع انه اكبر الرؤوس الإيرانية في الدعوة وأهمها وهذا ما انعكس يأساً في جماهير الايرانيين ودفعها لأن تنظر ـ مع الأيام الى أبي مسلم باعتباره رئيساً دينياً ، أو

قوميا ، وأحياناً إماماً وأحيانا أخرى خليفة لزارادشت . أما في ذلك الوقت المبكر فكل ما تبين لتلك الجماهير بوضوح هو أن مفهوم الدعوة العباسية لديها وآمالها فيها كانت مختلفة تماماً عن غرض آل محمد العباسيين منها وأعقب الآمال العريضة موجة واسعة من اليأس والنقمة تجلت في اندفاع الايرانيين عامة وراء كل ثائر ، لا سيما وأن الكثير منهم وخاصة في تلك المدن التي قاومت الثورة العباسية ظلوا يحتفظون ببعض عواطف الولاء للأمويين أيضاً[1] .

وهكذا فإن هذا اليأس من العباسيين هو نفسه الذي دفع العناصر الناقمة من الايرانيين في مجاري مختلفة من الثورة والتمرد سواء كانت سياسية أو دينية ...

ـ فبعضهم وقد رأيناه ـ انضم الى حركات بعض دعاة العباسية الذي انقلبوا عليها مثل جهور العجلي . وعبد الجبار الأزدي ورافع بن الليـث .

ـ وبعضهم انضم الى الحركات العلوية في خراسان والديلم .

ـ وبعضهم أيد الخوارج في سجستان وخراسان وفارس وكرمان.

ـ وبعض أخيراً كان أكثر تطرفاً وجذرية لسبب رقة اسلامه أوغلبة

---

(١) ظل هذا الولاء في مثل بلدة اصفهان حتى أواسط القرن الرابع ويبدو أن لوجود مجموعة أموية في تلك المدينة أثره في تلك العاطفة التي سجل وجودها المقدسي البشاري لدى الزهاد والعباد في اصبهان (المقدسي ـ احسن التقاسيم ص٣٨٩) ولعلنا نذكر أن أبا الفرج الاصبهاني (من القرن الرابع) صاحب الاغاني المعروف هو حفيد مروان بن محمد . كما أن الشاعر الابيوردي كان من السلالة الأموية وظل يؤلف في انساب الأمويين في القرن الخامس الهجري .

الأفكار الزارادشتية أو رواسبها عليه فالتحق بالحركات المتطرفة •

ولا شك أن التذمر هو الذي كان يجمع بين الايرانيين وبين هذه الحركات وليس الايمان بها •

وتلك الأعداد الواسعة التي التحقت بدعاة العباسية أو بالخوارج أو بالعلويين أو بالثورات الدينية المنحرفة لم تكن كلها مؤمنة بما ناصرته من المبادىء بقدر ما كانت تجد فيها متنفساً لنقمتها ويأسها الكامن • وهذا هو السبب في أن موقف الايرانيين عامة من الحكم العباسي في الفترة الأولى كان يتسم بثلاثة اتجاهات : اتجاه يحاول التعاون مع الحكم العربي ولكنه كان يقمع باستمرار (كما جرى للبرامكة) واتجاه يهاجم هذا الحكم فكرياً وثقافياً فيما يسمى بالحركة الشعوبية واتجاه يثور أو يلتحق بكل ثورة •

وضمن خط الثورة نفسه وجدت ألوان من المتمردين الايرانيين يمتدون ما بين من يريد حمل العباسيين على تأكيد عباسيتهم إلى من يريد نصر العلويين إلى من يريد نصر الخوارج ورأيهم في التسوية ودفع الظلم عن المضطهدين إلى من يريد نسف أسس الدين الاسلامي نفسه بعضاً أو كلا بثورة دينية مناهضة ذات عقيدة جديدة • وضمن هذا الإطار الأخير تميزت الحركات الدينية الايرانية بثلاثة أمور :

ـ الأول أنها كانت تبشر بفكرة «مهدي» منتظر وزعيم منقذ وذلك لمعادلة اليأس العام وإرضائه •

ـ الثاني محاولة التوفيق بين بعض الأفكار الزارادشتية القديمة وبعض العقائد الاسلامية في ايجاد تكوين عقائدي جديد وهذا ما أوجد مضاعفات غريبة من العقائد البعيدة عن الاسلام •

ـ الثالث ارتباطها على الأغلب ـ كمـــا يقول براون ـ من ثورة سنباذ واستاذسيز الى بابك الخرمي ـ بذكرى ابي مسلم الذي جعلته تلك الحركات رمزاً وضخمت ذكـــراه مع الأيام وأدخلتـــه في الملاحم والنبؤات والأساطير الشعبية كشخصية بطوليـــة خارقـــة • وحين ظهر الشعور القومي الايراني في القرن الرابع صار يمثل ذلك الشعور ولهذا فقد لاحظ مؤرخونا القدماء ، كالبيروني والمقريـــزي وابـــن الجوزي وغيرهم أن تلك الحركات الفارسية كانت ذات هدف مزدوج هو هدم الاسلام وازالة الحكم العربي ، فكل تلـــك الفرق تعمـــل على محاربة الاسلام بالحيلة وبادعاء الايمان به • وبعضها أخذ ينتظر رجعة ابي مسلم ليملأ الارض عدلا ، ويعيد دولة المجوس ، ويستولي على الارض كلها ، ويزيل ملك العرب وغيرهم •

على أنه من الضروري ، قبل استعراض الحركات الدينيةاللاإسلامية في ايران أن نسجل ثلاث ملاحظات :

الأولى : ان اثر الدعاية المسلمية ظل مقصوراً على بعض نواحي ايران ، وعلى بعض الطبقات فقط وقد تنكب عنها ورفضها الايرانيون المسلمون • وكان هذا من أهم العوامل الداعية الى فشـــل حركاتها في العصر العباسي الاول •

الثانية : أن المواقف اليائسة والثورات التي كنـــا ذكرناها ، إن وجدت جغرافياً في ايران فإنها لم تكن مواقف خاصة بالايرانيين وحدهم فقد شاركهم في تلك المواقف والثورات عناصر من العرب الذين يسكنون ايران كما شاركهم أيضاً فيها الرعايا الآخرون في الشام ومصر وافريقية بدليل ما قامت لديهم من ثورات في تلك الفترة نفسها • على أن مشاركة

العناصر العربية في الثورات بإيران ضد العباسيين لم تصل درجة المشاركة في الثورات الدينية التي كانت خاصة بإيران والايرانيين وهذا يعني أنها كان تستقي أيضاً من ينابيع أخرى غير النقمة واليأس من عدل العباسيين. ويعني في لاإسلاميتها يمكن أن تعتبر نوعاً من الوعي القومي الايراني الذي استفاد أيضاً من ذلك الحلف الذي سبق العهد العباسي وجمع بين الجماهير العربية وبعض الجماهير الايرانية على مقاومـة الظلم الأموي والذي ظل يعمل على تغذية الثورات الأخرى غير الدينية ضد العباسيين الأوائل وقد تطورت هذه الأنواع من النقمة الدينية والثورة الاجتماعية والسياسية، مع الأيام لتصبح فيما بعد حركات محلية فارسية انفصالية.

الثالثة : أن الحركات الدينية الانحرافيـة بدأت في الواقع قبل إعلان الثورة العباسية بسنوات كثيرة. ظهرت ثورتهـا الأولى على يد خداش سنة١١٦ ثم ظهرت حركتها الثانية على يد بهافريد سنة١٢٩ فهي إذن حركة مستقلة عن الدعوة العباسية لحد كبير وسابقة لها في الجذور وقد استغلت الدعوة لجمع الأنصار من عامة الفرس ثـم آنست في نفسها من القوة ما سمح لها بالظهور العلني قبلها ومنفردة عنها مرتين مستغلة موجة الاضطراب العام في خراسان للتعبير عن بعض الآمـال الكامنة في نفوس الشعب الايراني الباقي على الزارادشتية أو الذي مايزال في نفسه شيء كثير أو قليل منها.

ويمكن ان نصنف تلك الحركـات حسب تباعدهـا عن العقائد الاسلامية في ثلاثة أقسام :

١ ـ الراوندية :

كان أهل خراسان ـ على حد قول محمد بن علي العباسي ـ قلوباً

فارغة وصدوراً سليمة لم تتقسمها الاهواء ولم تتوزعها النحل • ولهذا فان التشيع الذي عرفته لآل محمد لم يكن تشيعاً علوياً ولكنه كان تشيعاً على الطريقة التي شاء دعاة العباسيين تلقينها للناس ، أي تشيعاً لبني العباس • ولهذا السبب لانكاد نجد في كل الحركات الفارسية التي ندرسها غير طيف ضئيل من التشيع العلوي •

وتنسب الراوندية الى قرية رواند قرب نيسابور ، وهي فرق عديدة تتضارب فيها أقوال المؤرخين العرب : فيطلق بعضهم احياناً اسم الراوندية على كل الفرق ، ويطلق الآخرون الاسم على بعض منها • وهي عباسية العقيدة • ويظهر أنها نشأت في خراسان قبل مجيء ابي مسلم ، بتأثير بعض الافكار الشيعية ــ الحلولية (المأخوذة عن السبئية والكيسانية حسب رأي فلوتن) فقد زعم احد الراوندية ــ على رواية المدائني في الطبري[1] ــ ان الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن ابي طالب ثم في الأئمة ، في واحد بعد واحد . الى ابراهيم بن محمد ، وانهم آلهة ••• وربما دخلت في الراوندية بعض الافكار المزدكية ، كاشتراكية النساء •

ويبدو أن الحركة الراوندية لم تكن مقصورة على ايران فقد ظهر جانب منها في بلاد الشام فإن ابن العديم يذكر أنه «ظهر في سنة احدى واربعين ومائة قوم يقال لهم الراوندية خرجوا بحلب وحران وكانوا يقولون قولا عظيماً • وزعموا أنهم بمنزلة الملائكة وصعدوا تلابحلب، فيما قالوا ، ولبسوا ثياباً من حرير •وطاروا منه فتكدوا (ولعها فنكسوا)

---

(١) الطبري ج ٦ ص ١٤٧

وهلكوا ...[1]» ولعل هذه الجماعة كانت من الخراسانية التي وردت الشام مع عبد الله بن علي أو مع أبي مسلم ثم توطنت ، مع عقائدها ، فيـــه .

وقد درس الاستاذ الدوري[2] ، معتمدا على دراسة الاستاذ (صديغي) مشكلة الراونديـــة درساً وافيـــاً خرج منه بتقسيمهـــا الى مجموعتين :

الاولى : مجموعة تعتقد بانتقال الامامة من ابي هاشم الى محمد بن علي بالوصاية ، ولعلهم من أوائل من انضم الى الدعوة العباسية .وقد انقسموا بعد وفاة ابي العباس ثلاث فرق :

آ ــ فرقة تعتقد بامامة ابي جعفر ومن بعده المهدي .

ب ــ فرقة انشأها عبد الله الراوندي تعتبر ابا جعفر الامام القادر القدير ، وهو إله . ونبيه هو ابو مسلم الذي حلت به روح آدم . فلما قتل أبو مسلم عند أبي جعفر ، على يد عثمان بن نهيك وأربعة آخرين من الحرس ، زعم الراوندية أن روح آدم حلت في عثمان ...

وقد ثارت هذه الفرقة ضد المنصور «ربها الذي يطعمها ويسقيها» اذ جاء[3] بعضها من خراسان الى هاشمية الكوفة (حوالي٦٠٠شخص

---

(١) ابن العديم ــ زبدة الحلب (تحقيق الدهان ــ دمشـــق ١٩٥١) ج ١ ص ٥٩ ــ ٦٠

(٢) الدوري ص ٨٤ وما بعدها .

(٣) يذكر الدينوري انهم جاؤا طلباً لثأر ابي مسلم ولكن هذا الراي

في رواية الطبري) فسكنوا فيها وجعلوا يطوفون بقصر المنصور . ويقولون : هذا قصر ربنا ! وصعدوا الى قصر الخضراء ، واخذوايلقون انفسهم منه كأنهم يطيرون ... فتضايق المنصور منهم ، فحبس مائتين من زعمائهم . فثار الباقون واخرجوا اصحابهم وهجموا على القصر يريدون قتله وكادوا يقتلونه لعدم وجود الحرس الكافي ، لولا ان انقذه معن بن زائدة الشيباني ! وكان ذلك أحد الاسباب في البحث عن بناء عاصمة جديدة .

ويلاحظ ان المنصور قد تسامح معهم ، كما تسامح الدعاة من قبل في عقائد الايرانيين ، لجمع اكبر عدد من الانصار حولهم ، فلما جهروا بآرائهم أوقفهم . يدل على ذلك قوله لأبي بكر الهذيلي اذ دخل عليه قائلا : انهم ببابك يقولون : هذا رب العزة ! هذا الذي يطعمنا ويسقينا . فأجابه المنصور : «يا هذيلي ! يدخلهم الله النار في طاعتنا ويقتلهم ، أحب اليّ من ان يدخلهم الجنة بمعصيتنا» . ويلاحظ ان هذا الموقف ، أي الاستفادة من ـ الافكار المتطرفة ، ثم محاربتها ، موقف ظهر مثله في دعوة الفاطميين كما أنه نموذج من نماذج السياسة المكيافيلية التي عرف بها المنصور .

جـ ـ فرقة نقلت الامامة من ابي العباس الى ابي مسلم وهي فئتان : فئة اختلط بها بعض الخرمية ، وتسمى (المسلمية) وتعتقد ان

بعيد لانهم قلائل ولأن ثمة فترة طويلة بين مقتله وثورتهم ثم كيف يثأرون من الههم اذا هو قتل نبيه ويرى دوزي انهم جاؤوا لتقديم الطاعةللمنصور ، فلما سجن زعماءهم فقد الوهيته في نظرهم وفقد بالتالي حكمه ، لان فكرة شرعية الحكم متصلة عند الفرس بفكرة الالوهية .

ابا مسلم لم يمت ، وأنه في رأي بعضهم نبي ، ارسله زارادشت ، وفي رأي الاخرين حلّ فيه جزء الهي ، فهو فوق الملائكة • وفئة تعتقدموت ابي مسلم ولكنها تنسب إليه المعجزات والخوارق • وهم (الرزامية) اتباع رزام •

الثانية : مجموعة تتبع أبا هريرة الراوندي تعتقد ان الرسول أوصى بالامامة لعمه العباس[1] ثم ورثها عنه أولاده • وهي ، على ما يظهر من معتقدها ، احدث من المجموعة الاولى وتسمى (العباسية) • وقد تطرفت في تقديس ابي مسلم ، ونقلت الرياسة الدينية اليه • ولعل ذلك عن طريق ادعائه بانه من نسل سليط بن عبد الله العباسي •

ويعطيها المؤرخون المسلمون اسماء شتى ، حسب اسماء أو أو صفات دعاتها • فهي تارة خداشية مزدكية او مسلمية ، وتارة محمرة او مبيضة وتدعى أيضاً البركوكية والفاطمية (نسبة لفاطمة ابنة ابي مسلم) كما أخذوا يدعونها ، بعد عصر المنصور ، بالمقنعية والبابكية والرزامية الخ ••• وكل هذه الفرق ، في رأي المؤرخين المسلمين ، تطورات لمبادىء مزدك • يتفق في وصفها بهذا ابن النديم والشهرستاني والبيروني وابن الجوزي على السواء •

وقد جاء اسم الخرمية في رأي بعض الباحثين من خرم (اسم احدى بلاد ميديا) أو من كلمة (خرم) الفارسية ومعناها (لذيذ) يقول فان فلوتن «فاذا ما تكلمنا عن (خرم ــ دينيا) فنعني ان هؤلاء كانوا لا يعرفون ديناً

---

(١) انظر الرازي ــ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (طبعة القاهرة ١٩٣٨) ص ٦٣

غير اللذة • واذا ما جعل للنساء عندهم مكانة ارقى مما في البلادالشرقية الاخرى ، فانما ذلك بقصد الاستمتاع» لكن كتاب سياسة نامه لنظـام الملك (١٠٩٢) يرى أن خرم هو اسم زوجة مزدك • هربت بعد مقتله مع اثنين من اتباعه من المدائن الى الرّي واستمرت تبشر بمبادىءزوجها•

ومن المؤلفين القدماء من جعل اسم الفرقـة مشتقاً مـن الكلمة الفارسية «خرم» بمعنى مقبول على أساس أن اتباعها يعدون كل مقبول جائزاً شرعاً • ولعل الأرجح أن هذا الاسم مشتق من خرم وهي ناحية بأردبيل ، ولعل الفرقة قد نشأت فيها[1] •

والمطهر بن طاهر المقدسي في البدء والتاريخ ، يقـول وقد لقي جماعة من الخرمية في منازلهم : «هم فرق وأصناف غير أنهم يجمعون على القـول» :

أ ـ بالرجعة • ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم •

ب ـ ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم واديانهم يحصلون على روح واحد • وأن الوحي لا ينقطع أبداً •

حـ ـ وكل ذي دين مصيب عندهم اذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب • و لايرون تهجينه والتخطي إليه بالمكروه مالم يرم كيد ملتهم وخسف مذهبهم •

ء ـ ويتجنبون الدماء جداً إلا عند راية الخلاف •

هـ ـ ويعظمون أمر أبي مسلم ويلعنون أبـا جعفر على قتله •

---

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة خرم (ج٨ ص ٢٩٩ـ٣٠١ من الترجمة العربية) •

ـ ويكثرون الصلاة على مهدي بن فيروز لأنه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم •

ـ ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام ورسل يدورون بينهم ويسمونهم فريشتكان •

ـ ولا يتبركون بشيء مثل تبركهم بالخمور والأشربة •

ـ وأصل دينهم القول بالنور والظلمة •

ومن شاهدنا منهم في ديارهم ماسبذان ومهرجان قذق فإنا وجدناهم في غاية التحري للنظافة والطهارة والتقرب الى الناس بالملاطفة وتقديم الصنيعة ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء على الرضا منهن •

وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع مالم يعد على أحد بالضرر•» • ويضيف الاصطخري الى هذا أنهم في قراهم ومساجدهم يقرؤون القرآن غير أنه يقال إنهم لا يدينون في الباطن بشيء إلا الإباحة •••» •

توطنت هذه المبادىء كما يشير الطبري في شمال وغرب ايران • ويوضح ابن النديم المنطقة الجغرافية للخرمية بقوله : «وهم بنواحي الجبال فيما بين اذربيجان وارمينية وبلاد الديلم وهمدان ودينور منتشرون • وفيما بين أصفهان وبلاد الاهواز •••»[1] عششت الخرمية هناك حتى مجيء أبي مسلم وكان أكثرهم كما يقول المسعودي في القرى والضياع • وكانت هذه هي العناصر التي نجح أبو مسلم في ضمها أو

---

(١) ابن النديم ـ الفهرست ص ٣٤٢

ضم ولائها لبني العباس عن طريق شخصه .

ولم يكن في مبادىء الخرمية قبل ظهور أبي مسلم شيء يتعلق به وإنما كانت ديناً سلوكياً مشاعياً أقرب إلى الحياة المائعة إلى المعنى السياسي . ثم دخل عليها ، بعد ظهوره ، عنصر جديد حين أخذ هذا الرجل مكانة دينية خاصة جاءته دون شك من مكانتة السياسية التي كسبها ببروزه المفاجيء السريع بعد قرن من توالي الحكام العرب في المنطقة الايرانية . وقد تعلق الخرمية به تعلقاً يتراوح بين التقديس والنبوة والتألية . ولا شك ــ كما يقول صديغي ــ إن الخرمية جميعاً اعتبروه كرئيس ديني . وها هنا في الواقع مجال سؤال كبير يتعلق بنوع ومدى وسبب العلاقة الدينية بين أبي مسلم ــ وهو فيما نعرف مسلم وعباسي الهوى ــ وبين الخرمية المزدكية ...

ويظهر ان ابا مسلم كان يعرف نفوذه الديني القوي هذا ، ويرضى عنه ويعتد به ، تجاه الخلفاء الجدد من العباسيين ، فلما قتل نبعت الحركات المختلفة من مقتله . ومن هذه الحركات :

آ ــ ثورة سنباذ :

يقول المسعودي : « ... لما نمى مقتل أبي مسلم الى خراسان وغيرها من الجبال ، اضطربت الخرمية[1] ...» وثار سنباذ (أوشنفاذ أوسنفاذ ويسميه صديغي سنباد) في خراسان . يقول الطبري

---

(١) المسعودي ج٣ ص ٢٢٠ (ج٣ ص ٣٠٦ من طبعة محمد محي‌الدين عبد الحميد) .

« كمـا خروجه غضباً لمقتل ابي مسلم فيما قيل وطلبا لثـأره » [1] .
«وأخبر اتباعه ان ابا مسلم لم يمت وانه تلا اسم الله الاعظـم ، قبل أن يقتل فصار حمامة بيضاء وطار ...»

وسنباذ قروي من (أهن) احدى قرى نيسابور كان أحـد قواد جيش أبي مسلم ومن المقربين إليه وقد بدأ حركته في هذه المدينة ، فالتف حوله عدد من الخرمية والمزدكية والغلاة . واجابه كثير مـن طبرستان والجبال (شمال غرب ايران) وكانوا حتى ذلك الوقت مجوساً ويستظهر (صديغي) من هذا ان في الثورة روحاً قومية ، وجدت رمزهـا في ابي مسلم . يدلنا على هذا تبشير سنباد بين اتباعه بنهاية السلطـان العربي واعلانه انه سيذهب الى الحجاز ويهدم الكعبة ! ويبدو أن عدد أتباعه الذي بلغ ٩٠ ألفاً حسب بعض المصادر ومعظمهم من الخرمية أهل الجبال قد أغراه بهذا التحدي كما أغراه بأن يأخذ لنفسه لقب فيروز أصبهبذ أي القائد المنتصر .

وتسلط سنباذ على مابين نيسابور وقومس والري حتى همدان ، فيما لا يزيد عن شهرين وحاول رشوة اصبهبذ طبرستان وضمه الى صفه فأرسل إليه بعض خزائن أبي مسلم التي استولى عليها عند فتح الري (وكان ابو مسلم قد تركها هناك حين سار الى الحج) ولكن هذه المحاولة لم تفده كما لم تفده انتصاراته الأولية لأنه هزم امام الآلاف العشرة من الجنود الذين أرسلهم المنصور ضده بقيادة جهور بن مراد العجلي . وقتل ممن معه ـ على رواية المسعودي ـ ستون الفاً وسبيت ذراريهم ونساؤهم ثم قتل هو بدوره بين طبرستان وقومس . وحول المنصور

(١) الطبري ج٧ ص ٤٩٥ (٣/١١٩ ـ ١٢٠) .

اصبهبذة طبرستان الى ولد هرمز بن الفرخان وتوجّه • ويلفت النظر في هذه الحركة أمور عدة :

١) سرعة انتشار امر سنباذ ولم تدم حركته اكثر من سبعين يوماً• وهذا يعني أن جذورها الأولية كانت جاهزة قائمة منذ زمن طويل •

٢) كثرة اتباعه الذين بلغوا في تقدير (صديغي) تسعين أو مائة الف • ولعل في هذه الأرقام بعض المبالغة ولكنها تدل على أي حال على ماتوهم الناس من العدد الهائل لاتباع سنباذ •

٣) ولاء الخراسانيين لابـي مسلم ولاء سيستمر واضحـاً في الحركات المقبلة • وسوف يتضخم كثيراً مع الايام •

٤) ضخامة عدد المتذمرين مـن حكم العباسيين ، وهو بعد في أولـه •

٥) أن سنباذ كان «خرمياً» أو على الأقل لم يكن صحيح الاسلام والطبري ينسبه إلى المجوسية كما أن عامة أنصاره كانـوا من الخرمية يأضاً • وتنسبه بعض المصادر إلى المزدكية • فهل كان على الاسلام ثم ارتد ؟ أم أن ابا مسلم كان يجند ويحمي الانصار ـ أيا كانت عقائدهم سواء كانوا مسلمين أم مجوساً ؟

٦) أنه اعلن بصراحة بين شعاراته شعار إزالة الحكم العربي والاسلام وهدم الكعبة مع أنه كان قد ثار للأخذ بثأر أبي مسلم • وهي شعارات سياسية ــ دينية معاً تكشف بعض الاعماق الفكرية التي كان يستندإليها أبو مسلم نفسه ••

٧) أن الشعارات الأخرى التي أعلنها كانت تحوي بعض الأفكار المزدكية والزرادشتية بجانب بعض الأفكار الاسلامية التي تبنتها فيما بعد فرق الغلاة من الشيعة • وقد طلب الـى أنصاره التوجه إلـى الشمس بالصلاة بدل الكعبة • وهذا يعني أن مصرع أبي مسلم أوجد نوعاً من

الردة الدينية أيضاً بجانب ما أثار من مشاكل سياسية وثورية •

٨) سرعة انهيار الحركة • ويبدو أن تلونها باللون المجوسي الواضح واجتماع العرب المسلمين المستقرين في الجبال بقيادة عمر بن العلاء ضدها وتأييد الموالي من الفرس المسلمين للسلطة العباسية هو الذي هزم الحركة •

لكن فشل سنباذ زاد في مرارة اليأس عند الخراسانيين فبينما نراهم ينضمون بسرعة بعد فترة قليلة الى جهور بن مراد العجلي نفسه حين ثار نجد أن «السنباذية» سوف تغلغل بين العامة وتبقى ضمن العقائد المحلية في الري وقزوين حتى مابعد القرن الخامس الهجري •

ب ــ ثورة اسحق الترك :

هو ، من دعاة أبي مسلم الذين هربوا عند مقتله الى ما وراء النهر (ولهذا دعي بالترك حسب قول ابن النديم • وبعضهم ينسبه الى ولد يحيى بن زيد بن علي وبعضهم يجعله أمياً من أهل ما وراء النهر) • ثار اسحق لمقتل مولاه وادعى ان ابا مسلم حي سجين في جبال الري ، وسيخرج في وقت معين • ويذكر ابن النديم[1] ادعاءه انه نبي أنقذه زارادشت الحي الذي لايموت والذي سوف يخرج ليقيم هذا الدين ••• واجتمع اليه (المبيضة) انصار ابي مسلم • ولئن قبض والي خراسان ابو داوود خالد الذهلي عليه وقتله سنة ١٤٠، فان شيعته التي تسمت بالمسلمية استمرت في الخفاء • ويذكر ابن النديم وجودها في عصره (القر الرابع) ولكن في الخفاء في قرية خرنباد حول بلخ وتسمى

---

(١) ابن النديم الفهرست ص ٣٤٤ ــ ٣٤٥

بالمسلمية الحرمدينية كما يذكر المستشرق بارتولد ان بعضها كان يعيش في قرى بلخ في القرن الثاني عشر (السادس الهجري) • وربما استطعنا في تقييم أخير للحركات التي نجمت عن مقتل ابي مسلم أن نسجل هذه الملاحظات :

أولا ــ أنه أوجد ردود فعل دينية ــ سياسية معاً ، وكانت هذه الردود مباشرة مما يدل على عمق تأثر الايرانيين بشخصيـــة أبي مسلم وأعمالـــه •

ثانياً ــ أن هذه الردود ظهرت في مناطق عدة من خراسان منذالري الى بلخ إلى نيسابور ثم الى ما وراء النهر حيث تعيش أيضا شعوب تركية• مما يدل على سعة نفوذه في الرقعة الجغرافية •

ثالثاً ــ أن ردود الفعل هذه ظهرت بأشكال عديدة حسب المذاهب المجوسية فبينما تظهر كما قال صديغي علاقة ابي مسلم بمزدك فيحركة سنباذ ترتبط علاقته بزرادشت في حركة اسحق التـــرك والرزامية • وكانت الحركات دوماً ثورية دينية وسياسية •

رابعاً ــ أنصار كافة الحركات ، بعد فشلها ، كانوا يتحولون الى جمهور مستعد لتأييد كل ثورة فأتباع سنباذ انحازوا الى جهور العجلي وجماعة اسحق الترك انضموا إلى عبد الجبـــار الازدي في تمرده على العباسيين بقيادة زعيمهم الجديد براز • وفي هذا دلالـــة على القطيعة الكاملة التي سرعان ما قامت بين البيت العباسي الذي استقر في العراق وبين الاقليم الذي احتضن ثورتـــه وأيدها وأوصلهـــا الـــى النصر : خراسان •

٣ ـ الحركات المارقة :

وهي التي كشفت عن علاقتها الصريحة بالعقائد القديمة • وإنما جرأها على الظهور النصر الذي شارك الفرس مع غيرهم في إحرازه ضد العرش الأموي • ونعد من هذه الحركات :

آ ـ ثورة بهافريد (بهأفريد): وقدظهر في نيسابور منذسنة ١٢٩ قبل خلافة أبي العباس يدعي النبوة ـ كما قالوا ـ وأنه خليفة زارادشت (صدق زارادشت) •

ويبدو أن الرجل كان على شيء من الثقافة والايمان ببعض المبادىء الأخلاقية وله بعض الاطلاع على مبادىء الاسلام بجانب الزارادشتية وقد أفاد من التطواف في الآفاق مابين ما وراء النهر الى الصين قبل أن يقر في نفسه وضع عقيدة جديدة باسمه • ويروي البيروني: أن بهافريد عاد من الصين بعد غياب سبع سنين «وحمل من طرفها مع نفسه قميصاً أخضر يسع مطوياً قبضة الانسان دقة ونعومة وصعد الى ناووس ليلا ثم نزل منها بالغداة وبصر به رجل حراث يكرب أرضاً له فأخبره أنه كان في السماء مذ غاب عنهم وأن الجنة والنار عرضتا عليه وأوحى الله إليه وألبسه ذلك القميص وأنزله الى الأرض في تلك الساعة• فصدقه الحراث وأخبر الناس بأنه شاهده وهو ينزل من السماء [1] •••»

ويتفق البيروني مع ابن النديم وغيره في أن دعوة (به آفريد) قد

---

(١) البيروني ـ الآثار الباقية ص ٢١٠

لاقت رواجاً واسعاً في الناس « واستجاب له خلق كثير[1] » من المجوس ولعل السبب في ذلك أن الرجل حين رأى دخول الزارادشتيين المتتابع في الاسلام أراد أن يقطع الطريق على هذا التطور الديني بنقل محاسن ما يراه الناس في العقيدة الاسلامية الى الزارادشتية نفسها وتطوير تلك العقيدة في الاتجاه الأسلامي •

وهكذا أدخل بهافريد تعديلات أساسية على المجوسية تأثر فيها بوضوح بالروح الاسلامية وبشيء من البوذية فأمر أصحابه بترك شرب الخمر أو أكل الميتة أو نكاح الأمهات والأخوات والبنات وبنات الأخ كما فرض عليهم سبع صلوات في اليوم ، كل صلاة لأمر • وأولها في توحيد الله وجعل التوجه أثناء الصلاة الى الشمس حيثما استدارت بدل التوجيه الى الكعبة • وهذا التحول المجوسي إلى التوحيد هوتحول هام فقد كانت الزارادشتية قد تحولت إلى العقيدة الثنوية • ولعل مبدأ الرجعة (الذي اقتبسه بهافريد عن الشيعة الغلاة) كان هأم مبادئه فقدظل أتباعه قروناً من بعده ينتظرون عودته •

وقد استغل بهافريد فرصة الاضطراب والفوضى التي وقعت بها خراسان إثر اعلان الثورة العباسية لنشر دعوته وأفكاره ، في منطقة نيسابور التي ظهر فيها وجبال باذغيس حيث كانت الزارادشتية ما تزال مستقرة بين السكان وقد تقبل عامة المجوس هذه التعديلات الجديدة على الديانة القديمة واتبعوها لأنها في الوقت الذي تربطهم فيه مع دين الحكام لا تقطع صلتهم مع دين الآباء الذين مضى على توطده فيهم ثلاثة

---

(١) ابن النديم ــ الفهرست ص ٣٤٤

عشر قرناً على الأقل حتى ذلك الوقت • ولا بد من الاشارة الى أن في تاريخ المجوسـية الزارادشتية محاولتين أخريين من هـذا النوع قامتا لتجديدها إحداهما قام بها ماني في القـرن الثالث الميلادي فأوجد بها المانوية موفقاً فيها بين الزارادشتية والمسيحية التي انتشرت وانتصرت في تلك الفترة ، والثانية قام بها مزدك في القرن السادس محاولا حل مشاكل الظلم الاجتماعي برد أمره الى أمرين : المال والمرأة وضرورة حل ذلك الظلم باباحة هذين المصدرين من مصادر البلاء ! ولهذا لم يكن غريباً أن يظهر (بهافريد) في محاولة جديدة ثالثة لتطوير المجوسـية على أساس مبادىء الاسلام الآخذة مع هذه المحاولة التوفيقية التي ترضى قناعاتهم الأولى • وقد صاغ بها بهافريد أفكاره في كتاب كتبـه بالفارسية وزعم أنه وحي يوحى •••

ويبدو أن بهـافريد وجه همه لبعض الاصلاحـات العمرانيـة والاجتماعية ففرض على اتباعه دفع سبع أموالهم وكسب أعمالهم (مقابل الزكاة الاسلامية أو مقابل خمس الغنائم) لتعمير الطرق وإصلاح القناطر كما منع أن تتجاوز المهور ٤٠٠ درهم ، وأمر باطـلاق الشعور والجمم ومنع الزمزمة عند الطعام كما حرم ذبح الأنعام الا ما هرم منها ولعل السبب في ذلك ضرورة استخدامهـا في العمـل الزراعي والحرث • فالزارادشتية تحث على العمل وكسب الرزق والانتاج والزراعة والرعي • فشق الأرض بالمحراث خير عندهم من تقديم ألف قربان للآلهة وعشرة آلاف دعاء وهذا ما يكشف الجذر الاقتصادي وطابع الثورة الفلاحية في الحركة التي لا تشك أنها هددت بذلك طبقات الكهنة المجوسية المتحالفة مع الاقطاعية الايرانيـة ودعت الطرفين للتعاون معـاً على مكافحته واستعداء الحكم الاسلامي ضدها •

ومقارنة أفكار بهافريد بالزارادشتية الأولى تكشف أن الرجل حاول إعادتها لحد ما الى مبادئها الأولى في التوحيد فقد كانت في الأصل موحدة تحارب الشرك والاصنام كما تؤمن بالبعث والحساب والجنة والنار والصراط في اليوم الآخر وهذا التشابه هو الذي استغله بهافريد فأضاف إليه بعض المبادىء الاسلامية لإقامة عقيدته •

وهذا بالضبط ما أثار عليه كهان المجوسية المحافظين أكثر مما أثار المسلمين لأنه «خالف المجوس في أكثر الشرائع» بحركته الملحدة ، لهذا اجتمع الهرابذة والموابذة الى أبي مسلم حين قدم نيسابور وشكوا إليه بهافريد الذي «أفسد دين الاسلام ودينهم» • ويذكر البيروني أن أبا مسلم بعث عبد الله بن شعبة إليه من الجبال « فحمله إليه فقتله ، ومن ظفر به من أتباعه» بينما يذكر ابن النديم أنه قبل العودة للاسلام أولا وسود ثم استمر في «كهاناته» فقتل سنة ١٣٧ ويذكر الشهرستاني أن قتله كان على باب الجامع في نيسابور وأن الذي سلمه هو موبذ المجوس[1] •

على أن البهافريدية لم تمت بموت صاحبها • فقد قامت في باذغيس سنة ١٥٠/٧٦٧م ، في عهد المنصور نفسه ، بزعامة رجل يدعى أشناس • كما يشير ابن النديم الى وجودها في القرن الرابع الهجري • ويشير البيروني إلى أن البهافريدية استمروا بعد زعيمهم «يعادون المجوس عداوة شديدة ويزعمون أنه صعد السماء على برذون وسينزل إليهم كما صعد وينتقم من أعدائه •••» •

---

(١) انظر الشهرستاني – الملل والنحل (ط . الكيلاني – القاهرة ١٩٦١) ج١ ص ٢٢٨ – ٢٢٩

ثورة استاذسيز :

قامت هذه الثورة ، في خراسان سنة١٥٠هـ •وقدتجمعت فيها على ما يبدو من اتساعها ــ كافة الطبقات الحاقدة هناك على العباسيين ، كما انعكست فيها ــ على ما يبدو من عنفها ــ كل عقابيل الآمال الفاشلةالتي عقدها الخراسانيون على العباسيين فخابت ، وكل المرارة التي أصابتهم بانهزام ثوراتهم المحلية المتتالية • كانت نوعاً من المحاولة الأخيرة للتعبير عن رفض العرش العباسي لدى اولئك الذين ساهموا في إقامته ورجوا من وراء تلك المساهمة مكاناً من المكان في الدولة الجديدة •

واستاذسيز الذي تزعم الثورة كان على ما يظهر أميراً على بعض الجيوش الخراسانية فخرج بها ــ كما يقول السيوطي ــ عن الطاعة • وسرعان ما استطاع الاستيلاء على مدن خراسان واحدة بعد الأخرى وبعد أن احتل هراة ومنطقة سجستان اتجه الى مرو الروز عاصمة خراسان «وعظم الخطب واستفحل الشر وعظم على المنصور الأمر ••• وبلغ ضريبة الجيش الخراساني ثلاثمائة الف مقاتل ما بين فارس وراجل فعمل معهم أجشم المروزي (قائد مرو) مصافاً (فلم يستطع الوقوف لهم) فقتل أجشم واستبيح عسكره •••» • في الوقت الذي كان فيه يزيد بن منصور والي خراسان (وخال الخليفة المهدي بن المنصور) يهرب من بست عاصمة سجستان بعد معارك قاسية إلى نيسابور ••

وقد ظهر هناك قائد يساعد استاذسيز اسمه الحريش قراد في إرباك الموقف العباسي كله في المشرق •

وبالرغم من أن المصادر تتهم استاذسيز بادعاء النبوة ويذكر

الشهرستاني أن السيسانية تحمل مبادىء بهافريد ذاتها وأن الاثنين فرقة مجوسية واحدة فكأن ثورة الثاني استمرار لحركة الاول إلا إن هذا الاتهام لا يسانده في الواقع إلا ظاهرة وجود الاعداد الهائلة من المجوس مع أستاذسيز • من خراسان وسجستان على السواء • ولكن شكل الحركة السياسي يشكك في هويتها الدينية وقد يحمل على الظن ـ مع عدم وجود أي فكرة دينية مجوسية جديدة يعلنها أستاذسيز ـ أن الاتهام الديني بالنبوة لم يكن إلا تبريراً عباسياً دعائياً • وما كانت الحركة ، في هذه المرة على الأقل سوى ثورة سياسية ضد المنهج العباسي في الحكم، هذا المنهج الذي لم يخفف من الظلم الأموي السابق شيئاً بل لعله زاد من وطأته على الفقراء والفلاحين والمستضعفين بعد أن كانت الدعوة العباسية نفسها قد فتحت عيونهم على آفاق وآمال جديدة •

وقد اختار المنصور لمقاومة هذه الثورة الشاملة ابنه المهدي أرسله مع الجيش فعسكر في الري ثم أتبعه بأعرق قواده : خازم بن خزيمة التميمي الخراساني • لكن المعارك الأولى مع جماعة استاذسيز كانت خاسرة بسبب تضارب القيادات وتوزع الجيوش • وطلب خازم من المهدي أن يعهد إليه بالأمر كله ويجمع في يديه قيادة الجيوش كلها ففعل ولما لم ينفع ذلك في تحطيم الثورة طلب المهدي نجدة القوى في طخارستان • وعسكر خازم وخندق في مكان حصين قرب نيسابور واستطاع في حركة انسحاب مخادعة أن يعاود الكرة على جموع استاذسيز والحريش معه ويهزمه في موقعة دامية عنيفة بلغ عدد قتلاها فيما تذكر المصادر سبعين ألفاً وعدد الأسرى أربعة عشر ألفاً ضربت أعناقهم أيضاً •••

وهرب استاذسيز في الجبال مع أعداد من جنده فلحقه خازم وحاصره مدة حتى استسلم فأرسل في القيود الحديدية الى بغداد حيث

قتل بينما عفا المهدي عن ثلاثين ألفا من جنـده الذين استسلموا معه . وهدأت خراسان كما استطاع جيش يقوده عبيد الله بن العلاء أن يدخل (بست) عاصمة سجستان سنة١٥١ ويعيدها إلى الطاعة العباسية. وعاد المهدي تلك السنة إلى بغداد ليستقبل فيها الاستقبال الحافل .

حـ ـ المقنع والمقنعية (١٥٩ ـ ١٦٣/٧٧٦ ـ ٧٧٩)

وبالرغم من أن هذه الحركة قد قامت بعد وفـاة المنصور بسنة واحدة واستمرت في عهد ابنه المهدي فإنها في الواقع خاتمة تلك الحركات «الملحدة» أو «المسلمية» التي قامت في نسق متصل في خراسـان مدة تقارب نصف قرن (ما بين حركة خداش ١١٦ ونهاية المقنع ١٦٣)

وصاحب الحركة المقنعية هو هاشم بن حكيم[1] (وقيـل حكيم أو عطاء) وهو قصار من مرو وأصله من قرية حولها يسمونها (كازه) أو (كاوه كيمردان) . كان أبوه أحد القواد في خراسان أيام المنصور ويبدو أنه حصل بعض العلوم «وتعلم الشعبذة والنيرنجات والطلسمات ... وكان في غاية الذكاء ... وصار بارعاً للغاية في السحر ...» وقد عمل هاشم هذا في قيادات خراسان أيام أبي مسلم ثم صار «وزيراً» أي كاتباً للوالي عبد الجبار الأزدي وأسر معه حين أسروأخذ الى بغداد ثم أطلق فعاد الى مرو ثم ادعى الألوهية لا النبوة . وقد لقب بالمقنـع لتبرقعه بالحرير الأخضر أو لاتخاذه وجهاً من ذهب[2] زعم في تعليله أن ....

---

(١) البغدادي ـ الفرق بين الفرق ص ٢٤٤ والنرشخي ـ تاريـخ بخاري ص ٩٤ .

(٢) النرشخى ص ٩٤ وابن الأثير ٦ ص٣٨ والفخري ص ١٣٢ .

الناس لايستطيعون تحمل نوره فلهذا اتخذه كي لايحترقوا بينما يقول المؤرخون المسلمون انه كان اعور أصلع مشوه الخلق «في غاية القبح» فأخفى بذلك وجهه الشائه .

وتقوم عقيدة المقنع على فكرة الحلول والتناسخ «فالله ـ كما يروي له النرشخي والفخري[1] ـ خلق آدم فتحول في صورته . ثم في صورة نوح وهلم جرا (أي الى ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد) ثم الى ابي مسلم الخراساني ثم الى هاشم . وهاشم في دعواه هو المقنع» وهكذا ادعى الالوهية وانه تجسد اذ ليس لاحد ان ينظر اليه قبل التجسد» ولكنه ـ على مايذكر البيروني[2] ـ لم يظهر ذلك لجميع اتباعه وكان يكتب لأتباعه : «اعلموا أن الملك لي ولي العزة والربوبية ولا إله غيري[3] ـ»

ويذكر القزويني في آثار البلاد وابن خلكان ان آية المقنع (قمرا) اظهره للناس فكانوا يرونه من مسافة شهر من محله وبقي ذكره في الناس والأشعار والقزويني فسر ذلك القمر بانه «ماكان الا بطريق الهندسة ، وانعكاس شعاع القمر على طاس كبير مملوء بالزئبق في قعر بئر[4]» وقد ذكر النرشخي أنه استخدم انعكاس الشمس في المرايا على أتباعه حين ألحوا في رؤيته .

وقد تعددت لدى المؤرخين مبادىء المقنع وتنوع ما يحمل عليه من

---

(١) البيروني ص ٢١١ وابن الأثير .
(٢) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ج/١/ص ١٣٢ .
(٣) النرشخي ـ تاريخ بخاري ص ٩٥ ـ
(٤) البغدادي الفرق بين الفرق ص ٢٤٣ .

الأفكار وخلاصة ما يذكرون :

أ ـ أنه ادعى الالوهية • وقد أجمعوا على ذلك •

ب ـ أنه قال بالحلول والتناسخ فقد حل الله في سلسلة الانبياء إلى محمد ثم بأبي مسلم ثم المقنع •

حـ ـ أنه قال بالرجعة وأنه سيعود إلى الأرض لنشر العدل •

ء ـ أوصل أبا مسلم لدرجة الألوهية (كما فعلت الرزامية) •

هـ ـ اسقط كافة الفرائض عن أتباعه وألغى الحلال والحرام •

و ـ أعلن التعاليم المزدكية من إباحة للمـال والمرأة وطبقها بين أتباعـه •

ز ـ رفض السلطة العباسية وتحالف مع الترك ضدهـا • وأباح لاتباعه ولهم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم •

وهكذا فقد جمع المقنع عددا من المبادىء في حركته • واستعراضها يكشف أن المقنع كان «رزامياً» (من الفرقة التي تمادت في تقديس ابي مسلم حتى احلت فيه روح الاله بطريق التناسخ) وإذا نظرنـا في الذي يذكـره النرشخي وابن الاثير والبيروني والشهرستانـي من اجتماع «المبيضة» (وهم من جماعة ابي مسلم) حوله ، ثبت لنا اتصال الحركة بدعوة ابي مسلم الخراساني وإن ظلت هذه الجماعة تعمل منفصلة عنه على ما يظهر • على أنا نلاحظ فيها الى هذا وجها دينيا مزدكياً (خرمياً) من جهة وآخر سياسياً قومياً (فارسياً) من جهة أخرى •

فبمادىء خرم المزدكية في المشاعية ظهرت لدى المقنع الذي ابـاح لاتباعه ـ كما يقول البيروني ـ «الاموال والفروج وشرع لهم جميع ماأتى به مزدك» • والبغدادي يقول إنه «اباح لاتباعه المحرمات وحرم عليهم القول بالتحريم واسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات» •

ثم أن الرزامية نقلت الامامة من العباسيين الى الزعيم الفارسي ابي مسلم فهي بذلك لاتعترف بامامة العباسيين أو بسلطتهم واذا كان هـذا يفسر التفاف (المبيضة) حولها فانه يبين في الوقت نفسه أن في الحركة جذوراً سياسية أيضاً لا سيما واننا نجد جميع العناصر الساخطة على العباسيين(لاسباب مختلفة) تجتمع اليها : فامير بخارى (بخاراخدات) يؤيد الثورة (ولهذا قتل بعدها) وخاقان الترك يساعد المقنع (كما ذكر ابن الاثير) والاتراك «الخلجية» كانوا معه واهل الصغد • فهي إذن حركة مثلثة الأقطاب فيها وجه العلاقة مع الحركات المسلمية ولكن فيهاأيضا إثبات الزارادشتية ــ المزدكية ورفض الاسلام ، مع إقامة الجبهةالايرانية ــ التركية ضد الحكم العباسي العربي ولعل فيها لذلك وجهاً رابعاً يعقد نوعاً من الصلة عن طريق مبادىء الرجعة والحلول بينها وبين بعض الأفكار الشيعية الغالية •

وقد انتشرت حركة المقنع من خراسان الى ما وراء النهر : فعبرت جيحون الى نواحي كش ونسف • وجعل صاحبها مركزه في بلدة (نرشخ) قرب بخاري • ويبدو أن هذه الحركة مرت بثلاثة أطوار : فقد ثار في البدء جماعة المقنع نفسه إثر انتشار تعاليمه • وكان مختفياً في هذه الفترة في مرو بينما كان دعاته يجوبون أنحاء خراسان في الدعوة له فأضلوا كثيراً من الناس حسب ماكرر النرشخي في القول وكان أكثر مالقيت الدعوة من التجاوب في قرى بخارى وقرى السغد • ثم دخلت حركته مرحلتها الثانية حين وجد فيها المبيضة أصحاب أبي مسلم في خراسان وما وراء النهر مجالا لتحقيق ثورتهم فانضموا إليها ووحدوا جهودهم معها ثم كانت المرحلة الثالثة حين انضم الترك الى الحركة لا عن ايمان بالمقنع وتعاليمه والتحاق بثورته ولكن كعنصر ثالث يريد الاستفادة من الحركة في دفع الحكم العربي ــ الاسلامي إلى الوراء : وفي هذه المرحلة

الثالثة انتقل المقنع من مرو وخراسان إلى ما وراء النهر وجعل لنفسه قلعة جبلية حصينة عند نرشخ اسمها سيام أو بسباب : اتخذها مقراً وسكناً يحج إليـه الناس •

وقد تعاون المبيضة مع المقنعية مع الترك في تحالف سياسي عسكري ـ عقائدي فأرهقوا القوات العباسية في المنطقة جميعها بالمعارك والهجمات وقطع الطرق على القوافل ونهب القرى وسبي المسلمين وابنائهم «حتى اشتد البلاء على المسلمين» شـدة كبيرة[1] • ويبـدو أن بعض العرب المتوطنين مالأوا المقنع وانضموا الى الايرانيين والترك في دعمه ويذكر النرشخي اسم عبد الله بن عمرو الذي أيد المقنع وزوجه ابنته !

وعجز والي خراسان حميد بن قحطبة الطائي عن ضبط الأمر بل عجز رغم الحاميات التي نصبها لمراقبة شواطىء نهـر جيحون عن منع المقنع من العبور الى ما وراء النهر وارتبكت الأمور في خراسان وبخارى نفسها ببعض الأحداث والمضاعفات التي أطالت من أجل الثورة المقنعية• فبالرغم من أن القائد الذي عينه المهدي لما وراء النهر : جبريل بن يحيى استطاع بعد أربعة أشهر من القتال حول بخارى أن ينتصر ويجبر المقنعية والمبيضة على الانكماش الى قواعدهم إلا إن ثورة محلية قامت عليه في تلك المدينة هي ثورة يوسف البرم الخارجي سنة ١٦٠ فأجبرته على التوقف ومع أنها أخمدت بسرعة إلا إن ولاية خراسان ـ الأم اضطربت بدورها إذ توفي واليها حميد بن قحطبة فتلاه ابنه عبـد الله الذي لم يلبث أن استبدل به أبو عون عبد الملك الازدي ثم عين بدلا عنه وال رابع هو

---

(١) انظر تفاصيل هـذه الأحداث لدى النرشخي ـ تاريخ بخاري ص ٩٤ ـ ١٠٤ •

معاذ بن مسلم سنة ١٦١ مما أربك العمليات الحربية ضد الثائرين .

وقد جمع معاذ أقصى مـا يستطيع من آلـة الحرب ومن أعداد المحاربين (٧٥ ألفاً)[1] في بخارى وقصد السغد وسمرقند وخاض مـع المبيضة ومع الترك حروباً دامت مدة عامين ، ربح بعضها وخسر بعضها الآخر ثم يئس من النصر النهائي واختلف مع القائـد سعيد الحرشي أمير هراة فطلب إعفاءه وتولى المسيب بن زهير الضبي أميراً على خراسان في مرو سنة ٧٧٩/١٦٣ فجاء بخارى ليتولى بنفسه قيادة المعارك .. التي نصب لقيادتها سعيد الحرشي نفسه كما أرسل حاكم بخارى الجنيد بن خالد الى الثوار في خوارزم ... وإذا كانت حركة المقنـع تكشف عن انتشار الفقر والجهل بين الطبقات القروية في خراسان وما وراء النهر وكان انضمام المبيضة إليها دليلا على تأصل المجوسية هناك ووجود جموع كبيرة ما تزال عليها في تلك المناطق كما تحقـد على انتشـار الاسلام والمسلمين فمما لا شك فيه أن انضمام الترك بدورهم وبهذا العنف ، الى الحركـة إنما هو يقظة لتلك المعارك القديمـة التي خاضوها ضد التوغل العربي الاسلامي في ما وراء النهر في أواخر العهـد الأموي والتي استطاع نصر بن سيار في النهاية تهدئتها . وهي تعود الآن ، بعد ثلاثين سنة في تتمة جديدة ذات ثوب ديني رقيق جعلته ستاراً أو استغلت مناسبته لمعاودة النضال للهدف القـديم : رفض التوغل الاسلامي في في المنطقة .

ولا شك أن السلطات العباسية المركزيـة قدرت ، بعـد تمادي

---

(١) يذكر النرشخي (تاريخ بخاري ص١٠٠) انه جمـع ٥٧٠ الفاً ولعلها ٧٥ الفاً .

الثورة ، مدى أخطارها ومعناها الحقيقي لدرجةأن الخليفة المهدي نفسه انتقل الى خراسان لمراقبة الموقف .

وقد استطاع الحرشي في النهاية حصار المقنع حيث اعتصم في قلعة سيام وطال الحصار أربعة عشر شهراً فيما يظهر[1] والمقنع صامد في حصنه الذي كان يحيط به من دونه قلعة واسعة اجتمع فيها من انصار المقنع حوالي ثلاثون ألفاً . فلما ضيق سعيد الحرشي عليه وأتى بجلود الجواميس ليملأها تراباً ويجعل منها جسراً على الخندق «فتح قائد (المقنع) الباب وخرج طائعاً واعتنق الاسلام واستولى المسلمون على القلعة» أما المقنع فلم يبق معه سوى ألفين من الرجال وحين عرف أنه لا يمكنه الاحتفاظ بالحصن الداخلي طويلا قام بعملية انتحار جماعية من نوادر ما يحدث في التاريخ (جرى مثلها عند حصار قرطاجة في نهاية الحروب البونية مثلا) . ويذكرون أنه سقى نساءه وأهله بعض الشراب المسموم فلما تهاووا أمواتاً قتل غلامه الأخير وكان قد أحمى التنور ثلاثة أيام وأذاب فيه النحاس والقطران فألقى بنفسه أخيراً في النار الموقدة ! كان ذلك على الأرجح سنة ١٦٣[2] .

وهذه الخاتمة الانتحارية التي اختارها المقنع لحياته وإن كان

---

(١) ذكر النرشخي (تاريخ بخاري ص ١٠٣) أن الحصار دام ١٤ سنة وهو خطأ واضح ولعله كان يريد أن يقول ١٤ شهرا كما نرجح أو لعل الناسخ الفارسي للكتاب الأصلي اخطأ فوضع كلمة سنة بدل كلمة شهر .

(٢) يذكر النرشخي أن نهاية المقنع كانت ١٦٧ وأما البيروني فيجعلها ١٦٩ ثم يذكر النرشخي نفسه والبغدادي أن حصاره استمر ١٤ سنة ويبدو أن ذلك من خطأ المؤرخين .

القصد منها أن لا يظفر العباسيون به أو بأهله وهو يعرف مصيره بين أيديهم ، إلا إنها سمحت لمبادئه أن تستمر من بعده ولأتباعه أن لا يفقدوا الأمل بعودته • فإحراق نفسه في اللحظة الأخيرة «زاد في افتتان من بقى من أصحابه» فزعموا أنه صعد الى السماء • ويقولون إنه وعد بالعودة في شكل رجل أشمط على برذون أشهب بعد عدد معين من السنين فهم ينتظرونه • ولدى المقدسي والبغدادي والبيروني وابن العبري إشارات متعددة تدل على وجود المقنعية في مواضع مختلفة مما وراء النهر حتى القرن السابع الهجري (١٣م •) وأنهم متخفون ويظهرون الاسلام •

٤ ـ مشكلة طبرستان •••

هذه المنطقة الجبلية الصعبة في شمال ايران •على الأطراف الجنوبية من بحر الخزر شكلت بالنسبة للمنصور والخلفاء من بعده مشكلة ايرانية من نوع آخر • اشتبك فيها عامل الاستقلال المحلي المتمثل في أسرة حاكمة قائمة مع العامل الديني المتمثل في مذهب الخرمية الحرة وطبرستان إحدى البؤر الرئيسة لهذا المذهب • وقد كانت منذ الفتح العربي والعهد الأموي تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي والديني تحت حكم أسرتها الحاكمة •

وكانت علاقة اصبهبذ طبرستان بالعرب إنما تنظمها خاصة معاهدة أردبيل التي عقدها معه حذيفة بن اليمان سنة ٢٢هـ/٦٢٤ أيام الفتوح وتتضمن تحديد الخراج السنوي للعرب والحرية الدينية والسياسية للطبريين وقد حددت هذه المعاهدة زمن سليمان بن عبد الملك • ولم يكن ذلك بالأمر الجديد على طبرستان فقد اعتاد ملوكها شراء استقلالهم الذاتي من الساسانيين بجزية سنوية •

وحين قامت الثورة العباسية قبل الاصبهبذ دفع الجزية السنوية هذه للعباسيين لما سار جيشهم الى العراق • وقد توسط خالد البرمكي في ذلك • وأول أزمة بين الاصبهبذ والدولة الجديدة إنما كانت حين والى أهل طبرستان ثورة سنباذ (اثر مقتل أبي مسلم) وحين أنفذ سنباذ بعض خزائن أبي مسلم الى الاصبهبذ • ويروي لنا ابن اصفنديار[1] في تاريخ طبرستان والطبري كلا هي قصة انتهاء الاستقلال السياسي لهذه المنطقة إثر تلك الأزمة التي لم تكن سوى المبرر الظاهري لأطماع المنصور • فإن خليفة بغداد كان يعلم شأن خراسان وأهلها في قيام العباسيين ودعمهم والطريق بين خراسان وبغداد تمر باستمرار في منطقة الجبال على أطراف طبرستان • وقد جعل المنصور إقامة ابنه المهدي في الرى في تلك الأطراف مدة طويلة (١٤٠ ــ ١٥١) خوفاً من أي تحالف محتمل بين ثوار خراسان المتعددين ودولة الاصبهبذ •

وطبيعي أن يفكر المنصور في الخلاص من هذا «الجيب» غير المسلم الذي يشكل بالنسبة إليه خطراً محتمل الوقوع دوماً على خط المواصلات السياسي ــ العسكري الحيوي للخلافة وكما كان طبيعياً أن يفكر أيضاً بتحويل هذه المنطقة الى دولة الاسلام بسبب موقعها الاستراتيجي بين خراسان وارمينية وبسبب غنى الموارد فيها وطبيعي أخيراً أن يجد

---

(١) انظر ابن اصفنديار (بهاء الدين محمد بن الحسن البوشيخي المتوفى سنة ٦٢٥) ــ تاريخي طبرستان (جزءان تحقيق ونشر عباس اقبال ــ طهران ١٣٢٠ / ١٩٤٢) الصفحات ١١٩ ــ ١٣١ من الجزء الاول. والمؤرخ الطبري وهو بدوره من هذه المنطقة روى ذلك ، انظر الطبري ج ٧ ص ٥١٠ ــ ٥١١ ، (٣/١٣٦ ــ ١٣٧) ثم ٥١٢ ــ ٥١٣ (٣ / ١٣٩ــ ١٤٠) . وقد حاولنا التوفيق المنطقي بين روايتي الطرفين .

أمام نفسه المبرر الكافي لهذا الفتح وهو المبرر الديني وضرورة تحويل طبرستان الى الدين الاسلامي في إطار خطة العباسيين الواسعة لإسلام شعب خراسان وما وراء النهر بعد تلك الثورات المارقة التي نبتت فيهم •

وبالرغم من أن الطبري يبرر غزو طبرستان بأنه «لما ظفر المهدي بعبد الجبار (الأزدي) بغير تعب ولامباشرة قتال • كره المنصور أن تنبطل تلك النفقات التي أنفق على المهدي (وعلى تجهيز جيشه) فكتب إليه أن يغزو طبرستان» إلا إن هذا المبرر لا يكفي بل يكشف بالعكس أنه كان من خطة المنصور ، حين جهز هذا الجيش أن تكون ضربته التالية بعد عبد الجبار وثورته للأصبهبذ الذي كشف عن استقلالية ذاتية واضحة ، وعداء مستور لخليفة بغداد لا سيما حين طلب منه المنصور خزائن أبي مسلم مرة بعد مرة دون جدوى ورأى ما رأى من دعمه للثورات المارقة •

وطلب المهدي إلى أبيه أن لايلحف في طلب الخزائن لئلا يلجأ الاصبهبذ الى الثورة والانفصال النهائي وأن يحاول خديعته لأن البلاد كثيرة القلاع وعرة الجبال لا تحتل بالقوة • وقد نفذت الخطة في إحكام بارع : أرسل المنصور الى الاصبهبذ ببعض الهدايا ومعها تاج ملكي • فكان جواب الاصبهبذ على ذلك تنفيذ المعاهدات مع المسلمين بإرسال الجزية السنوية ثم أرسل المنصور الى ابنه المهدي أن يطلب من الاصبهبذ الذي كان إذ ذاك يحارب جاره المصمغان (ملك دنباوند على الشاطىء الجنوبي الغربي من بحر قزوين) • السماح لجيوش المسلمين بعبور الطريق الشمالي المؤدي عبر طبرستان إلى خراسان بحجة ان أعداد المقاتلة كثيرة ولا بد من سرعة مسيرها • ووافق الاصبهبذ على الطلب

البرىء • لكن ما إن دخلت قوات أبي الخصيب مرزوق ، مولى المنصور، وخازم بن خزيمة إلى طبرستان حتى بدأت الاحتلال •

ولم تكن قصة الاحتلال بايرمر السهل فما إن أحس الاصبهبذ توغل الجيوش في بلاده بدلا من طريق خراسان حتى أوقف الحرب مع المصمغان الذي كان من بعد النظر السياسي بحيث تحالف معه ضد الجيش الاسلامي قائلا : متى صاروا إليك صاروا إلي ! وطالت الحرب • فأوفد المنصور جيشاً آخر يقوده عمر بن العلاء[1] «أعلم الناس ببلاد طبرستان » فاحتل بعض المدن والقلاع والح في القتال وكثر القتل وصار الاصبهبذ الى قلعته : قلعة الطاق الحصينة وطلبت الأمان على أن يسلم مافي القلعة من ذخائره •• وكتب المهدي بذلك الى أبيه فبعث أبو جعفر بوفد من عنده أحصى مافي الحصن وانصرف • ويبدو أن الاصبهبذ هادن الجيش العباسي بعد أن انهار حليفه المصمغان وأسر مع عائلته في الحرب[2] وقتل • فأقره المهدي على مكانه وقلعته «فهذا فتح طبرستان الأول» سنة ١٤١/٧٥٩ •

وفي السنة التالية ١٤٢ نقض الاصبهبذ العهد مع المسلمين وقتل من كان ببلاده منهم فتوجه إليه قواد العباسيين مقاتلين فأقاموا على حصنه محاصرين له ولمن معه حتى طال القتال والمقام • ولجأ القواد العرب

---

(١) كان لدى المنصور أخ للمصمغان اسمه ابرويز وهو الذي أشار عليه بارسال عمر بن العلاء الذي يقول بشار فيه للخليفة :

إذا أيقظتك حروب العدا   فنبه لها عمراً ثم نم

(الطبري ٧/٥١٠) .

(٢) أخذت بنات المصمغان إلى القصر العباسي فكان منهن أمهات أولاد ... (الطبري ٧/٥١١) .

الى الحيلة : اقترح أبو الخصيب أن تحلق لحيته ورأسه ويطرد فيلجأ إلى الاصبهبذ ويتدبر فتح القلعة . ويذكر الطبري تفصيل الحيلةالناجحة التي استطاع بها أبو الخصيب أن يصبح آمر البـاب الحجري الضخم للقلعة ...

ويبدو أن الاصبهبذ غادر قلعته الى جيلان في التماس النجدات والمعونة وفي تلك الاثناء رمى أبو الخصيب إلى أصحابه بنشابة حدد لهم فيها موعد فتح الباب ... وسقطت القلعة ومعها البلاد كلها سنة١٤٣أما الاصبهبذ فحين علم سقوط معقله : قلعة الطاق مص خاتماً له فيه سم وقتل نفسه[1] ...

وتسلم ابو الخصيب حكم طبرستان في خطة واضحة لنشر الاسلام فيها وبناء المساجد . ولكن مهمته لم تكن بدورها سهلة لأن الاضطرابات استمرت ضده ، وضد من جاء بعده فلم يكن السلطان العباسي قائماً فيما وراء جدران المدن حيث تقيم الحاميات العسكرية . وقامت الصعوبات في وجه انتشار الدين لأن الناس كانوا شديدي التعلق بدياناتهم الأولى تعلقهم بأمرائهم الأولين . بل لجأ بعضهم الى التشرد في الجبال متوحشين . وخاصة شعب المصمغان . يقول الطبري : «... ولما فات المصمغان تحوز أهل ذلك الجبل فصاروا حوزية لأنهم توحشوا كما تتوحش حمر الوحش»[2] ذلك أن الأفكار الدينية المزدكية الخرمية التي كـانت

---

(١) يذكر الطبري ما كان من أمر عائلة الاصبهبذ التي دخلت بدورها بلاط العباسيين . ومنهن مشكلة أم ابراهيم بن المهدي . وهي بنت خوناذان قهرمان المصمغان ، وباكند أخت الاصبهبذ الأصم وابنتها البحترية أم منصور بن المهدي (الطبري ٥١٣/٧) .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٥١١ (١٣٧/٣) .

مستقرة في طبرستان وفي الجبال الغربية الشمالية من ايـران ، وجدت نوعاً من اليقظة الدينية بدخول أفكار الفرق «المسلمية» (لأبي مسلم) عليها • كما وجد السكان في هذه العقيدة الخرمية المجددة والتي تسمى أحياناً بالمحمرة نوعاً من أسلحة المقاومة للتسلط العباسي الاسلامي • ولهذا كان أهل طبرستان ظهراً لكل ثائر خرمي : مثل سنباذ وبهافريد واستاذسيز والمقنع في حركاتهم المختلفة •



الفصل السادس

تنظيم الدولة

تلك البوائق والفتوق على خطرها لم تستأثر بكل جهد ابي العباس والمنصور . فقد قابلها أيضاً . جهد ايجابي لتنظيم الدولة . ولئن بقيت الخطوط الكبرى للنظام الاداري الاموي قائمة في العهد العباسي ، لا سيما في مطلعه . فقد ابتكر المنصور خاصة كثيراً من التقاليد والقواعد في الادارة العباسية . يقول صاحب الفخري[1] انه «أصل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد واقام الناموس واخترع اشياء ..» ويمكن أن نعتبر عهده نهاية دور البناء والتأسيس — وهو الدور الاول — وقد تقررت بصورة تقريبية سعة الدولة العباسية ، وشأن الاقطار التي تتألف منها بعضها بالنسبة لبعض ، كما رسمت خطوط السياسة العباسية العامة . ووضع مبدأ اعتماد الخلفاء على القوة والدهاء في توطيد الدولة . واصبح للخلافة معنى ديني كما أضحت سلطة الخليفة مطلقة . ويمكن أن ندرس مناحي التنظيم العباسي في :

آ ـ ولاية العهد :

كان بالامكان أن ندرج هذه المشكلة في إطار مشاكل الطامعين في

(١) الفخري ص ١١٥

العرش من آل محمد فقد كانت في الواقع نزاعاً في قمة البيت العباسي على الخلافة ولكن المنصور هو الذي، فجر هذه المشكلة تنفيذا منه لمخطط اقتنع به في تنظيم الدولة ويتصل بتوارث العرش على أساس رأسي لا أفقي ولا أسري (مشيخي) •

فقهد عهد أبو العباس بالخلافة إليه عهدا دون نظام مسبق بعد ان كان وعد عمه عبد الله بن علي بها ، وجعل في الوقت نفسه لأبي جعفر ولي عهد يتلوه هو ابن اخيه : عيسى بن موسى وبالرغم من أن أبا العباس مشى في نقل الخلافة الى أخيه على أساس عرضاني أفقي إلا أن مفهومه لوراثة العرش إنما كان على أساس أسري بدليل أنه وعد عمه من جهة وعهد فعليا الى ابن أخيه من جهة أخرى • فلما جاء أبو جعفر أراد : أن يحفظ العرش أولا في أولاد أبيه دون باقي الاسرة ، أي أن يلغي المفهوم الاسري ثم أ ن يحفظها في أولاده هو دون باقي أولاد إخوته أي أن يلغي المفهوم الافقي العرضاني في التوارث •

فأما المفهوم الاسري فكان قائما في نفوس الكثيرين من بني العباس ويمكن أ ن نعد منهم ثلاثة على الاقل هم :

أولا : عبد الله بن علي الذي ثار وحارب الحرب العنيفة للوصول الى ماكان يراه حقا له في الخلافة • ولكنه هزم وانتهى رغم الامان المحكم والايمان الموثقة الى القتل •

ثانيا : صالح بن علي بن عبد الله العباسي ، وهو شقيق عبد الله السابق • « وكان يتولى لابي جعفر قنسرين والعواصم • فبلغه كثرة عدده ومواليه • فخافه • فكتب إليه في القدوم عليه فكتب إنه شديد

العلة فلم يقبل ذلك • وكان قد سل ، فصار الى بغداد فلما رآه أبو جعفر صرفه ولم يأمر له بصلة ولابر ••• فلما صار الى عانات من كور الفرات مات ••• وكان نظير أبي جعفر في السن •• »[1]

ثالثاً : اسحق بن الفضل بن عبد الرحمن من نسل الحارث بن عبد المطلب • وكان يرى أن الخلافة تجوز في صالحي بني هاشم جميعاً وكان يكثر في قوله للاكبر من بني عبد المطلب ••• » • وقد سجنه المنصور في المطبق واستمر سجنه في عهد المهدي باستمرار السعاية فيه بذلك[2] وإن أنكر اسحق هذا القول كله أمام المهدي ثم أطلق من السجن • على أ نالمفهوم الأسري (المشيخي) لم يكن مرشحا للبقاء مع دولة بدأت تأخذ بالنظم الفارسية ، وقد حكمت نتيجة الحرب مع عبد الله بن علي بإقصاء هذا المفهوم الاسري نهائياً منذ هزم عبد الله وسجن ثم قتل • وأما المفهوم الثاني فكأنه أقسى مراساً لأنه يتصل في الواقع باثنين :

١) محمد بن أبي العباس الخليفة الاول •

٢) عيسى بن موسى ، ابن أخ الخليفتين معاً والذي نص عهدأبي العباس لأبي جعفر على جعله وليا للعهد •

وقد كان أمر الاول هينا لانه لم يكن يطلب الخلافة مع وجود عمه فيها • ولكن أبا جعفر أراد التاكد من إقصائه حتى عن المطالبة بها فيما بعد وعن التفكير في جمع الانصار لها وعن تقبل الناس أنفسهم

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٣

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ١٥٥ — ١٥٦ ثم ١٦٢ ثم ١٩١ (٣/٥٠٧ — ٥٠٨ ؛ ٥١٦ ، ٥٤٩ — ٥٥٠ •

لفكرة خلافته • وكان سبيله الى ذلك سهلا بارعاً في وقت معاً • إذوجه بمحمد بن أبي العباس واليا على البصرة « ووجه معه ••• بالزنادقة والمجان فكان فيهم حماد عجرد • فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم المجون • » ويعلق الطبري على الخبر بقوله : « وإنما أراد بذلك أ نيبغضه الى الناس »[1] وقد عرف بالناس بالفعل ذلك وعرفوا قصة عشقه لاحدى بنات عمه وركوبه الى المربد يطمع أن تكون هناك في بعض المناظر ••• فهان عليهم » •

أما المشكلة الصعبة فكانت مشكلة عيسى الدي كانت ولايته للعهد لاتتصل بارادة أبي جعفر وتعدل في شرعيتها خلافة أبي جعفر نفسه • ثم إنه كا نأحد القواد البارزين بل كان اليد اليمنى لابي جعفر في كثير من الازمات وقد أخمد له عددا من الثورات أهمها وآخرها ثورة محمد ذي النفس الزكية ثم أخيه ابراهيم •

وكان لابي جعفر ستة أولاد من الذكور اكبرهم : محمد (المهدي) وجعفر[2] وهما من أم موسى أروى بنت منصور الحميري وقد عني أبو جعفر بهذين الاثنين فأعطى الاول ولاية خراسان ، وهو بعد شاب صغير ، وضم اليه أبا عبيد الله معاوية يدبر أمره وخازم بن خزيمة القائد المعروف لقيادة الجيش • كما أعطى جعفرا ولاية الموصل •وجعل للاخوين المربين من كبار العلماء يعلمونهما أيام العرب وأخبارها والشعر مع الدين وعلوم العربية •

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٨٦ (٣/٤٢٢) .

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ١٠٢ (٣/٤٤٢) وجعفر كان يلقب بالأكبر لدى المؤرخين لا لأنه هو الأكبر سناً ولكن لأن لأبي جعفر ابناً آخر سمي بجعفر الأصغر وأمه أم ولد كردية . وكان يقال له ابن الكردية .

ولم يكد المنصور يفرغ من ثورة ذي النفس الزكية وأخيه حتى أخذ يمهد للخلاص من عيسى بن موسى ولتحويل ولاية العهد لابنه محمد • بالدعاية وتوجيه الانظار أولا إذ اصطنع بعض الشعراء ينشدونه مديح محمد ويلمحون الى ضرورة توليته ليصبح ذلك نوعا من المطلب الشعبي • وهكذا : دس رجال الحاشية الى أبي نخيلة الشاعر الراجز فأنشده •

أنت الذي ولاك رب المسجد — أحسن ولي عهدها بالاسعد

عيسى فزحلقها الى محمد(١)

وبعث المنصور الى مطيع بن إياس الشاعر المحدث فوضع على لسان النبي حديثاً يحدث أن « المهدي منا آل البيت واسمه كاسمي »(٢) وبعث الى الولاة أن يتحدثوا بذلك فتحدثوا ••• ثم أعطى المنصور ابنه لقب المهدي سنة ١٤٦ تمهيدا للخطوة التالية في إقناع عيسى بالتنازل له •

ولم يكن عيسى بالغافل عن ذلك ولقد كان يرفض بحث الامر كله• وينكشف موقفه من أنه بعث لابي نخيلة وهو في الطريق الى الري لقبض جائزته من المهدي فظفر به فلم يقتله فقط ولكن كشط جلد وجهه • ثم صرح الامر بين الطرفين سنة ١٤٧ حين فاتح أبو جعفر عيسى بذلك وكان يجلسه دوما على يمينه فقال عيسى : فكيف بالايمان والمواثيق ؟ ليس الى ذلك سبيل ياأمير المؤمنين ! •• فبدأ أبو جعفر عند ذلك في مرحلة ثانية من التدابير التي تهدف الى تحطيم أعصاب عيسى والغض من

---

(١) انظر ابن عساكر ، تاريخ دمشق (تهذيب بدران) ج ٢ ص ٣٢١
(٢) الأغاني ج ٢١ ص ٢

مكانته فكان يأذ نللمهدي قبله أويؤخر إذنه أو يأذن لغيره قبله « ...
ثم صار الى أغلظ من ذلك فكان (عيسى) يكون في المجلس ...فيسمع الحفر في أصل الحائط فيخاف أ نيخر عليه وينظر الى الخشبة من سقف المجلس قد حفر عن أحد طرفيها لتقلع فيسقط التراب علىقلنسوته وثيابه ... » ثم كان إذا شكا ذلك الى المنصور قال له : ياابن أخي إني والله أخاف عليك وعلى نفسي فانهم قد اشربت نفوسهم حب ذلك الفتى (يعني المهدي) فلوقدمته بين يديك .. » ثم انتهى الامر الى أن دس المنصور لعيسى بعض مايتلفه مما دبره وجرأه عليه طبيبه بختيشوع ... حتى اعتل عيسى وتمعط شعره ثم بعث الى ابنهيهدده. وكلم الابن أباه إشفاقا ولكـنعيسى أبى التنازل مع كل ذلك . وأخيراً، وبعد الاهانات والتآمر الذي وصل حتى محاولة القتل انقطع عيسى في الكوفة فبدأ بينه وبين المنصور تبادل الرسائل .

ونستطيع أن نرى الحجج التي تلمسها المنصور لاقناع عيسى ابن موسى بالتنازل عن ولاية العهد في الكتاب الذي أرسله اليه ،اول ماأرسل سنة ١٤٧ يراوده عن تلك الولاية يقول :

١ ـ إنه لم ينقذ آل بيت العباس من الظلم ومن «أهل بيت اللعنة» أي الامويين الا ظهور أنصار يطلبون بثأرهم ويحبونهم الحب الخالص . وقد أحب هؤلاء الانصار الان محمدا المهدي وقد « ... نشأ هذاالغلام فقذف الله في قلوب أنصار الدين الذين ابتعثهم لنا مثل ابتدائه لنا في أول أمرنا وأشرب قلوبهممودته . وقسم فيصدورهممحبته فصاروالايذكرون إلا فضله ولا ينوهون إلا باسمه ولا يعرفون إلا حقه ... »

٢ ـ أ نمن حق هؤلاء الأنصار أن تستجاب رغباتهم « أمير المؤمنين لايمنع مما اجتمعت عليه العامة ولايجد مناصا عن خلاص مادعوا إليه ، وكان أشد الناس على أمير المؤمنين في ذلك الاقرب فالاقرب من

خاصته وثقاته من حرسه وشرطه فلم يجد أمير المؤمنين بدا من استصلاحهم ومتابعتهم ... »

٣ ــ ثم إن هذا الامر شيء إلهي « ... فلما رأى امير المؤمنين ماقذف الله في قلوبهم من مودته (مودة المهدي) وأجرى على ألسنتهم من ذكره ومعرفتهم إياه بعلاماته واسمه ودعاء العامة الى طاعته أيقنت نفس أمير المؤمنين أن ذلك أمر تولاه الله وصنعه لم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة ولامؤامرة ولامذاكرة للذي رأى أمير المؤمنين من اجتماع الكلمة وتتابع العامة ... »

٤ ــ واخيرا فان المهدي هو « المهدي » الموعود حقا و « ...أمير المؤمنين وأهل بيته أحق من سارع الى ذلك وحرص عليه ورغب فيه وعرّف فضله ورجا بركته وصدق الرواية فيه وحمد الله إذ جعل من ذريته مثل ماسألت الانبياء قبله . إذ قال الرجل الصالح : « **فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا** » فوهب الله لامير المؤمنين وليا ثم جعله تقيا مباركا مهديا وللنبي صلى الله عليه وسلم سميا وسلب من انتحل هذا الاسم ودعا الى تلك الشبهة التي تحير فيها أهل تلك النية وافتتن بها أهل تلك الشقوة فانتزع ذلك منهم وجعل دائرة السوء عليهم وأقر الحق قراره وأعلى للمهدي مناره ... »

٥ ــ ولهذا كله « ... أحب أمير المؤمنين أن يعلمك الذي اجتمع عليه رأي رعيته وكنت في نفسه بمنزلة ولده ... ويرى لك ، إذابلغك من حال ابن عمك ماترى من اجتماع الناس عليه أن يكون ابتداء ذلك من

(١) الطبري ج ٨ ص ٩ ــ ١٤ (٣/ ٣٣١ ــ ٣٣٨) .

قبلك . ليعلم أنصارنا من أهل خراسان وغيرهم أنك أسرع الى ماأحبوا مما عليه رأيهم في صلاحهم ، منهم الى ذلك من أنفسهم ... »

ولم يكن بامكان هذه الرقى والتهاويل أن تؤثر في عيسى بن موسى لدرجة التسليم بحق يعتقده لنفسه ولهذا اقتصر جوابه على الكتاب الخليفي بقوله إن عهده هو بدوره من الله ولايجوز نقضه :

١ ـ فكتاب الخليفة إعلان بأنه أجمع « على خلاف الحق وركوب الاثم في قطيعة الرحم ونقض ماأخذ الله عليه من الميثاق من العامة بالوفاء ... متابعة للشيطان في هواه ، ومن كابر الله صرعه ... »

٢ ـ « إن الذي أسس عليه البناء ... من الخليفة الماضي عهد لي من الله وأمر نحن فيه سواء ليس لاحد من المسلمين فيه رخصة دون أحد فان وجب وفاء فيه فما الاول بأحق به من الاخر ... فاقبل العاقبة وارض من الله بما صنع »[١]

وتوالت المجاورة والمفاوضة بين المنصور وعيسى بن موسى دون طائل ... وأخيرا ، وبعد الاضطهاد المرير دبر المنصور مؤامرة أوهم فيها عيسى بانه سوف يذبح ولدا من أولاده بحضوره ... وهي قصة يقولون إن الابن نفسه دبرها لينقذ أباه من العناد ومن تضييق الخليفة عليه ... فلما شهد عيسى بالحبل يشد على عنق ابنه استسلم وقال : « والله ياأمير المؤمنين ماظننت أن الامر يبلغ منك هذا كله فمر بالكف

---

(١) انظر الرسالة وجوابها لدى الطبري ج ٨ ص ١٤ ـ ٩١ (٣/٣٣٨ ـ ٣٤٤) .

عنه فانسا لم أكن لارجع الى أهلي وقد قتل بسبب هذا الامر عبد من عبيدي فكيف بابني ... وهذه يدي بالبيعة للمهدي[1] ... » ! وقيل أيضا ان خالد بن برمك مضى اليه بجماعة وقد أمره المنصور بقتله إن رفض التنازل فلما أصر على الرفض أشهد الجماعة عليه زورا بخلع نفسه ليحقن دمه ... وتمت بذلك البيعة للمهدي[2] أما عيسى فقد منحه المنصور مقابل ذلك المال والضياع وولاية العهد الثانية بعد المهدي فكان بعض أهل الكوفة إذا رأوا موكبه يقولون : هذا الذي كان غدا فصار بعد غد ... » ! ونجح المنصور بذلك في وضع اللبنة الاولى في نظام ولاية العهد الرأسي على أن اقرار هذا النظام لم يكن في يده ولكن في يد ابنه وأحفاده من بعده . ولقد ترك لابنه المهدي حين أعطاه ولاية العهد بذور المشكلة نفسها بقبول بقاء عيسى وليا ثانيا للعهد . فكأنه في الواقع أجل المشكلة ولم يحلها ولعله كان يرغب في أن يحلها الزمن بموت عيسى نفسه .

ب ـ الوزارة :

ظهرت الوزارة لاول مرة في تاريخ الاسلام ، قبل استخلاف ابي العباس السفاح بشهرين تقريبا . ولم يكن للعباسيين يد في ظهورها لأن ابا سلمة الخلال أول رجل تقلدها ، منح لقبها لنفسه ، أو منحه اياها الدعاة[3] ، باسم (وزير آل محمد) تقليداً للطريقة الساسانية القديمة

---

(١) انظر القصة لدى الطبري ج ٨ ص ١٣ ـ ١٤ (٣/٣٣٧ ـ ٣٣٨)

(٢) انظر تفصيل ذلك لدى الطبري ج ٨ ص ١٩ ـ ٢٠ (٣/٣٤٥ ـ ٣٤٦) .

(٣) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٨٤

في الحكم ، اذ رأى هو أواصحابه ، انه يدبر الامور جميعاً دون صاحب الدعوة • ونتج عن هذه النشأة العفوية ان نظام الوزارة وسلطات الوزير لم تكن مركزة ، ولا واضحة الحدود • ويجب ان ننتظر حتى نهاية العصر العباسي الاول لنرى تكامل ذلك بالتدريج • وعلى حساب دماء الوزراء أنفسهم •

ويجدر بنا أ ن نذكر هنا ان وظيفة الوزراء الاول (كأبي سلمة وغيره) كانت كوظيفة الكاتب لدى الامويين • وان منصب الخلال لم يكن اكثر من تطور طبيعي لمنصب سلفه عبد الحميد الكاتب ، صاحب مروان بن محمد مع زيادة الاسم • يؤيد هذا قول الجهشياري : « ••• وعسكر أبو سلمة بحمام أعين (من أحياء الكوفة) فأقام بها وفرق عماله وصارت الدواوين في حضرته ، والكتب تنفذ منه وترد اليه ••• »[1] وقول المسعودي : « استخارت بنو العباس تسمية الكاتب وزيرا لوجود الآية (واجعل لي وزيرا من اهلي) » • ثم الوزير استمر « صاحب القلم » دوما ورئيس دواوين الدولة ، وبقي ينتقي ممن يجيدون الكتابة • وعلى هذا فالعهد العباسي لم يحدث تغييراً إدارياً جوهرياً بالوزارة ولكن اسم (الوزارة) واشتراك الفرس في السلطان عن طريقها ، وظهور الوزراء الاقوياء كآل برمك أدى كله الى ثبوت هذا النظام الجديد في الادارة العباسية •

وبعد مقتل ابي سلمة حل خالد بن برمك ــ وكان على ديواني الجند والمال ــ محل الوزير كما ذكر الجهشياري • وكان يعمل ــ على قول الفخري أيضا ــ عمل الوزير ولايسمى وزيراً « اذ كان يتجنب

(١) المصدر نفسه ص ٨٦

التسمية » تطيراً مما جرى على ابي سلمـــة .

ولعل قيمة الوزارة في الدولة العباسية الناشئة تظهر لنا من موقف المنصور منها حين استخلف . اذ يظهر أنها لم تكن قد اصبحت بعـــد شيئاً ، فا ناهتمام ابي جعفر بملكه وحذره الدائم أدى الى مركزيةشديدة في الادارة كانت استمرارا للشكل التقليدي في الحكم الخلافي المركزي الذي وطده الامويون بعد الراشدين كما كانت تطويرا له في اتجاهالحكم المطلق وترك كافة مظاهر حكم « المشيخة » البدوي الذي كان مايزال يلاحق الامويين . فكان الخليفة المنصور يشرف بنفسه على كل شيء .. يقول صاحب الفخري « ... فلم تكن الوزارة في ايامه طائلة ،لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته .. ، وكانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراءوكانوا لايزالون على وجل منه وخوف فلايظهر لهم ابهة ولارونـق ...[1]» ويظهر انه استغنى عن الوزارة في سنيه الاخيرة فالمسعودي يذكر انـه بعد ان استوزر وزيرين او ثلاثة (هم ابان بن عطية الباهلي وابو ايوب المورياني الخوزي وابو الفضل الربيع بن يونس) استكتب ابان بـن صدقة الى ان مات[2] .

وثمة شك في أن يكون أبان الباهلي قد ولي وزارة المنصور أمـا أبو أيوب المورياني فهو الوزير البارز . وأصله من موريان بعض قرى الاهواز وكا نخفيف الظل عالما بالعلوم كلها من طب ونجوم وحسـاب وكيمياء حتى السحر . إلا الفقه فقد كانت بضاعته منه قليلة . ولكنـه

---

(١) الفخري ص ١٢٧ .
(٢) صاحب الفخري يجعل الربيع بن يونس وزير المنصور حتـى موت المنصـور .

بلغ من الحظوة لدى المنصور أن ظن الناس أنه سحره[1] ... وكان عبد الملك بن حميد على كتابة المنصور وديوانه فلما اعتل تسلم أبو أيوب هذه الاعمال ثم سماه المنصور للوزارة ... وشفعه بكل شيء واستشاره في الامور حتى في قتل ابي مسلم الخراساني ....

وتبسط أبو أيوب في استخدام أهله واستغلال المنصب له ولاصحابه حتى وقع في شر أعماله ونقل للمنصور من أعماله مايكفي لتدميره . وكان رأس السعاة فيه منافس له من الحاشية هو الربيع بن يونس ... وعاش أبو أيوب فترة من الرعب قبل أن ينكب ... حبسه المنصور وأخاه وبني أخيه وطالبهم بما لايطيقون من الاموال وعذبهم حتى نال منهم ثم قتل أبا أيوب وبني أخيه جميعا سنة ١٥٤ .

ثم استوزر المنصور الربيع بن يونس وهو في الاصل لقيط او ابن أمة نشأ في حجر يونس بن أبي فروة وانتسب اليه ثم كان في خمسين وصيفا أهدوا للمنصور وكان من خدمه ثم ارتقت به الحال مع الذكاء والولاء إلى أن أصبح حاجب الخليفة فلما نكب المورياني أرسل اليه حلة الوزارة ... فكان مثال الموظف الخادم ... حتى الموت ، موت المنصور فانهم يذكرون أنه أقامه بعد أن مات في الفساطيط وكأنه حي حتى أخذ البيعة لابنه المهدي من جميع الناس وفي مقدمتهم عيسى بن موسى

---

(١) المسعودي – مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٢ . والجهشياري – الوزراء والكتاب ص ٦٥ ويقال أيضا إن سبب حظوته انه كان قد خلص ابا جعفر من الضرب بالسياط في البصرة من قبل عامل مروان بن محمد عليها في أواخر العهد الأموي . وكان ابو جعفر متهماً بالهرب ببعض أموال العامل باصبهان (الجشياري ص ٦٦) .

ولي العهـد • بل زيف وصيته بتجديد البيعة قرأها قبل ذلك عـلى الناس حتى استقام الامر للمهدي •

جـ ـ الولاية :

قد يكون من المبالغة والاخطاء الشائعة القول : بان دولة بنـي العباس قامت على اكتاف الفرس • فالواقع انهم ساهموا بها فقط ••ولم يكونوا كل شيء فيها • فأبو العباس مثلاً لم يعدل عن العرب الـى الفرس ، في ولاية امور الدولة ، الا في أمرين : استيزار ابي سـلمـة وليس له في وزارته يد ، وقدقتله فيما بعد ، وتولية ابي مسلم لخراسان، ولكنه استراب منه ، فجفاه وابقاه حيث هو ، في خراسان • ولولا انه رهبه لقتله • واما الذين استعملهم على الاقطار الاسلامية فكانوا جيمعاً من أقربائه ، ومن قواده العرب • استعمل اخاه ابا جعفر ، واعمامـه : داوود وعبد الله وسليمان واسماعيل ويحيى ، وقواده ابا العون والحسن ابن قحطبة الطائي وموسى بن كعب التميمي ويزيد بن أسيدالسلمي الخ• وقد كانت هذه القاعدة من الامور المقررة لدرجة أن الموصل حين عين لولايتها محمد بن صول أحدموالي أبي العباس ثارت ثورة كلفتهـا أحد عشر ألف قتيل وخراب عدة سنوات • فالخطـة الامويـة اذن في الاعتمادعلى العرب ، ظلت متبعة • والمؤرخون المسلمون يعرفـون ذلك اذ ذكروا أن أول من استعمل مواليه في الاعمال ، وقدمهم ، هـو ابو جعفر المنصور ، الخليفة الثاني •

والحق ان هذا الاتجاه يتعلق بطريقة المنصور الادارية المركزية، اكثر مما يتعلق بتطور الاحوال والظروف ، أو بالرغبة عن العرب فقد كان يرى اختيار من كان أكثر طواعية لإرادته وأقل أطماعاً سواء كـان

ـن الاقرباء **أو من العرب أو الموالي كما كان تقييمه للشخص المنـــاسب** على أساس الكفاية والاخلاص له • ومن هنا اعتمد على بعض الموالي • ولعلنا نستطيع فهم هذه الطريقة من حديث للمنصـــور رواه الطبري[1] قال : « •• ماكان أحوجني ان يكون على بابي اربعة نفر ، لايكون على بابي أعف منهم •• هم أركان الملك : فقاض لاتأخذه في الحق لومـــة لائم، وصاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، وصاحب خـــراج يستقصي ولايظلم الرعية ، فاني عن ظلمه غني ، والرابع ••• (ثم عض اصبعه السبابة ثلاث مرات في كل مرة يقول : آه) صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة » • لهذه المركزية القوية والحذر الشديد ، سمح المنصور لنفسه ان يعين للولايات العرب والموالي على الســـواء ، لأنه كان يعنى باختيارهم ، عنايته بعد ذلك ، بمراقبتهم ، ومحاسبتهم ، وتحديد سلطانهم •

فأما اختيارهم فكان بعضهم من اهل بيته : (اسماعيل بن علي في فارس ، وسليمان بن علي في البصرة ، وعيسى بن موسى في الكوفة ، وصالح بن علي في قنسرين والعواصم ، والعباس بن محمد في الجزيـــرة وجعفر بن سليمان في المدينة) وكان بعض عماله عرباً (ومن أشهرهم يزيد بن حاتم المهلبي والي افريقيا ، ومعن بن زائدة الشيباني والـــي اليمن ، وخازم بن خزيمة والي ارمينية ، والحسن بن قحطبـــة الطائي ، والمسيب بن زهير الضبي الخ •••) كما انه لم يتردد في استخدام الموالي الذين يأمن لهم • يقول السيوطي: « والمنصور اول من استعمل مواليه على الاعمال وقدمهم (فمنهم مرزوق ابو الخصيب، وعمارة بـــن

(١) الطبري ج ٧ ص ٣١٣

حمزة ، وواضح ، وغزوان) واليعقوبي[1] يذكرهم جميعاً بأسمائهم •

واما مراقبة العمال فعهد بها الى عمال البريد • وكان يطلب إليهم أن يكتبوا اليه يومياً « بسعر القمح والحبوب والأدم ، وبسعر كل مأكول وبكل مايقضي به القاضي في نواحيهم ، وبما يعمل به الوالي ، وبما يرد بيت المال من المال ، وكل حدث » وصار ارتباط عمال البريد به مباشرة • وقد لاحظ نولدكه ان المهدي ، (ولي العهد) كان خاضعاً لرقابتهم ، حين عين والياً على غربي ايران • وهذا يعني أ ن المنصور كان أول من نظم جهاز الاستخبارات في الدولة •

وأما محاسبة الولاة فكانت شديدة حتى ثقل عليهم « تفقده الاعمال ومرلعاته لها • » بلغه عن والي البحرين انه يخرج للصيد فعزله ، قائلا : « ماهذه العدة التي اعددتها للنكاية في الوحش ؟ انا انما استكفيناك امور المسلمين ولم نستكفك امور الوحش » وراقب جباة الضرائب كي لا يستأثروا بأموال الدولة • وصادر « العمال المتلاعبين » لاستخراج ما اختلسوه من اموال الدولة ، كما فعل بخالد بن برمك ، بعد ان ولاه اقليم فارس ، إذ « ألزمه ــ كما يقول الجهشياري ــ ثلاثة آلاف درهم» •

واما تحديد سلطان الولاة فيظهر من رقابة عمال البريد عليهم ،ومن فصل القضاء عنهم ايضاً • « فقد كان اول (؟) من ولى القضاة الامصار من قبله » على مايقول اليعقوبي[2] • وكان تعيينهم قبل ذلك بيد

---

(1) اليعقوبي ج ٢ ص ١١٧ •
(2) اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٣

الولاة في الغالب[1] .

ولم يدخل المنصور أي تعديل يذكر على التقسيم الاداري الاموي في الامبراطورية . فقد ظلت الدولة على ماهي عليه ، سوى ماكان من خسارتها للاندلس . واقاليم الدولة لم يكن يحكم كلاً منها والٍ واحد ، وقد يحكم الوالي الواحد عدة أقاليم . واما تلك الاقاليم ، اذ ذاك ، فهي:

١ ــ جزيرة العرب وتشمل الحجاز (ومركزه المدينة) واليمن (صنعاء) وعمان وهجر .

٢ ــ العراق ويشمل الكوفة والبصرة وواسط (وبغداد)وحلوان و(سامراء) حتى جنوبي الموصل .

٣ ــ الجزيرة (العراق الشمالي) وفيه ديار ربيعة (مركزها الموصل) وديار مضر (الرقة) وديار بكر (آمد) .

٤ ــ الشام وتضم خمس مقاطعات : قنسرين (وعاصمتها حلب) ومعها انطاكية والاسكندرونة ثم حمص وتشمل مابين تدمر الى سواحل اللاذقية ، ثم دمشق ومعها الساحل ، من طرابلس الى صيدا ، ثم الاردن ومركزه طبرية ، ومعه صور وعكا وبيسان ، ثم فلسطين ومركزها الرملة وفيها يافا والقدس وغزة وقيسارية واريحا وعمان والشراة حتى تبوك .

---

(١) نشير هنا الى أن ابن المقفع كتب للمنصور تقريرا في كيفية سياسة الدولة نعرفه اليوم باسم (رسالة الصحابة) أي اصحاب الخليفة . وقد استعرض له فيه أهم الاقاليم واحداً بعد آخر ، ومرافق الدولة . وبين الوسائل التي يجب انتهاجها لتنظيم الحكم وحسن سير الامور . وهذا التقرير نافذة نطل منها على حاجات ذلك العصر ونفسية سكانه ورغباتهم .

٥ ــ مصر وهي مصر الحالية والواحات وقد تضم اليها برقة • وقصبة الاقليم الفسطاط ثم أضحت القطائع •

٦ ــ افريقيا وتشمل مابين طرابلس الى مراكش وقصبتها القيروان وكانت تشمل الاندلس في العهد الاموي •

٧ ــ ماوراء النهر (شمال شرقي نهر جيحون) وفيه فرغانةوفاراب والشاش واشر وسنه والصغد وبخارى •

٨ ــ خراسان وهي ايران الشرقية الشمالية الآن مع قسم مـــن افغانستان وقصبتها مرو •

٩ ــ الديلم وهو في شمال غرب ايران ويشمل قومس وجرجان وطبرستان •

١٠ ــ ارمينية وتشمل ارمينية واذربيجان وتفليس •

١١ ــ الجبال وهي ايران الغربية الوسطى وتشمل الري وهمدان واصفهان •

١٢ ــ البصرة اوخوزستان (ويعرف اليوم بعربستان) وهو الى الشمال الشرقي من خليج البصرة •

١٣ ــ فارس وهو الاقليم الذي يلي خليج البصرة الى الشرق• ومن مدنه شيراز واصطخر •

١٤ ــ كرمان وهي في شرقي فارس وجنوبي ايران •

١٥ ــ السند وتشمل مكران بشرقي ايـران وبـعض جهات افغانستان مع بلوجستان وحوض السنـد •

د ــ الموقف المالي :

جبى ابو العباس ملكه الجديد على الطرق الاموية نفسها ، وعهد بديوان الخراج الى واحد من كبار رجال الدعوة الفرس : خالد بن برمك

فلم يدخل على جباية الضرائب تعديلا يذكر • ولكنه ادخل على الدواوين طريقة جديدة ، فبعد أ نكانت الأمور تسجل في الدروج (أي الصحف المدرجة) اتخذ خالد دفاتر الدواوين من الجلد • وسيجعل حفيده جعفر ، في زمن الرشيد ، هذه الدفاتر من الكاغد (الورق) •

ولم يكن للمال في نظر ابي العباس من قيمة • فكان يجود به على اقربائه وقواده وعلى الشعراء ، وهو في هذا خليفة اموي ، لحد كبير ، ولكن اخاه المنصور كان يختلف عنه في ذلك ، إذ كان (المال) احد الاركان الاساسية في سياسته العامة • فكان يجمعه من كل وجه ،حتى لقد فكر مرة في بيع قراطيس الدولة ومكاتباتها ، لأنها كانت كثيرة في خزائنه • فقال لصاحب المصلى عنده : « ••• بعها وا نلم تعط بكل طومار الا ّ دانقاً ، فان تحصيل ثمنه اصلح منه ! » وكان يقتّر في انفاق المال حتى ليحاسب على الدانق والحبة • ويصادر ماقد يهبه ابنه من الهبات • خطب في الناس يوم عرفات سنة ١٥٠ هـ فقال : « ايها الناس انما انا سلطان الله في ارضه وخازنه على فيئة اعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته ، وأعطيه باذنه ، قد جعلني الله عليه قفلا ، اذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم ، وقسم فيئكم وارزاقكم ، فتحني ، واذا شاء ان يقفلني أقفلني ، فارغبوا الى الله ايها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف » ولم يكن هذا الامساك في المنصور عن شح طبيعي ، ولكنه كان يعرف شأن المال في دعم الدولة • يقول المسعودي[1] : « ••• كان يعطي الجزيل والخطير ماكان عطاؤه حزما ، ويمنع الحقير اليسير ماكان اعطاؤه تضييعاً ••• » الا ّ انه « كا نالمنع عليه اغلب » كما يذكر صاحب

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣١٨

الفخري • وقداوصى بمثل هذه السياسة ابنه المهدي قال له : « انك لاتزال عزيزاً مادام بيت مالك عامرا » وبالرغم من كل ماانفق المنصور في بناء بغداد والرصافة وفي القضاء على الثورات ، فقد ترك في بيت المال لدى وفاته ستمائة الف ألف درهم واربعة عشر الف الف من الدنانير •

جمع هذا المال بالتقتير خلال حكمه ، وكان لايقبل من دافعي الضريبة الا" النقود الجيدة يقول ابن الاثير[1] « وكانت الهبيرية والخلدية واليوسفية أجمل نقود بني أمية ، ولم يكن المنصور يقبل في الخراج غيرها » •

وسوف نعرض فيما بعد لسياسة العباسيين المالية في عهد المنصور وخلفائه حتى آخر العصر العباسي الاول ونكتفي بأن نذكر هنا أن المنصور في السياسة المالية قد ادخل اصلاحا هاما • يرويه الماوردي • فإن الخراج في السواد كان يؤخذ نقدا وعلى مساحة الارض سواء زرعت ام تركت بورا ــ حسب نظام عمر بن الخطاب ــ وقدرخصت الاسعار حتى لم يعد نتاج الارض يفي بخراجها ، فوضع المنصور نظام المقاسمة• وهو ان تدفع الارض جزءاً من محصولها • وقد توفي قبل ان ينجز هذا الاصلاح ، فأتمه ابنه المهدي •

هـ ــ الجيش :

كان الجيش الذي قاد الثورة العباسية الى النصر مكوناً بصورة

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٥٣

أساسية من العرب لامن الاعاجم ، في قواده وجنده ، على السواء ۰وكان هذا الجيش يدعى (بالخراسانية) جغرافياً نسبة الى الموضع الذي تجمع به لاللكثرة النسبية التي وجدت فيه من الايرانيين فقد كانت هذه الكثرة في الواقع ، من الغرب ۰ وبالرغم من ان ابا العباس اعتمد على بعض الموالي وزاد في مدحهم واكرامهم ، كما اتبع المنصور من بعده السنة نفسها ، وأوصى بها ابنه المهدي ، بالرغم من ذلك ، فان خراسان بسبب وضعها الجغرافي ، في أقصى الجانب الشرقي من الامبراطورية ، ولعدم انسجام سكانها ، عنصرياً ودينياً مع الحكم العباسي ، لم تستطع ان تلعب ، في خلافة العباسيين الدور ، الذي لعبته الشام المتوسطة المنسجمة، بالنسبة للامويين وكانت بالعكس احدى مراكز الضعف العباسي والثورات الخطـــرة ۰

لذلك وبسبب التجمع العربي سرعان ما اصبح العــراق ، دون خراسان ، موئل بني العباس ۰ كما ظهرت في الجيش الفرق الاخرى ، غير الخراسانية ، من العرب ۰ وقد ساعد على بروزها حذر المنصور الشديد ، وخوفه من ان يتفق الجيش عليه ۰ فما زال بجنده يستغل العصبية القبلية لتفريقهم حتى قسمهم الى فرق اربع متنافرة : المضرية والربعية واليمنية والخراسانية ۰ وجعل للجيش معسكرين احدهمـا ببغداد ، والثاني تجاهها ، على الطرف الشرقي من دجلة ، في الرصافة لابنه المهدي ۰ وقال الذي نصحه بهذه التفرقة للجند : « حتى يكونوا أحزاباً يخاف احدها ا نيحدث حدثاً فيضربه الخليفة بالحزب الآخر » على ان المنصور كان لاينى يتفقد جنده ويستعرضه بين آونة واخرى ۰ وآخر استعراض له كان سنة ١٥٧هـ ۰

وليس لدينا شيء من المعلومات ، عن عدد رجال هذه الفرق ولا

عن مكانتها . واذا جاز لنا ان نفترض انها كانت متساوية العدد ،فذلك يعني ان غالبية الجيش العباسي الأول كانت عربية . وهي نقطة هامة من نقاط البحث في تركيب الدولة الاول .

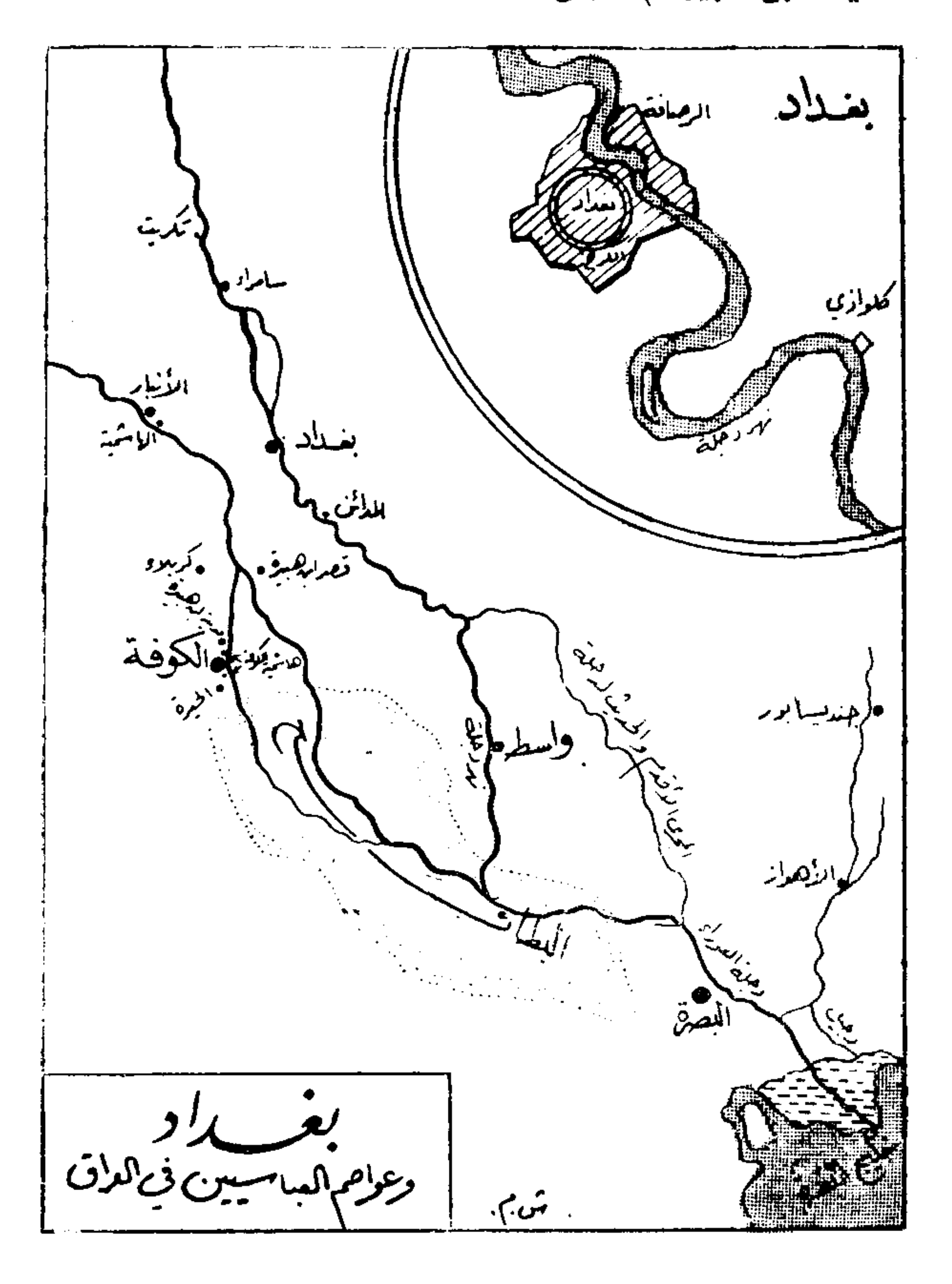
و ــ العاصمــة :

كان من تمام اعمال تأسيس الدولة وتنظيمها ، أن يستقر البيــت المالك الجديد في عاصمة معينة . ولم تكن دمشق تصلح لذلك فهــي اموية ، وقريبة من الروم ، وبعيدة عن خراسان . كما لم تكن المدينــة جديرة بذلك ، اذ لارجال فيها ولاسلاح ولاكراع ولاغنى ... ومصر بعيدة عن المشرق ، كما ان خراسان متطرفة ، فالعراق أحسن منزل لاسيما وان طرق التجارة العالمية كانت في ذلك الوقت قد تكاثفت فيه . ولكن على الخلفاء الجدد ان يتخيروا مكانهم منه .

لقدبويع ابو العباس في الكوفة . ولكنه بدل مقر حكمه مرات عديدة . فقد كان يعرف ان اهل الكوفة لآل علي . وشعر منذ ايامه الاولى بأن هواهم في غير جانبه . فانتقل اول الامر الى الهاشمية سنة ١٣٢هـ قرب الكوفة ثم أبدل بها الحيرة ثم عدل عنها الى الانبار سنة١٣٤ ومكانها على بعد عشرة فراسخ الى الغرب من بغداد . وهي في الاصل من بناء ملوك الفرس. ويظهر أ نأبا العباس استطاب البلد الجديد . يقول الدينوري « انه ابتنى بها مدينة بأعلى المدينة عظيمة لنفسهوجموعه وقسمها خططاً بين اصحابه من اهل خراسان وبنى لنفسه في وسطهــا قصراً عالياً ... واقام بتلك المدينة طول خلافته . وهذه هي الهاشمية ــ على قول اليعقوبي ــ وجدير بالملاحظة أنها بنيت تقريباً على المخطط نفسه الذي بنى به العرب البصرة والكوفة والقطائع والقيروان وواسطاً،

وهو مخطط يشبه المعسكر . وهذا مايلقي على الهاشمية صبغةعسكرية.

ويظهر ان المنصور لم ترق له هاشمية الانبار هذه ، فمكث اول الامر في هاشمية الكوفة (بين الحيرة والكوفة أو في شمالي الكوفة عند مدينة ابن هبيرة) وبنى بها قصراً له . ولكنه سرعان ماتبين انها



ليست بعاصمة ، او مقر دولة : فلا هي منيعة ، كما ثبت له في فتنة الراوندية ، « يوم الهاشمية » إذ كاد يقتل فيها ، ولا هي حسنة المناخ لان سافيات الصحراء تصفعها وحميات البطائح في جنوبها ، وليس فيها من شيعة العباسيين وعصبيتهم الا العدد النزر • هذا عدا جوارها القريب للكوفة ، موئل العلويين ، ومجمع « اهل الشقاق والنفاق ، والاغراق في الفتن » ••• « فوالله ماهي بحرب فأحاربها ولا هي بسلم فأسالمها فرّق الله بيني وبينها » كما روى المسعودي عن المنصور في إحدى خطبه •

وهكذا امر المنصور بالتفتيش عن موضع يقيم فيه مقر ملكه • وكان انسب الاقطار الاسلامية لهذا المقر : العراق ، لقربه من خراسان من جهة ، وتوسطه بينها وبين الشام والحجاز ومصر من جهة أخرى • وخرج المنصور بنفسه يرتاد المواضع التي تذكر له ويبت في امرها ، حتى نزل بموضع :

بغداد : وهي قرية فارسية او آرامية قديمة يرد أول ذكر لها في التاريخ الاسلامي في غارة قام بها المثنى سنة ١٣هـ على سوقها . ورجع منه بغنائم كثيرة • وقد قدر لهذا الموضع الذي لم يكن فيه اذ ذاك الا دير للنساطرة ، ان يمنح ارضه واسمه ، للمدينة التي اصبحت فيما بعد رمز الحضارة الاسلامية ، وأعظم عاصمة للاسلام •

وقد اختار المنصور هذا الموقع لأسباب عديدة أوردها المؤرخون العرب في كثير من القصص • واذا غلب على هذه القصص طابع الوضع ، فانها على كل حال توضح الميزات التي رآها الناس فيما بعد ، وتفسر ازدهارها السريع وبقاءها الى اليوم •

فهي اولا تتوسط العراق : « فانت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وانت قريب من البر والبحر والجبل » وهي إلى ذلك تقوم في منطقة زراعية واسعة « بين أربعة طساسيج ... فتكون بين نخل وماء . فإن اجدب طسوج وتأخرت عمارته كان في الآخر فرج » ثم إنها على الطرق التجارية الهامة : « ... مشرعة الدنيا . كل مايأتي في دجلة من واسط والبصرة ... والاهواز وفارس وعمان والبحرين فإليها يرقى . وكذلك مايأتي من الموصل وديار ربيعة واذربيجان وارمينية ... ومايأتي من الرقة والشام والثغر ومصر والمغرب ... فيها يحط وينزل » وهي الى هذا وذاك سهلة التموين : « ... تجيك الميرة في السفن والقوافل من مصر والشام وتجيك الآلات من الصين في البحر ومن الروم » عدا انها « حصينة الموقع » « ... وانت بين انهار لا يصل اليها عدوك » وطيبة المناخ « قليلة البق[1] » . فهي إذن ذات ميزات اقتصادية عسكرية صحية هامة .

وتقرر بناء المدينة في هذا الموضع . وأعطاها المنصور اسم « دار السلام » غير ان الناس أعطوها أسماء اخرى وبقي الاسم الاول للمناسبات الرسمية . سموها « المدورة » لاستدارتها و « الروحاء » لطيب هوائها و « الزوراء » لازورارها عن القبلة ــ على حد قول المؤرخين ــ وقد استنتج (لوسترانج) من تفضيل الفرس لهذا الاسم ، انه من الممكن ان يكون إحياء لاسم فارسي قديم لذلك الموضع . ولعل هذا صحيح . فان صاحب الفخري يؤيد ذلك بقوله « وكان موضعها

(١) انظر النص لدى ابن طباطبا الطقطقي (الفخري ــ طبعة صادر ــ ص ١٦٢) وهو ينسبه إلى بعض عقلاء النصارى الذي نبه المنصور إلى فضيلة مكان بغداد .

يسمى الزوراء قديماً » وقد يكون السبب في هذا الاسم أيضاً ازورار أبواب المدينة نفسها فانها لسبب دفاعي لم تكن مداخلها مستقيمة ولكنها مزورة عل ىا نالاسم الذي درج على كل لسان هو « بغداد » • وقد أتعب المؤرخون المسلمون اذهانهم في تصيد معنى الكلمة وكلهم على انها فارسية مؤلفة من مقطعين (باغ) وتعني اما بستان او اسم لصنم او اسم لملك الصين و (داد) وهو !ما اسم لرجل ، او بمعنى هبة أو عطية ، فيكون المعنى على الجملة عطية داد او بستان داذويه الخ ••• و (لوسترانج) يرى « ان الاشتقاق الصحيح للكلمة جاء من الكلمتين الفارسيتين القديمتين (بغ) أي الله و (داد) أي تأسيس فالمعنى أسسها الله •

وقد ظهر لبعض الباحثين الحديثين العارفين باللغة السريانيةرأي قد يلقي ضوءا آخر على الاسم يقول : إن اللفظ آرامي الاصل مبنى ومعنى وهو مؤلف من (ب) المقتضبة من كلمة بيت (وكثيرا مايقع هذا كما في بعقوبة وباعذرا وباجرمي الخ •••) ومن (كدادا) ومعناهاغنم فمعنى اللفظ سوق الغنم ، لان الموضع سوق قديمة جداً • وق دوجد اسم قريب منه (بكدود) في وثيقة قانونية من عهد حمورابي (القرن ١٨ ق•م) وفي حجر من أحجار الحدود الكشية وفي بعض آثار الاشوريين (القرن ١٢ ق•م) ويؤيد هذا ان البقعة نزلها الآراميونقديما في حركة هجرتهم الاولى الى بلاد الشام كما تدل اسماء عدة اماكن حول بغداد كالكرخ ، والشماسية والحيرة • وقد يفيد ان نذكر أن في الذي يرويه المسعودي ، مايفيد أن اصل الاسم آرامي • والطبري يذكر انه كان على الطرف الشرقي من دجلة (تجاه بغداد) قرية ودير كبير كانت تسمى « سوق البقر » •

وضع مخطط المدينة على نهج مستحدث في بناء المدن الاسلامية، لاحظه مؤرخو العرب : إذ بنيت على شكل دائرة يتوسطها قصر الخليفة ومسجده ، ويحيط بها قصور القواد ورجال الدولة ؛ ثم تقوم الاسوار في سورين أحدهما ضخم (قاعدته خمسون ذراعاً وقمته عشرون) والثاني يليه من الداخل ويسكن بينهما الرعية ، ثم سور ثالث خارجي تقوم أمامه الخنادق • ويرى الاثر الفارسي واضحاً في هذا المخطط • ولعل المنصور تأثر بهندسة العواصم الآسيوية القديمة كمدينة (أقباتان) /همذان/ عاصمة الميديين ، التي كان محل الملك فيها في الوسط ، ويسكن رعاياها بين أسوارها السبعة المتتالية • ومدينة ميافارقين التي بنيت في القرن الخامس الميلادي[1] وكانت في استدارة سورها المثلث تشبه تمام الشبه بغداد • ومثلها في ذلك آمد وكلتاهما من مدن الجزيرة البارزة في الاسلام • أما فصل الرعية عن الخليفة في بغداد ؛ وضخامة القصر في الوسط ، وحصر السكان بين السورين فقد يشير الى التأثير الفارسي• والى ترفع صاحب السلطة ونفوذه المطلق ، وهذا يتعارض ــ كما لاحظ الدكتور الدوري ــ مع الديمقراطية الاسلامية من جهة ؛ ويختلف عن الارستقراطية الاموية من جهة أخرى ولكنه على أي حال يتوافق مع عقلية المنصور ومركزيته في السلطة •

وأما مساحة دائرة المدينة الاولى ، فقد اختلف في تحديدها المؤرخون ويورد الخطيب البغدادي ست روايات تعطي مساحات تتفاوت فيها المساحة مابين ثلاثة كيلومترات مربعة واثني عشر ونصف • وقد

---

(١) انظر وصف ميافارقين لدى الازرق الفارقي ـ تاريخ ميافارقين (مخطوط المتحف البريطاني) ورقة ٧ وجه حتى ١٢ ظهر . وقد نقل هذا الوصف ياقوت في معجم البلدان .

قسم المنصور بغداد المدورة إلى أربعة أقسام أو أرباض أناط الاشراف على البناء في كل ربض بثلاثة رجال : قائدومولى ومهندس • أمـــا الاشراف العام على البناء فعهد به الى الحجاج بن أرطأة ، والامام أبي حنيفة النعمان ، من ذوي العدالة والفقه والامامة والمعرفة بالهندسة والبناء • ولم يشرع المنصور بالبناء حتى تكامل لديه من الفعلة وأهـل المهن آلاف كثيرة ، وحتى جمع المال اللازم للمشروع واشترى الارضين من أصحابها بعد المساومة وأقطعها أهل بيته وقواده وصحابته وجنـده وكتابـه •

وبعد أن وافق المنصور على المخطط رسم على الارض • ومر الخليفة بالشوارع والامكنة فأعجبته ويقال انه بات في الموضع فارتاح اليه ثم امر بصب النفط على الخطوط وإشعاله ليلا ليشرف على رونقها • وأمر باحضار المهندسين والبنائين من الشام والعراق وبلاد الديلم و بدأ ضرب اللبن وطبخ الآجر[1] •• وكا نعدد العاملين مائة الف • بدأ بناء المدينة سنة ١٤٥ ، ولعل العمل توقف فجأة ، حين وصل خبر قيـام محمد ذي النفس الزكية ، بالثورة في الحجاز • فلما انتصر المنصـور عاد الى بناء المدينة سنة ١٤٦هـ وكان يشرف على الصغيرة والكبـيرة فيها ، ويحاسب العمال على الدانق والحبة • بينما كانت القطائع التي منحها لاهله وقواده ، تبنى بدورها من قبلهم • فما أتت سنة ١٤٩هـ حتى كانت المدينة قد تمت بناء • وجعل لها خنـدق يليه سـور مضاعف ،

---

(١) يروى ان المنصور قرر هدم طاق كسرى في المدائن واستعمال حجارته في بناء مدينته . لكن خالد بن يحيى البرمكي اشار عليه الا يفعل ولكنه اتهمه بفارسيته وبدأ فعلا ثم توقف لتكاليف ذلك . (انظر الفخري لابن طباطبا) (طبعة صادر — بيروت ١٩٦٦) ص ١٥٧

بينهما « فصيل » مرصوف لايسكن . للاسوار أربعة أبواب مضاعفة من الحديد وعليها الابراج العظام ، وقد نقل المنصور خمسة منها من مدينة الحجاج : واسط . وقد تفردت هذه الأبواب بظاهرة معمارية هامة هي الازورار فكان الداخل من الباب الخارجي لا يدخل مباشرة الى المدينة ولكنه يعطف الى اليسار في دهليز أزج يفضي الى الباب التالي ولعل السبب في ذلك عسكري دفاعي ، ولم يعرف ذلك لمدينة قبل بغداد ، أما في وسط المدينة فقام (قصر الذهب) للمنصور يعلو قبته تمثال فارس برمح ، والمسجد الجامع ملاصق للقصر من شماله الشرقي ، وهناك دار لصاحب الحرس وأخرى لصاحب الشرطة وذلك ضمن رحبة واسعة دعيت بالرحبة العظمى هي قلب المدينة يفضي إليها دهليز عظيم عليه بابان من الحديد .. وتكلف حوالي خمسة ملايين درهم ، مع رخص الاسعار . ولا شك أن البناء كان رائعا فقد وصف الجاحظ بغداد ، بعد قليل من عهد المنصور ، بقوله : « لم أر مدينة قط أرفع سمكا ولا أجود استدارة ولا أوسع أبوابا من الزوراء . وهي مدينة أبي جعفر المنصور . كأنما صبت في قالب وكأنما أفرغت افراغا » .

وسرعان ما ازدحمت المدينة بالوافدين اليها من علماء ، وشعراء ، وقواد وتجار ، وباعة صغار ، وصناع ، حتى ضاقت بهم . فأمر المنصور سنة ١٥٧ بتخطيط الاسواق في الكرخ ، جنوب المدينة ، وشق الانهر فيها ، ونقل الباعة اليها ، وجمعهم حسب مهنهم . فتيسر له بذلك توسيع شوارع مدينته ، والعناية بنظافتها .

وقد وصل بغداد ، بعد انتهاء بنائها ، ولي العهد المهدي ، في جيش خراسان . ولكن أباه كان قد بنى له قصراً ومعسكراً في الرصافة ،

على الضفة الشرقية من دجلة ، تجاه بغداد ، فنزل فيه . وقد تخير المنصور ذلك الموضع عامداً اذ « يصير ذلك بلداً وهذا بلداً فان فسد عليك ــ كما قال له الناصحون ــ أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب » . وما عتمت الرصافة أن توسعت توسع بغداد وأضحت تضاهيها وتكملها في الرونق والقصور وكثرة الخلق قبل أن تندمج نهائياً فيها .



الفصل السابع

العلاقات الخارجية

السياسة الخارجية : سياسة تأمين الحدود والاتجاه القاري

كانت الدولة التي تربع في قمتها العباسيون الآن ، الدولة العظمى الاولى ، في عالم القرون الوسطى ، واتساع رقعتها جعلها على تماس مباشر ، في الحدود والصلات ، مع كل الدول القوية إذ ذاك ، إلا دولة الفرنجة الكارولنجيين فقد قام بينهم وبينها في الاندلس دولة الامويين الجديدة ، التي انكمشت عن العالم الاسلامي كله الى تلك الرقعة الجزرية المحدودة • وكان من الطبيعي ، من جهة أخرى ، في عصر كالعصر العباسي الاول ، كله حركة ونشاط وفعالية ، أن يصيب السياسة الخارجية جانب من النشاط ، سواء في الاعمال الحربية ، أو في العلاقات الدبلوماسية • وبالرغم من ان الفترة الاولى من هذا العصر ، نعني فترة التأسيس ، كانت كثيرة المشاكل الداخلية ، فان مشاكل الحدود والجهاد لم تنقطع • وقد جهد المنصور خاصة لتأمين تلك الحدود أكثر مما فكر بالهجرم • ولهذا فانه من الصعب أن نسمي علاقات الدولة العباسية بما جاورها من البلاد ، في المشرق خاصة ، بسياسة خارجية أو بعلاقات خارجية ولعل الأصح أن تسمى سياسة تأمين الحدود لأن الاعتماد فيها إنما كان على القوى العسكرية والحصون لا على العلاقات الدبلوماسية والرسل والوفود • ولعل

العلاقات الخارجية الوحيدة التي عقدها المنصور انما كانت تلك العلاقات المحتملة مع الصين من جهة ومع مملكة الفرنجة من جهة أخرى •

على أن الملاحظة الاساسية هنا هي أن انتقال الخلافة من بيت الى بيت ومن عاصمة الى أخرى إذا لم يكن في كافة النواحي الداخلية والادارية والاقتصادية والثقافية سوى استمرار للعهد الاموي الا انه فيما يتعلق بالسياسة الخارجية بالذات كان انتقالا بالدولة الاسلامية من عالم الى عالم ومن سياسة الى أخرى مختلفة • لقد نجم عن مسيرة الخلافة نحو المشرق واستقرارها في العراق وانقطاع الاندلس عنه ثم انقطاع المغرب بعد قليل ، وسيطرة الروم على المتوسط إثر هزيمة الامويين أمامهم أن أخذت الدولة الاسلامية العباسية الطابع القاري لا البحري وانتقلت من عالم البحر المتوسط الى عالم آسيوي يختلف عنه في كل ناحية • ولم يعد للعباسيين من يد في الاعمال التي تمت في هذا البحر بعد ذلك فصقلية إنما فتحها بنو الأغلب ، وكريت جماعة الربض الاندلسيون • وصارت شواطىء المتوسط بالنسبة للعباسيين أشبه بالحدود والنهايات التي ينبغي حمايتها منها بالثغور ومراكز الانطلاق الى السيادة على ذلك البحر وما وراءه •

وهكذا لم يستفد المسلمون في المشرق من وجودهم على شواطىء المتوسط الشرقية والجنوبية ويجب الانتظار في هذه الناحية حتى تظهر الدول شبه المستقلة في افريقيا وفي مصر لتظهر القوة البحرية العربية (ما بين الأغالبة ــ والطولونيين حتى الفاطميين) وليعود النفوذ الاسلامي ــ ولكن تحت رايات أخرى غير الرايات العباسية ــ الى مكانه من ذلك البحر •

ولما كانت معظم الجبهات العباسية برية لذلك يمكن أن نقسم البحث في ذلك حسب الجهات الى ثلاث : المشرق وبيزنطة والبحر المتوسط الغربي ٠

١ - جبهة المشرق (الهند الصين المحيط الهندي تركستان)

كان اهتمام المنصور متجهاً نحو الشرق أكثر منه نحو الغرب ، والى الهند والترك وايران أكثر منه الى جبهة الروم والاندلس وافريقية٠ ولعل الشاعر السيد الحميري قد عبر عن شيء من ذلك حين أنشده :

أعطاكم الله ملكاً لا زوال له
حتى يقاد إليكم صاحب الصين ٠٠٠
وصاحب الهند مأخوذاً برمته
وصاحب الترك محبوساً على هون[١]

ولم يأبه الشاعر كثيراً بذكر الروم أو افريقية ٠ والواقع أن الدولة العباسية بدأت اتجاهها القاري الآسيوي وارتبطت بالشرق منذ ربطت نفسها بخراسان وأهل خراسان وأصبح هذا الاتجاه سياسة مقررة دائمة وطدتها أعمال المنصور والمهدي والرشيد ثم خاصة المأمون فكأنما كان ظهور الدولة العباسية إحياء للدولة الساسانية وسياستها العامة ٠

وكانت تقوم الى الشرق والى الشمال من الدولة أيام العباسيين

---

(١)الاصبهاني - الاغاني ج٧ ص ٢٦٠

الاولين مجموعتان من الدول :

أ ـ مجموعة من الدول الكبيرة ولكنها بعيدة المواقع ولا تتصل الاتصال المباشر بخلفاء بغدادمثل ممالك الهند (مملكةقنوج في شمال الهند، ومملكة أسرةراشتراكوتا في الدكن ومملكةسرنديب) وامبراطوريةالصين، ومملكة الاتراك الشرقيين (الأويغور) في منغوليا • ومملكة الخزر في جنوب روسيا •

ب ـ مجموعة من الدول أو الشعوب الصغيرة المحيطة بالأرض العباسية سواء في الهند (كشمير ـ دهلي ـ الـزط ـ قندهار ـ الملتان ـ الميد) أوفي تركستان (مثل بلاد الصغد وسجستان والتبت وفرغانة وأشروسنة) أو في شمال أرمينية (مثل دولة الصنارية واللان والسرير والابخاز والكاسكية وكشك) وهذه الدول هي أشبه بما يسمى بالدول الحاجزة أو دول «الصدام» •

وبديهي أن يحيط الغموض وتقل المعلومات حول علاقات العباسيين مع المجموعة الاولى من الدول خاصة • على أننا نستطيع أن تتبين أحيانا بعض الملامح من خلال العتمة ومن خلال العلاقة مع الدول الصغرى والثورات والعمليات الحربية على مناطق الحدود •

اولا : فأما في الهند فقد كان الثغر هناك في حوض السند قد وقع منذ سنة ١٣٠ في يد منصور بن جمهور الكلبي الثائر على السلطان الأموي • ويبدو أن أبا العباس سكت عن منصور أو قبل ولايته ولكن أبا مسلم بعث الى السند بعبد الرحمن بن أبي مسلم العبدي وقد مر معنا كيف فشل في طرد منصور ولقي حتفه حتى إذا وفد موسى بن كعب التميمي استطاع النصر حتى ألجأه منصوراً الى الصحراء يموت

فيها عطشاً • وهرب جماعته وأهله الى بلاد الخزر[1] وأقام موسى ينشر الاسلام فيبني المساجد ومن ذلك مسجد المنصورة كما يوطد السلطان العباسي بالهجوم على الامارات الهندية المجاورة وتجديد بناء المدن ـ الحصون هناك •

كانت تلك طليعة النفوذ العباسي في المنطقة الذي اضطرب حين عادكعب إلى العراق مخلفاً ابنه عيينة مكانه ، فقد خالف عليه قوم من اليمن فقتل عامتهم فأظهروا العصيان وبعث أبو جعفر بعمر بن حفص بن أبي صفرة العتكي المعروف بهزارمرد فتسلم البلاد سنة ١٤٢ رغم مقاومة عيينة التي أدت الى طرده ثم مقتله[2] •

وإذا كانت هذه الاعمال تدخل في إطار توطيد الدولة أيام المنصور فقد اتصلت بها أيضا شؤون العلاقات الخارجية في هذه المنطقة • فان عمر بن حفص[3] الذي أقام عشر سنوات في تلك البقاع اهتم بنشر الاسلام وحماية الحدود دون التوسع وقد حاول محاولة للاتفاق

---

(١) انظر الطبري ج٧ ص ٤٦٤ (٣/٨٠) ابن الاثير ج٥ ص٤٥٣

(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٣٧٣

(٣) يجعل البلاذري ولاية عمر بن حفص بعد هشام التغلبي وقد اتبعنا الطبري واليعقوبي في جعل عمر هو السابق لان الطبري يحدد تاريخ بدء ونهاية الولاية (انظر البلاذري ـ فتوح ص ٥٤٤ـ اليعقوبي ج٢ ص٣٧٣ ـ الطبري ج٧ ص ٣/٥١٢ـ) علما أن اليعقوبي يذكر ان ولايته كانت سنتين بينما يجعلها الطبري حسب التواريخ قرابة عشرة اعوام . وكان من الممكن التوفيق بين هذه الروايات جميعا بافتراض عودة عمر بن حفص مرة ثانية الى ولاية السند ، بعد هشام ، لمدة سنتين أيضا بعد سنواته العشر الاولى . لولا ان عمر ولي افريقية منذ سنة ١٥١ وقتل في القيروان سنة ١٥٤ . فخبر السنتين عند اليعقوبي خاطىء .

مع بعض الامارات الهندية ضد آل العباس • ذكروا أنه كان يتشيع لآل علي فأوفد محمد ذو النفس الزكية (ويعرف أيضاً بالأشتر) ابن عبد الله الى بلاد السند مستتراً في زي تاجر خيل مع جماعة • وكان يعرف ميول ابن حفص فكشف له عن أمره وطلب البيعة لأبيه محمد فبايعه وهيأ لنفسه الملابس البيض كما ينقض بيعة المنصور ولكنه فوجىء قبل يوم من إعلان الأمر بحراقة تصل من البصرة وعليها كتاب من زوجته تبلغه فيه مقتل ذي النفس الزكية ••

واقترح ابن حفص على العلوي أن يجعله مع جماعته الزيدية عند ملك من ملوك السند (المجاورين) عظيم المملكة كثير التبع وهو على شركة أشد الناس تعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم[1] وقد بلغت عدة هؤلاء اللاجئين السياسيين ٤٠٠ زيدي « من أهل البصائر » •• وبلغ المنصور ذلك فيما بعد بشيء من ذلك فكتب الى ابن حفص أن يغزو الامير الهندوكي فلما تردد طويلا سأله المنصور عن موضوع عبد الله العلوي • ويذكر الطبري أن أحد رجال عمر افتداه بنفسه وادعى أنه المسؤول أمام المنصور عن الامر فقتل وأما عمر بن حفص فأعطي ولاية افريقية سنة ١٥١ •

وتولى السند بدلا عنه هشام بن عمرو التغلبي فكان عمله هجوميا بعكس ابن حفص : هاجم كشمير فافتتحها وأصاب سبايا ورقيقاً كثيراً[2] وغزا اقليم الكجرات واستولى على مدينة (بروج) ميناء بحر العرب وكان بها جالية إسلامية كبيرة •

---

(١) انظر الطبري ج٨ ص ٣٣–٣٥(٣/٣٦١–٣٦٣) •
(٢) البلاذري – فتوح ٥٤٣ – اليعقوبي ج٢ ص٣٧٣

وقيل لهشام : إن المنصورة لا تحملك • والملتان بلاد واسعة ومنها معرى • فسار إليها واستخلف على المنصورة أخاه بسطام بن عمرو •• وخرج صاحب الملتان في خلق ليرده فكانت وقعة عظيمة وانهزم صاحب الملتان ونزل هشام المدينة وسبى سبياً كثيراً فخضع له أقليم الملتان كله •

ووجه أسطولا من البوارج بقيادة عمرو بن جمل الى بلدة ناربد (جنوبي شبه جزيرة راجكوت) •« ثم عمل السفن وحملها على نهر السند حتى القندهار ففتحها • وسبى وهدم المعبد وبنى موضعه مسجداً •• » ويبدو أنه في احدى هذه الحملات ورغم مايعزى الى هشام بدوره من ميول علوية قتل عبد الله العلوي اللاجيء وبعض اتباعه• قتله السفيح أخو هشام في بعض المعارك وبعث برأسه الى المنصور • ولعل الامارة التي كان لجأ اليها إذن هي كشمير ••

وقدم هشام التغلبي على المنصور بما لم يقدم به أحد من السند لكنه لم يقم بالعراق إلا قليلا حتى مات فولى المنصور معبد بن الخليل التميمي ••

ثانياً : وأما الصين فقد كان اتصال الدولة العربية الاسلامية بها يجري عن طريقين :

أولهما بحري جنوبي ، عبر المحيط الهندي ثم مضيق سنغافورة وهو رغم بعده كان يعتبر طريق الاتصال المباشر بالصين •

والثاني بري شمالي عبر بلاد الترك ثم ممر زنجاريا ، وبالرغم من

ان طريق البحر كان أرخص كلفة وأقل مشقة وتعرضاً لتهديد القوى المتغلبة على مداه الطويل فان طريق البر لم يكن أقل شأناً ولا حركة ونقلا للبضائع من طريق البحر • على أن الأهواء السياسية والنزاع الاقتصادي الحربي المستمر منذ العهد الفارسي اليوناني ، في الشرق الاوسط ، كانت تلعب دورها في تنشيط أو إضعاف أحد الطريقين أو تحويلهما باستمرار •

وعلاقة الدولة العربية الاسلامية بالصين أكثر غموضاً من علاقاتها مع الهند ذلك أن المصادر العربية لم تبد أي اهتمام بذكر شيء عن هذه العلاقات التي نكاد ــ لولا شواهد الصلات التجارية الواشجة ــ لا نجد أي خبر يتعلق بها • ولكن ذلك لا يعني أنها لم تكن قائمة أو كثيرة النشاط • وإن كان البعد الجغرافي قد جعل بالضرورةالعلاقات التجارية أقوى وأوسع بكثير من العلاقة السياسية • وإذا سكتت المصادر العربية عن هذه العلاقة فان ثمة في المصادر الصينية ما يشير الى قيامها بين خلفاء الاسلام ومعاصريهم ، أباطرة الصين من أسرة تانغ (أوتعنغ) الذين امتد حكمهم ما بين سنة ٦١٨ حتى سنة ٩٠٧ أي مما قبل الهجرة بخمس سنوات حتى أواسط العصر العباسي الثاني • وثمة ما يشير الى أن العلاقات بدأت ، عن الطريق البري ، منذ خلافة عثمان بن عفان • وقد تكرر وضوحا لعلاقة في زمن الامويين في ظل عهد الوليد وهشام خاصة •

أما في مطالع العصر العباسي فيبدو أن الطريق البحري كان قد أضحى مألوفاً للناس فقد رووا أن المنصور حين بنى بغداد قال في تفضيل موضعها وميزاته : « ••• وهذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء •

يأتينا منها كل مافي البحر ...»[1] والرواية وإن تكن في شكلها العام موضوعة لبيان ميزات بغداد إلا أنها على أي حال تعبر عن حقيقة يقر بها الناس في ذلك الوقت وهي انه ما دامت دجلة موصولة بالبحر فليس بين بغداد والصين شيء والرحلة بينهما مفتوحة على المصراعين .

والواقع أن العرب المسلمين نشطوا كثيراً في الحركة التجارية البحرية في المحيط الهندي ثم بحر الصين منذ القرن الثاني الهجري (الثامن) خاصة ويبدو أن أعداداً كبيرة وصلت منهم الى ميناء كانتون (خانفو) الصيني في ذلك القرن . يذكر مؤرخ صيني من تلك الفترة (بين سنة ٧١٣ و سنة ٧٤٢) « أن برابرة الغرب دخلوا المملكة الوسطى جماعات كالطوفان جاءت من مسافة تبعد ألف فرسخ على الاقل وأتت أكثر من مائة مملكة تحمل معها كتبها المقدسة ... كأنها فريضة ، فأخذت هذه الكتب ووضعت في بهو القصر الامبراطوري المخصص لترجمات الكتب المقدسة ... »[2] وتذكر المصادر الصينية أيضاً ــ وهي لم تكن تفرق تماماً ــ يومذاك بين العرب والفرس ولا تذكر شيئاً عن العرب أنه كان للفرس (البوسيه Po-ss e) قرية أو مستعمرة كبيرة جداً في جزيرة هاينان عام ٧٤٨/١٣٠هـ . وقد ورد ذكرهم في هذه السنة نفسها الى جانب البراهميين وسكان الملايو أصحاباً لسفن على النهر عند كانتون ...[3] . ويسجل تاريخ كوانغ

---

(١) الطبري ج٧ ص ٦١٤ (٣/٢٧٢)

(٢) توماس ارنولد ــ الدعوة الى الاسلام (الترجمة العربية) ص ٣٣٤

(٣) جورج . فضلو حوراني ــ العرب والملاحة في المحيط الهندي (الترجمة العربية) ص١٩٢ــ١٩٣

تونغ قدوم أوائل الوافدين منهم على النحو التالي : « ... في عهد دولة تانغ وفد على كانتون عدد كبير من الغرباء من مملكة أنـام وكمبوديا . ومدينا (وتعني المدينة يثرب) وبعض بلاد أخرى . وكان هؤلاء الغرباء يعبدون الله وليس لهم في معابدهم تمثال أو صنم ولا صورة . وكانت مملكة مدينا (أي مملكة الاسلام) قريبة من مملكة الهند وفيها نشأت ديانة هؤلاء الغرباء التي تختلف عـن ديانة بوذا . وكانوا لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ويعتبرون الذبائح التي لا يذبحونها بأيديهم طعاماً نجساً ويطـلق عليهم الآن اسـم (هوى هوى) . ولما استأذنوا الامبراطور وحصلوا منه على إذن بالاقامة في كانتون بنوا دوراً جميلة من طراز يختلف عن ذلك الذي كان في بلادنا . وكانت لهم ثروة عظيمة ودانوا بالطاعة لرئيس انتخبـوه بأنفسهم ...»[١] .

ويبدو أن هذه الجماعة التجارية المتكاثرة من جهة واصطدام القوى العربية الاسلامية في ما وراء النهر مع القوى الصينية ــ كما سوف نرى ــ من جهة أخرى هي التي أدت الى إقامة علاقة سياسية عسكرية بين الصين والدولة العباسية الناشئة في أواسط القرن الثامن الميلادي (بين ١٣٢ ــ ١٤٠هـ) . فقد كان الصينيون يسيطرون علـى طريق التجارة البري عبر بلاد تركستان ويعتبرون هذه البلاد منطقة نفوذ مباشر لهم . فلما توغلت الجيوش العربية الاسلامية هناك في بلاد

---

(١) توماس ارنولد ــ المصدر نفسه ٣٣٤و٣٣٢ وقد نقل النص بدوره عن الجزء الاول من كتاب :

D. De Thiersant, Le Mohamétisme en Chine, (Paris 1878) Vol. L PP 153 et 19-20

الترك وتدخل امبراطور الصين لحماية بعضهم هزم جيشه هزيمة قوية (أواخر سنة ١٣٣ هـ / تموز ٧٥١ م) • قتل فيها الالوف وأسر الالوف من الصينيين • ولم ينجم عن تلك المعركة انسحاب السيطرة الصينية من تلك المنطقة كلها فحسب ولكن نجم عنها أيضاً اقامة تعاون سياسي عسكري بين الخليفة المنصور والصين • فقد قامت ثورة داخلية سنة ٧٥٤ في الصين أدت الى أن يطرد أحد الغاصبين وهو الثائر التركي الرهيب آن لوشان An – Lu – Shan الامبراطور عن عرشه • والى أن يتنازل عن العرش لابنه سو – تسونغ سنة ٧٥٦ فطلب هذا الابن النجدة من الخليفة العباسي المنصور فأجابه بارسال قوة عسكرية نجح بمساعدتها في استرجاع عاصمتيه (سي – نغاذ – فو) و (هو – نان – فو) من أيدي الثوار ...[1] •

ولسنا ندري بالضبط متى تحركت تلك القوة الاسلامية الى الصين ؟ وعن أي طريق ذهبت – ولعله الطريق البري الشمالي – ولا عدد هذه القوة وقائدها • فان المصادر العربية الاسلامية تصمت عن ذلك كله ، رغم أهميته ورغم أنه يشكل انعطافاً وتطوراً هاماً جداً في اتساع نفوذ وسمعة الدولة الاسلامية عبر كل الدنيا المعروفة آنذاك • وهذا ما يشككك في صحة الخبر ، وقد يدفع الى الظن بأن قصة المعونة العسكرية العباسية قد لا تكون في الاصل سوى تطوع بعض التجار العرب أو المرتزقة أو القرصان من مختلف العناصر التي تنتمي في

---

(١) انظر توماس ارنولد – الدعوة الى الاسلام (الترجمة العربية – الطبعة الثانية ١٩٥٧) ص٣٣٣ وانظر كذلك بدر الدين حي الصيني – العلاقات بين العرب والصين (القاهرة ١٩٥٠) ص ٣٦ ، ٤٦ • وجورج فضلو حوراني – العرب والملاحة ص ١٩٣ و ص ٢٠٠

الاساس للدولة العباسية كالفرس والنساطرة واليهود وغيرهم لدعم قضية الامبراطور الابن في وجه الثائرين • ولعل هؤلاء المتطوعين قد تدخلوا أو أن التجار العرب المسلمين مولوهم وجندوهم أملا في بعض الامتيازات والحقوق التجارية التي نالوها بالفعل فيما بعد •

وعلى أي حال فان بقية القصة ترجح هذا الافتراض • فالمصادر الصينية تذكر ان قوة النجدة العباسية لم ترجع الى بلادها بل بقيت في الصين وتزوج أفرادها هناك واستقروا •• والروايات التي تذكر هذا الاستقرار تعلله بسبب واضح التهافت • بعضها يقول إنهم عادوا بالفعل الى بلاد الاسلام ولكنهم أخرجوا منها لأكلهم من لحم الخنزير في الصين • وبعضها يذكر انهم أشفقوا أن يعودوا لانهم خافوا الاتهام بهذه الكبيرة فعدلوا عن الرجوع وهم على أهبة السفر • وحين حاول حاكم كانتون إجبارهم على الرحيل انضموا الى اخوانهم في الدين وسلبوا المتاجر الهامة في المدينة • فأنقذ الحاكم نفسه بالالتجاء الى سورها • ولم يتمكن من العودة إلا بعد أن حصل من الامبراطور على إذن لهذه الجيوش العربية بأن تقيم في هذه البلاد وخصصوا لهم أراض ودوراً في مدن مختلفة حيث استقروا وتزوجوا من نساء البلاد[1] ••

وقد يكون هذا الخبر السابق هو نفسه الخبر الذي ذكر فيه المؤرخ الصيني صاحب (تاريخ أسرة تانغ) في أخبار سنة ٧٥٨ م وسنة ١٤٠ هـ : « ••• أن العرب Ta-shi والفرس Po-sse قد نهبوا

---

(١) توماس ارنولد ــ الدعوة الى الاسلام ص ٣٣٣(نقلا عن المصدر السابق نفسه ص ٧٠ــ٧١)

مدينة كوانغ ـ شو (كانتون) وأحرقوها معاً ثم عادوا أدراجهم في البحر . » وكان فيها جموع كثيرة من هؤلاء الاجانب[1] ...

وقد يكون من التناقض أ ن نرى المنصور يقدم المعونة العسكرية لامبراطور الصين البعيد ، وهو في الوقت بالذات أحوج الناس اليها لقمع الثورات عليه وتوطيد الدولة له ، ومن التناقض أيضاً أن يعمل على توطيد علاقاته السياسية مع الامبراطور الصيني بهدف كسب حياده في منطقة تركستان على الاقل بينما تجرؤ بعض الجماعات التجارية أو القراصنة المسلمين على هدم العلاقات الاقتصادية القوية التي كانت قد بدأت في التوطد بين بحر البصرة وبحر الصين وتنهب مرفأ الاتصال بين البلدين .

ولعل الارجح أن تلك الجماعات التي دعمت الامبراطور عسكريا أو نهبت كانتون كانت تعمل لحسابها ولتأمين مصالحها الخاصة في تلك الاقطار النائية . وقد تكون قد قامت بالتطوع والدعم بعلم المنصور وتأييده وأعطت متطوعيها هذا الاسم ليكون له الوقع والقبول وغرضها الحصول على الامتيازات فلما منعت نالتها بالقوة واستقرت بينما انسحب بعضها ، أو انسحبت القوى الاسلامية التي استجلبتها من الموانيء الاخرى لدعمها ..

وعلى أي حال فان السياسة الصينية قد مالت بعد إخماد ثورة آن ـ لويشان إلى الانكماش على الذات وإذا لم تعد تتدخل في شؤون

---

(١) حوراني ـ العرب والملاحة ص ١٩٣

تركستان وتركتها بكاملها للنفوذ العباسي الاسلامي فانها بالمقابل أغلقت ميناء كانتون[1] نهائياً في وجه التجار الاجانب ، ومنهم العرب والفرس وغيرهم ، وقد ظلت موانىء الصين محرمة عليهم بعد ذلك أكثر من ثلث قرن ..

وفي هذه الفترة على ما يظهر ضعفت حركة المراكب التجارية الاسلامية في الرحلات البعيدة أو غلت تكاليفها ويبدو أن هذا الضعف والغلاء قد جرأ عمليات القرصنة التي زادت بشكل ملحوظ أيام المنصور مابين سنتي ١٤٠ حتى ١٥٣ في بحر البصرة والبحر الهندي ...

ثالثاً : وأخبار النشاط العباسي البحري في المحيط الهندي شحيحة جداً :

وبالرغم من شح الاخبار لا سيما فيما يتعلق بالنشاط العسكري وبأمن الطرق البحرية التجارية عبر الخليج العربي (وكان يدعى بحر البصرة) وما وراءه الى الهند وشرقي افريقيا والى الصين ، فان المعلومات القليلة التي وفرها لنا خليفة بن خياط المؤرخ البصري الذي عاش جانباً من العصر العباسي الاول ، في نهايته ، تكشف أن الاسطول العباسي كان ضعيفاً للدرجة التي كان فيها قرصان البحر يضربون ضرباتهم حتى في البصرة نفسها . وتتكرر هذه الاخبار في تاريخه خاصة مابين سنتي ١٤١ ـ ١٥٣ في عهد المنصور . وتنسب القرصنة في بحر البصرة في هذه الفترة الى شعب أو جماعة تعرف بالميذ وهم

---

(١) حوراني ـ العرب والملاحة ص٢٠٠

قوم من حوض السند ، في غربه ، ومركزهم في بلدة سزست أو سرشت يقول البلاذري[1] : « وأهلها الميذ الذين يقطعون البحر ويبدو أنهم اشتهروا بذلك واتخذوه عملا دائماً خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين حتى أضحت « مغزى أهل البصرة » وموضع عدائها وهجومها الدائم • يقول ابن خياط : في سنة ١٤١ « أن أبا جعفر ولى محمد بن أبي عيينة (بن المهلب بن أبي صفرة) البحر • فنزل مدينة قيس ، جزيرة في البحر (ولعلها جزيرة قيشم على مدخل الخليج العربي) فأتته مراكب الميذ فلم يخرج اليهم وخرج ابنه فقتل في جماعة من المسلمين وخلى ابن أبي عيينة المدينة فخربها العدو فهي خراب الى اليوم•••»[2] ولعل تلك المدينة لم تكن أكثر من مركز من المراكز التجارية لأهل البصرة على طريق الهند •

ـ وفي سنة ١٤٨ يبدو ان الميذ قد اجترأوا ، مع ضعف القوة

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ج٣ (طبعة المنجد) ص٥٣٩ ، ويقول المسعودي (في التنبيه والاشراف ص ٤٩) وفي نهر مهران بالسند «جنس» يقال لهم الميد وهم خلق عظيم حرب لأهل المنصورة (في السند) ولهم بوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها كالشواني في بحر الروم ..» ويقول ابن خرداذبة (ص٦٢) «الميد لصوص ...» وفي البلاذري قصة سفينة كانت تحمل بعض الجواري هدية للحجاج فهاجمتها بوارج الميد فأخذوها بما فيها ..

ويقترن اسم الميد وقصة القرصنة باسم جنس هندي آخرهم الكرك . ويقول ابن خرداذبة (ص٥٦) انهم من بلاد السند . وكانوا يعملون ايضاً بالقرصنة وقد هاجموا كما سوف نرى مدينة جدة في البحر الاحمر مما اضطر المنصور لارسال حملة تأديبية ضدهم وقد ذكر ذلك الطبري .

(٢) خليفة بن خياط ـ التاريخ (طبعة العمري ـ بغداد) ج٢ ص٤٤٦ والذهبي ج٦ ص ٥

العباسية في وجههم ، على الصعود من الخليج العربي حتى أعاليه .
ونسمع لاول مرة أنه قد « دخل الميذ من البحر فأتوا دجلة البصرة »
أي شط العرب[1] .

ــ ويتكرر الهجوم القرصني نفسه في السنة التالية ١٤٩ ويضاف
إليه في رواية ابن خياط خبر هام آخر لعله يتعلق بأبي جعفر المنصور
نفسه وبرحلة بحرية تفقدية أجراها في الخليج العربي ولم تذكرها
المصادر التاريخية كما لم تلمح أي واحدة منها اليها ولا الى تنائجها .
يقول : « إن العدو ــ وهكذا يسمي ابن خياط الميذ ــ لقي أبا جعفر
بخارك (وهي جزيرة في وسط الخليج العربي ولعلها جزيرة البحرين
أو فيلكه) فأصيب هو وأهل مركبه[2] فان صح فهم النص على أنه
يتعلق بأبي جعفر فان للأمر معناه البعيد ..

ــ ولكن الميذ استمروا بعد ذلك في جرأتهم على البصرة
« فدخلوا سنة ١٥١ دجلة البصرة » ولكنهم في هذه المرة ــ على ما
يبدو ــ لم يفاجئوا أهلها كما جرى في المرات السابقة فقد لقوا المقاومة
العنيفة « تلقاهم (بها) أبو عبيدة السعدي .. »[3] .

ــ ثم وصلوا في السنة التالية سنة ١٥٣ الى أن دخلوا بعض

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٢
(٢) المصدر ذاته ص٤٥٣ والنص المنشور يضع الاسم : ابا جيفر
وليس لهذه القراءة من مبرر او سند ولعل الاصح قراءتها كما قرانا :
ابا جعفر .
(٣) المصدر نفسه ص ٤٥٤

الانهار الفرعية في شط العرب • متوغلين أكثر فأكثر فيه • يقول ابن خياط : « دخل الميذ نهر الامير (هل هو نهر قارون ؟) بدجلة البصرة فقتلوا وسبوا » ولعلهم اختاروا النهر الفرعي لئلا يصطدموا بقوى البصرة نفسها كما جرى في السنة السالفة • ويروي ابن خياط شهادة شاهد عيان يقول : « حدثني نضلة أنه شهدهم يوم نهر الايسر وقاتلهم وجماعة معه حتى صاروا الى بوارجهم واستنقذوا مافي أيديهم •• »[1]

وانقطاع أخبار هذه القرصنات الجريئة بعد سنة ١٥٣ قد يعني ، مع الخبر الآخر الذي يروي مجيء المنصور الى البصرة وتوجيه أسطول لغزو القراصنة الكرك ، الذين يهاجمون جدة في البحر الاحمر ، أن عناية خاصة قد بذلت لاقامة قوى بحرية ترافق الاساطيل التجارية وتقطع دابر القرصنة في الخليج • وإخراج القراصنة الميذ منه الى عرض المحيط الهندى • وقد يدل على ذلك أن المهدي ــ كما سوف نرى ــ سيرسل حملة بحرية الى السند لتأديب القراصنة فيها بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمعي •

رابعا : وأما مجموعة الدول الأخرى الصغيرة المطوقة للدولة الاسلامية في آسيا الوسطى ، وهي المعروفة لدى المؤرخين ببلاد ما وراء النهر (وقد يشار اليها قديماً في نوع من التعميم والتوسع باسم خراسان وتسمى حديثاً تركستان) فالواقع أنها أنواع ثلاثة من الدول التركية أو التركية ــ الايرانية • فبعضها فتح بالقوة ودخل في إطار الحكم الاسلامي وأبقى المسلمون ، بموجب المعاهدات، على عقائده وعلى حكامه

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٥

المحليين يتوارثون فيه الحكم مثل الصغد واشروسنة • (ومثلهاسجستان أيضا وطبرستان) • ومنها ممالك لم تفتح ولكنها تحت النفوذ العربـي الاسلامي بسبب الجوار والعلاقة التجارية مثل الشاش وفرغانة والختل، وباميان وطخارستان وكابول ومنها مجموعة ثالثة أبعد في المواقع وأكثر إيغالاً في السهوب التركية والجبال العالية ، كالتبيت ، والخرلخيـة (القرلوق) والتغزغز والقرخانيين والأويغور وهي تشكـل مع الدول السابقة لها مجموعة الدول الحاجزة في البر بين امبراطورية الصين ودولة الاسلام • ويجب أن نضيف إليها فيما بين بحر قزوين والبحر الأسـود دولة الخزر •

وعامة شعوب هذه الدول ليست على الاسلام فما كان منها في دائرة الحضارة الايرانيةفهوزارادشتي وأحيانا مانوي كالسغدوالأويغوز وما كان منها خارج تلك الدائرة ولا سيما في سهوب الترك فبعض على البوذية والاغلب وثني الديانات •

وقد كانت امبراطورية الصين تعتبر آسيا الوسطى جميعاً حتـى أطراف الدولة الساسانية منطقة تابعة لها تسيطر فيها إلى أبعد ما تستطيع من المسافات على الطرق التجارية العالمية الممتدة عبر آسيا الوسطىمابين الشرق الاقصى والغرب الاوروبيوهي الطرق التي نشطهـا كل النشاط جوستنيان (في القرن ٦) فكان نفوذ المسلمين الى ما وراء النهر ، منذ العهد الاموي (في القرن السابع) مثار قلق للصين التي كانت تتدخل في شؤون المنطقة في كل فرصة • وقد اغتنم الصينيون فرصـة النزاع الاموي ـ العباسي فمارسوا استعادة نفوذهم من جديد لا سيما وأن

الترك بصورة عامة كانوا لا يعتبرون أنفسهم طرفاً في ذلك النزاع الذي شغل السلطة الاسلامية عنهم • وما كاد الامر يستتب للعباسيين حتى حاول أبو مسلم الذي تسلم خراسان بعد نصر بن سيار أن يجدد بسط السلطان الاسلامي على المناطق التركية الشرقية فاصطدم هنالك بالنفوذ الصيني الذي يتقدم حتى استطاع الصينيون سنة ١٣٠/٧٤٨ الاستيلاء على مدينة (سوياب) وتخريبها ••

وقد برز هذا الاصطدام في حادثة بلاد الشاش • ذلك أن اخشيد فرغانه اختلف مع ملك الشاش « فاستنجد الإخشيد بملك الصين الذي أنجده ــ فيما تقول المصادر العربية ــ بمائة ألف مقاتل حاصروا ملك الشاش الذي نزل على حكم الصين فلم يتعرض له ولأصحابه بما يسوءهم •• » • لكن الصينيين ــ فيما يبدو ــ تآمروا على هذا الملك فقتلوه بعد ذلك فاستنجد ابنه بالقوى الاسلامية في خراسان (أواخر سنة ١٣٣/ربيع سنة ٧٥١) وحرضها ضد التدخل الصيني • وتكشف استجابة المسلمين السريعة لهذه النجدة مدى شعورهم بالخطر الصيني السياسي والاقتصادي فقد توجه زياد بن صالح الخزاعي فوراً فاشتبك مع الجيش الصيني في معركة على نهر طراز (ذي الحجة سنة ١٣٣/تموز سنة ٧٥١) كانت من المعارك الفاصلة في التاريخ لان القائد الصيني (كاو ــ هسين ــ تشي) قتل وقتل معه ــ حسب قول المقدسي وابن الاثير ما بين ٤٥ الى خمسين ألفا كما أسر عشرون الى ٢٥ ألفا • وهرب الباقون الى الصين • والمصادر الصينية تجعل عدة الجيش كله لا تجاوز ثلاثين ألفا [1] • وما كان لهذه المعركة أن تذكر لولا أنها قررت مصير ما وراء النهر حضارياً خاصة وسياسياً فقد نجم عنها :

---

(١) انظر المقدسي ــ البدء والتاريخ وابن الاثير ج٥ ص ٤٤٩

أ ــ انسحاب النفوذ الصيني السياسي ، وانسحاب الحضارة الصينية نهائياً من المنطقة الى ماوراء مسرزنجاريا وتركها لسيطرة الاسلام السياسي أولاً وللحضارة الاسلامية ديناً وفكراً وفناً وتقاليد بعد ذلك إلى اليوم وقد حدث أن بعث أمير اشروسنة إلى الصين يستعديها على العرب سنة ١٣٤ / ٧٣٥ فرفضت تلبية النداء .

ب ــ ابعاد الصين عن المعركة الدائرة بين العرب والاتراك (الشرقيين والغربيين على السواء) وانقطاع التعاون السياسي ــ العسكري الاقتصادي القديم بينهم وبين الامبراطورية الصينية وانتقال هذا التعاون بأنواعه من شرقي تركستان الى غربها أي أن الاتراك غيروا بعد تلك المعركة قطب الاتجاه والتأثر وبات عليهم أن يلقوا النفوذ الاسلامي وحدهم وبالاعتماد على جهودهم ومواردهم وحدها مما نجم عنه تمزقهم واصطناع العرب لبعضهم ومحاربتهم لبعضهم الآخر مدة طويلة قبل أن يصبوا أخيراً في الحضارة الاسلامية .

جـ ــ تسليم الصين للمسلمين بالسيطرة نهائياً على طرق التجارة العالمية المارة في آسيا الوسطى ، وهي الطرق التي كانت دوماً وراء تدخل الصين في أمور الاتراك وسوف تصبح هذه الطرق بعد الآن بمختلف شعبها ودروبها بأيدي المسلمين .

ولم يكن هذا الكسب العربي الاسلامي بانسحاب الصين هو الكسب الوحيد ولكن كسباً آخر لا يقل عنه أهمية حضارية قد تحقق

(١) انظر Barthold Histoire des Turcs d'Asie Central.
ولا شك أن في الرواية العربية بعض المبالغة الواضحة .

في تلك المعركة • فقد كان بين الاسرى الصينيين فيها من كان يعرف سر صناعة الورق • وكانت من قبل احتكاراً صينياً خاصاً • وكما فضح البيزنطيون أيام جوستنيان سر صناعة الحرير من قبل كشف العرب الآن صناعة الورق وأقاموا في سمرقند عدة مصانع ثم ما لبثت هذه الصناعة أن انتقلت إلى بغداد في أواخر القرن الثاني (زمن الرشيد) ومنها عرفت في الشام ومصر والاندلس • وقدم العرب بذلك للفكر أحسن اداة تعمل على حفظه ونشره الواسع الرخيص •

على أن هزيمة الجيش الصيني لم تكن هي السبب الوحيد في الانسحاب الصيني الشامل من المنطقة فقد ترافقت تلك الهزيمة مع احداث أخرى جعلت ذلك الانسحاب نهائيا ودائما : هي تلك الثورة الداخلية في الصين سنة ٧٥٤ التي أدت الى استنجاد الامبراطور الصيني بالمنصور أو بالجالية العربية الاسلامية عنده حتى أعانته على النصر ضد الثائرين•

وربما كان لهذا التعاون ــ المباشر أو غير المباشر ــ أثره دون شك في إقامة صفحة جديدة من العلاقات الطيبة بين الاسرتين يدعمها ازدياد في التبادل التجاري وتأمين للمصالح الاقتصادية المتبادلة • وقد ساعد على بقاء هذا التعاون والمسالمة من بعد ضعف كل من أسرتي تانغ وبني العباس في القرن الثالث (التاسع الميلادي) •

ويبدو أن وفوداً وسفراء قدجرى تبادلهم في الزيارة بين بلاطي

---

(١) انظر كتاب توماس ارنولد ــ الدعوة الى الاسلام (الترجمة العربية ــ الطبعة الثانية ١٩٥٧) ص٣٣٣ وانظر كذلك بدر الدين حي الصيني ــ العلاقات بين العرب والصين (القاهرة ١٩٥٠) ص ٣٦ ، ٤٦

العباسيين والصين لان المصادر الصينية تتحدث عن وفود أرسلها (هان ـ مي ـ مو ـ ميني) أي أمير المؤمنين (أبو لوبا) أي أبو العباس وأبو شافو أي أبو جعفر ...

ومن جهة اخرى لم يكن انسحاب الصين هو التطور الوحيد الذي جرى على الجبهة التركية في مطالع العهد العباسي فالواقع أن تطورات هامة كانت تجري في المنطقة التركية كلها في الوقت الذي كان العباسيون يزيحون فيه الامويين ويغيرون مركز الخلافة من الشام الى العراق. مطلع التطورات التركية إنما كان حين استطاع نصر بن سيار في ولايته بسمرقند ثم في خراسان أن يقضي على دولة الشركس (الترك الغربيين) سنة ١٢١/٧٣٩ فقد سمح انهيارهم لشعوب القارلوق (الخرلخ) التي كانت تعيش في شرقهم وتكون دولة تجارية هناك أن تنساح على أراضيهم وأن تفرض نفوذها عليهم سنة ١٤٨/٧٦٦ في عهد المنصور . بينما كانت منطقة منغوليا ، الخلفية البعيدة ، تنتقل بدورها حوالي سنة ١٢٧/٧٤٥ ولمدة قرن بعد ذلك من حكم الاغز (الترك) الى حكم شعب تركي آخر هو الاويغور ...

على أن سياسة العباسيين مع الترك لم تختلف كثيراً عن سياسة الامويين من قبل . ولا عن سياستهم كذلك في السند كانت سياسة هؤلاء قائمة على ثلاثة أسس :

أ ـ استخدام القوة لتوطيد النفوذ السياسي والتوسع الاقليمي. وهو ما يمكن أن نسميه بسياسة العصا الغليظة . وقد بذلوا في ذلك الكثير .

ب ـ توطين الجند العرب مع أهلهم وذراريهم وقبائلهم في المواقع المتقدمة أولاً فأول • ثم القفز من المنطقة المضمونة الى المنطقة التي تليها •

جـ ـ نشر الاسلام كوسيلة سياسية لفرض سلطان « الخلافة » في آسيا الوسطى الجديد الوحيد في السياسة العباسية في هذه الاصقاع تأكيد العباسيين أكثر من الامويين على محور نشر الاسلام • لقد تنبه له الامويون واستخدمه بعض ولاتهم استخداماً واضحاً[1] •

ولكن العباسيين جعلوا هذه الناحية الثالثة ، ولا سيما بعد غياب الخلفاء الاوائل ، الوسيلة الاولى بامتياز وتوسعوا في استخدام الدين كطريق للسيطرة السياسية بينما تناقص بوضوح أثر الوسيلة الثانية : وسيلة التوطين بسبب تناقص الاعتماد على العنصر العربي تناقصا مطرداً •

ولم تكن قد مضت سنة واحدة على قيام الخلافة العباسية حتى بدأت ملامح هذه السياسة المزدوجة الوسيلة ، تظهر واضحة في التطبيق العملي الذي كان يهتم بثلاثة أمور :

أ ـ أن يترافق التوسع الديني مع التوسع الاقليمي ويوطد نشر الدين في كل بقعة الحكم الاسلامي فيها •

ب ـ أن تتحول الدول المحلية « المعاهدة » الى مقاطعات اسلامية تحت الحكم المركزي المباشر للخليفة •

جـ ـ أن تتحول دول الجوار الى دولة معاهدة ليكون بالامكان تحويلها بدورها الى مقاطعات اسلامية وفرض النفوذ على ما وراءها •

---

(١) انظر لدى النرشخي ـ تاريخ بخارى (ص ٧٤) كيف كان قتيبة ابن مسلم يقيم منادياً كل جمعة بأن من حضر الصلاة اعطاه درهمين .

وهكذا نجد أنه في سنة ٧٥١/١٣٣ قام قائد من قواد أبي مسلم الخراساني بعمليات عسكرية على الجبهة التركية يمكن أن نعتبرها تأديبية أو انتقامية • ولعل السبب فيها هو تردد ملوك هذه البقاع في دعم الثورة العباسية ومحاولتهم استغلال الفوضى السياسية ضمن الدولة الاسلامية للتحكم في الطرق التجارية • فقد توجه أبو داوود خالد بن ابراهيم من منطقة الوخَش الى الختل (وهي المشرفة على ممر زنجاريا التجاري العسكري شمال هضبة بامير) فدخلها ولم يمتنع عليه حنش بن السبل[1] ملكها ، وأتاه ناس من دهاقين الختل فتحصنوا معه (مما يدل على أن في الامر خلافا داخليا بين شعب الختل) فلما ألح أبو داوود على حنش خرج من الحصن ليلا ومعه دهاقينه وشاكريته حتى انتهوا الى أرض فرغانة ثم خرج منها في أرض الترك حتى وقع الى ملك الصين • وأخذ ابو داوود من ظفر به منهم ••• الى بلخ والى أبي مسلم»[2] وامتد النفوذ الاسلامي الى مشارف هضبة بامير •

وفي السنة التالية سنة ١٣٤ عاد أبو داوود نفسه « فغزا أهل كش فقتل الإخريد (الاخشيد) ملكها وهو سامع مطيع قدم عليه قبل ذلك بلخ ••• وأخذ أبو داوود من الاخريد وأصحابه حين قتلهم من الاواني الصينية المنقوشة المذهبة التي لم ير مثلها ومن السروج الصينية ومتاع الصين كله من الديباج وغيره ومن طرف الصين شيئاً كثيراً • فحمله ابو داوود أجمع الى أبي مسلم بسمرقند • وقتل أبو داوود دهقان كش

---

(١) يسميه ابن الاثير (حسب النص المطبوع ج ٥ ص ٤٤٩) حبيش ابن الشمبل •

(٢) انظر الطبري ج ٧ ص ٤٦٠ (٣/٧٤) •

في عدة من دهاقينها . واستحيا طاران أخا الاخريد . وملكه على كش ... » ثم يضيف الطبري الى ذلك قوله : « وانصرف أبو مسلم الى مرو بعد أن قتل في أهل الصغد وأهل بخارى وأمر ببناء حائط سمرقند . واستخلف زياد بن صالح (الخزاعي) على الصغد ..»[1] .

وقد ضعفت المقاومة التركية كثيرا بعد تخلي الصين عنها في مطالع عهد أبي جعفر المنصور ولهذا لا يسجل عهده مثلا سوى مشكلة فرغانة ويبدو أن ملكها فنران بن افراكفون ، اعتدى على القوافل التجارية أو رفض دفع الاموال للمنصور أو قاوم التوسع الاسلامي فتوجه اليه الليث ابن طريف مولى المهدي (وكان وليا للعهد) وحاصره في عاصمته كشغر فحاربه محاربة شديدة حتى ألجأه الى طلب الصلح فصالحه على مال كثير . وأوفد ملك فرغانة رجلا من أصحابه يقال له باتيجور الى بغداد، وربما كان إيفاده لتسوية الامور أو نوعاً من الرهينة . يقول اليعقوبي: « ... فعرض عليه الاسلام فأبى فلم يزل محبوساً الى أيام المهدي وقال: لا أخون الملك الذي وجهني .. » [2] ويسجل الطبري كذلك غزو حميد ابن قحطبة الطائي لملك كابول سنة ١٥٢[3] ولعلها حركة من نوع الحركة السابقة .

على ان الحركات التركية اذا كانت قد خدمت كحركات سياسية عسكرية على الحدود فان تلك الشعوب لم تلغ عداءها للحكم العباسي الاسلامي ولكن دفعته الى الحلف والى الهدوء فقط في انتظار مناسبة

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٧

(٢) الطبري ج ٨ ص ٤١ (٣/٣٦٩) .

ينكشف فيها من جديد • والواقع أننا نجد المناطق التركية في ما وراء النهر ردءا وعونا لمختلف الثورات التي ماجت بها خراسان في عهد المنصور ضد الحكم العباسي والاسلامي • أي أن القوة الاسلامية حولت المقاومة التركية من الشكل السافر الى الشكل المستتر ومن شكل الكتل المقاومة الى المقاومة الشعوبية • وهي أول الخطوات نحو ذوبان المقاومة •

٢ ـ جبهة الشمال والشمال الغربي (الخزر والروم)

وهي كذلك قطاعان : قطاع عليه الخزر وقطاع عليه الروم •

أولا ـ العلاقات مع الخزر :

فيما وراء جبال القفقاس (القبق) بين بحر قزوين والبحر الاسود وعلى الأحواض السفلى لأنهار الفولغا ، والدون والدينيبر كانت تقوم دولة الخزر • وهي شعوب تركية الأصل برز اسمها بوضوح قبل الفتح الاسلامي بسنوات معدودة إذ كانت الحليف الأقوى للروم في انتصارهم على الساسانيين الفرس ٦٢٧ م • وقد كانت عاصمة الخزر في السهوب وراء القفقاس ثم انتقلت منذ مطلع القرن الثامن الميلادي الى مدينة إيتل على مصب نهر الفولغا (قرب استراخان الحالية) • وكانت تقوم بين الخزر وبين الاراضي التي افتتحها العرب من أرمينية واذربيجان عدد من الشعوب الصغيرة على أطراف جبال القفقاس الجنوبية تخضع تارة للمسلمين وأخرى للخزر حسب الظروف ومعظمها على المسيحية مثل اللان والسرير وجرزان والصنارية وكشك والكرج والكاسكية [١]

---

(١) يطلق الجغرافيون العرب على معظم هذه الشعوب اسم : اللكز .

والابخاز كما كان هناك بعض المجموعات من الروس والصقالبة وحين تقدم الفتح العربي الى تلك المناطق استخلص من الخزر تلك الاراضي الموجودة في جنوب القفقاس ، والتي كان الخزر قد أخذوها في السابق من الفرس[1] •

وكان المورد الرئيسي الذي تقوم عليه هـذه الدولـة إنما هو التجارة والأعشار عليها فقد ظلت تسيطر على الطرق النشيطة منذ عهد جوستنيان ما بين الشرق الأقصى والبحر الأسود وبيزنطة من جهة ومابين أرض الخلافة العربية والشمال السلافي والاوروبي من جهة أخرى • ويحمل ملك الخزر لقب خاقان أما قائد الجيش فانه لقب بك أي أمير والسلطة قسمة بين الاثنين فشؤون الدين والدولة للأول لكن السلطـة الفعلية للثاني • وكان ثمة تسعة من الحكام المسلمين والنصارى واليهود والوثنيين يقضون بين أهل الحاجات •

وقد كان جوار الخزر وتعاملهم مع كل من بيزنطة والعرب وتقاطع الطرق التجارية المختلفة عبر بلادهم من أسباب انتشار الدياتتينالمسيحية ثم الاسلامية وبين هذا وذاك اليهودية أيضا فيما بينهم • وجاء وقت في القرن الثالث الهجري وجد فيه في ايتيل العاصمة عشرة آلاف مسلم لهم ٣١ مسجداً • وكانت الشعوب الصغيرة بينهـم وبين العرب على المسيحية مثل اللان والسرير أو على اليهودية مثل سمندر • أو علـى الإسلام مثل دربند (الداغستان) أو على المانوية الزارادشتية أحيانا • على أن خاقانالخزر خوفا من التأثر بأحد النفوذين البيزنطي أو الاسلامي

---

(١) انتهت مملكة الخزر على يد الروس سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م وفي ذلك الوقت انتشـر فيهم الاسـلام بنتيجة حروب مأمون بن محمد أمير خوارزم لهم أيضاً .

ـ على ما يظهر ـ اعتنق الديانة اليهودية مع مجموعة من رجال الطبقة الحاكمة الغنية[1] وأول الخانات المتهودين هو بولان الذي تهود سنة ٧٤٠ أي قبل الخلافة العباسية بعشر سنوات ويبدو أن هذا الخاقان هو الذي حاصر المنصور وحاربه • ثم انتشرت اليهودية بين الخزر بالتدريج حتى القرن العاشر والمسعودي يجعل بدء التهود في زمن الرشيد •

وقد قام حلف تجاري ـ سياسي قبيل قيام العباسيين بين الخزر والروم ودعمه الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس (٧٤١ـ٧٧٥) بزواجه من أميرة خزرية ثم بتحول العرش من بعده الى ابنه ليو الرابع (٧٧٥ ـ ٧٨٠) الذي لقب بالخزري نسبة لأمه • وهذا ما يفسر فيما يظهر تلك الحملات العنيفة التي قام بها مروان بن محمد الأموي أيام ولايته هناك على جبهة ارمينية والقفقاس والتي أسر فيها المسلمون حوالي عشرين ألف أهل بيت ووصلت جيوش الأمويين حتى نهر الدون • وهرب ملك الخزر ثم بعث يطلب الصلح والدخول في الاسلام فأقره مروان على

---

(١) يذكر اليهود أسباباً أخرى لتهود الخزر ذكرتها الموسوعة اليهودية العالمية منها قصة الفيلسوف موسى بن ميمون الذي يزعم أن الخاقان جمع (بناء على تعليمات ابن ميمون لليهود) بين شيخ المسلمين وقسيس النصارى وحبر اليهود عنده وقال انه سوف يؤمن بمن يجتمع الثلاثة على الايمان به من الرسل . فلما وجد انهم مجمعون على الايمان بموسى قال : نؤمن إذن بموسى ! ومنها أيضا أن الخزر أسلموا فلما وجدوا أن الاسلام يحرمهم الخمر وهم لا يستطيعون تركها بسبب بلادهم أتى اليهود : ديانتنا هي مثل الاسلام ولكنا نبيح الخمر فتهود الخزر لذلك . ولعل السبب السياسي هو الأصح وهو الذي عليه المؤرخ الروسي المعاصر فرنادمسكي . ومما يذكر أن يهود روسيا كافة ويهود نيويورك ونصف يهود اسرائيل هم نسل هؤلاء اليهود الخزر .

ملكه • كما قرر أنواع الهدنات والجزي والاموال السنوية على مختلف البلدان هناك [1] •

ولكن انهيار الأمويين بعد ذلك فتح المجال لحركات الخزر الانتقامية ولاسترداد الكثير مما خسروا • وقد تولى ابو جعفر (المنصور) ولاية الجزيرة واذربيجان وأرمينية لأخيه أبي العباس فلما صارت الخلافة إليه أقر أعوانه الذين كان أرسلهم من قبله إلى اذربيجان وأرمينية ولاة عليها وهما : يزيد بن حاتم المهلبي ويزيد بن أسيد السلمى • ويبدو أن المنصور لم يصرف انتباها كثيرا لهذا الثغر الواسع أول الأمر واكتفى بعملية توطين القبائل العربية التي قام بها المهلبي إذ «نقل اليمانية من البصرة إليها وكان أول من نقلهم» إلى تلك الاصقاع واعطاهم الحصون • «وانزل الرواد بن المثنى تبريز الى البذ وأنزل المر بن علي الطائي زيز وانزل ••• الهمداني الميانج وفرق قبائل اليمن فلم يكن باذربيجان من نزار أحد إلا الصقر بن الليث العتبي وابن عمه البعيث بن حلبس •••»[2] •

على أن الخزر مالبثوا أن تحركوا ضد الجبهة الاسلامية•وتصاعدت هجماتهم وربما كان ذلك نتيجة احتكار المسلمين التجارة الصينية اثر الوفاق الذي قام بين المنصور وامبراطور الصين وتحول قوافل التجارة الى المرور بأراضي خراسان بدل المسير من شمال بحر الخزر • وكتب يزيد السلمي الى المنصور يكشف الأخطار المتكاثرة على الجبهة فاقترح المنصور عليه اقتراحاً تعلمه دون شك من تاريخ المنطقة فإن كسرى أنو

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦
(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٧١

شروان كان قد كف عن حدوده هجمات الخزر بعملية زواج سياسي تزوج بها ابنة ملك الخزر وزوجه من فتاة زعم أنها ابنته [1] ... ثم بنى بينه وبين أرض الخزر سورا بعيد المدى عرضه ٣٠٠ ذراع وعليه أبواب الحديد يحرسها مائة فارس ! وهكذا كتب المنصور الى يزيد يقول : «إن بلاد ارمينية لا تستقيم ولا تصلح إلا بمصاهرة الخزر والرأي عندي أن تصاهر القوم حتى تستقيم البلاد وإلا فاني خايف عليك وعلى جميع عمالك من الخزر فإنهم إذا أرادوا واجتمعوا غلبوا . فانظر ولا تخالف أمري واجتهد في مصاهرة الخزر والسلام ...»[2] .

ونفذ يزيد الاقتراح وتزوج من ابنة خاقان على صداق مائة ألف درهم . ولكنها ماتت بعد ثلاث سنوات ومات معها ابنها وهي في النفاس . ويربط ليفوند المؤرخ الأرمني مابين وفاة هذه الأميرة وبين غزوة الخزر التي ثارت بشكل عنيف قوي سنة ١٤٥/٧٦٢ على بلاد الكرج وارمينية [3] ... وقد يكون ذلك صحيحاً لكن الدوافع الأقوى كانت دون شك الدوافع الاقتصادية لأن عنف الهجمة وسعتها لا تتناسبان مع موت أميرة في ولادتها أو حتى قتلها !

---

(١) البلاذري فتوح البلدان ص ٢٣٢

(٢) يتوسع ابن اعثم الكوفي في كتابه الفتوح فميا يجمله البلاذري من اخبار هذه العلاقة مع الخزر . انظر ابن اعثم مخطوط الفتوح (مكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٥٦) الورقة ٢٤١ حتى ٢٤٣ وجه من المجلد الثاني وهو الوحيد الباقي هناك . وهو يبدأ بذكر خروج المختار الثقفي وينتهي بآخر خلافة المعتصم .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ــ مادة الخزر (ج ٨ ص ٣٠٦ من الترجمة العربية) .

وأقبل رأس طرخان[1] في خلق عظيم قدر عدده بأكثر من مائة ألف مقاتل . فانهزم أمامه عمال يزيد السلمى تاركين للسبي والفتن من المسلمين وأهل الذمة خلقاً كثيرا ولم يكن لدى يزيد نفسه اكثر من سبعة آلاف فارس . فاستنجد بالمنصور فأرسل إليه لحماية ما سماه «بالثغر الأعظم» عشرة آلاف مقاتل من أهل الشام ثم وجه جبريل بن يحيى البجلي ـ على ما يبدو ـ في عشرين ألفا من أهل الشام والجزيرة والموصل فواقعهم الخزر فقتل خلق من المسلمين وانهزم جبريل ويزيد معه حتى أتيا بلدة خرس في أرمينية بعد ان دخل الخزر تفليس ثم توالت النجدات فوصل ١٠ آلاف مع محند بن الحسن وعشرة آخرون مع حميد الطائي وعشرون ألفا من أهل الجزيرة والشام مع يزيد بن مزيد الشيباني وخمسة آلاف مع حرب بن عبد الله الراوندي من الموصل . وبهذا الشكل استطاعت الجبهة أن تتوازن رغم أن المعركة الهامة في أرض شروان لم تكن رابحة وقد انهزم المسلمون بعدها الى بلدة بردعة بعد أن قتل فيها الراوندي . ويبدو أن المعارك استمرت حتى سنة ١٤٧/٧٦٤[2] وتوقفت حدةالهجوم الخزري دون معركة فاصلة .

وانتهز المنصور المناسبة لينظم هذا «الثغر الأعظم» ويحميه . وجد

---

(١) كذلك يسمى لدى اليعقوبي (ج ٢ ص ٣٧١) واسمه في المخطوط الأصلي حليس والطبري يسميه استرخان الخوارزمي (ج ٨ ص ٧ ؛ ٣٢٨/٣) . وله تسمية أخرى رج طرخان (انظر دائرة المعارف الاسلامية) .

(٢) يذكر ابن اعثم أن المعارك كانت سنة ١٤٥ ويذكر المؤرخون انها كانت سنة ١٤٧ وليس ثمة من تعارض بين التاريخين لإمكان استمرار الحرب أكثر من سنة واحدة . اما حرب الراوندي الذي قتل فهو الذي تنسب اليه محلة الحربية في بغداد (الطبري ج ٨ ص ٧) .

أن سياسة التوطين العربي وحدها لاتكفي فأضاف إليها ما اعتاد تنظيمه في الثغور الأخرى تجاه الروم أو السند أو الترك :

١) بناء المدن الحصون : «أخرج سبعة آلاف من أهل السجون وبعث فجمع من كل بلد خلقا عظيماً ووجه بهم وبفعلة وبنائين فبنى مدينة كمخ ومدينة المحمدية ومدينة باب واق وعدة مدن أخرى مثل أرجيل الكبرى وأرجيل الصغرى اللتين بناهما يزيد بن أسيد السلمى • وأنزلهما أهل فلسطين ، جعلها ردءاً للمسلمين وقلاع دفاع بدلا من الساساني •

ب) أقام نظام الأجناد في تلك الحصون ورتب فيها المقاتلةالمستقرين من أهل النجدة من العراق والجزيرة والشام وأجرى عليهم الأرزاقالتي كان بنو أميه يجرونها من قبل • وأقام بالقلاع والحصون سكاناً تقوى بهم المدن وتنمو •

حـ) وتابع الى هذا وذاك إرسال مجموعات قبلية جديدة أسكنها في أرمينية واصطنع من الأرمن جماعات تعين العرب المسلمين وتكون عيوناً لهم وأعواناً في المنطقة •

وأضاف أبو جعفر المنصور إلى هذه التدابير توجيه العنايةالخاصة لولاية أرمينية المتاخمة للحدود •

وقد كانت هذه الولاية مأهولة بالأرمن النصارى الذين كانوا دوماً على علاقة عادية مع الروم ولهم امراؤهم الحاكمون في المنطقة ويحملون لقب بطريق ورؤساؤهم الروحيون الذين يحملون لقب كاثوليكوس • وكان ثمة أسرتان من الأمراء تتنازعان الزعامة : بغراتوني، وماميكونيان ، وقد اصطنع مروان بن محمد ، حين كان والياً على الجزيرة وأرمينية ، الأمير آشوط من الاسرة الاولى فنصبه والياً محلياً :

بطريقاً مما آثار حسد الأمراء من الأسرة الثانيــة وأبرزهــم موشابئيل وسمباط • وكان مروان يجري على الجيش الأرمني كل سنة مائة ألف دينــار[1] •

وحين انهار الحكم الأموي اتفق أمراء المامیكونيان على الثورة فلما عارضهم الأمير آشوط[2] قبضوا عليه وسملوا عينيه سنة ٧٥٠/ ١٣٢ هـ إنتقاما لما لقوه من النفي في عهد مروان ••• ولأن أحد إخوتهم قتل على يديه •••

وطال اضطراب أرمينية بين الخوارج وبقايا الامويين وتسلط الأمراء المحليين مدة السنوات الأولى من الحكم العباسي حتى أرسل المنصور إليهم يزيد بن أسيد السلمى فصاهر الخزر ودوخ الأرمــن حتى أدوا الخراج وجبي الرسوم على النفط والملح في أرض شروان (باكو) وبني مدينتي أرحبيل ثم استدعى سنة ٧٧٠ فجاء من بعده بكار بن مسلم العقيلي مدة سنة واحدة ثم اختار المنصور الحسن بن قحطبة الطائي سنة ٧٧١ وهو

---

(١) انظر التاريخ العام للمؤرخ الارمنــي فارطان (مــن القرن ٣١ الميلادي) الترجمة الفرنسية بعنوان الحكم العربي في أرمينية (ترجمــة مويلدرمائز ـ باريس ١٩٢٧) ص ١٠٦ •

La Domination Arabe en Armenie, (extrait de l'His. Uni. de Vardan) par J. Muyldermans Paris, 1927 .

(٢) اشوط هذا هو جد ملوك ارمينية وجورجيا فيما بعد . واللقب الذي اخذه من مروان هو لقب Patrice بطريق وقد توفي سنة ٧٦١ (في عهد المنصور) وابنه سمباط هو جد ملوك ارمينية بينما ابنه فاساك هو جد ملوك جورجيا .

(٣) انظر غيفوند ـ Ghévond ـ تاريخ الحروب والفتوح العربية في ارمينية (بالفرنسية باريس سنة ١٨٥٦) ص ٤٨

من ابرز قواده فأرسله مع ٥٠ ألفا من أهل خراسان والشام والعراق[1]. ويبدو أن الخزر كانوا قد ارتحلوا حين وجدوا تكاثر القوى الاسلامية فلم يجد الحسن منهم من يقاتله لكنه ماكاد يوزع حكم البلاد بين أولاده الثلاثة : قحطبة وابراهيم ومحمد حتى فوجىء بالثورة الأرمينية عليه ولا شك أن هذه الثورة كانت أحد ذيول الهجوم الخزري ونتيجةالفتكة القاسية التي حطت سمعة الحكم العربي في المنطقة وقد تكون الخزر وراءها في التحريض والتسليح لكننا لا نملك الأدلة على ذلك . وكل ما يمكن تأكيده هو أن عدم انتصار العرب في معركة حاسمة وثقل الخراج وقسوة العمال الذين تذكرهم التواريخ الأرمينية بالكره . كل ذلكحرض فيما يظهر الجماعة الأرمينية على الثورة . وتزعم الحركة أمراء أسرة ماميكونيان في منطقة محمد بن الحسن وانضم اليهم أيضا امراء اسرة بغرتوني والمصادر العربية تسمى الثائرين باسم الأرمن الصنارية وقد قادهم موشائيل ماميكونيان الذي أعلن الامتناع عن دفع الخراج سنة ٧٧١ وقتل مائتين من العمال ثم قتل في معركة أخرى أربعة آلاف ... وانتشرت الثورة بشكل أرعب الحسن بن قحطبة وأشعره أنه «ليس لديهم قوة .. فكتب الى أبي جعفر بخبرهم وكثرتهم» طالباً النجدات وقد زاد في قوة الأرمن أن راهباً «خدع ــ كما يقول مؤرخ أرمني قديم ــ موشائيل فكان يقص عليه النبوات والخرافات الكاذبة ويقول : إن أيام اسماعيل أي العرب (المسلمين) قد انتهت ...» وأرسل المنصور على الفور عامر بن اسماعيل الحارثي الجرجاني وعيسى بن موسى والفضل

[1] انظر البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٧٢ . وكان الارمن يسمون الوالي العربي (اوستيكان) .

ابن دينار ومقاتل بن صالح في حوالي ثلاثين ألفاً من المقاتلة[1] وبالرغم من أن مؤرخي الأرمن يجعلون الجيش الأرمني خمسة آلاف فقط فالذي يبدو من ضخامة الامدادات الاسلامية ، ومن أرقام القتلى الأرمن الذين بلغوا فيما يذكر اليعقوبي ، ستة عشر ألف إنسان في يوم واحد . يوم الهزيمة ، أن عدد الثائرين الأرمن كان لا يقل عن عدد الجيش الاسلامي. وقد التقى الطرفان في معركة قرب جبل آرارات سنة٧٧٢ قادها عامر بن اسماعيل وعرفت في التاريخ الأرمني باسم معركة بغريفاند Bagrevand [2] سحقت فيها الارستقراطية الأرمنية وقتل ــ حسب الرواية الأرمنية ــ ثلاثة آلاف قتيل كان من بينهم موشائيل وسمباط ابن آشوط زعيما الاسرتين الكبريين .

وقد أخذت الثورة والهزيمة الشكل الديني لا بسبب الأفكار التنبؤية التي كانت تقودها ولما اشترك فيها من الرهبان ورجال الدين ولكن لأن النجدات التي وصلت من العراق وجدت الأسلحة مخزونة في الكنائس . وقد نجم عن ذلك نهب لمحتويات هذه الكنائس من جهة وإمعان في قمع الثوار بمختلف الانحاء من جهة أخرى يقول اليعقوبي : «... ثم انصرف (عامر) الى تفليس فقتل من كان معه من الأسرى ووجه في طلب الصنارية حيث كانوا ... » .

---

(١) هذا هو الرقم الذي يذكره قارطان في تاريخه السابق الذكر ص ١٠٨ كما يذكره في الوقت نفسه ابن اعثم الكوفي في كتابه الفتوح ج٢ ورقة ٢٤٣ وجه .

(٢) التواريخ الارمنية تعطى هذا التاريخ للمعركة التي تلت تعيين الحسن بن قحبطة سنة ٧٧١ (سنة ١٥٤) لأرمينية . وفي كتاب الفتوح لابن اعثم أنها كانت سنة ١٤٨ هـ أي سنة ٧٦٥ـ٦

«ثم استقامت الأمور» على قول البلاذري وولى المنصور واضحاً مولاه على أرمينية فلم يزل عليها وعلى اذربيجان خـلافة أبي جعفر كلهـا ! ...» ...

ثانياً ـ قطاع الجبهة البيزنطية (الروم)

النزاع على هذه الجبهة قديم يرجع الى عهد الحروب الفارسية ـ اليونانية . وقد كتب الأمويون فصلا منه وورثه العباسيون الآن ليكتبوا فصولا أخرى . ولم تكن الحـدود المشتركـة بين البيزنطيين والدولة الاسلامية ، ولا فريضة الجهاد ضد الكفار ، أو طمع بيزنطة باسترجاع الشام . هي التي تؤرث وحدها هذا النزاع وتثيره ولكن وراء كل ذلك ، منذ العهود القديمة ، عاملا اقتصادياً ناتجاً عن طمع كل من يسيطر على قسم من هذه المنطقة . بالاشراف على الطرق التجارية كلها بين الشرق والغرب . فقد كان ثمة طريقان بين الهند والصين وآسيا الوسطى من جهة وبين اوروبا الشرقية من جهة أخرى : احدهمـا بري يمر بإيران والقفقاس . والآخر بحري في الجنوب يمر بالبصرة (وبغداد) والموصل وينفذ ، اما من الشاطيء السوري بحراً . أو عبر الاناضول براً ، الى القسطنطينية التي ظلت مركزاً للاسواق التجارية في اوروبا الشرقية ، طوال العصور الوسطى تقريباً . فلمـا حل المسلمون محل الامبراطورية الساسانية في السيطرة على القسم الاكبر من هذين الطريقين بالاضافة الى احتلالهم الشام ، واضحت التجارة العابرة تمـر بأراضيهم وتدفع للخليفة المكوث والضرائب ، ورثوا عن آل ساسان ذلـك النزاع بينهم وبين البيزنطيين ، وقد قام به الامويون مدة قرن . وكان على العباسيين حمل عبئه الآن .

على انا نلاحظ ان هدف هـذا النـزاع ، في أعين المسلمين على الاقل ، قد تغير في العهد العباسي ، عنه في العهد الاموي • فقد اضحت فكرة فتح القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطيـة الآن من قبل المسلمين ، أو استرداد الشام من قبل البيزنطيين ، مجرد حلم او رغبـة بعيدة ، لا هدفاً تحشد له القوى وتنطلق الجيوش • واذا لم يظهر هذا التغير واضحاً في عهد تأسيس الدولة العباسية والمنصور ، فانه سيتضح تدريجياً خلال العهود التالية من بني العباس : فقـد غدت الحرب مع البيزنطيين تقليداً سياسياً يرثه الخلفاء بعضهـم عن بعض ويزيلون عن كاهلهم فيه فريضة «الجهاد» المحتومة على خليفة المسلمين ضدالكفار، عدا انها تمرين للجنود على الاعمال العسكرية ، ومجـال لإشغالهم ، ولتأمين الغنائم اللازمة •

وربما كان السبب في هذا التغير فشل محاولات الامويين الثلاث في فتح القسطنطينية ، وبعد العاصمة الجديـدة عن الخطر البيزنطي ، واهتمام العباسيين بالبر القاري ، والمناطق الشرقية ، واهمالهـم البحر المتوسط والغرب ، بينمـا لايفتح القسطنطينية الا من يمتلك القوتين البرية والبحرية معاً •

وهكذا اخذت حروب العباسيين مع الروم ، شكل غزوات منظمة فصلية : منها الصوائف ومنها الشواتي ، كما تنظمت مناطـق الحرب فامتـدت بين ملطيـة عند منـابع الفرات وطرسوس ، بشمال خليج الاسكندرونة في سلسلة من الحصون سميت بالثغور ،وانقسمت قسمين: ثغور الجزيرة في الشمال الشرقي للشام ، وثغـور الشـام في الشمال الغربي ، وعرفت منطقة الحدود كلها باسم «العواصم» لان المسلمين كانوا يعتصمون بها • وكان ملك الثغور والعواصم الامامية يتنقل فترة بعد

اخرى : بين يدي الروم والمسلمين : فيتموج ، تبعاً لذلك ، خط الحدود بينهما تموجاً مطرداً .

وواضح ان مثل هذا التنظيم الثابت ليس الغرض منـه الهجوم والنفوذ الي ما وراءه . واذا لم نكن نستطيع وصف اعمال العباسيين الاوائل على الجبهة البيزنطية بأنها أعمال دفاعية ـ كمـا يصفها بعض الكتاب ـ بسبب قوة العباسيين ، واذا كان غرضها ـ على مـا يظهر منها ـ تأمين الحدود والسيطرة عليهـا ، فمن الواضح ان الحروب في العصور العباسية التالية كانت كذلك .

كان التاج الامبراطوري في بيزنطة قد انتقل منذ سنة ٧١٧ الى الاسرة الإيسورية اللاايقونية . وقد عاصر فترة الانتقال العنيفة بين الامويين والعباسيين من تلك الأسرة ، الامبراطور قسطنطين الخامس . (٧٤١ ـ ٧٧٥) ولكن مشاغله الداخلية في توطيد اللاايقونية ، والخطر البلغاري على حدوده . منعـاه من ان يستفيـد كثيراً من الاضطراب الداخلي في المملكة الاسلامية . ومع هذا فقد استغل انشغال مروان بن محمد عنه ، وعن الاهتمام بالبحر خاصة ، فاستولى على جزيرة قبرص سنة ١٣٨ هـ (٧٤٦ م) واستطاع الامبراطور في السنة الثانية من الخلافة العباسية أن يتخطى غزوة محدودة من غزوات الصائفة يذكر الطبري أنها قامت بقيادة سعيد بن عبد الله وراء الدروب[1] ، (سنة ١٣٣ ، ٧٥٠ م) وان يفتح ملطية ، أهم حصون الحدود ، ويخربها ، كما فتح قواده الارمن (بولي) و (كوش) عدداً من الحصون الاخرى ، ونقلوا سكانهـا الى

---

(١) الطبري ـ حوادث سنة ١٣٣ ج٧ ص٤٦٠(٧٤/٣)

بيزنطة ، ووصلوا الى ارضروم بفتحهم وتخريبهم واجلائهم السكان الى داخل الاراضي الرومية • وبالرغم من مشاغل أبي العباس الداخلية فقد اضطر أن يأمر عمه عبد الله بن علي بالمسير ضـد الروم • وتجهز الجيش وكان عبد الله في (دلوك) شمال حلب في الطريق الى القتال حين وصله نبأ وفاة أبي العبـاس واستخلاف المنصـور • فأعلن الثورة ثم خسرها • ولكن مشروع القتال ضد الروم ألقي بذلك على المنصور الذي أخذ على عاتقه حماية هذه الحدود • ويظهر لنا اهتمامه البالغ بها في سلسلة من الأعمال: فقد أطلق جيوشه بقيادة عمه صالح بن علي سنة ١٣٨ فكانت أول غزوة ضد الروم منذ غزوة الغسر بن يزيد سنة ١٢٥[١] وكان مع الصائفة عمتان من عمات المنصور وفـاء لنـذر نذره بالجهاد إن زال الأمويون • فقد استرجع المسلمون ملطية أولا سنة ١٣٩ هـ (سنة ٧٥٧م) وجمع صالح بن علي لها الصناع من كل بلد لبناء سورها ، فتم ذلك في ستة أشهر • وأنزل فيها المقاتلة وأقطعهم المزارع • ويبدو أن القصد من كل ذلك لم يكن الهجوم ولكن الدفاع وإزالة آثار حملة الامبراطور سنة ١٣٣ فقد تم في تلك السنة ١٣٩ اول فداء بين الروم والمنصور استنقذ فيه اسرى المسلمين • غير أن الجبهة لم تهدأ بعد ذلك[٢] على ما يظهر ولعل أهم أحداثها أن المنصور استغل انشغال قسطنطين الخامس بحرب البلغار ، فدحر قائده الارمني (بول) وقتله وأسر العرب اثنين واربعين

---

(١) انظر اليعقوبي ـ تاريخ ج٢ ص٩٩ ، ١٢٤

(٢) يذكر البلاذري (فتوح ص ١٩٥ ـ ٩٦ و ص٢٠٧ ، غزوة صائفة سنة ١٤٠ قادها الحسن بن قحطبة ومعه عبد الوهاب بن ابراهيم الامام (ابن اخي المنصور) كما يذكر اليعقوبي (ج١ ص١٢٤) غزوتين للصائفة في سنتي ١٤٢ و١٤٣ قادهما العباس بن محمد وغزوة ثالثة قادها حميد بن قحطبة سنة ١٤٥ .

من قواده سنة ١٤٢/٧٦٠ م فلم يجر فداؤهم حتى سنة ٧٦٦ م وحصنوا سميساط بعد ان نقلوا اهلها الى فلسطين ، لانهم كانـوا يتآمرون مع البيزنطيين • وفعلوا مثل ذلك بمرعش وأهلها سنة٧٦٩ • وكان ذلك ضمن خطة سياسية عسكرية منظمة أراد بها المسلمون تأمين الثغـور البرية والبحرية على السـواء على الحدود مع الروم •• وهكذا ــ كما يذكر البلاذري ــ «تتبع المنصور حصون السـواحل ومدنها فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج الى البناء منها» • وفعل مثل ذلك بمدن الثغور ومنهـا المصيصة التي بنى سورها بعد أن شعثته الزلازل وأقيم فيها مسجد جامع وأعيد اسكان أهلها وسميت بالمعمورة سنة١٤٠ • وتوج المنصور عمله على ما يظهر سنة ١٥٥ هـ ٧٧٣ م ببناء مدينة الرافقة على الفرات • شيدها على طراز بغداد ورتب فيهـا الجند من الخراسانيـة ، لتكون مركزه العسكري الخلفي ونقطة التجمع والانطلاق ، كلما غزا الحدود • وقد اجتمع سكان المكـان على المنصور يحتجـون قائلين : «تعطل علينا اسواقنا وتذهب بمعايشنا وتضيق منازلنا (الطبري) ولكنـه أصغى ، عوضاً عنهم ، الى الضرورات الاستراتيجية •

ويبدو أن المنصور بعد أن اهتم بالغزوات ذات الصبغة الدفاعية وبتحصين الثغور في الفترة الأولى من علاقاته مع الروم تحول بعد سنة١٥٢ الى سياسة الهجوم • فأول عملية هجومية واسعة تتحدث عنها المصادر إنما كانت سنة ١٥٣/٧٧٠ حين غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحجوري «••• فسار الى حصن للروم ليلا وأهله نيام فسبى وأسر من كان فيه من المقاتلة ثم صار الى اللاذقية المحترقة (وهي مدينـة في الأناضول) ففتحهـا وسبى منهـا ستة آلاف رأس مـن السبي سـوى الرجال البالغين [1] ••• » •

---

(١) الطبري ج٨ ص ٤٣ (٣/٣٨١) •

ورأى امبراطور بيزنطة تحول العرب الى الهجوم ، بعد تحصينهم للحدود ، وهو مشغول بحرب شديدة قاسية مع ملك البلغار تيلتزثم خلفه تيليريغ ، فقدم سنة ١٥٥/٧٧٢ مقترحات للسلم • ولكن المنصوررفضها وأرسل سنة ٧٧٥ حملة بريةوبحرية علىبلدة سيس توافق ظفرهامعمقتل الامبراطور البيزنطي تلك السنة وتولي ابنه ليو الرابع بدلا منه (٧٧٥ ـ ٧٨٠) ومع وفاة المنصور نفسه وتولي ابنه المهدي ! الذي تسلم مع الخلافة وصية ابيه التي يقول فيها : «•• وليكن أهم أمورك إليك أن تحفظ أطرافك وتسد ثغورك ••• وارغب إلى الله في الجهاد والمحاماةعن دينك واهلاك عدوك ••» •

ويظهر ان البيزنطيين لم يكونوا يكتفون بالنضال العسكري على الحدود ، بل كانوا يمدون يد الدسائس والمساعدة الى نصارى جبل لبنان ، ويغزون الساحل السوري لتقويتهم ، فقد دخل الروم طرابلس مرة زمن المنصور • وظهر ـ كما رأينا من قبل ـ رجل من أهل المنيطرة سنة ٢ ـ ١٥٣ هـ هو (بندار) و«سمى نفسه الملك • ولبس التاج وأظهر الصليب واجتمع إليه انباط جبل لبنان واستفحل أمره» كما يقول ابن عساكر فلما انهزم فر إلى ملك الروم ••• وتلا هربه إجلاء ، بعض أهل لبنان •

٣ ـ جبهة الغرب :

وهي بدورها كذلك قطاعان : إحدهما في الاندلس والآخر في أوروبا الغربية مع الفرنجة ، ولا بد كي يفهم القطاعان من دراسةالوضع السياسي في افريقية والمغرب •

فقد حكمت علاقة العباسيين الأوائل بالجناح الغربي البعيد من بلاد الاسلام ، العوامل الجغرافية بالدرجة الأولى • فإن المساحات الشاسعة مع كثرة الثورات والمخاطر في المشرق وعدم وجود أي ركيزة للأسرة العباسية الجديدة فيما بين افريقيا الى الاندلس لعدم اهتمام الدعاة العباسيين بغير خراسان ، كل ذلك جعل من تلك الأقاليم الممتدة فيما وراء ليبيا مناطق متروكة لمصيرها سواء أثناء الثورة والصراع مع الأمويين أم أثناء العمل على توطيد الدولة وإخماد الثورات العديدة • وسرعان ما كلف ذلك كله العباسيين غالياً إذ تراجعت حدود دولتهم عن كافة تلك الأقاليم وإذا كانوا قد استطاعوا استعادة افريقيا من الخوارج بالقوة وبسبب من تناحر الجماعات الخارجية نفسها فإنهم كادوا يفقدون أيضاً منطقة المغرب في وقت مبكر جداً على يد بني حبيب الفهري لولا تناحر هؤلاء أيضاً فيما بينهم أما الاندلس فمع أنها تأخرت في الانفصال عن العباسيين بضع سنوات إلا انها حين انفصلت كان انفصالها نهائياً •

وإذا كان ابو جعفر المنصور قد نجح بعد أبي العباس في كافة الأمور التي باشرها لتوطيد الدولة وتنظيمها وإقامتها بالسياسة والقوة والتنظيم : فأخمد كافة الثورات عليه ، وقتل كافة أعدائه • ووطد النفوذ العباسي من أقصى التركستان حتى اليمن ومصر وبرقة ثم انتصر في افريقيا إلا إنه خسر المعركة مع الفهريين في المغرب ولم يربح المنطقة إلا حين تناحروا وكان ربحاً مؤقتاً مع ذلك • كما خسر الجولات التي قاوم بها انفصال الاندلس ومن هنا في الواقع تنكشف الأسس الأولى لسياسته في الغرب •

أولا : فأما المغرب فقد كانت ثورات الخوارج والبربر في افريقيا تعزله

وتعزل الأندلس معه عن المشرق كما أن أيام أبي جعفر التي كانت ــ كما قال ابن طباطبا الطقطقي « ... ذات فتوق وأحداث» حتى إنه «لم يشرب ريقاً حلواً من ذلك ...»[1] لم تسمح لأبي جعفر بالانصراف بكليته الى امور المغرب والأندلس وبهذا الشكل كان مصير هذا الجناح من العالم الاسلامي مرتبطاً بصراع القوى الداخلية فيه .

وقد كانت أسرة الفهري وهي سلالة عقبة بن نافع هي الأسرة البارزة في أواخر العهد الأموي ، في تلك البقاع . زعيمها عبد الرحمن ابن حبيب كان بين أولئك الزعماء الذين كانوا ثاروا في الأندلس وثارت بهم في حركة البربر سنة ١٢٢/٧٤٠ بينما كان الخوارج في الوقت نفسه ثائرين في افريقية فلما أخمدهم فيها حنظلة بن صفوان طلب إليه أهل الاندلس أن يرسل إليهم والياً ينشر السلام هناك . فأرسل أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي[2] سنة١٢٥ وقد نجح الحسام بفضل عصبيته الشامية وسنه في اعادة سلطان الخلافة الأموية الى الأندلس . وأخرج منها إلى افريقيا عدداً من زعماء الفتن من بينهم عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي استقر في تونس . فلما اضطرب أمر الخلافة الأموية في الشام بين سنة ١٢٥و١٢٧ بمقاتل الخلفاء وخلعهم انتهز ابن حبيب الفرصة وأخرج والي المغرب حنظلة بن صفوان نفسه من القيروان سنة١٢٧ وبدأ العمل ليكون المغرب مملكة له ولبنيه ... ولكن نجاح عبد الرحمن مع اضطراب أمر بني امية في المشرق سمح لكثير من الطامعين بتقليده والانفراد

---

(١) ابن طباطبا ــ الفخري (طبعة صادر بيروت ١٩٦٦) ص ١٦٧ و ص ٣٠ .

(٢) انظر أخبار مجموعة للمؤلف المجهول ص ٤٥ .

بحكم ما تحت أيديهم • وقامت الثـورات في تونس وطرابلس وباجه وأوراس • من العرب والبربر ومن الخوارج وأهل الجماعةعلى السواء• على أن أخطر الجماعات وأشدهـا كانت الخوارج (الاباضيـة خاصة والصفرية) • وقد اصطدم عبد الرحمن بن حبيب بالإباضية في طرابلس وخاصة سنة ١٣١ـ١٣٢ وانتصر عليهموعاد الى القيروان ويبدو أنهفي تلك الفترة أنفذ ، بناء على طلب أهل الأندلس ، قريبه (أو ابنه) يوسف بن عبد الرحمن الفهري والياً عليها من قبله باسم بني أمية ، كمـا أنه غزا عبر البحر جزر صقلية وسردينية وأخذ منهما الجزية سنة١٣٥ ﻫ بينما كان المغرب الأوسط والأقصى بيد الخوارج الصفرية •

أما أحداث المشرق وانقلاب الخلافة إلى العباسيين فلم يكن لهـا إلا أضعف الأثر على عبد الرحمن بن حبيب الذي اعترف اسمياً بخلافة أبي العباس أول الامر ثم ما لبث أن تنكر الطرفان أحدهما للآخر وكان العباسيون يعدون حملة بحرية برية في الاسكندرية ضد المغرب حين توفي أبو العباس سنة ١٣٦ فانفض أمر الحملة بسبب ثورة عبد الله بن علي ضد ابن أخيه أبي جعفر •

وأجاب عبد الرحمن على هذا التنكر العباسي باصطناع الأمـراء الامويين الهاربين بدمائهم الى المغرب واستقبالهم وانزالهم المنزل الحسن والزواج منهم التماساً لنوع من الشرعية في الحكم فلما أنس منهم بدورهم العمل على الوصول الى الحكم فتك بهم[١] (قتل ولدي الوليد بن يزيد

---

(١) انظر ابن عذارى ـ البيان المغرب ج١ ص٦١ : ابن الأثـير حوادث سنة ١٢٦ .

كما كاد يقتل عبد الرحمن بن معاوية الداخل لولا هربه) وعاد في سبيل دعم حكمه بالشرعية فاتصل بأبي جعفر (المنصور) وبايعه . فلما حاول أبو جعفر ممارسة نوع من السلطة على عبد الرحمن وكاتبه أخذ منه البيعة الشكلية فلما طالبه أبو جعفر بالاموال . وكان يدقق في جمعهـ من الولاة : كانت القطيعة لان عبد الرحمن كتب اليه يقول : « ان افريقيا قد أصبحت اليوم إسلامية كلها وقد انقطع السبي منها ... » . فلما تهدده أبو جعفر قرر القطيعة مع العباسيين وترجم عبد الرحمن موقفه الحاد في خطبة الجمعة إذ صعد المنبر فقال : « ... اني ظننت أن هذا الخائن (المنصور) يدعو الى الحق ويقوم به حتى تبين لي خلاف ما بعته عليه من إقامة العدل . واني الآن قد خلعته كما نعلي هذا ... » .

كان ذلك سنة ١٣٧ أي في السنة التي انتقل فيها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (الداخل) تحت إلحاح أقاربه خفية الى الاندلس .

ولم يمكث عبد الرحمن بن حبيب في الإمارة بعد ذلك سوى أشهر معدودة إذ قتل في أواخر سنة ١٣٧ هـ . بيد أخيه ومساعده الاساسي الياس بن حبيب ويبدو أن الذي صرعه هو تفكيره في إقامة ملك خاص له في الاندلس والمغرب وفي جعل ابن حبيب ولياً لعهده . ويبدو أن شقيقه الياس ، وكان ينزل منه منزلة ابي جعفر من أبي العباس ، أراد أن يكون له العهد بعد أخيه على سنة أبي العباس فلما رأى الامور تسير الى ابن أخيه حبيب فتك بعبد الرحمن ... ويبدو كذلك أن الدسائس الاموية والعباسية معاً قد اجتمعت على التفرقة بين الأخوين . فبينما كانت امرأة إلياس ، الاميرة الاموية (بنت الوليد بن يزيد التي قتل عبد الرحمن أخويها) تحرض زوجها كان زعماء المؤامرة متفقين على البيعة لأبي جعفر في المشرق !

ولكن نجاح الشطر الاول من المؤامرة وهو التخلص من عبدالرحمن لم يتبعه نجاح الشطر الثاني إذ قام حبيب بن عبد الرحمن ليثأر لأبيه من عمه الياس وسرعان ما انهار الفهريون بعد ذلك في المعارك الاهلية التي قامت بينهم كما حطمهم في الوقت نفسه اصطدامهم بالخوارج الذين عاودوا الثورة في افريقيا والمغرب من جهة أخرى •

وإذا انتصر حبيب على عمه إلياس وحمل رأسه ورؤوس أتباعه على الرماح وهم وجوه العرب في الاقليم كله ودخل بها القيروان سنة ١٣٧ فان الأمر لم يدم له هناك أكثر من عام لأنه قتل بدوره سنة ١٣٨ (مطلع ٧٥٥) على يد أنصار الياس والخوارج المتحالفين معهم ••

ودخل المغرب كله إثر ذلك في دوامة الثورات التي عرف فيها الخوارج عصرهم الذهبي إذ انفردوا بالسيطرة على تلك البقاع مابين سنتي ١٤٠ ـ ١٥٥ وكانت حدود خلافة ابي جعفر المنصور في هذه الفترة لا تجاوز عملياً حدود مصر الغربية في منطقة برقة • وإن ظل يحاول دون انقطاع مد نفوذه وراءها • حاول ذلك خمس مرات ، قبل أن ينجح في الأخيرة :

ـ سنة ١٤٢ بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلي (الذي انهزم في سرت) ثم ابي الاحوص عمر بن الاحوص العجلى ، وقد انهزم الاثنان في منطقة سرت الواحد بعد الآخر أمام الخوارج من جماعة أبي الخطاب المعافري الإباضي •

ـ وسنة ١٤٣ بقيادة محمد بن الاشعث الخزاعي الذي سقط صريع النزاع القبلي سنة ١٤٨ رغم نجاحه في الولاية •

ـ وسنة ١٤٩ بقيادة الاغلب بن سالم التميمي (جدالأغالبة) الذي صرع في نزاع مع جنده سنة ١٥٠

ـ وسنة ١٥١ بقيادة عمر بن حفص العتكي المهلبي (هزار مرد) الذي قتل سنة ١٥٤

ـ وسنة ١٥٥ بقيادة يزيد بن حاتم بن قبيصة الذي أقر النفوذ العباسي في افريقيا والمغرب حتى سنة ١٧٠ •

ومع أن المنصور نجح أخيرا ولكن هذا النفوذ لم يكن بذي جذور في المنطقة فسرعان ما تحول إلى علاقة واهية ما لبثت أن انقطعت بين بغداد وبين الأسر التي تسلطت على افريقية والمغرب بعد ذلك •

ثانيا : اما الاندلس : فلم يكن انقطاعه عن الدولة الاسلامية الموحدة فجائياً إثر سقوط الامويين في المشرق ولكنه تم بالتدريج خلال سنوات، فحين تهاوت الدولة الاموية في المشرق كانت الاندلس تحت حكم يوسف الفهري واليها القيسي • وكان أمره بيدي الصميل بن حاتم المولى الاموي ، الكريم الداهية الذي كان قد بدأ التصرف في الحكم منذ أيام الوالي السابق ثوابة بن سلامة اليماني سنة ١٢٧ وقد توفي ثوابة فعمل الصميل على وصول يوسف بن عبد الرحمن الفهري للولاية ، ومكن للقيسيين أ ن يحكموا الاندلس ، مع أنهم أقل كثيراً من اليمنيين ما بين سنتي ١٢٨ ـ ١٣٨ هـ •

خلال هذه الفترة كان العباسيون قد أخذوا الخلافة في المشرق ولكن الاندلس . لم تأبه كثيراً أو لم تتأثر كثيراً لأحداث المشرق كما أن الحكام الجدد هناك لم يعيروها أي التفات واكتفوا بذكر اسم

الخليفة العباسي في خطبة الجمعة وقد مرت عليها في هذه الفترة سنوات عجاف ، من المحل المتصل . وسنوات من النزاع الدموي دمر فيه القيسيون زعماء اليمنيين في المعارك حتى لقد قتل الصميل صبراً من زعمائهم الأسرى حوالي السبعين أمام المسجد الجامع في قرطبة [1]...

ولم تكن هاتان العصبيتان وحدهما في الاندلس فقد كان بجانبهما عصبيتان أخريان الاولى : عصبية البربر الذين كانوا في الغالب أحلافاً لليمانية وعصبية الموالي ، موالي الامويين وكانوا يقفون بجانب القيسية بزعامة الصميل . وهم يكونون كتلة الجند الاموي .

وقد حاولت القوى المناوئه للفهري أن تتحرك في الاندلس في ثورة قادها الحباب بن رواحة الزهري سنة ١٣٦ وأيدته فيها اليمانية كما أيده فيها ثائر آخر هو عامر بن عمرو العبدري قائد الجهاد ضد الاسبان واتفق الجميع على الدعوة للعباسيين وحاصروا الصميل في سرقسطة مركز ولايته .. ولم تكن الحركة عباسية ولكنها إنما اتخذت هذا الشعار كيداً بالوالي يوسف الفهري وصاحبه ..

وفي هذه الفترة كان عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) يبث رسائله ودعاته لموالي الامويين في الاندلس ، من الجند . وقد أعان هؤلاء الصميل على فك الحصار عنه وظلوا يفاوضونه سنة كاملة لعله يرضى بمديد العون لعبد الرحمن بن معاوية ... **ولكن الصميل وجد** في وصول هذا الامير الاموي الى الاندلس ما يهدد نفوذه فأنذر الدعاة

---

(١) انظر أخبار مجموعة للمؤلف المجهول ص ٥٩ وابن الاثير ٣٧٥/٥ .

أن أول سيف سوف يشهر ضد عبد الرحمن إن نزل أرض الانـدلس سيكون سيفه ! ...

واضطر الوالي للتوجه الى الحزب الآخر ، اليماني « الذين وغرت صدورهم يتمنون شيئا يجدون به سبيلا الى طلب ثأرهم من القيسية ...[1] » وهكذا استدعى عبد الرحمن الى الاندلس فنزلها في ميناء صغير بين المرية ومالقة في ربيع الاول سنة ١٣٨ / ١٤ آب (اغسطس) سنة ٧٥٥[2] وبعد تسعة اشهر (في ذي الحجة) أي في نهاية العام نفسه أنهى عبد الرحمن الداخل حكم يوسف الفهري في الاندلس ، في معركة المصارة وهزم الفهري والصميل تاركين في الميدان ولديهما بين القتلى الكثيرين . وكانت كتلة جيشه من اليمانية وموالي الامويين ... وبعض المنشقين على الفهري من القيسيين أيضاً .

ودخل عبد الرحمن قرطبة وتلقى البيعة في جامعها كأمير للاندلس ولكن الدعاء بقي للخليفة ابي جعفر عشرة أشهر أيضا بعد ذلك . ولم ينفع القيسيين والفهري والصميل ثورة حاولوا بها احتلال قرطبة فقد حاصرهم عبد الرحمن واضطرهم للاستسلام . وتم توقيع الصلح في كتاب حضره زعماء الامويين والقيسيين وقاضي قرطبة وزعماء الجندفي ٢ ربيع الاول سنة ١٣٩ / ٤ آب سنة ٧٥٦ أي بعد سنة واحدة من نزول عبد الرحمن بأرض الاندلس ... أما قطع الخطبة لابي جعفر فقد تريث به عبد الرحمن حتى هدده بعض أعضاء الاسرة الاموية بالانتحار إن

---

(١) المصدر السابق ص ٧٤ .

(٢) انظر ابن الابار الحلة السيراء (طبع مؤنس) ج ١ ص ٣٥ .

لم يفعل[1] ولعله كان يتردد امام إمكان اقتطاع قسم من العالم الاسلامي وشق أرض الخلافة إلى قسمين ... فان ذلك كان يجري لاول مرة في تاريخ الاسلام .

ولم يستطع ابو جعفر – وافريقية مع المغرب خارج يده وليس تحت يده اسطول بحري – أن يصل بيده الاندلس . ولقد علم بقطع عبدالرحمن الداخل لخطبته ولكنه لم يحرك ساكناً، في انتظار القيام بتدبير ناجع ضده . فما ان انتهى من ثورة محمد ذي النفس الزكية سنة ١٤٦ وتلقب بالمنصور حتى وجد الفرصة السانحة في ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي . وكان أحد وجوه مدينة باجه وقد تبعه في ثورته خلق كثير شكلوا خطراً كبيراً على عبد الرحمن الداخل بعد سبع سنوات من الحكم ويبدو أن العلاء كان على اتصال بمحمد بن الاشعث والي المنصور على افريقيا كما أخذ منه الاموال والوعد بالولاية واللواء الاسود الذي رفعه ... ويقول ابن القوطية إن المنصور كتب إليه : « إن كان فيك محمل لمناهضة عبد الرحمن وإلا فابعث من يعينك[2] » .

وقد حاصر عبد الرحمن الثائرين في حصن منيع (حصن قرمونة) فامتنع عليه شهرين وأدرك أن المعركة معركة مصير فجمع ٧٠٠ من جنده المخلصين ثم أوقد ناراً عظيمة عند باب الحصن فألقى الجميع بجفان سيوفهم وهاجموا جند العلاء في حركة مباغتة أربكتهم فانهزموا ...

---

(١) انظر المقري – نفح الطيب (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٩) ج١ ص٥٩ .

(٢) ابن القوطية – تاريخ افتتاح الاندلس (طبعة بيروت ١٩٥٨ المصورة عن مجريط ١٨٦٨) ص ٥٧ .

ودارت الدائرة عليهم وكثر القتلى حتى ليذكر أحد المؤرخين أنهم كانوا سبعة آلاف كان من بينهم العلاء نفسه[1] .

ويقول المؤرخون ان عبد الرحمن اختار عددا من الرؤوس فجعل في كل رأس رقعة باسم صاحبه ووضعها في جواليق ومعها اللواء الاسود وسجل المنصور للعلاء . ثم دس من رماها في سوق القيروان ..[2]وقيل إن بعض الرؤوس رميت في مكة أثناء حج المنصور ...

وكانت هذه هي المحاولة الاولى والاخيرة لاسترداد الاندلس من قبل العباسيين الذين لم ينالوا منها إلا الذكر بالاسم على المنابر فترة قصيرة عابرة . وهذا الموقف الجغرافي ـ التاريخي معاً هو الذي يفسر علاقة العباسيين بالفرنجة .

ثالثا : الفرنجة : ففي غرب أوروبا كانت تقوم دولة الكارولنجيين، الدولة التي كان أسسها على أنقاض الحكم الميروفنجي : شارل مارتل صاحب معركة بلاط الشهداء . وكان عداؤها للحكم الاسلامي الاموي في الاندلس متصلا بجذرين أحدهما ديني والآخر دفاعي ضد الغزوات الاسلامية لجنوب فرنسا ولم يكن ممكناً أن تقوم بينها وبين الدولة الاموية إلا علاقات العداء رغم الصلات التجارية المتصلة ما بين الثغور الاسلامية والموانىء في جنوب فرنسا خاصة . فما إن قامت الدولة العباسية وتبين الكارولنجيون انقسام البلاد الاسلامية وإمكان الاستفادة

---

(٣) لسان الدين بن الخطيب ـ اعمال الاعلام (طبعة بروفنسال ـ بيروت) ج١ ص ٩ .

(٤) ابن عذارى ـ البيان المغرب ج٢ ص ٧٩ . المؤلف المجهول ـ اخبار مجموعة ص ١٠٣ ـ وانظر ابن القوطية ـ افتتاح ص ٥٧ .

من عداء المنصور لعبد الرحمن الداخل المتسلط على الاندلس حتى بادروا لاستغلال الفرصة في محاولة للتخفيف من ضغط هذا الوالي الطامح على الاراضي الفرنجية واراضي مملكة ليون المسيحية في شمال اسبانيا ولعل للتجار اليهود المعروفين بالرادانية والذين كانوا يترددون بين الموانىء الاسلامية والفرنجية يدأ في نسج تلك الصلات الواهية بين خلافة المشرق والفرنجة • فقد نفض المنصور يده من الاندلس بعد فشل صاحبه اليحصبي ولعله رضي بعد ذلك باستخدام الضغط السياسي الخارجي ضد صاحبه عبدالرحمن الذي كان يعجب به ويسميه صقر قريش بقدرما كان يحتقد لانه سجل هزيمة المنصور الوحيدة في تاريخه السياسي • وتذكر بعض المصادر اخباراً . لا نعرف مدى دقتها : عن علاقات اتصلت بين ملك الفرنجة (بيبين) القصير رأس الاسرة الكارولنجية والمنصور • فيذكرون ان الملك الفرنجي بعث سنة ٧٦٥ (سنة ١٤٧ هـ) بوفد الى الخليفة العباسي . أعاده المنصور مصحوبا بسفراء من عنده ، وبهدايا نفيسة • فوصلت بلاد الفرنجة بعد سنوات ثلاث • ومر الوفد العباسي في البحر الى مرسيلية ثم قضى الشتاء في متز باللورين • وأقام في قصر سلس بضفاف اللوار . ثم عادوا الى الشرق : في البحر عن طريق مرسيلية ويعلق المؤرخ ميور على هذه الوفود والمفاوضات بانها لم تؤد الى شيء، سوى ما ولدته في نفس عبد الرحمن الداخل من خوف هجوم الفرنجة على بلاده • وبذلك لم يحاول اظهار عدائه الحربي للخليفة العباسي• ولعل الأصح ان ينظر لهذه العلاقات على وجه آخر • فعبد الرحمن لم يكن في حالة تمكنه من الهجوم الحربي على العباسيين • ونظرة الى مواقع الدول الكبرى حول البحر المتوسط في ذلك الحين (دولتي المسلمين : العباسية والاموية في شرق وجنوب وغرب البحر الابيض المتوسط . ودولتي المسيحيين : في شماله الشرقي وشماله الغربي)

تفسر لنا سر ذلك التعاطف بين الفرنجة والمنصور ، الذي كان يقابله تعاطف مماثل بين أمراء الاندلس وأباطرة بيزنطة • يقول رينو : « وبينما كان ملوك قرطبة يراسلون قياصرة القسطنطينية الذين باتوا في حرب مع مسلمي الشام وفارس ومصر ، كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيين الذين كانوا في حرب مستمرة مع مسلمي الاندلس » • ذلك ان مصلحة العباسيين اتفقت ، بالتقابل والعمل المتبادل ، مع مصالح الفرنجة • فأصحاب الاندلس هم أعداء الفرنجة الاقربون واعداء العباسيين الاقربين ، ومنافسي الفرنجة الابعدين • واذا تذكرنا تلك المنافسة القوية التي قامت بين قسطنطين الخامس وبين (بيبين) للفوز بالسلطة السياسية في العالم المسيحي ، والتي كسبها بيبين في النهاية ، إذ جر البابا الى جانبه ، فباركه وبارك عمله ، بينما اتنهت الكنيسة البيزنطية ، أثر ذلك ، الى الانفصال عن الكرسي البابوي ، وانتهى النفوذ البيزنطي الى الزوال عن ايطاليا ، اذا تذكرنا ذلك اتضحت لنا أسرار تلك المفاوضات العباسية ـ الفرنجية وما دار فيها من أمور •

ومن الضروري أن يضاف هنا أن العباسيين ربما انساقوا الى هذه العلاقة مع الفرنجة بالدافع الاقتصادي في محاولة لعقد الصلات التجارية المباشرة بين الموانىء العربية الاسلامية في مصر وافريقيا وبين جنوب فرنسا دون وساطة البيزنطيين ••• إن طبيعة تلك الصلات القائمة على الوفود والهدايا توحي بذلك لا سيما إن تذكرنا أن أعضاء هذه الوفود كانوا شخصيات مغمورة لا تتناسب مع كبر المهمة السياسية التي تعطى لهم • ولعلهم كانوا هم أنفسهم من التجار الذين يتمسحون بالقوى الحاكمة في البلدين لادعاء القيمة والاستفادة من السمعة والحماية •

ولعل المهم في هذا كله ان المنصور بتقربه من الفرنجة وضع تقليداً

سياسياً هاماً سار عليه الخلفاء من بعده ولاسيما في عهده حفيده الرشيد.

* * *

عند نهاية هذا العهد ، عهد المنصور والتأسيس كانت دولة بني العباس قد ثبتت أقدامها على أرض المملكة الاسلامية فأزالت الطامعين بالعرش ، وأخمدت الحركات الشاذة ، وبنت لنفسها عاصمة ، ووضعت نظاما للادارة كما رسمت حدودها الخاصة وحست تلك الحدود ، ومهدت السبيل بذلك كله لعصر الاستقرار المقبل .



الفصل الثامن

عصر الرشيد والاستقرار - الخلفاء

(١٥٨ ــ ٢١٨ / ٧٧٥ ــ ٨٣٣)

دام هذا العصر ستين سنة كانت فترة الأوج ، لافي الخلافة العباسية فحسب ، ولكن في التاريخ الاسلامي كله • فقد كانت دولة بني العباس الدولة الكبرى والاولى في العالم من الوجهة السياسية . تنتشر على أطرافها الدول الاخرى : فدول صغرى هندية فيما وراء حوض السند ، وامبراطورية الصين المصابة بالفوضى والحروب الاهلية . تحت أسرة تانغ في الشرق الاقصى • وخانات الخزر في شمالي قزوين • والامبراطورية البيزنطية بعدهم على العدوة بين آسيا واوروبا • ثم تأتي في غرب أوروبا بين المانيا وايطاليا وفرنسا امبراطورية شارلمان • ثم امارة الاندلس الاموية • وفي الجنوب مملكة الحبش بينما دولة الخليفة في قلب هذا العالم كله •

وأما من الناحيةالاجتماعية فقد اختلطت عناصر الدولة بعضهاببعض فظهرت الألوان المتباينة من النزعات الاجتماعية ، التي تجمع في صعيد

واحد ، منتهى الجد الى متطرف اللهو ، والتقي الزهد الى أبشع الزندقة، وأبلغ التعصب مع أجمل التسامح ، وأعظم الغنى والبذخ إلى أشأم الفقر والاملاق ، ولعل وجود التطرف في جانب من الحياة كان شرطاً وتنيجة ، في وقت واحد ، للتطرف في الجانب الآخر • وهذا من صفات العصور الممتلئة الخصبة •

وتكوّن الفكر الاسلامي واكتملت أسباب نضجه في هذا العصر بنتيجة تمازج الثقافات ، وترجمتها جميعاً الى لغة واحدة • واذا كان من الانقلابات الهامة أن تصبح اللغة العربية لغة العلم ، بجانب كونها لغة الدين ، والسياسة والتجارة والأدب ، فانه لمما يستلفت النظر أيضاً أن تمتليء هذه الفترة بشخصيات ما اجتمعت ، في كثرتها وتنوع نبوغها ، في عصر إسلامي آخر : فالفقه الاسلامي وضعه في ذلك الحين الأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل • وفي القضاء ظهر أبو يوسف والشيباني وفي اللغة الاصمعي والفراء والكسائي والخليل بن أحمد وفي الأدب المبرد والجاحظ وفي الشعر أبو نواس وأبو العتاهية ومروان بن ابي حفصة والعباس بن الاحنف وفي الغناء ابراهيم بن المهدي (أخو الرشيد) وابراهيم الموصلي وابنه اسحق ، وفي الضرب والزمر : زلزل وبرصوما ، وفي العلم والفلسفة والطب والفلك آل بختيشوع وأولاد شاكر وحنين بن اسحق والمأمون الخليفة وابن ماسويه وابن البطريق وغيرهم ••• ولا شك ان هذا الجمع الحافل من الاسماء اللامعة يعبر عن يقظة فكرية ـ كما قال فيليب حتي ـ تعد من النهضات الهامة في تاريخ التقدم الفكري في العالم كله •

وقد تجمعت كل روعة فترة الاستقرار هذه في عهد الرشيد الذي يمكن أن يعتبر ممثلاً لها وتعتبر سيرته ، بنتيجة ذلك ، كما قال فيليبي ـ

« مكملة للميراث الفكري الذي خلقته الانسانية » • ويمكن ان يقارن عصره بعصر أوغسطس في الرومان ، أو بركليس في اليونان أو لويس الرابع عشر في فرنسا أو فكتوريا في انكلترا • وقد نقلت قصص ألف ليلة وليلة صورة الرشيد وعصره الى أذهان العالم ، حتى أصبح الرشيد لدى الغربيين يمثل ـ كما قال فيليبي أيضاً ـ نواحي الجلال والعظمة في الامبراطورية العربية ، ويمثل كل ما هو عظيم وجميل في تاريخ الاسلام ولفت بغداد والشرق والحضارة الاسلامية من وراء تلك الصورة بكثير من السحر والاسطورة • وليس تقدير المؤرخين من العرب للرشيد بأقل من هذا • فقد سميت أيامه « أيام العروس » ووصفها السيوطي « انها كلها أيام خير ، كأنها في حسنها أعراس » كما يذكر الفخري : ان دولته كانت من احسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً وأوسعها رقعة مملكة ••• وقال البغدادي : اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد من جد أو هزل « وزراؤه البرامكة وقاضيه أبو يوسف وشاعره مروان بن ابي حفصة ونديمه عم أبيه العباس بن محمد وحاجبه الفضل بن الربيع ومغنيه ابراهيم الموصلي وضاربه زلزل وزامره برصوما وزوجته أم جعفر الخ ••• »

على انا نلاحظ ان حصالة كل تلك الحضارة قد تجمعت من العالم الاسلامي كله في العراق ومن العراق كله في بغداد نفسها التي وصفت من المعاصرين عن جدارة بأنها « سرة الدنيا » ونلاحظ الى هذا أيضاً ان هذا العصر الباذخ قد حمل بين طياته ، وبين الاسباب التي أدت الى روعته ، بذور العوامل التي ستعمل على هدمه وتنذر بمطالع الانهيار المقبل •

الخلفــاء :

توالى في هذه الفترة من التاريــخ العباســي (١٥٨ ــ ٢١٨) هـ خمسة خلفاء هم : المهدي وابناه الهادي والرشيد ثم ولدا الاخيــر : الامين والمأمون •

المهدي محمد بن عبد الله ابي جعفر بن محمد
(١٥٨ ــ ٢٣ المحرم ١٦٩ هـ) = (٧٧٥ ــ ٧٨٥ م)

نشأته : ولد في الحميمة (من اروى بنت منصور بــن عبد الله الحميري) سنة ١٢٦هـ • وكان عمره عشر سنوات ، حين صارت الخلافة لأبيه ابي جعفر[١] • ويظهر من مجموع تصرفات الوالد والولد مــع بعضهما ، ان رابطة قوية من الحب كانت تربطهما ــ فقد تعهد المنصور ابنه ، مبكراً ، بالثقافة والتربية الحربية والاداريــة ، ليكون جديراً بالمنصب الذي سيصير اليه : عهد به الى المفضل الضبي فنشأ على ثقافة عربية واسعة ، ومعرفة بالشعر وقرضه ، ورواية لأخبار العرب وامثالها • وطلب من ابن اسحق فكتب لتثقيفه السيرة النبوية وبعث به ، وهــو مايزال غض العود ، في الخامسة عشرة ، في صحبة قائد من اشهر قواده : خازم بن خزيمة لمهمات صعبة متتالية : إخماد ثورة عبد الرحمن بــن عبد الجبار الازدي والي خراسان ، ثم الاصبهبذ الوالي الثائر بطبرستان ، ثم استاذ سيز ، مدعي النبوة في خراسان • وحالف التوفيق خازماً في

(١) كان لأبي جعفر أولاد آخرون هم : جعفر الذي لقب بالأكبر لأنه توفي في حياة أبيه فسمى ولداً آخر من أولاده بجعفر (ابن الكردية) فعرف بالأصغر . وكان لجعفر الأكبر عدة أولاد لعبوا دورهم زمن الرشيد منهم زبيدة زوج هارون الرشيد .

في هذه المهمات التي كانت دروسا حربية قاسية للمهدي • ثم زوجه أبوه من ابنة عمه : ربطة بنت أبي العباس ورأى أن وجه خراسان خطر قلق وأن ابنه استطاب المقام في الري فولاه أخيرا خراسان والجبال بين سنة ١٤٨ - ١٥١ هـ فلما عاد بعد ذلك الى بغداد بجيشه الخراساني سنة ١٥١ هـ بنى له أبوه معسكراً على الضفة الشرقية من دجلة ، تجاه بغداد (الرصافة) فاستقر ثم أرسله سنة ١٥٣ هـ أميراً للحج بدلاً عنه • كما أرسله سنة ١٥٥/٧٧٢ على الفرات الى بلدة الرقة فبنى عندها معسكراً ضخماً هو مدينة الرافقة قضى سنة في بنائها •

وقد بويع المهدي البيعة الخاصة في مكة • والبيعة العامة في بغداد حيث كان مقيماً عند وفاة أبيه وذلك في (ذي الحجة ١٥٨ ، تشرين الأول سنة ٧٥٧) •

ميزاته : يذكر عن المهدي أنه كان معتدل القامة ، اسمر حسن الوجه جعد الشعر • وتتفق المصادر على وصفه بالكرم ولين الجانب ، كما تصفه بحسن العفو والحلم • وقد كان لهذا أثره الواضح في عهده ، لأن اخلاقه الخاصة انعكست في سياسته العامة فجعلته - كما قال المسعودي - « محبباً الى الخاص والعام » •

لقبه : كان ابو جعفر هو الذي اختار لقب المهدي لابنه ويظهر أنه اختاره له في الوقت الذي اختار لنفسه لقب المنصور أي سنة ١٤٦ بعد هزيمة محمد ذي النفس الزكية يدل على ذلك أن لقب المهدي ظهر على سكة ضربت في الري سنة ١٤٦ كما ظهر على سكة أخرى من الباب وثالثة ضربت سنة ١٥٢ في أران ، والمهدي مايزال والياً للعهد ثم ورد اللقب له في نص تشييد بتاريخ المحرم سنة ١٥٥ على قطعة من الرخام

في عسقلان وفي طراز قطعة نسيج بتاريخ سنة ١٥٩ في مصر • وفي قطع أثرية أخرى في بخارى ومكة وغيرها[١] • فاللقب ثابت له وإن كان اتخذه أبو العباس ، أو الخلفاء ، أو أعطى له أول الأمر •

ويبدو أن المنصور وحاشيته كانوا يشيعون ثم يعودون فيؤمنون بما أشاعوا من أن المهدي هو مهدي الله الموعود حقاً وصدقاً • وإنا لنجد ذلك واضحاً في كتاب المنصور الى عيسى بن موسى يراوده عن ولاية العهد سنة ١٤٧ اذ يقول : « ••• ولم يجد أمير المؤمنين بداً من متابعتهم (الخاصة والثقات) وأمير المؤمنين أحق من سارع إلى ذلك وحرص عليه وعرف فضله ورجا بركته وصدق الرواية فيه وحمد الله إذ جعل في ذريته مثل ما سألت الأنبياء قبله إذ قال العبد الصالح : « فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً • » فوهب الله لأمير المؤمنين ولياً ثم جعله تقياً مباركاً مهدياً وللنبي (صلى الله عليه وسلم) سمياً وسلب من انتحل هذا الاسم ودعا الى تلك الشبهة التي تحير فيها أهل تلك النية وافتتن بها أهل تلك الشقوة فانتزع ذلك منهم وجعل دائرة السوء عليهم ••• وأعلن للمهدي مناره وللدين أنصاره[٢]»

سياسته العامة : ترك المنصور لابنه وصية سياسية قرأها يوم البيعة قال فيها ، بعد ان حذره طويلاً من عذاب الآخرة والحساب :

« ••• وليتسع انصافك وينبسط عدلك • وواس بين الرعية في الاحتكام واطلب بجهدك رضا الرحمن ، وأهل الدين فليكونوا أعضادك • وأعط حظ المسلمين من اموالهم ، ووفر لهم فيئهم ، وتابع اعطياتك عليهم وعجل

---

(١) انظر مراجع ذلك لدى حسن الباشا ـ الالقاب الاسلامية ص ٥١٤ ـ ٥١٥

(٢) الطبري ج٨ ص١٦ (٣/٣٤٠–٣٤١) •

بنفقاتهم إليهم سنة سنة وشهراً شهراً • وعليك بعمارة البلاد ، بتخفيف الخراج ، واستصلح الناس بالسيرة الحسنة والسياسة الجميلة ، وليكن أهم امورك إليك تحفظ اطرافك وسد ثغورك و ••• وارغب الى الله عز وجل في الجهاد والمحاماة عن دينه ••• وابذل في ذلك مهجتك •••وتفقد جيوشك ليلك ونهارك ، واعرف مراكز خيلك ومواطن رحلك ••• »

وقد اتبع المهدي روح هذه الوصية في سياسته للدولة • على أنا نلاحظ انها لاتتفق مع سياسة المنصور العامة فهل هي مزيفة عليها ؟ أم هل أدرك ذلك الخليفة القوي تغير العهد وضرورة التطور في السياسة ؟ أم كان يفهم ابنه وطباع ابنه بهذا العمق ؟ لانكاد نشك في أن المهدي استفاد من الوصية • ولكنها لم تكن العامل الحاسم في توجيه سياسته• فالذي رسم خطوط السياسة العامة له ، هي أخلاقه الخاصة من جهة ، وظروف عصره من جهة أخرى • وهذا سبب نجاحه وحب الرعية له • فقد كانت الدولة استقرت بعد ثورة واحتاجت الى اللين ، بعد طول الشدة كما بدأت تظهر في تلك الفترة آثار التمازج الثقافي والاجتماعي بين ثقافات وعناصر الدولة المختلفة ، وطلائع الميزات التي تميز الحضارة الاسلامية • لهذا جاء عهد المهدي عهداً انتقالياً ، وسطاً ، بين عهد ابيه الشديد قبله ، وعهد ولديه الرضي من بعده ، •كانت أبرز الميزات في سياسته :

١) سياسة [illegible] ي اليعقوبي[١] ان المنصور وهو خارج [illegible] كت الناس ثلاثة أصناف [illegible] أمنك ، ومسجونا لايرجو [illegible] هية ولاتمدد لهم

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ١٩٥

كل المد ... » وسواء صحت الوصية أم لم تصح فانهـا تعبر عـن حقيقة واقعة . فقد بدأ المهدي ، بعد عهد المنصور الشديد ، سياسـة الانفتاح والفرج على الناس جميعاً سواء منهم الأقربون أو من كانوا موضع الريبة والعداء وصل أولاً أهله ومواليه فقرر لكل واحد من أهل بيته ستة آلاف درهم في السنة . وحاول استرضاء العلويين فأخرج من كان في السجن منهم « وأمر لهم بجوائز وصلات وارزاق دارة » على قول اليعقوبي واستخدم عدداً كبيراً من الزيديـة .

وحاول كذلك استرضاء بعض الامويين ويذكر الطبري ان المهدي « لما وجه الرشيد الى الصائفة سنة ١٦٣ خرج يشيعه فلما حادى قصر مسلمة (بن عبد الملك) قرب الفرات في شمال الشام) قال له بعض مرافقيه العباسيين: يا امير المؤمنين. إن لمسلمة في أعناقنا منة . كان محمد ابن علي مربه فأعطاه أربعة آلاف دينار وقال : يا ابن عم . هذان ألفان لدينك وألفان لمعونتك فإذا نفذت فلا تحتشمنا » فقال المهدي :أحضروا من هاهنا من ولد مسلمة ومواليه فأمر لهم بعشرين ألف دينار وأمر أن تجرى عليهم الأرزاق ثم قال لمحدثه : هل كافأنا مسلمة وقضينا حقه ؟[1]

ويروي له المسعودي قصة أروع من هذه يوم لجأت مزنة امرأة مروان بن محمد الى الخيزران وهي في الأطمار البالية . وأحسنـت اليها الخيزران فلما علم المهدي بالامر بكى واستدعاها ورحب بها ورفع منزلتها فوق أحسن نساء القصر . ثم تفاوض معها أخبار [illegible] الناس والدولة وتنقلها فما تركت (مزنة) لأحد في المجلس [illegible] . [illegible] المهدي : يابنت عم لاشيء أصون لك من حجابي وكو[illegible]

---

(١) الطبري ج٨ ص ١٤٤ (٣/٤٩٥)

في قصري . لك مالهن وعليك ماعليهن ... ثم أقطعها مثل مالهن من الاقطاع وأخدمها وأجازها . فأقامت في قصره الى أن قبض المهدي وأيام الهادي وصدرا من أيام الرشيد وماتت في خلافته لايفرق بينها وبين نساء بني هاشم . فلما قبضت جزع الرشيد والحرم جزعاً شديداً ...[1]

واسترضى المهدي عامة الناس باطلاق المسجونين كافة « إلا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ومن كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد أو من كان لأحد قبله مظلمة أو حق » وأضاف الى ذلك أنه كسا ووصل كل من أطلقه .

وترضى بعض الأقطار الاسلامية المنكوبة : فقد حج سنة ١٦٠ هـ فوزع على أهل الحجاز ثلاثين مليون درهم ونصف مليون دينار ومائة وخمسين ألف ثوب ــ على روايات الطبري ــ وأرجع جرايات الحبوب إليهم من مصر وكان قطعها المنصور لدن ثار محمد ذو النفس الزكية . واصطفى لنفسه خمسمائة رجل من الأنصار فأجرى عليهم الأرزاق الواسعة وجعلهم حرسه الخاص[2] (تأكيدا للتقرب وللموازنة مع العرب الخراسانيين في الدولة) وأكرم سنة ١٦٤هـ عامة أولاد المهاجرين والأنصار وفرق فيهم ثلاثة ملايين درهم . وأراد تهدئة الشام فزار دمشق والقدس وحاول التوفيق بين قبائل البادية الشامية ووزع المال فيهم .

ولاشك أن ماتركه المنصور في بيت المال هو الذي أعا نالمهدي

---

(١) المسعودي ــ مروج الذهب ج٣ ص ٣٢٣ــ٣٢٥
(٢) الطبري ج٨ ص١٣٣(٣/٤٨٣)

على هذه السياسة « الكريمة » و « بسط يده في الإعطاء فأذهب جميع ماخلفه المنصور سوى ماجباه في أيامه » •

٢) العدل : وأول مابدأ فيه بنفسه إذ أنه نظر في « دفتر القبض » حيث كان يسجل المنصور ماأخذه من أموال الناس بالمصادرة فـــرد الأموال لأصحابها وصاحب الفخري يعزو ذلك إلى وصية والده إذ قال : « يابني إني قد أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه الجباية والمصادرة وكتبت عليه أسماء أصحابه فإذا وليت أنت فأعده إلى أربابه ليدعو لك الناس ويحبوك ! » •

وعني المهدي بأمر المظالم فكان يجلس لها بنفسه ويشرك القضاة معه عند النظر فيها ويقول : لو لم يكن ردي للمظالم الاحياء منهم لكفى» واتخذ بيتاً له شباك حديد تطرح فيه القصص (رقـــاع الشكايات) وتجمع بعد ذلك لئلا يكون ثمة مجال لإخفاء الشكاية أو تأخيرها • وبهذه الواسطة حمى الرعية من تعدي الولاة وجورهم (ومن جـــوره هو أيضاً) وخاصة في قضايا الضرائب والاراضي •

٣) احترام الدين : كسب منصب الخلافة زمن المهدي ظلاً دينياً واضحاً فقد كان الخليفة يقرب رجال الدين والفقهاء ويتأثر لـــدى تلاوة القرآن وقد أمر بتوسعة المسجد الحرام حتى توسطته الكعبة بعد أن كانت في جانب منه ، وحمل إليه الأساطين من مصر (غير أنه محا اســـم الوليد ابن عبد الملك من حائط الحرم وكتب اسمه بدلا منه) ووسع مسجد الرسول في المدينة والمشروعان إنما بدأ بهما في الواقع أبوه المنصور قبله وقدا... له أبو حنيفة بمصادرة الدور حول الكعبة لتوسعتها كما وسع مسجد البصرة بما يتناسب مع تكاثر السكان فيها ونمو شأنها التجاري إذ ذاك •

هذا إلى أنه قام بأعمال اجتماعية كثيرة ذات طابع ديني فوضع « دور المرضى وأجرى على العميان والمجذومين والضعفى وأهل السجون فيجميع الآفاق » وبنى المحطات والبرك على طريق الحج العراقي من القادسية الى مكة . يقول الطبري : « ... وأمر المهدي سنة ١٦١ ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي بناها أبو العباس ... وترك منازل أبي جعفر على حالها وأمر باتخاذ المصانع في كل منها . وبتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع ... »[١]

وقد اتفق أن تفشت الزندقة في الناس في زمنه لعوامل مختلفة حتى أضحت نوعا من « التظرف » و « المودة » فكافحها المهدي مكافحة تميز بها عهده . يقول صاحبالفخري : « كان شديدا على أهل الإلحاد والزندقة لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم» « وقد جد في طلبهم والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم » وعين موظفاً خاصاً باسم « صاحب الزنادقة » لمطاردتهم كما أمر بتأليف الكتب للرد عليهم . وقد كان خارجا في حملة ابنه الرشيد لغزو الروم سنة ١٦٣ فلم يمنعه ذلك من أن يبعث وهوفي حلب بعبد الجبار المحتسب « لجلب من بتلك الناحية من الزنادقة فقتل جماعة منهم وصلبهم وأتى بكتب من كتبهم فقطعت بالسكاكين ..»[٢] وقد كان من ضحايا هذه المكافحة الواسعة عدد من الشخصيات المعروفة ولاسيما في الميدان الادبي كابن المقفع وبشار بن برد ...

وفاته : قضى المهدي عشر سنوات على عرش الخلافة واحتضرسنة ١٦٨هـ وعمره ثلاث واربعون سنة . يقال إنه مات في بعض صيدهللظباء

---

(١) الطبري ج٨ ص١٣٦ (٣/٤٨٦)
(٢) نفسه ص ١٤٨(٣/٤٩٩)

أو لأكله بعض الطعام المسموم وهو في ماسبدان في طريقه إلى بلاد فارس لرد ابنه (الهادي) إلى طاعته !

الهادي موسى بن محمد بن عبد الله

(١٦٩ ـ ١٧٠هـ) = (٧٨٥ ـ ٧٨٦م)

نشأته : ولد الأخوان موسى ثم هارون لأبيهما المهدي في الري سنة ١٤٥ وسنة ١٤٨ من أم ولد جرشية (وجرش صقع في اليمن)اسمها الخيزران بنت عطاء أخذها من بيت حاكم طبرستان الثائر ... ويقال إنها كانت مملوكة لرجل من بني ثقيف باعها في مكة واستحسنها المنصور فاشتراها ووهبها لابنه المهدي فولدت له قبل سنتين من ولايته للعهد ابنه الاول موسى ثم هارون سنة ١٤٦ . وكان ذلك في الري ، مقر ولي العهد اثناء ولاية تلك الاصقاع .

ونشأ الاثنان في محيط مترف فظهر أثر ذلك في ثقافتهما وأخلاقهما، وقد صارت الخلافة الى موسى[1] وهو بجرجان يخمد ثورة هناك . وقد كان أبوه قد عينه لولاية المشرق كله من قبل فأخذ له البيعة

---

(١) ولدت ريطة بنت ابي العباس من زوجها المهدي ولداً اسمه علي . عرف فيما بعد بعلي بن ريطة . ولكنه كان الابن الثالث للمهدي فتقدم عليه موسى وهارون . وقد تزوج المهدي كذلك حين حج سنة ١٦٠ من رقية بنت عمرو العثمانية . ولعله كان زواجاً سياسياً قصد منه تآلف قلوب الانصار في المدينة . وكان مع المهدي في حجه هذا ابنه هارون في رعاية مربيه أبان بن صدقة الذي كان في الاصل كاتباً لأبي أيوب المورياني وزير المنصور . وقد نقل أبان بعد ذلك لخدمة موسى الهادي وجعل مكانه بجانب هرون : يحيى بن خالد البرمكي .

أخوه في بغداد • وكان موسى « طويلاً جسيما أبيض الشعر أفوه »
وتشترك كثير من المصادر بوصفه بالجرأة الشرسة وقسوة القلب •يقول
المسعودي « كان ••• أشد الناس بدناً وأجرأهم مقدماً في تسرع وجبرية
ينسب بهما إلى الهوج » كما عرف عنه الكرم المسرف : فقد تحدى مرة
أخاه هارون فأجابه جواباً مؤدباً يمتلىء بالعاطفة فأمر له بألف ألف
دينار وخمسمائة ألف متى وصل الخراج • ومنح ابن دأب ثلاثين
ألف دينار على أبيات أنشدها له فاستحسنها • وأعطى سلماً الخاسر
ثلاثمائة ألف درهم في قصيدة أعجبه منها هذا البيت :

لولا هداكم وفضل أولكم   لم تدر ما أصل دينها العرب !

وأكرم ابراهيم الموصلي بخمسين ألف دينار في ثلاثة أبيات أطربته •
وقال اسحق بن ابراهيم : « والله لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان
دورنا بالذهب ! »

سياسته العامة : كان في وصية المهدي لابنه أن يتبع سياسته في
تصيد الزنادقة والتنكيل بهم فتابع الهادي عهد أبيه في ذلك • وقتل جماعة
كبيرة منهم وقد شارك أباه بغضه للخوارج • ولكنه خالفه في موقفه من
الأمويين فقد كان يبغضهم وتهدأ نفسه إن ذكر قصص الفتك بهم كما
خالفه في موقفه من العلويين • يقول اليعقوبي إنه « جد في طلب الطالبين
وأخافهم خوفاً شديداً وقطع ما كان المهدي يجري لهم من الارزاق والاعطية »
وتطرفه هذا أثار عليه الحسين بن علي بن الحسين بن الحسن • وإذا
استطاع الهادي أن ينكل به وبجماعة من أنصاره في واقعة (فخ) وهي
أخت كربلاء وباخمرى فإنه من هذه الواقعة خرجت دولة الأدارسة
التي اجتزأت المغرب الاقصى من الدولة العباسية •

الوفاة : لم تدم خلافة الهادي اكثر من سنة وقرابة شهرين تنقصه

توفي وشيكاً في بغداد (أو في الحديثة قرب الموصل) وظروف هـذه الوفاة غريبة وإذا كانت إحدى الروايات تنسبها لقرحة في معدته فان الروايات الأخيرة تتهم بها أمه الخيزران ... فقد كانت كثيرة الدالـة في الدولة زمن أبيه والأشهر الأولى من زمنه ... فتضايق الهادي منها وكان شديد الغيرة على النساء وقال لها يوماً : « ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك ؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟ لئن بلغني أنه وفد ببابك أحد من خاصتي أو قوادي أو من خدمي لاضربن عنقه ! » « لاتخرجي مـن خفر الكفاءة إلى بداءة التبذل فليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملـك » . ويقال إن الخيزران احتملت هـذه الاهانة على مضض فلما كان أمر ولاية العهـد وخافت على إبنها الثاني هارون وكان « أحب إليها من الدنيا بجميـع مافيها » قررت الفتك به ولعله كان مريضاً كما يفهم من رواية الجهشياري فأوعزت لجواريها بخنقه وهو نائم ! والقصة التي يرويها يحيى البرمكي عن ليلة الحادثة تؤيد اشتراك الخيزران في الأمر (ربيع الأول سنـة ١٧٠) وهو « ليلة مات بها ــ كما يقولون ــ خليفة وجلس خليفة وولد خليفة » (المأمون) .

الرشيد هارون بن محمد بن عبد الله

(١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ ــ ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ)

(١٤ ايلول ٧٨٦ ــ ٢٤ آذار ٨٠٨ م)

نشأته : ولد الرشيد ، مع مولد بغداد سنة ١٤٦هـ ومن عجـب أن بقي الاسمان متلازمين دوماً في الاذهان يعضد أحدهما شهرة الآخر، منذ ذلك الوقت الى الآن . ولسنا نعرف الا القليل عن نشأة الرشيـد الاولى . التي كانت في الري وأوضح مافيها أن هارون نشأ مع أولاد

يحيى بن خالد البرمكي الذي كان على ديوان المهدي هناك وهما الفضل وجعفر كما رضع من أمهاتها • وحين عاد مع أبيه وأمه الى بغداد منذ سنة ١٥١ اختير لتربيته كبار العلماء كالشأن في غيره ••• غير أن هارون يظهر لاول مرة سنة ١٦٣هـ وهو في قرابة الثامنة عشرة قائداً لحملة تسير ضد البيزنطيين وتفتح بعض القلاع على الحدود • وكان المهدي قدبالغ في الحشد لهذه الحملة حتى زادت على تسعين ألف مقاتل كما بالغ في الانفاق على تجهيزها وإعدادها ••• وإذا لم تكن لهارون من تلك القيادة سوى المظهر الاسمي في الغالب فإنها على كل حال تدل على ما اصابه من مران عسكري ودربة مدنية كان لابد من توفرهما في افراد البيت الحاكم ونجد أباه المهدي إثر ذلك يزوجه من ابنة عمه زبيدة[1] ثم يعاود إرساله فجأة الى جبهة الروم في مائة الف مقاتل إثر هزيمة هزمها هناك أحد قواد الدولة (عبد الكبير بن عبد الحميد) ويرسل معه اكبر قواد الدولة يزيد بن مزيد الشيباني • ونجحت الحملة حتى أشرفت على البوسفور ويعود هرون بالنصر ليلقبه أبوه بالرشيد ويعقد له بتأثير من الخيزران ولاية العهد بعد اخيه موسى سنة ١٦٦ •

---

(١) ولدت زبيدة سنة ١٤٩ في حديثة دجلة (قرية جنوبي الموصل) وتوفي أبوها جعفر الاكبر بن المنصور سنة ١٥٢ فكفلها جدها وهو الذي سماها زبيدة لبياضها وقد تزوجت من الرشيد سنة ١٥٦ وولدت له الامين سنة ١٧٠ وتزوج الرشيد غيرها أمة العزيز أم ولده علي ، وأربعاً اخريات غير هاتين . وكان له من أبناء الجواري عشر أبناء منهم أبو اسحق المعتصم ، عدا البنات (انظر الطبري٨/٢٢٨) و ص٣٥٩(٧٥٧/٣) وقد ذكر الشابشتي في الديارات (طبع كوركيس عواد ـ بغداد ١٩٦٦ ص ١٥٧) أن « اسم زبيدة أمة العزيز وزبيدة لقب وكان أبو جعفر يرقصها وهي صغيرة وكانت سمينة ويقول : ما أنت إلا زبيدة فمضى عليها هذا الاسم» فهي إذن أمة العزيز الأولى وأم علي هي الثانية وتحملان اسماً واحداً •

ويستخلف الهادي سنة ١٦٩ فيعيش الرشيد تلك السنة خائفاً يترقب استياء أخيه منه ثم يشغر العرش فجأة فيستلمه هارون وهو ابن اربع وعشرين سنة •

شخصيته : ليس يسيرا أن نقرر نصيب الخيال في الصورة التي يعرفها الناس وتحفظها الكتب للرشيد ونصيب الحقيقة فقد امتزجت في اخباره روعة الخيال بحقائق التاريخ ومبالغة الاقاصيص فاجتمع له من الصفات المتباعدة ماندر أن يجتمع في شخص واحد •

فهو حيناً الخليفة الذي ينهمك في المجون ويشرب النبيذ وترقص في حضرته مائة من الجواري مرة واحدة في احسن هيئة ويبذل في جارية واحدة مائة الف درهم ويطرب للموسيقى والغناء منذ فتوته الاولى ويتعرض في ذلك لغضب ابيه الطروب أيضاً ، وله جمعت الاصوات المائة التي قام على اساسها ابو الفرج الاصبهاني كتابه (الاغاني) •• وهو حيناً آخر الخليفة الورع الذي تسقط الموعظة دمعه والذي كان يصلي في اليوم مائة ركعة الى أن فارق الدنيا « وكان يحج سنة ويغزو أخرى » فهو بين حاج وجهاد مدة خلافته حتى ليقول له الشاعر ابو المعالي الكلابي :

فمن يطلب لقاءك أمر يرده   فبالحرمين أو أقصى الثغور ••

ويتخذ قلنسوة كتب عليها : « غاز حاج » ••• ويبلغ به التقى أن يحج ماشياً فيكون أول من يفعل ذلك من الخلفاء • وأن يحج معه مائةمن الفقهاء وابنائهم وأن يتصدق كل يوم من صلب ماله بألف درهم•

ثم هو تارة الخليفة اللاهي المسرف في اللهو حتى ليقضي وقته

(١) الطبري ج٨ ص٣٢١ (٣/٧٠٩ـ٧١٠)

بين جارية ودن ، المنصرف عن تدبير الملك حتى ليحسد البرامكة على من اجتمع ببابهم من اصحاب الحاجات ، وهو تارة أخرى الخليفة الحازم اليقظ الذي يعس في الليل متنكرا يتفقد احوال رعاياه والخليفة الذي يشتكي إليه أحد أعوانه وهم في بعض الدروب مايلقون من عنت ومشقة وثلج والرعية نائمة فيجيبه الرشيد : اسكت ! على الرعية المنام وعلينا القيام !

وهو مرة العطوف المتلاف للمال الكثير الصفح والرحمة المتواضع حتى ليصب بنفسه الماء على يد ضيفه ابي معاوية الضرير . وهو مرة أخرى السفاك العنيف الحديد القلب حتى ليستحل دم اقرب المقربين دون خلجة ضمير والتياه الذي لايحتمل أن يرى يدا تعلو يده في الدولة أو تنتقص من سلطته المطلقة .

وقد يكون الرشيد هذا كله معاً وقد يكون يمثل بذلك عصره بما فيه من متناقضات وتطرف . والذي يظهر من وراء هذه الصفات أن عاطفة الرشيد المرهفة كانت تسيطر على تصرفاته ، وأنه كان انفعالي الطباع وسرعة تأثره بالموعظة أو باللحن أو بالغضب أو بالثقة هي التي كانت تلون نفسه لونا بعد لون . على أن المصادر تكاد تتفق على أنه كان صحيح التدين ، كريم الكف ، قائماً بواجبات منصبه كخليفة للمسلمين عليه الجهاد والامامة ، متمتعاً بما يجلبه ذلك المنصب من نعم ومن اتصال بالشعراء والعلماء والخاصة والرعية وكانت كل ناحية في حياته متممة للأخرى « فمتاع الجسد جزء من حياته يعدل كثرة الحج » ومع لهوه كان يجد الوقت الكافي للجهاد ولتفقد حال الناس ولتشجيع العلوم والفنون والترجمة .

وإذا كانت صفات الرشيد هذه نتيجة لطبيعته وتربيته وللعصر الذي عاش فيه فهي قد عادت فأثرت بدورها في ذلك العصر وكثير من اعمال الرشيد السياسية إنما تفسرها تلك الصفات .

ومن الواضح أنه اذا كان العصر الحديث قد حرم الشخصيات التاريخية من أن يكون لها الأثر الأول في توجيه التاريخ والاحداث فعصور التاريخ السابقة كانت تترك لهم المجال الواسع . واذا كانوا في الواقع ابناء الظروف المادية والروحية التي مهدت لهم وأوجدتهم فإنهم كانوا بدورهم يعودون فيؤثرون بتلك الظروف ويوجهونها . وهكذا تمثلت حيوية الدولة العباسية وتمثل مزيجها الاجتماعي والديني الذي لم يكن قد حان له بعد أن يصبح مركباً منسجماً ـ في الرشيدوأبرزه . فهو صورة للعصر والتطرف وهو سبب ونتيجة له في وقت واحد .

ولعل صورته تكون كاملة إذا نحن جعلناها مزيجاً من صفاته الشخصية (وابرزها الانفعالية السريعة) ومن واجبات المنصب الذي تولاه (كخليفة وإمام) ومن ظروف العصر والبيئة الكثيرة الخلائط التي وجد فيها (في العراق اذ ذاك) .

سياسته العامة : أعلن يوسف بن القاسم بيعة الرشيد على العالم الاسلامي بكتاب قال فيه بعد أن بين مكان العباسيين من بيت النبوة والدين « .. وهو (أي الرشيد) يعدكم من نفسه بالرأفة عليكم والرحمة بكم من الجائرة مما أفاء الله على الخلفاء مما في بيوت المال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً غير مقاص لكم بذلك فيما تستقبلون من اعطياتكم وحاملا باقي ذلك للذب عن حريمكم ومالعله أن يحدث في النواحي والاقطار من العصاة المارقين ... فاحمدوا الله وجددوا له شكراً يوجب لكم المزيد في احسانه اليكم بما جدد لكم من رأي امير المؤمنين ...ايده الله بطاعته ! » .

هكذا يبدأ الرشيد عهده بتوزيع المال : اعطيات اضافية للجند ؛ ويؤكد على سلطته المطلقة ويعد بالرأفة وبحفظ الأمن وبالدفاع عن الحدود ثم يسمع الناس بعد ايام أن البرامكة قد اصبحوا سادة الدولة بتكليف من الخليفة الذي قال ليحيى البرمكي : « ياأبت ! قد قلدتك امر الرعية وأخرجته من عنقي اليك ٠ فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت ٠٠٠ فإني غير ناظر معك في شيء » : ولكن هذا التقليد المطلق لم يحرم الخليفة من ممارسة التأثير على سير الدولة تأثيراً يختلف شدة وضعفا حسب الظروف ؛ ويذكر الطبري ويؤيده المؤرخون إن الرشيد « كان يقتفي آثار المنصور الا في بذل المال فانه لم ير خليفة قط قبله أعطى منه للمال » وقد يكون ذلك صحيحا في بعض نواحي السياسة وفي بعض الاحايين ولكنه خالف سياسة جده كثيراً في بعض النواحي الاخرى ٠ واهم الاسس في سياسته العامة :

١ ـ التقيد بالدين : فقد كان الرشيد ينظر الى الدين نظرة آل البيت اليه كأساس للدولة ؛ ويعمل على أن يتجسم فيه ذلك ، وما الحج والصدقات والجهاد والصلوات التي تدوم الليل كله سوى وجوه وتطبيقات لتلك النزعة كما كان منها اعماله في عمارة طريق الحج وكسوة الكعبة ٠٠٠ إلخ وقد اضاف الرشيد اليها ، في آخر ايامه شيئا من عدم التسامح مع أهل الذمة إذ أمرهم أن يلتزموا زيا معينا في اللباس يميزهم وأن لاترتفع بيوتهم عن بيوت المسلمين وهدم بعض الكنائس ولعله تأثر في هذا بالموقف الخارجي مع البيزنطيين ٠

٢ ـ التمسك بالسلطة المطلقة : يقول فيلبي : « إن هرون الاطاعية بمولده وتربيته والظروف المحيطة به ، فهو وارث فلسفة سياسية اتحدت

فيها على وجه غريب ظاهرتان متناقضتان : الأولى ديمقراطية فتية نبتت في جزيرة العرب ، والثانية تقليد خائر يتمثل في الملكية الفارسية المطلقة ..» ولعلنا لانحتاج لمثل هذا التعقيد ، في تفسير سياسة الرشيد . فقد كان كغيره من الخلفاء ومن الملوك القدماء في فارس وغيرها في التمتع بالسلطة المطلقة . ولكن طبع الرشيد الحساس ومزاجه الحاد جعلاغيرته على سلطته أبرز وأعنف ، وتصرفاته أكثر حدة وقوة ، كما في نكبة البرامكة.

٣ - عدم التدقيق في محاسبة العمال أو أمر البلاط : وقد خالف الرشيد في هذا ركناً من أهم أركان سياسة المنصور ، فانتهى ذلك به إلى مشاكل عديدة ، منها ثورة خراسان على واليهم الجائر علي بن عيسى ، ومنها انقطاع الشمال الافريقي عنه ، وظهور دولة الأغالبة ثم دولة الأدارسة . وإهماله لأمر البلاط ، هو الذي سمح للحريم بالتدخل في أمور الدولة ، كما أنه أدى لتكوين حزبين سياسيين في الحاشية: عربي وفارسي ، سيتزعمان الحرب الأخوية بين ولديه الامين والمأمون.

٤ - الصبر السياسي والتخطيط الهادىء : ويبدو أنه اكتسب هذه الصفات خلال السنوات الاولى لحكمه ومن خلال التفكير في مقامه السياسي الديني . ولعل أبرز الادلة على طريقة السياسة الصابرة المخططة عملية الخلاص من البرامكة وابعادهم عن السلطان في الدولة مرة بعد مرة قبل الخلاص النهائي منهم وعملية ولاية العهد الثلاثية وتوثيقها بين الاخوة وتعليقها في الكعبة لتأخذ الصبغة الدينية ، وإذاعتها في الناس لتكتسب الصفة الشعبية العامة .

وعملية القضاء على جيش خراسان البرمكي • وجعل الغزو والحج عملين دوريين ••• وإذا نجحت مخططاته كلها عدا مايتعلق بمنع الخلاف بين ولديه فلأنه مات فلم يستطع السيطرة على الظروف التي جدت بعد موته وجعلت ذلك الخلاف محتوماً ••• ومامن شك في أنه استخدم ونجح في استخدام كافة الاساليب والوسائل : العصا الغليظة والدين والمال والسيف والمكر والكتمان والتجسس والتهديد لجعل مخططاته السياسية كاملة النجاح •

وفاته : أخفى هرون علته بالسرطان ، إلا عن طبيبه ، واحتمل ألمه في مثل جلد الراوقيين ــ كما يقول فيلبي ــ وكان شاخصاً لنجدة قائده هرثمة فيما وراء النهر حين اشتدت به علته في مدينة طوس ، ومات فيها ودفن (صفر سنة ١٩٣) قريباً من البلد الذي ولد فيه دونأن يجاوز كثيراً السادسة والأربعين !

الامين محمد بن هارون

(١٩٣ ــ ١٩٨ هـ) (٨٠٨ ــ ٨٣٣ م)

المامون عبد الله بن هارون

(١٩٨ ــ ٢١٨ هـ) (٨١٣ ــ ٨٣٣ م)

أخوان • ولد أولهما محمد بعد أخيه عبد الله بستة أشهر • وكان عبد الله قد ولد ليلة استخلف الرشيد من إحدى جواريه (مراجل) الفارسية • وأما والدة محمد فزبيدة حفيدة أبي جعفر المنصور •

وقد نشأ الولدان بين أيدي الترف ، إذن ، وتحت رقابة الخليفة وزوجه • وعني الخليفة الرشيد خاصة بتربيتهما دون غيرهما من أولاده، فاختار لهما في الأدب والعلم أكبر رجال عصره :فكان الاصمعيوالكسائي

وقطرب النحوي وحماد عجرد لتأديب محمد ، وكان أبو محمد الزيدي والحسن اللؤلؤي لعبد الله • واختار لهما أعظم رجال الدولة ليتمرسا بالحكم فكان محمد في وصاية الفضل بن يحيى البرمكي وعبد الله عند جعفر بن يحيى •

وقد بكرت المنازعات تطوف بالأخوين ، إذ كان البلاط العباسي قد بدأ يشهد مولد حزبين واضحين متنافسين ، لعلهما برزا من زوجتي الرشيد الوالدتين ومن وجود كتلتين من الرجال حول الخليفة : كتلة هاشمية عربية ، وأخرى برمكية فارسية •

وقد أرادت الكتلة الهاشمية ، وعلى رأسها زبيدة ، أن تسجل نصرا سياسياً تعتبره من حقها • ضد الكتلة الأخرى ، بإعلان ولاية العهد لمحمد الأمين (الهاشمي أماً وأباً) ، فعقد الرشيد الولاية له سنة ١٧٥ وعمر الأمين خمس سنوات • ولم تستطع الكتلة الفارسية أن تصل إلى نصر مماثل إلا في سنة ١٨٣ ، حين جعل الرشيد للمأمون وعمره ثلاث عشرة سنة ، ولاية العهد الثانية بعد أخيه • ثم جعل الولاية الثالثة لابنه القاسم ولقبه المؤتمن سنة ١٨٦ •

ويظهر أن الأمر قدحز في نفوس الحزب العربي وبلغ من خطره أن اضطر الرشيد في تلك السنة ١٨٦ ، أن يستوثق من كل أخ لأخيه في الكعبة نفسها ، حيث علق العهد بالتوليات • وزاد على ذلك بأن جعل لكل منهم ، مايحكمه ومايتدرب به على الإدارة والحكم • فكان الأمين وكيل أبيه في بغداد حين غيابه ، بعد أن كان من قبل صاحب الجناح الغربي من الدولة • وكان للمأمون ولاية خراسان وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور • وإذا كان اختيار بغداد للامين أمراً طبيعياً ، فإن اختيار

خراسان للمأمون ـ وهو ابن الفارسية ـ كان في الغالب نتيجة بعض المساعي الفارسية في البلاط العباسي .

اخلاق وسياسة الأمين : تأثرت سياسة الأمين لحد كبير بأخلاقه الشخصية وتصرفات حاشيته . على أن الصورة التي تروى عن تلك الأخلاق في معظم الكتب التاريخية ، صورة مشوهة في الغالب ، وقد لعبت الدعاية ، التي نستطيع أن ندعوها بالمأمونية أو الفارسية ، دوراً كبيراً في تشويه سمعة الأمين . ولو راجعنا ماكتبه الطبري[1] عنه ، لرأينا عجباً من الاخبار التي لاتصدر إلا عن مأفون ، أو من به لوثة : يذكرون من قصص فساده وخلقه المائع ، مثلاً أنه كان يصطاد السمك وبغداد محاصرة من جيوش أخيه ، وجاءه من يخبره أن المدينة استسلمت فأجاب: ويلك ! دعني فإن كوثر (خادمه) قد صادسمكتين وماصطدت غير واحدة !![2] .

ويذكرون أنه بعث ليلة تولى الخلافة ، في طلب الملهين من كل ناحية، وأنه في اليوم التالي لبيعته أمر ببناء ميدان حول قصر الخلافة (قصر ابي جعفر) للصوالجة واللعب وأنه تسبب في معركة من أجل خادم جميل تركي ، وأنه قاد بنفسه في ليلة أنس جوقة من مائة جارية[3] عدا ماذكروا من أخبار الحراقات التي ابتناها في دجلة على أشكال الحيوان وأخبار المتنزهات والفسق النواسي وغيره ... ويمكن أن نلخص تحامل المصادر

---

(١) ينقل بعض هذه الاخبار صاحب عصر المأمون (ج١ ص٢٠٠ وما بعدها) .

(٢) هذه هي رواية المسعودي (مروج ٢/٣٠١-٣٠٢)والطبري يروي مثلها (ج٨ ص٣٩٥-٣/٨٠٣) ولكنه يذكر انها كانت حين وصل خبر هزيمة جيشه امام أخيه .

(٣) انظر الأغاني ج١٦ ص١٣٣

التاريخية عليه في الكلمة التي لخص بها ابن الاثير أمره إذ قال : « لم نجد له ما نستحسنه فنذكره ! » . ويظهر أن أسباباً عديدة تدعو للشك في هذا الذي يروى . وأن أخلاق الأمين لم تكن من السوء بذلك الدرك، وإنما جاءت سمعته المشوهة من :

١ ـ الدعاية المأمونية : ويمكن أن يعرف مقدار التلفيق في بعض أخبارها ، من عرض تلك الأخبار على النقد التاريخي . فهم يذكرون مثلاً من رأي الرشيد في ولديه . مارواه المسعودي ، من أنه قبل العهد للمأمون قال الرشيد عنه : « إني أرضى سيرته وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته » . وقال عن محمد الأمين : « فيه مافيه من الانقياد لهواه والتبذير لما حوته يده ومشاركته النساء والإماء في رأيه » . وكان عمر الأخوين أقل من ١٣ و١٢ سنة فقط !! .

ويذكرون كلمة مثلها للرشيد في ابنه الأمين قبل العهد له ولم يكن عمره آنذاك أكثر من خمس سنوات !

ويذكرون تأييداً لذلك ، حلماً منظم الرواية يقولون فيه : إن زبيدة رأت فيه ، فيما يرى النائم ، أربعة من الملائك يحفون بسرير ابنها وهو طفل ويقول أولهم : « ملك قصير العمر ، ضيق الصدر ، عظيم الكبر ، واهي الأمر ، كثير الوزر ، شديد الغدر » . ويقول الثاني : « ملك قصاف ، مبذر متلاف ، قليل الانصاف ، كثير الاتلاف » ويقول الثالث : « ملك ضخم ، قليل الحلم ، كثير الأثم ، قطوع للرحم » . ويقول الرابع: « ملك غدار ، كثير العثار ، سريع الدمار[1] » ... الخ . ويشبه أن يكون هذا الحلم بما فيه من صفات مسجوعة ، ملخصاً لرأي المصادر المختلفة في الأمين ، حبكها مؤلف متأخر العصر .

---

(١) يراجع في الاخبار الطوال للدينوري

٣ ـ المبالغة في أعمال الامين : فليس غريباً على خليفة يأتي بعد الرشيد أن يمازج حياته شيء من اللهو ، وشيء من السرف في اللهو أيضاً . ولقد كان الأمين يلهو كأبيه ، فبالغوا في ذكر لهوه ليبرروا مصرعه على أيدي جنود أخيه .

وليس غريباً على الأمين أن يكون كريم اليد كغيره من الخلفاء العديدين ، إلا أن خسارته لقضيته جعلت من كرمه نقيصة من النقائص ، ولو نجح لكان ذلك فضيلة وعد من أسباب نجاحه . وكان طبيعياً الى هذا وذاك ، أن يستمع الأمين لحاشيته ، كغيره ، فلما انهزم اعتبر ذلك منقصة له ، وحملت عليه أخطاء حاشيته كلها .

٣ ـ أخلاق الامين نفسه : فقد كان ميالاً للاستفادة من ترف الخلافة والقصص في ذلك عديدة ملونة . وكان قليل الحزم السياسي ، لايفهم الواسطة التي تبررها الغاية . فقد كان ولدا أخيه المأمون ، عند الثورة واللجاج في العنف ، عنده في بغداد فرفض أن يقبض عليهما ويتخذهما رهائن لديه . ولقد ثار عليه الحسين بن علي بن عيسى ابن ماهان وخلعه فعفا[1] عنه وجعله قائداً له حتى فتكت به الحاشية فيما بعد ولو كان ذلك للمنصور لفتك به هو نفسه فوراً . وكان لايحسن اختيار حاشيته ، حتى لقد انفضوا من حوله عند الشدة . كما كان يؤمن بالنجوم ، اكثر قليلاً من غيره ، وبكلمة واحدة كان غير ذي دربة في السياسة عامة أو على الأصح غير مهيأ للسياسة المكيافيلية التي استخدمها أخوه المأمون أذكى الاستخدام ضده .

وقد خذله الناس لانه لم يعرف كيف يستغل نقاط القوة في موضعه ضد اخيه فظهر كأنه خذل دون سبب ..

(١) الطبري ج٨ ص٤٢٩ـ٤٣١ (٣/٨٤٧ـ٨٥١)

وهكذا اذن لم يكن الامين بحيث وضعه المؤرخون من الفساد والبله ، وخصومه قالوا عنه انه « مخذول » ولم يقولوا إنه «ضعيف» ولو نشرنا جميع اخباره في صعيد واحد لتبين لنا وجه آخر للأمين قلما اتنبه له المؤرخون مع وجوده بين ايديهم ، نقرأ مثلاً في وصيته لعلي ابن عيسى بن ماهان حين سار بالجيش الى خراسان ما يلي :

« .. امنع جندك من العبث بالرعية ، والغارة على اهل القرى ، وقطع الشجر ، وانتهاك النساء ، وولّ الري يحيى بن علي، واضمم اليه جنداً كثيفاً ، ومره ليدفع الى الجند ارزاقهم مما يجيء من خراجها ، وولّ كل كورة ترحل عنها رجلاً من اصحابك ، ومن خرج اليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهر إكرامه ، وأحسن جائزته ، ولاتعاقب اخاً بأخيه ، وضع عن اهل خراسان ربع الخراج ، ولاتؤمن احداً رماك بسهم ، أو بأصحابك برمح[1] .. »

ولدينا بعض الاخبار التي تذكر سهر الأمين الليل في إدارة الدولة وحزن بغداد عليه حين قتل كما أن في بعض مارثي به من الشعر دليلا على بعض صفاته – برغم مافي الشعر من الكذب الحلال في العادة – :

قالت لبابة بنت علي بن المهدي فيه :

ابكيك لا للنعيم والانس بل للمعالي والرمح والترس

وقال الحسين بن الضحاك :

ياخير أسرته – وإن زعموا –

إنـــي عليـــك لمثبت أســف

هتكـوا بحرمتك التي هتكت

حـرم الرسول ودونها السجف

---

(١) الطبري ج٨ ص٤٠٦ (٨١٩/٣)

وقال :

سنندب بعدك الدنيا جواراً
ونندب بعدك الدين المصونا
هو الجبل الذي هوت المعالي
لهدته وريع الصالحونا

ومثل هذا الشعر جدير أن يكون من أقذع الهجاء لو صح مايذكرونه عن الأمين من البله والتهتك والاهمال للدولة .

ومن هذا نستطيع أن نلخص الأمين في نقطتين :

الأولى : ميل الى اللهو انتج بعض الاهمال لمشاكل الدولة مما سمح للحاشية بالتدخل ، وسمح للحريم ، كزبيدة ، أن يكون لهن رأي ونفوذ في دست الحكم .

الثانية : فشل في اختيار الأعوان خاصة . لاحظه المأمون نفسه فذكره في كلمة أطلقها ليغسل يده من دم أخيه ويبرىء ساحته أمام التاريخ إذ قال :

« أما إنه أول من يؤخذ بدمه (دم الأمين) يوم القيامة ثلاثة : الفضل بن الربيع وبكر بن المعتمر . والسندي بن شاهك . هم والله ثأر أخي وعندهم دمه » .

وهذا الهرب من الجريمة ، رغم مافيه من محاولة التبرئة ، يستند الى واقع الأمر فأبرز رجال الأمين هم الفضل بين الربيع الذي اختبأ في الأزمة الاخيرة . والحسين بن علي بن عيسى الماهاني الذي ثار على الأمين في بغداد ثم قبض عليه وسجن والعباس بن عيسى بن موسى الذي

بايع المأمون سراً وصار عيناً له على الأمين ، يقول شاعر معاصر :

أضـــاع الخلافـــة غش الوزير
وفسق الامـــام وجهـــل المشير
ففضـــل وزيـــر وبـــكر مشير
يريـــدان مافيـــه حتف الأمـــير

وقد وضع الأمين ثمن ذلك دمه • فقتله جند طاهر بن الحسين على نهـــر دجـــلة !

سياسة المأمــون : تجمع المصادر التاريخية على امتداح المأمون منذ طفولته ووصفه بالذكاء الخارق • وتشبيهه بالمنصور في الدهـــاء والتدبير مع العلم أن ثمة الكثير من الاشارات التي تؤكد أن المأمـــون كان مكروهاً من الناس ولاسيما في بغداد وأنه كان يجد الرقاع بشتمه في الطريق أو يسمعها بنفسه ولعله ظل منكسراً منذ علقت به جريمة قتل أخيه •

ويمكن أن نجمل الخطوط السياسية الكبرى في عهده بنقاط أربع كان لها أثر كبير ، لا في عهد المأمون فحسب ولكن في التاريخ الاســـلامي كله :

١ــ السياسة الغائية (المكيافيلية) فقد استخدم كل وسيلة للوصول الى غرضه بصرف النظر عن « اخلاقية » تلك الوسيلة • حارب بالدعاية التي مايزال جناحها الأسود يلاحق الأمين في مصادر التاريخ الى اليوم • واستغل أخلاق أخيه ليرفع من مكانته هو عند الناس • وحالف العلويين حين احتاجهم ثم لما اضحوا عبئاً عليه ، عند انتقاله الى بغداد ، تخلص منهم

وسمم (علياً الرضى) احد ائمة العلويين وهو في الطريق بعدأن كانجعل له ولاية العهد من قبل • واستخدم بني سهل حتى اخذ الخلافة ثم نكبهم نكبة اعادت الى الاذهان بعض صور النكبة البرمكية • واستفاد من خؤولته في أهل خراسان حتى صار الى بغداد فلما تمكن بها لم يعد يسأل عنهم !! ولعل أهم ماصطنعه من الوسائل : التجسس والاستخبار على الناس بجهاز كامل واسع من المخبرين يقول ابن ظافر الازدي المؤرخ: « جعل المأمون برسم الأخبار ألف عجوز ببغداد وسبع مائة عجوز فما كان يخفى عنه شيء من أمور الناس ظاهراً وباطناً • وكان لاينام كل ليلة حتى يقف على جميعها ••• »[1]

٢ ـ مزج الدين بالدولة مزجاً لعله اقتبس فكرته عن بيزنطة في تلك الأحيان بالذات حين كانت المشكلة اللاأيقونية على أشدها أو عن المثل الساساني بتنظيم الزارادشتية في ظل الأكاسرة فقد أعلن المأمون تبني الدولة رسميا للمبدأ الاعتزالي في (خلق القرآن) وفرض هذا المبدأ على الناس بالقوة وحملهم عليه مرغمين وعقد له مجالس الجدل • حتى لقد أضيف ذلك القول الى الشهادة بالوحدانية (لا إله إلا الله صاحب القرآن المخلوق !!) وعزل من لايقول بذلك من القضاة وأهين • ولأول مرة يتدخل خليفة المسلمين في أمر العقيدة هذا التدخل الاساسي العنيف ولأول مرة يصدر أمر من أمير المؤمنين باعتناق فكرة معينة واعتبارها مذهب الدولة الرسمي الذي يعاقب مخالفوه • وقد كان الخليفة قبله يشرف على تطبيق أحكام الدين واعلاء كلمته فأصبح المأمون فقيه الدولة الرسمي !

---

(١) انظر ابن ظافر الازدي ـ الدول المنقطعة (مخطوط المتحف البريطاني) ورقة ١١٧ ظهر .

٣ ـ افساح المجال للفرس أول الأمر ثم اهمالهم في الدولة : فقد كانت ام المأمون فارسية • ونشأ الفتى ليرى نفسه وسط حزب فارسي في البلاط الخلافي ، ثم كان مقر عمله في خراسان حتى استخلف ومعظم من كان في حاشيته كان من الفرس وأبرزهم الفضل بن سهل الذي بلغ من أثره أ ناعتبر المؤرخون الخلاف بين ولدي الرشيد خلافاً بين الفضلين (ابن الربيع وابن سهل)واعتبروا نصر المأمون نصراً للفرس على العرب •ولكن المأمون لم يحقق للفرس (او لبعض الطامحين منهم على الاقل)غايتهمفي النهاية فتحول بعد سنوات من خلافته عن خراسان كلها وعن الفرس جميعاً فانتقل الى العراق وأهمل الخراسانيين فكانذلك خاتمة عهد التعاون بين اهلخراسانوالعباسيين • كما كانت نكبته لبني سهل الذين كانوا يمثلون الأرستقراطية الفارسية نهاية اتفاق تلك الأرستقراطية مع الخلافة العباسية وبدء اتفاقها مع الجماهير الفارسية ضدها لا سيما بعد أن يئست هذه الجماهير من الرفاه العباسي المأمول • وبهذا الشكل بدأت تنشأ الإمارات شبه المستقلة في إيران (كالطاهرية والصفارية والسامانية) وبلغت الحركة الانفصالية أوجها بظهور البويهيين ثم دخولهم بغداد سنة ٣٣٤هـ والسيطرة بالعكس على الكرسي الخلافي كله وماضم !

٤ ـ تألف القلوب بالعفو والعطاء : وهو مذهب في السياسة عرف عن المأمون وسجله له المؤرخون • يقول اليعقوبي : « وكان أكرم الناس عفواً وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال وأبذلهم للعطايا •• » ثم يعدد من عفوه سبع عشرة حادثة يستحق صاحب كل واحدة منها لدى أمثال المنصور القتل ولكنها قوبلت من المأمون بالعفو : كالذي كان من العفو عن ابراهيم المهدي وقد بقي خليفة سنتين ، وعن نعيم بن حازم الذي حاربه سنين وعن سهل بن سلامة المطوعي الذي كان يدعوالناس

لخلعه وعن مهدي بن علوان الخارجي الذي حاربه وعن دعبل الشاعر الذي هجاه وعن عدد من العلويين الثائرين وعدد من المتسلطين في الاقاليم ... كما عدد اليعقوبي أخبار جوده بالمال لدرجة إفراغ بيت المال وذكر أنه أمر في يوم واحد لثلاثة نفر بألف ألف دينار وخمس مائة ألف دينار لكل واحد خمس مائة ألف دينار ثم جاءه بعده ذلك مال خراسان وكان على عزم أن يستقرض عشرة ملايين درهم من التجار ، وكان هذا المال ثلاثين مليون درهم فركب ليراها ولم يعد من رؤيتها الا وقد فرقها جميعا وهو راكب ... ثم عاد[1] وأعطى مرة عامله ابن عباد على الهند ستة ملايين درهم كان عاد بها اليه .

٥ ــ العناية بالعلم والعلماء : فقد كان للمأمون ولعه الشخصي بالامور العلمية الفلسفية وكان يعقد مجالس المناظرة في حضرته ويبعث في طلب العلماء الاعلام لحضورها حتى من بيزنطة ، وكان يتصيد الكتب النادرة ويدفع فيها المبالغ الطائلة ويجعل بعضها شرطاً من شروط الهدنة مع الروم كما اقام (دار الحكمة) فجمع فيه مكتبة ضخمة هائلة وجهازاً كبيراً للترجمة من مختلف اللغات الى اللغة العربية ، حشد له حوالي سبعين مترجماً . ولقد أدى هذا العمل الى ظهور عصر الترجمة الثاني ، في تاريخ الفكر الاسلامي أو الى التعجيل في ظهوره على الاقل كما مزج الثقافات المختلفة مزجاً قوياً وأغنى اللغة العربية بتراث فكري واسع وعجل كثيراً في ظهور ما نسميه بالثقافة الاسلامية .

وفاته : بالرغم من أن المأمون كان عالما ولم يكن محاربا إلا أنه قضى له أن يتوفى وهو في الطريق الى عمل حربي . فقد حم في بعض دروب الروم وتوفي فدفن بطرطوس سنة ٢١٨هـ .

---

(١) انظر اليعقوبي ــ مشاكلة الناس لزمانهم (تحقيق وليم ميلورد ــ بيروت سنة ١٩٦٢) ص ٢٨ــ٣٠ وانظر كذلك الطبري ج٨ ص٦٥٢ــ ٦٥٣ (١١٤٣/٣ــ١١٤٤)

الفصل التاسع



١- ولاية العهد

برزت في فترة الاستقرار هذه من العصر العباسي الاول ، مشاكل الحكم إلى المرتبة الاولى • فأصبحت أهم قضايا الدولة • ولعل أبرزها: مشكلة ولاية العهد ومشكلة الاسر الوزارية الايرانية • وكان لدسائس رجال البلاط في الحالين وتناحرهم اكبر الدور في تلك المشاكل •

ولايــة العهـــد :

المهدي وولاية العهد : إذا كانت المشكلة السياسية الاولى في العهود الاسلامية هي مشكلة الخلافة فان أبرز مظهر من مظاهرها عدم وضع نظام ثابت لولاية العهد • وإذا كان من العرف الملكي المتبع والمقبول أن يلي الابن الأكبر أباه في الحكم فان من غلطات الخلفاء ، منذ العهد الاموي ، أنهم كانوا ينساقون مع العواطف الابوية فيعهدون بالولاية الى ولدين أو أكثر من أولادهم بالتتابع مما يوجد بذور الحقد في الاسرة لأن الابن الذي يصل الحكم دوماً يفضل ابنه على اخيه • وإذا لم يفعل

ذلك أبو العباس فقد فعله أبو جعفر واستطاع إزاحة عيسى بن موسى (المعين من قبل أبي العباس معه لولاية عهده) لمصلحة ابنه محمدالمهدي على أن يكون عيسى من بعده .

وواجه المهدي منذ الايام الاولى لخلافته مشكلة إزاحة عيسى مرة أخرى لمصلحة ابنه الفتى موسى (الهادي) وتكررت مرة أخرى قصة عيسى مع المنصور بحذافيرها .

كان عيسى ليلة وفاة المنصور قد تمنع عن مبايعة المهدي . «فاقبل القواد الذين حضروا يقربون ويتباعدون ... فنهض علي بن عيسى بن ماهان فاستل سيفه ثم جاء إليه فقال : والله لتبايعن أولأضربن عنقك . فلما رأى عيسى ذلك بايع وبايع الناس بعده ... »[1] ولعل هذا كان السبب في استعجال المهدي بازاحة عيسى نهائيا عن ولاية العهد .فتحرك وتحرك معه بعض بني هاشم وشيعتهم من خراسان في ذلك ... بعد أن رسم لهم المنصور الطريق بالدعاية المبدئية للامر . ويقرع الخبر اسماع عيسى فيتهيأ للرفض والمقاومة وجمع الأنصار ويبدو أنه كان في بني هاشم من يؤيده وقد تلكأ بعضهم في بيعة المهدي لولا أن الربيع الذي كان يعرف دخائل نفوسهم جمعهم ساعة موت المنصور فأوهمهم أنه حي وأن لديه وصية منه قرأها عليهم وأخذ البيعة منهم للمهدي أولا ثم كشف لهم عن موت الخليفة بعد ذلك[2] ....

على أن المهدي لم يمهل عيسى وأسرع في مفاتحته بالتنازل وهو

---

(١) انظر الطبري ج٨ ص١١٢ (٣/٤٥٥)
(٢) الطبري ج٨ ص١١١ (٣/٤٥٤)

في ضيعة له بالرحبة على الفرات . وكان طبيعياً أن يأتي الجواب بالرفض . فدعاه المهدي أن يأتي بغداد فلم يفعل مخافة الغدر به . وترددت المفاوضة والرسل بين الطرفين وكتب المهدي كما يقول الطبري الى عيسى يقول: «...إنك إن لم تجبني إلى أن تنخلع منها حتى أبايع لموسى... استحللت منك بمعصيتك مايستحل من العاصي وإن أجبتني عوضتك منها ماهو أجدى عليك وأعجل نفعاً ...»[1] وعرض عليه مبلغ عشرة آلاف درهم ويقال عشرين وقطائع كثيرة ..

وطالت المفاوضة دون طائل . واستقر عيسى في الكوفة فأرسل إليه المهدي عمه العباس بن محمد يقنعه فلما أصر على الرفض أرسل إليه بقائده أبي هريرة محمد بن فروخ الازدي يأتي به طوعاً أو كرهاً ، ومعه ألف رجل من أصحابه من ذوي البصيرة في التشيع (لبني العباس) وجعل مع كل رجل منهم طبلا ... فدخل الكوفة ليلا في وجه الصبح وضرب أصحابه بطبولهم جميعا (في وقت واحد) فراع ذلك موسى روعاً شديداً ثم دخل عليه أبو هريرة فأمره بالشخوص فاشتكى العلة فلم يقبل ذلك منه وأشخصه من ساعته الى مدينة السلام ... »

وفي السادس من محرم سنة ١٦٠ وصل قصر الخليفة واستقبله ولكنه لم يكلمه في الأمر وتركه للحرب النفسية والتهديد والشتائم يشنها عليه أنصار المهدي أياماً متتالية[2] حتى هدد بالقتل والاهانة فارتضى الخلع في ٢٦ محرم وخطب بذلك في المسجد الجامع وكتب العهد بالتنازل

(١) الطبري ج٨ ص١٢١ - ١٢٣ (٣/٤٦٧-٤٦٩)

(٢) انظر الطبري ج٨ ص١٢٤-١٢٨ (٣/٤٧١-٦) وقد ذكر الطبري نص وثيقة التنازل أيضاً .

في صفر سنة ١٦٠ وعاد بالمال لينزوي في قصره بالكوفة ... وأعلنت البيعة بولاية العهد لموسى الهادي وكتب إلى الآفاق يأخذ البيعة له ...

وقد لام الكثيرون عيسى على موقفه الذي باع فيه حقه وقال شاعرهم :

كره الموت أبو موسى وقد
كان في الموت نجاء وكرم
خلع الملك وأضحى ملبساً
ثوب لوم ماترى منه القدم ...

والحقيقة أنعيسى كان في حوالي الستين من العمر ولم يكن له مع شباب المهدي وقوة سطوته ومظاهرة الناس والقوى له من أمل كبير في أن يخلعه بعده من الخلافة إلا بصدفة يختصر فيها المدي اختصارا ولهذا آثر العافية مرغماً ... ولقد توفي فعلا في خلافة المهدي سنة ١٦٧ فلم يشهد خلافة الهادي من بعده .

ولقد أخطأ المهدي بعد ذلك خطيئة بعض الخلفاء غيره فخضع لتأثير زوجته الخيزران ولعواطف الابوة معا ولدسائس الحاشية فعقد ولاية العهد الثانية بعد ابنه موسى لابنه هارون في رجب سنة ١٦٦/ شباط ٧٨٣ . وقد لعب الدور في هذه التسمية أمه الخيزران ويحيى ابن خالد البرمكي و ... النصر الذي انتصره هارون على الروم تلك السنة . وقد لقبه أبوه في حفل ولاية العهد بالمسجد الجامع أمام أمراء بني هاشم وقواد الدولة ورجالها بالرشيد ! .

ويبدو بوضوح أن النصر الذي حققته الخيزران وحزبها بايصال

الرشيد إلى ولاية العهد الثانية لم يكن المطمح الوحيد الذي يرجونه فما كادوا ينتهون من هذه الخطوة حتى بدأوا يهيئون للخطوة التالية :تقديمه على أخيه ولي العهد الاول ويبدو أن المهدي نفسه لم يكن يمانع في هذه الفكرة أو أنه على الأقل كان يرى قوة الجماعة المؤيدة لهارون فيسايرها بينما كان موسى الهادي ، في جرجان يحارب بعض الثائرين فيها . وبالرغم من أن حزبه كان يضم عددا من أمراء بني العباس (عبد الملك بن صالح موسى بن عيسى ، العباس بن محمد) كما يضم بعض كبار الدولة (ابان بن صدقة ، الفضل بن الربيع ، علي بن عيسى بن ماهان) وبعض كبار القواد (يزيد بن مزيد الشيباني ، محمد بن فروج الازدي ، عبد الله بن علاثة ، عبد الله بن خازم) إلا إن غيابه عن العاصمة كان يترك المجال واسعاً لحزب هارون .

وخطى المهدي خطوته الاولى في هذا السبيل مع أنه كان يعلم من تجربته الخاصة ماذا تعني تلك الخطوة فانه سمع مرة خطأ بأن أباه المنصور يفكر بنقل الخلافة الى ابنه الآخر جعفر (المعروف بالاصغر) فارسل الى أبيه يقول : « والله إن فعلت ذلك لاقتلنه وقال المنصور : لقد سمعت خطأ ونحن أشفق على جعفر من أن نعرضه لك[1] ... » وأرسل المهدي الى ابنه بجرجان « بعض أهل بيته ليقطع أمر البيعة ويقدم الرشيد فلم يفعل ... فبعث إليه المهدي بعض الموالي فامتنع عليه موسى من القدوم وضرب الرسول ... »[2] ولم يجد المهدي بدا من الخروج بنفسه لاقناع ابنه بما يريد ... ولم يكن قد جاوز بغداد بعيدا حين ... مات

---

(١) الطبري ج٨ ص ٦٨-٦٩(٣/٤٠٠)

(٢) الطبري ج٨ ص١٦٨(٣/٥٢٣)

فجأة كان قد عسكر في ماسبذان قرب النهروان وتمت عليه دون شك هناك المؤامرة « البلاطية » من حزب الهادي • ولايصرح المؤرخون بهذه المؤامرة ولكن اختلافهم في تعليل موته المفاجىء يكشف الريبة التي لا يصرحون بها ، وتخبط الروايات ناجم دون شك عن تعمد الرواة الاوائل لهذا الحادث اضاعة آثار المؤامرة • فتارة أن المهدي طرد ظبياً في الصيد فسقط عن فرسه وهو يطارده وتارة أنه مات في كمثراة مسمومة وأخرى من لوزينج مسموم ••• ويبدو أن الرواية الاخيرة كانت الاكثر شيوعا بين الناس لان الجهشياري يذكر في بعض الحديث : « أن المهدي أكل من اللوزينج المسموم المشهور خبره فمات من وقته • ويقال من الكمثرى •••»[1] •

وليس طبيعيا أن تظل أسباب موت خليفة الناس في ذلك الوقت مجهولة لولا أن مصالح معينة لمن جاؤوا بعده كانت تقضي ببقائها مجهولة وقد أشارت المصادر إلى مخاوف بعض هذه الجماعات كما ذكرت حدوث الشغب والاحراق لأبواب بعض الكبراء في بغداد[2] ••• ولكن الاموال التي وزعت غطت على كل شيء ••• ويلاحظ أن مؤلف كتاب الامامة والسياسة يتهم الهادي بصراحة أنه « دس على أبيه بعض الجواري المتمكنات منه فسمته » وأن المهدي أحس بمؤامرة ابنه الهادي[3] •

---

(١) الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص ١٦٨

(٢) انظر الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري ج٢ ص٢٩٠ و ٢٩١

(٣) انظر الطبري ج٨ ص١٨٧ ــ ١٨٨ (٣/٥٤٥ ــ ٥٤٧)

ويبدو أن هذه الجريمة المطموسة المعالم لم تكن الوحيدة التي تسببت فيها مشكلة ولاية العهد فان الهادي نفسه كان ضحية الجريمة التالية ... المطموسة المعالم بدورها أيضاً : فالذي يظهر من الاحداث أن حزب الرشيد وعلى رأسه يحيى بن خالد البرمكي أراد فوراالتصرف بحكمة والاحتياط والحيلولة دون حرب أهلية تمزق الدولة بعد أنفشل مشروع نقل ولاية العهد بالقوة الى الرشيد .

وبعد أن سجل الحزب الآخر نصره بمصرع المهدي نفسه ،لاسيما وان ماكان يسعى اليهالرشيد قد حصل فعلا الان . فهو ولي العهدالفعلي والأول للخليفة الجديد الهادي . وهكذا فيما يبدو وطد الرشيد الأمور لأخيه في بغداد وأخذله البيعة من الناس وبعثإليه بشعائر الخلافة مع البيعة ... فلما عاد الهادي من جرجان بعد ١٨ يوماً الى عاصمته كان يحيى بن خالد البرمكي أول من قدم له آيات الولاء والخضوع والبيعة.

الهادي وولاية العهد : وخلافة الهادي القصيرة تميزت فيما يتعلق بولاية العهد بامرين :

الاول إزاحته لنفوذ أمه الخيزران وضغطه الشديد على حزبها وتدخله في الدولة .

الثاني : محاولة التخلص من ولاية عهد أخيه وتحويلها ، كالعادة ، الى ابنه جعفر .

وعادت المشكلة من جديد حين استشار الهادي أصحابه في عزل أخيه وتقديم ابنه جعفر وكان لايزيد في العمر على ثماني سنوات . ومع أن بعض الحاشية من أمثال يزيد بن مزيد الشيباني ومحمد بن فروخ الازدي وعلي بن عيسى بن ماهان وافقوا على ذلك وبرروه بأن يحيى

ابن خالد متسلط على الرشيد وأن الملك لا يصلح إن انتقل اليه وهذا بجانبه[1] إلا أن آخرين لم ينصحوا الهادي بذلك وابرزهم الفضل بن الربيع صاحب الهادي المقرب اليه وابراهيم بن ذكوان الحراني من رجاله البارزين الذين أغضبوا أباه المهدي من أجله . وكان الفضل يحب الرشيدويتودد الى زوجه زبيدة لفضل جدها المنصور عليه وعلى أبيه الربيع بن يونس كما كان ابراهيم الحراني يميل الى يحيى البرمكي وقد عين له بعض أنصاره (اسماعيل بن صبيح) على زمام الشام فكان ينقل أخبار الهادي وجماعته الى البرمكي[2] ...

ولكن الهادي صمم على خطوته وطلب من أخيه هارون التنازل طوعا مع الوعد بالخير الجزيل . على العادة الدائمة وعزم هارون على إجابته فمنعه يحيى بن خالد وقال : « إنها الخلافة ولعل ماتقدر أنه يبقى لك (من المال والاقطاع) لايبقى ... ولم يزل به حتى ثبته »[3] ...

وسمع الهادي بذلك فاستدعى البرمكي وأكرمه بالاقطاع والمال « ثم ناظره في خلع هارون فقال له : ياأمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم أيمانهم وجرأتهم على حل العقود التي تعقد لهم ولو تركت الامر في بيعة أخيك بحاله وبويع لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال له : صدقت و نصحت[4] ... »

على أن الهادي إن كان اقتنع عقلا فانه لم يقتنع عاطفة « ... ولم

---

(١) انظر اليعقوبي ـ ج ٢ ص ٤٩٠.
(٢) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٦٨
(٣) المصدر ذاته ص ١٦٩ والطبري ج ٨ ص ٢٠٨ (٥٧٣/٣) .
(٤) الجهشياري ص ١٧٠ والطبري ص ٢٠٩

تطب نفسه فدعا بيحيى فحبسه ... » ثم خلاه ودعا اليه وسأله رأيه فقال يحيى : « ... أرأيت إن كان ما تعوذ بالله منه قبل بلوغ جعفر ، وقد خلعت هارون هل تتم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم ؟ قال لا : قال فدع هذا الامر حتى يبلغ جعفر . فاذا بلغنا الله ذلك فعلي أن آخذ بيد هارون حتى يبايعه عفواً ... والله والله يا أمير المؤمنين إن فعلت هذا وحدث ما نعوذ منه وثب على هذا الامر أكابر أهلك . وخرج الامر من ولد أبيك . والله لو لم يعقد المهدي لهارون لوجب أن تعقدله ليكون في بني أبيك .. »[1]

ولكن هذه الحجج كلها لم يكن من شأنها إلا تأجيل المشكلة لا حلها وصرح الهادي عن موقفه وأطلق لحاشيته حرية التعبير عن موقفها المعادي للرشيد حين أمر بأن لا يسار أمام موكبه بحربة . على العادة في مواكب أولياء العهود . وكان ذلك ايذاناً بمرحلة الاضطهاد العلني تعرض لها الرشيد فكان « شيعة الهادي يتكلمون في أمره ويتنقصونه في مجلس الجماعة ويقولون : لا نرضى به ... حتى اجتنبه الناس وتركوه فلم يكن أحد يجترىء أن يسلم عليه ولا يقربه »[2] ومع أن الهادي شغل عن أخيه بثورة الحسين بن علي بن الحسن سنة ١٦٩ إلا أن انتصاره السريع عليها في موقعة فخ أعاده إلى الاهتمام بأمر ولاية العهد بشكل جدي حاسم وعزم بتحريض « جماعة من مواليه وقواده » على خلع الرشيد أجابه الى الخلع أو لم يجبه . واشتد غضبه منه وضيق عليه .. وقال يحيى (البرمكي) لهارون : « استأذنه في الخروج للصيد فاذا خرجت فاستبعد ودافع الايام ... » وهكذا كان فلما انكر الهادي غيابه جعل يكتب إليه فيتعلل حتى تفاقم الامر وأظهر شتمه وبسط مواليه

---

(١) المصادر ذاتها ص ١٧١ وص ٢١٠ .

(٢) الطبري ج٨ ص٢٠٧ (٥٧٢/٣) .

وقواده ألسنتهم فيه • وخافت الخيزران على ابنها الرشيد وقد بعث يشكو إليها تصرف أخيه معه ، وكانت قد خاصمت الهادي لا تكلمه حياتها فبعثت الى يحيى البرمكي تقول : « الله الله في ابني لا تقتله ودعه يجيب أخاه الى ما يسأله ويريده منه فبقاؤه أحب إلي من الدنيا بجميع ما فيها فصاح بها •• وما أنت وهذا • إن يكن ما تقولين فاني وولدي وأهلي سنقتل قبله !•• فان اتهمت عليه فلست متهماً على نفسي ولا عليهم ••• » •

وكان الهادي ، في الواقع ، قليل الحظ من الرجال الناصحين المتمرسين بالعمل السياسي • لأن أبان بن صدقة مربيه ورجله ووزيره الاول مات في جرجان قبل خلافته ؛ والربيع بن يونس وزير المنصور والمهدي مات بعد أشهر معدودة من خلافته وعبيد الله زياد بن أبي ليلى مات كذلك ••• ثم يفاجأ الناس بعد ذلك بخبر موت الهادي وهو بعد في الثالثة والعشرين من العمر بينما كان جو الازمة بينه وبين أخيه قد بلغ الذروة !••

وتفاصيل الامر تتلخص في أن الهادي : خلع أخاه الرشيد أولاً عن ولاية غرب الدولة الاسلامية وعين لها القائد محمداً بن فروخ الازدي فسار بجيوشه عن طريق الشام على الفور ثم استدعى يحيى البرمكي فاشتد في تأنيبه وشتمه قائلا : ترضى هارون للخلافة ونفسك للوزارة ؟ «والله لآتين على نفسك ونفسه قبل ذلك»[1] ثم أمر بحبسه في موضع لا يكاد يمد فيه رجليه وشفع به ابراهيم الحراني فنقل الى سجن آخر • وسمعت الخيزران بالخبر وخشيت عواقب العصيان على الرشيد فاستدعته

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٩٠

الى بغداد • فلقي أخاه • وعرف أنه معزول عن العهد حين خرج مع ابن أخيه جعفر في موكب فلما قاربا قنطرة النهر وتقدم لاجتيازه انتهره قائد الموكب أبو عصمة وقال : مكانك حتى يجوز ولي العهد [1] •

ولم يمض كبير وقت بعد ذلك حتى أمر به الهادي فسجن في سجن خاص يشرف عليه سجان المنصور والمهدي القديم: سلامة الابرش ومنعت عنه الزيارة • وبايع الجماعة لجعفر بن الهادي في بغداد •

وفي ذلك الوقت فيما يقولون وبينما كان الهادي يبحث مع حاشيته في قتل يحيى البرمكي والرشيد[2] ، دخل بيته فلم يخرج ! ويقولون انه مرض ثلاثة أيام فمات •

ولكنهم في الوقت نفسه يعطون ذلك الحادث الشكل التنبؤي إذ يذكرون أن حلماً رآه المهدي كان يتنبأ بقصر عهدالهادي أو أن المنجمين قالوه • ويعزون الى يحيى بن خالد البرمكي أنه قال للرشيد حين نصحه بالغياب عن بغداد للصيد : « ••• واعلم ان مدة موسى قصيرة على ما أوجبته قضية المولد » [3] •

كما يذكرون أن الخيزران حين سمعت بمرض الهادي أرسلت الى يحيى البرمكي في سجنه تقول : « إن الرجل صائر الى ما به فاستعد لما ينبغي ••• »[4] • ويقول ابن الاثير إن الخيزران أرسلت الى يحيى

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٣٢ (٣/٦٠٢) •

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٣٢٠ (٣/٦٠٠) •

(٣) المسعودي مروج الذهب ج ٣ ص ٣٤٣ و ٣٤٤ و ٣٤٥ (طبعة محي الدين عبد الحميد) وانظر ابن الاثير ج ٦ ص ٩٧ — ٩٨

(٤) الطبري ج ٨ ص ٢١٢ (٣/٥٧٨) •

تأمره بالاستعداد فأحضر يحيى كتابا فكتبوا الكتب من الرشيد الى العمال بوفاة الهادي وأنه قد ولاهم ما كان وما يكون فلما مات الهادي سيرت الكتب !.. »[1] . ويضيف ابن الاثير والطبري إنه « لما مات الهادي قالت الخيزران : قد كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة ويملك خليفة ويولد خليفة (إذ ولد في تلك الليلة المأمون) ... [2] » . ولما مات الهادي كان أول من استدعته الخيزران من السجن يحيى بن خالد البرمكي . روى هو نفسه الامر قال : « ... حبست وقد أيقنت من الموت . فأنا مفكر في ليلتي ما يجيئني الغمض حتى سمعت صوت القفل فقدرت ... أن موسى (الهادي) دعاني ليقتلني فاذا بخادم يقول لي : السيدة تريدك . فأتيت الخيزران فقالت لي : ان هذا الرجل قد مات . ونحن نساء فادخل فأصلح من أمره فدخلت .. وإذا بأمة العزيز تبكي عند رأسه وهو ميت فغمضته وانطلقت الى (قصر) الخلد أريد الرشيد ... » [3] .

وهذه الاخبار كلها قرائن على أن شيئا ما قد كان في القصر . ولكن خلافة الرشيد ثم عصر الرشيد الطويل المتألق قد غطى على حقيقته ... ويكشف الطبري جانبا مما كان إذ يقول : « قال بعضهم : كانت وفاته من قرحة كانت في جوفه وقال آخرون كانت وفاته من قبل جوار لأمه الخيزران كانت امرتهن بقتله لاسباب نذكر بعضها ... (منها) أن الهادي نابذ أمه ونافرها ... » . ومنعها التدخل في أمور الدولة . يقول الطبري : « وحدثني بعض الهاشميين أن سبب موت الهادي كان أنه لما

---

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ٩٩

(٢) انظر المصدر السابق وانظر الطبري ج ٨ ص ٢١٢ (٣/٥٧٩) .

(٣) الجهشياري ص ١٧٥

جد في خلع هارون والبيعة لابنه جعفر وخافت الخيزران على هارون منه دست إليه من جواريها لما مرض من قتله بالغم والجلوس على وجهه • ووجهت الى يحيى بن خالد أن الرجل قد توفى فاجدد في أمرك ولا تقصر •••»[1] •

وبمقتل الهادي رد حزب الخيزران بسرعة على الضربة التي وجهها اليه حزب الهادي يوم مصرع المهدي ، وقد كان الرد من السرعة والمفاجأة بحيث لم يترك لحزب الهادي مجال التفكير في موقف آخر سوى التسليم، ولا شك أن الجريمتين اللتين توالتا في سنتين متواليتين ١٦٩ و ١٧٠ وذهبتا بخليفتين من خلفاء البيت العباسي كانتا أول الوهن في الدولة العباسية وطلائع المصارع التي سوف تذهب مع رؤوس الخلفاء بهيبة الخلافة ونفوذها وتفتح باب الجرأة على ذلك المقام الاول • ولقد كان بامكان هذين الحادثين أن يهزا الدولة العباسية هزة عنيفة لولا أنها كانت في تلك الفترة في أوج قوتها ولو لا أن مدبري المؤامرتين من الحزبين المتصارعين تحلوا بالكثير من الحكمة ومن التكتم •

الرشيد وولاية العهد : وتولى الرشيد الخلافة وامتدت خلافته ولكنه بدوره أيضا لم يتعظ في أمر ولاية العهد بنفسه وأبيه وارتكب الغلطة ذاتها بتولية ابنائه الثلاثة : الامين ثم المأمون ثم القاسم أحدهم بعد الآخر لولاية العهد بالتتالي ، ولم يكن القاسم مشكلة لانه لم يكن بذي حزب قوي واضح بعد أن خضدت شوكة حاميه عبد الملك بن

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٠٥ – ٢٠٦ (٣/٦٩ ٥– ٥٧٠) •

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٤٣٩ ثم ص ٤٤٥

صالح في السجن فترة طويلة حتى من عليه الامين بالافراج وقد استطاع الامين حين استخلف أن يتخلص تخلصا هينا من القاسم • أما محاولته التخلص من أخيه المأمون والبيعة لابنه موسى الناطق بالحق فقد كلفته عرشه وحياته معاً وكانت من أكبر الهزات التي تناولت العرش العباسي كما كانت واحدة من اكبر مشاكل ولاية العهد في التاريخ الاسلامي •

خلاف الأمين والمأمون : وعوامل الخلاف الذي دام خمس سنوات بين الاخوين ترجع في التحليل الاخير إلى :

١ ــ ظروفهما من جهة •

٢ ــ تدبيرهما أحدهما تجاه الآخر من جهة أخرى :

أولا ــ كانت الظروف التي وجد فيها الاخوان تهيء للخلاف بينهما فقد كان صغر ولدي الرشيد (محمد وعبد الله) أول أيام خلافته سبباً في طمع بعض بني العباس بولاية العهد والطبري يذكر ذلك بصراحة[1] بقوله : « وكانت جماعة بني العباس قد مدوا أعناقهم إلى الخلافة لأنه لم يكن له ولي عهد » فجعل الرشيد يفكر في الأمر واستطاعت جماعة بني هاشم أن تؤثر عليه حسب رواية الأربلي[2] الذي يقول على لسان الرشيد « ولو لا أم جعفر وميل بني هاشم اليه (إلى الأمين) لقدمت عبد الله عليه » ويؤيد ذلك المسعودي[3] الذي ذكر ان سبب البيعة للأمين أن بني هاشم « مائلون إلى محمد بأهوائهم » •

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٥٣ (الطبعة الحسينية) .
(٢) الأربلي الدر المسبوك ص ٨٧
(٣) المسعودي ج ٣ ص ٢٧١

فعقد الرشيد لابنه هذا « وله يومئذ خمس سنين » وانكر عليه ذلك بعض بني العباس حسب رواية الطبري لصغر سن الأمين •

ثم عقد الرشيد سنة ١٨٣ لابنه الثاني المأمون بولاية العهد الثانية بتأثير جعفر بن يحيى البرمكي كما يروي الطبري في كلمة على لسان الأمين : « إن رأي الرشيد (في بيعة المأمون) كان غلطة شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره واستماله برقاه » ولا علاقة لأخلاق الأمين بهذه البيعة إذ كان من صغر العمر (١٣ سنة) بحيث لا يعرف خيره من شره ولا ميوعته من حزمه • ولعل الأصح أن ينسب عزم الرشيد هذا الى رغبته في حفظ الخلافة في سلالته دون باقي بني العباس •

ثم عقد الرشيد للأخ الثالث القاسم (المؤتمن) سنة ١٨٦ هـ وبتأثير عبد الملك بن صالح العباسي الذي كتب للرشيد ـ وكان القاسم في حجره يربيه ـ :

يا أيها الملك الذي ... لو كان نجماً كان سعدا
اعقد لقاسم بيعة ... واقدح له في الملك زندا
الله فرد واحد ... فاجعل ولاة العهد فردا[1]

« فكان ذلك أول ما حض الرشيد على البيعة للقاسم » ، كما يقول الطبري • أما الدوافع الحقيقية فقد تكون ناجمة عن ظهور حزب من بني

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٧٦ (٣/٦٥٢) ولنلاحظ أن اليعقوبي يجعل تولية القاسم للعهد سنة ١٨٩ وهو أمر لا يتفق مع نصوص العهد الذي كتبه الامين على نفسه في الكعبة ولا مع صاحب فكرة التولية عبد الملك ابن صالح الذي سجن منذ سنة ١٨٧ (انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٥ و ١٢٥

العباس لا يميل لا الى الامين ولا الى المأمون ويخشى عواقب الصراع بينهمــا •

وعلى أي حال فقد خطرت للرشيد ، تحت ضغط الصراع التحزبي في البلاط دون شك ، خاطرة ذكية ظنها الضمان الكافي لإقرار عهــده من بعده وإحلال السلام والتعاون بين الإخوة وتأكيد تعاقبهم أو على الاقل تعاقب الأمين والمأمون على الخلافة وإلجام كل جموح قد يركبه أحد الحزبين من ورائهما • فقد انتهز مناسبة حجه سنة ١٨٦ فاصطحب الولدين معاً ، مع جمع من قواده ووزرائه وقضاته وبني هاشم • وهناك في مكة استكتب كل واحد منهما بخطه عهداً صيغ بشكل كتاب مرفوع إلى أبيه الخليفة يشترط على نفسه الوفاء بالعهد لاخيه الآخر والتعاون معه • ونص كتاب الامين على أن للمأمون إن أفضت إليه الخلافة أن يبقى أو يخلع أخاه القاسم كما يشاء •

ثم أمر الرشيد فقرىء الكتابان على الاخوين في المسجد الحرام وشهد عليهما من حضر من رجال الدولة ثم قرىء الكتابان على أهــل ذلك الموسم كافة ليشهدوا عليه • ثم كتب الرشيد بذلك كله إلى الامصار يأمر العمال أن يعلنوه للناس • ويثبتوه في الديوان فأخذت البيعة كمــا قال اليعقوبي «على الناس كلهم حتى أهل الاسواق »[1] •• أما الكتابان الاصليان فقد أمر بتعليقهما في الكعبة ، في عهدة حجابها •• أتراه ، في هذا التوثيق كله ، كان يشك في قرارة نفسه في إمكان تنفيذ هذه العهود،

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤١٥

والنقد الداخلي لنصوص الكتابين كما أوردهما الطبري[1] تكشف أن بعض التعديل والإضافة على الأقل قد دخل عليهما وأنهما في شكلهما الموجود متحيزان للمأمون التحيز الواضح ، ويستبين الزيف الداخل عليهما في عدد من النقاط التي إنما نبتت مشاكلها وظهرت بعد موت الرشيد ومنها :

أ ــ اصرار الكتابين على منح المأمون فقط ــ دون الامين ــ التأكيدات والضمانات بجميع حقوقه في ولاية العهد وفي خراسان وفي الاموال والحاشية •

ب ــ إصرارهما أيضا على منح المأمون في خراسان الاستقلال الكامل الذي يقطعها انقطاعاً تاماً عن الدولة وهذا ما لا يمكن أن يقرره الرشيد •

جـ ــ اعطاء العذر الشرعي للمأمون في أخذ الخلافة فورا إن انتقصه أخوه الامين قليلا أو كثيرا مما اعطاه الرشيد •

د ــ التأكيد أكثر من مرة على أن المأمون يفي للامين « ما وفى له أخوه » فان انتقصه شيئا فلا وفاء •

هـ ــ أدخل على الكتابين تحديد ولاية خراسان والكور التي أضيفت اليها ليكون ذلك تسديدا للمشكلة التي قامت فيما بعد بين الاخوين على سلخ بعض الكور المضافة الى تلك الولاية •

و ــ ذكر في كتاب المأمون عهد « قرماسين » وهذا العهد إنما كان سنة ١٨٩ •

---

(١) في الطبري ج ٨ ص ٢٧٧ ــ ٢٨٦ (٣/٦٥٤ ــ ٦٦٦) نجد نصوص هذه العهود وكتاب الرشيد الى الآفاق . وانظر ج ٨ ص ٢٨٦ فيما يتعلق بعهد قرماسين وتجديد البيعة سنة ١٨٩ .

ز ــ ذكرت في كتاب الامين بيعة القاسم وجعل للمأمون أن ينفذها أو يلغيها بينما لم يذكر من ذلك شيء في كتاب المأمون الذي قال إن للامين « إن أراد أن يعين من يشاء من ولده العهد والخلافة بعدي » !! فكأن الفقرة المتعلقة بالقاسم إنما أدخلت لايجاد العذر الشرعي للمأمون لأنه لم يجعل القاسم خليفة بعده .

وعلى أي حال فقد علق بعض المؤرخين على العهد المثلث وقسمة الدولة بتخطئة الرشيد كابن الاثير . وإذا كان هؤلاء إنما يحكمون بعد أن سجل التاريخ ما جرى من القتال الأخوي فان آراء المعاصرين أنفسهم انقسمت ــ على ما يظهر ــ بشأن خطوة الرشيد هذه وقد شعر بعضهم بأخطار ذلك يقول الطبري : « ولما قسم الارض بين أولاده الثلاثة قال بعض العامة : قد أحكم أمر الملك . وقال بعضهم : بل ألقى بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية ... » وقال شاعر من شعر طويل :

رأى الملك المهذب شر رأي	بقسمته الخلافة والعبادا
أراد بها ليقطع عن بنيه	خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل	وأورث شمل إلفتهم بدادا
فويل للرعية عن قليل	لقد أهدى لها الكرب الشدادا
ستجري من ومائهم بحور	زواخر لا يرون لها نفادا

وزادت غلطة الرشيد سوءاً بتقسيمه امبراطوريته بين أولاده فجعل للمأمون شرق البلاد منذ همدان . وللمؤتمن الثغور والجزيرة . وللامين

---

(٣) الطبري ج ٨ ص ٢٧٦ (٣/٦٥٣) .

العراق والحجاز والشام ومصر ... وفصل بين سلطاني الامين والمأمون في مناطقهما كل الفصل بشكل يصعب معه ارتباطهما إذ لم يدع لاحدهما مطلقاً من علاقة مع الآخر .

والطبري[1] يذكر من نصوص العهد مثلاً قوله : ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه (عن المأمون) قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين ولا يحول عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاه إياها هارون ... ولا يولي عليها أحداً ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره بنداراً ولا محاسباً ولا عاملاً ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير حزراً ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره ... ومثل هذه الوثيقة يمكن أن تعتبر جزءاً من قصة انقسام الامبراطوريةالعباسية. ولو أنها طبقت بحذافيرها لكانت نواة لقيام دولتين عباسيتين ! وقد لاحظ ذلك المعاصرون وعبر عنه الأمين بقوله : « لا يجتمع فحلان في أجمة » . إن الرشيد نفسه قد وضع أول خطوط النضال الاخوي الذي أراق دم ابنه الأمين .

ثم ان الأمين والمأمون كلاهما وجدا منذ يفعا حزبين جاهزين لهما: فالهاشميون والعرب سعوا لخلافة الامين وعلقوا الآمال عليه . وكان لهم تأثيرهم في الدولة حتى اعترف بذلك الرشيد حين ولاه . واعترف الفضل ابن سهل ، حين حذر المأمون منهم وهو ما يزال في بغداد قبل وفاة الرشيد فقال له : « ... سله أن يشخصك معه (مع الرشيد) فانه

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٢٨

عليل . وغير مأمون إن يحدث عليه حادث ، أن يثب عليك أخوك فيخلعك وأمه زبيدة وأخواله من هاشم [1] » . والفرس (وعلى رأسهم الفضل بن سهل) اعتبروا المأمون ابن اختهم . والفضل حين جعل يشد من عزيمته كان يقول له : « إنك بين أخوالك .. اصبر وأنا أضمن لك الخلافة [2] » .

وقد انقاد الاخوان لدسائس الحاشية فقاد المعركة السياسية وراء الامين الفضل بن الربيع ، وقادها من خلف المأمون الفضل بن سهل . فحاشية الامين دفعته لنقض العهد (يشهد بذلك اليعقوبي والجهشياري والطبري والفخري في نصوص واضحة) ولكن يظهر ان فكرة النقض كانت قائمة ، من قبل ، في نفس الامين (ذكروا انه حلف بالوفاء في الكعبة وهو ينوي الغدر وانه قال لا يجتمع فحلان في أجمة ... وانه حين بلغه قرب وفاة والده أرسل كتباً سرية ليرد الجيش الى بغداد مع ان الرشيد أوصى به للمأمون ... ولم يكن لاحد من حاشيته وزن كبير إذ ذاك . وبالمقابل طمع الفضل بن سهل لصاحبه بالخلافة وليس دون ذلك [3] . وكثيراً ما شدد عزيمة المأمون ونصحه بالعناد وألف حوله الانصار وأجاب وفود الامين بدلا منه .

ثانيا ــ تدبير الأخوين بعضهما لبعض أوصل لدرجة الحرب الاخوية :

استند الامين في عمله الى أن بغداد العاصمة في يده وان الكتلة العربية تعمل بجانبه والى ان جيوش الدولة تأتمر بأمره ولقب الخلافة له وسلطتها المطلقة تمنحه أن يتصرف كما يشاء . بينما استند المأمون الى خراسان

(١) المسعودي ج ٣ ص ٢٧١

(٢) الجهشياري ص ٢٨٠

والى العهد القانوني الذي منحه إياه الرشيد والي جيش خراساني فقط ٠ وكان ظاهراً منذ البدء ان زمام الموقف بيد الامين ــ ولعل هذا كان سبباً في اهماله أخذ أخيه بالحزم ــ غير أن المأمون وأصحابه عدلوا الكفة بالعمل المنظم الدقيق وبالدعاية الواسعة ٠

ومن المناسب أن نسجل هنا أن الامين ، في محاولة خلع أخيه المأمون لم يأت بجديد في السياسة العباسية ٠ ولكنه اتبع السنة التي استنها المنصور ثم اتبعها الخلفاء التي توالوا بعده حتى الامين ٠

أبو جعفر هو الذي حول الخلافة لابنه المهدي وطرد عنها ابن أخيه عيسى بن موسى بالرغم وبالتهديد والوعيد٠والمهدي حولها لابنه الهادي وزاد فعهد لاخيه الرشيد معه طارداً عنها عيسى نفسه ٠ ولم يكن سوى يوم أو بعض يوم بين الهادي وبين قتل أخيه الرشيد وإعلان البيعة لابنه جعفر لولا أن العمر انقطع به ٠٠٠ والرشيد نفسه أعطى الخلافة لابنه ثم لابنه الثاني ثم للثالث وألقى بالسجن ذلك الذي فكر فيها من أقربائه: عبد الملك بن صالح ٠ وسوء حظ أو تدبير الامين هو الذي جعله يفشل فيما نجح فيه السابقون له ٠

وبالمقابل ويبدو من عدد من القرائن أن المأمون لم يكن بعيداً عن التفكير ومنذ وقت مبكر جداً في الوصول الى الخلافة وفي انتزاعها من أخيه ٠ فإنه مقابل تفكير هذا الأخ في خلعه عن ولاية العهد ألغى أسمه عن الطراز والنقود وقطع عنه البريد منذ ١٩٤ كما تسمى في الوقت نفسه بالإمام ليتوازي معه في اللقب بل يذكر صاحب العيون والحدائق أن المأمون «تسمى ١٩٥ أميرالمؤمنين وانقطع ذكر الامين من جميع أعمال خراسان ٠٠٠»[1] ثم ما كاد جيش المأمون ١٩٦ يسجل نصراً على جيش

---

(٢) العيون والحدائق للمؤلف المجهول ص ٣٢٣

الأمين حتى زحف المنتصرون على الفور الى بغـداد فحاصروها • ولم يحاول المأمون ــ وقد امتد الحصار سنتين ــ أن يفاوض أخاه أو يقيم صلحاً يؤكد فيه حقه في ولاية العهـد لأن الخلافـة كانت قد أضحت مطمعه • وطال الحصار فلم يفكر المأمون في أنه إنما يحارب صاحب البيعة الشرعية وأنه هو نفسه لاحق له في الخلافة مع وجود الأمين فحربه اذن غير شرعية • وحين استسلم الأمين لجيش المأمون ماكان لقادة هذا الجيش أن يقتلوه لولا أن تعليمات المأمون إليهم كانت تقضي بذلك • ولعلنـا نذكر أن قائد جيش الأمين كان يحمل معه ، عند مسيره الى خراسان قيداً من الفضة لتقييد المأمون بينما لم يقدم قائد المأمون غير السيف للأمين في بغداد • وهكذا فإن المأمون بدلا من ولاية العهد أخذ الخلافة نفسها وروح أخيه •

وقد شوهت الدعاية المأمونية سمعة الأمين في عهده ثم لدى المؤرخين من بعد بينما أشادت بقابليات المأمون منذ صغره وبحزمه ونسكه ••• «ذكروا للرشيد قوله عنه : أتعرف فيه حزم المنصور ونسك المهدي ، وجرأة الهادي ولو شاء أن انسبه في الرابعة لي لفعلت» ولا شك أن خلافة المأمون الطويلة وسمعته العلمية الرائعة قد انعكست على ماضيـه قبل الخلافة وزادت في تألقه وفي تعصب العلماء له ، بينما ظل الأمين المهزوم سيء السمعة يسميه التاريخ (بالفاسق) و (المخلوع) ، • ويتهم بشتى التهم • فلا يجد مع قصر عهده ومطاعن أخلاقه وهزيمته في النهاية ، من يدفع تحيف الدعاية له • وهذه الدعاية لعبت دورها خلال فترة النزاع نفسها حتى ــ كما يقول الجهشياري[1] ــ «سارت الركبان في الآفاق

(١) الجهشياري ص ٢٩٢

بغدر محمد وبحسن سيرة المأمون فاستوحش الناس منه وانحرفوا عنه وسكنوا إلى المأمون ومالوا إليه» .

مر النزاع بين الأخوين ، ككـل نزاع غيره ، في طورين : طور دبلوماسي سلمي حاول به الأمين الوصول إلى ما يريد بالسياسة والمراسلة وقابله المأمون بالمطاولة . ثم جاء دور السيف بينهما بعد ذلك .

الطور الدبلوماسي السلمي :

(يفصله الطبري[1] تفصيلا واسعاً) ودراسته تعطينا فكرة عن الجو السياسي ومناوراته في ذلك العصر ، وقد قاد العملية الدبلوماسية والسياسية لدى الأخوين وزيراهما : الفضل بن الربيـع لدى الأمين والفضل بن سهل لدى المأمون لدرجة أن بعض الكتاب اعتبر المعركة الأخوية معركة بين الفضلين . وقد وردت اخبار ومراسلات الاخوين في الطبري دون ترتيب تاريخي ، ولعلنا إذا اعتمدنا على محتوياتهـا وعلى شيء من المنطق ، نستطيع أن نعطيها ذلك الترتيب المتسلسل ، وأن نلخص هذا الطور بالنقاط التالية :

١ ــ حاول الأمين أن يأخذ الحيطة ويركز كل القوى بيديه حين عرف علة أبيه في طوس . وهكذا بعث من يأتيه بأخباره ويكتب ظاهرة يسأل فيها عن صحة الخليفة ، وأخرى باطنة إلى القوم والعسكر بالعودة إلى بغداد ، ومحاولة الأمين تجريد أخيه من القوة ، هذا الشكل لم يخف على الرشيد نفسه ، الذي جدد البيعة للمأمون ، وأوصى له بالجيش .

---

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٧٤ ــ ٣٨٤ (٣/٧٧٦ ــ ٧٩١) وكذلـك ص ٣٩٤ ــ ٤٠٥ (٣/٨٠٣ ــ ٨١٧) .

ولكن الرشيد توفي ، ووجود الفضل بن الربيع في القوات العباسية كان كافياً لاعادتها إلى بغداد دون أن تعرج على المأمون[1] الذي عقد مجلساً لبحث الأمر ، ولكن الفضل بن سهل حذر المأمون من ملاحقتها لئلاتقبض عليه وتقدمه هدية لمحمد ، وقد بعث وراءها برسولين عوملا من الفضل ابن الربيع أسوأ المعاملة ... فأكد ذلك للمأمون ضرورة بقائه في مرو ... منذ الأيام الأولى .

٢ ــ حاول المأمون بالمقابل توطيد مركزه ، وذلك باسترضاء الخراسانيين ليكونوا معه فكرم القواد والملوك (الارستقراطية) والفقهاء وتألف الشعب بالعدل وبتخفيض ربع الخراج ، حتى سر بذلك الناس وقالوا حسب رواية الطبري[2] : «ابن اختنا وابن عم رسول الله» . ومن جهة أخرى حافظ المأمون ... ولكن وفي السنة الاولى من حكم الأمين فقط بالطبع على مظاهر الولاء لأخيه و«تواترت كتب المأمون إلى محمد بالتعظيم والهدايا إليه من طرف خراسان[3].» !

٣ ــ بدأ الأمين مشروعه ببسط نفوذه أولا على أخويه ثم عزلهما من ولاية العهد أو تقديم ابنه عليهما . بدأ بالقاسم فعزله عن الجزيرةسنة ١٩٣ هـ ثم عن الولاية جميعاً سنة ١٩٤ هـ وولى مكانه خزيمة بن خازم ثم استقدمه لبغداد[4] ثم عزله من العهد في السنة نفسها . وقد تم ذلك دون ضجة أو كبير عناء لقلة انصار القاسم الذي لحق بأخيه المأمون في

---

(١) الجهشياري ص ٢٧٧

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٧٢ و ٤١١ (٣/٧٧٤ و ٨٢٥) .

(٣) الطبري ج٨ ص ٣٧٣ (٣/٧٧٥) .

(٤) الطبري ج٨ ص ٣٧٤ (٣/٧٧٦) .

خراسان ١٩٧ فولاه على جرجان[1] ... لكن المأمون أدرك منذ سمع بعزل القاسم، كنه المشروع فقطع البريد عن أخيه محمد ومحا اسمه عن الطراز إيذاناً له بعدم الموافقة، أو على الأقل بالاستنكار وضرب الدنانير والنقود بخراسان «وأمر ألا يثبت فيها اسم محمد»[2] الأمين.

٤ ــ ظهرت للأمين ضرورة إضعاف أخيه والحد من نفوذه وكاد يطلب منه بعض أرض ولايته ولكن القاسم بن صبيح نصح الأمين ألا يفعل لئلا يتأكد لدى المأمون سوء الظن ويأخذ من ذلك حذره «ولكن تكتب إليه حاجتك إليه وشوقك إلى قربه ... ومشورته[3]» «فإذا قدم عليك وفرقت بينه وبين جنده ظفرت به وصار رهناً في يديك[4]». وأرسل الأمين وفداً بهذه الرسالة فأكرمه المأمون وحار ماذا يجيب أخاه ولكن الفضل بن سهل شد من عزيمته ونصحه بتقوية الجيش وبالاعتذار عن المسير. ودبج للاعتذار رسالة جاء فيها «إن الامام الرشيد ولاني هذه الأرض على حين كلب من عدوها ... ومتى زلت عنها لم آمن انتقاض الأمور فيها وغلبة أعدائها عليها بما يصل ضرره إلى أمير المؤمنين حيث هو فرأى امير المؤمنين أن لا ينقض ما ابرمه الامام الرشيد».

٥ ــ عاد الأمين إلى رأيه الأول فطلب ان يتجافى له المأمون عن بعض كور خرسان وان يرسل إليه العمال من قبله وان يقيم عامل بريد لديه. فاضطرب المأمون وعقد مجلس شورى قرر له أن يوافق. إلا إن

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٣٩ ثم ص ٤٤٥

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٨٩ (٣/٧٩٥).

(٣) الجهشياري ص ٢٩١

(٤) الدينوري ص ١٣١

الفضل بن سهل رأى الرفض قائلا : «هل تثقون بكفـه (كف الأمين) بعد إعطائه ذلك وألا يتجاوز بالطلب ؟ إنه يطلب ماليس له بحق»وكان الرفض وكتب المأمون يقول لأخيه : «لو لم يكن ذلـك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التي أنا عليها من إشراف عـدو مخوف الشوكة ، وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستتبع طاعتهـا إلا بالأموال ، لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته وما يجب من لم أطرافه مايوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عناية ويستصلحه ببذل كثير من ماله. فكيف بمسألة ما أوجبه الحق والعهد ؟ ..» الخ !

٦ ـ عاد الامين فأكد الطلب مع وفد اوصاه بنشر بذور الخلاف على المأمون في خراسان وكتب إليه إن الرشيد أضاف إلـى خراسان «كورا من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها فالحق أن تكون مردودة في أهلها ... وأن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتـك يؤدي لنا علم مانعني به من طرفك .. فاثن على همتك أثـن عن مطالبتك» . ولكن الوفد احيط به منذ وصل حدود ارض المأمون فلم يدعه الفضل بن سهل يقابل احداً غير المأمون . وسماه أمـام الوفد (بالامام) ومنعه ان يناقشه وكلف المأمون الوفد بتأدية رسالة الى الامين يقول فيهـا : «لا تبعثني يا ابن أبي على مخالفتك . وانا مذعن بطاعتـك وارضى حكم الحق في امرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك ... وقال : أعلموه أني لا أزال على طاعته حتى يضطرني بترك الحق الواجب إلى مخالفته ...» .

٧ ـ بعث الأمين بكتاب غضوب ملأه بالتهديد قال : «.. بلغني كتابك غامطاً لنعمة الله عليك معترضاً لحراق نار لا قبل لك بها ... وان

كان قد تقدم مني متقدم فليس بخارج عن مواضع نفعك .. فاعلمني رأيك» . فاجاب المأمون : «... أولى به (بالامين) ان يدير الحق في امره ثم يأخذ بـه ويعطي من نفسه . واما ماوعد من بر طاعته واوعد من الوطأة بمخالفته فهل أحد فارق الحق في فعله فأبقى للمتبين موضع ثقه بقوله ؟» .

٨ ــ أوفد الامين ــ حين صّرح الخلاف ــ وفداً سياسياً من ثلاثة رجال عليه العباس بن موسى بن عيسى يطلب الى المأمون تقديم موسى ابن الأمين بين يديه ويذكر له أن جد العباس (عيسى بن موسى) قد تنازل عن ولاية العهد مرتين . ولكن الفضل بن سهل استطاع ان يمنع النقاش في الامر قائلا : «اسكت ! لقد كان جدك بين يديهم أسيراً وهـذا بين أخواله وشيعته[1] واستطاع فوق هذا ان يمني بالوعـود رئيس الوفد ويأخذ منه البيعة للمأمون ويجعل منـه عينـاً لـه في بلاط الأمين !» «يكتب إلينا (أي إلى الفضل بن سهل) بالأخبار ويشير علينا بالرأي[2]»

٩ ــ رأى الأمين أخيراً وضع اخيه امام الأمر الواقع فأوقف الدعاء للمأمون واعلن بيعة ابنه موسى الناطق بالحق بدلا منه وضرب لذلـك دراهم ودنانير تذكارية .

منذ هذه اللحظة ينتقل النزاع الى طوره الثاني المسلح . على انه من الضروري ان نلاحظ ان النزاع الدبلوماسي بقي قائماً خلال الحرب الاخوية . فالمأمون يلقب نفسه حتى قبل أن يخلع ولاية العهد ، بالامام لا بالخليفة . فإن الجماعة الاسلامية لم تعتـد حتى تلك الفترة ظهور

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٧٦ (٣/٧٧٨)
(٢) المصدر ذاتـه .

خليفتين في وقت معاً (عدا سنة الثورة العباسـيـة ١٣٢) ويتريث المأمون بالخلع أشهراً متخوفاً من ذلك ثم يجهر بالخلع[1] سنة ١٩٦ هـ حين انتصر جيشه على جيش علي بن عيسى قائد أخيه • (وتلك أول مرة يتخذ فيها العباسيون لقب الامام ولعل المأمون رأى فيه توكيداً للسلطة الدينية التي يحتاجها في نضاله) • ويرسـل الى اعيـان العسكر في بغداد من يستميلهم ويكتب اليه بموقف بغداد منه • كما يكتب المأمون الى قائد اخيه علي بن عيسى بن ماهان بأن الامين حل عقدة انت شددتها (لأن علياً هو الذي أخذ البيعة للمأمون في ولاية العهد) ويخطب في الخراسانيين يمنيهم بوعود هي أكثر مما منا هم به اسلافه يوم الدعوة العباسية • يقول : «أيها الناس إني جعلت لله على نفسي ،إن استرعاني أموركم ، أن أطيعه فيكم ولا أسفك دماً عمداً لا تحله حدوده ولا آخذ لأحد مالا ولا أحكم بهواي في غضبي ولا رضاي ••• جعلت كله لله عهداً مؤكداً وميثاقاً مشدداً ••• فإن غيرت أو بدلت كنت للعبر مستأهلا وللنكـال متعرضاً[2]•••» ولهذا العهد شأنه في المستقبل اذ أن فشل المأمون في تحقيقه سيقطع آخر صلة بين خراسان والعباسيين •

ويظهر من تصرفات المأمون حتى في نهاية الامر انه لم يكن واثقاً من النجاح ولقد حاول الهرب حين شغب عليه الجند بمرو • بينما يظهر من تصرفات الأمين واصحابه انهم كانوا واثقين من الظفـر ، حتى ان

---

(٣) جرى احيانا أن أعلن بعض الخوارج نفسه اميراً للمؤمنين ولكن جمهرة المسلمين لم تنظر الى مثل تلك المحاولات نظرة جدية . كما اعلن ادريس بن ادريس العلوى نفسه خليفة في اقصى المغرب ولكن في رقعة ضيقة معزولة هناك ولم يعترف به .

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٣٨

زبيدة ارسلت القيود الفضية لتكبيل المأمون واعطت التعليمات لقائدها بكيفية معاملته معاملة تليق بابن ملك • ولم يلجأ الأمين الى الدس على أخيه لدى قواده الا" حين حاصروا بغداد وحينذاك فقط كتب الى طاهر ابن الحسين يقول : « ما قام لنا قائم بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف » ويعلق طاهر على ذلك «ماهذا كتاب مضعوف ولكنه كتاب مخذول !» •

طور النزاع المسلح :

وهو مفصل في الكتب ويمكن تلخيص مراحل الحرب وأطوارها فيما يأتي :

كان الأمين بالطبع هو الذي سوف يتخذ خطوة اللجوء إلى السلاح لحل الخلاف باعتباره الخليفة والرجل الأقوى ولأن المأمون معتصم منه بولايته البعيدة ولهذا : سير قائده على بن عيسى بن ماهان الى خراسان وعقد له عليها • وحشد في الجيش طاقته كلها (مطلع ربيع الآخر سنة١٩٥) وأعطى الجند مالا عظيماً بعد أن عقد مجلساً عاماً قرأ فيه في مسجد الجامع على الناس نقض أمر أخيه لعصيانه •

وحمل على بن عيسى قيداً من الفضة لتقييد المأمون أما وصية الأمين له فكانت سياسية حازمة : اكرم من خرج إليك من قواد خراسان وضع عن أهل خراسان ربع الخراج ولا تبق على أحد يشهر عليك سيفاً أو يرمي عسكرك بسهم • ولا تدع عبد الله (المأمون) يقيم إلا ثلاثاً من يوم أن تصل إليه حتى تشخصه إلي[1]• فإذا اشخصته فليكن مع أوثق أصحابك عندك •••

---

(١) الطبري ج٨ ص ٤٠٦ (٨١٩/٣)

وقد اشترك في الجيش عناصر عربية قوية من كبار القواد واجتازوا الطريق الى همذان ومنها الى الرى • ولم ينتظر علي بن عيسى ورود النجدات له من جنوب إيران واشتبك عند الري في معركة مع قائد جيش المأمون : طاهر بن الحسين (شوال ١٩٥) • وحاول طاهر المراوغةوتكرار قصة صفين إذ علق عهد البيعة على الرماح ونادى على بن عيسى : ألست أنت الذي أخذ البيعة من الناس لعبد الله (المأمون)؟[1] • ثم جاءت المعركة بنتيجة غير منتظرة إذ هزم جيش الأمين وقتل علي بن عيسى فما وصلت الانباء إلى المأمون حتى قعد للتهنئة ثم أعلن بعد أشهر خلع أخيه الأمين ودعا لنفسه بالخلافة في خراسان • وتحول الجيش المدافع إلى جيش مهاجم يسير في منطقةالجبال باتجاه العراق •••وفي هاتينالمبادرتين السريعتين إلى إدعاء الخلافة والهجوم العسكري على بغداد بعد اتخاذ لقب الامام دليل على أن المأمون وحزبه كانا يبيتان مشروع الخلافة من قبل وما كان موقفهما السلبي قبل ذلك سوى مرحلة تكتيكية • فما ان سنحت الفرصة لتحقيق المشروع حتى بادرا بأسرعمما ينتظر إلىاستغلالها أوسع الاستغلال •

وإذا كان في معركة ابن عيسى وطاهر بعض الشبه من معركةابن هبيرة وقحطبة الطائي في الثورة العباسية فإن الفرق كبير بين الجيش الزاحف الآن ومعظم عناصره إيرانية فارسية وذلك الجيش الثائر الذي كانت معظم عناصره عربية خالصة وإذا كان ثمة من تأثير فارسي فيالتاريخ العباسي فيمكن أن نعد هذه المسيرة باسم المأمون هي نقطته الانقلابية الهامة •

---

(١) الطبري ج٨ ص ٣٩٣ (٣/٨٠١)

وعلى اي حال فإن هذه المسيرة الثانيه من خراسان والتي جاءت بعد حوالي خمس وستين سنة من المسيرة الأولى كانت هي الحركة الايرانية الحقيقية التي ادخلت العنصر الفارسي أو حاولت إدخاله ، في طلب الحكم العباسي وإن انقلب المأمون نفسه عليها فيما بعد •

ووصل جيش المأمون الى همذان ثم حلوان ـ على الطريق ذاتها التي كان قد سار عليها قحطبة من قبل • وانتقلت الحرب من الهجوم على مداخل خراسان الى الدفاع عن مداخل العراق من ناحية الجبال ••

وجمع الأمين آخر قواه لصد جيش طاهر بن عيسى جند عشرين ألفا من العرب بقيادة أحمد بن مزيد وعشرين ألفاً من الأبناء بقيادة عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي • ولكن الجيشين وصلا خانقين ثم اختلفا وعادا دون لقاء طاهر[1] الذي سلم ما بيده من البلاد لقائد جديد بعثه المأمون هو هرثمة بن أعين وانحدر الى الأهـواز ليدخل العراق من الجنوب • فانتصر هناك على محمد بن يزيد المهلبي وأنفذ العمال الى البحرين وعمان واليمن ومكة والمدينة وعبر البلاد الى واسط بينما كان هرثمة بن أعين يدخل العراق عن طريق حلوان ويضع الحصار على بغداد بعد أن هزم ٤٠٠ لواء عقدها الأمين لجيش يقابله دونها • وعلى بغداد وافاه جيش طاهر •

ولم يكن تقدم هذه الجيوش سهلا فيما يظهر لأنها قضت في ذلك معظم سنة ١٩٦ • ولم يكن حصار بغداد هيناً ولا كان الدفاع عنها ضعيفاً فقد قضى المحاصرون في ذلك سنة ١٩٧ أيضاً • وحفرت الخنادق وبنيت الحيطان وهدمت الدور بالمجانيق والعرادات ، وسمحت الحرب

---

(١) الطبري ج٨ ص ٤٢٣ (٣/٨٤٠)

للعيارين بفرصة ذهبية لممارسة اللصوصية والفوضى وتتالت المعارك على الأبواب والمواقع .. حتى انتهى الأمر أخيراً باستسلام بغداد . بعد أن فقدت الأمن والمؤونة والقوى واستأمن قائد الامين الأساسي خزيمة بن خازم للجيش المحاصر . أما الأمين فلقي مصرعه (٤ صفر ١٩٨) وهو في طريقه للاستئمان عند هرثمة بن أعين .. فقد دبر طاهر مقتله . وفي هذه المؤامرة كاد هرثمة نفسه يغرق في دجلة ! وبينما نصب رأس الأمين على باب الأنبار طارت الرسل إلى المأمون بالفتح ، فلم يدر هو وأصحابه رغم الفرح به ، كيف يصوغون الاعتذار أمام الناس عن مقتل الأمين[1] ! يقول الطبري : «... لما بعث طاهر (بن الحسين) برأس محمد (الأمين) الى المأمون بكى ذو الريا ستين (الفضل بن سهل) وقال : سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ! أمرناه أن يبعث به أسيراً فبعث به عقيراً . وقال له المأمون : قد مضى ما مضى فأحتل في الاعتذار منه . فكتب الناس فأطالوا وجاء أحمد بن يوسف بشبر من قرطاس فيه : أما بعد فإن المخلوع كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة فرق الله بينه وبينه في الولاية والحرمة لمفارقة عصم الدين وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين ... فلا طاعة لأحد في معصية الله ... وقد قتل الله المخلوع ! ..» .

وباعتبار نكث العهد معصية دينية عاقبها الله ، انتهى الفصل الأخير من الدعاية المأمونية ضد الأمين ومن أمر الأمين نفسه !

---

(١) يعقد الطبري صفحات طويلة لتفصيل المعارك في بغداد وللقصائد التي قيلت في ندبها وتصوير حالها السيئة . (ج٨ ص ٤٢٨ ـ ٥٠٨) ، (٣/ ٨٤٦ ـ ٩٥٠) .

(٢) الطبري ج٨ ص ٥٠٧

على أننا نلاحظ حول تلك الحرب الأخوية الملاحظات التالية :

١ ــ مبالغة الكتاب في تقليل جيش المأمون جعلوه (٣٨٠٠) امام جيش الأمين الذي ذكروا أنه كان ٤٠ الفاً ٠

٢ ــ ضعف معنويات جيش الأمين ٠ ومن آيات ذلك ان علي بن عيسى لم يكن يقيم وزناً لطاهر بن الحسين ، واحمد بن مزيد الذي رجع دون قتال ٠ ثم كثرة الدخلاء على الجند فيه من الزناقيل واللصوص والشطار ٠

٣ ــ افسد الأمين جنده بكثرة العطاء دون ان يتأكد من ولائهم وقد شغبوا بعد مقتل عيسى قائدهم فزاد في عطائهم ٠

٤ ــ قيام الاضطرابات في العاصمة بغداد نفسها وكان المفروض أن تكون العاصمة بعد كل شيء حصن الأمين وموئله ٠

٥ ــ خطأ الأمين في تولية علي بن عيسى لحرب الخراسانيين وهو عدوهم منذ زمن الرشيد ٠

٦ ــ كان المأمون بالمقابل موفقاً في القواد وقد قال الأمين: «٠٠٠وهل كان المأمون لو اجتهد بنفسه وتولى الامر برأيه بالغ عشر ما بلغه طاهر ٠٠٠» كما أنه كان متجانس الجيش ٠ وجنده يدافع عن وعوديمني نفسه بها ٠

٧ ــ انتقضت قبيل حصار بغداد وخلاله ، بعض الأقطار على الأمين ٠ فقد خشي عاملا البصرة والكوفة (وهما منصور بن المهدي والعباس بن موسى الهادي) أن تعدو خيل طاهر بن الحسين عليهما بعد أن دخلت من الأهواز الى واسط فبايعا المأمون ٠ وكتب بالبيعة صاحب الموصل (المطلب بن عبد الله) وجمع داوود بن عيسى بن موسى عامل مكة والمدينة الناس وأهل الشرف والفقهاء فذكرهم عهد

الرشيد واحراق الأمين له وأنه غدر فبايعوا المأمون وذهب داوود الى مرو فعاد منها بخمس مائة ألف درهم ••• ووجه طاهر بن الحسين من بغداد يزيد بن جريـر القسري على اليمن عاملا فاستطاع أخـذ البيعة للمأمون ••• وقد أثر ذلك كله في خـذلان الأمين العسكـري عدا المعنوي •

٨ ـ فشلت قبل أن تتحرك محاولة شامية لانقاذ الأمين فقد كتب إليه عبد الملك بن صالح سنة ١٩٦هـ وكان قد أخرجه من السجن سنة ١٩٣ : «إن أهل الشام مسارعون الى طاعتي فإن وجهني أمير المؤمنين اتخذت له جنداً تعظم نكايتهم في عدوه في كلام طويل ••» وكان الوعد حينما أطلقه الأمين من السجن أن يقوم بالمناصحـة والولاء «فولاه الأمين الشام واستحثه فلما قدم عبد الملك الرقة آرسل كتبه ورسله الى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة فلم يبق من يرجى ويذكر بأسه إلا سارع فوعد الناس ومناهم فقدموا عليه رئيس بعد رئيس وفوج بعد فوج فأجازهم وخلع على كل من قصـده وأجازه ثـم •• اختلف جماعة من الجند (الخراساني والشامي) فأعان كل فريق صاحبه وتضـاربوا بالسيوف ونشبت الحرب وتفاقم الأمر فنادى الناس : الهرب أهون من العطب والموت خير من الذل • النفير النفير قبل أن ينقطع الشمل • وكان عبد الملك مريضاً • فمات في تلك الأيام •••[1]» وفشلت النجدة التي كان من الممكن أن تغير في مصائر الحرب والخلافة لو أنها تمت •

---

(١) انظر العيون والحدائق للمؤلف المجهول ص ٣٢٨ وانظر الطبري ج٨ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٦ (٣/٨٤١ـ٨٤٥) فلديه تفاصيل كثيرة حول فشل هذه النجدة . . . .

٩ ـ أتت الحرب الاخوية على بغداد التي حوصرت عامين وخرب قسم كبير منها أو احرق وقتل اهلها وترك لنا الشعراء صورة جهمة لكل ذلك [١] •

١٠ ـ يبدو أن النزاع الأخوي لم يقتصر على الأخوين وحدهما ولا على مناطقهما في خراسان والعراق ويذكر اليعقوبي حين يعرض لوفاة عبد الملك بن صالح العباسي سنة١٩٩ في الرقة ، اضطراب الناس وتحزبهم وحربهم بعضهم لبعض في الجزيرة والعواصم والثغور • يقول : «واضطرب البلد بعد وفاته • وتغلب كل رئيس قوم عليهم • وصار الناس حزبين : حزب يظاهر بمحمد وحزب يظاهر بالمأمون • فلم يبق بلد إلا وبه قوم يتحاربون • لا سلطان يمنعهم ولا يدفعهم[٢] » •

١١ ـ قد نستطيع تلخيص حرب الأخوين ونتائجها بكلمة كلود كاهن الذي قال : « ••• إن جيش (المأمون) لم يجد مشقة كبرى في عقد عرى التفاهم مع الأوساط الايرانية في بغداد بينما عجز الأمين عن إخماد المنازعات القبلية بين العرب الذين استنجد بهم • فوقع في ضيق شديد وحوصر في بغداد مما اضطره الى توزيع السلاح على العامة الذين أبدوا ضروباً من الشجاعة اليائسة التي بقيت دون جدوى •• واستولت خراسان مرة ثانية على مقاليد الأمور وكان هذا الانتصار أعمق أثراً منه في المرة السابقة لأنه تحقق على حساب النصف العربي من السكان ولم يتم بمؤازرتهم الجزئية •••»[٣]

---

(١) جمع صاحب عصر المأمون اطراف تلك الصورة في القسم الاخير من كتابه ،ونجدها لدى الطبري في أحداث ١٩٦ ، ١٩٧ و١٩٨ .

(٢) اليعقوبي ح٣ ص ١٦٩

(٣) كلود كاهن ـ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية (الترجمة العربية، بدر الدين القاسم ـ بيروت ١٩٧٢) المجلد الأول ص ١٠٨

١٢ ـ أدى اعتماد الأمين على عناصر «العامة» في بغداد الى تكتيلها وشعورها بقوتها ولهذا فإنها سوف تظهر خلال العهود المقبلة ولمدة قرون كجماعة مسلحة وذات تأثير مباشر في الأحداث المختلفة ولا سيما عند الأزمات • وسينجم عن وجودها ـ وهو وجود يرجع في أسبابه وجذوره الى المستوى المعاشي الواطيء الذي تعيشه والى فقد فرص العمل والى التفاوت الطبقي المالي خاصة ـ الكثير من المآسي والنكبات في بغداد •

١٣ ـ قتل الأمين في النهاية وهزم الحزب الاميني ولما كان أغلبه من العرب فقد أدى ذلك الى اختلال التوازن بين القوى العربية والايرانية في الدولة زمن المأمون الذي أخذ الناس عليه نظره فقط «لعجم خراسان» ••• مما مهد للجوء المعتصم من بعده الى عنصر جديد هو العنصر التركي •

وبعد هل انتهت بانتهاء الخلاف الاخوي مشكلة ولاية العهد ؟ لقد حاول المأمون محاولة غريبة في ذلك اذ حوّل ، لفترة قصيرة، ولاية العهد الى العلويين ممثلين في شخص علي الرضا العلوي (الامام الثامن للشيعة الاثنى عشرية) ولبس المأمون الخضرة بدل السواد كما يقولون وأشخص اليه ذلك الامام من المدينة الى مرو وقربه وزوجه ابنته (رمضان سنة ٢٠١ هـ) (آذار سنة ٨١٨ م) •

واذا كان الرأي الشائع ان نصر المأمون نصر فارسي وكان يتضمن تأييد العلويين فان المستشرق غبريلي ينقض ذلك من ناحيتين :فالتشيع كان اذ ذاك عربياً ثم ان النزعة الفارسية لم تكن سياسة المأمون لكن سياسة الفضل بن سهل وقد قتل فيما بعد ••• فالمسألة اذن تحتاج الى تحقيق وهي لم تبحث بعد •

والطبري يعلل ذلك قائلا : «إنه (أي المأمون) نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد احداً هو أفضل ولا أروع ولا أعلم منه»ـ ولعله أخذ التعليل من المنشور الذي أصدره المأمون لتفسير ذلك • لكن فضائل الرضا لا تكفي لتفسير هذه الخطوة السياسية الهامة • ويظهر ان الفضل ابن سهل ووجود المأمون في خراسان هما اللذان اتهيا بالمأمون الى هذا العمل • ويوافق الفخري واليعقوبي والجهشياري على تدخل الفضل في الامر وقد شاع ذلك في بغداد آنئذ • كما يظهر أن للخراسانيين يداً فيه ويظهر ذلك من احتفائهم العظيم بالرضا ومن سلطته الكبرى فيهم ؛ ولعل ذلك إنما كان ليأسهم من بني العباس وبدء ميلهم الى العلويين •

وملاحظة أخرى حول طريقة المأمون في إعطاء ولاية العهد للرضا بشكل يكاد يكون اجبارياً قوله : (لا بد من قبولك ذلك ، فإني لا أجد محيصاً عنه) ، تدل على اضطراره لهذه الخطوة ، فهل شعر بضعف مركزه حتى في خراسان بعد ان خسر تأييد العباسيين له فاراد استغلال الميـــول الشيعية الناشئة هناك ؟ والتي تفشت بعد يأس خراسان من العباسيين ؟ أم أن الفضل بن سهل أراد تحويل الخلافة إلى علي تمهيداً لتحويلها ملكاً كسروياً ؛ كما اتهم في وجهه أمام المأمون إذ ذاك ؟ قد يكون في هــذا شيء من الصواب ولعل الأقرب منه الــى الواقع أن المأمون رأى تلك الثورات العلوية التي ملأت اليمن والحجاز والعراق ، وعرف انحراف أهله من بني العباس عنه فأراد اجتذاب العلويين إليه باختيار واحد منهم فتهدأ ثورتهم ! ••

ويجب أن نفتش عن تفسير هــذا «الانقلاب العلوي» في تفكير المأمون ، في تلك الصلة الفكرية القوية التي كانت قائمة منذ حوالي القرن مابين الشيعة الزيدية وبين مذهب المعتزلة من جهة وبينهــا وبين جماهير

الفقهاء في العالم الاسلامي من جهة أخرى • فإذا كان الكثير من الفقهاء المشهورين وأتباعهم قد عرفوا بميول علوية معتدلة ووصف بعضهم بالزيدية مثل مالك بن أنس وأبي حنيفة وسفيان الثوري والأعمش ومحمد بن هرمز وابن غيلان ••• الخ • فإن الزيدية كانت تبنى فكرها الفلسفي الفقهي على أساس الاعتزال وكانت نظرية الزيدية والمعتزلة في الإمامة متطابقة وهي تعطيها لأجدر الناس بها دون اعتبار الفرع النبوي الذي ينتسب إليه • ولاشك أن المأمون الذي وجد نفسه خارج النظرية العباسية ووجد انكماش الجماعة العباسية كلها عنه أراد أن يثبت حقه في الخلافة عن طريق تبني الفكر الاعتزالي ــ الزيدي ــ الذي يبرر إمامته ويوجد بين مختلف الاتجاهات الاسلامية وقد أراد تأكيد ذلك بإعطاء ولاية العهد لأبرز أبناء البيت العلوي في ذلك الوقت كبرهان على حق الامامة للأفضل وعلى ضرورة توحيد الاتجاهات الاسلامية • واختار لهذه العملية السياسية ــ الدينية «علياً الرضى» مع أنه ليس من الزيدية ولكن من الفرع الجعفري • ولنلاحظ أن المأمون ظل على اصطناع الخضرة بدل السواد حتى بعد وصوله إلى بغداد بأشهر كما أنه ظل على الجدل بفضل علي زمناً طويلا بعد ذلك وظلت المنابر تعلن بأمره أن علياً خير الخلق بعد الرسول •

أما ان الأمر كان مناورة سياسية من المأمون لتهديد بغداد ومن بها من العباسيين ليعودوا الى القبول به تمهيداً لانتقاله اليهم فيظهر أن ذلك بعيد الاحتمال إذ كان للبيعة العلوية وقع الصاعقة في بغداد ••• فزادت فيها الفوضى والنقمة على الوالي الحسن بن سهل وعلى الوزير البعيد الفضل (أخيه) وبايع الناس ابراهيم بن المهدي ! •• ولم يعلم المأمون بما

جرى ، وإنما علمه متأخراً من الرضا نفسه • إذ صرح له بما كان يجري ويكتم عنه ، فقرر المأمون سوء خطة ابن سهل وضرورة العودة عنها والاعتماد على بغداد والعباسيين ، ولا بأس في سبيل ذلك ، من التضحية بالرضا وبالفضل ، فتخلص من الرضا بعد قليل بالسم وتخلص معه من الفضل نفسه بينما كان في الطريق إلى عشيرته من العباسيين في بغداد ، أول سنة ٢٠٣ هـ •

وهكذا لم تحسم مع المأمون مشكلة ولاية العهد • وبالرغم من أنه خلع أخاه القاسم من بعده إلا أنه لم يعين أحداً بعده • ظل على ذلك خمس عشرة سنة ، حتى كان مرضه الأخير فعهد بالأمر إلى أخيه محمد ابي اسحق المعتصم متجاوزاً في ذلك ابنه العباس رغم حب الجند له • وترك المأمون لأخيه وصية ضمنها خلاصة تجاربه السياسية[1] يطلب فيها إليه: متابعة القول بخلق القرآن والاهتمام بجمهور الرعية «الرعية الرعية ، العوام العوام ، فإن الملك بهم والترفيه عنهم ، والتعجيل بالرجوع إلى العراق ، والاهتمام بالثغور والعواصم والجد في محاربة الخرمية •••• وان لايستوزر أحداً وأن يرفق بالعلويين «فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم ، واقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تفضلها في كل سنة عند محلها» •



(١) الطبري ج٨ ص ٦٤٧ ـ ٦٥٠ (٣/١١٣٦ ـ ١١٤٠)

الفصل العاشر

مشاكل الحكم ـ ٢

الـوزارة

آ ـ وزارة المهدي والهادي :

إن استقرار عهد المهدي بعد المنصور جعلـه يترك شيئاً فشيئاً شؤون الدولة لمن سمي (بالوزير) ، وابن الطقطقي يقول : «وفي أيامه ظهرت أبهة الوزارة ... بسبب كفاءة وزيره أبي عبيد الله معاويـة بن يسار ، ففوض إليه المهدي تدبير المملكة» ، ومن هذا الوقت تبدأ مكانة الوزراء بالظهور في العهد العباسي ، ويأخذ تسرب السلطة إليهم ومنازعة الخلفاء لهم على حدود تلك السلطة شكل نكبات يذهب بعضهم ضحيتها . وغالباً ما كان تعيين الوزراء يأتي بنتيجة مقدرة كتابية أو إدارية لامكافأة على خدمة أو نفوذ كما كانت نكباتهم ترجع إلى بعض الدسائس والحذر، لا إلى عجز أو انحراف ، وظلت مؤسسـة الوزارة مقلقلة الوضع تتبع هوى الخليفة في التعيين والعزل والالغاء . وقد استأثر بحث الوزارة باهتمام المؤلفين منذ ظهرت الوزارة وألفت فيه الكتب مـن الأقدمين

والمحدثين[1] على السواء . بسبب ما أصاب هـذه المؤسسة وأصحابها الوزراء من النكبات والاضطراب في التاريخ الاسلامي . بدأت الوزارة العباسية قبل ظهور الخلافة العباسية ذاتهـا وكان نصيب أول وزير لها القتل كما كان ذلك نصيب الثاني ونجا الثالث (الربيع بن يونس) الى حين فقد توفي المنصور قبل أن ينكب أو يصاب بسوء وقـد نحـاه موت المنصور بشكل آلي .

واستوزر المهدي أبا عبيد الله معاوية بن يسار ، ويسميه الجهشياري أبا عبيد الله عبيد الله بن عمران ، ثم قتل ابنه على أنه زنديق وصرفه[2]. ويبدو أن للدسائس في البلاط أثراً في صرفه وفي مقتل ابنه سنة ١٦٣ وقد كان كمـا يذكر الطقطقي «كاتب الدنيا وأوحـد الناس حذقاً وعلماً وخبرة ...» .

وجعلت الوزارة من بعده ليعقوب بن داوود حتى غلب على كل شيء في الدولة ، وحتى قال بشار بن برد : « الخليفة يعقوب بن داوود!» ثم نكب يعقوب سنة ١٦٦ هـ ونكب أهله بحجة ميله للعلويين فسجن في المطبق حتى اطلقه الرشيد منه سنة ١٨٧ هـ وقد ذهب بصره . ثم تلاه في

(١) من أهم الكتب القديمة الباقية في هذا الموضوع كتـاب الوزراء والكتاب للجهشياري . وكتاب الفخري في الآداب السلطانية لابن طباطبـا الطقطقي . وكتاب تحفة الامراء في تاريخ الوزراء لهلال الصابيء عدا عدد من الكتب الأخرى التي ما تزال مخطوطة . وأما من الكتب الحديثة فهناك كتاب سورديل عن الوزارة في العهد العباسي (بالفرنسية) وكتاب الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية لتوفيق سلطـان اليوزبكي (بغـداد) وكتاب الوزراء العباسيون لمحمد احمد برانق (القاهرة) .

(٢) يتحدث الفخري باسهاب ص ١٣٤ عن الدسائس التي أدت إلـى صرفه وصاحبها هو الربيع بن يونس .

الوزارة الفيض بن ابي صالح شيرويه حتى نهايـة خلافة المهدي وكان الفيض نصرانياً في الأصل ومن المشهورين بالعلم والأدب والكرم الواسع وقد انتهت وزارته بموت المهدي سنة١٦٩ ومات بعدذلك بأربع سنوات .

ووزر للهادي رغم قصر عهده ابو الفضل الربيع بن يونس (وزير المنصور من قبل) فقد كان هو الذي أخذ البيعة للهـادي في بغداد ثم صرف عن الوزارة[1] وأعطيت لإبراهيم بن ذكوان الحراني . ولكن عهد الهادي ذهب بسرعة فذهب معه ابراهيم أيضاً ...

ب ـ وزارة الرشيد وقضية البرامكة

ماكادت الخلافة تؤول الى الرشيد حتى استدعى كاتبه يحيى بن خالد بن برمك وعهد إليه بالأمر كله قائلا : «يا أبه ! أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الرعيـة وأخرجته من عنقي إليك فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت وأسقط من رأيت فإني غير ناظر معك في شيء ...»[2] يقول ابن الطقطقي : «وظهرت دولة بني برمك حينئذ» .

و(برمك) أو برموك ليس باسم ولكنه لقب لكبير سدنـة معبد النوبهار في بلخ . يقول المسعودي : وكان الموكل بسدنتـه (النوبهار) يدعى البرموك وهو سمة عامة لكل سدنتهومن أجل ذلك سميت البرامكة لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت[3] ويفهم من

---

(١) مات الربيع بن يونس في تلك السنة ١٦٩ وصلى عله الرشيد وهو ولي عهد وقيل إنه مات مسموماً بيد الهادي (حسب رواية المسعودي وابن خلكان) .

(٢) الجهشياري ـ الوزراء الكتاب ص ١٧٧

(٣) المسعودي ج٢ ص ٤٤٣ .

بعض المؤرخين (كالمسعودي وابن خلكـان) ان النوبهاريبت زرادشتي كبير للنار والأرجح انه معبد بوذي كمـا يتضح من أقوال ابن الفقيه والقزويني ومما يذكره ياقوت الحموي أيضاً إذ يقول الأول : «انه لعبادة الأصنام» ويقول الثاني : «كان فيها (بلخ) النوبهار وهو أعظم بيت من بيوت الأصنام ...» وليس في معابد النار أصنـام ويضيف القزويني قوله : «.. وملوك الهند والصين يأتون اليه» وهم البوذيون في الغالب إذ لامجوس هنالك[1] . واثبات بوذية البيت البرمكي دون مجوسيته له شأنه الكبير في دراسة النكبة البرمكية .

الجد : أول من اتصل اسمه بالاسلام والتاريخ الاسلامي من البرامكة هو برمك نفسه . وقد نقل ابن العديم في بغية الطلب خبراً عن اسحق البلخي الشاعر أنه رأى برمك قدم على هشام بن عبد الملك في خمسمائة شاكري فأكرمه وأعلى منزلته وأعجب به ثم أسلم فكان جليل القدر عظيم الموقع منه[2] . ويروي ابن ظافر الازدي خبراً آخر مشابهاً يقول فيه : إن برمك كان كاتباً ظريفاً أديباً قد تبحر في أخبار ملوك الفـرس وعلمائهم ونظر في علوم الاسلام وأنه صحب خواص عبد الملك بن مروان حتى اتصل به فحسن موقعه عنده ورزق الأولاد والعدد والغنى ...[3]» .

---

(١) ويتابعهم في ذلك بعض المستشرقين مثل براون (في تاريخ الادب الافرنسي) ونيكولسن (في الادب العربي) .

وتراجع مادة (برمك) في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) ذكر ذلك ابن العديم مرتين في كتابه المخطوط بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث ٢٩٢٥) ج٣ ورقة ٢١ ظهر وج٤ ورقة وهو ينقل الخبرين عن كتاب إلى حفص عمرو بن الأزرق الكرماني : أخبار البرامكة .

(٣) ابن ظافر ــ الدول المنقطعة (مخطوط المتحف البريطاني) ورقة ١١٢ وجـه .

ويبدو ان هذه المنزلة هي التي سمحت لابن برمك واسمه خالد ان يكون من الوجهاء البارزين في خراسان ثم أن يدخل في الدعوة العباسية السرية ويصبح داعية لمحمد بن علي العباسي ثم لابنه ابراهيم الامام . ويظهر أنه على كفاية في الادارة فكان يقسم الغنائم في جيش قطحبة وقد نظم الخراج بخراسان[1] ثم ولي لابي العباس ديوان الخراج والجند . وقام له بعد مقتل الخلال مقام الوزير ثم كان والياً في عهد المنصور على فارس ثم على الري وطبرستان واحتفظ بمكانته زمن المهدي ولئن غضب عليه فقد استطاعت الخيزران رده الى منزلته عنده فعهد اليه بتربيةهارون ابنه سنة ١٦١ هـ وقلده كتابته عند قيادة الصائفة سنة ١٦٣ حتى توفي خالد سنة ١٦٥ (٧٨١ – ٧٨٢ م) .

الاب : يحيى :

وقد عنى أبوه بتربيته وكان كاتباً لدى هارون منذ تولى المغرب (أي كل ما يلي الفرات الى الغرب ، من المملكة العباسية) وأقره الهادي على مكانه عند الرشيد وقد لعب يحيى دوره في عدم نقل ولاية العهد عن هارون . ويظهر أنه كان على تعاون في ذلك العهد مع ام الخليفة : الخيزران فلما صارت الخلافة إلى الرشيد استدعى يحيى وقال له : «يا أبت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلدتك امر الرعية وأخرجته من عنقي اليك فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واسقط من رأيت فاني غير ناظر معك في شيء[2]» وكانت الدواوين كلها اليه عدا الخاتم فضم اليه في السنة التالية سنة ١٧١ هـ «هو أول من

---

(١) الجهشياري ص ٨٧ .

(٢) الطبري ج٨ ص ٢٣٣ (٣/٦٠٣) وابن خلكان ج٢ ص ٤٤٣ :

أمر من الوزراء» على قول الجهشياري[1] وكانت الكتب تنفـذ باسم الخليفة فأصبحت تنفذ باسمه وكان من سداد الرأي والتدبير والسيرة بحيث تمكن مع ابنيه الفضل وجعفر من قيادة الامبراطورية العباسية سبع عشرة سنة (١٧٠ ــ ١٨٧ م) ــ (٧٨٦ ــ ٨٠٣ هـ) •

الولـدان :

اكبرهما هو الفضل وكان أخا الرشيد بالرضاع ، ودراسة سيرته تظهر بعض الجفوة والجد في طباعه • وكان يسمى «الوزير الصغير» لسلوكه هذا ولما كان يقوم به من دور عملي في الدولة : فلقد أخمد ثورة يحيى بن عبد الله المحض دون دمـاء وتولى للرشيد سنة (١٧٦ هـ ــ ٧٩٢ م) الجبال وطبرستان وارمينية ثم تولى خراسان (١٧٨ ــ ٩) فسار فيها سيرة حسنة في الخراج وزيادة رواتب الجند وأنشأ فرقة خراسانية من خمسمائة الف دعاها (العباسية) • وحفر قنـاة ببلخ وبنى المساجد والرباطات ••• كل هذا بسنة واحدة عدا ما كان من انسه وملذاته التي عاتبه عليها ابوه •

والفضل هو الذي ربى الأمين وأخذ له البيعة في خراسان بولاية العهد • وإذا تابعنا الطبري[2] والجهشياري[3] قلنا أن الفضل قد لعب دوراً رئيسياً في دفع الرشيد لمبايعة ابنه محمد الأمين • ولا نلاحظ له فيما عدا هذا الأمر أي نشاط في مشاكل البلاط الخاصة • فقد كان رجل

---

(١) الجهشياري ص ١٧٧ :
(٢) الطبري ج٨ ص ٢٤٠ (٣/٦١١)
(٣) الجهشياري ص ١٩٣ .

دولة وأما جعفر الأخ الثاني فأصغر من الفضل وقد لعب دوره في البلاط لا في الأعمال الرسمية كأخيه • كان من البلغاء حتى أصبحت توقيعاته على رقاع المظالم نماذج للكتاب وكان من الظرف والتأنق بحيث اختص بمنادمة الرشيد دوماً وملازمته فلم يفارقه إلا سنة ١٨٠ هـ التي ذهب فيها لتهدئة الشام • وقد عين لبعض الولايات للمغرب سنة ١٧٦ ولخراسان سنة ١٨٠ فلم يذهب اليها بل أرسل من ينوب عنه في الحكم[9] وكان يحكم قربه من الخليفة واسع النفوذ حتى كان يدعوه بأخيه ولا يتقدم عليه أحداً • ونعرف دالته على الرشيد من قصته مع عبد الملك بن صالح العباسي ، التي يرويها الجهشياري ويدهش لها ويرويها صاحب الفخري • وفيها إن عبد الملك زار جعفر البرمكي فجأة فوجده على شراب قد لبس الثياب المعصفرة كالذي جرت به عادة القوم إذ ذاك عند الشراب ، فاضطرب جعفر فقال عبد الملك : لا عليك • هاتوا لنا من هذه الثياب ! وارفقوا بنا فمالنا بهذا عادة ! فعلم جعفر أن له حاجة فتلطف به حتى بسطها فقال : إن في قلب أمير المؤمنين هنة فتسأله الرضى عني ، فقال جعفر ، قد رضي عنك أمير المؤمنين ، قال : وعلي أربعة آلاف درهم تقضى عني قال : إنها لعندي حاضرة لكن أجعلها من مال أمير المؤمنين قال وابني ابراهيم أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخليفة قال : قد زوجه أمير المؤمنين غالية (ابنته) قال : وأحب أن يخفق لواء على رأسه ، قال : «قد ولاه مصر» • وإذا كان من الأمور ذات المعنى الواضح أن يقصد عبد الملك إلى جعفر في هذه الأمور الخطيرة ولا سيما في مسألة الزواج بابنة الرشيد ، فمما يبرز بوضوح مكانة جعفر ، أن الرشيد أقر في اليوم التالي وعوده وأنفذها !

---

(٩) الطبري ج٨ ص ٢٦٦ (٣/٦٤٤)

ولقد بلغ من قرب جعفر إلى الرشيد أن نقل ديوان الخاتم إليه من اخيه ، وأشركه معه في النظر بالمظالم وحول دار الضرب اليــه ، وهو أمر لم يتنازل عنه الخلفاء من قبل لأحد[1] وأمر بكتابة اسمهعلى الدراهم والدنانير وجعل له ديوان البريد وديوان الطراز ... كما عهد اليهبتربية ابنه المأمون وكان سبب العهد اليه بعد اخيــه الأمين ، حتى لقد خاف يحيى ابو جعفر علىابنه مغبة هذه الصداقة الشخصية الزائدة فتقدم الى الرشيد أن يخفف عنه كما نصح إلى جعفر بأن ينهنه من اندفاعه !

وكان للفضل وجعفر اخوان آخران توليا بعض القيادات والاعمال هما : محمد وموسى ولكنهما لم يكونا بالواضحين في السياسة العباسية وإن كان لأعمالها بعض الأثر ، من قريب أو بعيد ، في النكبة البرمكية .

مكانة العائلــة :

ويظهر ان مكانة هذه العائلة لا ترجع فقط الى براعتها وسابقتها في خدمة العباسيين والاخلاص لهم ولكن ايضاً الى عمل امرأة ذات نفوذ كبير في البلاط هي الخيزران ام الرشيد ففي الطبري والجهشياري[1] اشارات واضحة الى ان يحيى البرمكي كان لايصدر الا عن رأيها فلما توفيت سنة ١٧٣ هـ (٧٨٩ ــ ٧٩٠ م) خسر البرامكة بهــا حليفهم لدى الرشيد . ولعله مما يبين مكانة الخيزران وتوضح بعض غوامضالمشكلة البرمكية ان هارون الرشيد حول ديوان الخاتم بعد وفاتها من البرامكة الى عدوهم الفضل بن الربيع وذكر لــه ان امه كانت تمنعــه من هذا فيطيعها . ويروي الطبري أنه أعطاه خاتم الخلافة يوم موت الخيزران

---

(١) المقريزي شذور العقود في ذكر النقود ص ١١ .

(١) الطبري ج٨ ص ٢٣٢ وص٢٣٤ (٣/٦٠٠ و ٦٠٤)

عند قبرها وقال : «وحق المهدي .. !ني لأهم لك من الليل بالشيء من التولية غير ما تمنعني أمي فأطيع أمرها[1] فخذ الخاتم من جعفر (البرمكي) ...» .

أسباب النكبة :

ينبغي قبل البحث التنبيه الى نقاط أربع :

أنه لم يكشف الرشيد أبداً عن سبب النكبة ويروي اليعقوبي أنه قال : «لو علمت يميني بالسبب الذي له فعلت هذا لقطعتها[2]...» .

٢ ــ يختلف المؤرخون في اسباب النكبة ويسجلون ذلك الاختلاف كلما بحثوا الأمر منذ عهد اليعقوبي والطبري إلى عهد المسعودي ثم إلى عهد أبي الفداء ومن جاء بعده وتكتم الرشيد بعد النكبة وسكوت البلاد هو الذي سمح للشائعات ان تدخل في درج الحقائق وللحقائق ان تشتبه بالشائعات .

٣ ــ من العسير أن يخرج الباحث برأي نهائي في موضوع النكبة البرمكية بالاعتماد على المصادر وحدها فإنها تتعصب للبرامكة أو عليهم ولئن كان أغلب المصادر في جانبهم وما يرد ضدهم لا يتعدى النتف المبعثرة فإن لهذه النتف دلالتها الهامة . ومرد ذلك التعصب للبرامكة الــى :

آ ــ تعصب الاعاجم من الكتاب والمؤرخين لهم وكثير من المصادر من تأليفهم .

ب ــ تعصب الكتاب لهم (كسهل بن هارون) لأن البرامكة كتاب في الاصل ومن مؤسسي هذه الطبقة .

---

(٢) الطبري ج٨ ص ٢٣٨ (٣/٦٠٩)

(٣) اليعقوبي ج٢ ص ٤٢٢

جـ ـ كرم البرامكة الواسع الذي غطى على كثير من مساوئهم .
د ـ العطف الذي اثارته فظاعة الفتك بهم .

٤ ـ لم تكن نكبة البرامكة مفاجئة ، كما يظهر من بعض الاخبار أو يعتقد بعض المؤرخين ، فنسيجها قد بدأ منذ وفاة الخيزران سنة ١٧٣هـ أو على الاقل منذ سنة ١٧٩ حين بدا للرشيد أن للبرامكة سياسة خاصة يتابعونها ويبنون من أجلها الركائز في خراسان . وثمة سلسلة من أعمال الرشيد تشهد بذلك وتدل على انه كان يراقبهم مراقبة شديدة : فهو قد عين الفضل بن الربيع عدوهم على خاتمه أول الامر ثم صرف سنة ١٧٩ محمداً بن خالد بن برمك عن حجابته واعطاها للفضل وولى في السنة التالية علي بن عيسى بن ماهان رغم معارضة يحيى على خراسان وهو عدو البرامكة وخراسان ما هي في الولايات العباسية ورفع جعفر عن الحرس الخلافي وعين له هرثمة بن أعين احد كبار قواده[1] . وسخط الرشيد اخيراً على الفضل بن يحيى سنة ١٨٣ «فشخص هذا الى الرقة ـ كما يقول الجهشياري[2] ـ ومعه امه .. فرضي عنه ... ولم يرد اليه شيئاً من أعماله» . واتهم موسى بن يحيى عند الرشيد بمكاتبة أهل خراسان للوثوب بالخلافة فأمر بسجنه سنة ١٨٦ هـ ثم اطلقه بعد توسط ام الفضل وبعد وعد من يحيى بضمان ابنه .

ولدينا بعض الأخبار التي تؤكد ما نقرره من ان الامر مبيت قديم: ففي العقد الفريد[3] قصة يرويها عن اسحق بن علي بن عبد الله بن العباس يذكر فيها الرشيد شكه بالبرامكة لقريبه ثم يقول «كان قتلهم بعد ست

---

(١) الجهشياري ص ٢٠٧ .
(٢) الجهشياري ص ٢٢٧ .
(٣) العقد الفريد ج٣ ص ٢٦٣ .

سنوات من ذلك اليوم» وفي اليعقوبي[1] رواية مماثلة عن ابن صبيح اسماعيل الكاتب سمع بها الرشيد يتهدد البرامكة ... ثم «حال الحول وحول ثان ثم ثالث فلما كان رأس الحـول الرابع قتلهـم» ويروي الجهشياري[2] للسندي بن شاهك صاحب الشرطة أن الرشيد أسر اليه ان يستعد للقبض على البرامكة قبل سنة من تنفيذ العقوبة .

ويحلو لبعض المؤرخين أن يفسروا النكبة على أنها ثورة عاطفية ولكن اصرار الرشيد عليها منذ سنة ١٨٧ هـ حتى وفاته سـنة ١٩٣ هـ لا يدع مجالا لمثل هذا الفرض . فان البرامكة لم يقتلوا جميعاً في لحظة واحدة وقد بقي منهم ومن أنصارهم عدد في السجون فلو كان الأمر من نزوات النفس العابرة لكان في السنوات الست التي تلت النكبةما يهدىء تلك النزوات .

. الاسباب التي ذكرها المؤرخون للنكبة ، تتلخص فيما يلي :

١ ـ قصة العباسة [1] :

يذكرون أن الرشيد لم يكن يصبر عن منادمة جعفر ولا عن منادمة أخته العباسة فعقد له عليها ليحضرا مجلسه على ألا يدخل بها ولكنه فعل واستولدها ولداً فغضب الرشيد ونكب العائلة . ذكر القصة ابن الأثير في مطلع الاسباب وذكرها الطبري في آخرها كما ذكرهـا الاتليدي في في كتاب واضح الاسطورة والاضطراب والبعد عن الدقة سماه (إعلام الناس في ما وقع للبرامكة مع بني العباس) واقتبسها زيدان من المحدثين

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٢٢
(٢) الجهشياري ص ٢٣٦
(٣) الطبري ج٨ ص ٢٩٤ ، ابن الاثير ج٦ ص ١٧٥

في قصة (العباسة اخت الرشيد) والاب أنطون اليسوعي (الرشيد والبرامكة) وقد راجت القصة بين الناس لصيغتها العاطفية كماضحى زيدان واليسوعي بالامانة التاريخية في سبيل التسلية وقبلها بعض المؤرخين (كالمدور وخدابخش) بشكلها الاسطوري ويمكن لنا أن نرجح أن هذه القصة موضوعة لأسباب عديدة :

آ ـ يروي الجهشياري[1] ان عبد الله بن خاقان سأل مسروراً الكبير (منفذ الاعدام في جعفر) في خلافة المتوكل عن سبب إيقاع الرشيد بالبرامكة فاجاب مسرور «كأنك تريد ماتقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة ... لا والله مالشيء من هذا أصل ... ولكنه من ملل موالينا وحسدهم» .

ب ـ هناك عدد من المؤرخين كالدينوري وبعضهم من الموثوق بهم وبمعرفتهم أخبار العراق وقربهم من عهد الرشيد كاليعقوبي لا يذكرونها والجهشياري بدوره يردها وابن كثير يقول : «ومن العلماء من انكر ذلك» .

ج ـ يفهم من ابن قتيبة[2] ان العباسة كانت متزوجة يقول : «..أما العباسة فزوجها هارون : محمد بن سليمان فمات عنها زوجها فزوجها من ابراهيم بن صالح بن علي» واذن فقصة زواجها الاسمى من جعفر وما أولدها من الولد الخ ... غير ممكنة .

د ـ يتصدى ابن خلدون لنبذ القصة منطقياً في مقدمته ويذكر : ما يجب ان يكون للعباسة من العفاف «لقرب عهدها بالبداوة وسذاجة

---

(١) الجهشياري ص ٢٥٤ .
(٢) كتاب المعارف ص ١٦٦ .

الدين البعيدة عن عوائد الترف ومواقع الفحش • فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها ؟ ••• أو كيف تلحم نسبها بجعفـر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم ؟ وكيف يسوغ الرشيد أن يصهر الى موالي الاعاجم على بعد همته وعظم آبائه ••» •

ويضيف ابن خلدون أنه : «لو قاس المنصف هذا الامر على ملك من ملوك زمانه لاستبعده فكيف بالعباسة والرشيد ؟ »ولعله مما يؤيد هذا الرأي انه كان من حجج المنصور في قتله ابي مسلم طلبه الزواج من عمة المنصور • فمن البعيد أن يزوج الرشيد أخته من جعفر !

هـ ـ ليس من المعقول ان يكتم البلاط امر علاقة بلغت مبلغ ولادة البنين بين العباسة وجعفر دون أن تفتضح ، وفي البلاط أعداء كثيرون للبرامكة على رأسهم زبيدة وحزبها والفضل بن الربيع ومن حوله •

د ـ ويمكن ان نضيف أخيراً أن شمول النكبة لجميع البرامكة ومن والاهم سنين طويلة ينفي ان يكون سببها أمراً شخصيـاً ومتعلقاً بشخص جعفر وحده •

٢ ـ السبب الديني :

يتهم عدد من المؤرخين البرامكة بالزندقة ومنهم البغدادي فيذكر أن الباطنية (من المجوس) لما لم يستطيعوا اظهار عبادة النار زينوا للمسلمين اتخاذ المجامر للبخور في المساجد «وكان البرامكة قد زينوا للرشيد ان يتخذ في جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود ابدا فعلم الرشيد انهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة وان تصير الكعبة بيت نار فكان ذلك أحد أسباب القبض على البرامكة» • وابن النديـم يقول • «آن البرامكة بأسرها ـ عدا محمد بن خالد بن برمك ـ كانت زنادقة» وقد

ظهرت من البرامكة أعمال تتهمهم بعض التهمة في ذلك ومنها تقريبهم لبني سهل وهم مجوس وتقديم الفضل بن سهل وكان مجوسياً اذ ذاك الى المأمون •

ولعل هذا السبب واضح التهافت ؛ فلو كان البرامكة يبطنون الكفر ، لاستطاع الناس أن يأخذوا عليهم ــ وقد امتدت أيامهم نصف قرن ــ أكثر من هذه الاتهامات الغامضة • ولكانوا أيضا تبنوا بعض الأفكار الدينية أو السياسية ليغطوا عقائدهم المجوسية • وإنما أتى البرامكة في هذه الناحية من الحسد ، ولنذكر انهم كما رأينا من قبل لم يكونوا في الغالب مجوساً • كما أن الاتهام بالزندقة والمجوسية في العصر العباسي الأول كان حجة سياسية طالما أشهرت في وجه كل أعجمي يتهم في أمره • ولنلاحظ أن الجهشياري حين نفى ، على لسان مسرور الخادم قصة المباسة نفى في الوقت نفسه قصة المجامر المتخذة للبخور في الكعبة قائلا عن الأمرين : لا والله مالشيء من هذا أصل !

٣ ــ السبب المالي :

يقول ابن خلدون «••• إنما نكب البرامكة ماكان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه[١]» • ويقول الجهشياري [٢] : «••• وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه من المال للحوادث ، سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله ، وأنه طلب من جعفر عشرة آلاف درهم ،فقال:

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ١٥
(٢) الجهشياري ص ٢٤٣ وص ٢٤٩

«لا توجد عندنا دراهم» • مع أن وارد الدولة السنوي كان يبلغ في ذلك العهد (٥٣٠) مليون درهم ونيف حسب قول الجهشياري نفسه • وهو يروي مرة أخرى ان الرشيد طلب مرة من يحيى مليون درهم فلم يجب طلبه ، وكان قد ورد من فارس ستة ملايين درهم ، ثم أخذ يحيى منها مليونا ونصف المليون وفرقها في عماله •••[1]» •

وملك البرامكة عدا هذا كثيراً من الضياع «وحاز جعفر ـ على قول الدميري ـ ضياع الدنيا لنفسه ، فكان الرشيد لا يمر بضيعة ولا بستان ، إلاّ قيل هذا لجعفر •••» وبنى قصراً كلفه عشرين مليون درهم[2] • ويروي الجهشياري أن يحيى البرمكي شاور بعض أصحابه حين رأى تغير الرشيد عليه فقال له : «ان أمير المؤمنين قد أحب جمع المال وكثر ولده فأحب أن يعقد لهم الضياع ، وقد كثر على أصحابك عنده•• فلو نظرت إلى ما في أيديهم ••• فجعلتها لولد أمير المؤمنين وتقربت بها إليه ، رجوت لك السلامة» فلم يرض يحيى بذلك •

وقد شعر الرشيد بتسلطهم المالي وغناهم ، فهو يقول لمسرور : «قد نهبوا أموالي وذهبوا بخزائني» ويروي الاتليدي له قوله : «أغنيناهم وأفقروا أولادنا ، ولم تكن لأحد من أولادنا ضيعة من ضيعة البرامكة» وقد «ضرب الرشيد يحيى مائتي سوط ليقر له بما أخفاه من الأموال[3]»

ويمكن أن نكوّن فكرة تقريبية على مال البرامكة من :

---

(١) الجهشياري ص ١٤٩ و ص ٢٤٣
(٢) الطبري ج٨ ص ٢٩١ (٦٧٣/٣)
(٣) الجهشياري ص ٢٤٤

آ ــ واردهم السنوي الذي بلغ (في رواية ابن عبد ربه وابن قتيبة) عشرين مليون درهم .

ب ــ مقدار ما قبضه الرشيد من أموالهم وقد بلغ ثلاثين مليوناً وستمائة وستين الف درهم (في بعض الروايات) . هذا عــدا ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم وهي ثروتهم الحقيقية لانهم كانوا ينفقون المال ــ على ما يقول الجهشياري ــ ولا يدخرونه .

جـ ــ عطايا البرامكة وأخبارها كثيرة : وقد بلغ بعض عطاياهم أربعة ملايين درهم[1] . وأحياناً عشرة ملايين درهم ، كما في قصة منصور بن زياد التي رواها الجهشياري . وقد قلد جعفر الخلفاء في العطاء فضرب دنانير خاصة للصلات : وجد في خزانته في صرة الف دينار قيمة كل دينار مائة دينار ودينار ، وفي بركة له أربعة آلاف دينار من هذا النوع وكان قد أمر ان تضرب له دنانير قيمة كل منها ثلاثمائة دينار[2] .

وهذا السبب كما يظهر ، كان عامــلاً من العوامل الرئيسية في النكبة ولكنه لا يمكن أن يقوم وحده لتفسيرها .

٤ ــ السبب الشخصي :

يذكر المؤرخون كثيراً من القصص كأسباب للنكبة ، كقصة غناء الجارية له بيتين من الشعر :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا ممــا نجد
واستبدت مــرة واحــدة   إنما العاجز من لا يستبد

---

(١) يمكن أن نرى نتفاً من أخبار العطايا الجزيلــة في الجهشياري ص ١٩٢ وص ٢٢٢ والطبري ج ٨ ص ٢٩١ والبغدادي ج ٧ ص ١٥٢

(٢) البغدادي ج٧ ص ١٥٦

وأكدت في غناء الشطر الأخير ورجعته ، حتى قام الرشيد من ساعته فأمر بنكبة البرامكة[1] . وثمة قصة شراء إحدى الجواري بمال كثير جداً فأراد جعفر أن يظهر للرشيد إنكاره ذلك ، فجعل المال كومة كبيرة في طريق الخليفة في القصر ليرى ضخامة المبلغ فيحجم فأكبرها الرشيد له . وقد لا يكون لمثل هذه الأمور الشخصية اكثر من قيمة وقتية حددت يوم الفتك ولكنها لم تكن سببه ، وبلغت بتراكم الاسباب لدى الرشيد حد التصميم ولكنها لم تكن السبب الدافع ولا الوحيد ولا يمكن ان تتهم الرشيد بانحطاط التقدير السياسي الى هذا الدرك ، على انا نعد من جملة الاسباب الشخصية امر الوشاية والدس . ويظهر انه كان لهذا الامر شأنه الاول في تدبير النكبة : فقد كانت علاقة الرشيد بجعفر خاصة ، قائمة على الصداقة والعاطفة وهي عرضة — في مثل طباع الرشيد الحساسة — للتأثر والانقلاب وقد أحس بذلك يحيى الاب فقال يوماً للرشيد «والله إني أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن ان ترجع العاقبة في ذلك علي منك . فلو اعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم اعمالك كان ذلك واقعاً بموافقتي وآمن لك علي» .

وقد دخل الخصوم على البرامكة من ناحية الدين والدولة على السواء واستغلوا كل الاتهامات الآلية والسياسية والدينية والاخطاء الادارية لتضخيم خطرهم وتشويه اعمالهم وإيغار صدر الرشيد عليهم : وعلى رأس هؤلاء الاخصام زبيدة زوج الرشيد التي كانت تكره البرامكة (وكانوا هم بدورهم يضايقونها) وتشكرهم للرشيد (حتى ابلغ ذلك مرة ليحيى نفسه) ويقال انها حملت الضغينة عليهم منذ أكد جعفر البيعة في

---

(۱) انظر الطبري ج ۹ ص ۱۲٦ (۳/۱۲۳۳)

الكعبة للمأمون على الامين (والمسعودي يعتبرها احد اسباب النكبة) ثم نذكر من الاخصام الفضل بن الربيع وهو حاجب الرشيد وابن خلكان يذكر اثر سعايته في نكبتهم وهو الذي اعلم الرشيد باطلاق سراح يحيى ابن عبد الله العلوي في السجن بأمرهم . ونذكر أيضاً علي بن موسى واتهامه لموسى بن يحيى بالتآمر مع الخراسانيين على الرشيد مما ادى لسجنه . كما كان يتبرع الكثيرون (رغبة أو حسداً) للدس على البرامكة ونسمع في بعض الاخبار بأمر قصائد تصل الرشيد ضدهم وعظات تلقى عليه ليوقفهم عند حدهم ، كموعظة محمد بن الليث له في انهم لا يغنونه من الله وقد جعلهم بينه وبين الله الخ ...

ويظهر ان اثر هذه الوشايات قوي كل القوة بعد تنكر الرشيد لامور البرامكة وثبات الريبة منهم في نفسه . ويمكننا ان نطلع على ذلك من روايتين رواهما الجهشياري[1] وابن الطقطقي هما ان الرشيد كان في اوائل حكمه جالساً على شرفة قصر الخلد فسمع صيحة عظيمة عرف انها خارجة عن المتظلمين الذين اجتمعوا حول يحيى بن خالد فقال : «بارك الله عليه واحسن جزاءه فقد خفف عني وحمل الثقل دوني وناب منابي» . وسمع الرشيد الضجة نفسها من المكان نفسه بعد سنين عديدة فقال : «فعل الله بيحيي وفعل ، استبد بالامر دوني وامضاها على غير رأيي وعمل بما احبه دون محبتي» .

٥ ـ السبب السياسي :

ولعله ابو الاسباب جميعاً وعقدتها ويمكن ان نبحثه من وجهات ثلاث :

---

(١) الجهشياري ص ٢٤٥ :

آ ـ في التشيع :

وللمستشرق بارتولد رأي ملخصه ان المذهب الشيعي انتشر في ايران بين الطبقات العامة لأنها وجدت فيه وسيلة لمقاومة الامويين السنة وان الارستقراطية الفارسية اتفقت موقتاً مع العامة واجتمعت تحت راية ابي مسلم «وهو احد رؤساء الشيعة» وحاربوا الأمويين ولما بلغوا الغاية تباينت المنافع فقتل ابو مسلم وقام انصاره ضد العباسيين وقد ثابر البرامكة ممثلو الطبقة الارستقراطية على العمل لصالح الخلفاء العباسيين حتى صاروا ضحية رد الفعل الديني في أواخر خلافة هارون الرشيد[1] «وفي هذا الرأي خطأ وتناقض فالنزاع بين الأمين والعباسيين لم يرتد يوماً ما صبغة نزاع سني ـ شيعي . وبلاد ايران لم تعرف التشيع العلوي حتى اواسط العصر العباسي الاول وانما كانت الدعوة الاولى فيها عباسية لا شيعية ونرى من ناحية اخرى اننا لو سلمنا بصحة الرأي وبان الارستقراطية عادت بعد اتفاقها الموقت مع العامة الى تأييد البيت الحاكم فان ذلك لا ينتج عنه أن البرامكة يمكن أن يكونوا شيعة . ولا يمكن ان نعتبر نكبتهم نتيجة رد فعل ديني من الرشيد ضد التشيع ولم نعرف عن الرشيد التسامح مع العلويين في أول عهد لنعتبر النكبة البرمكية رد فعل منه ضدهم في اواخر أيامه . ولقد يكون للبرامكة ميول علوية ولكن الفرق كبير بين وجود الميول وبين وصفهم بالتشيع . على انه ليس بالبعيد أن يكون لهذه الميول العلوية أثرها في تهيئة مقاتل البرامكة في خاطر الرشيد[2] .

ب ـ في العامل القومي :

يوصم البرامكة دوماً بالميل مع فارسيتهم ويشتبك مع هذه الوصمة

---

(١) بارتولد ـ الحضارة الاسلامية ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٢) للدكتور احمد فريد الرفاعي في عصر المأمون رأي بان البرامكة كانوا معتزلة ولاندري مصدره في هذا ولا مبلغ ذلك في تفسير النكبة .

دوماً الاتهام الديني بالمجوسية واذا كانت هذه التهمة بعيدة فالتعصب للفرس ــ على ما يظهر ــ امر محتمل الوقوع • فالمنصور يتهم خالداً البرمكي وهو يحاوره في هدم ايوان كسرى بالميل مع اعجميته • وقد كان البرامكة يبغضون العرب ويحاولون اقصاءهم عن مناصب الدولة فهم كما ذكر ابن النديم يكرهون محمد بن الليث لميله على العجم ويسعون لدى الرشيد للايقاع بيزيد بن مزيد الشيباني ولاتهامه بالتراخي في حرب الخوارج من بني شيبان ••• كما يذكر البيروني ان الفرس اجتمعت لخالد تسأله تأخير النوروز (الانقلاب الصيفي وموعد جباية الخراج) نحوا من شهرين ليتفق موعد الجباية مع نضج الزرع كما كان عليه الامر زمن بني ساسان فعزم يحيى فتكلم اعداؤه فيه واتهموه بالتعصب للفارسية (المجوسية) فأضرب عن ذلك • كما أنهم حين استحكم لهم الأمر نظموا جيشاً في خراسان من نصف مليون جندي عمل الرشيد طويلا ــ بواسطة علي بن عيسى بن ماهان ــ على ضرب قواعده وتشتيته •

ويظهر انه كان للبرامكة يد في تكتيل مايشبه الحزب الفارسي في الدولة فقابله العرب بتكتل آخر تزعمته زبيدة زوج الرشيد • ومن نتيجة تزاحم هاتين الكتلتين كان النزاع الاخوي بين الامين والمأمون ويلاحظ ان بعض الخصام البرامكة (كعلي بن عيسى بن ماهان) ينضمون الى الكتلة العربية نكاية بهم ولاسقاطهم •

جـ ــ في ادارة الدولة :

وها هو المجال الرئيسي لبحث سر النكبة : فالمؤرخون يجمعون على أن البرامكة استبدوا بالدولة (يذكر ذلك الطبري واليعقوبي

والجهشياري والمسعودي ...) وانهم «غلبوا الرشيد على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في شؤون ملكه» «وقد يكون فيهذا بعض المبالغة ولكنه يستند الى اساس واقعي من النفوذ البرمكي» ، ويعزو اليعقوبي نكبتهم الى ذلك بقوله : «قيل ان جعفرا والفضل ظهر منهما من الادلال مالا تحمله نفوس الملوك فنكبهم لذلك» ويرى رأيه ابن العماد في شذرات الذهب واليافعي في مرآة الجنان ..

ولعل ابن خلدون كان من أنفذ المؤرخين نظراً في الأمر حين أجمل أسباب النكبة في أربعة أمور واضحة :

١ - استبداد البرامكة بأمر الدولة وعلو اسمهم على اسم الخليفة .

٢ - استيلاؤهم على الضياع والمال .

٣ - اصطناع الأقارب والمحاسيب في الوظائف .

٤ - سعاية الحساد بهم عند الخليفة .

ويلفت النظر عند ابن خلدون كلامه عن استئثارهم بالمناصب وقوله إنهم «عمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة حجابة وسيف وقلم ...» وقد لا يكون لهذه الأمور قيمتها وقد تكون تلك الدالة من جمع المال وتعيين الأقارب أمراً عادياً لولا أنها أضحت في النهاية مجالا للدس عليهم من الحساد من جهة ومجالا لارتياب الرشيد في أمرهم وولائهم الشخصي له من جهة أخرى والسبر الحقيقي للنكبة يجب أن يبحث عنه في هده

النقطة بالذات التي أدت ـ في فترات من قصر النظر السياسي ـ إلى الغرور البرمكي والى أن يتصرف البرامكة تصرفات سياسية خطيرة في الدولة تجاوزوا حدودهم فيها ولا شك أن الرشيد رآها تعبر عن ميول معينة خطرة على سلامة دولته فلم يحتملها . وعند هذه التصرفات الخطرة إذن نقف قليلا بالتحليل لانها السبب المنطقي الوحيد الذي يكشف النكبة البرمكية .

د ـ تهديد **خلافة الرشيد** : يبدو أن الرشيد بعد مرور سنوات على تسليمه أمور خلافته التسليم المطلق للبرامكة بدأ يشعر بخطر بعض تصرفاتهم عليه . ويبدو أن انتباهه إلى تلك التصرفات ـ ولا شك أن لرجال الحاشية من أعداء البرامكة يداً في إثارة هذا الانتباه ـ إنما بدأ بالذات سنة ١٧٩ ، كما يبدو أخيرا أن الأسباب قد تراكمت لديه سنوات عديدة بعد ذلك حتى أفضت إلى النكبة سنة ١٨٧ ، وترفدنا في هذا المجال قصة تذكر أنه أخذ عليهم «أربعة عشر أمراً» يروي الجهشياري ذلك نقلاً عن مسرور الخادم ، جلاد الرشيد ويروي بعض تلك الامور في قصة أتى فيها الخليفة بيحيى بن خالد البرمكي من السجن فندد به وهو يعددها ومنها[1] :

أولاً : أن يحيى البرمكي حمل الى يحيى بن عبد الله المحض وهو ثائر بالديلم مائتي ألف دينار وقد أقر بذلك وبأنه إنما أراد أن تقوى شوكة العلوي فيتوجه الفضل بن يحيى لقتاله فينتصر عليه فيكون

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٢٤٢ ـ ٤٣

أحظى عند الرشيد . وقد تم ذلك بالفعل وسقط العلوي في السجن[١] .

ثانيا : أن البرمكي أنفذ مع غلامه رياح إلى ثائر علوي آخر هارب مختف بالبصرة هو أحمد بن عيسى بن زيد سبعين ألف دينار .

ثالثا : أن عائلة الرشيد طلبت وهو بالبصرة ، ألف ألف درهم من يحيى البرمكي وقد ورد عليه من خراسان ستة آلاف ألف درهم فرفض ثم أخذ هو منها ألف ألف وخمسمائة ألف ففرقها في عماله . واضطر الرشيد أن يقترضها منهم بواسطة يونس بعض رجاله .

وإذا لم تأت القصة ببقية الامور فلعلنا نستطيع أن نقدر بعض هذه البقية في النقاط التالية : ويرجع أقدمها الى سنة ١٧٩ وهي :

رابعا : مشكلة جيش خراسان وخراسان : ولعلها النواة التي تكونت وتراكمت من حولها باقي الاسباب فقد عين الرشيد الفضل بن يحيى سنة ١٧٨ والياً على الجانب الشرقي من الدولة فشخص الى خراسان وأقام فيها عاماً وبعض العام . ولم تكن تصرفاته كوال تختلف عن تصرفات أمثاله من الولاة المطلق اليد والسلطة ولكنه قام بعمل خطير لا شك أن حاشية الرشيد العربية استطاعت أن تكشف له أبعاده السياسية وتجعله ركيزة الشكوك : ذلك أن الفضل جند جيشاً عظيماً من ٥٠٠ ألف جندي من العجم ـــ وهو رقم خطير لم يجتمع من قبل جيش في عدده وقد يكون فيه بعض المبالغة ـــ وسماهم العباسية ودون أسماء جنده في سجلات

---

(٢) كان ذلك سنة ١٧٦ أي قبل النكبة بزمن طويل وفي وقت كان فيه الرشيد مسلماً بكل شيء للبرامكة لكن هذا لا يمنع من أن يكون الرشيد ، بعد انتباهه لتآمر هؤلاء وتقريره نكبتهم قد عاد بذاكرته الى مثل هذه الحادثة فحلل معناها وضمها الى أخطاء وزرائه وعدها دليلا على تآمرهم .

خاصة وأجرى عليهم الارزاق الدائمة «وجعل ولاءهم لهم» أي للعباسيين فلما قدم بغداد ، قدم في عشرين ألفاً منهم سموا في بغداد الكرمينية وخلف الباقي بخراسان على اسمائهم ودفاترهم[1] . كما خلف على الولاية أخاه موسى بن يحيى الذي قيل عنه إنه «أحد الفرسان الشجعان» وأنه مغامر « يفعل ما لا يجد » ![2] وأقيم للفرقة الكرمينية في بغداد معسكر في الرصافة وجعلوا حرساً للرشيد !

ولا شك أن أعداء البرامكة ـ وفي الحاشية والبلاط منهم الكثير ـ استطاعوا أن يؤكدوا للرشيد أنه أصبح الآن الأسير المطوق كل التطويق من البرامكة وهذا ما يفسر تحركه البطيء والثابت في الوقت نفسه للخلاص من هذا الخطر : وقد أخذت سياسة المطاولة والتدبر البطيء بعض الوقت منه : عزل أولا الفضل بن يحيى عن خراسان سنة ١٧٩ وأبقاه على ولايتي طبرستان والرويان ثم عزله عنهما سنة ١٨٠ وعن الري وعين مكانه أخاه جعفراً سنة ١٨٠ /٧٩٦ بعد أن أخذ الخاتم منه وحوله الى أبيه يحيى ..

ولم يسمح الرشيد لجعفر بالمسير الى خراسان لأنه وإنما عينه لتبرير عزل أخيه فلم تمض عشرون يوماً على التعيين[3] حتى عزله عنها أيضاً وجعله رئيساً للحرس ثم عزل جعفراً أيضا عن الحرس وجعله لهرثمة بن

---

(١) الطبري ج٨ ص٢٥٧ (٣/٦٣١) وانظر العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص٢٩٦

(٢) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص١٩٨ والطبري ج٨ ص٢٩٣ (٣/٦٧٥)

(٣) الطبري ج٨ ص٢٦٦ (٣/٦٤٤)

أعين ... وبرر الرشيد عزل جعفر عن خراسان بأن أعطاها لواحد من كبار الأمراء العباسيين : عيسى بن جعفر (أخي زبيدة زوج الرشيد) . ولم يستطع البرمكي أن يقول شيئاً في ذلك لمكان عيسى من الأسر المالكة ، ثم لم تمض أشهر حتى عزل الرشيد عيسى بن جعفر وأعطى ولاية خراسان الى علي بن عيسى بن ماهان وهو من أكبر أعداء البرامكة .

وسار ابن ماهان إلى خراسان مسرعاً فكان أول ما فعله أن قطع أرزاق الجند العباسية في خراسان فانحل أمرهم . واضطهد أنصار البرامكة من الدهاقين والطراخنة وقسا عليهم بالمصادرة والقتل حتى « قتل وجوه أهل خراسان وملوكها وطراخنتها »(1) وتنقل ما بين الري ومرو وسمرقند يجمع الأموال الطائلة ، بغية الافقار في الغالب . بدليل أن الوفود الخراسانية جاءت تشكوه إلى الرشيد وأن البرامكة اتهموه عنده أنه «قد أجمع على الخلاف»(2) و «حمل عليه» فاستدعاه الرشيد سنة ١٨٣ فجاءه وقد حمل مالاً عظيماً .. روى الجهشياري أنه كان ألف بدرة معمولة من ألوان الحرير وفيها عشرة آلاف درهم .. إلا أنه لم يعزل .. وبقي على الولاية يحكمها ، ذلك أن الرشيد عرف في تلك السنة ١٨٣ أموراً أخرى أضيفت إلى الأولى .

خامساً : وصل ضغط الحزب الفارسي ــ البرمكي في سنة ١٨٢ــ ١٨٣ إلى أوجه لإعطاء ولاية العهد الثانية للمأمون . وقد شهد الرشيد حماسة جعفر البرمكي وتحريكه كل القوى لهذه القضية

(1) الجهشياري ــ الوزراء ص ٢٢٨
(2) الطبري ج٨ ص٧٢٠ (٣/٦٤٨ــ٩)

وبالرغم من أنه قبلها وأقرها وقبل معها إعطاء المأمون ولاية خراسان إلا إنه أبقى على تلك الولاية علي بن عيسى بن ماهان باسم المأمون[١] . ولا شك أنه إنما قصد إلى متابعة سياسته المرسومة في إفقار الجهابذة والدهاقين هناك وتدمير القواعد التي بناها البرامكة لأنفسهم في المنطقة .

سادساً : في تلك الفترة نفسها : اتصل الرشيد ــ عن طريق الفضل بن الربيع زعيم الحزب العربي ــ أن جعفراً قد أطلق يحيى بن عبد الله المحض من السجن دون معرفته . وقد أتى الخليفة بجعفر وسأله فاعترف له جعفر بالأمر . فقال الرشيد : « نعم ما فعلت . ما عدوت ما كان في نفسي » فلما ذهب جعفر قال الرشيد : « قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك ! »[٢] .

ويعقب الطبري على هذه الرواية بقول أبي محمد الزيدي راويها « ــ وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم ــ من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله فلا تصدقه ... »[٣] .

---

(١) الطبري ــ المصدر ذاته وابن الاثير ١٦٣/٦

(٢) الطبري ج٨ ص ٢٨٩ (٣/٦٦٩ــ٦٧٠)

(٣) تكاد تجمع المصادر كالمسعودي (مروج ٣٥٢/٣) وأبي الفرج الاصبهاني (مقاتل الطالبين ص٤٧٢) واليعقوبي (١٤٠/٣) وابن الحنبلي (شذرات ٣٣٧/٢) أن يحيى بن عبد الله قتل في السجن وتحدد بعض المصادر موعد ذلك بعد سنة ١٧٦ بقليل وفي هذا ما ينفي قصة اطلاق سراحه واثرها في نكبة البرامكة . إلا ان تكون قضية مقتله في السجن (وهي مختلفة الروايات) إنما كانت من قبيل التغطية على هربه . وأن تكون

سابعاً : وعلم الرشيد في تلك الفترة من سنة ١٨٣ وما بعدها بأمر آخر من النوع نفسه : فقد كان قد دفع إلى الفضل بن يحيى بالإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق وأراد منه أن يتناوله بالعقوبة ـ وكان ذلك دون شك عن تخطيط سياسي يقصد الى تشويه موقف البرامكة أمام العلويين لا سيما وقد كان الرشيد « قد صرف الفضل بن يحيى عن الأعمال التي كان يتقلدها ـ أولاً بأول ـ كما قال الجهشياري ـ[1] فلم يفعل الفضل . وبلغ الرشيد أن الإمام عنده في رفاهية وسعة . وكان الرشيد في الرقة فأرسل إلى السندي بن شاهك صاحب شرطة بغداد أن يجلد الفضل ويحتفظ لديه بالإمام وقال بحضور يحيى البرمكي الأب:أيها الناس إن الفضل قدعصاني وخالف طاعتي فرأيت أن ألعنه .. » .

واضطر الفضل أن يشخص إلى الرقة ومعه أمه زبيدة بنت منير (مرضعة الرشيد) يسترضيه : « فرضي عنه وأقره مع الأمين لحضاانته » ولكنه « لم يرد إليه شيئاً من أعماله »[2] بعد ذلك .

ثامناً : سجن الرشيد عبد الله بن الحسن العلوي المعروف بالأفطس عند جعفر بن يحيى فضيق عليه تضييقاً جعل عبد الله يكتب إلى الرشيد كتاباً فيه اللوم والسباب فطلب الرشيد من جعفر أن يرفه عنه ولا يلجئه إلى مثل هذا الكلام ولكن جعفراً قتله وبعث برأسه

معرفة الرشيد بالهرب إنما جاءت متأخرة سنوات عن تاريخ هربه الحقيقي .. وأن يكون يحيى قد ظل متخفياً لا يظهر لاسيما بعد نكبة البرامكة حتى توفي .. وهو ليس بغريب في ذلك العصر .

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص٢٢٧

(٢) المصدر ذاته

إلى الرشيد ! ولعله ظن في ذلك القربى وإثبات الولاء فارتاع الرشيد وبهت . وعاتب جعفراً ووبخه[1] ... ولكن بعد أن دمر جعفر علاقة الرشيد بكثير من العلويين . ذلك أن الرشيد كان يتحرج دوماً من أن يتهم بدم أي علوي كما يظهر ذلك من إشهاده الشهود على شحوب يحيى بن عبد الله المحض ، وموت موسى الكاظم الموت الطبيعي[2] .

تاسعاً : ووصل الرشيد أيضاً في تلك الفترة ذاتها من سنة ١٨٣ وما بعدها من ابن ماهان صاحب خراسان أن التهمة التي توجه إليه إنما هي تغطية لأعمال البرامكة أنفسهم في تلك المنطقة فإن موسى بن يحيى البرمكي كان يكاتب أهل خراسان ــ وهم يطيعونه ويحبونه ــ ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة ، فأقر ذلك في نفس الرشيد وشعر موسى ــ كما يبدو ــ بالأمر ، فتوارى فترة عن الأنظار . وادعى البرامكة أنه ركبه دين وأنه اختفى من غرمائه ، فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له .. ويبدو أن والده يحيى أقنعه بالاستسلام وانتهز مناسبة عودة الرشيد من الحج مع وليي عهده سنة ١٨٦ فوافاه موسى في الحيرة فأمر به فسجن عند العباس بن موسى في الكوفة ثم تشفعت أمه في أمره على أن يضمنه أبوه .. فأطلقه[3] .

وهذه الأمور كلها جعلت الرشيد يقصر من حبال البرامكة ويتربص الفرص السانحة لموقف حاسم يسحب به من أيديهم كل

---

(١) ابو الفرج الاصبهاني مقاتل الطالبيين ص ٣٢٨
(٢) انظر اليعقوبي ج٢ ص ٤١٤ والبغدادي ــ تاريخ بغداد ج١٣ ص ٣٠ و ج١٤ ص ١١٠ والطبري ج٨ ص ٦٢٠.
(٣) ابن الاثير ج٦ ص١٧٧ والطبري ج٨ ص٢٩٣ (٣/٦٧٥ــ٦٧٦)

السلطات التي كان أعطاهم إياها . وقد كان تسليمه كافة أمور الدولة لهم في السنوات العشر أو الاثنتى عشرة الأولى هي التي تحرج موقفه في سحبها كلها الآن منهم . وتروى بعض القصص أنه كان حائراً يستخير الله . ويروون عن مسرور خادمه أنه فاجأه وهو متعلق بأستار الكعبة سنة ١٨٢ يقول : اللهم إني استخيرك في قتل جعفر .. فتوارى الخادم رعباً أن يراه [١] .

ولم يكن موقف الرشيد المتزايد في البرودة وفي التباعد بالود ليخفى على يحيى بن خالد البرمكي الأب ، ونجد في المصادر أنه يطلب أكثر من مرة الاذن له بالمقام في مكة وجدة[٢] .. كما نجد بين الأخبار أنه كان بدوره يستنجد الله في الكعبة[٣] .. وأنه عرف تغير الرشيد عليه وعلى أولاده فذهب يستشير المقربين ماذا يفعل .[٤] وأنه كان دائم الخوف من انقلاب الرشيدعلى الأسرة[٥] . ويبدو في الوقت نفسه أن جفاء الرشيد مع البرامكة لم يبق سراً في الفترة الأخيرة كعهدهم وكان الناس فيما يبدو يتحدثون في نكبة البرامكة قبل أن تحدث ويروي الطبري أن « الناس قالوا في البرامكة فأكثروا وكان ذلك أول ما ظهر في تغير حالهم »[٦] كما يروي أبو الفرج الأصبهاني أن إسحق الموصلي دخل على الرشيد فسأله : إيه يا إسحاق . بماذا يتحدث الناس

---

(١) الجاحظ ــ كتاب التاج في اخلاق الملوك ص ٦٦

(٢) الطبري ج٨ ص٢٦٨ و ص٢٧٤ وص

(٣) الطبري ج٨ ص ٢٩٢ (٣/٦٧٤ و ٦٧٥) والجهشياري ص٢٢٢

(٤) الجهشياري ــ الوزراء ص ٢٢٧ .

(٥) الطبريج٨ ص٢٩٣ وصوص٢٩٢ والجهشياري ص٢٢٤ــ٢٢٦

(٦) المصدر نفسه ص٢٨٨ (٣/٦٦٩) .

قال : يتحدثون بأنك ستقبض على البرامكة وتولي الفضل بن الربيع الوزارة فصاح الرشيد بوجهه : ويلك . وما أنت وذاك ؟ فسكت إسحق ولم يحر جواباً[1] ...

وجاءت أخيراً القشة التي قصمت ظهر البعير في مشكلة خطيرة أخيرة هي :

عاشراً : مشكلة عبد الملك بن صالح بن علي العباس . فقد عاد الرشيد من الحج سنة ١٨٦ ، بعد أن علق عهد ولديه في الكعبة ورأى بعينه أن جعفر بن يحيى يمسك بالأمين ويطلب إليه أن يقول ثلاث مرات عن أخيه المأمون : خذلني الله إن خذلته[2] .. ولكنه علم فيما يظهر وهو في طريق العودة أن جعفراً متفق مع عبد الملك بن صالح العباسي على تحويل الخلافة إليه ..

لا تذكر أي من المصادر هذا الأمر بهذه الصراحة ولكن القرائن تؤدي إلى مثل هذه التهمة :

أ ــ فإن عبد الملك بن صالح أبرز وجوه الأسرة العباسية يومذاك كان من أشد خصوم البرامكة من قبل ولكنه أضحى في تلك الفترة من أصدقائهم المقربين .

ب ــ ما كاد الرشيد ينتهي من قتل وسجن ومصادرة البرامكة حتى أعلن أنه كشف تآمر عبد الملك عليه في سنة ١٨٧ نفسها . وتذكر المصادر أن الذي تطوع وكشف الأمر للرشيد هما اثنان : عبد الرحمن

---

(١) الاصبهاني ــ الاغاني (ط . بولاق) ج٥ ص١١٤
(٢) الجهشياري ص ٢٢٢

ابن عبد الملك نفسه ، وقمامة كاتب عبد الملك[1] وهو أمر مستغرب لو لم يشعر هذان الاثنان بأن نكبة البرامكة القاسية سوف تلحق بهما أيضاً وإلا فما الذي يدفعهما لكشف التآمر .

جـ ــ ما كاد الرشيد يقبض على عبد الملك حتى بعث إلى يحيى البرمكي في السجن يطلب منه معلوماته عن المؤامرة ويتهدده بقتل ابنه الثاني الفضل ، وهو سجين معه إن لم يدل بما يعرف[2] .

د ــ وأخيراً لم يكن الرشيد قد وصل عاصمة ملكه بغداد حين أمر بقتل جعفر والتمثيل به : أتى برأسه إليه وقطع جثته نصفين وصلبها على الجسرين في بغداد ثم أمر بعد ذلك بسنوات بإحراقها ! بينما اكتفى بسجن أبيه وإخوته ومصادرة أملاك الأسرة وأصحابها . ثم ماكاد يعلن تآمر عبد الملك العباسي حتى تشدد أقسى التشدد مع البرامكة ثم رفض أي التماس للعفو عنهم حتى من أمهاته المرضعات ومن أقرب الناس إليه وكان يقول : « لو وثقت بصفاء نيتهم لأعدتهم الى حالهم ولكنهم قوم كفروا النعمة وأرادوا الشر بي . ومن أراد بي ذلك فلا غفران له .. » أو يقول « عظيم ذنبكم أمات خواطر العفو عنكم .. »[3] ومات يحيى وابنه الفضل في السجن .

وهذه السرعة من ايقاع النكبة والرشيد ما يزال في الطريق إلى

---

(١) الطبري ج٨ ص٣٠٢-٣٠٣ (٣/٦٨٩-٦٩٠)

(٢) الطبري ج٨ ص ٣٣٠ (٣/٦٩٣)

(٣) انظر ابن خلكان (طبعة بولاق) ج٢ ص٣٦٥ وابن قتيبة ــ المعارف ص١٣٥ ــ وقد مات يحيى بن خالد في السجن سنة ١٩٠ في بلدة الرقة وعمره سبعون سنة .

بغداد[1] وتلك القسوة الشديدة التي رافقت تنفيذها ليس يبررها إلا أن يكون الأمر يتعلق بسلامة الرشيد نفسه وملكه ومما لا يمكن معه الإمهال والمهادنة ، ويبدو أن الرشيد فضل على طريقته من المداورة الهادئة أن يفتك أولاً بجعفر وأهلــه وهم الأبعدون فلما انتهى منــه التفت إلى الجناح الثاني من المؤامرة أي إلى الأقربين وادعى أن ابن عبد الملك وكاتبه قد تطوعا لكشف تآمر عبد الملك عليه وذلك كي لا يحتج أنصار البرامكة والعباسيين المتآمرون معاً ضده لو فتك بالطرفين في وقت معاً .. ولهذا ترك الرشيد مقتل جعفر ونكبة أهله بدون تبرير واضح . وإذا لم يعلن فيما بعد ارتباط المتآمرين عليه أحدهما مع الآخر فلأنه كره أن يعرف الناس أن أقرب المقربين إليه عائلياً ووظيفة يكرهان معاً بقاءه ويتآمران معاً عليه .

وتروي المصادر أن الرشيد أتى بعبد الملك إليه فندد به وأخذ بشهادة ابنه وكاتبه ضده واتهمه بأنه ليس لصالح العباسي ولكنه لمروان الجعدي[2] ثم سجنه وهو يقول : أما والله لولا الإبقاء على بني هاشم لضربت عنقك ..

فهل كان بإمكان عبد الملك أن يتآمر وحده للوصول إلى الخلافة

---

(١) يذكرون أنه عاد من الحج الى الحيرة فأقام أياماً ثم شخص بالسفن الى الانبار فنزل بناحيتها عند العمر ومن هناك امر بما امر في البرامكة (الطبري ج٨ ص٢٩٥)

(٢) كانت أم عبد الملك جارية لمروان بن محمد آخر خلفاء الامويين اخذها صالح بن عبد الله فولدت له عبد الملك وقيل انها كانت حاملا به من قبل مروان . فلما عيره الرشيد بذلك قال : ما أبالي أي الفحلين غلب علي" (الطبري ج٨ ص٣٠٥-٣/٦٩٢) .

لو لم يكن قد اتفق مسبقاً مع أقوى الجماعات المسيطرة على الدولة وليس من جماعة يومذاك تعدل في قوتها البرامكة وأنصارهم ومواليهم وصنائعهم الذين كانوا يشكلون دولة أخرى في دولة الرشيد كما قال أبو الفرج الأصبهاني[1] وبالمقابل فإن انصراف الرشيد عن البرامكة بعد إذلالهم السابق وظهور ذلك في تصرفاته كان سبباً كافياً لإغراء جعفر البرمكي بقبول الاتفاق مع عبد الملك العباسي ضده . صورة الأخوة التي كانت موجودة بين الرشيد وجعفر قبل سنة ١٨٠ لم تعد موجودة ولا كانت هي نفسها بعد سنة ١٨٣ .. ولم يكن أي تحرك برمكي ممكناً ضد الرشيد إن لم يجد البرامكة شخصية عباسية بديلة عنه وقد وجدوها في عبد الملك وطموحه . وقد سجن عبد الملك أسوأ السجن أولاً ثم ترفق الرشيد بقرابته فجعله في سجن يليق بمثله لدى الفضل بن الربيع ولكنه لم يطلقه حتى جاء الأمين . ثم مات عبد الملك في الرقة سنة ١٩٩ في خلافة المأمون .

حادي عشر : وثمة أمر هام يلفت النظر في تصرفات الرشيد بعد سنة ١٨٠ لم يعره الباحثون أي التفات رغم اتصاله بالقضية البرمكية هو رغبته في الخلاص من بغداد ، هذه العاصمة التي ارتبط اسمها به واسمه بها على الدهر . لقد جرب الرشيد الخروج منها إلى مقر جديد مرتين ثم هرب منها في النهاية حتى آخر حياته ، وهذا أمر يجب أن يكون له معناه السياسي ومكانه من القصة البرمكية .

يحدثنا ابن الأثير أن الرشيد سار سنة ١٨١ الى الحيرة وابتنى بها

---

(١) أبو الفرج الاصبهاني ـ الاغاني ج٤ ص ٣٩

المنازل فأقطع أصحابه القطائع فثار بهم أهل الكوفة وأساؤوا مجاورته (ولعل ذلك لميولهم العلوية) فعاد إلى بغداد[1] .. ومن الصعب أن نفسر محاولة الرشيد الهرب من بغداد التي أصبحت مجمع الدنيا في عهده إن لم تتذكر أنه في تلك الفترة بالذات بدأ يرتاب بالبرامكة .. وما من شك في أنه كان يصطنع الحذر منهم ويخشى أعوانهم بدليل أنه حين عزم على الفتك بهم وكان عائداً من الحج لم يدخل العاصمة ولكنه انحاز إلى الأنبار ثم فتك بجعفر هناك . ولكنه عرف بعد ذلك أن بغداد لن تكون له دار قرار لما قد يكون فيها من أعوان البرامكة الكثر فأخذ يفكر جدياً في الخلاص منها وتبلور تفكيره في مشروع مدينة جديدة يبنيها بجوارها ، ويحدثنا عنها الطبري قائلا : إن الرشيد كان ــ كما يقول ــ إذا ضجر من بغداد يتنزه في القاطول . وقد بنى هناك مدينة بقيت آثارها (موجودة) وبقي سورها قائماً إلى عهد المعتصم[2] .. ويكشف الطبري سبب البناء بقوله : « وقد كان خاف من الجند ما خاف المعتصم » . وإذا كان اختيار المكان بقرب بغداد ناجماً عن حاجة الرشيد إلى البقاء قريباً من دواوينه ورجاله وحاشيته ، فيبدو أنه ، خلال البناء ، عاود التفكير في أن قرب القاطول من بغداد لم يعطه الأمن الذي يريد . وهكذا قرر الابتعاد النهائي عن بغداد . « فلما وثب أهل الشام بالشام وعصوا خرج الرشيد إلى الرقة سنة ١٨٩ فأقام بها وبقيت مدينة القاطول ــ على حد قول الطبري ــ لم تستتم .. » .

واتخذ الرشيد بعد ذلك طريقة عدم الاستقرار ، رغم علته

---

(١) ابن الاثير ج٦ ص ١٥٢ــ١٥٣

(٢) الطبري ج٩ ص١٧ (٣/١١٨٠)

السرطانية التي كانت تهد كيانه . فكان في قلقه الواسع هارباً باستمرار من علته ومن بغداد فتارة في مكة وتارة على جبهة الروم وتارة في طريق خراسان فإذا شاء الراحة أقام في الرقة ، وإذا اضطره الطريق إلى العبور ببغداد ألم بها إلماماً سريعاً فلم يقف . كان كما قال الطبري « يطوي بغداد » فلا ينزلها فلما سئل أجاب جواباً يكشف بوضوح مخاوفه التي يريد تطمينها : « إنها لوطني ووطن آبائي ودار مملكة بني العباس . وما رأى أحد من آبائي سوءاً ولا نكبة منها . ولا سيء بها إلى أحد منهم قط . ولنعم الدار هي .. ولكنني أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق (يقصد الشام) .. مع ما فيها من المارقة والمتلصصة ..»[1] واتخذ الرشيد الرقة « وطناً » والتنقل طريقة حتى مات في الطريق إلى خراسان !

ولعلنا بعد كل هذا نستطيع أن نلخص الأمر البرمكي كله بكلمة أوردها الأربلي في التبر المسبوك إذ يقول : « قيل أرادت البرامكة افساد الملك فقتلهم الرشيد لذلك » ويظهر الأثر العميق لهذه الأسباب في نفس الرشيد من أنه أعلن ألا أمان لمن يؤوي أحداً من البرامكة غير محمد بن خالد وولده وحشمه لأنه «عرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة » وهذا يدل على أن جريمة جعفر خاصة ومعه يحيى والفضل كانت في نظر الرشيد عامة تتعلق بسلامة الدولة ولم يسلم منها إلا من لم يكن على علاقة بأعمال الدولة كمحمد بن خالد البرمكي .

وهكذا فإن الحادثة البرمكية كانت النهاية الدموية الفاجعة لصراع

---

(١) الطبري ج٨ ص ٣١٧ (٣/٧٠٦)

خفي متبادل بين الرشيد والأسرة التي سلطها على الحكم دام ثماني سنوات (١٧٩ ــ ١٨٧) والأسباب الرئيسية في نكبة البرامكة هي على ما رأينا تعود إلى :

١ ــ غموض الحدود بين سلطة الوزراء وسلطة الخلفاء لحداثة مؤسسة الوزارة •

٢ ــ تباين مصلحة الخلفاء العباسيين مع ميول وزرائهم الفرس •

٣ ــ استرابة الرشيد بصدق ولاء البرامكة لخلافته استرابة بلغت حد الشعور بالخطر •

وقد زاد في وضوح هذه النواحي وشايات الحساد وادلال البرامكة بمكانتهم وطبيعة الرشيد الحساسة • واستمر توضحها ونضوج الفكرة في النكبة لدى الخليفة سنوات طويلة كان خلالها يضربهم ضربات محدودة غايتها الحد من سلطانهم حتى كانت المؤامرة من جهة وهي مجهولة الحدود • وكانت الفتكة الكبرى من جهة أخرى وهي موجودة التفاصيل في جميع المصادر (ولا سيما في الطبري) ولم تكن تلك النكبة بدعاً في علاقات العباسيين بوزرائهم ولا في علاقات الكثير من الملوك المطلقين مع كبار موظفيهم وإنما كانت حلقة من سلسلة بدأت بأبي سلمة الخلال ووصلت بعد البرامكة إلى بني سهل في عهد المأمون ، وإن كان اتساع دائرة النفوذ البرمكي وعمقه هما اللذان جعلا النكبة واسعة عميقة عنيفة الأثر ، فاجعة الدماء •

على أنه من الضروري أن نلاحظ أن بعض المؤرخين القدامى (كالجهشياري[1] وابن خلكان) وبعض المحدثين أيضاً ، يروون ان

(١) الجهشياري ص٢٥٨ ص٢٦٥ وابن خلكان ج٢ ص٢٤٦

الانحلال سرى في الامبراطورية العباسية بعد البرامكة ، والواقع هو ما قاله (بارتولد) من أن سقوطهم لم يؤثر في الدولة كثيراً لا سيما وأن فترة نشاط الرشيد الحربية خاصة ، كانت من بعدهم • وإذا أدى سقوطهم إلى شيء فإلى زيادة الخصومة بين العرب والفرس لفترة محدودة فقط •

جـ ـ الوزراة بعد البرامكة :

صارت الوزارة بعد البرامكة إلى الفضل بن الربيع فبقي عليها حتى نهاية عهد الأمين ، وكانت له يد في تأريث الخلاف بينه وبين أخيه ، ثم توارى عن الأنظار قبيل انهيار أمر الأمين ••

والفضل هو ابن الربيع بن يونس وزير المنصور • والربيع في الأصل مدخول النسب وكان من خدم المنصور ثم ارتفعت به الحال حتى أضحى وزير الدولة ثم كان ابنه الفضل من كبارها •• ويحلو لبعض المؤرخين أن يرى في هذه النشأة المتواضعة للربيع وابنه نوعاً من مركب النقص[1] شوه الاثنين وملأهما حقداً على الناس ورغبة في الدس والتآمر • وقد انصب حقد الفضل خاصة على البرامكة الذين لم يكن بإمكانه أن يبلغ شأوهم ما داموا في مجدهم وفي وداد الرشيد ، وما داموا من الأرومة الايرانية العريقة وما داموا أخيراً بذلك الكرم الواسع والشرف من الدولة •• وكما دس الربيع من قبل على أبي أيوب المورياني لدى المنصور وعلى أبي عبيد الله معاوية لدى المهدي

---

(١) بحث ذلك الدكتور احمد شلبي في فصل طويل من كتابه التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ـ الجزء الثالث ص٣٢٦ـ٣٧٨

كذلك دس ابنه الفضل على البرامكة .. وكما نجح الأب نجح الابن .. ولقد يكون لعقدة النقص لدى الربيع (الأب) دورها ولكنها بعيدة عن الابن الذي نشأ في العز . على أنه من التعسف في الحالين أن نعزو نكبات الوزراء منذ المورياني حتى البرامكة . ثم صراع الأخوين الأمين والمأمون لمجرد الدسائس ، ولاشباع عقدة النقص عند الربيع وابنه الفضل .. فلذلك عوامل عديدة أخرى . وإلا فما الذي يفسر نكبة بني سهل من بعد ولم يكن وراء تلك النكبة لا الربيع ولا الفضل ؟

ولم يكن الفضل بن الربيع بمثل كرم البرامكة واتساع نفوذهم وكثرة أنصارهم ولا كان من السياسيين الذين يخشى خطرهم ولكنه كان الموظف الداهية الأمين وقد انحاز للحزب العربي في البلاط وتزعمه وعمل له قبل نكبة البرامكة وبعدها وتابع السياسة نفسها في زمن الأمين لأنه إنما كان أبرز شخصيات حزب الأمين وقد قاد المعركة بعد ذلك ضد المأمون في مهارة بارعة لا تقل عن مهارة منافسه وسميه الفضل بن سهل لولا أن انهزام جيش الأمين أفقده التفوق العسكري فخسر القضية . ولعله اعتقد أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون وهو مما لم يبق عليه ـ كما قال ابن تغري بردي[1] ـ فآثر السلامة واستتر . ثم ظهر حين بايعت بغداد لابراهيم بن المهدي بالخلافة فلما اضطرب أمره بدوره عاد إلى الاستتار . ويقال إن طاهر بن الحسين ، قائد المأمون أدخله عليه من بعد فرضي عنه لكنه ظل دون عمل حتى مات سنة ٢٠٨ عن ثمان وستين سنة .

---

(١) ابن تغري بردي ـ النجوم ج٢ ص ١٣٨ والجهشياري ص ٢٣٧ وابن خلكان ج٤ ص٣٩

أما المأمـون فاستوزر بني سهل ، يقـول ابـن الطقطقي[1] :
« وكانت دولتهم في جبـين الدهر غرة .. وكانت مختصرة لـدولة البرامكة وهم صنائع البرامكة » وتتكرر في بني سهل قصة الخلال أو بني برمك إياها :

فالفضل بن سهل أول وزراء المأمون كان في الأصل على المجوسية وأسلم على يدي المأمون سنة ١٩٠ وكان البرامكة هم الذين اختاروه للكتابة عنده . وهو الذي سعى إليه بالخلافة وكافأه المأمون على ذلك بأن سماه (ذا الرياستين) أي رياسة الحرب ورياسة التدبـير[2] (أو السيف والقلم) ووقع له في كتاب يسميه اليعقوبي[3] (كتاب الشرط والحياء) على ما يظهر « .. وقد جعلت لك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت ما أمرتك به من العمل لله ولنبيه والقيام بصلاح دولة أنت ولي بقيامها ..»[4] .

ولكن الفضل « استولى على المأمون » حسب اصطلاح صاحب الفخري وقطع الأخبار عنه وعاقب من حاول إخباره بخبر ليصـرف بذلك الأمور حسب سياسته الفارسية ولم يتورع عن تشويه الأخبار للمأمون فأعلن له ثورة بغداد وبيعتها لابراهيم بن المهدي على أن البغداديين « صيروا ابراهيم أميراً يقوم بأمرهم » لا خليفة . وعـين أخاه الحسن على العراق وما يليه ــ دون طاهـر بن الحسين القائد

---

(١) الفخري ص ١٦٤
(٢) الجهشياري ص ٣٠٥
(٣) اليعقوبي ج١ ص ٧١٩
(٤) الجهشياري ص٢٧٨

العسكري ـ ليتم له التمكن من زمام السلطة .

ونستطيع أن نتبين سياسة الفضل الفارسية في أمور عدة :

آ ـ ادخال المراسم والتقاليد الساسانية على البلاط العباسي ويقولون إنه : كان يجلس على كرسي مجنح ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون ويعلق الجهشياري[1] بأن هذه العادة كانت لبعض وزراء الأكاسرة . ولعل الجناحين جناحا آهورا مزدا إله الخير الزراداشتي .

ب ـ ذهب هرثمة بن أعين ضحية لأطماع الفضل في السجن لأنه قدم إلى خراسان واجترأ على نصيحة المأمون وأخبره بأعمال الفضل قائلاً « قدمت هذا المجوسي على أوليائك وأنصارك » ونفى نعيم بن خازم لأنه بيّن للمأمون أن الفضل يريد أن يزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي (وقت بيعة الرضا) ثم يحتال عليهم فيغير الملك كسروياً ولهذا عدل عن البياض لبسة علي وولده ، إلى الخضرة وهي لباس كسرى والمجوس[2] .

جـ ـ أبقى الفضل على المأمون في مرو بخراسان ليبقى مقر الملك بين **الفرس** .

وأخيراً تنبه المأمون لسياسة الفضل ويتفق المؤرخون أن علي الرضا هو الذي أعلم المأمون بحال الدولة ونبهه إلى سياسة الفضل الشعوبية . فقرر النقلة إلى بغداد (سنة ٢٠٢/٨١٧) ولم يكن هذا انتقالاً عادياً ،

---

(١) الجهشياري ص ٣١٦

(٢) الجهشياري ص ٣١٣ وابن الاثير ـ الكامل ج٦ ص ١١

ولكنه انقلاب سياسي : فيه هجر للسياسة التي تمثلها مرو والفضل ، وعودة إلى السياسة العباسية التقليدية • وقد اقتضى هذا الانقلاب التخلص من الوزير ابن سهل ومن ولي العهد علي الرضا ومن الخضرة[1] ! وهكذا •• مات الاثنان خلال الطريق إلى بغداد (قتل الأول في سرخس[2] من قبل بعض الخدم • ومات الثاني بشكل مفاجيء في قرية النوقان قرب طوس أول سنة ٢٠٣) وبعد وصول المأمون إلى عاصمة آبائه بأيام تتراوح بين الأسبوع والشهر رجع عن الخضرة إلى السواد •

على أن علاقة المأمون بيني سهل لم تنته بمقتل الفضل فإن المأمون (المكيافيلي) ترضى العائلة باستيزار الحسن بن سهل أخي الفضل والزواج من ابنته بوران (في عرس حافل) زينت بذكر ما كان من بذخه صدور الكتب ، واعتل الحسن بعد فترة وجيزة أو تمارض ، والفخري[3] يذكر أنها « سوداء أصابته جزعاً على أخيه » ولزم منزلــه فاستكتب بعده المأمون الكتاب مدة ويظهر من حديث للوزير الجديد بعد الحسن وهو أحمد بن أبي خالد الأحول إلى الخليفة ان عزل الحسن بن سهل لم يكن لسبب مرضي ولكن لأمر أراده المأمون فالوزير أحمد الأحول يقول كما في المسعودي[4] : « ياأمير المؤمنين اعفنـي من التسمي بالوزارة وطالبني بالواجب فيها » • ويقول كما في الفخري : « •• اجعل بيني وبين الناس منزلة يرجوني لها صديقي ويخافني بها

---

(١) الدوري ــ العصر العباسي الاول ص ٢١٤
(٢) الطبري ج٨ ص٥٦٥ (١٠٢٧/٣)
(٣) الفخري ص ١٦٨
(٤) المسعودي التنبيه والاشراف ص ٣٠٤ ٢

عدوي في بعد الغايات إلا الآفات »[1] .

وتوفي أحمد الأحول فتلاه على الوزارة أحمد بن يوسف بن القاسم من الموالي وكان كاتباً من خيرة الكتاب وأجودهم خطاً ، وقد مات ببعض تدبير المأمون لبادرة بدرت منه . فأعقبه القاضي يحيى بن أكثم (ولعله اتخذه مستشاراً له) فكان له تدبير المملكة ورئاسة القضاء معاً وقلما اجتمع ذلك لغيره ثم جاء الوزارة أبو عباد ثابت بن يحيى الرازي ثم أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد ولم تكن لهؤلاء من قيمة في الوزارة ولم يكونوا يزيدون في المنزلة عن الكتاب العاديين المحدودي الكفاية كما يتبين ذلك من اختيارهم وسيرتهم ولعلهم استوزروا لأنهم كانوا كذلك في نظر المأمون ، الذي نصح أخاه من بعده ألا يستوزر أحداً (على طريقة المنصور) .



(1) الفخري ص ١٦٨

الفصل الحادي عشر

السياسة الداخلية

ليس الهدف في هذا الفصل أن نبحث في التكوين الاداري للدولة وفي نظام الجيش كجهاز عسكري ولا في الحياة الاقتصادية ـ المالية للمجتمع العباسي في القرن الثاني الهجري ، فلذلك محله من البحث الحضاري لهذا العصر ولكنه محاولة لتحديد الخطوط العامة لسياسة العباسيين الأوائل ومواقفهم وتصرفاتهم في الامور الادارية والمالية وفي تطور قواهم العسكرية ، ولطريقتهم في فهم المشاكل التي واجهتهم وفي حلها • إنه إذن دراسة لطرائق الحكم لدى الخلفاء الأوائل من بني العباس وليس بدراسة للمجتمع الذي عرفهم ولا لطبيعة وتكوين الاجهزة التي استعانوا بها •

ولعله من الضروري أن نلاحظ منذ البدء أن الخطوط والملامح العامة التي سوف نرسم لسياسة هؤلاء العباسيين قد لا تنطبق أحياناً الا على بغداد أو منطقة العراق أي على الاقليم الذي يقع مباشرة تحت تصرف الخليفة • وأما أقاليم الدولة الاخرى فقد كانت تخضع للسياسات نفسها في الغالب ولكن بمقدار فهم الولاة العباسيين لتلك السياسات وتطبيقهم لها ، وبمقدار ما هو معروف من ولاء تلك الاقاليم أو عدم الولاء للاسرة الحاكمة • وهكذا لم يكن الموقف الاداري ولا العسكري ولا المالي واحداً في الحجاز أو الشام أو خراسان كما لم تكن السياسة

العباسية أحياناً كثيرة هي نفسها في سجستان أو في مصر أو في الجزيرة وغالبا ما نجد أن صورة الحكم العباسي المعروفة إنما تتصل بالعراق فقط دون باقي انحاء الدولة الاسلامية .

وإذا كان لكل حكم أسسه التي يقوم عليها فللحكومة العباسية بدورها أسسها في سياستها الداخلية . وفي رأي بعض المستشرقين أن الحكم العباسي إنما قام على ثلاثة أركان : الدين والجيش والكتّاب . وفي هذا الرأي الكثير من الصواب ، لأن الدين كسياسة ومبدأ عمل كان قوام عرش بني العباس كما كان الروح الحية الكامنة وراء صمود البيت العباسي وبقائه خمسة قرون طويلة . أما الجيش كقوة مادية تنفيذية فقد ارتبطت به قوة وضعفاً أمجاد الدولة العباسية وانحطاطها بينما كان النظام الاداري الذي أداره الكتاب وأقاموا به الحكم والجباية المالية هو العمود الفقري للحكم العباسي كله .

على أنا نستطيع التمييز بين هذه الاركان الثلاثة في الوظيفة والدور وخاصة في العصر العباسي الاول . فان الدين كان لدى الخلفاء الأوائل هو السند المعنوي ومبرر النظام ومنطلق السياسة وأساس التشريع لكن الترجمة العملية لذلك لم تكن اكثر من إمامة الصلاة والخطبة على المنبر والقضاء في الناس عن طريق الجهاز القضائي . ولم يكن للخلفاء على هذا الجهاز ــ فيما عدا سلطة التعيين ــ إلا أضعف النفوذ في الاحكام . وكثيراً ماينعدم ذلك النفوذ . بينما كانت المقومات الفعلية للحكم العباسي إنما تتمثل عملياً في ما كان يعبر عنه في تلك العصور بكلمتي السيف والقلم أي في المؤسستين اللتين يشرف عليهما القواد العسكريون رمز القوة والسلطة من جهة والوزير مع الكتاب أسياد الدواوين والجباية المالية من جهة أخرى . وتشترك المؤسستان ــ ومعهما الجهاز القضائي

أيضا ـ في القمة بالخضوع لإرادة الخليفة الذي كان يمثل مع السلطة الدنيوية الآمرة السلطة الدينية المعنوية في الوقت نفسه •

وإذا كان مفهوم الحكم والإدارة في تلك العصور يشمل بصورة خاصة تصريف الامور والمشاكل وإقامة العدل والقضاء بين النـاس وجباية الاموال واقرار الامن والنظام والدفاع ، فلعلنا قبل أن ندرس كل ناحية من هذه النواحي منفردة نعطي صورة إجمالية عن السياسة الداخلية العباسية في مبادئها وشكلها النظري المثـالي كما في واقعها التنفيذي ، وفي تطورها العام ما بين مطلع العصر العباسي الاول ونهايته • ولدينـا لحسن الحظ في هـذا السبيل تقريران هامان كتب الاول ابن المقفع في أوائل العصر حوالي سنة ١٤٠ ـ ١٤٣ للخليفة المنصور وتحت ظله وكتب الثاني طاهر بن الحسين سنة ٢٠٦ في عهد المأمـون اذان العصر لابنه عبد الله بن طاهر حين توجه لولاية أخطر وأهم الولايـات العبـاسية : خراسـان[1] •

فأما التقرير الذي كتبه ابن المقفع فيحمل اسم : « رسالة الصحابة » وكلمة الصحابة استعملت في العصر العباسي الاول وحتى عهد الرشيـد

---

(١) يمكن ان نقرأ النص الكامل لرسالة الصحابة التي كتبها إبن المقفع في كتاب محمد كرد علي ـ رسائل البلغاء (انظر طبعـة البابي ـ القاهرة سنة ١٩١٣ ص ١٢٠ ـ ١٣٠) كما نجد في كتاب يوسف ابو حلقة ـ ابن المقفع ، الادب الصغير ... طبع مكتبة البيان ـ بيروت سنة ١٩٦٠ ص ١٤٩ ـ ١٨٣) اما رسالة طاهر بن الحسين فنجدها في مظان كثيرة منها الطبري ج ٨ ص ٥٨٢ ـ ٥٩٣ (١٠٤٦/٣ ـ ١٠٦١) وكان من أسبـاب انتشـارها ونقلها في مختلف المصادر بلاغتها وقد اعتبرت مـن النصوص الادبيـة •

بمعنى الحاشية ورجال البلاط اصحاب الخليفة ثم استبدل بها كلمة الخاصة لئلا تلتبس مع صحابة الرسول • ورسالة الصحابة نقد واقعي عملي للسياسة القائمة ولطرق الاصلاح الواجب اتباعها • وأما رسالة طاهر فأخذت شكل الوصية التي ترسم صورة الحاكم «المثالي» في نظر ذلك العصر • وإذا كانت الرسالتان تحيطان بالعصر في مبدئه ومنتهاه فهما تحيطان به في الوقت نفسه واقعاً ومثلاً أعلى •

رسالة الصحابة :

بدأ ابن المقفع رسالته بامتداح رغبة أمير المؤمنين في استماع النصيحة :

أ ــ ذكر **موضع الشكوى قبله** : فوال لا يهمه الاصلاح وإن أهمه لم يكن له رأي وإن وجد الرأي لم يتوفر له العزم والحزم «وأعوان ، ليسوا على الخير بأعوان » « وأمة إن أخذت بالشدة حميت وإن أخذت باللين طغت » •

ب ــ ثم تناول أمر **الجند** من أهل خراسان فامتدحهم أحسن المديح : قوة وطاعة ، وناقش قضية هذه الطاعة ثم نصح أمير المؤمنين «لصلاح هذا الجند أن لا يولى أحداً منهم شيئاً من الخراج فان ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ••• وداعية الى ذلة وحقرية » كما نصحه أن يحسن اختيار القادة منهم وأن « يتعهد أدبهم » وثقافتهم « في تعلم الكتاب والسنة » • وأن ينظم دفع رواتبهم و « يوقت لهم وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو ما بدا له ••• فينقطع الاستبطاء والشكوى » وأخيراً أن يعمل أمير المؤمنين على « أن لا يخفى عليه شيء من أخبار الجند وحالاتهم وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والاطراف وأن يحتقر في ذلك النفقة» •

جـ ـ ثم ذكر أمير المؤمنين بأهل المصرين : **البصرة والكوفة** « لأنهم بعد أهل خراسان أقرب الناس الى أن يكونوا شيعته وحقيبته » و « في أهل العراق من الفقه والعفاف والالباب والالسنة شيء لا يكاد يشك أنه ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة نصفه ولا مثل نصفه ... » وقد أزرى بأهل العراق أن ولاته فيما مضى كانوا أشرار الولاة وأن أعوانهم من أهل « أمصارهم كانوا كذلك ... » .

د ـ وعرض ابن المقفع بعد ذلك الى مشكلة **القضاء** واختلاف الاحكام بين بلد وآخر وما ينجم عن ذلك من فوضى وضياع حقوق وبعد أن حلل ذلك نصح بتوحيد الاحكام وأن يكتب أمير المؤمنين بذلك كتاباً جامعاً يكون هو الأساس فيها .

هـ ـ ثم عطف على ذكر **أهل الشام** وأن على أمير المؤمنين أن « لا يؤاخذهم بالعداوة ولا يطمع منهم في الاستجماع على المودة . فمن الرأي في أمرهم أن يختص أمير المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً أو يعرف منه نصيحة أو وفاء ... »

د ـ وينتقل بعد ذلك الى التذكير بامر **صحابة الخليفة** « وقد عمل فيه من كان وليه من الوزراء والكتاب قبل خلافة أمير المؤمنين عملاً قبيحاً مفرط القبح داعياً للاشرار طارداً للاخيار ... » بينما « لصحابة أمير المؤمنين مزية وفضل . وهي مكرمة سنية حرية أن تكون شرفا لاهلها وحقيقة أن تصان وتحظر ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال أو له خاصة بقرابة أو بلاء أو يكون شرفه ورأيه وعمله أهلاً لمجلس أمير المؤمنين وحديثه ومشورته أو صاحب نجدة يعرف بها يجمع مع نجدته حسباً وعفافاً فيرفع من الجند الى الصحابة أو رجل فقيه مصلح

أو شريف لا يفسد نفسه ... » .

هـ ـ وبعد أن يذكر ابن المقفع ببعض **اهل بيت الخليفة** يتناول أمر الارض والخراج والسياسة المالية فأوضح الفوضى في كل ذلك وبين الخطر الجسيم في أن لا يكون « للعمال أمر ينتهون اليه ويحاسبون عليه ويحول بينهم وبين الحكم على أهل هذه الارض أو تلك .. فسيرة العمال فيهم احدى اثنتين إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد ... وإما صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيغرم من عمر ، ويسلم من أخرب ، مع أن أصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم وليس من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها مرارا ... فلو أن أمير المؤمنين أعمل رأيه في التوظيف على الرساتيق والقرى والارضين وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك وإثبات الاصول حتى لايؤخذ رجل إلا بوظيفة (ضريبة) قد عرفها وضمنها ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها لرجونا أن يكون في ذلك صلاح للرعية وعمارة للارض وحسم لابواب الخيانة وغشم العمال . وهذا رأي مؤونته شديدة ورجاله قليل ونفعه متأخر ... » .

و ـ ويعطف ابن المقفع في القسم الأخير من رسالته على أمر جزيرة العرب من **الحجاز واليمن واليمامة** وينصح بأن تسخو نفس أمير المؤمنين عن أموالها من الصدقات وغيرها وأن يختار لولايتها الخيار من أهل بيته ... » .

ز ـ ثم يذكر أن « ما **بالناس** من الحاجة الى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو أشد من حاجتهم الى أقواتهم التي يعيشون بها . وأهل كل مصر وجند أو ثغر فقراء الى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون يذكرون ويبصرون الخطأ ويعظون عن

الجهل ويمنعون عن البدع ويحذرون من الفتن ••• وفي كل قـــوم خواص رجال عندهم على هذا معونة اذا صنعوا لذلــك وتلطف بهــم وأعينوا على ••• معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ••• » • « وحاجة الخواص الى الامام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة الى خواصهم وأعظم من ذلك ••• » •

هذه خلاصة لرسالة الصحابة • وهي وإن تكن غير وافية إلا إنهـا تلقي ضوءاً هاماً على عدد كبير من أمور الادارة والسياسة الــداخلية العباسية • إنها تكشف على الأقل ، أن أهم أركان تلك السياسة وهي أمور القضاء ، والخراج ، والحاشية ، كانت فوضى فلا بد من وضع نظام لها • وحتى الجند الخراسانية وهم قوام الدولة كان لهم ما يشكون منــه وما يهدد طاعتهم بالتزعزع •

وابن المقفع ، صاحب الرسالة ، إنما صدر فيها عن فكر سيــاسي واقعي ورأي تجريبي عملي وليس عن تفكير ديني أو معطيات نظريــة • حاول أن تكون تقريراً شاملا لوجوه النقص والآلام في الدولة مع المقترحات الكافية ، في نظره للاصلاح • ولم يهتم كثيرا بربط الأدارة وما يجب لهـا بمبادىء الاسلام والدين لانه هو نفسه لم يكن أسلم الا منذ عهد قريب جدا من تاريخ الرسالة كما لم يكن الفكر الديني من همومه ولكنــه حرص على أن يعطي من خلاصة ثقافته الفارسية ، ومــن واسع علمــه بالتاريخ الفارسي ولسياسة الفرس ما ظن أنه يصلح أمور الدنيا للناس وللخليفة على السواء • ولعل محاولته إنما كانت تطعيم أنظمة الدولة الاسلامية في أمور الجند والقضاء والصحابة والخراج وإدارة الولايات بنظم الفرس وتجاربهم في الادارة والسياسة • وقد كان التيار الثقافي الذي يمثله ابن المقفع أحد الروافد الاساسية التــي لونت الحضـــارة الاسلامية في العهد العباسي •

ولقد أخذ المنصور ، في الواقع ، بالكثير من الآراء التي عبر عنها ابن المقفع . ولقد لا يكون ذلك نتيجة لرسالة الصحابة بقدر ما كان نتيجة للحاجة الواقعية في الدولة الجديدة لانظمة وحلول تتفق مع تطور الدولة وتعقد أمورها وإدارتها .

وامـا **رسالة طاهر بن الحسين** لابنه عبـد الله وهي ما يـدعوه الطبري بالوصية فهي تقرير من نوع آخر كتب والدولة العباسية قـد استقرت ووضعت نظمها ومضت أمـور خلفائها على مايشتهون وأخذت طابعها الديني فلم يكن الهدف من الرسالة تحليل الواقع السيـاسي في الدولة وان كان غير بعيد عنه ولكن رسم المثل الاعلى للحاكم العباسي المسلم . هي تصوير لما يجب أن يكون وليس لما هو كائن . ولذلـك فاللهجة فيها مختلفة ولكن المواضيع والرأي ليست على كثـير مـن الاختلاف ، والنقاط الاساسية فيها تتناول :

أ ـ **تطبيق الدين :** تبدأ الرسالة بقول الأب لابنه : « عليـك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه وحفظ رعيتك ... والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله وينجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه ... والقيام بحقه وحدوده فيهم والدفع عن حريمهـم والحقن لدمائهم والامن لسبيلهم وادخال الراحة عليهم في معايشهم ... وأول ما تلزم به نفسك .. المواظبة على .. الصلوات الخمس والجماعة بمواقيتها . واتباع سنن الرسول وآثار السلف وأثر الفقه وأهله والدين وحملتـه ... » .

« وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها ... واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز » .

« ولا تنهض أحداً من الناس ما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة . فان ايقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم مأثم ... واجعل من شأنك حسن الظن باصحابك واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة. وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما صنع فان الله جعل الدين حرزا وعزاً فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وماستحقوه . ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ... واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وأبغض أهله وأقص أهل النميمة . لان الكذب رأس المآثم »

ب ـ العدل والقضاء : يقول صاحب الرسالة : « واجتنب سوء الاوهام والظلم ... وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك وأنعم بالعدل سياستهم ... واملك نفسك عند الغضب وإياك أن تقول إني مسلط أفعل ما أشاء فإن ذلك سريع فيك الى نقض الرأي ... واعلم أن الملك لله يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة الى احد أسرع منها الى أصحاب السلطان ... » .

« ... واعلم ان القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الامور لأنه ميزان الله الذي يعتدل به الاحوال في الارض وباقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية وتأمن السبل وينتصف المظلوم ويأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ... ويقوم الدين وتجرى السنن والشرائع .

جـ ـ السياسة المالية : « ... واعلم أن الاموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تثمر وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المؤونة (التكاليف) عنهم ربت ونمت ... فليكن كنز أموالك تفريق.

الاموال في عمارة الاسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ... واجتنب الشح واعلم أنه أول ما عصى به الانسان ربه ... » .

« ... وانظر هذا الخراج الذ يقد استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزاً ورفعة ولاهله سعة ومنعة ولعدوه كبتاً وغيظاً ولاهل الكفر من معاهدتهم ذلا وصغارا فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ولا ترفعن منه شيئا عن شريف لشرفه وعن غني لغناه ولا عن كاتب لك ولا عن أحد من خاصتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال ولا تكلفن أمراً فيه شطط» .

د ـ **الجند** : « ... وتفقد أمر الجند في دواوينهم ومكاتبهم وأدرر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معايشهم ليذهب الله بذلك فاقتهم ويقدم لك أمرهم ويزيد به قلوبهم في طاعتك ... » .

هـ ـ **السياسة الادارية** : « ... واعلم أنك جعلت بولايتك **خازناً وحافظاً وراعياً** ... » .

ومتى « .... أعنت على الصلاح درت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناصيتك وظهر الخصب في كورك فكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة باقامة العطاء فيهم من نفسك ... » .

و ـ **صاحب البريد** : ... واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله ... » .

ز ـ **الحاشية** : « ••• وانظر أحرار الناس وذوي الشرف منهم ثم استيقن صفاء طويتهم فاستخلصهم وأحسن اليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن دخلت عليهم الحاجة فاحتمل مؤنتهم ••• » • « ••• واكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ••• » •

ح ـ **الخدمات الاجتماعية** : « •••• وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين •• واجر للاضراء من بيت المال وقدم حملة القرآن في الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم وقواماً يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم ••• » •

ط ـ **الموظفون** : « واستعمل على (رعيتك) في كور عملك ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة ••• » •

« ••• وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك ، فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيتك ••• ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك فما كان موافقا للحزم فأمضه ، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى التثبت فيه والمسألة عنه » •

هذه هي رسالة طاهر بن الحسين واذا كان الفرق ما بين رسالته ورسالة ابن المقفع هو الفرق مابين الواقع السياسي والمثل الاعلى فهو في الوقت نفسه الفرق ما بين السياسة الداخلية في مطلع العصر العباسي وفي نهايته كما أنه الفرق ما بين الحاجات الادارية والدولة في طريق التوطيد وبين

هذه الحاجات نفسها والدولة قد استقرت ورسخت هيبتها وقبولها في قلوب الناس •• غير أننا نستطيع أن نلاحظ تأكيد طاهر بن الحسين على الدور الديني للحاكم من جهة والكلمات القليلة التي خصصها للجند من جهة اخرى مقابل ابن المقفع الذي لم ير في الحاكم الا السلطة السياسية وحدها فلم يشر الى دوره الديني بينما أكد بالمقابل ووضع في مطلع الرسالة دور الجند كما سمى الرسالة برسالة الصحابة لان الدولةالعباسية كانت وهي ابنة ثمان أو عشر سنوات سنة ١٤٠ ـ ١٤٢ تفتش عن الاعوان الأكفياء وعن الرجال الذين يساندون الخليفة الجديد في شؤون الحكم بكل مكان في الدولة المترامية الاطراف الفائرة بالثورات والاطماع •

واذا كانت الروح الطبقية في النظر الى الناس على أن فيهم أهل بيت الخليفة والاشراف والصحابة والاغنياء وفيهم العامة والفقراء ••• الخ هي حد مشترك بين الرسالتين يعكس الواقع الطبقي للعملية الادارية العباسية فليس أقل من ذلك أهمية ما تكشف عنه الرسالتان وتشتركان فيه من تحديد عناصر السياسة الداخلية للدولة في أربع نقاط : سياسه الناس وأمر القضاء والاموال والجند • وعلى هذا الاساس فاننا اذن نستطيع أن ندرس السياسة العباسية الداخلية لا في تكوين أجهزتها ولكن في ممارستها العملية في النقاط التالية :

أ ـ ادارة الدولة وتشمل العملية الادارية في المركز والولايات كما يرتبط بها أمر القضاء والقضاة في الوقت نفسه •

ب ـ الاموال والسياسة الضرائبية للخلفاء •

ج ـ المؤسسة العسكرية (الجيش) ودورها الاداري والسياسي في الأمن والنظام •

ويلخص هذه النقاط قول طاهر بن الحسين في رسالة لابنه : « إنك جعلت في ولايتك خازناً وحافظاً وراعيا » •

١ ــ السياسة الادارية

في الوقت الذي كانت تطرح فيه على العصر العباسي الاول الكثير من مسائل ومشاكل الفكر والدين والتطور الاجتماعي والتحول الاقتصادي كانت مسائل ومشاكل موازية تطرح على العباسيين الاوائل في نواحي السياسة والادارة • وتضطرهم الى ايجاد الحلول لها عن طريق تنظيم وتوسيع وتعميق أجهزة الحكومة والادارة والقضاء • وما من شك في أن تاريخ الادارة العربية الاسلامية يحتفظ لعمر بن الخطاب ، من الخلفاء الراشدين ، ولمعاوية ثم عبد الملك بن مروان خاصة ، من الخلفاء الامويين بمكانتهم الخاصة • إلا إن معالم النظام الحضاري الاسلامي الذي يمكن أن يدعى « بالكلاسيكي » إنما برزت وتوطدت في العصر العباسي الاول ثم الثاني من بعده • ولئن رسمت الخطوط العريضة للمؤسسات الادارية والقضائية الاسلامية منذ أواسط العصر الاموي حتى أواخره فانها لم تعرف الكمال والاستقرار والثبات الا في العصر العباسي •

كان الحكم الاموي ــ رغم طابعه الملكي الوراثي ــ أقرب الى الحكم القبلي • يشرف فيه الخليفة من علٍ على الامور الكبرى • وللولاة القسط الوافر من الاستقلال الاداري في ولاياتهم على ما يشتهون • ولقد كان ثمة جهاز مركزي ولكنه كان محدود الاتصال والسلطة على الولاة « أما الحكم العباسي فقد اتجه اتجاهاً حثيثاً نحو مزيد من المركزية

والرقابة وبالنتيجة نحو مزيد من التعقيد أيضا »[1] وتميز في هــذه النواحي الثلاث عن طريقة الحكم الاموي كما تميز في ناحية رابعة هي مزج الدين بالدولة بشكل لا يتجه الى تطبيق الدين بقدر ما يهدف الى استغلاله السياسي ، وجعله نظاما سياسيا •

وقد نستطيع أن نرى ملامح الادارة العباسية الاولى بمركزيتهــا ورقابتها وتعقيدها وجوها الديني اذا نحن استعرضنا القوى الاساسيــة التي كانت توجه وتنفذ تلك الادارة وهي أربع :

أ ـ رئاسة الدولة (الخليفة) والحاشية والبلاط •
ب ـ الدواوين والكتاب (جهاز الادارة الاختصاصي) •
جـ ـ القضاء والقضاة (التشريع واقامة الحقوق) •
د ـ الولاة •

١ ـ رئاسةالدولة (الخليفة) والبلاط والحاشية (الصحابة والخاصة):

اذا تجاوزنا الخليفة العباسي الاول (أبا العباس) الذي لم يكن في مفهومه للخلافة وفي ممارستها بمختلف عن الخلفاء الامويين ولم يطل عهده ليطور لنفسه مفهوماً خاصاً حولها ، فان الــذي أوجــد التطور الاساسي في مفهوم « الخلافة » الاسلامية بعد معاوية هو المنصور • لقد أدخل عليها فكرة الاختيار الالهي التي حاول أواخر الامويين اضفاءها على أنفسهم • فلم يكن فقط وريث الخلافة المشيخية ، خلافة الصحابة ،

---

(١) راجع ما كتبه حول هذه النقطة كلود ـ كاهن في كتابه تاريــخ العرب والشعوب الاسلامية (الترجمة العربية ج١ ص ١١٧) •

التي أوجدها الخلفاء الراشدون ولا الخلافة الملكية الوراثية التي أوجدها الإمويون ، ولكنه كان أيضا وريث صاحب الرسالة نفسه من جهة بمقتضى الشرع كما كان الرجل الذي اختاره الاله لقيادة الامة من جهة أخرى ولهذا « نصره » على الآخرين كافة فهو « المنصور » • ومصدر قوته مزدوج يجمع بين النسب النبوي والاختيار الالهي • ومن هذا وذاك أخذت السلطة العباسية الرداء الديني بالاضافة الى الرداء الدنيوي • كانت أوتوقراطية دينية • كل السلطات فيها مجموعة في يد الخليفة الذي يعتبر الرقيب والامين على تنفيذ أحكام الدين بجانب تسيير أمور الدنيا •

ولم يكن ثمة يمين يحلفها الخليفة ، على طريقة الاباطرة البزنطيين ، ولاعرف العباسيون الثورات لازاحتهم عن العرش (إلا من قبل بعض آل البيت أنفسهم كالفاطميين) وإن عرفوا الكثير من الثورات لاغتصاب جزء من الحكم منهم في بعض الاقاليم • وكان الناس هم الذين يقسمون اليمين على الولاء لهم فيما يسمى بالبيعة من خاصة وعامة • فالرعية مسؤولة أمام الخليفة العباسي أما هو فمسؤول أمام الله • وثمة فرق كبير بين موقف الخليفة الراشد المسؤول امام الرعية مسؤولية مباشرة حتى عن العدل في ثوب يرتديه وبين الخليفة العباسي الذي انتهى ـ بعد الاموي ـ بأن لا يكون مسؤولا حتى عن مثل نكبة البرامكة أو هبة مائة مليون درهم في عمل ارتضاه •••

وقد كانت « الخلافة » منذ العصر الاموي قد تحولت الى سلطة اوتوقراطية ولكن العباسيين منذ المنصور خاصة زادوا في صفتها هذه فجعلوها أوتوقراطية مطلقة • واذا كان الولاة في العهد الاموي يتمتعون بقدر واسع جداً من الاستقلال فان المنصور قد وضع للخلافة العباسية

بالعكس تقاليد المركزية المتشددة ، وجعل نظام الرقابة عنده على مستوى الأهمية والسعة التي كان عليها نظام الادارة نفسه ، حتى لم تعد « الوزارة في عهد طائلة » كما قالوا . وازدياد المركزية مع اتساع الدولة كانا يقتضيان نشوء نظام بورقراطي متزايد التعقيد وهو ما كان بالفعل مما اضطر الخلفاء لزيادة الدواوين في العدد وفي الاختصاص والتسلسل .

وأضاف المنصور الى هذا وذاك احتجاب الخليفة عن الناس : تمثل ذلك في مظاهر عديدة منها بناء قصر الخلد وضرب الاسوار المغلقة من حوله ، ومنها اصطناع « الوزراء » وجعلهم نوعاً من الوسطاء في إبلاغ الناس إرادة الخليفة والتعهد بتنفيذها ، ومنها أتخاذ الالقاب .

ولم يكن ثمة في العصر العباسي الاول من ألقاب سوى اللقبين اللذين يحملها الخليفة وولي العهد . كان الخليفة (وابنه) هما الوحيدان اللذان يحق لهما التمتع باللقب كأنما أضحيا في الاعتبار العام ، أعلى من أن يذكرا باسميهما المجردين على ما كان عليه الامر في العهد الاموي .

وبينما كان للخليفة الاموي بلاط على جانب قليل أو كثير من البساطة لا يفصله عن الرعية أو على الاقل عن اشراف العرب أي حاجز احتجب الخليفة العباسي تماماً وصار الوصول اليه من الصعوبة بحيث أضحى الحاجب من أعظم شخصيات الدولة .

ونمت الى هذا كله باطراد الصفة التيوقراطية في سلطة الخليفة العباسي . تعمد المنصور واولاده من بعده ذلك جواباً وتحدياً لادعاءات العلويين من جهة ولاطماع الامويين من جهة أخرى وتجاوبا مع حاجات العصر الذي ازدادت فيه أعداد المسلمين من الامم الاخرى زيادة كبيرة .

وقد تمثل هذا التطور كله في « بغداد » التي أفرغ المنصور في شكل بنائها ــ وإن لم يرد ــ مفهومه كله في الخلافة والادارة فقد صممت المدينة المدورة « دار السلام » لتكون مقر العرش العباسي فجعلت مدورة دون جهات واضحة ، لان الخليفة ليس لجهة . وجعلت لها أربعة ابواب: باب باتجاه خراسان مصدر قوة الدولة يقابله باب آخر باتجاه الحجاز مصدر سلطة العباسيين وباب باتجاه الشام مصدر قلق الدولة يقابله باب باتجاه البصرة والسواد مصدر القوة الاقتصادية والمال . وجعلت هذه الابواب مزورة فلا يجب ان يكون الدخول الى الخليفة ومدينته ميسورا لكل طارق . وأقيمت للمدينة الاسوار المضاعفة بأبواب الحديد لتكون فاصلاً بين صاحب السلطة والناس ، وحماية كافية له ثم يأتي حاجز سكني من أنصار الخليفة ورجاله الذين أقطعهم القطائع فهم سياجه البشري وبطانته وتقوم في مركز المدينة ، ومركز الدائرة الرحبةالعظمى لا ينفذ إليها إلا من خلال دهليز ينتهي ببابين من الحديد وفي وسط الرحبة قصر الخلافة (قصر الخلد أو باب الذهب) ذو القبة الخضراء يستقل به الخليفة مع حرمه وآل بيته ، وليس علىمقربة منه الادارالحرس وسقيفة لصاحب الشرطة ومنازل أولاد المنصور الاصاغر والدواوين : للرسائل والخراج والخاتم والجند وخزانة السلاح وبيت المال ... والمسجد الجامع ... كان ذلك قريب الشبه بالمدينة الملكية الصينية . ولم يكن لاحد أن يدخل الرحبة العظمى وهو راكب ولو كان من عمومة المنصور[1] . ثم ضاق المنصور بوجود أسواق الناس في بغداد فطرد هذه

---

(١) انظر الخطيب البغدادي ــ تاريخ بغداد ج١ ص ٧٨ وانظرالطبري

الأسواق خارج الاسوار ! كانت بغداد اذن الصورة المادية لفكر المنصور الاداري وتصوره للدولة . واذا كان هذا الانسحاب والاحتجاب عن حياة الناس العامة قد أعطى الخليفة العباسي صورة ملوك الشرق القدماء كالاكاسرة مثلا فانه جعل لظهور الخليفة بموكبه الباذخ في الاعياد وصلاة الجمعة وفي المسير للجهاد وفي المناسبات العامة نوعا من الهالة القدسية ، ينسجم مع النسب النبوي ومع صفة الاشراف على تنفيذ أوامر الله .

ولا شك أن المنصور بمفهومه الاداري الملكي المختلف عن المفهوم الاموي (الديمقراطي) قد صدم الرأي العام في عصره وأثار انتقاد الاتقياء والمؤمنين بالبساطة الحكومية وبمثال الشيخين وقد استوقف أحدهم المنصور في الكعبة فقال له : لقد استرعاك الله أمر عباده فأغفلت أمورهم وجعلت بينهم وبينك حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وحراسا معهم السلاح[1] ...» كما لم تخف أهداف المنصور من هذا البناء المركزي الحصين على معاصريه ولم تخف بخاصة على أعدائه العلويين الذين أنحوا عليه بالتهجم المرير وبالاتهام حتى درجة التكفير . فقد خطب محمد (النفس الزكية) في الناس يوم الثورة بالمدينة فقال : « أما بعد : أيها الناس فانه كان من أمر هذه الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً لله في ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام . وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الاعلى ..[2] »

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٨ (٣/٣٧٧) .
(٢) الطبري ج ٧ ص ٥٥٨ (٣/١٩٧) .

وثمة على أي حال فرق كبير جداً بين مفهوم المدينة الذي بنيت على أساسه بغداد بظروف بنائها وبأسوارها ومركزها المغلق • وبين المفهوم المنفتح الذي بنيت على أساسه سامراء بامتدادها وقصورها الباذخة وشوارعها الضخمة وظروف ذلك البناء المختلفة •

وقد نفذ المنصور فكره الاداري في الحزم المعروف عن مؤسسي الدول فلما جاء من بعده المهدي تراخت القبضة الادارية الحديدية التي عرفت عن أبيه ،وتسامح المهدي مع الناس ومع نفسه،وإذا كان المنصور قد ضرب بالطنبور رأس الضارب عليه حين سمع الدندنة في القصر فإن الخوارج كانوا يرددون صدى مايقوله الناس حين كتبوا الى المهدي يندون بسيرته ويأخذون عليه عدم إقامة الحدود واتخاذه الإماء والتنوق في البناء وإدمان الصيد والغناء ، ويضيف أحدهم ، وهو عبد السلام اليشكري :

« ••• وقد زادني غيظاً أنك تسميت بالمهدي وأبعد من سماك ••• ففي أي دين يسعك وفي أي كتاب إذ تعدو وظيفة ، أو تنقص مساحة ، أو تصطفي بستاناً أو تبذخ في مركب ، أو ترمي به في النزهة ، أو تفاوض عن جند أو تحبس عطاء أو تنسى من غزا أو تعاقب بالسوط ، سافكاً الدم ••• أيها الطاغية ••• » [1] ونرى المآخذ نفسها تؤخذ من قبل هؤلاء الخوارج على الرشيد ، ويكتب اليه حمزة بن أترك : « •• وقد فقد المسلمون عطاياهم وأرزاقهم وصدقاتهم بعد الخليفتين فصارت تؤخذ من غير موضعها وتصرف الى غير أهلها ••• » هذا الى مايتعاطى عمال

---

(١) انظر الرسالة كاملة في المصدر الوحيد الذي ذكرها وهو خليفة ابن خياط ـ التاريخ (طبعة العمري) ج ٢ ص ٤٧٥ ـ ٤٧٧

السلطان « من سفك الدماء وإباحة الأموال وركوب الفواحش وما لم يحله الله لعباده ...»[1] وإذا كانت بعض التواريخ قد ظلمت الأمين في سيرته اللاهية اللامبالية فليس ثمة دخان دون نار وإذا كانت سيرة المأمون « الرسمية » تجعله أنموذج الخليفة السياسي العالم الواعي فإن صورته في عصره لدى الناس لم تكن كذلك أبداً . وثمة إشارات كثيرة تكشف نظرة الناس السيئة إليه ومؤاخذته بدم أخيه وبالظلم كما تكشف بالمقابل خوفه من الناس ونظام التجسس الذي أقامه وقد اكتمل سوء الموقف ضده حين أخذ الناس آخر عهده بمذهب الاعتزال .

على ان شكاوى الناس من الخلفاء ظلت مجرد كلام في الهواء ولئن حولها الخوارج إلى قتال فقد كان قتالاً فاشلا لم تؤثر إلا في بعض الفترات أو بعض النواحي على مسيرة الادارة العباسية والتأثير المؤقت فقط .

فقد كانت أعمال المنصور وجهوده لإقرار النظام العباسي كافية لكي يستمر هذا النظام قائماً من بعده فترة تقارب القرن هي العهد الذهبي للادارة العباسية . ولم تسر هذه الادارة بأزمة من الأزمات الحادة إلا في تلك السنوات التي رافقت حرب الأخوين الأمين والمأمون وخاصة تلك التي اعقبت مقتل الأمين سنة ١٩٨ وامتدت حتى ما بعد وصول المأمون إلى بغداد سنة ٢٠٣ بقليل .

تلك السنوات الخمس كانت الفترة المظلمة القلقة في تاريخ الادارة

---

(١) انظر رسالة الرشيد وجواب حمزة بن اترك كاملين في كتاب تاريخي سيستان (بالفارسية) لمؤلف مجهول (طهران سنة ١٣١٤) ص ١٦٢ — ١٦٨

العباسية . ذلك أن غياب السلطة المركزية ، الغياب المطلق ، فكك النظام الاداري كله وبلغ من تمزيق الدولة الحد الذي أقام في كل بلد وأحياناً في كل قبيلة أو جماعة متغلباً يدعو لنفسه أو لبعض المتنفذين أو بعض آل البيت . ويعطينا اليعقوبي صورة كاملة مرعبة لذلك التفكك الفسيفسائي يقول : « ... وفي سنة ١٩٨ وجه المأمون الحسن بن سهل إلى العراق عاملاً عليها وعلى غيرها من البلد . وقد كان وثب الأصفر المعروف بأبي السرايا واسمه السري ابن منصور الشيباني **بالكوفة** ومعه محمد بن ابراهيم العلوي ... ثم توفى محمد فأقام ابو السرايا مكانه محمد بن محمد بن زيد . وأخذ **البصرة** العباس بن محمد بن موسى الجعفري ... وقدم معه زيد بن موسى بن جعفر ... وأخذ **واسط** محمد بن الحسن المعروف بالسلق وأخذ **اليمن** ابراهيم بن موسى ابن جعفر . وأخذ الحجاز محمد بن جعفر . وتغلب على **نصيبين** وماوالاها احمد بن عمر بن الخطاب الربعي . **وبالموصل** السيد بن أنس وبميافارقين موسى بن المبارك اليشكري **وبأرمينية** عبدالملك بن الجحاف السلمي ومحمد بن عتاب **وباذربيجان** محمد بن الرواد الأزدي ويزيد بن بلال اليمني . ومحمد بن حميد الهمداني وعثمان بن أفكل وعلي بن مر الطائي . **وبالجبل** أبو دلف العجلي ومرة بن أبي الرديني وعلي بن البهلول ومحمد بن زهرة وسنان وزيد بن ... **وبالسلسة وعين جساس** وناحيتها بسطام بن السلس الربعي . **وبكفرتوثا وراس عين** حبيب بن الجهم **وبكيسوم** وماوالاها من ديار مضر نصر بن شبث النصري . وكان أصعب القوم شوكة ...**وبقورس** وماوالاها من كور العواصم العباس بن زفر الهلالي . **وبالحيار** وما والاها من **كورقنسرين** عثمان بن تمامة العبسي **وبالحاضر الذي الى جانب** حلب منيع التنوخي ... (وحاربهم

يعقوب بن صالح الهاشمي حتى خرب الحاضر وألصقه بالارض وكان فيه عشرون ألف مقاتل) **وكان بمعرة النعمان وتل منس وما والاها من اقليم حمص** الحواري بن حنطان التنوخي . **وبحماه** وما والاها حراق البهراني **وبشيزر** وما والاها بنو بسطام . وبمدينة **حمص** بنو السمط **وبالمصيصةواذنةدما** والاها من الثغور الشامية ثابت بن نصر الخزاعي (وكان عاملاً للأمين فلما كان من أمره ما كان تغلب على البلد) **وأقام بدمشق والاردن وفلسطين** جماعة من سائر القبائل . وبمصر السري بن الحكم بقصبة **الفسطاط** والصعيد (اي الدلتاوتنيس) عبد العزيز الجردي **وبالحوفين** القيسية واليمانية .

وغلبت لخم وبنو مدلج على **الاسكندرية** ورئيس لخم رجل يقال له احمد ابن رحيم اللخمي . ثم غلب الاندلسيون (جماعة الربض الذين قدموا في اربعة آلاف مركب بقيادة ابي عبد الله الصوفي) . وكان **ببرقة** مسلم بن نصر الأعور الأنباري ... »[1] .

وهكذا كان الجزء الوحيد من الدولة الباقي على النظام العباسي هو خراسان وايران حيث كان يستقر المأمون . وكان على هذا الخليفة أن يعاود من جديد جهود المنصور لالغاءهذه الزعامات والتسلطات المحلية وإقرار النظام العباسي المركزي بدلاً منها . وحتى خراسان لم تسلم للمأمون إذ خرج بها بعد مغادرة المأمون لها ثائر خطر هو منصوربن عبد الله بن يوسف البرم . وحتى بغداد التي فتحت وقتل خليفتها وثب بعض اهلها (أهل الحربية) كما وثب الابناء وبعض الجند بقيادة محمد بن أبي خالد بالحسن بن سهل حتى أخرجوه من بغداد ... وبرغم مقتل ابن أبي خالد عند واسط فإن الابناء وقواد الحربية اجتمعوا فبايعوا لابراهيم

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٤٥ ــ ٤٤٦

ابن المهدي (وهو المعروف بابن شكلة) في مطالع سنة ٢٠٢ ودعي لـه بالخلافة وسمي بالمرضى ... ونزل بالرصافه وصلى بالناس وعقد الالوية وكتب بالولايات واستقامت له الامور ...[1] » .

ولكن هل استقامت فعلا ؟ الواقع انها استقامت متأخرة في سنة ٢٠٦ حين « ولى المأمون قائده عبد الله بن طاهر الجزيرة والشام ومصر والمغرب وصير إليه جميع أعمالها وأمره بمحاربة المتغلبين بها . فنفـذ عبد الله في سنة ٢٠٦ بعـد نفوذ أبيه الى خراسان بشهرين فصار الى الرقة فواقع نصر بن شبث النصري المتغلب بكيسوم وما والاها من ناحية الجزيرة . وكتب الى سائر المتغلبين في النواحي من الجزيرة والشامات . وأنفذ اليهم الرسل في المعاون . فكتب القوم جميعا أنهم في الطاعـة . وسألوه أن يكتب لهم الامانات فقبل ذلك منهم[2] » .

« ووجه المأمون خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني الى مصر ومعه عمر بن فرج الرخجي في جيش وأمرهما أن يتكاتفا على النظر فاذا فتحا البلاد نظر ... الرخجي في أمر الخراج وكان الى خالد المعاون والصلاة » .. ثم قدما مصر وعلى بن عبد العزيز الجروي متغلب بأسفل الارض .. فكتب اليهما أنه في السمع والطاعة ... » .

ولكنه زاغ منهما بعد ذلك ولا سيما حين انهزما أمام عبيد الله بن السري وأسر خالد ثم اطلق بالسراح الجميل الى العراق بينما ذهب الرخجي الى الحج بمكة ... ثم لم تسقط مصر بيد المأمون حتى أرسل لها عبد الله بن

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥٠ ـ ٤٥١

(٢) المصدر نفسه ص ٤٥٦ و ص ٤٥٧

طاهر نفسه [1] فحارب وانتصر في صفر سنة ٢١١ ٠

وجرى الامر نفسه في اليمن وكان **أحمد بن محمد العمري** (من ولد عمر بن الخطاب) قد وثب بقسم من اليمن فلما استنزله منها بالامان ابو الرازي محمد بن الحميد والي اليمن ثم مكر به صار بعض اليمن للمأمون أما القسم الآخر الذي غلب عليه **ابراهيم بن جعفر الحميري** فكان في منطقة الجبال الوعرة وقد استطاع الحميري أن يكمن لابي الرازي فيها فيقتله مع أصحابه ثم يخرب مدينة السلطان (زبيد) سنة ٢١٢ هـ ٠

وهذا كله يعني أن الادارة العباسية استمرت بعد سنوات الاضطراب الخمس سنة (١٩٨ ــ ٢٠٣) ما لايقل عن ثماني أو تسع سنوات أخرى حتى عادت آليتها الى المسير المنتظم القديم وعاد للسلطة المركزية نفوذها في أنحاء الدولة ولكن بعد أن زرعت فيها بذور التفكك المقبل ٠

وننتقل من رئيس الدولة وعمله الاداري الى البلاط حوله فنجد فيه : ولي العهد والصحابة ٠ ولم يكن لولي العهد من دور إداري ٠ بلى ! كان يتمرس على الادارة بأن يعطى بعض الولايات ٠ وكان ــ ولا سيما في الفترات الاولى ــ يذهب الى تلك الولاية ، وهي في الغالب خراسان ولكنه عند ذلك يصبح واحدا من الولاة وليس الموجه لسياسة الدولة كلها ٠ ومنذ عهد المنصور أضحى ولي العهد نوعا من « الخليفة الصغير » في الشكليات والمراسم دون السلطات والنفوذ ٠ كان يخرج في موكب خاص به ويمشي صاحب الشرطة بين يديه « بالحربة » ثم تعقد الموكب مع الايام وازدادت المراسم حتى إذا كان عهد المتوكل نجد أن تلك المراسم أضحت

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٦٠

معقدة منظمة . يروى الطبري[1] أن المتوكل عقد لكل واحد من أولاده الثلاثة لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل وضم إلى كل واحد منهما من العمل : افريقية والمغرب حتى العراق لابنه محمد المنتصر وكور خراسان وفارس مع بيوت المال ودور الضرب لابنه المعتز وأجناد الشام لابنه المؤيد ... ونستخلص من كتاب المنتصر في عزل أخويه هذين أنه كان من الرسم أن يعلن اسم ولي العهد في الخطبة، وأن يجعل له ديوان وتضم اليه الكتبة ويعطى الاقطاع اللازم ويكتب اسمه على الاعلام والمطارد وتوسم دواب الشاكرية (الحرس) والرابطة باسمه[2] ولكن الاثر الاداري لاولياء العهود لم يكن ليزيد عن أثر أي وال من الولاة مع كل ذلك .

على أن الجديد في الادارة العباسية هو ظهور « مجلس » استشاري من كبار الرجال في مختلف الامصار يختار أعضاؤه اختيارا ليكونوا بجانب الخليفة على الدوام ، يحضرون القصر كل يوم فيدخلون على مراتبهم مجلس الخليفة ، فيشهدون لقاءه مع الناس ويستشيرهم في الرأي ويكتبون له بما يرون من الامور ويسامرونه أحيانا ويحضرون بجانبه في المناسبات الرسمية من عرض للجيش أو بيعة لولي عهد أو تهنئة أو عزاء ، كما ينتقى منهم أحيانا بعض الرجال لبعض المهام من قيادة وسفارة وولاية . هذا المجلس الذي قد يبلغ أعضاؤه عدة مئات كان يدعى « بالصحابة » ويبدو أنه تقليد عربي قبلي قديم نما في زمن الامويين فكان يحضر مجالس خلفائهم وولاتهم وجوه العرب ثم نظم ذلك العباسيون الاوائل تنظيما أوفى وأوسع . يروي الطبري قول معن بن زائدة :

---

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١٧٦ (٣/١٣٩٥ – ١٣٩٦) .
(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٥٠ (٣/١٤٩٤) .

« ... كنا في الصحابة سبعمائة رجل فكنا ندخل على المنصور كل يـوم فقلت للربيع (بن يونس) : اجعلني في آخر من يدخل فقال : لست بأشرفهم فتكون في أولهم ولا بأخسهم نسبا فتكون في آخـرهم وإن مرتبتك لتشبه نسبك[1] ... » هؤلاء هم الحاشية الرسمية . وكان لها من الخليفة الجراية المعلومة المتفاوتـة من الرزق (الراتب) والمعونة (المؤن والعدد للقتال) ولها في توجيه الادارة الاثر المتفاوت أيضا حسب افرادها وقيمهم وحسب الخلفاء .

ويبدو أن أول ما ظهر هذا المجلس من الصحابة إنما كان حـول الخليفة الاول أبي العباس بسبب حاجته وحاجة الدولة الجديدة الـى الاعوان والخبراء . كما يبدو أن الصحابة الاوائل هؤلاء كانوا يجمعون أو يقبلون في مجلس الخليفة دون تدقيق في الاختيار بسـبب طبيعـة مرحلة التأسيس التي كانت تجتازها الدولة . وقد سمحت الفترة الاولى، للوزراء والكتاب بسبب الفوضى والسرعة ، أن يدخلوا في صحابـة الخليفة أناسا لا ينظر الناس اليهم نظرة تقدير ممـا جعـل الطبقـات الارستقراطية تحجم عن الترحيب بصحبة الخليفة . وقد أشار ابن المقفع في رسالة الصحابة الى آلام الناس ونقدهم الشديد لهذا الوضع قال[2]: « ... ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر اصحابه فان من أولى أمر الوالي بالتثبت والتخير أمر أصحابه الذين هم فناؤه وزينة مجلسه وألسنة رعيته

---

(١) الطبري ج٨ ص ٦٤ (٣/٣٩٣ ـ ٣٩٤) .

(٢) انظر في رسالة الصحابة لدى محمد كرد علي ـ رسائل البلغاء (طبعة البابي ـ القاهرة سنة ١٩١٣) ص ١٢٧ ـ ١٢٨ وانظرها لدى يوسف ابو حلقة في كتاب (ابن المقفع ـ الادب الكبير) ـ طبعة بيروت ١٩٦٠ ص ١٧٢ ـ ١٧٤ .

والاعوان على رأيه ومواضع كرامته والخاصة من عامته فان أمر هذه الصحابة قد عمل فيه من كان وليه من الوزراء والكتاب قبل خلافة امير المؤمنين (المنصور) عملا قبيحا مفرط القبح ، مفسدا للحسب والادب والسياسة ، داعيا للاشرار طاردا للاخيار • فصارت صحبة الخليفة أمرا سخيفا فطمع فيه الاوغاد وتزهد اليه من كان يرغب فيما دونه ... »
ثم يروي ابن المقفع أنه كان في ناس من وجوه أهل البصرة دعاهم أبو العباس « فأبوا أن يأتوه فمنهم من تغيب فلم يقدم ومنهم من هرب بعد قدومه اختيارا للمعصية على سوء الموضع لا يعتذرون في ذلك الا بضياع المكتب (أي ما يكتبون) والدعوة (أي الاذن على الخليفة) والمدخل (الدخول عليه) يقولون : هذه منزلة كان من هو أشرف من أبنائنا يرغبون فيما هو دونها عند من هو أصغر من أمراء ولاتنا اليوم ولكنها كانت مكرمة وحسباً • إذ الناس ينظرون ويسأل عنهم فأما اليوم ونحن نرى فلانا وفلانا ينفر بأسمائهم على غير قديم سلف ولا بلاء حدث فمن يرغب فيما ها هنا يا أمير المؤمنين ؟» •

لا يصلح القوم فوضى لاسراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

« وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيب دخلت فيها مظالم :
أما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول : ما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهي الى أدب ذي نباهة ولا حسب معروف ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور في أهل مصره قد غبر عامة دهره صانعا يعمل بيده ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غنا إلا إنه مكنه من الامر صاغ (مال) فانتهى الى حيث أحب فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والانصار وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب• ويجرى عليه من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيرهم من سروات قريش ويخرج له من المعونة على نحو ذلك .. » •

« وأما المظلمة التي دخلت في ذلك فعظيمة قد خصت قريشا وعمت كثيرا من الناس وأدخلت على الاحساب والمروءات محنة شديدة وضياعا كثيرا فان في اذن الخليفة في المدخل عليه والمجلس عنده وما يجري على صحابته من الرزق والمعونة وتفضيل بعضهم على بعض في ذلك حكماً عظيما على الناس في أنسابهم وأخطارهم ... وليس ذلك كخواص المعروف ... يختص بها المولى من أحب ولكنه باب من القضاء جسيم عام يقضى فيه للماضين من أهل السوابق والباقين من أهل المآثر وأهل البلاد والغناء بالعدل ... ولصحابة أمير المؤمنين ــ اكرمه الله ــ مزية وفضل وهي مكرمة سنية حرية أن تكون شرفا لاهلها وحسبا لاعقابهم وحقيقة أن تصان وتحظر ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال (قرابة . شرف . رأي . حديث . مشورة . نجدة . حسب . عفاف . فقه)ثم تكون تلك الصحابة المخلصة على منازلها ومداخلها لا يكون للكاتب فيها أمر في رفع رزق ولا وضعه ولا للحاجب في تقديم إذن ولا تأخره ... »

في هذه الصورة النادرة صور ابن المقفع واقع الامر في تكوين مجلس الصحابة وذوره زمن ابي العباس وفي مطالع عهد المنصور . ويبدو من أخبار هذه الصحابة أن أمر تعيينها وضمها الى الخليفة كان يخضع للاختيار الحر وكان يعمل فيه الوزراء وكبار الكتاب والولاة بجانب الخلفاء: فصالح بن علي العباسي سار من مصر عائدا ومع عدة من أهلها صحابة لامير المؤمنين[1] وابو عبيد الله وزير المهدي نظر الى أربعة رجال من قبائل شتى من أهل الادب والعلم فضمهم الى المهدي فكانوا في صحابته[2]

---

(١) المقريزي ــ الخطط (طبعة بيرت) ج٢ ص ٧٥ .
(٢) الطبري ج٨ ص ١٣٧ (٣/٤٨٧ ــ ٤٨٨) .

وأعجب الرشيد بفصاحة عبد الواحد بن بشر النصري الذي اعتذر لديه عن أهل دمشق القيسيين ، فأثبته في صحابته[1] ...

ويبدو من جهة أخرى أن هذه الصحابة لم تكن من العرب وحدهم وكان فيها الموالي أيضا كما لم تكن تختار لاحسابها أو غناها فقط ولكن يراعى في اختيارها عدد من الصفات وقد اعطى ابن المقفع الصورة المثالية لهذا الاختيار بقوله : « ... ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال أو رجل له عند أمير المؤمنين خاصة بقرابة أو بلاء أو رجل يكون شرفه ورأيه وعمله أهلا لمجلس أمير المؤمنين وحديثه ومشورته أو صاحب نجدة يعرف بها ويستعد لها يجمع مع نجدته حسبا وعفافا فيرفع من الجند الى الصحابة أو رجل فقيه مصلح يوضع بين أظهر الناس لينتفعوا بصلاحه وفقهه أو رجل شريف لا يفسد نفسه أو غيرها ... » وهذا يعني أن إطار الاختيار كان يدور حول هذه الصفات ففيه القواد وفيه الفقهاء وفيه أقرباء الخليفة كما فيه الاشراف العرب وغيرهم وأصحاب الرأي والمتحدثون ... ويظهر أنه كان يراعى فيهم التوزيع الجغرافي فمنهم من هو من خراسان كما ان منهم من أهل الشام ومن مصر ومن الحجاز ومن البصرة والجزيرة وقد ورد في كتاب القاضي أحمد بن عبيد الله العنبري الى المهدي يوم استخلص قوله : « ... فان رأى أمير المؤمنين أن يكون بحضرته قوم منتخبون من أهل الامصار أهل صدق وعلم بالسنة ، أولو حنكة وعقول وورع لما يرد عليه من أمور الناس وأحكامهم وما يرفع اليه من مظالمهم فليفعل فان امير المؤمنين وإن كان الله أنعم عليه بما أفاد من العلم بكتابة رد عليه أمور هذه الامة أهل شرقها وغربها

---

(١) ابن عساكر – تاريخ دمشق (تهذيب بدران) ج ٧ ص ١٧٧

وقاصيها ودانيها فيشغله بعضها عن بعض ، ففي ذلك عون صـدق على ما هو فيه ان شاء الله ... [1] » .

ولم يحفظ لنا المؤرخون إلا أسماء القليل من هذه المئات العديـدة من صحابة الخلفاء فمن صحابة أبي العباس ذكروا مثلا فراس بن جعـدة المخزومي ، وابا بكر الهذلي وعبد الله بن شبرمة وابراهيم بن جبلـة الكندي وخالد بن صفوان . كما عرضت الصحابة على ابن المقفع وغيره . ومن صحابة أبي جعفر نعرف معن بن زائدة الشيباني وابن ابي الكرام الجعفري والحجاج بن أرطاة النخعي وجعفر بن حنظلة البهراني واسحق ابن مسلم العقيلي ، والشرقي بن القطامي وعثمان بن عمارة وعبد الله ابن الربيع المداني وسلم بن قتيبة الباهلي ونصر بن مالك الخزاعي وتمامة ابن الوليد العبسي ... واذا كان العدد الاكبر من هؤلاء الصحابة عربا فقد كان ذلك نتيجة تكوين الجماعة المناصرة للدولة ولان كثرة المسلمين كانت ماتزال من العرب . وإنما كان اختيارهم في الاصل لا لعروبتهم ولكن لانهم « أهل الامصار » .

ويظهر ان التنافس ومحاولة السيطرة على رأي الخليفة وتنـازع النفوذ كانت على أشدها في البلاط العباسي ولا سيما بين العـرب والموالي . أو بين هاتين الكتلتين وبين الجهاز التنفيذي الذي يرئسه الوزير . وهذا ما أثر تأثيرا سيئا على كتلة الصحابة وعلى نموها كمجلس ذي نفوذ وسمح للوزراء بأن يهدموا ذلك النفوذ بالتـدريج يروي الطبري أن أبا عبيد الله الوزير « لما رأى غلبـة الموالي على المهدي وخلوتهم به نظر الى أربعة رجال من قبائل شتى (عربية) من أهل الادب

---

(١) انظر وكيع ـ أخبار القضاة ج ٢ ص ١٠٧ (طبعة القاهرة ١٩٤٧)

والعلم فضمهم الى المهدي فكانوا في صحابته فلم يكونوا يدعون الموالي يخلون به ... » • وكانت الغلبة في النهاية للوزراء لا سيما حين تسلم أمر الخلافة كافة خالد بن برمك في عهد الرشيد • فتقلص ظل الصحابة وتقلص معه نفوذهم السياسي والاداري في الدولة •

ومن الهام أن نلاحظ أن الصحابة لم يكونوا يعملون أو يشيرون ويقررون « كمجلس » ولكن كأفراد بارزين • لم تكن لجماعتهم صفة « المؤسسة الاستشارية » وإن كانوا مجموعة من الافراد جاهزة للمشورة والولاية والنجدة وحسن توجيه الادارة • طبيعة الحكم الاوتوقراطي المطلق الذي وطده المنصور لم يسمح لهذه الجماعة بالنمو والتوطد والتحول الى كيان رسمي منظم بقي بابها مفتوحا دون عدد محدد او نظام معروف أو مدة معينة•وبقيت قيمتها مرتبطة بوزن أفرادها ومدى تقديرهم الشخصي لدى الخليفة او كبار موظفي الدولة (من وزير وكاتب وحاجب) ... وبدلا من النمو والتوطد اتجهت جماعة الصحابة شيئا فشيئا في الاسم والاختصاص والدور السياسي نحو الاضمحلال في عهد الخلفاء التالين : تحول اسمها منذ عهد المهدي الى « الخاصة » ولعل لارتفاع قيمة صحابة الرسول واختصاصهم المتزايد بهذه التسمية أثرا في حملهم الاسم الآخر • واستقرت الدولة في القبول العام للناس فاستغنى الخلفاء عن البحث في وجهاء الامة عن أعوان يستقدمونهم الى البلاط مادام الناس يقدمون من أنفسهم عليهم ويطلبون الزلفى اليهم • ولئن بقي التقليد المنصوري بتعيين رجال « الخاصة » في البلاط وفي منحهم الارزاق والمعونة الا إن دورهم السياسي والاداري تضاءل كل التضاؤل فأضحى الدخول في « الخاصة » مجرد تشريف ينعم به الخليفة على من يرتضيه من طبيب أو كبير أو قائد أو

شريف من الاشراف ، ويشكل بهم « الارستقراطية » الرسمية في الدولة.

ويبدو من الاخبار التاريخية أن مجلس الصحابة لم يكن للخلفاء فقط ولكنه كان لاولياء العهود : تربية لهم من جهة وتهيئة للمجلس كي يمنو ويتوطد مع الخليفة المقبل من جهة اخرى شرع في ذلك الخليفة المنصور أيضا فحين أرسل ابنه المهدي على خراسان سنة ١٤٦ جعل له حاشية من الصحابة يعينونه على الولاية ويوجهونه[١] وحين ورد المهدي من خراسان سنة ١٥١ توافد أهل بيته من كان منهم بالشام والكوفة والبصرة وغيرها للتهنئة بمقدمه فأجازهم المنصور وكساهم « وجعل لابنه المهدي صحابة منهم وأجرى لكل رجل منهم خمسمائة درهم ..»[٢] ولكن دور الصحابة لدى ولي العهد كان في الغالب دور المربين والمدربين على المسؤولية المقبلة .

ونجد من جهة اخرى أن بعض الوزراء كانوا يصطنعون لانفسهم صحابة معينة أيضا وكانوا ينظمونها أحيانا . ولعل أول من بدأ ذلك هو يعقوب بن داوود حين أضحى المتنفذ الاول في الدولة فقد روى الطبري أنه « ضم اليه (سنة ١٦١) من متفقهة البصرة وأهل الكوفة وأهل الشام عددا كثيرا وجعل رئيس البصريين والقائم بأمرهم اسماعيل بن علية الاسدي ومحمد بن ميمون العنبري وجعل رئيس أهل الكوفة وأهل الشام عبد الاعلى بن موسى الحلبي[٣] ... » على أن هذه الصحابة الوزيرية أخذت طابع الاصطناع والارتزاق في عهد البرامكة ثم اقتصرت

---

(١) اليعقوبي تاريخ ج٢ ص٤٥٦ .
(٢) انظر الطبري ج٨ ص ٣٧ (٣/٣٦٤) .
(٣) الطبري ج ٨ ص ١٣٦ (٣/٤٨٦ – ٤٨٧) .

في ما يظهر على جمهور الكتاب ورجال الدواوين فكانوا هم رجال الوزير وصحابته بعد ذلك .

ب ـ الكتاب والدواوين : الجهاز الاداري العباسي كان سلسلة بورقراطية متصلة من الموظفين تبدأ من القمة بالوزير وتنتهي بصغار المحررين ويمكن أن يشملها جميعا اسم : الكتابة . والوزارة ذاتها انما هي بنت الكتابة . من كان يسمى في أواخر العهد الاموي كاتبا صار في مطلع العهد العباسي يسمى وزيرا وهو ليس اكثر من رئيس الكتّاب . وليس من قبيل الصدفة أن أولئك الذين اختارهم العباسيون الاوائل للوزارة كانوا في كافتهم من طبقة الكتاب فاقصى أمنيات هذه الطبقة منصب الوزارة . وقد ذكر ان عمرو بن مسعدة وقع على ورقة رفعت الى جعفر ابن يحيى البرمكي فأعجب بالتوقيع وضرب بيده على ظهر عمرو قائلا : أي وزير في جلدك ! وهكذا فان وجد لدى العباسيين وزراء فانه لم توجد لديهم « وزارة » بمعنى أنه لم توجد لديهم مؤسسة سياسية ـ ادارية تناط بها طائفة من الاعمال فتديرها ادارة مستقلة [1] .

تضخمت فقط أعمال رئيس الديوان وكبرت مكانته فصار يسمى بالوزير . وإذا كان هذا يفسر مصارع الوزراء المتتالين الذين كانوا ينتقلون ـ في لحظة تسامح من الخليفة ـ من وظيفة الكاتب المنفذ الى

---

(٤) إنما كان تعدد الوزراء بتعدد الاعمال من نظام الاندلسيين « فقد قسموا خطة الوزارة اصنافا وافردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيرا وللترسل وزيرا وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا وللنظر في احوال اهل الثغور وزيرا » انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٢ ص ٢٠٦ .

وظيفة الآمر الناهي فانه يكشف في الوقت نفسه أن هذا الانتقال الذي قام به أمثال يعقوب بن داوود ثم خالد بن برمك وابنه جعفر ثم قام بسه الفضل بن سهل كان الشذوذ عن القاعدة وأن عمل الوزير — في نظر الخلفاء في صدر العصر العباسي على الاقل — ليس الوزارة ولكن الكتابة ورئاسة الدواوين ، لم تصبح لهم خطة السيف مع خطة العلم أي سلطة تصريف الامور السياسية والادارية والمالية والعسكرية الا في عهد متأخر من ذلك العصر حين بدأت الوزارة تصبح ، عن طريق الممارسة الواقعية ، مؤسسة مستقلة مميزة ».

والكتابة هو اسم عمل الموظفين في الدولة العباسية . والكتاب هم السكرتيرون والموظفون في شتى دواوين الحكومة وأعمالها . ومن الملاحظ أن كتاب الدولة العباسية ، لا في العصر الاول فحسب ولكن بعده أيضا ، كانوا من حيث الاصل ايرانيين ، ومن حيث الثقافة مشبعين بالثقافة الفارسية ، ومن حيث الدين غير عميقي الايمان بالاسلام أو غير مسلمين ، ولم يكن ذلك بالغريب ولكنه كان نتيجة الظروف السياسية والجغرافية التي أحاطت بقيام الدولة العباسية . فاذا كانت غالبية الكتاب لدى الامويين في البلاط المركزي بالشام من سكان الشام القدامى ومن النصارى فان كتاب العراق وايران كانوا حتى في العهد الاموي من الايرانيين . وقد ورثتهم الدولة العباسية حين نشأت في العراق وزاد اعتمادها عليهم دون الشاميين ما دام مركز ثقلها السياسي انما هو في خراسان وايران . ولنلاحظ أن ارتباط الاسرة العباسية بخرسان هو الذي أدى الى ظهور «الوسطاء» بينها وبين الايرانيين من امثال أبي مسلم الخرساني والبرامكة ثم آل سهل كما كان السبب في زحف الكتاب الايرانيين خاصة الى وظائف الدولة .

ومنذ العهد الاموي كانت قد بدأت بين هؤلاء الكتاب روح جماعية تدفعهم الى الشعور بانهم يكونون جماعة خاصة أو وحدة وظيفية واذا تجلت هذه الروح مثلا في نصيحة عبد الحميد الكاتب « لمعشر الكتاب » فانها قد تطورت ، في العهد العباسي ، حتى حولتهم الى طبقة بورقراطية شبه مغلقة شبيهة بطبقة المثقفين الصينيين •

تضافرت على هذا التطور عوامل شتى : فاذا كان هؤلاء الكتاب من الناحية الاجتماعية مجموعة من الايرانيين المستعربين من أهل العراق أو ايران فقد حاولوا أن يتمسكوا بوظائفهم ويرفعوا من شأنها ويضعوا لها المؤهلات والتقاليد ، كما تؤمن لهم تلك الوظائف من حياة مترفة ونفوذ اجتماعي كبير واذا كانوا ثقافيا يمثلون تيار الثقافة الفارسية فقد سعوا الى تقريبها ونشرها بين الناس وطبع الدولة العباسية العربية بطابعها الاداري ـ السياسي واذا كانوا في الدين جديدي الدخول في الاسلام فقد ظلوا بصورة عامة أميل الى الزندقة كما كان فيهم الكثير من الثنوية أو من اهل الذمة المحافظين على دياناتهم •

وقد أضيف الى ذلك عوامل أخرى زادت في وضوح الطابع الطبقي لدى الكتاب وفي علو منزلتهم ونفوذهم ذلك أن عددهم ازداد في العصر العباسي الأول « مع اتساع الاجهزة الادارية وازداد في الوقت نفسه التعقيد التقني المتعلق بأعمالهم وتضافرت مصلحة الدولة مع الحاجة الى التأهيل التقني (المهني) فاتجه هؤلاء الكتاب الى حصر وظائفهم في سلالاتهم أو في أقربائهم بعد أن كانوا في الأصل ينتقون من بين موالي العائلات الكبيرة ••• »[1] •

---

(١) كلود كاهن ـ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، الترجمة العربية ، ص ١٢١ •

وزاد في قيمة الكتاب وفي تشكيلهم طبقة متنفذة أنهم كانوا جهازاً إداريا مستمراً واختصاصيا بتغيير الخلفاء دوماً وبتعرض الوزراء للعزل والنكبات وهم باقون على آلة الادارة الواسعة يديرونها على طرائقهم بالاضافة الى أن الخلفاء من بني العباس اسرعوا وتوسعوا في استخدام الكتاب في الوقت الذي كان فيه نفوذ الوزراء يتعاظم . ووجد هؤلاء الخلفاء ضالتهم لتنظيم الدولة وضبطها ومركزيتها في النماذج الادارية والتنظيمية التي نقلها لهم هؤلاء الكتاب عن الفرس وعن آداب البلاط الساساني فاصطنعوهم اصطناع محتاج لخبرتهم ، راض بهذه الخبرة مقدر لأصحابها مميز لهم في المكانة والرزق والنفوذ جزاء مابيدهم من « صناعة » الادارة والسياسة والحكم .

وقد وضع الكتاب منذ ذلك العصر أسس التأهيل المهني لصناعتهم في شكل معلومات وتقاليد ومفاهيم ثقافية محددة وكتبوا في ذلك الكتب التعليمية من أمثال : أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر وكتاب (الكتاب) لابن درستويه وغيرها . وينكشف في هذه الكتب ماكان يطلب من ابن « الصناعة » معرفته والالمام به من لغة وإملاء ونحو وتاريخ وجغرافيا ومسالك وبيان وشعر وفقه ومن معلومات عملية تمتد من بري القلم الى تقسيم الإرث أو مساحة الأرض أو صيغة العقود أو معرفة البريد والمنارات ومطارات الحمام الزاجل . ويحدثنا الجاحظ عن ثقافة الكتاب هازئاً منها قائلاً : « ... والناشيء فيهم إذا ... صارت الدواة أمامه وحفظ من الكلام فتيقه ومن العلم ملحه ومن برز جمهر أمثاله ومن أزدشير عهده ومن عبد الحميد رسائله ومن ابن المقفع أدبه وصير كتاب نردك معدن علمه ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته توهم أنه الفاروق الاكبر في التدبير وابن عباس في العلم بالتأويل ... والنظام في الكلاميات والأصمعي في اللغات ...

إلخ » ومهما كان تقديرنا لهذه الثقافة السطحية المتنوعة ذات الدائرة الواسعة والعمق المحدود فإن قيمتها العملية بالنسبة للكتاب كانت كبيرة كما انها وضعت أسس الثقافة « الكلاسيكية » الأدبية في التاريخ العربي ومنحتها طابعها الموسوعي ٠

وكانت نتيجة نفوذ الكتاب من جهة ووضعهم الثقافي من جهة أخرى أن اشتهروا بالكبر وبقلة الدين ٠ وهاتان الصفتان كانتا محور الرسالة التي كتبها الجاحظ « في ذم أخلاق الكتاب » وهي تعكس الكثير من حملة الجو الديني الثقافي والاجتماعي ضد الكتاب في ذلك العصر من التهجم والنقد وقد يكون في بعضه وجه للحق ٠

فاما في موقفهم الاسلامي ٠ فقد حلل الجاحظ هذه الناحية الدينية بقوله « ٠٠٠ يكون اول بدو الكاتب الطعن على القرآن في تأليفه ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار ٠٠٠ فان استرجح أحد أصحاب الرسول (ص) فقل عند ذكرهم شدقه وإن نعت له الحسن (البصري) استثقله ٠ وإن وصف له الشعبي استحمقه ٠٠ ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة ازدشير بابكان وتدبير انوشروان ٠٠٠ فإن حذر العيون رجع بحكم القرآن الى المنسوخ وبذكر السنن إلى المعقول لا يرتضي من الكتب إلا المنطق ٠٠٠» ويضيف الجاحظ « ٠٠٠ هذا هو المشهور من أفعالهم والمتصوف من أخلاقهم ومن الدليل على ذلك أنه لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره ولا التفقه في الدين شعاره ولا الحفظ للسنن والآثار عماده فإن وجد الواحد منهم ذاكراً شيئاً من ذلك لم يكن لدوران فكيه به طلاقة ٠٠٠ وإن آثر الفرد منهم السعي في طلب الحديث ٠٠٠ وكتب المتفقهين استثقله أقرانه وقضوا عليه بالادبار في معيشته وللحرفة في صناعته حين حاول ما ليس

من طبعه ... »[1].

ويسجل المستشرق جب ها هنا ملاحظة هامة تعلق على هذا الأمر يقول فيها : « إن اصطناع الدولة العباسية لطبقة الكتاب بصفاتها هذه وانتحالها — عن طريقهم — للتقاليد الملكية الفارسية وللمنحى الاداري — السياسي الفارسي بشكل متزايد . قد استتبع صراعاً بين المثل العليا الأخلاقية والاجتماعية في المجتمع العباسي دار اكثره في ما قد نسميه معركة الكتب . وتسمى حركة بث الصبغة الفارسية باسم الشعوبية وجرى الناس على أن يعتبروها تياراً من رد الفعل ظهر بين الفرس ضد السادة العرب إلا إن هذا التفسير غاية في الضيق فقد كان أصحاب هذه الحركة هم طبقة الكتاب العاملين في الدواوين وكان نفوذهم قد ازداد زيادة بالغة في ظل الدولة العباسية ... وقد عثر أولئك الكتاب منذ آخر الدولة الأموية على النماذج التي يحتذونها في أدب البلاط الساساني. فأهمية الحركة الشعوبية إذن تكمن في أنها تمثل جهود طبقة الكتاب ليفرضوا — وهم يتحاشون الاصطدام جهاراً بالنظام الديني — سيطرة تقاليد البلاط الفارسي . ليس هذا وحسب بل لكي يبعثوا البناء الاجتماعي الفارسي القديم بكل مايحويه من مراتب طبقية متمايزة ولكي يحلوا روح الثقافة الفارسية محل ماخلفته التقاليد العربية من مؤثرات في المجتمع المدني الجديد المتطور بسرعة في العراق ... » عن طريق ترجمة كتب فارسية تلقى ذيوعاً ورواجاً بين الناس .

ومن هنا نشأ التصادم بين طبقة الكتاب وطبقة الفقهاء التي لجأ بعض رجالها — كالمعتزلة — الى الفلسفة الاغريقية للوقوف في وجه التيار

---

(١) الجاحظ — آثار الجاحظ (طبع أبو النصر — بيروت) ص ٥٤—٥٥

الفارسي • وظهر الانقسام بين النظام السياسي والنظام الديني وبالرغم من ان النظام الأخير هو الذي انتصر إلا إن عناصر رئيسية عديدة مـن المؤثرات الساسانية كانت في النهاية قد ادمجت في آداب العلوم الانسانية العربية وفي التقاليد السياسية الاسلامية[1] •

وأما في الجو الاجتماعي فبالرغم من أن بعض الكتاب كانوا زهرة المجتمع الادبي وكانت لهم شهرتهم الأدبية فإن الناس ـ وهم في طبعهم أعداء من حكموا ـ كانوا يجعلونهم هدفاً للنقد ويكرهون منهم خاصة الكبر ويأخذون عليهم « الترفع » وروح الطبقة • وهذا ما جعل الحديث في مساوئهم كثيراً وجعل الوجه المذموم من سيرهم مجال ذكر وتسجيل يذكر الجاحظ مثلاً • أنهم « يضربون بالكاتب فيما بينهم المثل ويحكسون له بالبصيرة في الأدب (والعلم والنبل) ••• ولعله عمر بـن فرج في السفه والمباهتة وابراهيم بن العباس في الشره والرقاعة ونجاح بن سلمة في الطيش والسخافة واحمد بن الخصيب في اللؤم والجهالة وآل وهب في النهم والنذالة ويحيى بن خاقان في الذل والفاقة وموسى بن عبد الملك في الرخم والبلادة وابن المدبر في الخب والمكابرة والفضل بن مروان في الفدامة القصوى •••»[2] وهؤلاء هم مشاهير الكتـاب في عصره • ويستعرض الجاحظ في موضع آخر تاريخ الكتاب منذ نشأوا وخاصة في العهد العباسي فيقول : « ••• كتب لبني العباس ابن المقفع فأغرى بهم عبد الله بن علي ••• ثم كتب لهم يونس ابن أبي فروة وكان زنديقاً•• واستكتب الرشيد (يزد ابعادان) على ديوان الخراج وكان ثنوياً • ثم

---

(١) انظر جب ـ دراسات في حضارة الاسلام ص ١٥ـ١٨

(٢) آثار الجاحظ ص ٥٧

لم ينوهوا بـذكر كاتب حتى ولي المأمون تقدم معه ابـن أبي العباس الطوسي فبه انتشرت السعاية في العراق • واستكتب أبا عبـاد وكان سخيفاً جداً ثم كتب له رجاء بن أبي الضحاك ، وكان أظلمهم وأغشمهم واستخلف حفصويه على ديوان الخراج وكان ركيكاً لسعايته ثم كتب له ابن يزدان وكان أشقاهم حتى هلك وكتب له عمرو بن مسـعدة فكان رسائليا فقط واسترجح المأمون ــ وهو بخراسان ــ على غير بلوى ••• ابراهيم بن اسماعيل ••• وكان شعوبياً ويتهم بالثنوية وأحمد بن يوسف وكان مأفوناً ••• »[1] إلخ ومع كل أولئك فهؤلاء هم الذين كانوا قوام الادارة العباسية في عصرها الذهبي •

مارس الكتاب أعمالهم ونفوذهم وأثرهم من خلال أجهزة الادارة التي عرفت باسم الدواوين • ويتضح تكامل العمل الديواني في العملية البوروقراطية والورقيـات ، وفي ظهور أسلوب خاص في المـراسلات الادارية ، وفي وجود « سجلات » تسجل فيها المراسلات والمعاملات ونظام « للأرشيف » يحفظ الوثائق الرسمية ، وقد استكمل الديوان العباسي هذه الملامح كافة فقد ساعد انتشار صناعة الورق منذ عصر الرشيـد على توطد صفة الدواوين البوروقراطية ووجد أسلوب في المراسلة عرف منذ ذلك الوقت بالانشاء كما كان للدواوين سجلات وأرشيف يرجـع إليه عند الحاجة وفيه جرائد بارتفاع الخراج وسجلات بمساحة الارضين ومقادير الضرائب محفوظة سنة بعد سنة •

يذكر البلاذري فيما يتعلق ببعض وثائق فتح النوبة وادعاء النوبيين أن البقط ليس مفروضاً عليهم كل سنة قوله : « ••• ولم يوجـد لهذه

---

(1) آثار الجاحظ ص ٦٠ــ٦١

الدعوى ثبت في دواوين الحضرة (بغداد) ووجد في الديوان بمصر »[1]
ويذكر المقريزي أن امير مصر عبد الله بن طاهر سأل رجلاً من حاشيته عن بعض أمور النوبة فأجابه « .. فوجه الأمير الى الديوان بظاهر المسجد الجامع بمصر فاستخرج منه خبر النوبة فوجده كما ذكرت فسره ذلك »[2] .

ومن جهة أخرى فقد توسع الجهاز الاداري الحكومي تدريجياً وتعقدت معاملاته في العصر العباسي وكانت الادارة تزداد بورقراطية مع ازدياد أوتوقراطية الخلفاء واتجاههم المتمادي نحو المركزية ومن هنا نشأت الحاجة الى زيادة عدد الدواوين وتعدد انواعها وأعمالها حتى صار لكل شأن اداري ديوان تقريباً . وحتى نستطيع القول إن الهيكل الاداري الكلاسيكي في الحضارة الاسلامية إنما توطد في ذلك العصر . المؤسسات الادارية التي كانت تتسم بالنقص او الانقطاع عن غيرها أو بعدم الاستقرار أو بغموض الوظيفة في العهد الأموي أعطاها العصر العباسي الأول أبعادها الكاملة تحت ضغط الحاجة من جهة وبنتيجة اتساع الخبرات وتخصيصها، من خلال طبقة الكتاب ، من جهة أخرى .

ومن الصعب جداً تقديم جدول إحصائي كامل بكافة الدواين التي عرفتها الادارة العباسية . لم يسجل المؤرخون «ولادة» الكثير منها ونعثر على أسماء بعضها بالصدفة : لدى تعيين مشرف عليها او إلغائها أو اتصال حادث بها أو ترجمة عامل من عمالها . وإذا كانت الدواوين الرئيسية سواء في مركز الخلافة أو في الولايات ثلاثة تتفق مع أركان الادارة الثلاثة وعلى رأس كل منها كاتب يرئسها وهي :

---

(١) البلاذري – فتوح البلدان (ط. المنجد) ص ٢٨١
(٢) المقريزي – الخطط (ط. بيروت) ج ١ ص ٣٥٤

١ ــ ديوان الرسائل للمراسلات الإدارية والسياسية .

٢ ــ وديوان الخراج للشؤون المالية والضرائبية ويسمى أحياناً ديوان الخراج الأعظم[١] .

٣ ــ وديوان الجند لتنظيم المؤسسة العسكرية وأمور الجيش .

فإن ثمة ديواناً رابعاً أساسياً عمله الرقابة على إدارة الدولة كلها هو ديوان البريد يرأسه صاحب البريد . أما القضاء فقد ظل إدارة متروكة للقضاة أنفسهم في كل مصر بما في ذلك بغداد نفسها في قسميها الشرقي والغربي حتى أحدث منصب قاضي القضاة لأبي يوسف زمن الرشيد لتوحيد الاحكام لا الدواوين القضائية .

على أنه وجد بجانب الدواوين الأربعة الاساسية أعداد أخرى من الدواوين أوجدتها الحاجات لشتى الشؤون ويمكن أن نجملها في مجموعات ثلاث تبعاً لوظيفتها وطبيعة عملها :

١ ــ دواوين عملها تدبير شؤون البلاط والخليفة مثل ديوان الحوائج وديوان الأحشام (الحشم والخدم) وديوان التوقيع والتتبع على العمال وديوان الخاتم وديوان الرقيق وديوان الخزائن (خزائن السلاح والثياب) وديوان الغلمان والموالي الذي استحدثه المعتصم ومطبخ العامة ... وديوان السر الذي تقلده للمنصور أبان بن صدقة وللرشيد اسماعيل بن صبيح[٢] وديوان الضياع لاقطاعات الخلافة .

---

(١) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٨

(٢) انظر الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص ٢٦٦ وص ١٢٤ وانظر كذلك بالنسبة لذكر الدواوين الأخرى خليفة بن خياط ــ التاريخ ج٢ ص٤٦٦، ٤٦٧ وغيرها واليعقوبي ج٢ ص٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩ والطبري ٩ ص٢١٤ وغيرها .

٢ ـ دواوين ومؤسسات لتأمين العدالة والأمن للنـــاس وأهمها ديوان المظالم (ويشبه محكمة الاستئناف أو التمييز والنقض والابرام) وأعمال صاحب الشرطة والمحتسب وصاحب الأحداث وصاحب المعونة وصاحب المناصب .

٣ ـ دواوين مساعدة للشؤون المالية مثل ديوان الصوافي أو صوافي الأرض وأحوازها (وقد أوجده الرشيد) وديوان الجوالي لما يجمع من الجزية ، وديوان الصدقات لتوزيع مال الزكاة على المستحقــين وديوان المصادرات الذي أوجده المنصور وسجل به اسماء من صادرهم ومقدار ما صادر وديوان المستغلات وأخيراً ديوان الاستخراج الذي ظهر في نهاية العصر العباسي الأول لمحاسبة العمال والولاة المتهمين بالرشوة .

وقد نجم عن ازدياد المركزية زمن العباسيين وتعقد أمور الدولـــة وتكاثرها وضرورة تنظيمها التنظيم المناسب أن اقيمت في العاصمة بغداد دواوين للأقاليم المختلفة فهناك ديوان خراسان وديوان الشام وديـــوان مصر ... إلخ تحتفظ بنسخ الوثائق الرسمية والرسائل المتبادلة مع ولاة تلك الأقاليم وتضبط شؤونها . وأقيم بجانب ديوان الخراج المـــركزي دواوين لخراج الأقاليم أيضاً : فخراج الشام له ديوان وخراج الكوفة له مثله وخراج الجزيرة كذلك وهكذا ... وبجانب ديوان الجند المركزي كانت هناك ايضاً دواوين لجنود الأقاليم : ديوان جند خراسان وديوان جند الشام وديوان جند مصر (المغاربة)[١] ... وهذا التوازي بين المركز

---

(١) لعلنا نوضح هنا أن كلمة الديوان مفردة كانت تستعمل للدلالة على ديوان الرسائل ومقر السجلات التي تحفظ فيها البيانات الخاصة بنواحي الادارة فان اريد الاشارة الى غير ذلك أضيفت كلمة : الجند او المال (أو الخراج) أو الضياع أو غيرها ، كما يجب ان نوضح ان ديوان الخراج أو المال ليس يعني بيت المال . فديوان المال او الخراج يعني

والاقاليم أوجد الكثير من البورقراطية الادارية في المركز ، واستدعى بالنسبة للناحية الحساسة من هذه الدواوين وهي دواوين الخراج والمال وجود مشرفين عليها يجمعون أمرها وينسقون مابينها • ظهرت هذه الحاجة زمن المهدي الذي عين عمر بن بزيع على الدواوين كافة « فلما جمعت له الدواوين تفكر فاذا هو لايضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الأزمة •» •• وكان أول من عمل ذلك ••• وولى كل ديوان رجلاً فكان واليه على زمام ديوان الخراج اسماعيل بن صبيح وعلى زمام خراج العراق النعمان بن عثمان ولم يكن لبني امية دواوين أزمة » ويبدو أن الحاجة ازدادت بعد ذلك الى وجود ديوان يكون بدوره زماماً لهذه الأزمة فولى المهدي سنة ١٦٨ علي بن يقطين ديوان زمام الأزمة على عمر بن بزيع»(١) الذي ضعف شأنه • وقد تقلد هذا الديوان بعد ذلك بقليل الربيع بن يونس وأقره فيه الخليفة الهادي حتى مات سنة ١٦٩ فتولاه من بعده ابراهيم بن زكوان الحراني •• وهذا يعني أن التسلسل البورقراطي الهرمي قد استكمل في هذه الفترة أسبابه وأركانه•

ويبدو أن هذه الدواوين ظلت نشيطة فعالة حتى مابعد عهد المعتصم ثم تناقص نشاطها وقلت جدواها باضمحلال الروابط المركزية وبدء

بتسجيل الخراج وجرائده وسجلات الضرائب ومقاديرها وكان يدعى في العصر العباسي الاول ديوان الزمام ، أما بيت المال فهو خزانة مال الدولة وما يجتمع لها من نقد أو محاصيل بعد الجباية .

(١) ذكر الطبري خبر ديوان الازمة مرتين (انظر ج٨ص ١٤٢–٣/ ٤٩٣ و ص١٦٧–٣/٥٢٢) والخبر الثاني لايوضح الاول فقط ولكن يصدق الخبر الذي اورده الجهشياري (الوزراء والكتاب ص١٦٦و١٦٧) والذي يوضح فيه الفرق مابين ديوان الأزمة وديوان زمام الأزمة ويضيف مصححا خطأ غيره : « واحسب أن من ذكر أن المهدي أول من أحدث الازمة إنما أراد ازمة على الأزمة . . . »

انقطاع الاقاليم حتى إذا جاء المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩/٨٩٢ ـ ٩٠٢) كانت قد تقلصت اعمالها فضم الخليفة دواوين الولايات كلها في ديـوان واحد سمي ديوان الدار وله ثلاثة فروع : ديوان المشرق وديوان المغرب وديوان السواد . ووضعت أزمة الدواوين كلها في يد رئيس واحد ..

وليست لدينا معلومات واضحة عن أعداد العاملين في الدواوين العباسية على اختلافها . وإذا كان من الراجح أن يكون عدد العاملـين في دواوين الخراج اكبر واكثر من العاملين في دواوين الرسائل كما كان نوع عمل أصحاب الرسائل يعتمد على البلاغة وحسن الخط بينما يعتمد عمل اصحاب الخراج على الحساب ومعرفة الزراعة وحدود المعاملات .

وقد ألبس العباسيون الأوائل موظفي الدواوين ملابس خاصة بهم، ضمن إطار التقليد الذي نقلوه عن الفرس ، وجعلوا به لكل طبقـة من الناس ملابسها التي تعرف بها فللوزراء لباس الوزارة وللقضاة الطيلسان وللجند الزي المعروف للجند (وقد حدده المنصور) وصـورة الكاتب الديواني صورها الجاحظ في معرض النقد لكبرياء الكتاب فقال : «يتوهم الواحد منهم أنه إذا عرض جبته وطول ذيله وعقص على خده صدغـه وحذف شاربه على وجهه أنه المتبوع لا التابـع ...»[1] وقـد ذكر الجهشياري في صدد ملابس الكتاب أنه « كان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة ممن في خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد ممن في غير تلك الطبقة . فإذا وصل الرجل الى الملك عرف بلبسه صناعته والطبقة التي هو فيها...»[2]

وأما أرزاق الكتاب في العصر العباسي الأول فلم تكن فيما يبدو

---

(١) آثار الجاحظ (طبعة ابو النصر ـ بيروت) ص٥٤ .
(٢) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص٣ .

بالكبيرة رغم نفوذهم الكبير كماكانت متفاوتة لا بين كبار الكتاب وصغارهم فقط ولكن بين ديـوان وآخر أيضاً . واكثر الدواوين رواتب كانت الدواوين التي تتعامل بأمور المال والخراج . وكان التفاوت فيما يظهر كبيراً جداً .

ذكر الجاحظ أن « صاحب ديوان الرسائل ينال العشر من رزق صاحب الخراج ويرزق المحرر الجزء الأول من رزق صاحب النسخ من ديوان الخراج ..»[1] ويبدو أن رواتب الكتاب في الـدواوين كانت تتراوح مابين عشرة دراهم حتى ٣٠ درهماً لصغار الكتاب في الشهر وتصل الى ٣٣٠ درهماً لكبارهم ورواتب الصغار التي يعدل مابين ثلث درهم الى درهم في اليوم تتمشى مع الأجور التي دفعها المنصور لمعلمي البناء والعمال في بناء بغداد . ويروي الطبري في هذا الصدد قوله : « كـان أرزاق الكتاب والعمال أيام أبي جعفر (للرؤساء) ثلاث مائة درهم فلما كانت كذلك لم تزل على حالها الى أيام المأمون . فكان أول من سن زيادة الارزاق الفضل بن سهل فأما في أيام بني أمية وبني العباس فلم تزل الارزاق من الثلاثمائة الى مادونها ...»[2] .

وعلى أن هذه الرواتب لم تكن مصدر الرزق الوحيد للكتاب . وكانت الهدايا والمنح من الرؤساء أو من الناس تشكل أحياناً عند بعضهم أرقاماً كبيرة . ذكر ابن العديم أن أحمد بن نهيك كاتب عبد الله بن طاهر رافقه حين ولي غرب الدولة من قبل المأمون . وحين كانا في دمشق قدم أحمد لعبد الله بطريق الخطأ ، بدلاً من بعض الاوراق التي طلبها كشفاً

---

(١) آثار الجاحظ ص ٦٢ .

(٢) الطبـري ج ٨ ص٩٥ ــ ٩٦ (٣/٤٣٤ ــ ٤٣٥) وانظـر أيضـاً الجهشياري ص ١٢٦ .

بالهدايا التي تلقاها من الناس أثناء السفر فإذا هي سبعون ألف دينار •
واضطرب ابن نهيك حين اكتشف خطأه ولكن ابن طاهر استدعاه وسمح
له بها بحجة أن عليه نفقات كثيرة وأعطاه فوقها مائة ألف درهم •••[1]

على أن الكتاب توسعوا في نهب الرزق بكل سبيل بعد ذلك ولا
سيما في زمن المعتصم والواثق وتكشف الأرقام المرعبة من الأموال التي
صادرها الخليفة الواثق من الكتاب في سامراء سنة ٢٢٩ عن مدى تفشي
الفساد المالي في هذه الطبقة • يذكرون أنه أخذ من سليمان بن وهب
(كاتب ايتاخ) ٤٠٠ ألف دينار ومن أحمد بن الخصيب وكاتبه ألف ألف
دينار ومن أحمد بن اسرائيل ٨٠ ألف دينار ومن نجاح ٦٠ ألفاً ومن أبي
الوزير ١٤٠ ألفاً •• وهي أرقام ليست عادية في مستوى من المعيشة
يكفي فيه ديناران في الشهر للعيش الحسن وغريب وجودها لدى جماعة
راتبها الشهري الرسمي لا يزيد عن ٣٠٠ الى ٤٠٠ درهم (١٥ — ٢٠
ديناراً» •

وكانت الدواوين حتى أيام المهدي تعمل كافة أيام الأسبوع إلا يوم
الجمعة فهو للصلاة والعبادة ثم « اتصل بالمهدي أن أبا الوزير (عمر بن
مطرف وكان يتقلد ديوان الخراج) احتجم يوم الخميس في ديوانه
فأمر أن يجعل يوم الخميس للكتاب يستريحون فيه وينظرون في أمورهم
ولا يحضرون الدواوين ويوم الجمعة للصلاة والعبادة • فلم يزل الأمر
جارياً على ذلك الى أن كتب الفضل بن مروان للمعتصم • فأزال ذلك
الرسم وأخذ الكتاب بحضور يوم الخميس •••»[2] •

---

(١) ابن العديم — بغية الطلب (مخطوط احمد الثالث) ج٢ورقة
٩٥ ظهـر •

(٢) الجهشياري — الوزراء والكتاب ص ١٦٦ •

ولعلنا نشير هنا إلى أن الكتاب والدواوين لم تكن خاصة بالدولة فقط وكان من الكتاب جماعة تلتحق بحاشية كبار الموظفين والقواد . وبرغم عملهم الشخصي لهؤلاء فإنهم بحكم الاختصاص الكتابي كانوا يلحقون بطبقة الكتاب لأنهم في الأصل منها على أن كثرتهم في هذه الحالة إنما كانت من أهل الذمة . وقد ظهرت هذه الجماعة خاصة في الأقسام الأخيرة من العصر العباسي أيام المعتصم والواثق والمتوكل . ونجد مثلاً للقائد إيتاخ الخزري كاتبين هما سليمان بن وهب وقدامة بن زياد النصراني . « وكان سليمان على أعمال السلطان وقدامه على ضياع إيتاخ خاصة»[1] وكان للقائد بغا كاتب اسمه دليل بن يعقوب النصراني . ثم صار الرجل كاتب ضياع العباس بن المستعين[2] . وكان لأم الخليفة المستعين كاتب يدعى سلمة بن سعيد النصراني[3] وهؤلاء الكتاب الأفراديون كانوا بدورهم اجزاء بشكل أو بآخر في الجهاز الاداري الواسع لبني العباس .

ونقف من الدواوين خاصة عند ديوان البريد الذي عض المنصور سبابته وهو يذكره دلالة على شأنه الاداري الخطير فقد كان نقل الرسائل أهون مهمات هذا الديوان الذي هو ميراث بيزنطي ساساني مع مايتعلق به من عمال ومنازل ودواب وطرق وقد اقتبسه معاوية أول من اقتبس في الاسلام واستخدمه الأمويون أحياناً في نقل الفسيفساء من بلاد الروم ثم انقطع في مطالع الدولة العباسية بعض الانقطاع ويظهر أن المنصور هو

---

(١) الطبري ج٩ ص١٦٩ (١٣٨٦/٣) .

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢١٢ (١٤٣٨/٣) وج ٩ ص ٢٦٣ (١٥١٣/٣)

(٣) الطبري ج٩ ص ٢٦٣ (١٥١٣/٣) .



الذي أعاده[1] لا بسبب الحاجة الى نقل الرسائل فقط ولكن تطبيقاً لمبدأ المركزية في الادارة وإحكام القبضة الخليفية على الاطـراف من جهـة وتنفيذاً للمبدأ الآخر الذي يقض مضاجع المنصور دوماً في الرقابة الدائمة على الولاة والعمال وعلى من قد تحدثه نفسه بالثورة • ويمكن أن نعرف مهمة صاحب البريد من خلال عهد بولاية بريد ورد لدى بعض المؤلفين يقول : إن على صاحب البريد « أن يعرف حال عمال الخراج والضياع •• ويتتبع ذلك تتبعاً شافياً وينهيه على حقه وصدقه • وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمـال والاختلال ومايجري في أمور الرعية فيما يعاملونه من الانصاف والرفق والجور والعسف فيكتب به مشروحاً وأن يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم ••• وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق ••• ويكتب بذلك على حقه وصدقه وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهـم من يراعيه •• ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته • وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط (أي الكتب) في عمله ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم وعدد السكك في جميع عمله وأميالها ومواضعها ، ويوعز الى المرتبين بتعجيل الخرائط المنفذة على أيديهم والى الموقعين بإثبات المواقيت وضبطها حتى

---

(١) يذكر القلقشندي (صبح الأعشى ج ١٤ ص٣٦٧ ومابعدها) أنه « ملك السفاح ثم المنصور ثم المهدي والبريد لا يشد له سرج ولا تلجم له دابة » ثم إن المهدي رتب بريدا يأتيه بأخبار ابنه هارون في غزوة للروم فلما ملك الرشيد ذكر حسن صنيع ابيه في ذلك البريد وحسن له يحيى ابن خالد البرمكي اجراء البريد فأمره بذلك . . . « فرتب البريد على ماكان عليه أيام بني أمية وجعل البغال في المراكز . . . » ويظهر أن مايذكره القلقشندي غير دقيق وفي بعضه غير صحيح فثمة اخبار لدى الطبري وغيره عن حركة البريد زمن المنصور والهادي .

لا يتأخر أحد منهم عن الاوقات التي سبيله أن يرد السكة فيها ،وأن يفرد لكل مايكتب فيه من اصناف الأخبار كتباً بأعيانها فيفرد لأخبار القضاة وعمال المعاون والاحداث ... والخراج والضياع وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتباً ليجري كل كتاب في موضعه ..»[1] .

ونصح أبو يوسف في كتاب الخراج ، الخليفة الرشيد أن يكتب إليه صاحب البريد بكل مايحدث وأن يتوعد الخليفة عمال البريد على ستر الأخبار عنه ويحذر ميلهم مع العمال على الرعية كما أوصى بأن يدر الرزق لهم من بيت المال « ومتى لم يكن أصحاب البرد والأخبار في النواحي ثقات عدولاء فلا ينبغي ان يقبل منهم خبر في قاض ولا وال ...»[2] .

فنحن إذن أمام نظام رقابة إدارية واسع دقيق يشمل اختصاص صاحبه رقابة الولاة والعمال على الخراج والقضاة ودار الضرب وديوان الصدقة والأحداث والشرطة والحياة الاقتصادية ... وكل ذلك على وجه السرعة والدقة والصدق . فكأن صاحب البريد هو عين الادارة المركزية في الاقاليم :

ذكر الطبري أن ولاة البريد في الآفاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته في كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول وبكل مايقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث وكانوا إذا صلوا المغرب يكتبون

---

(١) ذكر ذلك قدامة بن جعفر في كتاب الخراج وصنعة الكتابة (هو مخطوط) وقد اوردنا النص نقلا عن آدم متز ــ الحضارة الاسلامية ــ الترجمة العربية ج ١ ص ١٠٠ .

(٢) ابو يوسف ــ كتاب الخراج ص ١٨٥ ــ ١٨٦ .

إليه بما كان في كل ليلة إذا صلوا الغداة ، فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الاسعار على حالها أمسك وإن تغير شيء منها عن حاله كتب الى الوالي والعامل هناك وسأل عن العلة ... وإن شك في شيء مما قضى به القاضي كتب اليه بذلك وسأل من بحضرته عن عمله فإن أنكر شيئاً عمل به كتب اليه يوبخه ويلومه ...»[1] واستخدم العباسيون الدواب (من بغال وخيل) لحمل البريد ولم نسمع عن خبر استخدامهم لوسيلة أسرع إلا مرة واحدة حين استخدم الحمام الزاجل لنقل أنباء الحرب مع بابك الخرمي وهزيمته الى الخليفة المعتصم سنة ٨٣٧[2] .

ولم يكن الامر مع ذلك متروكاً في هذا كله لصاحب البريد وحده فإن المنصور قد استخدم في تسقط الاخبار التجار والمسافرين أيضاً يتجسسون له ولم يقصر عن ذلك الخلفاء الآخرون ويذكر ابن ظافر الأزدي في كتابه الدول المنقطعة . أن المأمون « جعل برسم الاخبار ألف عجوز ببغداد وسبعمائة عجوز فما كان يخفى عنه شيء من امور الناس ظاهراً وباطناً وكان لا ينام كل ليلة حتى يقف على جميعها ...»[3] .

وكان طبيعياً أن يضطرب هذا الجهاز أو يقوى ويضعف تبعاً لأحوال السلطة في المركز فقد قوي وتوطد زمن المنصور والمهدي والرشيد ثم اضطرب في نهاية عهده بسبب انشغاله بحروب الروم وبالثورات وعدم استقراره في المركز يذكر الجهشياري «أن أمور البريد والأخبار في أيام الرشيد (والأصح في آخرها) كانت مهملة وأن مسروراً

---

(١) الطبري ٨ ص٩٦ (٣/٤٣٥) .

(٢) انظر المسعودي ــ مروج الذهب (طبعة بلا) ج ٤ ص ٣٥٤ .

(٣) ابن ظافر ــ الدول المنقطعة (مخطوط المتحف البريطاني) ورقة ١١٧ ظهر .

الخادم كان يتقلد البريد والخرائط • ويخلفه عليه ثابت الخادم»ويضيف ـ حسب رواية ثابت هذا : «أن الرشيد توفي وعندهم أربعة آلاف خريطة لم تفض[1] •••» • وقد انتظم الأمر في السنوات الأولى من عهد الأمين حتى كانت الرسائل والهدايا تذهب وتجيء بينه وبين أخيه في خراسان ثم اضطرب البريد وانقطع تماماً إثر مقتل الأمين • وتقطعت أوصال الدولة وروابطها مع الادارة المركزية سنوات عديدة قبل أن يعاود المأمون ربطها به في بغداد ••

وتبقى في النهاية ملاحظة أخيرة هي أن جهاز البريد كان يستخدم أحياناً لبعض التحركات المستعجلة • فالمنصور استخدمه لاستقدام نجدات الجند من الشام • روى الطبري أنه : «لما ظهر محمد (النفس الزكية) شاور أبو جعفر شيخاً من أهل الشام ذا رأي فقال : وجه إلى البصرة أربعة آلاف من جند الشام ••• قال : ومن لي بهم ؟ قال (الشيخ) اكتب الى عاملك عليها يحمل إليك في كل يوم عشرة على البريد • قال فكتب بذلك أبو جعفر[2] ••» وهو رأي كان طبقه الأمويون يروي الطبري أيضاً أنه حين قتل الترك باللان (شمال جورجيا) الجراح الحكمي سنة ١١٢ نصح سعيد بن عمرو الحرشي الخليفة أن يبعثه على ٤٠ دابة من دواب البريد ثم يبعث إليه كل يوم ٤٠ دابة عليها ٤٠ رجلا حتى يوافيه أمراء الأجناد[3] •••» على أن الجهشياري يروي خبراً ذا معنى في هذا الصدد هو أن موسى الهادي حين بويع بالخلافة وكان بجرجان «ركب دواب البريد» رغبة في سرعة الوصول الى بغداد واستلام العرش المضطرب ثم يضيف «ولا يعلم خليفة ركبها غيره[4] •••» •

(١) الجهشياري الوزراء والكتاب ص ٢٦٥ .
(٢) الطبري ج ٧ ص ٦٢٩ (٢٩٢/٣) .
(٣) الطبري ج ٧ ص ٧٠ (١٥٣١/٢) .
(٤) الجهشياري الوزراء والكتاب ص ١٦٧ .

حـ ـ الـولاة

توزيع السلطـة :

الصورة التقليدية للوالـي في الادارة الاسلاميـة تجعله نوعـاً من الخليفة المصغر وهي صورة قد تنطبق على بعض العهود والظروف ولكنها بعيدة عن واقع الولاية في العصر العباسـي الأول أو على الأقل لا تنطبق إلا على حالات خاصـة من الـولاة المطلقين الذين استبدوا بولاياتهم لأسباب شتى ، أما الولايـة على النمط الذي أقـره المنصور والذي ينسجم مع ادارته المركزية فكانت السلطات فيها موزعة بين ثلاث قوى لايرتبط بعضها ببعض ولكن تستمد كل منها شرعيتها وقوتها من الخليفة نفسه • وترجع في النتيجة إليه • فهناك دوماً :

ـ الوالي وكانت له امرة الجيش وكثيراً مـا يكون من قواده في الأصل وله مع القيادة الصلاة أي إمامة النـاس في الجـامع كما يتبعه صاحب الشرطة وصاحب المعونة وإليه أمر تعيينهما وله أحياناً حق ضرب النقـود •

ـ العامل (عامل الخراج) وهو الذي يتولى الشـؤون المالية في الاقليم : له تنظيمها وتقبيلها (منح الالتـزام) وجبايتها وإرسـال حصة الخلافة منها بعد استيفاء حاجة الاقليم •

ـ القاضي ويأتي تعيينه بدوره من بغداد •

فالسلطة في الولاية مثلثة الرأس يرئسها الوالي ولكن تنفصل فيها السلطة العسكرية عن المالية وتنفصل الاثنتـان بدورهمـا عن السلطة القضائية • على أن هذا لم يكن يمنع الخليفة أحيانـاً كثيرة من الجمع لبعض ولاته بين منصبي الوالي وعامل الخراج لكن الولاة لم يتولوا أمر القضاء أبداً وندر جداً ان ترك لهم الخلفاء أمر تعيين القضاة • وهذه التجزئة

في السلطة كانت بالنسبة للمنصور وخلفائـه من ضرورات السياسـة والادارة . ونقرأ في كتاب الولاة والقضاة للكندي باستمرار أن الخليفة ولى فلاناً على الصلاة بمصر وفلاناً على الخراج أو ولى فلانـاً صلاتها وخراجها ونجد مثل ذلك لـدى الطبري واليعقوبي اللذين يعددان في نهاية كل سنة أو في نهاية عهود الخلفاء ولا تهم وعمالهم[1] وإذا كانت تطلب في القاضي الكفاية الفقهية وفي عامل الخراج الكفاية المالية فلم يكن يطلب من الوالي أكثر من الكفاية الادارية لا سيما إذا اجتمعت إليهـا القدرة الحربية .

الولاء هو الاساس :

لم يكن ولاة العصر العباسي الأول ، بصورة عامة يختارون ولا سيما في الفترات الأولى على أساس القومية ، أو المال . أو النفوذ الشخصي ، أو الأقليم . الأساس الوحيد لاختيارهم كان هو الولاء للخليفة . وفي إحصاء مبدئي لأسماء مائة وال ممن جاء بين مطلع الدولة العباسية وعهد المأمون نجد أن النصف منهم من العرب وفيهم كثرة واضحـة من أبناء البيت العباسي نفسه ، والنصف الأخر من الموالي وبعضهم من الأتراك أو من الأرمن . وهم مزيج من العناصر القبلية والاقليمية والاجتماعيـة المتباينة فيهم بنو هاشم وفيهم الخدم والأرقاء المعتقون ، وفيهم من هم من اليمن أو من قيس ومن هم من صميم العجم أو أمراء الترك وفيهم الكثير من الخراسانية كما فيهم من أهل الشام ومصر واليمن والعـراق وفيهم أصحاب الثروات الطائلة ومن هم من البورجوازية التجاريـة . وتلك

---

(1) انظر على سبيل المثال لدى الكندي ـ الولاة والقضاة . الصفحات: ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ... الخ .

المجموعة التي جمعها المنصور من حوله حين بنى بغداد وأقطعهـا فيها القطائع والتي التقى فيها أصناف الناس من بني هاشم والموالي والعرب وأهل خراسان وزعماء القبائل إنما ترمز في الواقع إلى تلك الأخلاط من أنصار العباسيين التي كان ينتقي منها الخلفاء الأعوان دون تقيد بجماعة أو قبيل سوى مدى الاخلاص للخليفة الجديد •

ونستطيع أن نجد قوائم شبه كاملـة للولاة في مختلف الأمصار فولاة سجستان مثلا نجدهم خاصة لدى اليعقوبي في (البلدان) وولاة خراسان في تاريخ الرسل والأنبياء لحمزة الاصبهاني • وولاة مصر لدى الكندي في كتاب الولاة والقضاة وولاة البصرة والكوفـة والمدينةلدى الطبري وخليفة بن خياط • ولدى اليعقوبي في التاريخ هـذا الى ولاة الجزيرة والشام واليمن وعمان وفارس والسند وطبرستان وأرمينيـة واذربيجان • الخ •

ويجتمع لنا من ذلك حصيلة واسعة مـن الاسماء لا يخفى فيها الطابع الطبقي الذي يميزها • فهي دوماً من الطبقات الارستقراطية سواء من العرب أو من الايرانيين أو من الترك والارمن • كان التعاون العباسي طبقيا واضحاً يتجه الى الطبقات العليا من المجتمع وقد عبر يحيى البرمكي عن ذلك في قوله لولده : «لابد لكم من كتاب وعمال وأعوان فاستعينوا بالأشراف وإياكم وسفلة الناس فإن النعمة على الأشراف أبقى والمعروف عندهم أشهر والشكر منهم أكثر[١] •••» حتى من يدعون «بالموالي» ممن استخدمهم العباسيون كانوا ، بسبب اتصالهم بالخليفة وبآل البيت

---

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ٥٤٥ وانظر العيـون والحدائـق لمؤلف مجهول ص ٣٥١ •

العباسي وبالولاء الذي تميزوا به ،قد انتقلوا إلى الطبقات الارستقراطية ومحوا الأصول الوضيعة التي جاؤوا منها .

وإذا كان وصول العباسيين إلى الحكم قد أوجد سلماً جديداً للنبالة والارستقراطية فإنه لم يلغ السلالم القديمة : فقد أضاف آل البيت العباسي الى رأس القائمة وميز الارستقراطية الخراسانية (من عربية كآل قحطبة وإيرانية كالبرامكة) ولكنه تقبل الارستقراطية العربية كما كانت حتى التي كانت على العداء له وأرستقراطية الشعوب الأخرى من ترك وأرمن ونوبة وبربر فتعاون معها ومن هؤلاء وأولئك كان الولاة وكبار رجال الدولة العباسية الذين يمكن أن نستعرضهم في عدة زمر :

وقد اعتمد العباسيون الأوائل خاصة على اعضاء البيت العباسي الذين أصابتهم ، بعد قيام الدولة ، فورة من الحماسة جعلتهم كلهم سياسيين وقواداً وجندتهم في خدمة الخلفاء منهم . ثم خفت الحماس بالتدريج بعد ذلك . ولعل آخر الأسماء اللامعة قبل نهاية القرن الثاني كان اسم عبد الملك بن صالح الذي قضي سنواته الأخيرة في سجن الرشيد قبل أن يطلقه الأمين ليموت وشيكاً في الشام ... وفي تلك الفترة سنة ٢٠٠ بالضبط جرى إحصاء لولد العباس فبلغوا ٣٣ ألفاً ما بين ذكر وأنثى[1] . وهو عدد كان له وزنه في البلاط وفي قضايا ولاية العهد ولكنه كان معدوم الأثر الاداري فإنا لانجد إلا واحداً منهم على ولاية إذ ذاك . كان التطور السياسي ــ الاداري للدولة قد أقصاهم . وبعد أن كان أكثر ما يتولى الولاة من بني العباس الولايات الخطرة كالشام والبصرة والثغور أو المناطق المقدسة تحولوا إلى حاشية للخليفة حتى إذا

---

(١) الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص ١٧٩

حاول بعضهم كعبد الوهاب حفيد ابراهيم الامام أي حركة ذات معنى سياسي سحق .

واعتمد العباسيون العرب ، وقسم حسن منهم (وهم اليمانية خاصة) اعتبر الدولة العباسية دولته . هكذا ردد المنصور لهم كي ينسحبوا من جند ابن هبيرة : «السلطان سلطانكم والدولة دولتكم» وهكذا أيضاً خاطبهم عبد الله بن علي عند أبواب دمشق ليفتحوها له . على أن باقي الجماعات العربية سرعان ما التفت حول الدولة بعد قيامها ومنحها الخلفاء العباسيون الرعاية والنفوذ واختاروا منها الكثير من رجال الادارة ، وقواد الفرق . وكثيراً ما رأينا الخلفاء كالرشيد يرمون بقواد العرب في مناطق الثورات الخارجية وكثيراً ما كانوا يستخدمون الولاء القبلي (من جيش وقواد) في خدمة الولاء العباسي . وبالرغم من أن المأمون كشف أوراقه السياسية لذلك العربي الذي سأله : لم لاينظر الى عرب الشام كما ينظر الى عجم خراسان إلا إن جوابه كان يدل ــ رغم ما يحوي من تباعد عن العرب ــ على اضطرار المأمون سياسياً لمصانعة الجماعة العربية واصطناعها ولو بالمال .

وأما أهل خراسان فقد كانوا الحزب السياسي العسكري الذي حمل بني العباس فترة تقارب القرن الكامل ظل هذا المصطلح :الخراسانية يعني مركز الثقل السياسي للدولة منذ نشأتها : كانت فرقة الصدام في الثورة العباسية ثم كانت اليد الحديدية للخلفاء في البطش بالثورات والقيام بالحروب في كل مكان والمساندة في الأزمات الخطرة . وقد استخدم المنصور ، رغم قتله أبا مسلم ، كما استعمل المهدي والرشيد كثيراً من الولاة والقواد من أهل خراسان ورعوا رأيهم في أمور ولاية

العهد ، وتعيين القضاة و .. ثم لما كانت الفتنــة بين الامين والمــأمون استعاد الخراسانية من جديد تأثيرهم في الدولة بانتصار المأمون ودفعوا إليها بمجموعة جديدة من رجال الادارة والجيش . أكدوا فيه نهائيــاً التأثير الخراساني في الدولة قبل أن يزيحه العنصر التركي الوافــد مع المعتصم ...

وأما الموالي فقد سجل معظم المؤرخين القدامى ظاهرة زحفهم الي مناصب الدولة وإدارة الولايات منذ عهد المنصور على أننــا يجب الا نذهب مع كلمة الموالي إلى المعنى المطلق لها ولكن معنى محددتماماً هو .. «موالي الخلفاء العباسيين» خاصة . فهم إذن جماعة بأعيانهافيها العبيد الســابقون وفيها من ارتبطوا بالبيت العباسي برابطة الولاء من كل جنس ولأي سبب . وقد برز أمر هذه العلاقة القانونية الاجتماعيةالتي يدعونها «بالولاء» بروزاً كبيراً على يد العباسيين الأوائل بسبب حاجتهم الى جماعات تجعل الولاء لهم وللنظام العباسي فوق كــل ولاء قومي أو ديني أو اجتماعي أو اقليمي . وتكون في الوقت نفسه أدوات طيعة متواضعة في أيدي الخلفاء .

ويروي الطبري في هذا الصدد حديثا له معناه جرى بين عبد الصمد ابن علي والمهدي إذ قال له : يا أمير المؤمنين إنا أهل بيت أشربت قلوبنا حب موالينا وتقديسهم وانك قد صنعت من ذلك ما أفرطت . قد وليتهم أمورك كلها وخصصتهم في ليلك ونهــارك ولا آمن تغيير قلوب جندك وفوادك من أهل خراسان . قال : يا أبا محمد إن الموالي يستحقون ذلك وليس أحد يجتمع لي فيه أن أجلس للعامة فأدعو به فأرفعه حتى تحك ركبته ركبتي ثم يقوم من ذلك المجلس فأستكفيه سياسة دابتي فيكفيها لا يرفع نفسه عن ذلك إلا موالي هؤلاء . فإنهم لايتعاظمهم ذلك ولــو

أردت هذا من غير هم لقال : ابن دولتك والمتقدم في دعوتـــك وابن من سبق الي بيعتك لا أدفعه عن ذلك ..»[1] .

وقد أخذ هؤلاء الموالي العباسيون ، مكانة سياسية خاصـــة رأوا فيها أنفسهم في دولة بني العباس أرفع منزلة من العرب والعجم معاً .وقد عبر الجاحظ عنها ــ على لسانهم ــ بقولـــه : «الولاء لحمـــة كلحمة النسب . وحليف القوم منهم لأن السنة قد نقلت الموالي إلى العرب في كثير من المعاني لأنهم عرب في المدعى وفي العاقلة وفي الوراثـــة .. فلنا النسب الذي يصوبه العربي ولنا الاصل الذي يفتخر بهم الأعجمي .. فقد شاركنا العربي في فخره والخراساني في مجده والبنوي في فضله. ثم تفردنا بما لم يشاركونا فيه ولا سبقونا اليه ... (لأن) شرف المولى راجع إلينا[2] ...» .

وقد ذكر المؤرخون والكتاب القدامى كاليعقوبي والجـــاحظ أن المنصور كان أول من اصطنع مواليه وقدمهم وعهد إليهم بالادارة والقيادة وزاد المسعودي أنه فضلهم على العرب ومنذ ذلك الوقت سقطت قيادات هؤلاء وذهبت مكانتهم . وفي هذا الرأي الأخير الكثير مـــن المجازفة أما اعتماد المنصور على مواليه لا على الموالي الفرس عامة ــ فكان أمراً واقعاً ورثه عنه المهدي وغالى في الغلو الكبير فكان ولاته على أرمينية واذربيجان ومصر وهمدان والري ودبناوند وقومس منهم احياناً كثيرة كما أعطاهم العديد من المناصب الهامة كديوان البريد وديوان الزمام والنيابة

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١٧٥ (٣/٥٣١) .

(٢) انظر رسالة الجاحظ في مناقب الترك وعامة جند الخلافة في رسائل الجاحظ (ط . دار النهضة ــ بيروت) ص ٢٧ ــ ٢٩

عنه في بغداد (أعطاها للربيع بن يونس مولاه) وبالرغم من وجود جماعات من أصل فارسي بين هؤلاء الموالي إلا إن اصطناعهم في الدولة لم يكن نتيجة التأثير الفارسي لأنه لاعلاقة لهم به ولكن نتيجة «الولاء» المباشر للخليفة • وقد ظلت هذه الرابطة واضحة الأثر في الادارة العباسية زمن الرشيد الذي استخدم مواليه كأبيه . والمأمون الذي جاءه مرة بعض الأقباط يطلب أن يكون مولاه ••• غير أن عناصر جديدة في البلاط زاحمت موالي الخلفاء في أيام الرشيد على مكانتهم هي طبقة الخدم ••• وقد عهد الرشيد إلى بعضهم ببعض الادارات •

ويجب أن نضيف أخيراً أن العباسيين الأوائل قبلوا على مناطق الحدود ولاء أو على الأقل طاعة الحكام المحليين التقليديين ومنحوهم الحكم الذاتي فأقروهم في حكم أقاليمهم ، على النهج الذي اعتادوا ، واحتفظوا لهم بدياناتهم وبلغاتهم وألقابهم بل وجنودهم ونظامهم السياسي على أن يقبلوا عامل الخراج الذي يجمع الضريبة السنوية المتفق عليها • طبق ذلك في منطقة أرمينية وجورجيا مع البقارطة ، وفي طبرستان والاصبهبذ فيها من آل المازيار ومع ملوك الترك من الصعد والختل والغزو الشاش وفرغانة ومع أمراء سجستان الرنابيل وأمراء السند ، ومع جماعات البجة وملوك النوبة • كان هؤلاء يشكلون ولا سيما على القوس الممتدة ما بين دلتا نهر السند والزاوية الشرقية من البحر الأسود من مناطق شبه الظل العباسي تفصل ما بين المناطق العباسية الخالصة وبين المناطق غير المسلمة وراءها • وبهذا الشكل دخل في قائمة الولاة العباسيين سلالات من الأمراء المحليين غير المسلمين لا يد لبني العباس لا في تعيينهم لأنهم وراثيون ولا في توجيه انظمتهم تقليدية وقائمة ولكنهم ضمن الإطار السياسي للدولة العباسية •

التقسيم الاداري وجهاز الادارة

لم يغير العباسيون إلا أقل التغيير ، وبسبب بعض الضرورات في الأقسام والحدود الادارية للولايات التي ورثوها عن الامويين والموروثة بدورها عن البزنطيين والساسانيين • كانت حدود الأقاليـم الجغرافية تتطابق لحد كبير في دولتهم مع حدود الاقاليم الادارية •

والتعديلات الوحيدة التي طرأت جرت أولا في عهد أبي العباس الخليفة العباسي الأول ، وقد تناولت بلاد الشام التي كانت بسبب كونها مركز الأمويين مقسمة إلى أجناد لا ولايات فجعلت ولايـات ثلاثة في فلسطين ودمشق وقنسرين ، وإن احتفظت باسم الاجناد • كما تناولت فصل ارمينية واذربيجان عن الجزيرة لأسباب عسكرية دفاعيـة وأخيراً أجرى الرشيد تعديلا تناول الثغور والعواصم •

وفيما عدا ذلك فقد ظل النظام الاداري العباسي يعتمـد كالنظام الأموي من قبل :

١) أسلوب الادارة المبسطة •

٢) واعتبار المدينة أساس التنظيم الاداري •

ولم يسر العباسيون بالتقسيم الاداري أي خطوة نحـو التعقيد أو نحو إعادة التنظيم • لم يجدوا الحاجة إلى ذلك • واستمروا يقبلون المفهوم الاداري المبسط أو الأفقي الذي يميل الى الاقسـام الادارية الصغيرة تيسيراً لضبط الأمن وجمع الخراج • أما النظـام التسلسلي العمودي الذي كان يقسم الوحدة الادارية أو الولاية الى أجزاءويقسم كل جزء بدوره إلى أجزاء صغرى ويربط الجميع بموظفين يرتبطونعلى الأساس نفسه بنظام هرمي ــ على الطريقة الرومانيـة ــ فهو مفهـوم لم يستعمله العباسيون ولا المسلمون بصورة عامة •

وهكذا فمصر مقسومة الى كور • وحوض دجلة والفرات كان حوالي ١٥ كورة • وتتألف الكورة من مدينة هي القصبة أو المصر يتبعها مدن أو بلدان تكثر أو تقل ولكل مدينة أو بلد إقليمه (ريفه) أو زمامه• وهكذا فالوالي المركزي يتبعه عمال الكور وهؤلاء يتبعهم عمال المدن المسؤولون عن المدينة واقليمها • وتأخذ الكورة في ايران وفي والعراق أحياناً التسمية الفارسية : الطسوج أو الرستاق (وهو اكبر من الطسوج)

وهكذا يبدو كأن الكورة (أو الرستاق) هي الوحدة الادارية الاساسية في الدولة • وقد كان للمدينة في المناطق الايرانية من حرية الادارة والتصرف ما يجعلها تدير شؤون نفسها بنفسها إلى حد كبير لا سيما مع وجود المحتسب فيها والشرطة الخاصة وجهاز فرض الضريبة وتوزيعها . وهذا ما كان يجعلها أشبه بالمدن الحرة في أوروبا الوسيطة• وبعض هذه المدن كان يتسع مع ضواحيه وأريافه ليصبح أشبه بالإمارة الصغيرة وهذا ما كان عليه مثلاً وضع بلخ (ومساحتها تزيد على عشر فراسخ) ولها الأسوار لحمايتها . وأوضاع سمرقند وهراة وبخارى وخوارزم ونيسابور والري وهمدان وغيرها من مدن المشرق الاسلامي•

وقد نجم عن هذا التبسيط الاداري أن عدد الموظفين في الادارة العباسية (والاسلامية عامة) لم يكن يزيد على خمس العدد في الادارة الرومانية المماثلة •

فأما **دواوين الولاية** وجهاز الادارة في الكور : فكانت نسخة مصغرة من دواوين مركز الخلافة وكتابها وجهازها فلكل ولاية ديوان للرسائل برئاسة كاتب الوالي • وديوان للخراج ويتسلمه كاتب الخراج

للعامل وديوان للجند ، وهناك القاضي وصاحب بيت المــال وصاحب الشرطة وصاحب المعونة وصاحب البريد • وتتكرر الصورة نفسها على مقياس أصغر في الكور ولنضرب مثلاً على ذلك ولاية سجستان فقد ذكر ابن حوقل أن ارتفاعها (أي مبلغ خراجها) كان مع (منطقة) الرخج عن جميع أعمالها وجباياتها وقوانين أدائها مائة ألف دينار ومن الورق ثلاثمائة ألف درهم ولكل ناحية منها قاض وصاحب خبر وبريد وصاحب بريد وكاتب سلة يعرف بالبندار يطالب بالخراج ووجوه الأموال الواجبة للسلطان واكثرها لصاحب خراسان»[١] •

ومثل آخر من الجزيرة يرويه المؤرخ ميشيل السرياني نقلاً عن ديونيسيوس التلمحري (المتوفى سنة ٢٢٩/٨٤٣) والذي يشكو في آخر كتابه من كثرة عدد العمال في الجزيرة « لأنهم بهذه الكثرة يغتصبون عيش الفقير بكل الوسائل » ففي مدينة الرقة على الفرات ، (وكانت موئل الرشيد) كان ثمة قاض وكاتب سلة يعرف بالبندار يطالب بالخراج ووجوه الأموال وصاحب جند وصاحب بريــد ينهي اخبار الولايــة للخليفة ومتول للضياع السلطانية وصاحب معونة[٢] •••

ونضيف هاهنا أن بغداد حين انتقل منها مركز الخلافة الى سامراء عرفت وضعاً إدارياً خاصاً ظهر فيه منصب جديد لم يعرف لغيرها هو : خلافة أمير المؤمنين بمدينة السلام وقد تولى هذا المنصب سنة ٢٣٧ محمد ابن عبد الله بن طاهر وتولى معه الشرطة والجزية وأعمال السواد[٣] •

---

(١) ابن حوقل ــ صورة الأرض ص ٣٥٦

(٢) نقل هذا المثال آدم متز ــ الحضارة الاسلامية (ترجمة أبي ريدة) ص ٩٨ ، ١٠٠

(٣) الطبري ج٩ ص١٨٨ (٣/١٤١٠)

تطور الادارة العباسية للولايات : أخذ هذا التطور عدداً مــن الاتجاهات كانت تنتهي كلها بالتمهيد لتفكك الدولة :

١ ــ فقد عمد الخلفاء . منذ مطالع الدولة ، الى العهــدة للوالي الواحد بأكثر من ولاية • وإذا كان هذا من باب الضبط وإحكام القبضة على الحكم في السنوات الأولى (كما في حالة أبي مسلم وأبي جعفر زمن أبي العباس) فإنه فتح الباب لتسلطات الولاة فيما بعد ولتوسيع نفوذهم على حساب الادارة المركزية وبدلاً من أن يتجه الخلفــاء . في الوقت نفسه ، الى توطيد الفصل بين سلطات الولاية اتجهوا بالعكس الى الغائه مما ادى لظهور الوالي المطلق اليد في الجند والمال والادارة وإذا كانت حالات جمع السلطات هي الغالبة فجمع الولايات كان اكثر ما يكون في ما بين ولايات الجزيرة وأرمينية واذربيجان•أو ما بين خراسان وسجستان وما وراء النهر وكانت هذه الولايات الأخيرة كثيراً ما تعتبر وحدة إدارية تعطى لوال واحد في الغالب وحتى عهد الرشيد ولي العهد . ولكن الأمر اختلف منذ أيام المهدي الذي أطلق مرة يد الوزير يعقوب بن داوود في كل شيء المدرجة التي أنشد فيها الشاعر :

بني أميــة هبــوا طــال نــومكم　　إن الخليفة يعقوب بن داوود

ثم عين ابنه الهادي للاقاليم الشرقية كلها في الدولــة يساعده عليها يزيد بن المنصور وأبان بن صدقة وعين بعد قليل ابنه هارون على الاقاليم الغربية يساعده في أمرها يحيى بن خالد البرمكي ••• ولم يكن بالخطير كثيراً أن يتقاسم أولياء العهود حكم الدولة لكن التصرف الخطير كان حين استخلف الرشيد فأطلق يد يحيى البرمكي واولاده فيما وراء بابه مدة زادت على خمس عشرة سنة في الوقت الذي تقلصت فيه الرقابــة المركزية على الولاة التقلص الكبير • ولم يتكشف المأمون عن شخصية

اداري كبير بالرغم من محاولاته تقليد المنصور ولذلك فإنه لم يستطع معالجة الازمة الادارية الكبرى التي وقعت فيها الدولة أثناء خصومته مع أخيه إلا بتفويض وزيره الفضل بن سهل بالامر كله ثم باعطاء عبد الله بن طاهر حكم نصف الدولة الغربي مما بعد العراق ثم تخويل آل طاهر حكم خراسان وما وراءها ... وأضحت قسمة الدولة بعد ذلك بين القواد الكبار تدبيراً ادارياً عادياً ، فلم يجد الناس كبير أمر ، في أن يعطي الواثق حين توليه الخلافة الى قائديه أشناس وإيتاخ حكم الدولة من بابه الى آخر المغرب للاول ومن كور دجلة حتى فارس والسند الى الثاني ...

وكان ذلك يعني ان الدولة لم تعد لبني العباس .

٢ ـ الظاهرة الثانية مشتقة من الاولى وهي الانابة في الولاية . أضحت التسمية للولاية منذ عهد الرشيد لا تلزم صاحبها بالسفر الى ولايته ومباشرة الحكم. صارت تشريفاً لا تكليفاً ومنحة من الرزق لا خدمة للدولة . أصحاب الدالة من أفراد البيت العباسي أو من البرامكة أو وجوه العرب أو كبار الموظفين هم الذين ابتدعوا أن يدير الوالي ولايته دون أن يغادر بغداد ، ورضي الخلفاء أن يمنحوا الولايات لمن يختارون من رجالهم يديرونها باسمهم ولحسابهم . وحتى وحين وصل الأمر أن يلي بعض الخدم المناصب الرفيعة كانوا ينيبون . ذكر الجهشياري «أن مسروراً الخادم كان يتقلد البريد والخرائط ويخلفه عليهما ثابت الخادم !»[1] فكانت النتيجة أن توفي الرشيد ولديهم أربعة آلاف خريطة (رسالة) لم تفض ! ..

ومست ظاهرة الإنابة الخلفاء أنفسهم . فقد ذكر الجهشياري أيضاً أنه كان للرشيد خادم يقال له سعيد الخفقاني وكان خادماً جايلا .

(١) الجهشياري الوزراء والكتاب ص ٢٦٥ .

وكان من خاصته بالرشيد ومحله منه أنه أمر العمال أن يقبلوا كتبه وينفذوا أمره في مائة ألف درهم ..»[1] .

واستمرت هذه الظاهرة مقبولة في الجو الاداري العباسي تتكرر باستمرار ومن ذلك أنه لما ولي أشناس وايتاخ حكم جناحي الدولة للخليفة الواثق أنابا عنهما الولاة . ومن ذلك أيضا أن المتوكل عهد الي بعض خواصه أن يولي عمال الخراج والضياع والبريد والمعاون والقضاة في جميع الدنيا ...»[2] . وكانت النتيجة هي تراخي القبضة المركزية تراخياً كبيراً على الاقاليم ونسف الأساس الاداري الذي وضعه المنصور لهذه الدولة .

٣ ــ غياب الادارة المدنية : إذا كان طبيعياً أن يكون الولاة في أوائل الدولة من القواد العسكريين فان بني العباس الأوائل أعطوا إدارتهم حين استقروا الصبغة المدنية . واستعراض اسماء الولاة الذين سماهم المنصور والمهدي والرشيد يكشف أن معظمهم من وجوه الدولة . وأن نسبة القواد العسكريين فيهم محدودة . غير أن الاعتماد على آل البيت العباسي وعلى العرب وعلى موالي الخلفاء وكبار الخراسانيين بدأ يقل بوضوح بعد الفتنة الأخوية بينما ازداد بالمقابل الطابع العسكري في الولاة وكثر فيهم القواد . والنقلة بين سلكي الجند والإدارة وإن كانت معروفة دوماً في كل العهود والدول إلا إنها خلقت مع كثرة الثورات وضعف الجهاز المركزي في بغداد وسامراء ، سلطات إدارية في الاقاليم مرشحة للانفصال .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٦

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٩

وما كادت الصيغة التقليدية للجيش العباسي تغيب ويسيطر فيه الجانب التركي مع المعتصم حتى تكرست الادارة العسكرية بسيطرة القواد الترك على الخلافة نفسها •

٤ ـ ضعف الرقابة المركزية : فإن انشغال الدولة حتى عن فض خرائط البريد لم يكن إلا أحد مظاهر الاهمال الاداري المتمادي للأقاليم وهو الاهمال الذي كان يقابله من الجهة الأخرى تزايد السلطات المطلقة للولاة وضعفت بين هذا وذاك أجهزة الرقابة والمحاسبة حتى لقد كانت تغيب أحياناً كثيرة • فكان سوء الادارة أو حسنها إنما يتصلان بشخص الوالي وقلما كان الولاة ممن يعفون عن أموال الناس أو دماءهم أو يرعون الحقوق وما من شك في أن بعض الولاة كانوا يتحرجون من تجاوز حدود الله والناس • فحين تولى علي سليمان العباسي مصر «أظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ــ كما يقول الكندي ــ ومنع الملاهي والخمور وهدم الكنائس المحدثة بمصر •••» وحين تولى عبد الرحمن ابن أبي الزناد خراج المدينة أخذ يستعين «بأهل الخير والورع والحديث» وحين عهد الرشيد الى الفضل البرمكي بولاية خراسان «أزال ــ على مايقول الجهشياري سيرة الجور» وعمل على بناء الحياض والمساجد •[illegible] البقايا (من الضرائب) وزيادة العطاء •••[1] على أن هذه السير [illegible] سجلت لبروزها كأعمال حسنة • وكان الغالب في سير الولاة : الإ[illegible] الخراج وجمع الأموال والأخذ بالإرهاب والدماء• وعدم رعاية [illegible] الحقوق فكان نتيجة كل أولئك :

(١) الجهشياري [illegible] ص ٢٢٨

ـ قيام الثورات وقد عرف منها العصر العباسي الكثير ولا سيما في مناطق خراسان وسجستان ومناطق أرمينية والجزيرة وفي الشام ومصر واليمن •

ـ ثراء الولاة الفاحش الذي قد يتبعه نكبة الوالي ومصادرته • ومن الأمثلة ذات المعنى مصادرة الرشيد لعلي بن عيسى والي خراسان الذي بلغت أمواله ثمانين مليون درهم ! خلال عشر سنوات من الولاية بالعسف • ومنها أيضاً قصة علي بن هشام الذي قتله المأمون وكتب في المنشور المتعلق به أنه أعطاه من المنح ما بلغ مجموعه خمسين ألف ألف درهم ولم يكفه ذلك «فمد يده الى الخيانة» ثم استقال أمير المؤمنين فأقاله وولاه الجبل وأذربيجان وكور أرمينية ومحاربة الخرمية على ألا يعود لما كان منه فعاود اكثر ما كان بتقديمه الدينار والدرهم على العمل لله ودينه وأساء السيرة وعسف الرعية وسفك الدماء المحرمة»[1] •

٥ ـ عدم فعالية الادارة العباسية في أطراف الدولة : فإذا كان العباسيون قد ورثوا الدولة الاسلامية كلها عن الأمويين فقد تسلموها منقوصة منذ اليوم الأول (بضياع الاندلس) ثم انقطع عنهم المغرب في أيام المنصور والمهدي (لحساب الخوارج) ثم أضاعوا أيام الرشيد مناطق السند في الشرق ومنطقة افريقية في الغرب لمصلحة الولاة الموجودين فيها • وظهرت خاصة دولة الأغالبة ضمن جلد الدولة العباسية • ثم مالبثت خراسان أن وجدت طريقها في الحكم الذاتي أيام المأمون نفسه على يد آل طاهر ••• وهكذا كان ضعف الادارة المركزية يتماشى طرداً مع انقطاع الاطراف وظهور الدول المنقطعة • ذلك أن الإدارة العباسية

(١) الطبري ج ٨ ص ٦٢٨ (١١٠٨/٣) •

كانت في عهد التأسيس مشغولة بمركز الدولة وما حوله وأما بعد ذلك فلم تكن فعالية الجهاز الاداري فيها تصل الى بعض المناطق النائية أو تهتم بها • وقد قامت دولة خارجية في سجستان سنين طويلة دون أن يتمكن الرشيد ثم المأمون من إلغائها وانقطعت افريقية فلم تجد بغداد طريقاً سوى التسليم بالأمر الواقع وأسس البقارطة الأرمن دولتهم في أرمينية وملوك طبرستان فاعترفت لهما بغداد بالحكم الذاتي ••• فلما انشلت القوة المركزية بتسلط الجند الاتراك على البلاط العباسي كان هذا هو الطريق الذي سلكته الكثير من الاقاليم للانفصال ••• وإلغاء دولة بني العباس وإن ظلت العمامة والبردة والقضيب للرأس الرمزي الباقي بعد الدولة باسم الخليفة العباسي •

ء ـ القضاء والقضاة

عناية العباسيين بالقضاء والقضاة مشتقة من سياستهم الدينيةومن حرصهم على دعم المظهر الديني لخلافتهم • ولما لم يكن للخلفاء في الاسلام ـ كما لأباطرة الرومان وغيرهم ـ سلطة التشريع لأنه إلهي ، علوي ، سابق للدولة ولا كانت لهم حتى سلطة تفسير النصوص الدينية التي اضطلع بها الفقهاء (والفقه عملية تعمق في النص لا إبداع من خارجه) لهذا كان أقصى ما يستطيع الخلفاء العباسيون عمله في هذا المجال هو المزيد من الاشراف على التطبيق والتنفيذ أي على القضاء •

وقد كان الجهاز القضائي الاسلامي موجوداً قبل بني العباس ، منذ عمر بن الخطاب • وكان مستقلا عن الجهاز الاداري أيضاً • لذلك كان كل ما يمكن المنصور عمله هو تعيين القضاة في الأقاليم المختلفةبعد أن كان هذا الأمر متروكاً في العهد الأموي للولاة • وقد سجل المؤرخون للمنصور هذه الأولية التي كان يقصد منها الى إحكام المركزية وتوطيدها

من جهة والي مراقبة كفايات الولاة من جهة ثانية وإلى توحيد الأحكام بين القضاة من جهة ثالثة . وإذا كان الهدفان الأول والثاني لهما الطابع السياسي ــ الاداري فإن الهدف الثالث كان من مشاكل الدولةالكبرى التي تشغل بال الناس طويلا في تلك الفترة . وقد أشار إليها ابن المقفع في رسالة الصحابة إذ بعث الى الخليفة يقول : «... ومما ينظر أمير المؤمنينفيه ... اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ مناختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يحرمان بالكوفة . ويكون مثل هــذا الاختلاف في جوف الكوفة فيستحل في ناحية منها مايحرم في ناحية أخرى . غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم يقضي به قضاةجائز أمرهموحكمهم مع أنه ليس ممن ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا لج به العجب بما في أيديهم . والاستخفاف عن سواهم . أما من يدعى السنة فيجعل ماليس سنة سنة حتى يبلغ ذلك بــه إلى أن يسفك الدم بغير نية (ويحتج بأن الخليفة فلانا فعل كذا) . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليــه في كتاب ويرفــع معها مايحتج به كل قوم من سنة أو قياس ثم نظــر في ذلــك أمير المؤمنين وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ... وينهيعن القضاءبخلافه. وكتب بذلك كتاباً جامعاً . لرجونا أن يجعل الله هذه الاحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صائبــاً ... برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك من إمام آخر ، آخر الدهر ...»(1)

---

(1) ابن المقفع رسالة الصحابة ــ لدى محمد كرد علي رسائل البلغاء (طبعة البابي سنة ١٩١٣) ص ١٢٥ ــ ١٢٦ ولدى يوسف ابو حلقة ــ الأدب الصغير (ط . بيروت) ص ١٦٦ ــ ١٦٨ .

أراد ابن المقفع أن ينتهي الناس من تضارب اجتهادات الفقهاء مع تعقد الحياة وكثرة المجتهديـن وتشقيق الآراء بمنح الخليفـة سلطات امبراطور رومي أو ملك ساساني وجعله هو القاضي الأكبر الذي يقنن ويجمع الأحكام ويعدلها ويصدرها في كتاب واحـد جامع يكون أشبه بمجموعة جوستنيان أو غيرها وتتجـدد من امـام لآخر • ويبدو أن المنصور أخذ بهذا الرأي من ابن المقفع أو غيره فإن المصادر تذكر أنه طلب من الامام مالك بن أنس أن يضع له كتاباً في الفقه يجعله دستوراً للناس وقال له : «واقصد الي أواسط الأمور وما اجتمع عليـه الائمة والصحابة لتحمل الناس إن شـاء الله على علمك وكتبك ••» لكن هذا الطلب لم ينفذ من قبل مالك • والموطأ والمدونة إنما جمعهما تلاميذه من كلامه ولم يكتبا على أي حال وفي النية أن يكون سجل تشريع للدولة ولكن مدونة أحاديث نبوية •

ومن جهة أخرى فإن المنصور كان يعلم أنه ــ ولو كان الخليفة ــ فليس باستطاعته أن يحمل الناس في الفقه والتشريـع على رأي واحد يأخذهم به في تلك الفترة التي كان الفقه فيها في مطالع تكونـه وكان الفقهاء المشهورون في الاسلام (أبو حنيفة • مالك • الليث• الأوزاعي• الحسن البصري• الشعبي •••) في أوج عطائهم الفكري كما كان الحديث النبوي في مرحلة التدوين والتثبيت • لذلك كان قصارى ما يستطيعه المنصور تعيين القضاة من عنده ، ومراقبة أحكامهم عن طريـق صاحب البريد ومناقشتهم في تلك الأحكام لئلا يكون فيها ما يمس الدولة من الناحية السياسية كفتوى مالك مثلا للناس يـوم ثورة محمد النفس الزكية بتحللهم من بيعة المنصور «لأنكم إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين» أو فتوى الأوزاعي ورسالته بعدم جواز ترحيل اهل الجبل في لبنان عن قراهم بسبب ثوراتهم • وقد حاول المنصور أن يستقطب

معونة جماهير الفقهاء وهم أهل القضاء ــ فهو يساير مالك بن أنس ويحاور عمرو بن عبيد • ويسترضي ابن أبي ذئب ويسميه خير أهــل الحجاز ويعرض على الليث بن سعد إمارة مصر فلمــا رفضهــا جعل أمير مصر وقاضيها وعمالها من تحت أوامره فإذا رابه من أحد منهم أمر كاتب فيه الخليفة فيعزله • ويراود أبا حنيفــة على تولي القضاء فيأبى ثم يأبى لدرجة إغضاب المنصور ومجازاته على الرفض بأن يعمل مراقباً في بناء بغــداد ! • وقد أبى قبول القضاء مثله من الخليفة الإمام الأوزاعي ، وأبى التعاون معه سفيان الثوري وابن أبي ذئب • كما أبى سفيان نفسه المسير مع المهدي الى بغداد ليعينه على أن يسير بالناس سيرة الشيخين ولما أصر عليه في تولي القضاء اضطر سفيان إلى الهرب فلما ألقى القبض عليه أمر المهدي بعدم قتله ولكن بكتابة عهده على قضاء الكوفة على ألا يعترض عليه في حكم ولكنه توارى عن الانظار بعد ذلك •••

وهذا الحرص على استرضاء أهل الفقه وهذا الاصرار على كبار الفقهاء في تولي القضاء يكشف عن القيمة السياسية والدينية التي كان يعقدها خلفاء بني العباس الأوائل على هذه الخدمة الحكومية في تصريف الحقوق بين الناس ويكشف عن رغبتهم في جعل القضاء مؤســة رسمية ناجحة وعن إدراكهم القوة التي يمثلها الفقهاء والقضاة في الحياة العامة وفي مــسيرة الادارة •

وقد مشى الرشيد على خطى والــده وجــده في التقرب للفقهاء والقضاة فتقرب الــى الليث بن سعد وترضــى الشيباني واصطنع أبا البختري وأبا يوسف ثم مشى خطوة اخرى تجاوز فيها موقف أسلافه فأوجد في القضاء ما يشبه صاحب «الأزمــة» في الدواوين • جمع أمور

القضاء في الدولة كلها في يد واحـدة وجعل للقضاة في الدولـة رأساً واحدة : في شخص قاضي القضاة •

ولقد يكون في انشاء هذه المنصب ظـل من الشـبه أو التقليد للمنصب الذي كان يحمل الاسم نفسه بالضبط (موبـذ موبـذان) في العهـد الساساني ــ الزارادشتي • ولكنه إنمـا وجد في عهد الرشيد بنتيجة حاجات الدولة وتعقد الادارة فيها وضرورة توحيد جهاز القضاة في إشراف واحد وأهم من ذلك كله توحيد الاحكـام في مذهب فقهي واحد تتبناه الدولة ويصبح هو المذهب الرسمي المتبـع • ويبدو أن شخصية أبي يوسف وشخصية تلميذه الشيباني بعدما كان لأبي حنيفة من وزن ضخم في العراق جعلت الرشيد بعد أن يختار ابا يوسف لقضاء بغداد يختار من خلاله مذهب أبي حنيفة مذهباً للدولة • وكان الرجل من أبرز تلاميذه • وهكذا مالبث أن سماه الرشـيد : قاضي القضاة وطلب منه وضع كتاب الخراج والاشراف على اختيار القضـاة وصحة الأحكام حسب المذهب الحنفي • ولم يكن المنصب يعني أكثر من هذا• فلم يكن لأبي يوسف من اختصاص قضائي يفوق ماكان لسائر القضاة• فهم جميعاً متساوون في حقهم وفي قدرتهم على إصـدار الاحكام طبق الشرع ولا ينقض قاضي القضاة حكمهم إلا بالاتفـاق مع الخليفة • ولكنه يشرف على اختيار الهيئة القضائية وعلى مراقبة الكفاية الفقهية لدى القضاة •

ولم يعزز المنصب الجديد مكانة القضاء والقضاة إلا من الناحية الادارية فإن مكانته الدينية كانت سابقة وظلت لاحقة خلال العصور • أما اختيار أبي يوسف له فقد عزز فقط المذهب الحنفي كمذهب رسمي لما يتمتع به الرجل من مكانة فقهية كبرى •

لكنه مع ذلك لم يفرض هذا المذهب على الناس لأن الشام كانت تحكم على مذهب الأوزاعي فلم تدافع . ومصر ظلت على مذهب الليث ابن سعد والحجاز على مذهب مالك . وقد اتفق مرة أن أمضى اسماعيل ابن اليسع الكندي الأحكام في مصر على مذهب أبي حنيفة فلم يرض به أهلها وطلب الليث من المهدي عزله قائلا : إنك وليتنا رجلا يكيد سنة رسول الله بين أظهرنا ! فاضطر المهدي للعزل !

وهكذ فان تحول المذهب الحنفي الى مذهب رسمي لم يكن له من نتيجة مباشرة سوى توحيد مذهب القضاة في العراق وايران خاصة ، واضطرار القضاة الآخرين لرعاية هذا المذهب في الأقاليم الأخرى .حتى وصف قضاة الرشيد عامة بأنهم عثمانية إلصاقاً لهم بالمذهب الرسمي الحنفي .

وكان هذا أول تدخل إداري عباسي في شكل الأقضية والأحكام عامة وفي توجيهها وكان هذا من الأسباب التي اكدت لأصحاب الورع من الفقهاء صحة موقفهم السلبي من الدولة وضرورة الاصرار على رفض منصب القضاء لئلا يحول بينهم وبين قول الرأي الديني الذي يرون أي عائق . واحتالوا في الهرب من المنصب حيلا شتى حتى لقد تهرب الشعبي منه بلبس المعصفر ولعب الشطرنج لكي يقال إنه من أهل اللهو فلا يصلح للقضاء ! والذين قبلوا منهم العمل القضائي رفضوا بدورهم الانحناء لرغبات الخلفاء واهوائهم . وإذا استشار المنصور الفقهاء في عقد الأمان الذي عقده لعمه عبد الله بن علي فلم يجدوا فيه منفذاً للنقض فإن الرشيد طلب إلى قضاته مثل ذلك في الأمان الذي كتبه ليحيى بن عبد الله المحض ورفض القضاة ايجاد المخرج لنقضه وتعرض القاضي الشيباني ، تلميذ أبي يوسف وكبير القضاة لغضب الرشيد في ذلك وللإقصاء لا سيما حين أفتى أبو البختري بجواز النقض

من **أوجه مختلفة** فقال الرشيد : أنت أعلم بذلـك ! ومزق الأمان ! ..
لكن أمثال هذه المواقف السياسية القضائية العنيفة كان قليلاً جداً وندر
أن تدخلت السلطات الادارية في سلطة القضاء التي ظلت بصورة عامة
مستقلة مصونة المكانة ، وكان أصحابها يستقيلون احيانـاً إن رفضت
تلك السلطات إنفاذ أحكامهم كالذي كان من قاضي مصر في أوائل العهد
العباسي خير بن نعيم إذ حكم بالسجن على جندي من أهـل خراسان
فلما أمر والي مصر أبـو عون الأزدي بإطلاقه استقال القاضي[1] ...

وتوالى على منصب قاضي القضاة بعد أبي يوسف تلميذه محمد
ابن الحسن الشيباني صاحب (السير الكبير) ثم شغر المنصب فترة طويلة
قبل أن يعين له المأمون قاضيه يحيى بن اكثم . أما في الامصار والمدن
والبلدان الهامة فقد كان منصب القاضي من الشأن بحيث كان يسجل
اسم القاضي مع اسم الوالي في التواريخ ووجدت كتب مثل كتاب الولاة
والقضاة للكندي (القـرن ٣) للحديث عن ولاة وقضـاة مصر . كما
وجدت كتب عن القضاة وحدهم مثل أخبار القضاة لوكيـع (القرن ٣)
الذي سجل فيه اسماء واحكام القضاة في الأمصار الكبرى . وسجل
المؤرخون كابن خياط واليعقوبي منذ ذلك العصر أسماءهـم في أعقاب
الكلام عن الخلفاء وعهودهم . وبلغ من اهتمام أصحاب كتب التراجم
ورجال الفقه والمذاهب بالقضاة في كل بلد ومصر أن أضحى لدينا من
ذلك قوائم كاملة أحياناً بعد قوائم مما يدل على القيمـة الكبرى لهذه
المؤسسة الاجتماعية السياسية في تاريخ الحضارة الاسلامية .

وقد اصطنع العباسـيون الاوائل لباسـاً خاصاً للقضـاء هو

---

(١) الكندي ــ الولاة القضاة ص ٣٥٦

الطيلسان . وجعلوا للقاضي موكبه الرسمي زيادة في الهيبة . وقد بعث والي البصرة يحيى بن قارب مع القاضي عمر بن حبيب العدوي قائداً في مائة (جندي) . فكان إذا جلس للقضاء قام الجند عن يمينه وشماله سماطين فلم يكن قاض أهيب منه ...»[1]

ومكان القاضي إنما كان في المسجد الجامع وقد يقضي في أي مكان شاء . وقد سجلوا على بعض قضاة مصر أنه اختصم عنده بعض الذمة فأدخلهم الجامع وكان أول من فعل ذلك . وإذا كان لكل مدينة ومصر قاضيه فقاض في الرقة وقاض في الفسطاط وقاض في نيسابور فقد كان لبغداد وحدها قاضيان أحدهما في الجانب الغربي والثاني في الجانب الشرقي (في الرصافة) وموسى الهادي هو أول من فرق القضاء في جانبي بغداد»[2] وقد تسلم المنصب الثاني «أبو معشر يوسف بن أبي يوسف : وحين كان أبو يوسف يسافر مع الرشيد كان ابنه يقضي بمدينة السلام» في الجانبين[3] . وقد كان ثمة قضاة يجمعون ما بين عدة مدن : فأبو الحسن محمد ابن الامام الشافعي ولي قضاء قنسرين والعواصم . كما كان ثمة قضاة للجند يكونون مع العسكر للفصل في الخصومات .

وأما رواتب القضاة فيبدو أنها كانت مرتفعة وقد ذكر مؤرخ متأخر أن أحد قضاة مصر في العصر العباسي الأول كان يتقاضى أربعة آلاف درهم في الشهر[4] وهو مبلغ قد يكون فيه بعض الشطط ولقد يكون

---

(١) انظر وكيع ـ اخبار القضاة (طبع القاهرة سنة ١٩٥٠) ج ٢ ص ١٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٥٤

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٥٦

(٤) السيوطي

راتب قاض بعينه ولكنه ليس مقياس رواتب الأخرين التي قد لاتزيد عن العشر منه .

ويبدو من جهة أخرى أن عناية العباسيين الأوائل باختيار القضاة ـ وهم موظفون اختصاصيون ـ وبمراقبة أحكامهم كانت تعدل أو تزيد على عنايتهم باختيار رجال الادارة . وثمة أخبار كثيرة في المصادر تذكر سؤال الرشيد للوفود التي تأتيه من البلاد عن القضاة عندهم وتحريه لسيرتهم فإذا شكوا شيئاً استشارهم في من يعين لهم من القضاة أو قبل من يقترحونه بأنفسهم لهذا المنصب(١) . ويذكر أحياناً مثل ذلك عن المأمون . على أن القضاء كمؤسسة أصابها ما أصاب باقي أجهزة الادارة في الدولة من الاهمال والفساد فيما بعد وضغطت عليها المؤسسات العسكرية والادارية حتى أفقدتها الكثير من استقلالها . ولا تستكمل صورة القضاء العباسي إلا بثلاث مؤسسات أخرى تتعلق به :

١ ـ الشهود :

وهم جماعة من وجهاء البلد معروفون بالعدالة وحسن السيرة مهمتهم مساعدة القاضي في بعض أعماله وأهمها : التثبت من مواضيع الشكاوي والنظر في صحة الاجراءات القضائية فكأن دورهم هو دور التحقيق الأولي والشهادة بعد ذلك عند القاضي بما عرفوا من الأمور على ضماناتهم وابداء الرأي كهيئة «المحلفين» . كان ظهور هذه الجماعة ضرورياً في مجتمع لم تكن الكتابة ولم تكن بالتالي العقود الخطية شائعة فيه وليس للقاضي في زحمة العمل من الوقت ما يكفي للتحقق من كل أمر . بالإضافة الى أن قيمة الشهادة الشفهية في تلك العصور كانت أعلى بكثير من الشهادة المكتوبة .

---

(١) انظر وكيع ـ أخبار القضاة ج ٢ ص ١٤٣ و ص ١٤٥

وبالرغم من أن وجود الكتاب العدول والشهود العدول سابق للعصر العباسي إلا إن توطد جماعة الشهود كهيئة رسمية ، بجانب القاضي وظهور دورها القضائي والاداري إنما كان في العصر العباسي الأول وقد اشتق منها جماعة أخرى عرفت فيما بعد باسم «الشروطيين» مهمتهم كتابة العقود ، تحت اشراف القاضي ، بين الناس .

٢ ـ **الحسبة** :

وهي وظيفة « مدنية » نشأت بسبب حاجة المدن الاسلامية إلى العناية بأمورها العامة في أسواقها وبنائها ومرافقها العمومية وفي جماعاتها الحرفية ، وخدماتها الاجتماعية وضمان العدل والأمن لها في عمليات التجارة والتعامل ورعاية الصحة العامة والآداب العامة ... وهذه الأمور هي في الأصل من واجب كل مسلم والاشراف عليها من واجب « السلطان » الذي عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد ظهرت وظيفة المحتسب مبكرة في الاسلام ومهما يكن من الاختلاف في أصل نشأتها فقد جاء العصر العباسي وهي مؤسسة قائمة موجودة وثمة أخبار مبعثرة عن محتسب عزل أو عين أو كان في وفد .. ولا شك أن الحسبة كانت تحل الكثير من المشاكل اليومية قبل أن تصل الى ميدان القضاء .

٣ ـ **المظالم** :

وهي مؤسسة قضائية ثالثة يعود الفضل في تكاملها إلى العباسيين الأوائل . وسماع المظالم ، وهو نوع من استئناف الاحكام أو عرض الظلامات على السلطة العليا ، وهي الأمير ، المسؤول عن إقامة العدل ، وأول ما كان ذلك بشهادة اليعقوبي والماوردي ، في العهد الأموي . «فإن عبد الملك بن مروان هو أول من أفرد للظلامات

يوماً يتصفح فيه قضايا المتظلمين وتبعه في ذلك عمر بن عبد العزيز ثم كان المهدي أول من جرى على هذه السنة (من خلفاء بني العباس) فكان يجلس بنفسه للمظالم ويحيط جلوسه بهالة من الهيبة قوامها من يجمعه حوله من الفقهاء لمثل هذا المجلس • وقد ذكروا أن المهدي كان يطلب جلوسهم معه ويقول : «لو لم يكن ردي للمظالم إلا حياء منهم لكفى••» وقد تبعه في ذلك ابنه الهادي فجلس لها وتبعه الرشيد والمأمون •وآخر من جلس لها هو الخليفة المهتدي الذي استخلف ما بين سنتي (٢٥٥ ـ ٢٥٦/٨٦٩/٨٧٠) •

وسلطة المظالـم ، التي كان لها ديوانهـا المستقل كانت تتناول الطبقات كافة بما فيهم الولاة والقضاة أنفسهم كما تتناول الخلفاء وقد ذكرت القصص العديدة عن انتصاف بعض المتظلمين من كبـار رجال الدولة ومن بعض الخلفاء كالمهدي والرشيد عن طريق المظالم [١] التي كانت نوعاً من صمام الأمان القضائي والاداري في الوقت الذي تشكل فيه السلطة القضائية العليا المنفصلة عن القضاء •

٢ ـ السياسة الماليـة

أ ـ النظـام المـالي : لعله من الضروري قبل عرض هذه السياسة أن نمهد لها بعض الملاحظات المبدئية : وهي تتناول بصورة خاصةالنظام المالي نفســه :

١ ـ ان نظام الضرائب الاسلامي إنما يستند في أساسه إلى تمييز المكلفين تبعاً لجماعتهم الدينيـة • فعلى المسلمين تكـاليف وضرائب (كالصدقة والزكاة والعشر على الأرض) لا تجب على أهل الذمة الذين

---

(١) انظر الماوردي ـ الاحكام السلطانية (طبعة البابي ـ القاهـرة ١٩٦٦) ص ٧٨ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٦٧

يدفعون بالمقابل الجزية على الرؤوس والخراج على الأرض • ثم تطور ذلك النظام فأضيفت إليه انـواع شتى مـن الضرائب شملت الجميع كضرائب الأسواق ومكوس التجارة • كمـا تحولت ضريبـة الخراج فارتبطت بالأرض بدلا من ارتباطها بمالكها وبدين هذا المالك أي لم تعد تسقط أو تتغير بإسلامه • والسبب في ذلك أن الأرض اعتبرت المصدر الأساسي للضرائب التي تقيم أود الدولة كما كانت ضرائبها أكثر الموارد المالية انتظاماً وثباتاً •

٢ ـ لم تكن الضرائب الاسلامية ، ومنـذ مطلعها الأول في عهد الفتوح ثم العهد الأموي مجرد إتاوات اجمالية ثابتة الكمية تجبى من الأقطار حسب الاتفاق معها • فان هذه الفكرة التي نشرها المستشرق ولها وزن وحاول آخرون من أمثال بيكر وكايتاني وغروهمان وبل أن يدللوا عليها بالحجج المختلفة وأن يقولوا إن العرب أخـذوا الضرائب البيزنطية والساسانية نفسها وأعطوها الأسماء القديمة ذاتها ولم يكن لديهم فرق بين الجزية والخراج هذه النظرية كلها قد نقضت الآن من واقع أوراق البردي والوثائق المالية التي وجـدت ودرست وبينت أن النظام الضريبي الاسلامي كان مكونـاً من عدد من الأنظمة الضريبية المختلفة باختلاف الاقاليم وتراثها ومعاهدات الصلح معها وأن هذه النظم كانت تحوي ، منذ بدء الدولة أنواعاً عديدة من الضرائب ، التي فرضها العرب وهي ثابتة الأسماء وإن اختلفت كمياتها من إقليم إلى آخر[1] •

(١) فرض العرب مثلا الجزية على الرؤوس في مصر ولم تكن موجودة فيها في العهد البيزنطي الأخير . وأعادوا فرضها في عهد عبـد الملك على الجزيرة بعد أن قاموا بإحصاء دقيق فيها أما في المناطق الساسانية فكانت موجودة من قبل . وحددوا العشر على الأرض التي آلت للعرب الفاتحين وجعلوا الخراج على الأرض الباقية لأصحابها وهو مـا لـم يكن معروفاً قبلهـم .

فيما عدا بعض المناطق على أطراف الدولـة التي احتفظت باستقلالها الذاتي وبحكامها الاصليين وقبل منها العرب مبلغـاً سنوياً معيناً حددته معاهدات الصلح •

٣ ــ وقد ثبت ، بجانب هذا أيضاً أنه كان لدى الدولة الاسلامية، منذ عهد الراشدين جهاز ضريبي بيروقراطي تكامل في العهد الأموي ثم ورثه العباسيون فزادوه دقة وكانت له خطة عمل دقيقة منظمة وسجلات ودفاتر وجرائد وإيصالات عند الدفع بقي لنا منهـا الكثير على أوراق البردى في مصر وعلى قطع الفخار • كما كان هذا الجهاز مرتبطاً بمركزية شديدة مع العاصمـة (دمشق ثم بغـداد) التي تشرف على كل صغيرة وكبيرة في أمور الضرائب • وقد برز في التدقيق بذلك في العهد الأموي عبد الملك ثم ابنه هشام[١] كما عمل عليه أيام العباسيين المنصور خاصة ثم يحيى البرمكي للهادي ثم للرشيد •

وقد استخدم الخلفاء في هذا الجهاز الضريبي وفي مختلف العهود أولئك العمال المحليين الذي كانوا يعملون من قبل لـدى البيزنطيين والساسانيين ولكن تحت الاشراف المباشر للعمال المسلمين الذين يرسلهم الخليفة نفسه أحياناً مع الوالي •

٤ ــ تمتعت بعض المدن بميزات خاصة (كالقدس والحيرة)وكانت مبالغ الجزية تختلف بين سكان المدن والريف كما كانت ضريبة الخراج تختلف بين الريف القريب من المدينة والريف البعيد عنهـا • وكانت الضريبة في المدن نقدية وفي الريف نقدية وعينية أو عينيـة فقط • ولم تكن الجزية والخراج هي الضرائب الوحيدة فالذي يبدو من الأوراق البردية في مصر أنه كان ثمة بجانبها ضريبـة قمح • وضريبـة لنفقات

---

(١) انظر الطبري ج ٧ ص ٢٠٣ (٢/١٧٣٢ ــ ٣٣)

الموظفين المحليين وثالثة لتغطية نفقات الاعباء الرسمية للدولة من ضيافة وكسوة • وقد كانت تقديرات الضرائب على أي حال تسجل في قوائم (أو جرائد أو سجلات) وترسل الى عاصمة الاقليم لتدقيقها قبل فرضها وجبايتها • وكان ثمة باستمرار سواء في الســـواد أو في مصر • وفي الشام أو الجزيرة أو خراسان آبقون من الفلاحين أهــل الريف خاصة (ويــمون أحياناً النـبط في السواد والشام) يهربون من الضريبة إلى المدن لانهم متى تركوا الأرض لم يعد ثمة من يفرض عليهم تكاليف الضريبة وقد عاني من هذه المشكلة الأمويــون والعباســيون الأوائــل على الســـواء •

٥ ــ كانت سجلات الضرائب ، ومدوناتها المختلفة ، تسجل باللغة المحلية والعربية معاً اعتباراً من أيام عبد الملك • والوثائق البردية التي وجدت في مصر ، وجدت مكتوبة باللغة اليونانية وبالقبطية وبالعربية ولكن العربية استأثرت وحدها بالوثائق الرسمية منذ أواخر القرن الثاني الهجري أي منذ ظهور الورق واستعماله الواسع •

٦ ــ إذا حدد عمر بن عبد العزيــز أو نصر بن سيار أو غيرهما المصطلحات الضريبية بوضوح حين فرق الأول ما بين الأرض الخراجية والعشرية وفرق الثاني ما بين ضريبة الأرض (الخراج) والرأس (الجزية) فإن السـبب في هذا الايضاح لا يرجع إلى غموض مفهومهــا في الدولة ولكن اختلاف النظام الضريبي حسب الاقاليم المختلفة وهــو اختلاف سببه وراثة النظم القديمة السابقة للإسلام من جهة وشروط الصلح من جهة أخرى وشيوع بعض المصطلحات في منطقــة دون أخرى من جهة ثالثة • وقد أثبتت الوثائق البردية والفخارية في مصر أن ضريبة الأرض (الخراج) كانت تسمى بالاسم اليوناني Demosion وكانت مختلفة عن

ضريبة الرأس (الجزية) المساة : Diagraphon أو Andrismos وقد استعمل عمال الخراج في مصر كلمة Demosions بالجمع (أي الخراجات) للدلالة على مجموع الضرائب المتوجبة كما استعملت أحيانـاً في كتب الأموال والخراج كلمتا : «جزية على أرضهم» أو «خراج على رؤوسهم» بسبب شيوع كلمة خراج في الولايات الاسلامية الشرقيـة حتى صار معنى الكلمة فيها تعني أحياناً الضريبة بشكل عام وشيوع كلمة جزية في الولايات الغربية وخاصة مصر حتى صارت هذه الكلمة علماً على كل الضرائب[1] وقد كتب ابن قيم الجوزية (في القرن الثامن) تعريفاً يكشف ذلك إذ قال : الخراج «هو جزية الأرض كما أن الجزية خراج الرقاب وهما حقان على رقاب الكفار وأرضهم للمسلمين ...»[2]

٧ ـ كان الخراج مبالغ وعروضاً عينية يحددها الانتاج أما الجزية فكانت مبلغاً محدداً وعلى الرجال فقط ولا تضرب على النساء والرهبان ولا الفقراء والعجزة ولا الصبيان إلا من جرت عليهم الموسـى ورغم ورود اسماء نساء في ايصالات الضرائب اليونانية أو القبطية أو العربية إلا إن ضريبة الجزية (الرأس) لم تكن ضمن هذه الضرائب أبداً بل لقد وجد نص يقول : «لما نمي الى علمنا أن مينا جعل النساء وربثاته فقد محونا اسماءهن من قوائم الضريبـة»[3] . ولم تكن ضريبـة الجزية

---

(٢) ابن قيم الجوزية ـ احكام أهل الذمة (تحقيق صبحي الصالح ـ حورت بالفارسية إلى هراك أو حراك . وقد استعادها العرب من اللغـة الإدارية الدارجة قبلهم .

(٢) ابن قيم الجوزية ـ احكام أهل الذمة (تحقيق صبحي الصالح ـ دمشق ١٩٦٣) ج ١ ص ١٠٠

(٣) انظر فوزي فهيم جاد الله ـ مقدمـة كتاب الجزيـة والاسلام (الترجمة العربية) ص ١٨ نقلا عن البرديات القبطية .

متساوية الكمية في مختلف الأقاليم ولا في مختلف العهود وكانت تتدرج حسب دخل الفرد فإذا أسلم أعفي منها • وقد ذكر ساويرس ابن المقفع المؤرخ القبطي المصري أن الخليفة العباسي الأول أعلن أن «كل من يصير على دينه (أي دين الخليفة) ويصلي كصلاته يكون بغير جزية ••• فمن عظم الخراج والكلف عليهم انكر كثير من الاغنياء والفقراء دين المسيح»[1] • وهذا الإجراء الحالي ـ الديني الذي لا شك أنه كان إجراء عاماً في الدولة • كان جواباً سياسياً على تدابير الأمويين المالية التي كانت لا تعفى من أسلم في بعض الاقاليم من الجزية خوفاً على موارد الدولة من النقصان •

٨ ـ وأخيراً فقد استمر العباسيون بصورة عامة سواء في النظام الضريبي أو في جهاز الجباية وطرائقها على الأسس نفسها التي سار عليها الأمويون من قبل فكان للسواد نظام من الضرائب يختلف عن مثيله في الجزيرة أو في خراسان أو في مصر أو الشام • وإن جرى تعديل ضريبي في اقليم فليس يعني ذلك بالضرورة أن ذلك التعديل كان عاماً في أقاليم الدولة بل العكس هو الصحيح بمعنى أنه كان في الغالب محلياً لكل اقليم حسب ظروفه وآلامه ومشاكله وأهواء ولاته •

ب ـ **السياسة المالية العباسية** : كانت الآمال التي أطلقها العباسيون بثورتهم وبوصولهم الى الحكم أعرض وأوسع من أن يتناسوها أو يغضوا الطرف عن تحقيق جانب منها وخاصة ما تعلق منها بالعلاقة المالية ما بين الحكام والمحكومين • وإذا لم يتح الوقت لأبي العباس كي يعني بذلك فإنه كان في الواقع من مهام أخيه المنصور وفي رسالة الصحابة التي كتبها ابن المقفع للمنصور والتي يمكن اعتبارها وثيقة إدارية من

---

(٤) ساويرس ابن المقفع ـ سير الآباء البطاركة (تحقيق : vetts طبعة باريس ١٩٠٧) ص ١٨٩ ـ ١٩٠

وثائق العصر يقول صاحبها في وجوب تنظيم الخراج : «... إن أصول الوظائف (الضرائب) على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم . وليس من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها (ضرائبها) مراراً فخفيت وظائف بعضها وبقيت وظائف بعض» وهكذا : «فليس للعمال أمر ينتهون إليه ولا يحاسبون عليه . فسيرة العمال احدى اثنتين : إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وجد وإما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيغرم من أعمر ويسلم من أخرب ... فلو أن أمير المؤمنين أعمل رأيه فيالتوظيف (نظام الضرائب) على الرساتيقوالقرى والأرضين وظائفمعلومة وتدوين الدواوين بذلك وإثبات الأصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفةقد عرفها وضمنها ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها لرجونا أن يكون في ذلك صلاح للرعية وعمارة للأرض وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال ...[1] وهذا رأي مؤونته شديدة ورجاله قليل ونفعه متأخر وليس بعد هذا في أمر الخراج إلا رأي قد رأينا أمير المؤمنين أخذ بهولم نره من أحد قبله من تخير العمال وتفقدهم والاستعتاب لهم والاستبدال بهم ...»[1] .

والواقع أن مشكلة الخراج وتنظيمه وضبطه كانت من أهم المشاكل التي تواجه المنصور مؤسس هذه الدولة الجديدةبعد اضطراب

---

(١) انظر الرسالة كلها في رسائل البلغاء ــ محمد كرد علي «طبعة البابي الحلبي سنة ١٩١٣» وهذا النص في الصفحة ١٢٩ ــ ١٣٠ وانظرها ايضاً في جمهرة رسائل العرب الذي نشره احمد زكي صفوت ج ٣ ص٢٥ وما بعدها . (طبعة البابي الحلبي ــ القاهرة ١٣٥٦ ــ ١٩٣٧) وهيمنشورة في ضحى الاسلام ج ١ ص ٢١٠ فما بعد) .

الأوضاع الاقتصادية والسياسية وانقلاب الدولة أسرة وأنصاراً ومكاناً .
وكانت المشكلة ذات شقين : جهاز الجباية الخراجية من جهة وضبط
كميات مال الخراج من جهة أخرى .

جعل المنصور أولاً ديوان الخراج في مكان قرب قصره في بغداد
ثم جعل له سجلات يرجع إليها في تقدير قيمة الخراج ومع أنه كان يختار
له أكثر رجاله كفاية إلا إنه أخضعه لإشرافه المباشر حتى «لم يعد للوزارة
في عهده رونق ولا قيمة » كما قالوا . وكان نموذجه الأعلى في رجل
الخراج العامل الذي «يستقصي ولا يظلم» . وقد أمر عمال الخراج ألا
يقبلوا من الدراهم الا الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني
أمية [1] كما استحدث كيلا جديداً لجباية الخراج عرف بالقفيز الهاشمي
وعني كل العناية بمراقبة عمال الخراج ومحاسبتهم المحاسبة الدقيقة
الدائمة . وخلال ذلك أخذ المنصور أيضاً بضبط مبالغ الخراج وأمواله
فقد أمر ـ كما يروى الجهشياري ـ بتعديل السواد [2] وقلد ذلك حماداً
التركي كما أرسل سنة ١٤٠ أو سنة ١٤١ عمالا إلى كور الشام ليميزوا أنواع
الأراضي ويعدلوا مقدار الضريبة عليها كما أمر بمنع تحويل الاراضي الخراجية
إلى عشرية فيها وهكذا عدلت أراضي حمص وبعلبك ثم الغوطة ...[3]

وكان المنصور كذلك يرعى الأسعار التي غلت في مطالع عهده

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٥٧٦

(٢) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٣٤

(٣) يروي ذلك ابن عساكر في ترجمة اسماعيل بن عياش الذي كلف بهذا التعديل وقد نقله عنه ابن العديم في ترجمة هذا الرجل (انظر بغية الطلب مخطوط احمد الثالث ج ٣ الورقة ١٣٩ ظهر يقول : «وبعثه ابو جعفر المنصور الى دمشق فعدل ارضها الخراجية» وقد نقل نص ابن عساكر ايضاً فون كريمر وفلها وزن وغيرهم .

كما يتبين من بعض الإشارات في رسالة الصحابة وبعض أخبار الطبري عن خرسان سنة ١٤١ فكان «ولاة البريد في الآفاق كلهـا يكتبون الى المنصور أيام خلافته في كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول ... وبما يرد الى بيت المال ... فاذا رأى الأسعار على حالها أمسك وإن تغير شيء منها عن حاله كتب إلى الوالي والعامل هناك وسأل عن العلة التي نقلت ذلـك عن سعره . فإذا ورد الجواب بالعلة تلطف إلى ذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله ...»[1] ونجحت سياسة المنصور فإنا نسمع الجهشياري يروي أن قد «رخصت الاسعار في أيام ابي جعفر»[2] ويروي الخطيب البغدادي خبرا عن رجل من عصر المنصور يقول إن الكبش كان بدرهم والحمل بأربعـة دوانق والتمر ستين رطلا بدرهم والزيت ستة عشر رطلا بدرهم والسمن ثمانية ارطال بدرهم . والرجل يعمل بالروزجاز في السور كل يوم بخمس حبات !!». «وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطـلا بدرهم ولحـم الغنم ستين رطلا بدرهم»[3] .

وتنظيم أمر الخراج من جهة مع رعاية الأسعار ورخصها من جهة أخرى إذا أضفنا إليها ما عرف عن حرص المنصور المالي وشدته فيه هو الذي سمح له أن يترك في خزانة الدولة لابنه المهدي ٦٠٠ مليون درهم، وأربعة عسر مليون دينار (=٢١٠ ملايين درهم)[4]كما سمح له أن يقول لابنه المهدي : إني تركت لك من المال ما لو انقطع عنـك الخراج عشر

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٩٦ (٣/٤٣٥)

(٢) الجهشياري ص ١١٧

(٣) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠ و ص ٤٣

(٤) انظر ماري بن سليمان ــ اخبار بطاركة كرسي المشرق (طبع روما ١٨٩٩) ص ٧٠

سنوات لكفاك • على أن هذا المال كله مع وارد الدولة السنوي أيضاً ذهب في السنوات العشر التي قضاها المهدي على العرش • وكان وزيره أبو عبيد الله يشير عليه عبثاً بالاقتصاد فلما وزر له يعقوب بن داوودزين له ما يهوي حتى أشرفت الخزانة على الافلاس • ذلك أن طريقته كانت أن يربط الناس به عن طريق الدرهم والدينار حتى أضحى كما قال المسعودي «محبباً إلى الخاص والعام» •

وقد ذكر بعض مؤرخي النساطرة أن المهدي حين عقد له الأمر «••• ترك خراج سنة على الناس ورد ضياعهم عليهم وعاملهم فيأموالهم بخلاف سيرة أبيه» •

ويقول المسعودي «••• وبسط (المهدي) يده في الإعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور ••• سوى ما جباه في أيامه • فلما تفرغت بيوت المال أتى أبو حارثة الهندي خازن بيت أمواله فرمى بالمفاتيح بين يديه وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت فرغ ؟ قال ففرق المهدي عشرين خادماً في جباية الأموال فوردت الأموال بعد أيام قلائل وحينئذ قال لخازنه : كنت تظن أن الأموال لاتأتينا إذا احتجنا إليها ؟ فقال ابو حارثة إن الحادثة إذا حدثت لم تنتظرك حتى توجه في استخراج الأموال وحملها ••» (١) •

غير أن رخص الأسعار أدى إلى الظلم الضرائبي القاسي لأن ثبات قيمة الضريبة مع الرخص كان يستهلك القسم الأكبر من انتاج الأرض ولهذا عمد المهدي إلى إصلاح ضرائبي جذري ألغى فيه نظام المساحة والضريبة الثابتة النقدية الذي كان متبعاً منذ عهد الفتوح بل منذ العهد الساساني في السواد واستبدل به نظام المقاسمة • على الانتاج والضريبة

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٢ ص ١٧٧ و ص ١٧٥

النسبية العينية ويبدو أن الناس سألوا المنصور في آخر خلافته ذلك فأجابهم ثم لم يتح له تطبيق هذا النظام في عهد المهدي [1] ولعل ذلك كان حوالي سنة ١٦٠ فصار يؤخذ كما يقول الماوردي «... النصف على الأراضي التي تسقى سيحاً . والثلث على الأراضي التي تسقى بالدوالي (النواعير على الدواب) والربع على تلك التي تسقى بالدواليب (باليد) ولا شيء عليهم سوى ذلك ...» أي أن الأراضي غير المزروعة معفاة من الضريبة أما الثمار فبقيت على نظام المساحة . مع مراعاة قرب الأرض من الأسواق ولكن هل طبق ذلك على غير السواد في العراق ؟

لقد أيد أبو يوسف قاضي الرشيد في كتاب الخراج نظام المقاسمة بالأدلة الفقهية وهذا لا يعني أن النظام قد عمم على الاقاليم الاسلامية الأخرى بل إن ثمة ما يدل على بقاء نظام المساحة القديم في كثير من المقاطعات الايرانية وفي بلاد الشام ومصر حيث ظلت كميات الخراج ثابتة وكان على الفدان في مصر ديناران كل سنة وقد كشف الأزدي في تاريخ الموصل أن يحيى بن خالد البرمكي قد أعاد خراج الموصل الى المساحة : كسر الخراج سنة ١٧٥ وكان يؤخذ العشر من البرية والربع من المرج فاستدعى بعض أهل الموصل الى بغداد بسبب ذلك فاحتجوا بوجود الخوارج فدعاهم إلى فرض ضريبة ثابته فرفضوا [2] ولكن

---

(١) ذكر الماوردي (الاحكام السلطانية ص ١٦٨) أن المنصور هو الذي بدل إلى نظام المقاسمة بينما يعزو ابن الطقطقي (ص ١٦٤) ذلك الى المهدي ويبدو أن البلاذري كان ادق من الاثنين (في فتوح البلدان ص٣٣٣) حين اوضح انها طلبت من المنصور ونفذها المهدي .

(٢) الأزدي ــ تاريخ الموصل ص ٢٧٦

البرمكي ألزمهم ذلك . وعمل حساب الجريب من البذور والانتاج من الحنطة والشعير وقوم هـذا وذاك : وكان جريب القمح بثلاثين درهماً والشعير بعشرين فألزمهم الربع على أساس المساحة[1] .

حـ ــ **طرق الجبايـة والانفـاق** : ولعل أهم من ذلـك أن أساليب الجباية بقيت على حالها القديم منذ العهد الساساني والبيزنطي في مختلف الأقاليم وإذا نقمهـا الناس على الأمويين فإنهـا لم تتغير في شيء زمن العباسيين وظلت على مـا كانت عليه من أساليب التعذيب والارهاق والسوط . وقد حاول المهدي الاصلاح إذ يذكرون أنه أمر بمنع تعذيب الناس في جباية الخراج و«كتب الى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج» وكانوا «يعذبون بصنوف من العذاب من السباع والزنانير والسنانير»[2] .

على أن هذا الأمر بدوره لم ينفذ فيما يبدو كل التنفيذ فإنا نجد القاضي أبا يوسف يندد ، في عهد الرشيد ببعض عمال الخراج وأنهـم «ليسوا بأبـرار ولا صالحين ... يأخـذون الخراج بالعسف والظلم والتعدي» كما يلزمون أهل الخـراج (دافعي الضرائب) برزق العمال (الجباة) وإنزالهم وطعامهم ويأخذون منهم ثمن صحف وقراطيس وأجور الكيالين ومؤونتهم ويقتطعون من الدراهم طائفة » ويقال : «هذا رواجها وصرفها» ويدعون عليهم «بنقيصة فتؤخذ منهم ...» وبجانب هذا الظلم في الاداء المالي كان ثمة ظلم في المعاملة الانسانية «وقـد يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنع من الصلاة وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام..»

---

(١) الجهشياري الوزراء والكتاب ص ١٤٢ .

(٢) الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص ١٤٢

«ويعلقون لهم الحجارة في الاعناق ...» ولا يبالي المتقبل (أي الضامن والملتزم) هلاكهم «لعله أن يستفضل بعدما يتقبل به فضلا كثيراً ..»[1]

كما أن نظام المقاسمة في السواد لم يسلم في نهاية عهد المهدي من التعديل ويبدو أنه زيد فيه العشر أيضاً فأضحى ٦٠٪ بدلا من ٥٠ بسبب كثرة نفقات الخليفة كما أن المهدي أوجد ضريبة على الأسواق في بغداد وأمر بجبايتها وجعل عليها الأجرة وجعل سعيد الحرشي لذلك فكان أول ما جبيت أسواق بغداد ..»[2] وتدل الاشارات لدى المؤرخين أن هذه الضريبة عممت على ولايات الدولة أو طبقت على الأقل في مصر أيضاً وفي خراسان .

على أن الولاة كانوا في الواقع يتصرفون في أمر خراج الأقاليم وجباية الأسواق وعشر التجارة كما يرون فحين قلد المهدي خالد بن برمك ولاية فارس أناب عنه ابنه يحيى فاتخذ تدبيرين للتخفيف عن الناس إذ «قسط الخراج على أهلها (من جهة) ووضع عنهم خراج الشجر وكانوا يلزمون له خراجاً ثقيلا ...»[3] بينما نجد بالمقابل أن موسى بن صعب الموصلي حين ولى صلاة وخراج مصر سنة ١٦٧ من قبل المهدي «شدد ... في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل (يضمن ويلتزم) به وارتشى في الاحكام وجعل خرجاً على الأسواق وعلى الدواب فكرهه الجند ونابذوه ...[4]» فكانت نتيجة ذلك الثورة

---

(١) انظر كتاب أبي يوسف : كتاب الخراج (المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٥٢) ص ١٠٥ و ١٠٧ و ١٠٩ و ١١١ .

(٢) اليعقوبي ـ ج٢ ص ٣٩٩

(٣) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٥١

(٤) المقريزي ـ الخطط ج١ ص ١٠٣

ومقتله في تلك السنة نفسها ...

وقد ذكر ساويرس ابن المقفع بدوره أن موسى بن مصعب ،عامل الخراج في مصر «ضاعف (سنة ١٦٧) ماكان يؤخذ من الخراج عن كل فدان ثم فرض الخراج على أهل الأسواق وعلى الدواب» فقامت الثورة في غرب الدلتا بشكل عنيف وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

لو يعلم المهدي ماذا الـذي يفعـــله مـوسى وأيـوب
بأرض مصر حين حلا بهـا لم يتهم في النصح يعقوب..[1]

ويعقوب هو ابن داوود الوزير . وطبيعة النظام المالي (الموروث بدوره عن الروم والساسانيين) كانت تميل عامة إلى الزيادة الدائمة في أعباء دافعي الضرائب كما كانت تعطي فرصاً استثنائية للعمال الثانويين في ابتزاز الأموال . وهذا ما كان يدفع الكثير من صغار الفلاحين الى الهرب من أرضهم تخلصاً من الاعباء جرى ذلك في السواد وفي الجزيرة وفي مصر حيث تحفظ بعض أوراق البردى اسماء الآبقين . على أنه كان لبعض الملاكين الصغار طرقهم في الهرب من عسف الحياة ، أو في تقليل قيمة الخراج ومن ذلك الإلجاء أي الاحتماء باسم متنفذ كبير أو تسجيل الأرض باسمه . وقد ظهر مثل ذلك منذ العهد الأموي ويظهر أنه زاد في العصر العباسي يروي الجهشياري أن رجلا من الأهواز جـاء الى أبي أيوب المورياني وهو وزير (لدى المنصور) فقال : ان ضيعتي بالأهواز قد حمل علي فيها العمال فإن رأى الوزير أن يعيرني اسمه أجعله عليها وأحمل إليه في كل سنة مائة الف درهم فأعطاه اسمه وحال الحول فأحضر الرجل المال ودخل على أبي أيوب وهو لا يعرفه وأعلمه أنه قـد انتفع

---

(١) انظر ساويـرس ـ سير الاباء البطاركـة ص ١٥٥ و ص ١٦٣ ، والكندي الولاة والقضاة ص ١٢٥

باسمه وأنه قد حمل المال ..[1]» وإذا كان هـذا يعني أن الإلجاء كان عملية مجدية مربحة للطرفين فإنه كان يعني أن اقطاعات المتنفذين لم تكن تدفع الخراج ... وهي دون شك إقطاعات واسعة لا في السواد فحسب ولكن في كل ولاية . وقد كان الالجاء بدوره سبباً في توسع الاقطاعية الكبيرة فيما بعد لأن بعض من كانوا يلجئون الأرضين كانوا يستولون عليهـا .

ويبدو أن الخراج كثيراً ما كان «يكسر» أيضاً أي يتملص أهله من دفعه ولدينا أخبار عن كسره في الموصل زمن الرشيد ، وفي مصر ، وفي السواد . و«كانت العمال إذ ذاك تكتب الى الخلفـاء» مباشرة بذلك باعتبار الخراج ملكاً لبيت مال المسلمين . وكان يجري مـن اجل ذلك انتداب مندوب خاص يرسله الخليفة للاستيفاء وقد يرسلون من أجل ذلك الجيوش والقوات العسكرية . وقد أرسل الرشيد مثلا عمر بن مهران إلى مصر حين كسر الخراج فيها سنة ١٧٦ «فاستوفى جميع مال مصر وانصرف» ويعلق صاحب العيون والحدائق على ذلك بقوله : «ولا يعلم أحد استوفى جميع مال مصر سواه» .

وكان الخراج لا يدفع كله دفعة واحدة عند الاستفتاح (أي بدء السنة الخراجية في النيروز) ولكن يدفع منجماً[2] على (اقساط) نجوم ثلاثة . أو على الأقل هذا ماكان يجري في مصر . وكان الجباة أو الولاة يتقاضونه في بعض الأحيان دفعـة واحدة ممـا يثير الكثير من التظلم والاحتجاج ...

وبالرغم من أن الأساس في الخراج هو الجباية المباشرة لكن يبدو

---

(١) الجهشياري ــ الوزراء ص ١١٨

(٢) انظر العيون والحدائق للمؤلف المجهول ص ٢٩٥ و ص ٢٩٦

أن العباسيين اعتمدوا شيئاً فشيئاً نظام التقبل (أي الضمان) في جبايته حتى أصبح التقبل منذ نهاية عصر الرشيد النظام الوحيد السائد . فإذا كان أبو جعفر يكتب سنة ١٤١ الى نوفل بن الفرات عامل خراج مصر أن يعرض على محمد بن الأشعث ضمان ذلك الخراج فإن ضمنه يشهد عليه ويعود هو الى الخليفة وإلا بقي في عمله فلم يقبل ابن الاشعث[١] فإن أخبار القرن الثالث لا تتحدث فيما يتعلق بالخراج إلا عن الضمان والضامنين . وقد رفع محفوظ بن سليمان إلى الرشيد أن يضمن لـه خراج مصر عن آخره بغير سوط ولا عصا» فولاه الرشيد الخراج[٢] ومع أن القاضي أبا يوسف قد حمل في كتابه على نظام التقبل لما يؤدي إليه من ظلم الفلاحين فإنه بقي النظام السائـد لأنـه أخف مؤونة على الحكومة وأثبت دخلا .. وكان متولي الخراج في كل أقليم يجلس — قبيل موعد جباية الخراج — فيتبارى المتقبلون في المزايدة على الكور عنده صفقة صفقة ...

وإذا فاق الهادي أباه في إنفاق المال فلأن موارد الدولة كانت — على ما يظهر — تسمح بذلك وحين جاء الرشيد لم يدخل على السياسة المالية من جديد سوى أنه فيسنة ١٧٢ «وضع عن أهـل السواد العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف ...»[٣] ثم أراد تنظيم الخراج على أساس شرعي اسلامي منظم فسأل قاضية أبا يوسف أن «يضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جبايته الخراج والعشور والصدقات والجوالي وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به . وإنما أراد بذلك رفع الظلم

---

(١) المقريزي الخطط ج ١ ص ٣٠٦

(٢) المقريزي ج ١ ص ٣٠٩

(٣) الطبري ج ٨ ص ٢٣٦ (٣/٦٠٧)

عن رعيته والصلاح لأمرهم» كما قال ابو يوسف في مقدمة الكتاب الذي يمكن أن يعتبر وثيقة مالية بجانب كونه وثيقة فقهية هامة • فإنه بين واقع السياسة المالية ونظامها الواجب أي ما هو كائن منها وما يجب أن يكون• وبالرغم من أنه وافق على نظام المقاسمة إلا إنه اقترح تعديله بما ينصف الناس : فبدلا من النصف على الأراضي المسقية سيحاً طلب جعل الضريبة ٢/٥ وعلى المسقية بالدوالي ٣/١٠ بدلا من الثلث وعلى غلال الصيف (ولعلها سقي الدواليب) الربع وعلى الأثمار الثلث[1] •

ولكن هذه المقترحات لم تنفذ فيما يظهر واستمرت الجباية الضريبية على الطريقة القديمة وربما حاول بعض الولاة التخفيف عن المكلفين بإعفائهم من الضريبة المتراكمة عن السنوات السالفة فإن الفضل بن يحيى مثلا حين توجه الى خراسان سنة ١٧٨ «أزال سيرة الجور ••• وأحرق دفاتر البقايا»[2] •

ويذكر البلاذري «أن ضياعاً رفضت في خلافة الرشيد وتركها أهلها فوجه الرشيد هرثمة بن أعين لعمارتها فدعا قوماً من مزارعيها واكرتها إلى الرجوع إليها على أن يخفف عنهم من خراجهم ولين معاملتهم فرجعوا فأولئك أصحاب التخافيف وجاء قوم منهم بعد فردت عليهم أرضوهم على مثل ما كانوا عليه فهم أصحاب الردود ••• وبفلسطين فروز ـ كما يقول ـ بسجلات من الخلفاء مفردة من خراج العامة وبها التخفيف والردود ••• »[3] •

وخفض البرامكة خراج ثغر قزوين ليتمكن أهله من احتمال

---

(١) انظر كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٥٠

(٢) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٩١

(٣) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ١٧١

ما يغرمونه للجهاد والغزو[1] غير أن القاعدة السائدة كانت حتى أواسط عهد الرشيد هي المبالغة في استخراج أموال الخراج ذكـر اليعقوبي أن الرشيد سنة ١٨٤ «أخذ العمال والتناة والدهـاقين وأصحاب الضياع والمبتاعين للغلات والمقبلين (الملتزمين) وكان عليهم أموال مجتمعة فولى مطالبتهم عبد الله بن الهيثم ... فطالبهم بصنوف من العـذاب ...» ولكن الرشيد ـ فيما يذكرون ـ اعتل تلك السنة علـة شديدة أشفى منها فدخل إليه الفضيل بن عياض فرأى الناس يعذبون في الخراج فقال: ارفعوا عنهم فإني سمعت أن رسول الله يقول من عذب الناس في الدنيا عذبه الله يوم القيامة . فأمر برفع العذاب عن الناس فارتفع العذاب من تلك السنة (سنة ١٨٤) ...»[2]

وربما كانت قصة العذاب ورفعه هذه إنما تتعلق بالسواد في العراق فقط أما حال الأقاليم فكان دون شك مشابهاً في العذاب لا في منعه على الأغلب ولعل مثال مصر من ابرز الأمثلة على ذلك . وإنما عرفناه لأن أخبارها حفظت أكثر من غيرها :

فإنا نجد أن هذا البلد الذي يبلغ خراجه السنوي قرابـة ثلاثة ملايين دينار قد ثار ثلاث مرات في عهد الرشيد . خرج سنة ١٧٨ على اسحق بن سليمان بن علي لأنه «زاد على المزارعين في الخـراج زيادة أجحفت بهم فهزموا جيشه»[3] وإذا بعث الرشيد هرثمـة بن أعين في جيش عظيم فجبى خراج مصر كله فان أهل مصر عادوا فانتقضوا بعد ذلك سنة ١٨٦ إذ «خرجوا على الليث بن الفضل البيوردي لأنـه بعث

---

(١) ابو يوسف ـ كتاب الخراج ص ٣

(٢) اليعقوبي ج٣ ص ١٥٤

(٣) المقريزي ـ الخطط ج ١ ص ٨٠ و ص ٣٠٩

بمساح يمسحون عليهم أراضي زرعهم فانتقصوا من القصبة أصابع[1] وتظلم الناس فلم يضع منهم فحدثت موقعة عنيفة بينه وبينهم ولم يقدر عليهم إذ منعوا الخراج فذهب إلى الرشيد وسأله أن يبعث معه بالجيوش فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف (وهم عرب القيسية واليمانية والدلتا الغربية) إلا بجيش يبعث معه ...» وتعهد محفوظ بن سليم بجباية خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا[2]» فأرسله . ثم عاد الناس فانتقضوا كرة ثالثة في ولاية الحسين بن جميل سنة ١٩١ وامتنعوا من أداء الخراج فبعث الرشيد إليهم بقوة عسكرية مع يحيى بن معاذ ثم استدرج الوالي زعماء العرب الثائرين فقيدهم وسار بهم الى العراق ...

وهكذا فيما يبدو وصلت جباية الخراج زمن الرشيد حدودها العضوي ولم يبلغ رقم واردات الدولة ـ على ما يظهر ـ في أي عهد من العهود ما بلغه في عهد الرشيد من الارتفاع . وبالرغم من أن الانفاق الواسع دون حساب كان سياسة كل من الرشيد والبرامكة على السواء فإن الدولة في الواقع لم تشك العجز المالي . بسبب ضخامة الموارد التي بلغت اكثر من ٥٣٠ مليون درهم في السنة . ومن أمثلة هذا الانفاق أن يحيى البرمكي انفق في حفر بعض الأنهر عشرين مليون درهم[3] وفرق في الناس نصف مليون درهم باسم ولده الصغير ابراهيم ووزع ابنه الفضل في خراسان عشرة ملايين درهم . ونال مروان بن أبي حفصة الشاعر في جولة مديح ببغداد سبع مائة ألف درهم[4] . وبني جعفر بن

---

(١) المصدر نفسه
(٢) المصدر نفسه
(٣) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٧٧
(٤) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٩١

يحيى قصراً فأنفق فيه عشرين مليون درهم وقضي ديناً على عبد الملك ابن صالح بمليون درهم... وحين نكبهم الرشيد «قبض من سائر أموالهم ثلاثون ألف ألف وستمائة ألف وستة وسبعون ألفاً . الى سائر ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم والدقيق والجليل من مواهبهم ...»[1] .

وبالمقابل فإن الرشيد بعد كل ما أنفق ووهب في حياته ترك ثروة هائلة يروي الطبري أنه مات وفي بيت المال «٩٠٠ ألف ألف ونيف»[2] من الدراهم . ولا شك أن عملية الانفاق الواسع قد نجم عنها ازدهار واسع في بغداد والعراق بصورة خاصة . وهو الازدهار الذي جعل «دولة الرشيد ــ على قول ابن الطقطقي ــ من أحسن الدول واكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً» ولكن هذا كله كان دون شك على حساب الجماهير الواسعة الكادحة التي كانت تعمل لتأدية خراج الدولة وتصبه من أنحاء العالم الاسلامي في بغداد وتكدس الثروات في يد الفئة الحاكمة خاصة. ولعل من أمثلة ذلك أن غلة الخيزران ــ ام الهادي والرشيد ــ التي ماتت سنة ١٧٣ كانت مائة ألف ألف وستين ألف (ألف) درهم» . وأن والي البصرة محمد بن سليمان بن علي مات في العام نفسه عن غلة كانت تبلغ «مائة ألف درهم في اليوم» . فلما قبض الرشيد أمواله كانت نيفاً وخمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ...وبلغت أموال علي بن عيسى التي صودرت بعد حكم دام حوالي عشر سنوات في خراسان : ثمانية ألف ألف درهم . وقد روى أن خزانته حملت على ١٥٠٠ بعير حين أرسلت الى الرشيد وهو بجرجان وكان هذا الوالي نفسه قد قدم بعد سنتين من ولايته على الرشيد ببغداد ومعه من المال

---

(١) ابن عبد ربه ــ العقد الفريد ج ٣ ص ٢٦١

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٦٤ (٣/٧٦٤)

ـ كما يروي الجهشياري ـ ألف بدرة معمولة من ألوان الحرير **وفيها** عشرة آلاف ألف درهم[1] .

وكان الرشيد يقتفي آثار المنصور ويطلب العمل بها إلا في بذل المال فإنه لم ير خليفة قبله أعطى منه للمال[2] وكان الغالب عليه عدم محاسبة الوزراء أو العمال أو القواد . ترك للبرامكة أن يستولوا على مايشاؤون ويتصرفوا كما يحبون بأموال الدولة سبع عشرة سنة ولم يأبه بشكوى خراسان من علي بن عيسى حتى قامت عليه الثورة ويروون أن الرشيد توفي وعنده أربعة آلاف خريطة (كتاب مالي) لم تفض ...

ومقابل هذا كله ، ومقابل هذه الأموال المتجمعة المكدسة نجد ، في بغداد العاصمة ، ارتفاع الأسعار وضيق أسباب المعيشة بالفقراء . وقد سجل ذلك الشعراء . يقول ابو العتاهة :

مـن مبلغ عنـي الامـام	نصائحـاً متواليـة :
انـي أرى الأسـعار	أسـعار الرعيـة غالية
وأرى المكـاسب نـزرة	وأرى الضرورة فاشـية
وأرى اليتـامى والأرامل	في البيـوت الخاليـة
من مصيبـات جـوع	تمسـي وتصبح طاويـة
يشكون مجهدة بأصوات	ضعـاف عـاليـة !

ويقول الشاعر الآخر :

بغـداد دار لأهـل المـال طيبـة
وللمفاليس دار الضنك والضيـق
ظللت حـيران أمشي في أزقتهـا
كأنني مصحف في بيت زنـديق !

---

(١) الجهشياري الوزراء والكتاب ص ٢٢٨

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٤٧ (٧٤١/٣) .

ويقول ثالث عن بغداد :

تصلح للموسر لا لامرىء

يبيت في فقر وإفلاس

لو حلها قارون رب الغنى

أصبح في هم ووسواس !

ونجد تجمع أعداد كبيرة من الفقراء والزواقيل والعراة وباعة الطرق والطرارين والزعار والشطار والعيارين في بغداد ــ وهم نتاج ذلك التكدس غير الطبيعي للثروة في أيد قليلة ودليل على التفاوت الاقتصادي الشديد بين الطبقات وقد ألفوا في فتنة الأمين وحصار بغداد كتلة تصل أحياناً إلى اكثر من مائة ألف يقاتلون بالمقاليع وبدروع من الخوص والخيش وينهبون الدور فإذا أحرق منزل نهبوا خشبه وإن قتل ذو مكانة مسحوا عن الأرض بيته ... إن سوء الوضع المعيشي جعل من هؤلاء ثورة قيد الانفجار باستمرار منذ الآن وخلال القرون التالية . ضد الطبقات المالية الموسرة وخاصة التجار والمتمولين وأصحاب الاقطاع ورجال الطبقة الحاكمة .

د ــ الموارد العامة للدولة : وقد حفظ لنا الجهشياري وثيقة هامة جداً عن موارد الدولة في عهد الرشيد أيام وزارة يحيى البرمكي كتبها بعض كتابه بتفصيل جبايات الأقاليم وأقسامها ويتبين منها أن الخراج كان على قسمين : قسم مالي بالدراهم والدنانير وقسم عيني ويدفع على شكل أمتعة وعروض مما يتميز به كل اقليم من الانتاج .فإذا تركنا جانبا

المواد العينية وهي كميات كبيرة بدورها فإن مبالغ الجباية المالية الشتوية كانت حسب القائمة التالية[1] :

منطقة السواد ٩٥ ٥٨٠ ٠٠٠ درهم عدا الامتعة والمنتجات العينية في المناطق كافة

منطقة كسكروكور دجلة ٣٢ ٤٠٠ ٠٠٠ درهم

منطقة حلوان والأهواز ٢٩ ٨٠٠ ٠٠٠ درهم

فارس وكرمان ومكران ٣١ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم

السندوما يليها ١١ ٥٠٠ ٠٠٠ درهم

سجستان ٠٤ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم

خراسان ٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم

جرجان وقومس ١٣ ٥٠٠ ٠٠٠ درهم

---

(١) اوجزنا القائمة بجمع مبالغها الى بعض وقد درس محمد ضياء الدين الريس هذه القائمة مع القائمة الأخرى التي أوردها ابن خلدون (ونقلها عنه عدد من الباحثين كالخضري وزيدان وحتي) ونسبها الى عصر المأمون وبين انها هي نفسها قائمة الجهشياري . ثم صحح الأرقام فيها بعد دراسة مستفيضة . وقد اتبعنا في القائمة التي نقدمها تصحيحاته (راجع كتاب الخراج والنظم الإسلامية ـ (طبع القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٦١) ص ٥٠٤ حتى ص ٥٢٠)

اما قائمة الجهشياري الأصلية فهي في كتاب الوزراء والكتاب ما بين ص ٢٨١ فما بعد .

طبرستان والرويان ودبناوند	٠٦ ٣٠٠ ٠٠٠ درهم
الـــري	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم
اصفهان وهمذان	٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم
ماه البصرة والكوفة	٢٠ ٧٠٠ ٠٠٠ درهم
شهزور وما يليها	٠٦ ٧٠٠ ٠٠٠ درهم (هي في الأصل ٢٤ مليون ٠) والتصحيح عن ابن خلدون ٠
الموصل وما يليها	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم
الجزيرة والفرات	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم
اذربيجـــان	٠٤ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم
موقان ٠ الكرج ٠ جيلان ٠ أرمينية	١٣ ٣٠٠٠ ٠٠٠ درهم
قنـسرين والعواصم	٤٩٠ ٠٠٠ دينارذهبي
حمص	٣٢٠ ٠٠٠ دينارذهبي
دمشق	٤٢٠ ٠٠٠ دينارذهبي
الاردن	٠٩٦ ٠٠٠ دينارذهبي
فلسطين	٣٢٠ ٠٠٠ دينارذهبي
مصر(عداتينس ودمياط والاشمونين)	٢ ٩٢٠ ٠٠٠ دينارذهبي (هي في الأصل ١ر٩ مليون) ٠
اليمن	٨٧٠ ٠٠٠ دينارذهبي
الحجـــاز	٣٠٠ ٠٠٠ دينارذهبي
برقـــة	١ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم
افريقيـــة	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم

وإذا عرفنا أن سعر الدينار في ذلك الوقت هو ٢٢ درهماً (أو ١٥ درهماً كما يرجح بعض الباحثين) كان مجموع الخراج السنوي :

من الدراهم ٤٠٤ ٧٨٠ ٠٠٠

(عن الدنانير بسعر٢٢ درهما للدينار) ١٢٥ ٥٣٢ ٠٠٠ (أو ٨٥،٥٩٠٠٠٠ درهم بسعر ١٥)

فمجموع خراج الدولة إذن في عصر الرشيد هو بين : ٥٣٠ ٣١٢ ٠٠٠درهم أو ٤٩٠٣٧٠٠٠٠درهم

هذا دون حساب اثمان الأمتعة والعروض وفيها الحلل النجرانية والسكر والزبيب وماء الورد والعسل والتمر والفيلة والثياب والقرنفل والبخور والفضة والبراذين والرمان والشمع والعسل والرقيق والبزاة والبغال . وبعضها بأرقام كبيرة فمن زبيب الشام ٣٠٠ ألف رطل ومن عسل همذان ٢٠ ألف رطل ومثل ذلك من الموصل . ومن رمان قومس ٤٠ ألف رمانة ومن ثياب خراسان ٢٧ ألف ثوب ومن ماء الورد في فارس ٣٠ ألف قارورة ومن سفرجلها والرمان ٢٥٠ ألفاً ! وهذه البضائع في مجموعها لا تشكل رقماً هاماً وقد لا تزيد في الثمن عن ١٠ الى ٢٠ مليون درهم ويمكن اعتبارها نوعاً من هدايا الأقاليم ، فرضت عليها ليشارك الحاكم في معرفة انتاج ذلك الاقليم عن قُرب .

ويمكن أن نضيف على هذه القائمة بعض الملاحظات :

١ ـ أن الخراج كان يقدر ويدفع بنوعي العملة المعروفين :الدرهم والدينار تبعاً لمنطقتي التعامل الفضي (في المشرق) والذهبي (في الشام ومصر واليمن) في الدولة العباسية لأن الدولة كانت ثنائية المعدن ونظامها النقدي مزدوج . والدرهم وزن من الفضة يعادل ٧/١٠ من وزن الدينار

أي يعادل قرابة ٣ غرامات (بالضبط ٢ر٩٧٥غ) ويقسم الدرهم الى ستة دوانق ويقسم الدائق الى قيراطين • والقيراط الى طسوجين والطسوج الى حبتين والحبة إلى فلسين • والفلس أصغر وحدات النقد •

وأما الدينار — فهو وزن من الذهب يسمى مثقالا ويعادل ٤ر٢٥غراماً ويقسم بدوره إلى ستة دوانق ذهبية كما انه يساوي ٧٢ حبة (وزن حبة الذهب ٠٥٩ر٠ غرام) والدانق الذهبي ١٢ حبة •

ولعلنا نستطيع أن نعرف قيمة هذه النقود الشرائية إذا ذكرنا أن الكبش في أواخر عهد المنصور كان بدرهم وأن الزيت ستة عشر رطلا بدرهم والسمن بضعف ثمن الزيت والتمر ستون رطلا بدرهم • ولعلنا نستطيع أن نعرف السوية المعاشية إذا عرفنا مثلا أن أجر الأستاذ من البنائين الذين عملوا حسب رواية الطبري في بناء بغداد كانت قيراطاً في اليوم وأن أجر الروزكاري (أي الفاعل العادي) كان بين الحبتين الى ثلاث حبات[1] وذكر ان المنصور استكثر أن يدفع أجر يوم وبعض اليوم لرئيس البنائين خمسة دراهم يدخل فيها ثمن الآجر والجص الذي استعمله في بناء طاق شبيه بالبيت فما زال ينقصه حتى أعطاه أربعة !

٢ — أن قائمة الجهشياري للخراج لا تمثل بالطبع موارد الدولة العباسية كافة • فإذا كانت كلمة خراج تعني بصورة أساسية الضريبة

---

(١) الطبري ج ٧ ص ٦٥٥ (٣٢٧/٣) ويذكر الخطيب البغدادي الخبر ذاته بشكل مماثل ويقول (ج١ ص ٧٠) إن الأستاذ من الصناع كان يعمل يومه بقيراط إلى خمس حبات والروزجاري يعمل بحبتين الى ثلاث حبات ...» ويقول الطبري في خبر عن عيسى بن المنصور انه وجد في أوراق ابيه أن مبلغ ما انفق على بناء بغداد وجامعها و قصر الذهب والاسواق والفصلان والخنادق وقبابها وابوابها (٤ر٨٣٣٠٠٠) درهم ومبلغها من الفلوس مليار و ٢٣ الف فلس !

على الأرض الباقية في أيدي أصحابهـا الأولين ، وكانت كلمـة جزية (وهي في الأصـل ضريبـة الرؤوس أو خراج الرؤوس وتسمى أحياناً الجوالي) تدخل أحيانـاً كثيرة ضمن مصطلح الخراج لـدى الفقهاء وكتاب الدواوين وكانت ضريبتها مندمجة في الغالب معهـا فهناك عدا ذلك أموال الأعشار وهي تحمل معنيين : وتشمل عشر الأراضـي التي كانت في الأصل للعرب المسلمين أو أعطيت لهم عنـد الفتح كما تعني عشور التجارة التي تجبى في الموانىء وفي مداخـل المدن على البضائع التجارية • وإذا كانت هذه الأعشار تدخل بدورها أحياناً ضمن اصطلاح الخراج الواسع فإن هناك إلى هذا وذاك : أموال الصدقات (الزكاة) التي حدد الشرع نسبتها ومصرفها • وهناك أخماس الغنائم (من الأسرى ، والسبي والارضين والأموال والعقارات) وهناك الفيء (مـن الأرض والعقار الذي يتركه العدو بسبب الفتح) وهناك المستغلات أي ما تدره (الصـوافي) أملاك الدولة التي تؤجر للمستغلين وهناك الهدايـا السنوية كهدايا النوروز وهناك موارد الركـاز والمعـادن الخبيئـة المستخرجة والمواريث كما أن هناك أخيراً ما تدفعه بعض الدول المجاورة (من الهند • والترك والخزر ومن الروم أيضاً) من أتاوات وجزية سنوية للدولة • وإن كانت هذه الموارد الأخيرة إنما تكثر وتقل أو تنقطع حسب مشاكل الدولة على الحدود وحسب قوتها فإنها كانت موجودة في عصر الرشيد والأمين[1] •

---

(١) روي الطبري ان الناس غزوا في زمن محمد الأمين على ان يرد عليهم الخمس فرد عليهم فأصاب الرجل ستة دنانير (٨ ص ٥٢٤) فإذا كان عدد المقاتلين خمسين الفاً فمبلغ القيمة مليون ونصف مليون دينار في غزوة واحـدة .

٣ ــ يلاحظ في القائمة ذلك الارتفاع الكبير في رقم خراج السواد: إنه يكاد يعدل وحده خمس خراج الدولة كلها . ولا شك أن السبب في ذلك يعود إلى عدد من العوامل :

الأول : توفر الاسباب الكافية لاستغلال الأرض وإحياء مواتها سواء من حيث المال الذي كان ينصب من أنحاء الدولة على العراق ويغني أهله بعد أن أصبح مركز الخلافة أو من حيث الايدي العاملة من الفلاحة والزراعة إذ توسع الاقطاعيون في استخدام الآلاف المؤلفة من الزنج في العمل الزراعي ... كالآلات المملوكة ، لا سيما بعد أن هرب الفلاحون (النبط) من معظمها وتجمعوا في المدن .

الثاني : توسع النشاط التجاري بشكل لم يعرفه تاريخ المنطقة من قبل حتى أضحت طريق العالم وأصبحت البصرة كما يقولون «مشرعة الدنيا» وهذا ما زاد في الثروات بشكل واضح كما زاد في استثمارها وفي مردودها الانتاجي .

الثالث : تكاثر السكان في العراق فقد اجتذبت الخلافة واستقطبت بغداد والبصرة والكوفة رجال الدنيا في الفكر والادارة والأدب والعمل والتجارة والقيادة مما جعل الحياة الاقتصادية تبلغ حدها الاقصى في النشاط .

الرابع : ولا يقل عن غيره من العوامل شأنا هو عناية الخلفاء بأعمال الري في السواد . لقد ذكر أبو يوسف ضرورة سهر السلطان على صيانة السدود وسد البثوق . ولم يكن خلفاء بغداد بعيدين عن تبني هذه السياسة لما يلمسون من آثارها المباشرة في ثروة الدولة والخراج . وقد عمل المنصور على تنظيم جداول الري والترع في السواد من مياه الفرات ودجلة ومد قناة دجيل (من مياه دجلة) كما فتح

قناة أخرى من كرخايا الذي يأخذ ماءه من الفرات ووصلهما بمدينة بغداد في عقود محكمة من حجر الكلس والآجر • فكان ماء كل قناة منها يدخل المدينة وينفذ في الشوارع والدروب والارباض ولا ينقطع صيفاً ولا شتاء • وأنفق المهدي بدوره اموالا طائلة في حفر نهر الصلة قرب البصرة • وحفر الرشيد عدداً من الأنهار في العراق منها نهر القاطول ونهر أبي الجيل وأنفق عليه عشرين مليون درهم •••

٤ ــ يكشف رقم القائمة بصورة خاصة مدى ثروة الأرض الزراعية في الدولة ومقدار انتاجها كما يعبر عن قوة أجهزة الجباية ومدى ارتباطها بالسلطة المركزية ومدى سيطرة هذه السلطة عليها • ولعل بالإمكان على أساس أرقام القائمة تكوين فكرة تقديرية عن عدد السكان في ذلك العهد • في كل اقليم تجعل مجموعهم لا يزيد عن ٣٥ إلى ٤٠ مليون نسمة[١] •

٥ ــ يمكن تقدير الدخل العام لمجموعة الشعوب الداخلة فيإطار الدولة العباسية بمبلغ لا يقل من الزراعة وحدها عن ضعف مواردالدولة من الخراج أ يبحوالي ألف مليون درهم باعتبار أن نظام المقاسمة كان يعطي السلطات نصف الانتاج الزراعي وإذا كان ثمة أراض تدفع أقل من ذلك فهناك عمليات التهرب من الخراج وهناك ما يختلسه العمال الجباة فيما بين اخذ الضريبة من المكلف وما بين إيصالها إلى الخزانة المركزية ••• ولعلنا نستطيع أن نضيف الى مبلغ الألف مليون درهم

(١) هذا الرقم تقديري على اي حال وقد يكون فيه الكثير من الخطأ ولكنه نتيجة حساب معقد ادخلنا فيه عدداً من العوامل المتعلقة بعدد المكلفين وعدد العائلات الوسطى ومقدار النفقة اليومية ونسبة الضريبة إليها وأجر العامل اليومي وغير ذلك .

مقدار نصفها أيضاً لمقابلة الدخل العام في التجارة وفي الأعمال الصناعية والحرفية والتعدينية .

٦ ــ ذكر آدم متز أن الأسرة العادية في عهد الرشيد كان في مكنتها أن تعيش في دخل لايتجاوز ٣٠٠ درهم في السنة . وأن الأسرة التي كان دخلها نحواً من ٧٠٠ دينار في السنة كانت تعتبر أسرة ثرية اقرب إلى الطبقة الممتازة منها الى الوسطى وإذا صح الرقمان فإنهما قد يدلان على مستوى المعيشة الذي استطاع الخلفاء العباسيون تأمينه للرعية ذلك العصر .

هـ ــ بدء الانهيار المالي : غير أن هذه القمة في جباية الخراج ومركزيته وانصبابه في بغداد والعراق لم تدم طويلا : وقد عاد الخط البياني للجباية فانحسر بعد عهد الرشيد مباشرة كما أن مركزيته بدورها قد ضعفت باضطراب الولايات وبظهور الولاة المسيطرين في الأقاليم الذين ما لبثوا أن انقطعوا في ولاياتهم مقابل مبلغ مقطوع يؤدونه سنويا لخزانة الخلافة .

وقد بدأ هذا كله أيام فتنة الأمين والمأمون .

وأول ما كان من الأمر ذهاب المأمون بخراج خراسان والكور التي أضيفت إليها وهو اكثر من أربعين مليون درهم ثم تبارى الأخوان في تألف قلوب الناس بالانفاق في التجهز للحرب . وبينما أمر الأمين للجند يوم خلافته برزق أربعة وعشرين شهراً أعطى المأمون للجند رزق اثني عشر شهراً عدا ما أعطي للناس من المال وخفض خراج خراسان بمقدار الربع . وحين سير الأمين جيشه بقيادة على بن عيسى بن ماهان ضد أخيه أمر له من صلب ماله بثلاثة ملايين درهم وحين انتصر المأمون جعل لوزيره الفضل بن سهل عمالة ثلاثة آلاف ألف درهم أيضاً ! ...

ثم انخفضت الموارد لدى الأخوين على السواء فبينما : «تفرق ماكان في يد (الأمين) من الأموال» لا سيما مع اسرافه الذي بلغ حد انفاق ثلاثة ملايين درهم في بناء حراقة بنهر دجلة وقل مالـــه حتى انه عند حصار بغداد «••• أمر ببيع كل ما في الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم» لينفق منها على «أصحابه وفي نفقاتـــه ــ كما يقول الطبري ــ» نجد بالمقابل أن جيش المأمون الحاصر لبغـــداد وصل الى الحالة نفسها ولم يبق بيد قائـــده طاهـــر بن الحسين مال للجند «فضاق به أمره ••• ووثب الجند به مطالبين بالأرزاق فأحرقـــوا بابي الأنبار والبستان وشهروا السلاح ••» حتى «أقرضه رجـــل من بغداد عشرين ألف دينار فأمر طاهر للجند برزق أربعة أشهر فرضوا •••» • صحيح أن المأمون أعطي من جاءه برأس الأمين ألف ألف درهم ولكنه حين جاء بغداد سنة ٢٠٤ لم يكن معه إلا خمسون ألف درهم ![١] على أن بغداد نفسها كانت قد دمرت وخربت أحياؤها وانقطع ذلك السيل من الذهب الذي كان يردها من افريقيا ومصر والشـــام واليمن والجزيرة بسبب انقطاع هذه الأقاليم وثوراتها المحلية فلم يعد بعد ذلك قط وإلا في جانب منه •••

وقد بلغ من فقر الخلافة ببغداد أن هذا البلد حين بايع ابراهيم بن المهدي لهذا المنصب مطلع سنة ٢٠٢ لم يجد الخليفة الجديد في خزانته ما وعد به الجند من أرزاق ستة أشهر فشغبوا عليه فأعطى كل رجل منهم مائتي درهم وكانوا حوالي مائة ألف أو أكثر قليلا فلما نفد المال حول

---

(١) انظر في هذه الاخبـــار كلهـــا الطبري ج ٨ ص ٤٤٦ (٣/٨٦٩) وص ٤٩٦ (٣/٩٣٤) ص ٤٨٨ (٣/٩٢٥) وص ٥٧٥ (٣/١٠٣٨)

بعضهم على السواد لأخذ قيمة ماله حنطة وشعيراً فخرجوا في قبض ذلك ولم يمروا بشيء إلا انتهبوه ! [1] .

أما أشد ما أصاب النظام الاداري المالي فهو إحراق الدواوين [2] وسجلاتها خلال الفتنة سنة ١٩٧ فإن ذلك مع فتن الأقاليم قد شل الآلة المالية العباسية تمام الشلل . فلم تعاود هذه الآلة عملها إلا حين وصل المأمون بغداد وبدأ تنظيم أمر الخراج من جديد سنة ٢٠٤ «وهي ـ كما قال قدامة بن جعفر ـ الكاتب المعاصر ـ أول سنة يوجد حسابها بالدواوين» .

أراد المأمون أن يتألف قلوب أهل السواد الذين حل بين أظهرهم فأمر في سنة ٢٠٤ نفسها «بمقاسمة أهل السواد على الخمسين وكانوا يقاسمون على النصف» [3] وكان وهو في الطريق الى بغداد سنة ٢٠٣ قد أسقط عن أهل الري ألفي ألف درهم من الوظيفة [4] (الخراج السنوي) واتخذ القفيز الملجم (وهو عشر مكاكيك) كيلا مرسلا لأنه على مايبدو أصغر من القفيز الهاشمي الذي كان أمر به المنصور في الكيل الخراجي .

غير أن هذه السياسة المأمونية كانت تتصل بأقطار معينة وبظروف معينة أيضاً لأن نجد بالمقابل أن المأمون حين توطدت خلافته عاد الى السيرة القديمة والى التشدد في جباية الخراج ولدينا من ذلك مثال : أهل قم من بلاد الجبل الذين «استكثروا ما عليهم من الخراج» وكان

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٥٧ (٣/١٠١٦)

(٢) قدامه بن جعفر ـ نبذة من كتاب الخراج (نشر دي غوية ـ ليدن سنة ١٨٨٩) ص ٢٣٧ وقد صحح الناشر تاريخ الاحراق من سنة ١٨٣ إلى سنة ١٩٧

(٣) الطبري ج ٨ ص ٥٧٦ (٣/١٠٣٩)

(٤) المصدر نفسه ص ٥٦٨ (٣/١٠٣٠)

خراجهم ألفي ألف درهم فأرادوا المأمون أن يخفف عنهم كما خفف عن أهل الري ... فلم يجبهم إلى ماسألوا فامتنعوا من أداء الخراج سنة ٢١٠ فوجه إليهم المأمون جيوشاً فحاربهم «وهدم سورقم وجباها سبعة آلاف ألف درهم بعد أن كانوا يتظلمون منه ألفي ألف درهم»[١] .

والمثال الآخر في مصر : فإن هذا البلد استمر على سيرته في الثورة على الظلم الخراجي التي عرفها في عصر المهدي والرشيد . فقد ثار سنة ٢١٤ على ظلم والي الخراج صالح بن شيرازاد . (نائب أبي اسحق شقيق المأمون وهو المعتصم) الذي ظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم وقد هزموا عدداً من الجيوش وقتلوا بعض القواد حتى جاء أبو اسحق بنفسه من بغداد فحاربهم وأسر بعض وجوههم فرحل بها الى العراق..[٢] ولكن «أسفل الأرض ـ كما قال المقريزي ـ (أي الدلتا) انتقض بأسره : عرب البلاد وقبطها سنة ٢١٦ وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم..»[٣] وبالرغم من أن الافشين عاد من برقة فأوقع مع الوالي عيسى بن منصور الرافقي بالثائرين إلا إن المأمون لم يجد مناصاً من زيارة مصر بنفسه فلما لمس الظلم الخراجي أمر بحل لواء عيسى الرافقي الوالي وقال : لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد ...» ...

ولكن هذا كله لم يمنع من إخماد الثورة نفسها وتنظيم الخراج

(١) الطبري ج ٨ ص ٦١٤ (٣/١٠٩٢ ـ ١٠٩٣)
(٢) المقريزي ـ الخطط ج ١ ص ٨١ و ص ٣١١
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٨١

تنظيماً واسعاً ــ على ما يظهر ــ زادت به مقاديره أيـام المأمون حوالي ٥٠٪ عما كانت عليه زمن الرشيد فإن المقريزي يذكر : أن خراج مصر «بلغ في أيام المأمون على حكم الانصاف في الجباية أربعة آلاف آلاف دينار ومائتي الف وسبعمة وخمسين ألف دينار» بمعدل دينارين عن كل فـدان[1] .

وبرغم هذه السياسة المالية المتشددة فإن مبلغ الخراج العام قد نقص على ما يظهر فإنا نجد مثلا أن السند التي كانت تعطي الدولةقرابة ١٢ مليون درهم في السنة تولاها سنة ٢٠٥ داوود بن يزيد المهلبي على أن يعطي كل سنة ألف ألف درهم فقط ثم عصى وخالف ولم يحمل إلى المأمون شيئاً من الخراج . كما أن الفتن في مصر وفي اليمن وفي الجزيرة وفي الشام وانقطاع المغرب على أيدي الأدارسة وافريقيـة على أيدي الأغالبة انقطاعاً تاماً كان من شأنـه دون شـك أن ينزل بالموارد المالية للدولة نزولا كبيراً . في الوقت الذي لم يكن فيه المأمون بأقل اسرافاً في الانفاق من أبيه وأخيه . كانت نفقاته اليومية في القصر ــ ستة آلاف دينار ــ كما يروي ابن الطقطقي[2] فيكون في السنة ٠٠٠ ٢١٦٠ دينار أي اكثر من ٤٧٫٥ مليون درهم . وقصة عرس بوران مشهورة بما كان فيه من بنادق المسك والرقاع بالضياع والعقار والبدر بعشرات ألوف الدنانير وشموع العنبر والحصير المنسوج بالذهب وحصى الياقوت . وبالرغم من أن المأمون في سنواته الأخيرة قد واجه إفلاس الخزانة فإنه ظل على الاسراف يروون أن المأمون حين كان في دمشق «كان قد قل

---

(١) المقريزي الخطط ج ١ ص ٨١ وص ٩٩ وانظر كذلك الكندي ــ الولاة والقضاة ص ١٨٥

(٢) ابن الطقطقي ــ الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠٧

المال عنده حتى ضاق» «وكان أمر في يوم واحد لثلاثة نفر بألف ألف وخمس مائة الف دينار . فجمع أصحابه وقال : ... استقرضوا لنا من التجار عشرة آلاف ألف درهم ...» ورفض ما قدمه له رجال الحاشية[1] وشكا قلة المال الى أخيه أبي اسحق (المعتصم) فقال له : يا أمير المؤمنين كأنك بالمال قد وافاك بعد جمعه ... وكان حمل إليه ثلاثون ألف ألف من خراج ما يتولاه له ... فلما ورد عليه ذلك المال». خرج المأمون وأصحابه حتى أصحروا ووقفوا ينظرونه «وقد حليت أباعره وألبست الاحلاس الموشاة والجلال المصبغة وقلدت العهن وجعلت البدر بالحرير الصيني الأحمر والأخضر والأصفر وأبديت رؤوسها ..» فقال المأمون لقاضيه المرافق له : ينصرف اصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة خائبين إلى منازلهم وننصرف بهذه الأموال قد ملكناها دونهم ؟ إنا إذن للئام» ثم دعا (المأمون) بكاتبه فقال وقع لآل فلان بألف ألف ولآل فلان بمثلها ولآل فلان بمثلها ... قال راوي الرواية : فوالله إن زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب ثم قال : ادفع الباقي إلى المعلى (قائده) يعطي جندنا ! ...[2]

ويبدو أن المأمون كان يشتري رضى الناس بالمال وقد عبر عن ذلك في الشام نفسه في تلك الفترة إذ تعرض له رجل من أهل الشام يقول: يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان فقال : اكثرت علي يا أخا أهل الشام والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد[3] ...

---

(١) اليعقوبي مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٩

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٧ والطبري ج٨ ص ٦٥٢ — ٣ (٢١١٤٣/٣) (١١٤٤).

(٣) الطبري ج ٨ ص ٦٥٢ (١١٤٢/٣)

على أن هذه السياسةوإن سمحت للمأمون بالوصول إلى الخلافة والاستقرار فيها إلا إن عهده من الوجهة المالية كان عصر خسران مالي متماد وإذا دفعت الدولة غالياً ثمن وصوله إلى الخلافة فقد كلفها المأمون غالياً فيما بعد في محاولاته جمع القلوب حوله . والوجه الآخر للقضية لا يعني أن المال قد توفر لجماهير الناس وبقي لهم ولكن يعني أن أموال الخراج لم تعد تجبى من الآفاق تصب كلها في خزانة مركزية واحدة . بل تفرقت في معظمها على خزائن المتسلطين الذين ظهـروا في الأقاليم المختلفة وكان هذا ، في الواقع بـدء الانفصال والتفكك السياسي في الدولـة .

ولعل فقر الخزينة زاد أيضاً مع كثـرة الحروب ضـد الروم في السنوات الأخيرة من عهد المأمون مما دعا إلى اتخاذ بعض الاجراءات المالية التعسفية سنة ٢١٧ ومن بينها مثلا جباية ضريبة الخراج كلها يوم الاستحقاق (الاستفتاح) .وقد كانت تجبى من قبل على هون خلال السنة. وقد احتج على ذلك أهل الموصل وخرجوا إلى لقـاء المأمون بالرقـة وقالوا : إنهم شرطوا للرشيد أن يؤدوا «خراج سنة في سنة» واستخرج الشرط فلما وجد المأمون صحة ذلك قبله منهم[1] ... ولكن هل كان لدى الأقاليم الأخرى مثل هذا الشرط ؟

ولعل من تلك الإجراءات أيضاً ما أمر بالقيام به في الشام حين وصل دمشق سنة ٢١٦ من «تعديل» الأراضي أي إعادة مساحتها وإعادة فرض ضرائب الخراج عليها وبالرغم من أن مشكلة الأرض الخراجية وظلم ضرائبها والتعسف

---

(١) ابن عساكر – تاريخ دمشق (التهذيب) ج ٤ ص ١٠٧ – ١٠٨ وابن عساكر يخطىء في تاريخ وصول المأمون الى دمشق فيجعله سنة ٢١٤ والصحيح أنه كان سنة ٢١٦ لأن المأمون غادر بغداد سنة ٢١٥ .

في جمعها كانت بين الأسباب الأساسية في ثورات الشام إلا إن المأمون لم يقصد إلى ذلك بقدر ما قصد إلى ايجاد موارد أخصب للخزانة . وهكذا استقدم أولا بعض رؤساء أهل الجزيرة والموصل والرقة فقدم جماعة من بينهم حرب بن محمد بن علي الموصلي الطائي وسفيان بن عبد الملك الخولاني ولكنهم استعفوه فاجتلب لتعديل الشام مساحي العراق والاهواز وأقام بدمشق تلك السنة حتى أقر التعديل قبل أن يمضي الى مصر .

ولعل من الاجراءات المتأخرة التي تمت أيضاً فيما بعد ، في عهد المتوكل أو بعده بقليل أن الخلافة جعلت الأساس في دفع الخراج الذهب بدل الفضة . أي أنها حسب الدراسة التي نشرها المستشرق كريمر «استخدمت عوضاً عن الأساس الفضي أساساً ذهبياً في القرن التاسع . وبعد أن كانت الضرائب (من خراج وجزية وعشر ومكس ... الخ) تحصل من الأقاليم الشرقية بالدراهم الفضية (باعتبار أن الدولة ثنائية المعدن) تحول الحساب بالدينار الذهبي . ولم يحل الدرهم محل الدينار (مرة أخرى) إلا بعد ذلك ..»[1] ولهذا معناه الواضح فإن سعر الصرف الذي كان في مطلع العصر العباسي بحوالي ١٢ درهماً لكل دينار وصار في عهد الرشيد ١٥ درهماً للدينار صار في أواخر القرن الثالث ومطلع الرابع ٢٢ درهماً وهذا ما جعل نسبة خراج الدولة في المناطق الفضية (الشرقية) الدافعة بالدرهم يصبح قرابة النصف في القيمة بالنسبة للمناطق الذهبية (الغربية) الدافعة بالدينار ... وهذا وجه من وجوه زيادة الخراج على الناس ... وهم لا يشعرون !

وإذا كان الاضطراب المالي هو في العادة من النذر والاسباب الأولى في القلق السياسي لكل نظام حكم فقد عبر هذا الاضطراب عن نفسه وكشف عن نتائجه في عصر المعتصم ومن بعده . .

(١) فازيليف ـ العرب والروم ص ١٨

٣ ـ المؤسسة العسكرية العباسية (الجيش)

يلاحظ المستشرق غرونباوم أن الحضارة الاسلامية ــ رغم الطابع العسكري للدولة ــ كانت حضارة مدنية • والنماذج الانسانيــة التي اجتذبت معظم طاقة الاسلام الخلاقة لم تكن نماذج عسكريــة ولكن نماذج العالم والأديب والتاجر وكان المدني فيها يتقدم دوماً على الجندي في تركيب الطبقات الاجتماعي • ورغم تولي الجند ــ كطائفة ــ حكم الدولة وظيفة مدنية • والخليفة أو الأمير ليس بقائــد عسكري إلا عند الملمات •••[1] وصواب الملاحظة لا يعني أن الجهاد وعملية الدفاع والنماذج العسكرية الرائعة لم تكن في أركان الحضــارة الاسلامية وفي أساس تكوينها أو أن المؤسسة العسكرية ليست في الدور الحضاري بمنزلة المؤسسات الأخرى •

وإذا تجاوزنا أيام الفتوح والأيام الأموية فإن أساس قيــام دولة بني العباس يعود إلى نجاح هذه الاسرة في تكوين جماعة عسكرية لها وتحمل مع المبادىء الأسرة نفسها إلى العرش • لقد جاءت الى الحكم ومعها قوتها العسكرية الجاهزة المعتمدة على إقليم واســع غني الموارد كثير السكان أعمى الولاء •

وقد كان الجيش العربي ، منذ العهد الأموي قد باعدت المسافات الجغرافية من جهة والزمانية من جهة أخرى بينه وبين قبائله ودخلت عليه لأساليب في القتال جديدة فقط ولكن كذلك عناصر مقاتلــة جديدة من أبناء البلاد المفتوحة (بربــر • ايرانيين) ومصالح جديدة • وجاءت

---

(١) انظر غرونباوم : حضارة الاسلام (ترجمة عبد العزيز جاويد ــ القاهرة الألف كتاب) ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥

الحركة العباسية فاختارت خراسان ، وأهل خراسان جنداً لهـا فكان نجاحها كافياً لتحويل هذه المنطقة إلـى خزان عسكري استمر يعطي الدولة العباسية قرابة القرن حاجتها الأساسية من الجنـد • كان «أهل خراسان» منذ قيام الدولة على الأقل حتى نجاح المأمـون في دخول بغداد هم المصطلح الذي يعني العمود الفقري للجيش العباسي والقوة العسكرية والسياسية لبني العباس •

ومع ذلـك فإن العباسيين اضطروا ، منذ الأيـام الأولى لتوطيد الحكم وإخماد الثورات الى الاعتماد على جماعات عسكرية أخرى • جندوها لقضيتهم من العرب • وهكذا بدأت الدولة العباسـية ولديها جيشان :

الأول ــ جيش جغرافي الولاء جديد التكوين حققت بـه الثورة ومع أن الكثرة الواضحة فيه كانت في البدء وفي أيام الثورة • عربية إلا إن اسمه كان «خراسانياً» ، وتكوينه كان يزداد يوماً بعد يوم اصطباغاً بالصبغة الايرانية سواء في العدد أو في الولاء • وكان هذا هو الجيش النظامي الوحيد ، والدائم ، والمركزي والمحترف وله الديوان والرواتب• ويتبع هذا الجيش مجموعات من المرتزقة • أو من المطوعة للجهاد من كل جنس •

الثاني ــ جيش قبلي عربي تقليدي التحق بالأول فيما بعد أعداده كبيرة ولكنه كان استمراراً للجيوش الأموية العربيـة التي كانت تقوم بالفتوح وبالحروب عند الحاجة ؛ ولها الأعطيات التقليدية وحصصها من الغنائم وتقودها الارستقراطية العربية ذات الاصل البدوي والمستقرة في الأمصـار •

على أننا لو انتقلنا مرة واحدة إلى نهايـة العصر العباسي الأول

لوجدنا الأمر مختلفاً جداً • فقد كان هناك جيش من خمس فرق •وقد جاء في كلمة للجاحظ كتبها في عهد المعتصم : «إن جند الخلافة اليوم على خمسة أقسام : خراساني وتركي ومولى وعربي وبنوي ••»[١]وفي حديث بين المازيار والأفشين أثناء المقابلة التي جرت لهما أمام المتوكل وهما في أسره سنة ٢٢٥ يقول المازيار إن شقيق الأفشين كتب لهم يحثهم على الثورة قائلا ان خالفت لم يكن للقوم من يرمونـــك به غيري (أي الجيش الخراساني) ومعي الفرسان وأهــل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثــة : العرب والمغاربــة (جيش مصر) والأتراك[٢] ••• وهذا وذاك يعنيان أن تحولات جذرية وخطيرة أصابت المؤسسة العسكرية العباسية ما بين عهد أبي العباس سنة ١٣٢ وعهــد المتوكل بعد قرن منه سنة ٢٣٢ ــ ٢٤٧ والخطــوط الأساســية لهذه التحولات نجملها في النقاط التالية :

١ ــ في تكوين الجيش :

تطور تكوين الجيش خلال العصر العباسي الأول ماراً بثلاثة أطوار: كان قبلياً في كتلته الكبرى أول الأمر ثم تحول لتصبح كتلته العامة من المرتزقة ومحترفي الجندية ثم انتهى بأن أصبحت الكتلة المسيطرة فيه ، في خاتمة الفترة . من المماليك وانا لنلاحظ ذلك من خلال سيرة مختلف الفرق المكونة للجيش :

الخراسانيــة :

الخراسانية : الواقع أن الأسرة العباسية وصلت العراق وأعلنت

---

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٠٩ (٣/١٣١١ ــ ١٣١٢)

(١) رسائل الجاحظ (دار النهضة بيروت) ص ٢١ (في رسالة مناقب الترك وعامة جند الخلافة) .

خلافتها على أكتاف الجيش الخراساني كان قوتها الضاربة الصلبة ، وكان جيشاً مختلط التكوين ، العناصر العربية فيه هي الغالبة ولكنه كان يحوي عناصر ايرانية كثيرة ، وما لبث هذا الجيش بسبب انتصاراته من جهة وحاجة الدولة الناشئة إليه من جهة أخرى وبسبب ولاء قياداته للأسرة الجديدة من جهة ثالثة أن أصبح جيشاً دائماً ، ولما كانت إقامة الأسرة في العراق فقد أضحى هو الجيش المركزي حولها ، ولم تمض فترة من الوقت حتى اضطر الخلفاء الأوائل لتنظيم هذا الجيش : جعلوا له الديوان ، وأجروا عليه الرواتب المنظمة أي تحول الى جيش نظامي مرتزق ، وقد حافظ ابو العباس ثم المنصور والمهدي على وحدة هذا الجيش ، ككتلة عسكرية جغرافية واحدة ، فإنه منذ مطالع تكوينه لم يسجل على الاساس القبلي ولكن على أساس المدن والقرى الخراسانية ، حتى قواده كانوا يحملون في ذيل نسبهم العربي النسبة الجغرافية واسم البلد الذي ينتمون إليه من مروزي . وكرماني . وبلخي . وطوسي ،

وتفكيك الرابطة القبلية فيما بين أفراد هذه المجموعة المحاربة كان إقراراً بأمر واقع هو أن هذه الجماعة العربية قد اصطبغت . مع الاقامة الطويلة . في خراسان بالصبغة الايرانية وتوطنت واتخذت الزوجات والتقاليد الفارسية والولاء للأرض . فعودتها الى العراق كانت غربة أخرى ، وقد استفاد العباسيون من ذلك التفكك القبلي ومن هذه الغربة معاً فربطوا ولاء هذه الجماعة ربطا كاملا بهم فكان الخراسانية كما قال ابن المقفع في وصفهم «جنداً لم يدرك مثلهم في الأسلام .... أهل بصر بالطاعة ، وفضل عند الناس ، وكف عن الفساد وذل للولاة فهذا حال لانعلمها توجد عند أحد غيرهم ...»[1] .

---

(١) انظر ابن المقفع رسالة الصحابة (في رسائل البلغاء لمحمد كردعلي ـ طبعة البابي سنة ١٩١٣) ص ١٢١

ونستشف من خلال رسالة الصحابة لابن المقفع أن تنظيــم هذه الجماعة وتحويلها الى جيش مركزي محترف دائم مر ببعض المراحل وأنه تم بعد سنة ١٤٠ ــ ١٤٣ كما نستخلص منها ، بعض أحوال الخراسانية في عهدهم الأول ومنها ، أن الخلفاء استخدموا بعضهم في جباية الخراج وأن الكثير من قادتهم لم يكونوا من الأكفياء ولكن ارتباطهم بالدعوة هو الذي رفعهم وأن أرزاقهم لم تكن منظمة المواعيد ولا كان لهم ديوان منظم فكانوا يشتكون • وكانوا جهالاً أو محدودي الثقافــة والعلم بالدين مسرفين الاسراف الواسع بسبب كثرة ما تغدقة عليهم الدولة • ولعل ما هو أهم من هذا وذاك أنهم كانوا يناقشــون مشكلة الولاء والطاعة أو أن بعضهم على الأقل كان يناقشها ويتساءل : عن المدى الذي يجب أن يقف عنده في طاعة بني العباس ؟ والسبب هو «أن في ذلك القوم أخلاطاً من رأس مفرط غالٍ ، وتابع متحير شاك» فلا مبدأ يجمعهم وولاؤهم معرض للاهتزاز وفيهم من يقول أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق • ومن يقول إن الله جعل ما سوى ذلك من الأمر والتدبير الــى الرأي وجعل الرأي الى ولاة الأمر وليس للناس في ذلك الأمر شيء ! فكأن العباسيين كانوا ، في نوع من الدعاية المنظمة ضمن هــذه المجموعة العسكرية ، يعملون على تلقينها ضرورة الطاعة الكاملة على أساس ديني ومنطقي •• وقد نصح ابن المقفع للمنصور في أمرهم : [١] بأمور :

أول ما نصح به ضرورة إيجاد «عقيدة» معينة ثابتة تجمع أفكار

---

(١) في النصوص التالية انظر ابن المقفع ــ رسالة الصحابة (المصدر السابق) ص ١٢١ ــ ١٢٤ (وانظر كتاب أبي حلقة عن ابن المقفع ص ١٥٤ ــ ١٦٣) •

الجماعة الخراسانية ، فإن فيها بلبلة في الرأي قد يضيع معها الولاء العباسي .

«.. ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه والراكب أشد وجلاً . فلو أن أمير المؤمنين كتب أماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء يجب أن يعملوا فيه ويكفوا عنه ، يحفظه رؤساؤهم حتى يقودوا به دهماءهم لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحاً ، فإن كثرة المتكلمين من قواد أمير المؤمنين إنما عامة كلامهم فيما يأمره الآمر ويزعم الزاعم ..» .

وينصحه «... لصلاح هذا الجند ألا يولى أحداً منهم شيئاً من الخراج فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة لأنهم ... إذا كانوا جلاباً للدراهم والدنانير اجترأوا عليها وإذا وقعوا في الخيانة صار أمرهم مدخولاً : نصيحتهم وطاعتهم ، فإن حيل بينهم وبين (ذلك) أخرجتهم الحمية ... مع أن ولاية الخراج داعية الى ذلة وحقرية وهوان وإنما المقاتل منزله الكرامة واللطف ..» .

ـ تقدير الأكفياء «أن منهم من المجهولين من هو أفضل من بعض قادتهم فلو التمسوا واصطنعوا كانوا عدة وقوة وكان صلاحاً لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة» .

ـ تثقيفهم : «... ومن ذلك تعهد أدبهم في تعلم الكتاب والسنة والأمانة والعصمة وأن يظهر فيهم القصد والتواضع ... حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظور عمن يكتنزه بخلاً أو ينفقه سرفاً في العطر واللباس والمغالاة بالنساء والمراتب ..» .

ـ تنظيم الرواتب : «ومن ذلك أمر أرزاقهم وأن يوقت لهم أمير المؤمنين وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له ، وأن

يعلم عامتهم العذر الذي في ذلك من إقامة دواونيهم وجمـل أسمائهم ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه . فينقطع الاستياء والشكوى ... وإن الكلمة الواحدة تخرج من أحدهم في ذلك أهل أن تستعظم وإن باب ذلك جدير أن يحسم . مع أن أمير المؤمنين قد علم كثرة أرزاقهم وكثرة المال الذي يخرج لهم ...» .

ـ مراقبة الجنـد : «... ومن جماع الأمر وقوامه أن لايخفى على أمير المؤمنين شيء من أخبـارهم وحالاتهم وباطن أمرهـم بخراسان والعسكر والأطراف . وأن يحتقر في ذلك النفقة ولا يستعين فيـه إلا بالثقات النصاح فإن ترك ذلك وأشباهه أحزم بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة» .

وعلى أي حال فقد أخذ الجيش الخراساني كامل مظاهر الجيش النظامي خلال عهد المنصور : صار له الديوان والرواتب المحددة الجيدة تدفع في أوقاتها وله القواد المحترفون وله الملابس الخاصة التي وضعها الخليفة كزي للجند مما جعل «الجندية» حرفة ممتازة في خراسان يقبل عليها ابناء العرب والايرانيون على السواء ويقبلون فيهـا . وزاد في توسع هذه الفرقة ما منحها الخلفاء من نفوذ سياسي في الدولة . فإنهم في الوقت الذي كانوا فيه يعتزون بهـا ويرهبون بهـا الأعداء كانوا يصبحون أسرى لها ، ولما قد تريد من الاتجاه السياسي . إن اسم «أهل خراسان» ورضى أهل خراسان وما يقولونه أو ما يكون عليه موقفهم كان الهاجس الأساسي في الأزمات السياسية التي كان يمـر بها البيت العباسي كأزمات ولاية العهد . بل إن عم المهدي جاء مرة يحذره مغبة تقديمه الموالي لأن يغضب أهل خراسان ! الذين اتخذوا لأنفسهم عدداً من الاسماء تكشف دالتهم ومكانتهم فهم «الشيعة» وهم «أنصار الدولة» وهم «القواد» و «أهل الدعوة» ... الخ .

وحين بنيت بغداد أقطع المنصور القطائع فيها ومن حولها لرؤساء الخراسانية من أمثال حميد بن قحطبة الطائي الطوسي وعبد الملك بن يزيد العتكي الجرجاني والفضل بن سليمان الطوسي وعبد الجبار الأزدي ... وحرب بن عبد الله البلخي الراوندي . كما جعل معسكراتهم حول المدينة وكان هذا كافياً كي يتوطن هؤلاء حيث أقاموا فلم يمض كبير وقت حتى خرج منهم «الابناء» الذين ورثوا عنهم الولاء العباسي ، وبغداد ، وحرفة الجندية . وصارت كلمة «الأبناء» منذ عهد الرشيد وما بعده علماً على الجيل الثاني والثالث والرابع من نسل الخراسانية في العراق والذين صاروا بدورهم فرقة من الجيش العباسي. يفخر أحدهم كما ــ قال الجاحظ ــ بقوله : «أنا أصلي خراسان وهو مخرج الدولة ... وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة وفيها بقية رجال الدعوة وأبناء الشيعة وهي خراسان العراق وبيت الخلافة ..»و«البنوي خراساني وإن نسب الأبناء نسب أبائهم وإن حسن صنيع الآباء هو حسب الأبناء ..»(١) .

على ان خراسان ظلت خلال ذلك ترسل الجنود المرتزقة الى بغداد وإذا انفصل «الأبناء» في فرقة خاصة فإن اسم الفرقة «الخراسانية» و «أهل خراسان» لم يغب من فرق الجيش وكانت الفرقة تتجدد بمن يأتيها من خراسان متوسلين بسابق الولاء والرابطة . وفي إطار هذه الوسيلة استطاع الفضل بن يحيى البرمكي أن يؤسس في خراسان سنة ١٧٩ ــ ١٨٠ أيام الرشيد جيشاً باسم «العباسية» عدته نصف مليون جندي ... وصل منهم بغداد عشرون ألفاً جعلوا حرس الخليفة . وإذا

(١) الجاحظ ــ رسائل الجاحظ (طبع دار النهضة الحديثة ــ بيروت) رسالة في مناقب الترك ص ٢٩ وص ٢٣

كان ارتياب الرشيد بأغراض البرامكة وبالهدف من هـذا الجيش قد دفعه الى سحقه عن يد واليه علي بن عيسى بن ماهان فإن «الخراسانية» ظلت أبرز فرق الجيش العباسي النظامي . ولقد لاتكون كلها مؤلفةمن عناصر ايرانية ولقد يكون فيها الكثير من الترك والعرب والديلم ولكنها كانت فرقة معروفة البلاء على جبهة الروم وغيرها . وجرت فيها التقاليد العسكرية وتكاملت فرقة الحرب ، كما خضعت ، عن طريـق الديوان والرواتب المنظمة ، للتنظيم والمراقبة الدقيقة والتدريب العسكري وقد أفرد قدامة بن جعفر في كتابه الخراج مبحثاً خاصاً . ضمن مباحث الجند والادارة والخراج . يوضح فيه تفاصيل مراقبة هوية الجنـد وفحص أسلحتهم ودوابهم وعتادهم ...

وقد تركت لنا الجاحظ صورة طريفة للهيئة التي كان عليهـا الجند الخراساني في عهده و «بالأجسام والمناكب العظـام والجباه العراض والسواعد الطوال ... واللحى والشوارب المتربـة . والتجافيف . والأعماد المعففة .والقلانس الشاشية.والخيون الشهرية .والكافركوبات (عصا الكفار) . والطبرزينات في الأكف . والخناجـر في الأوساط . وحسن الجلسة على الخيل ...»[1] .

بهذا كله كانت الفرقة الخراسانية فرقة مميزة في الجيش وإذا كان الكثير من هذا التميز قد زايلها مابين نهاية عهد الرشيد والمأمون . غير انها استطاعت أن تجدد نفوذها وشبابها في المسيرة الثانية من خراسان إلى العراق التي دمرت عرش الأمين وأتت بالمأمون خليفة الى بغداد .وبالرغم من ان بين المسيرة الأولى سنة ١٢٩ ـ ١٣٢ وبين المسيرة الثانيةسنة ١٩٥

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦

ــ ١٩٦ حوالي ثلثي القرن إلا إن النتائج كانت لحد ما متشابهة بالنسبة للجيش الخراساني الذي أصابه إثر النجاح الغرور والتخلخل واختلط بعناصر شتى التصقت به مما دعا إلى إعادة تنظيمه • وقد حفظ لنا الجاحظ قصة ذلك التنظيم بعد أن حلل الأحوال التي تردى بها ذلك الجيش فقال : «••• كان حميد بن عبد الحميد عند دخول المأمون مدينة السلام وبعد سكون الهيج ••• رفع الى المأمون يذكر أن في الجند دغلا كثيراً ممن دخل فيه بسبب تلك الحروب في أيام الأجناد وهم قوم من غير أهل خراسان ممن تشبه بهم وادعى إليهم من الأعراب والدعاة وممن لا يستحق الديوان • وقوم من أهل خراسان صارت لهم الخواص الشيعة لم يكن لهم من الغناء ما يستحقون به مثلها • وذكر أن بيت المال لا يحمل ذلك • وسأل المأمون أن يوليه تصنيف الجند • ولم يكن مذهب حميد في ذلك التوفير على المأمون ولا الشفقة على بيت مال المسلمين ولكنه تعصب على أبناء أهل خراسان واضطغن عليهم محاربتهم إياه أيام الحسن بن سهل مع ولده محمد بن أبي خالد وغيرهم • وما كانوا قد انتحوه به من تلك الوقائع والهزائم وما ذهب له من الأموال بذلك السبب • فولاه المأمون التصنيف وأمر للجند برزق شهرين • فولى حميد العطاء والتصنيف محمود بن عبد الكريم الكاتب • وعرف محمود ما عنى فتحامل على الناس واستعمل فيهم الأحقاد والإحن وخفض الارزاق وأسقط الخواص وبعث في الكور وأنحى على أهل الشرف والبيوتات حسداً لهم ••• فقصد لهم بالمكروه والتعنت فامتنعت طائفة من الناس من التقدم الى العطاء وتركوا اسماءهم • وطائفة انتدبوا مع طاهر بن الحسين بخراسان • فسقط بذلك السبب بشر كثير • ثم إن المأمون أمر بتمام اعطياتهم واكتسب محمود بن عبد الكريم المذمة

وصار ملعنة في محال بغداد ومجالسها وطرقها ..»[1] .

غير أنه لا هذا التنظيم ولا معاودة المسيرةقبل ذلك الى بغداد ولا سابق السمعة العسكرية استطاعت كلها إن تعود بالزمان القهقرى وتجعل الخراسانية هي الفرقة العسكرية الأولى لبني العباس . ذلك أن فرقاً أخرى ناشئة قد زاحمتها من جهة وأن منطقة خراسان قد بدأت تأخذ طريقها الذاتي في الاستقلال عن المركز على يد آل طاهر ، من جهة أخرى، وبدأت لهذا السبب تستوعب فائض القوى العسكرية فيها محلياً وفي إنشاء الدول الاقليمية المتتالية التي نشأت في تلك الإصقاع ...

وعلى أي حال فقد جاء العصر العباسي الأول الى نهاينة والفرقة الخراسانية واحدة من فرق الجيش الأساسية . وقد ولدت فرقة أخرى بغدادية . تفرعت عنها هي الأبناء . وكلتا الفرقتين جند نظامي ، مرتزق محترف للجندية . وتابع للمركز في بغداد .

العرب برغم أن القوة الضاربة العباسية كانت خراسانية (بالمعنى الجغرافي للكلمة) فإن الثورة العباسية وبالتالي دولة بني العباس لم تنجح وتتوطد إلا بالجيوش العربية ، القبلية التكوين التي التحقت بها . والأحداث الفاصلة التي مكنت للعباسيين في العرش إنما قامت بالدور الحاسم فيها مقاتلة القبائل العربية كان ذلك مثلا في الكوفة والبصرة والموصل ودمشق وغيرها . ويبدو أن الجيش العباسي الأول ظل فترة من الوقت ما بين عهد أبي العباس والسنوات الأولى من عهد أبي جعفر يشكل مجموعة عسكرية واحدة حتى كانت فتنة الراونديةواستبان لأبي جعفر أنه مكشوف الجانب فلا موئل من المدن له ولا الجند بالآلة

---

(١) آثار الجاحظ ص ٦٣ ـ ٦٤ (طبع عمر ابو النصر ـ بيروت) من رسالة في ذم اخلاق الكتاب .

الطيعة في يده . وقد دخل عليه شيخ كبير من المقدمين في بني العباس فقال له ابو جعفر ــ حسب رواية الطبري ــ : أما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا ؟ قد خفت أن تجتمع كلمتهم فيخرج هذا الأمر من أيدينا . فما ترى ؟ قال الشيخ : عندي في هذا رأي ! ومضى فدس غلاما من غلمانه يسأله وهو داخل دار الخلافة بين أصحاب المراتب (من القواد ورجال الدولــة) أي الحيين أشرف : اليمن أم مضر ؟ فلمــا فعل قال الشيخ : مضر لأن منها رسول الله وفيها كتاب الله وفيها بيت الله ومنها خليفة الله ... فامتعضت اليمن وآذوا الشيخ فثارت مضر قائلة . أيفعل هذا بشيخنا ؟ ونفر الحيان وافترق الجند : فصارت مضر فرقة واليمن فرقة والخراسانية فرقة وربيعة فرقة ! وقال الشيخ لأبي جعفــر : قد فرقت جندك وجعلتهم أحزابا . يخاف كل حزب منهم أن يحدث حدثاً فتضربه بالحزب الآخر . وقد بقيت عليك في التدبير بقية ... هي أن تعبر بابنك فتنزله في الجانب الآخر قصراً وتحول من جيشك معه قوما فيصير هذا بلدا وهذا بلدا . فإن فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهــم بأهل ذلك الجــانب وإن فســدت عليــك مضر ضربتهــا باليمن وربيعــة والخراسانية ...»[1] .

وإذا كانت القصــة تكشف عناصر الجيش العباســي الأول فإنها تكشف أنه في كتلته الكبرى كان عربيا . ومن مختلف القبائل وأنه بعد فترات الحماسة الأولى التي دمجته بعضه مع بعض قد عاد بسرعة الى تكوينه القبلي المألوف في العهد الأموي ما عدا الخراسانية الذين كانوا قد تناسوا عصبياتهم القبلية وحولوها عصبية اقليمية . وقد كرر المنصور هذه العملية : فرق تسد حين كسر الحلف القديم القائم بن ربيعة واليمن

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٧ ــ ٣٩ (٣/٣٦٥ ــ ٣٦٧)

بإطلاق يد معن بن زائدة الشيباني (القيسي) في أهل اليمن وهو وال عليهم • فإن المجازر التي قام بها هناك أجاب عليها عقبة بن سلم الهنائي (اليمني) والي اليمامة والبحرين الذي أخذ الثأر هناك من ربيعة (قبيلة الشيباني) • وارتاح المنصور الى النتيجة التي تمنع قوى الطرفين من أن يكون لهما ولاء غير الولاء العباسي !

وهذا يعني أن قوة الجيش العباسي الأول كانت في معظمها عربية وقد يدل على ذلك أيضاً أن القطائع التي أقطعها أبو جعفر في بغداد للجند كان القسم الأكبر منها لقواد ورجال من العرب •

وهذا يعني أن قوة الجيش العباسي الأول كانت في الأول دوراً محدداً مختلفاً عن دورها في العهد الأموي • لقد اقتصر الخلفاء في استخدامها على جبهات الغزو الخارجي • وكانوا يرسلونها الى جبهة الروم أو أرمينية خاصة . على الطريقة التقليدية للتوطن وحماية الحدود • وقلما كانوا يرسلونها لأعمال الأمن الداخلي مثل إخماد الثورة الخارجية في سجستان مثلا أو حرب الخوارج في الجزيرة • ولما كانت أعمال الفتح محدودة أو معطلة في العهد العباسي فإن هذه الجماعات القبلية آخذت تجد نفسها دون عمل وبالتالي دون عطاء ومغانم فتحولت تدريجيا إلى جنود يتطوعون للعمل مع القواد العرب الذين يعهد إليهم بالتجنيد أو ببعض المهمات العسكرية • وبينما كانت تتضاءل فيهم الروح القبلية كانت فرق التجنيد الارتزاقي تجتذبهم وتسوغهم كمقاتلة في تكوين عسكري جديد : أصبحوا يجندون على أساس أقاليمهم ومدنهم لا قبائلهم • وصرنا نقرأ مثلا لدى الطبري . ومنذ وقت مبكر سنة ١٤١ أو سنة ١٤٣ «أن الجنود من أهل خراسان معسكرون على أدنة مع مسلمة البجلي ومن أهل الشام مع مالك الباهلي • وأن المنصور استدعى

عند ثورة محمد النفس الزكية أربعة آلاف من جند الشام وأن الحسن ابن قحطبة الطائي غزا سنة ١٦٢ بلاد الروم في أهـل خراسـان وأهل الموصل والشام وأمداد اليمن ومطوعة العراق والحجاز .. الخ ..

ولقد كان بعض القادة من ذوي النفوذ القبلي أمثـال معن بن زائدة الشيباني ويزيد بن مزيد الشيباني ، وعقبة بـن مسلم الهنائي وخازم بن خزيمة التميمي يصطحبون معهم للغزو الخارجي خاصة بعضاً من قبائلهم مع الجيش النظامي وكان هؤلاء الأعراب يعودون بعدالغزو إلى قبائلهم أو يتوطنون على الجبهات الأمامية لكنهم مع ذلك لم يكونوا يعتبرون من القوى العسكرية ولا كانـوا من التـأثير بحيث يعودون بالجيش إلـى التكوين القبلي القديـم . وكانت السلطـات ترضى باستخدامهم لامتصاصهم كقوى فائضة في القبائل ، قابلة للقيام بأي عمل ثوري أو تخريبي ولمعونة الجيش في العدد وفي اعمال التغطية والحركة السريعة .

وهكذا ظهر نظام المقاتلة والأرزاق في العرب بدل نظـام التطوع والعطاء . ولم نعد نسمع فيما بعد عصر الرشيد عن «عطاء» يعطى لغير الهاشميين والعلويين وبعض «الأنصـار» أي للأرستقراطيـة الدينية العربية أما عامة العرب فقد صار لها عند التجنيد «رزق» محـدد كما للخراسانية ... أي أن النظام القبلي القديم قد ألغي من نفسه . ولئن بقيت منه بقية تعمل على الجهـاد في الحـدود فقـد كانت الحكومة تتجاهلهم تجاهلا متزايداً لا سيما وأنها إنما كانت ترسلهم . مع قوادهم للتوطن في عملية أبعاد غير مقصود ! وهكذا أوقف العباسـيون نهائياً نفوذ العرب في الجند . وفي الحرب والغنائم بتحويلهم الى فرقة من جملة الفرق العسـكرية .

وقد انتعش نفوذهم بعض الانتعاش أيام فتنة الأخوين الأمين والمأمون وجاءتهم الفرصة لاسترداد النفوذ في الدولة حين جعل الأمين اعتماده على الكتلة العسكرية ــ السياسية العربية مقابل اعتماد أخيه على الكتلة الخراسانية • غير أن هزيمة الأمين كانت بمثابة الضربة الفاصلة • وحين صار المأمون في بغداد كان ذلك يعني أن القوى العسكرية العربية ــ رغم أنها أضحت قوى نظامية ــ لم يعد لها مكان على الأقل في البلاط العباسي •

ويتبين موقف المأمون من هذه القوى في الخبر الذي يروي أن عربياً جاءه في الشام يقول : يا أمير المؤمنين انظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان فأجابه إنك ظلمتني وفند له مواقف القبائل العربية المختلفة وتألفه قلوب بعضها بالمال ••• وانصرافها جميعاً عنه ثم طرد الرجل !

والواقع أن القوة العسكرية العربية في عصر المأمون وما بعده ماكانت لتبقى واضحة في الجيش لولا أنها إنما كانت تجمع وتمثل القوى المحاربة الموجودة لدى الكتلة العربية من السكان وهي كتلة تشكل أكثر من نصف الدولة ولهذا فإنا نظل نرى وجودها واضحاً في الأقاليم العربية كالشام ومصر والجزيرة • ولو أن دورها في العاصمة كان الضئيل الضئيل • وقد أنهى المعتصم هذا الدور حين أمر بإسقاط اسماء العرب من الديوان ووقف العطاء عنهم لعدم خضوعهم لنظام التجنيد ووضع بذلك النقطة الأخيرة في النظام الذي كان وضعه عمروالذي كان قد تعطل مفعوله العسكري منذ زمن طويل • ولكنه في الوقت نفسه أوقف رسمياً كل تطوع من أصل عربي في الجيش العباسي • «وإذا لم ينجم عن ذلك القضاء على كل قوة مسلحة عربية فقد نجم عنه الانقطاع بين القوى المركزية العباسية وبين المتطوعين للجهاد على الحدود والذين

يعيشون على الغارات وتتجاهلهم الحكومة تجاهلا متزايداً وهم بالمقابل يتجاهلون وجودها .. وبعد أن كان نفر كبير من العرب يشكلون الجيش الفاتح ... فقد عادوا بعد ذلك الى حال البداوة والبؤس !»[1] .

الموالـي : ونقصد موالي الخلفاء العباسيين . تلك المجموعة المتعددة العناصر التي جمعها الخلفاء وبنـو العباس من حولهـم خولا واعوانا وأقاموا معها . لاجتذاب اخلاصها . رابطة «ولاء الاصطناع» . ولو أن بعضها كان من عبيدهم السابقين وبعض من متفرقة الناس من عرب وعجم . ولم يكن لهؤلاء . أول الأمر من دور عسكري أو علاقة بالجيش . وحين يذكر المؤرخون اصطناع الخلفاء (أو المنصور والمهدي بالذات) لمواليهم فإنما كانوا يعنون ما أعطوهم اياه من أعمـال إداريـة في البلاط أو في الولايـات .

غير أن هؤلاء الموالي مالبثوا أن وجدوا طريقهم الى الجيش وصرنا نرى على رؤوس بعض الحملات فلاناً «مولى أمير المؤمنين» يظهر ذلك منذ عهد المهدي . الذي أرسل العباس بن محمد حتى انقره سنة ١٥٩ وعلى مقدمته الحسن الوصيف من الموالي ... ولم يجعل للعباس على الحسن ولاينه في عزل أو غيره كما يقول الطبري وأرسل الربيع بن يونس مع ابنه الرشيد سنة ١٦٣ وسنة ١٦٥ في غزوات ناجحة ضـد الروم . ويبدو من هذه الأخبار أن اعداد الموالي كانت قـد تكاثـرت التكاثر الواسع حتى أضحى من الممكن تشكيل فرقة عباسية منها وقد أقيمت تلك الفرقة بالفعل بشكل نظامي وبرز فيها بعض الموالي كقواد ناجحين مثل هرثمة بن أعين وغيره ولعل تكاثر عدد الموالي هو الذي

---

(١) كاهن ـ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص ٢٤٠ (الترجمة العربيـة) .

دفع الخلفاء الى استخدامهم في الجندية • كان العمــل العسكري هو الوحيد الذي يمكن أن يستوعبه الفائض منهــم • ويجنــد اخلاصهم لمصلحة الدولة والأسرة الحاكمة • واستمرت هذه الفرقــة العسكرية قائمة حتى ما بعد العصر العباسي الأول لأنها كانت تغــذى باستمرار بأعداد غير منقطعة من «موالي» الخلفاء وعبيدهم السابقين •

الـتـرك : دخل الترك الجيش العباسي ، والخلافة العباسية من باب «الموالي» «والولاء» هم بدورهم جزء من الموالي ولكنه جزء تضخم في الناحية العسكرية حتى ابتلع الدولة نفسها •

دخل الأتراك بغداد عبيداً للخلفاء فأصبحوا بالعتق موالي لهم ونجد بدء ظهورهم في قيادات الجيش منذ زمن الرشيد : فأبو سليم فرج الخادم التركي هو الذي بنى طرسوس للرشيد وحصنها ، ومسرور الخادم رافق هرثمة بن اعين الى الروم سنة ١٩١ • وكان ثمة حرس تركي لدى الرشيد كما كان ثمة حرس تركي لدى المأمون • وقد كان يرشح الترك للعمــل العسكري في الجيش العباســي عوامل كثيرة منهــا جمال القامات • والشجاعة الساذجة «وأن التركي يرمي الوحش والطير والناس وقد ملأ فروج دابته مقبلا ومدبراً ويمنة ويسره وصعــداً وسفلا ويرمي بعشرة أسهم قبل أن يفوق الخارجي سهماً واحداً ••» والترك «هــم علموا الفرسان حمل قوسين وثلاثة قسي من الأوتار على حسب ذلــك ••» ولهم «الصبر على الجنب وعلى مواصلة السفر وعلى طول السرى» وعلى الركوب «ولو حصلت مدة عمر التركي وحسبت أيامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته اكثر من جلوسه على الأرض •••» وأخيراً فالتركي «ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ولا على ملــك ولا على خراج ولا على عصبية ولا على غيرة دون الحرمة ولا على حمية ولا على عداوة ولا على

وطن ومنـع دار ولا مال وإنما يقاتـل على السلب ... والخيـار في يده ...»[1] . لقد وضع الجاحظ رسالة من رسائلـه في مناقب الترك ذكر فيها الكثير من مثل هذا الحديث .

ولم يكن هذا كله بالكافي في الواقع لكي يبرز الترك كقوة كبرى ضمن الجيش العباسي لولا أن ظروف البحث عن عصبية جديدة ليست بالايرانية ولا العربية هي التي دفعت المعتصم لاختيار هـذه العصبية العسكرية المتاحة من بين موالي الخلفـاء بالإضافة إلـى أن الترك هم أرومة أمه وأن بلادهـم كثيرة السكان . وقيـد الغزو المستمر ومورد أساسي من موارد الرقيق وهكذا نشأت بسرعـة ونمت الفرقة التركية التي ما لبثت أن أصبحت دون الفرق الأخـرى سيدة الجيش العباسي وأضحى قوادها سادة البلاط والخلفاء معاً . وتجنيد الترك إنـما كان يجري عبر عبوديتهم . كانوا يأتون عبيداً ثم يعتقون ليكونـوا جنوداً مضموني الولاء للخليفة الذي أعتق رقابهم . فهم في الواقع أول جيش مملوكي في الاسلام .

وإذا بدأ العصر العباسي وكتلة الجيش العباسي عربية ذات تنظيم قبلي تطوعي فقد انتهى وللدولة جيش نظامي دائم محترف مرتزق مركزي والعناصر المسيطرة فيه هي العناصر التركية .

٢ ـ **في عناصر الجيش :** كانت الجندية في مطلع العهد العباسي قد كفت منذ زمن عن أن تكون امتيازاً عربياً . وقد دخـل مع العرب في العمل العسكري أعداد كبيرة من الموالي ، مسلمي الشعوب المختلفة . وما ذكرنا في الفقرات السابقة من سيرة الجيش العباسي لم يكشف في

---

(١) رسائل الجاحظ (طبع بيروت ـ دار النهضة) ص ٣٩ . ٤٠ ، ٤٢ (رسالة في مناقب الترك) .

الواقع عن عناصر الجيش العباسي كافة • ولكن عن الكتل الكبرى فيه وعن تطور الجماعات المسيطرة وانتقال النفوذ في الجيش من أيدي العرب إلى أيدي الايرانيين ثم إلى أيدي الترك في مسيرة متصلة نحو الشرق وأعماق آسيا •

كان الجيش العباسي خليطاً دوماً ولكن الخليطة الثلاثية الماضية كانت هي المسيطرة •

وقد غلب كل عنصر منها العناصر الأخرى فترة تعدل ثلث قرن • وخلال ذلك كله كانت ثمة عناصر أخرى تلعب دورها الواسع أو الضيق في المؤسسة العسكرية وتلون الجيش العباسي بألوانها المرقشة وإن لم تتح لها السيطرة فيه •

وإذا حوى جيش الثورة العباسية مجموعة محاربة من العبيد الآبقين أفرد لهم أبو مسلم جانباً خاصاً من معسكره قرب مرو فمنذ زمن مبكر من العهد العباسي أيضا يمر معنا وجود فرقة من الزنج ضمن الجيش الذي ساقه أبو العباس لإخماد ثورة الموصل سنة ١٣٣ وكانت عدتها أربعة آلاف فلما أطلقت يدها في القتل والنهب أوقفت وقتل عدد كبير من أفرادها[١] • كما يمر معنا وجود جماعة من السودان لم يكن حول أبي جعفر غيرهم حين أعلن محمد النفس الزكية ثورته[٢] ويعدون حوالي ١٥٠٠ رجل •

ونلتقط الاشارات العابرة في المصادر فنجد أن مجموعات من مختلف العناصر كانت تعمل في آلة الحرب العباسية • وإذا تجاوزنا العناصر المعروفة من عرب وايرانيين وترك ، قرأنا ، في إحدى القصائد

---

(١) ابو زكريا الازدي ـ تاريخ الموصل ص ١٥٣ .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٦٣٩ (٣٠٥/٣)

التي ندبت خط بغداد وتدميرها أيام الفتنة الأخوية بين الأمين والمأمون ورواها الطبري :

أيـن الجراديـة الصقالب والاحبش تعدو هدلا مشافرها
ينصدع الجند عن مواكبها تعدو بها سرباً ضوامرهـا
بالسند والهند والصقالب والنوبة شيبت بها برابرها
طيراً أبابيل أرسلت عبثـاً يقدم سودانها أحامرها ..[1]

وهكذا نجد في جند الخلافة عناصر صقلبيـة (روس) وأحباشاً وهنوداً ومجموعات من السند والنوبة والبربر والسـودان ... وكان ثمة أيضاً جماعات من الخزر . وقد أقطعهم المعتصم قطيعة في سامراء حين بناها[2] وهناك كذلك مجموعة المغاربة أي الجنود المرتزقة من مغرب الدولة في مصر . وهم من أهل الحرف[3] ولقد يكونـون في جمهرتهم من العرب ولكن فيهم دون شك عناصر من الاقباط الذين تحولوا إلى الاسلام .

ومن الهام أن نسجل هنا أن هذه العناصر قـد تكون هي نفسها جمهرة «موالي الخلفاء» من العبيد السابقين الذين كانـوا يستخدمون حرساً ورديفاً في القتال . غير أن اسم «موالي الخلفاء» أوسع شمولاً إذ أنه يضم أيضاً مجموعات من الأحرار الايرانيين وغيرهم الذين كانوا يلتصقون ببيت الخلافة . وهذا كله يعني أن الجيش العباسي الذي بدأ

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ (٣/٨٧٥)
(٢) اليعقوبي ج ـ البلدان ص ٣٦٢
(٣) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٤ ص ٩ وانظر الطبري ج ٩ ص ١٠٩ (٣/١٣١١ ـ ١٣١٢) .

في مطلع الدولة وحيد العنصر تقريباً مع وجود جماعة محدودة من العناصر الايرانية ، تحول في نهاية العصر العباسي الأول جيشاً إسلامياً يضم بين أفراده جماعات من مختلف العناصر المكونة للعالـم الاسلامـي ومن العناصر المحيطة به أيضاً •

٣ ـ في أعداد الجيش : بالرغم من فقد كل إحصاء ثابت ومن إمكان الشك في الأرقام التي تقدمها المصادر القديمة عن اعداد الجيـوش فإن الأرقام التي يسكن التقاطها قد تعطي فكرة عن أعداد القوى العسكرية العباسية •

ولقد يكون من المنطقي الشك في الرقم الذي يعطيـه الدينوري لعدد «المسودة» الذين حملوا رايـة السواد مـن المشرق ووصلوا بها العراق يوم الثورة العباسية • يقول إنهم زهاء مائة ألف رجـل • وهي مبالغة تريد تضخيم دور الخراسانية في الدولة • لكن الأعداد الأخرى أكثر تواضعاً • وهي كثيرة جداً نقتطف منها بعض النماذج :

ـ في مطلع أيام الدولة : حين وصل الخبر بثورة ابراهيم بن عبد الله المحض في البصرة «ماكان في عسكر أبي جعفر كثير أحد ••• ما هم إلا سودان وناس يسير •••» وذلك أنه كان فرق جنده في القتال • يروون أنه قال يومها : «والله ما أدري كيف أصنع ! والله مافي عسكري إلا ألفا رجل • فرقت جندي فمع المهدي بالري ثلاثون ألفاً • ومع محمد بن الاشعث بأفريقية أربعون ألفاً والباقون مع عيسى بن موسى (وهم أربعة آلاف) والله لئن سلمت من هـذه لايفارق عسكري ثلاثـون ألفاً •••»(١) •

(١) انظـر الطبري ج ٧ ص ٦٣٧ ـ ٦٣٨ (٣/٣٠٤ ـ ٣٠٥) وانظر أيضاً ج ٧ ص ٥٧٧ و ج ٧ ص ٦٣٩ (٣/٣٠٥)

ـ في أواسط العصر العباسي الأول : تحرك هارون (الرشيد) بأمر أبيه المهدي في حملتين ضد الروم سنة ١٦٣ ثم سنة ١٦٥ كان عدد من حارب معه في الحملة الثانية (الكبرى) التي حشدت لها حشود غير عادية حوالي مائة ألف يروي الطبري أنه كان معه من المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً ».

وهو رقم ضخم لأن أكبر الحملات قبل ذلك لم تكن تزيد أعدادها عن ثلث هذا العدد كحملة الحسن بن قحطبة سنة ١٦٢ التي كانت «ثلاثين ألف مرتزق سوى المطوعة» .

ـ وبعد ذلك في سنة ١٩٠ خرج الرشيد لحرب نقفور امبراطور بيزنطة يقول الطبري : «... وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم» وغزا هرقلة «ودخلها فيما قيل في ١٣٥ ألف مرتزق سوى الاتباع والمطوعة ومن لا ديوان له ...» .

ـ وفي يوم عمورية سنة ٢٢٣ ، يروون أنه «نودي في الأمصار بالنفير والسير مع أمير المؤمنين» «وسار المعتصم من الثغور الشامية .. ودخل الناس من سائر الدروب فلم يكن يحصي الناس العدد ولا يضبطون كثرة فمن مكثر ومقلل . فالمكثر يقول خمسمائة ألف والمقلل مائتي ألف ... وتجهز جهازاً لم يتجهز مثله قبله خليفة من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط ...»[1] .

ـ وبعد ذلك بعشر سنوات تقريباً كانت مشكلة أذربيجان وارمينية ويذكرون أن المتوكل وجه زيرك التركي في ٢٠٠ ألف فارس الى تلك البقاع ...»[2] ..

(١) الطبري ج ٨
(٢) الطبري ج ٩ ص ١٦٥

– بلغ عدد الجند في عرض عسكري أيام الخليفة المقتـدر أمام الرسل البيزنطيين نحو ١٦٠ ألفاً من الفرسان والمشاة ••• هذه الأرقام على علاتها تسمح برسم فكرة عن أعداد القوى العسكرية كما تشير إلى أن هذه القوى تضاعفت في العدد مرتين أو نحوهما ما بين مطلع العصر العباسي الأول ونهايته ولم يكن ذلك ناجماً عن ازدياد الأعباء العسكرية على الدولة أو حاجة الفتح الحربي أو ضرورات الدفاع ولكنه في الغالب نتيجة أمور أخرى منها : تزايد سكان الدولة من جهة وتحول الجندية الى مهنة رابحة من جهة أخرى • وسيطرة الجيش على الدولة من جهة ثالثة ويبدو أن التزايد الواسـع إنما كـان في المجموعتين الخراسانية والتركية خاصة ، ثم في الموالي بينما كان عدد الابناء بالضرورة محدوداً وتقلصت مجموعة العرب لا سيما بعـد إسقاط اسمائهـا من الديوان وحرمانها من التجنيد النظامي • وإذا كانت أعداد الفرق التركية كبيرة وكانت الثقل العسكري الأساسي فإن الجـاحظ كتب في عصر المعتصم على لسان الخراسانية يقول : « ••• ونحن اكثر مادة واكثر عدداً وعدة ولو أن يأجوج ومأجوج كاثروا من وراء النهر منا لظهروا عليهم بالعدد•• ولو أن خيول الارض ، وفرسان جميـع الاطـراف جمعوا في حلبـة لكنا أكثر في العيون وأهول في الصدور • ومتى رأيت مواكبنا وفرساننا وبنودنا التي لا يحملها غيرنا علمت أننا لم نخلق إلا لقلب الدول وطاعة الخلفاء وتأييد السلطان •••»[1] •

٤ – في تنظيم الفرق والقواد وتنظيم الجيش :

قسم العباسيون الأوائل قواهم العسكرية على أساسين : عنصري واقليمي • وهكذا كانت فرق الجيش زمن المنصور واحـدة خراسانية

(١) رسائل الجاحظ (طبعة دار النهضة – بيروت) ص ٢٦ (رسالة في مناقب الترك) .

(على أساس الاقليم) وثلاث عربية (على أساس القوم) ولما كانت الكتلة العربية ضخمة فقد انتظم الجنود العرب على أساس انتمائهم القبلي : مضر وربيعة واليمن • وعلى نهج الفرقة الخراسانية ظهر في الجيش العباسي جند أهل الشام • وجند الموصل وجند أهل الكوفة والمغاربة (جند مصر) ••• والمثاغرون أي جند الثغور المستقرون فيها تجاه جبهة الروم أو جبهة الترك • وبعض هؤلاء من الجند النظامي الذين لهم الديوان والفروض (الرواتب) وبعض من المتطوعين احتساباً أما على الأساس العنصري فوجدت بجانب الفرق العربية (التي أخذت بسرعة في الاضمحلال وفي ترك مكانها القبلي للفرق العربية النظامية الاقليمية) فرق عنصرية أخرى منها الترك ، ومنها الأبناء ومنها كذلك الموالي(باعتبار أن الولاء نسب) كما وجدت فرق صغرى أو ثانوية من الزنج والخزر والصقالبة وغيرهم •••

ويبدو أن من الضروري الاشارة إلى أن هذه الفرق العنصرية لم تكن خالصة للعنصر الذي تحمل اسمه فكما كان في الفرق الخراسانية كثير من الدخيل بل ومن الأعراب كذلك كان في الفرق التركية وغيرها وكانت التسمية للكثرة الغالبة •

وبجانب هذه الفرق وتلك كانت ثمة مجموعة ثالثة من الفرق العباسية ولكنها متحولة التكوين باستمرار وتحمل من الاسماء ما ينبيء عن مهامها : وأبرزها المطوعة • وهم عناصر شتى من الناس والأجناد الذين يتطوعون للجهاد حسبة لوجه الله سواء للتكفير عن ذنوب سابقة أو تقرباً الى الله • ونجدهم خاصة على مناطق الثغور حيث القتال ضد الكفار كما نجدهم في مثل الحرب ضد بابك الخزمي • وينقل ابن العديم كلمة في هؤلاء تقول : «واكثر هؤلاء المطوعة من أهل الجبل وخراسان»

معهم غلظ الأعجمية وسوء أدب الصوفية ...»[1] لكن فيهم أيضاً الكثير من أهل الشام والعراق والحجاز .

وهناك مجموعة «المرابطة» وهم كالمثاغرين في الثغور ولكنهم يسكنون الرباطات ويعملون في الجهاد . وهناك مجموعات ذات تشكيل عسكري عارض غير دائم : كالطالعة والبعوث . فالطالعة رابطة فصلية تأتي الثغر من المدن الخلفية الاهلة فترابط فيه للدفاع مدة الصيف ثم تعود الى قواعدها الخلفية في الشتاء . وأما البعوث فهي ما يفرض على بعض الامصار تجنيده وإرساله نجدة للثغور المهددة أو تنفيذاً لبعض المهام الكبرى ، وفي الطواريء ، كالذي فرضه المأمون مرة على أجناد الشام من تقديم أربعة آلاف رجل لدعم الجبهة ضد الروم ... ويفرض لهؤلاء المبعوثين فرض في العادة أمر المأمون مثلا أن يجري على الفارس منهم مائة درهم وللراجل أربعون . وفرض ما يشبه ذلك على مصر والجزيرة . وهناك أخيراً الشاكرية (الكلمة الفارسية جاكر = حارس) وهم مجموعات الحرس التي كانت ترافق الأمراء وتتضخم أعدادها أو تتقلص حسب قيمة من ترافق .

وأما **قيادة الجيش** فقد كانت تعتبر دوماً لأمير المؤمنين بحكم كونه «الأمير» فليس ثمة إذن من قائد عام ولكن ثمة قواد للفرق المختلفة .وإذا استثنينا الخليفة الفاطمي العزيز فلسنا نعرف خلفاء في التاريخ الاسلامي كانوا يخرجون بأنفسهم لقيادة الجيوش والقتال والجهاد سوى خلفاء العصر العباسي الأول . خرج بعض أولياء العهود كالذي كان من يزيد ابن معاوية والرشيد في عهد والديهما .أما من الخلفاء فقد تفرد العباسيون

(١) انظر ابن العديم ـ بغية الطلب (مخطوط احمد الثالث) ج ٦ ورقة ١١ ظهر وهو ينقل النص عن ابن زولاق في سيرة خمارويه .

الأوائل بجانب الخروج للحج بالخروج للجهاد ومباشرتـه بأنفسهم . خرج المهدي والرشيد والمأمون والمعتصم على الأقل وكلهم عرفوا جبهة الروم . وحاول الرشيد منهم أن يرأس حملة تأديبية داخلية ولكنه توفى اثناءها في طوس .

أما **قواد الجيش** العباسي فقد كانت كثرتهم في مطلع العصر العباسي من العرب وكان منهم زعماء قبليون وقد ظللنا نسمع عن أمثال هؤلاء حتى عهد الرشيد والمأمون (من أمثال معن بن زائدة الشيباني وابن بيهس الكلابي) غير أن هذا النوع القبلي تقلص ثم انقرض مع تقلص وانقراض فرقه وحل محله القائد المحترف ، كالجندي المحترف . وقواد الجيش العباسي في العصر الأول أعداد واسعة نستطيع أن نعد منها عشرات بعد عشرات . وقد كان بعضهم ــ كما في الولاة ــ من آل البيت الحاكم (كعبد الله بن علي . وعيسى بن موسى . وعبد الملك بن صالح) وبعض من الارستقراطية العربية (كالشيباني وقحطبة الطائي) وبعض من موالي الخلفاء (كهرثمة بن أعين) وبعض من الايرانيين (مثل علي بن عيسى بن ماهان . وطاهر بن الحسين والأفشين) . والكثرة الواضحة منهم في السنوات العشرين الأخيرة من العصر كانت من الترك (مثل إيتاخ . زيرك . بغا . اوتامش ، شاهك) . وهؤلاء وأمثالهم هم الذين لعبوا أسوأ الأدوار في انهيار الدولة العباسية .

وقد كان معظم هؤلاء القواد العباسيين لايجد فرقته جاهزة ولكن عليه أن يشكلها بنفسه . تفرض له الفروض (أي الأموال) اللازمة للعدد الذي يحدد له وعليه أن يجند الفرقة ويقودها . ولما كان التجنيد بهذا الشكل شخصياً فقد كان موت القائد في الغالب سبباً في تفرق أصحابه ودخولهم في تشكيلات عسكرية أخرى لقواد آخرين . وكانت صناعة

«القائد» العسكري مربحة . ومع أن حالة الأفشين شاذة فإنها تعطينا فكرة عما يتقاضاه القواد مثلا في حالات الحرب فقد كان المعتصم يجزيه في مقامه بإزاء بابك سوى الأرزاق والأنزال والمعاون في كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وفي كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم . ومنحه يوم انتصر عشرين مليون درهم يفرق نصفها في عسكره ...

ويجب أن نضيف الى جماعة القواد عدداً من الأمراء المحليين في ايران وبلاد الترك كانوا يأتون بجنودهم لينضموا الى الجيش العباسي ومن هؤلاء مثلا ملك دنباوند واسمه أبرويز بن المصمغان الذي كان خالف أخاه والتحق بالمنصور مستأمناً فأكرمه وأجرى عليه رزقاً فلما كان «يوم الراوندية أتى المنصور فقاتل معه»[1] ومنهم أيضاً ماوند صاحب سجستان . طلب الأمان من معن بن زائدة ... فبعث به الى بغداد مع خمسة آلاف من مقاتلتهم فأكرمه المنصور وفرض له وقوده ...»[2] ويجري هؤلاء مجرى قواد المجموعات القبلية عند العرب . ونجد منهم في تاريخ الجيش العباسي جماعة : منها بعض أمراء طبرستان ومنها كذلك الأفشين نفسه .

وهكذا تحولت قيادات الجيش العباسي من أيدي العرب بالتدريج لتصبح اسلامية يستطيع أن يصل إليها أي جندي في الجيش لأن المناصب العسكرية العليا كانت مفتوحة أمام الجنسيات كافة !

وأما **تنظيم الجيش** فنشير فيه فقط الى أمرين :

الأول : أن نظام الكراديس الذي فكك به مروان بن محمد التشكيل القبلي للجيش الأموي . كان الأساس الذي بني عليه تنظيم الجيش العباسي النظامي فيما بعد . وهكذا اندثرت بالتدريج آخر

(١) الطبري ج ٧ ص ٥٠٦

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان (ط . المنجد) ص ٤٩٤

مظاهر القوة البدوية في الدولة الاسلامية لتحل محلهـا أسس التنظيم العسكري الحضري • وإن بقيت ملامح التنظيـم الأول حتـى أواخر العصر العباسي الأول •

الثاني : أن «العيارين» وهم الجموع الشعبية البروليتاريـة التي دافعت بجانب الأمين عن بغداد وزادت أعدادهـا الى عشرات الألوف نظمت نفسها تنظيماً عجيباً • ذكر المسعودي[1] بأنـه كان هناك الأمير وتحته عشرة قواد وجنده عشرة آلاف ويليه القائد وتحتـه عشرة نقباء وجنده ألف ثم النقيب وتحته عشرة عرفاء وجنده مائة ثم العريف أخيراً وتحته عشرة من الجنود تقريباً •

ولنا أن نتصور أن هذا التنظيم لم يكن من ابتكار العيارين وأنه كان تقليداً لما كانوا يعرفون من تنظيم الجيش النظامي • الذي سكتت المصادر عنه ، فليس لدينا حوله سوى بعض الإشـارات العابرة وقد نستطيع أن نفترض أنه هو نفسه التنظيم في القوى العسكريةالعباسية أو شيء غير بعيد عنه •

٥ ــ من العطاء الى الرزق

••• وتطورت أيضاً العلاقة المالية ما بين الدولة والجند في العصر العباسي الأول • كان معظم الجيش في البدء عربيا قبلياً وهذا يعني أنه كان على نظام العطاء التقليدي • غير أن الخراسانية كانوا ــ على مايبدو ــ مجندين على أساس الرزق أي الرواتب المحددة شهرياً • ويبدو أيضاً أن الخلافة العباسية تأخرت في تنظيم هذا الرزق فهو مضطرب المواعيد وإن كانت في الوقت نفسه تغدق على جندها الخراسانية الكثير • وقد أشار ابن المقفع في رسالة الصحابة الى ضرورة توقيت وقت معروف كل ثلاثة أو أربعة أشهر لقبض أرزاقهم وأن ينظموا في ديوان كما أشار أهم

[1] انظر المسعودي ــ مروج الذ . القاهرة ١٩٤٨) ج ٣ ص ٤١١

من هذا إلى « كثرة المال الذي يخرج لهم » وأنه إذا كان الخرج رائجاً الآن فإنه قد ينقص ومن الحكمة إنقاص الرزق بالنسبة التي ينقصها الخراج . بالإضافة إلى أمر آخر وهو أن يخلي أمير المؤمنين شيئاً من الرزق فيجعل بعضه طعاماً وبعضه علفاً ويعطوه بأعيانه[1] ... انصافاً لبيت المال .» .

وإذا كنا لا ندري إن كان المنصور قد أنقص الارزاق للخراسانية فعلا أو اتبع النصيحة فاعطاهم بعض الرزق طعاماً وعلفاً ولكن من المؤكد أنه نظم مواعيد الأرزاق ولعله أجرى بعض الفرق القبلية العربية على أساس الرزق أيضاً فقد تضاءلت الأعطيات وانكمش أصحابها خلال العصر العباسي حتى اقتصر العطاء على الهاشميين (من علويين وعباسيين) وانقطع عن عامة العرب وأخيراً أسقط المعتصم اسماء العرب من الديوان فأزال بذلك العطاء رسمياً . أما الرزق للمرتزقة فكان مختلفاً : كان متوسطه للجندي ، في عهد أبي العباس ، ٩٦٠ درهماً في السنة (٨٠درهماً في الشهر) بجانب الأرزاق الأخرى ونصيبه في الغنائم . وكان الفارس ينال ضعف ذلك . ولا ننس أن أبا العباس «زاد في الاعطيات» منذ اليوم الأول لخلافته « وأعلن ذلك في خطبته الأولى » وكسب بذلك لقبه : السفاح .

وقد حافظ المنصور والمهدي على المستوى العالي لأرزاق الجند : الأول لضمان ولاء الجند مع كثرة الثورات والحروب والثاني تألفاً لقلبه وكرماً عليه ثم انخفض رزق الجندي في أواخر عهد الرشيد إلى ٦٠ درهماً فقط (= ٦ أضعاف عامل البناء في بغداد) . ويبدو أن كثرةالجند

(١) ابن المقفع – رسالة الصحابة (ضمن رسائل البلغاء لمحمد كرد علي) ص ١٢٤ . (كتاب أبو حلقة : الآدب الصغير ص ١٦٠)

ورغبة الأجناس المختلفة في الرفاه الذي يناله الجنود مع رخص الأسعار هي الاسباب في ذلك التخفيض الذي تكرر مرة أخرى زمن المأمون فأضحى راتب الجندي ٢٠ درهماً فقط في الشهر • وللفارس أربعون • ولعل تدفق الترك بأعداد واسعة وبمستوى منخفض من المعيشة إلى التجند أثر في هذا التخفيض الثاني لكن السبب الرئيسي إنما كان في أرتفاع قيمة الدينار بالنسبة للدرهم فقد كان الجند يتناولون ارزاقهم ذهباً على حساب أن الدينار يساوي عشرة دراهم غير أن سعر الدينار ارتفع منذ عهد الرشيد حتى المأمون الى ٢٠ و ٢٢ درهماً •

وكانت هذه الأرزاق تزاد للجنود في أيام المحن كما تزاد للمستقرين في جبهات القتال فإن المأمون مثلا فرض على جند الشام أربعة آلاف رجل سنة ٢١٨ وأمر أن يجري على الفارس منهم مائة درهم وعلى الراجل أربعون • وحين أسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة أنزلهم بها «على زيادة عشرة دنانير في عطاء كل رجل ومعونة مائة دينار سوى الجعل الذي تتجاعله القبائل بينها •••» والرشيد حين بنى طرسوس سنة ١٧١ انتدب إليها خمسة آلاف من خراسان والمصيصة وانطاكية «على زيادة عشرة دنانير لكل رجل في أصل عطائه •••» وتكررت الزيادة نفسها عند بناء أذنه سنة ١٩٤ وهكذا ••• ولعل ضخامة هذه الأرقام لا تظهر في الشكل الفردي ولكن في مجموع النفقات : ولعلنا نأخذ فكرة عن ضخامتها إن ذكرنا أن حملة الرشيدعلى الروم سنة ١٦٥ كلفت الدولة ١٩٥ ألف دينار و ٢١٫٥ مليون درهم حسب رواية الطبري • وقد وجه المعتصم مع إيتاخ سنة ٢٢٢ الى الأفشين ثلاثين مليون درهم عطاء للجند والنفقات في قتال بابك ! •••

٦ ـ **في طرق القتال وهدفه** : منذ أواخر العصر الأموي كانت

طريقة القتال العربي البدوي قد تجاوزها العصر ولم تعد كافيةللتجاوب مع الحاجات الجديدة . كانت تكاليفها زهيدة والتفوق التقني فيها يعتمد على سرعة الحركة كما أنها تقوم على الشجاعة الفردية ولا تعرف السلاح الثقيل ولا حرب الحصار ، وتجهل من الناحية التعبوية تنظيم رماة السهام ... بينما كانت أساليب القتال في تلك الفترة (القرن الثاني الهجري) تتطور في اوروبا وقلب آسيا وتظهر فيها الخيالة الثقيلة وكان الخراسانيون والترك ، قد ورثوا عن الجدود البراعة في استخدام الفرسان من رماة السهام ، ولغم المواقع الحصينة وقذفها بالمجانيق واستعمال النفاطات ... وهي أمور تقنية سمحت للخراسانية ثم للترك بالثبات في صلب الجيش العباسي على حساب التكوينات العربيةالبدوية التي انسحبت تدريجياً منه . يضاف إلى هذا أن هذه الأساليب القتالية لا يمكن تلقينها إلا لجيش محترف . كالخراساني والتركي . وهكذا رافق تطور التكوين في الجيش العباسي والتحول إلى الاحتراف والنظامية تطور مماثل في تقنية القتال : أمكن معه لهذا الجيش أن يستعمل قاذفات السهام التي أشار إليها الجاحظ وهي أقل مرونة من القوس لكنها أقوى أثراً (هي كالرشاش بالنسبة للبندقية) ولعلها من ابتكار الترك المحاربين في ما وراء النهر . في تلك الفترات . كما تحسنت لديه وسائل المنجنيق في قذف الأبراج المحصنة ووسائل استخدام النفط[1] ... ونقب الحصون وإحكام الحصار ...

وإذا كان المؤرخ أومان يقول : «كان ثمة أمران يجعلان المشارقة

(١) انظر كاهن ـ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية (الترجمةالعربية) ص ٢٤٠ ـ ٢٤١

في القرن العاشر (الثالث الهجري) عدواً خطراً (على بيزنطة) : عددهم الكبير وقدرتهم الفائقة على التحرك ..» فإن الامبراطور البزنطي ليو الحكيم (٨٨٦ ــ ٩١٢) كــان يتكلم عن تجربة حين قال في الكتــاب المنسوب إليه : «بين كل الأمم المتبربرة هؤلاء المشارقــة هم أصحاب أحسن الآراء وأحكم الخطط في تحركاتهم الحربية» . ويصف تعبئتهم بأنها على شكل مربع طويل يصعب اختراقه . ومن هنــا تستعوا بأعظم مزايا الدفاع في التحرك والقتــال ...» ويقــول امبراطور آخر هو قسطنطين «لقد كانوا من القوة والميل إلى الحرب بحيث لو أن ألفاً منهم احتلوا موضعاً لأصبح من المستحيل إزاحتهم عنه ..» .

وأما في أهــداف القتال العباسي أخيراً فالتطور الهام والأساسي في هذه الناحية هو أن الجيش تحول من جيش للجهاد أولا ثم للأمن في العهد الأموي إلى جيش للأمن أولا ثم للجهاد . وهذا التبدل في الترتيب له أثره الكبير ومعناه . فقد كانت مهمة المؤسسة العسكرية العباسية هي في الدرجة الأولى إبقاء الدولة : داخلياً بخنق الثورات ودعــم العرش وخارجياً بحسن الدفاع وحفظ الرقعة الأرضية بعكس ما كان في العهد الأموي فقد كانت مهمة الجند أيامه هي عمليــة التوســع والانسياح السطحي الجغرافي ثم إقرار الأمن الداخلي وسحق الثــورات . وليس من الصعب أن نلاحظ أن أعمال العباسيين العسكرية على الحدود كانت كلها دفاعية حتى عند الهجوم بينما انصرفت طاقــات الجيش وجهوده بصورة أساسية لإخماد الثورات وإقرار الأسرة العباسية في الخلافة .

الفصل الثاني عشر

المشاكل والحركات السياسية

يمكن أن نقسم المشاكل الداخلية في هذه الفترة، (بين سنة ١٥٨ ـــ ٢١٨ هـ) وملأت الكتب أحيانا بالأخبار وكانت قصصا عن الدماء المراقة والجثث دينية ، على أن نقرر سلفاً أن الحركات السياسية كانت تحمل أحياناً الطابع الديني كما كانت الحركات الدينية تحمل عناصر سياسية واضحة .

ولعل من الضروري جدا قبل بحث هذه الحركات أو تلك سواء في هذا الفصل أو في الفصول السابقة أو اللاحقة أن نلح في ايضاح نقطة جوهرية هامة في هذا الباب كله هي أننا ونحن نبحث الثورات والفتن المختلفة لانعتبرها ـــ ولايمكن أن نعتبرها ـــ هي تاريخ هذا العصر .

إن هذه الثورات والفتن وإن طغت على السطح السياسي للأحداث وملأت الكتب أحيانا بالأخبار وكانت قصصا عن الدماء المراقة والجثث بالآلاف والرؤوس المقطوعة والاجساد المصلوبة أو التي اهترأت في السجون ليست هي أبدا الصورة الحقيقية والواقعية للتاريخ العباسي وللعصر . لقد كانت بالعكس هي الصورة السلبية له وهي نقاط الشذوذ ولحظات الازمات بالنسبة لبعض العقائد أو لبعض الأقاليم

أو لبعض السياسيين • والمؤرخون حين سجلوها (وحين نسجلها نحن بدورنا بعدهم) فانما كانوا يشيرون اليها كأحداث غريبة • وأما الجماهير الواسعة التي كانت تعيش حياتها بشكل هادىء رخي • وتبدع الاداب والفنون وتعمل في الصناعات ، وتخدم الحياة ، أو تعمل على بناء صروح الفكر والثقافة والكتب أو تسير قوافل التجارة ومراكبها في البر والبحر هذه الجماهير التي كانت تشكل الكتلة الكبرى والرئيسية من الرعية وتعيد بأيديها وجهودها ماتخربه الأعمال السياسية والفتن من بناء وأسوار وزرع وشجر وماتقطع من صريق أو تمزق من ارحام أو خبرات أو إنتاج فلم يكن المؤرخون في الواقع يجدون حاجة للحديث عنها • وهكذا فان صورة هذه الفتن والثورات تصدق في تصوير العصر العباسي (وغيره أيضاً) بمقدار ماتصدق أخبار وإحصاءات الجرائم والسرقات والمظاهرات التي تنشرها الصحف في تصوير حياة المجتمع الحالي الذي نعيش • ومن الضلال الكبير أن تفهم على أنها أكثر من الصورة السلبية المحدودة لواقع ايجابي أوسع منها بكثير وأرحب منها بكثير وأشد منها انشاء وألقاً وجدارة بالعناية والتذكر • ويكفي أن نذكر أنه مقابل هذه الاحداث السوداء كان ثمة حضارة كبرى تبنى وتتكون بايدي الجماهير الاخرى الواسعة التي كانت تشكل الاكثرية العاملة ••

ولعله من المفيد هنا أن نضيف أن كافة الامبراطوريات والممالك الكبرى في التاريخ عرفت من الاحداث والفتن والثورات مثل ماعرفت الدولة الاسلامية ولعل بعضها عرف أكثر منها بكثير أيضاً وأمثلة التاريخ الروماني والبيزنطي والصيني والساساني . بل وامبراطوريات العصر الحديث أكثر من أن تحصى عند المقارنة في هذا المجال الخصيب •

الحركات السياسية :

لايكاد يختلف الموقف السياسي الداخلي كثيراً في فترة الاستقرار، وعصر الرشيد عن الفترة السابقة المنصورية بل ولا عن العهد الاموي : فانا نجد دوماً ــ بجانب أطماع بعض أبناء البيت المالك ــ حركات العلويين ، والخوارج والثورات المحلية الخاصة تظهر لدوافعها المعروفة وتموت بالقوة العباسية • غير انا نلاحظ في هذا العهد ، وهو فترة الاوج في التاريخ الاسلامي انه كان أيضاً مطلع الانهيار وكان يحمل في ذاته أوائل وبذور التجزؤ المقبل •

أصحاب هذه الحركات هم إما عباسيون وعلويون وخوارج من جهة أو ثوار في الأقاليم المختلفة من جهة أخرى وإذا كان الأوائل أصحاب مبادىء ومطامح يثورون من أجلها فان حركات الاقاليم إنما كانت في معظمها ذات جذور اقتصادية خاصة تتعلق بظلم العمال يضاف اليها ــ حسب اختلاف الاقطار ــ بعض العناصر الدينية أو القومية أو القبلية الأخرى •

١ ــ الطامعون العباسيون :

بالرغم مما قد يبدو من التناقض بين كلمتي «الاستقرار العباسي» والطامعين من آل العباس فقد عرف الخلفاء العباسيون وهم في فترة الأوج محاولات عباسية للخلاص منهم وتحويل الخلافة من فرع الى آخر أو من شخص الى آخر فيهم وإذا نحن لم نعتبر مشكلة الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون ، من هذا النوع من المشاكل (مع أنها في واقعها منها) فإننا نستطيع أن نعد من هذا الباب محاولات ثلاثاً على الأقل :

أ ــ محاولة عبد الملك بن صالح : فقد غبرت منذ نزاع المنصور وعبد الله بن علي سنوات طويلة تزيد على نصف القرن استطاع أولاد المنصور وأحفاده خلالها أن يحتكروا عرش الخلافة فلا طامع ينازعهم هذا الحق أو يقض مضجعهم في الأسرة العباسية • وأول مفاجأة في هذا الباب تفاجئنا سنة ١٨٧ عقب نكبة البرامكة إذ يلقي الرشيد في السجن بأبرز شخصية في البيت العباسي كله يومذاك : عبد الملك بن صالح بن علي العباسي وعدد أفراد هذا البيت كان يومذاك ــ حسب الاحصاء الذي تم سنة ٢٠٠ ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكر وأنثى[١] وكان لرجاله جميعاً الرواتب اللازمة كما كان للبارزين منهم مراكزهم من الدولة • وآل صالح بن علي استقروا في حلب وكانت لهم إقطاعاتهم الواسعة فيها ولهم مكانتهم التي استمرت عدة قرون منذ ولي تلك المنطقة صالح بن علي وضرب النقود باسمه فيها[٢] • (١٣٧ ــ ١٥٢ هـ) وبعد أن تولى ابنه الفضل الولاية فترة أعطاها المنصور لغيره حتى إذا جاء الرشيد اعطاها لعبد الملك بن صالح سنة ١٧٥ فترة قصيرة ثم أعاده إليها بعد سنة ١٨٢ سنوات •• ويوصف الرجل بالفصاحة • والنصوص الباقية المنسوبة إليه تجعله في سوية البلغاء البارزين • وعلى أي حال فإن الرشيد ماكاد ينفض يديه من دم جعفر البرمكي ويحبس أهله حتى كشف للناس عن تآمر عبد الملك بن صالح عليه •

ذكروا أن عبد الرحمن بن عبد الملك نفسه وأن كاتبه ومولاه

---

(١) الطبري ج٨ ص٥٤٥ (٣/١٠٠٠)

(٢) ذكر ابن العديم هذه الاسرة اكثر من مرة في موسوعته بغية الطلب المخطوطة كما ذكر في بعض اخبارهم في زبدة الحلب وانظر فيما يتعلق بولاية صالح وضرب النقود ج١ ص ٥٩ فما بعد .

قمامة رفعا للرشيد أن عبد الملك «يؤهل نفسه للخلافــة وأنه يراسل رؤساء القبائل والعشائر في الشام والجزيرة» • ويبدو أن هذا الاتهام ـ إن صح ـ متصل بنكبة البرامكة أنفسهم فإن عبد الملك يعلم قبل غيره أن الوصول إلى الخلافة لا يقوم بتأييد أهل الشام والجزيرة وحدهم ولا بد خاصة من تأييد خراساني فهناك سند البيت العباسي • وهذا التأييد إنما كان يملك أمره في ذلك الوقت ـ وعن طريق الصلات مع دهاقين خراسان ـ آل برمك •

وجاء الرشيد بعبد الملك يندد به فأنكر واستعمل بلاغتــة فقال الرشيد أتضع لي من لسانك وترفع لي من جنانك ! وجاءه بابنه وكاتبه يشهدان عليه • فلما أصر على الانكار قال الرشيد : أما أمرك فقد وضح ولكني لا أعجل حتى اعلم الذي يرضي الله فيك ! ثم أعاده إليه في مجلس تحقيق آخر أنهاه الرشيد بقوله : أما والله لولا الابقاء على بنــي هاشم لضربت عنقك • واتهمه بأنه ليس لصالح ولكنه ابن مروان بن محمد الجعدي من احدى جواريه وحقق بشأنه مع يحيى البرمكي السجين أيضاً وأخيراً أرسله الى السجن • والشفاعة الوحيدة التي قبلها فيه أنه أخرجه من سجن المطبق فجعله في سجن الفضل بن الربيع «فلم يزل سجيناً حتى توفي الرشيد • فأطلقه الأمين وعقد له على الشام»[1] بعد أن عاهده عبد الملك أن يجنده الأجناد ويدعمه ضد أخيه المأمون ولكن الموت أعجله سنة ١٩٦ وقد سئل حين أطلق عن التهمة فأنكرها أيضاً وقال : «والله إن الملك لشيء ما نويته •• ولو أردته لكــان أسرع الي من السـيل الى الحدور • وإني لمأخوذ بما لم أجن ••• ولكنه حين رآنــي للملك قمنا

---

(١) انظر الطبري ج٨ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٧ (٣/٦٨٨ ـ ٦٩٤) واليعقوبي ج٢ ص ٤٢٤ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩ .

وللخلافة خطراً ... ورأى لي يدا تنالها إذا مدت ... عاقبني عقاب من قد سهر في طلبها ... فإن كان (الرشيد) إنما حبسني على أني أصلح لها وتصلح لي فليس ذلك بذنب فأتوب منه وإن زعم أنه لا صرف لعقابه إلا بأن أخرج له من الحكم والعلم والحزم .. فلا يستطيع العاقل أن يكون جاهلا . ولو أردتها لأعجلته عن التفكير ولما كان من الخطاب إلا اليسير ومن بذل المجهود إلا القليل ..» .

ب ـ خلافة ابراهيم بن المهدي : والرجل من ولد المهدي ومن اخوة الرشيد أمه أم ولد من طبرستان تدعى شكلة . ومع أنه كان أسود شديد السواد ، وبنصف وجهه شامة وسمج المنظر وكانوا يدعونه عنقوداً لهذا السبب إلا إنه كان محبباً إلى الناس وخاصة الفنانين كما كان من المغنين المعروفين .

وقصة خلافته التي دامت سنتين في بغداد . يجب أن تسلكه في عداد خلفاء بني العباس . وما كان ابراهيم ليفكر بالخلافة لولا أن بغداد التي دمرت في الحرب الأخوية بين الأمين والمأمون ظلت على القلق والاضطراب منذ مقتل الأمين سنة ١٩٨ وحين وصلها الحسن بن سهل سنة ١٩٩ والياً على العراق وما وراءه الى أقصى المغرب لم يستطع دخول المدينة بسبب رفضها له بالقوة واستمر الاضطراب حتى تكلم بنو هاشم والقواد فيها وقالوا : نصير بعضنا خليفة ونخلع المأمون ! وفاوضوا أحد أحفاد المنصور (محمد بن صالح) فرفض وأرادوا منصور بن المهدي على الخلافة فخشي مغبة هذه المبادرة وأبى ذلك عليهم فلم يزالوا به حتى صيروه أميراً سنة ٢٠١ ولكن خليفة للمأمون ببغداد والعراق . وقالوا : لا نرضى بالمجوسي بن المجوسي

(الحسن بن سهل) ونطرده حتى يرجع الى خراسان ...اما منصورفقال: أنا خليفة امير المؤمنين حتى يقدم أو يولي من أحب ! .. وأما جند هذه الحركة فكانوا من جماعات الابناء وأهل بغداد والمطوعة والشطارين والعيارين الذين بلغت عدتهم ١٢٥ ألفاً بين فارس وراجل[١] يقودهم محمد بن أبي خالد . وقد قتل في المعارك مع الحسن بن سهل تلك السنة سنة ٢٠١ فخلفة على القيادة ابنه عيسى ...

في تلك الغمرة وصل كتاب من الفضل بن سهل الى أخيه الحسن بانقلاب المأمون الى الاتجاه العلوي وأنه ترك السواد الى الخضرة وأنه جعل ولاية العهد من بعده للامام علي بن موسى الكاظم وسماه الرضى من آل محمد !

وتلقت بغداد أسوأ التلقي هذا الخبر . ومع أن عيسى بن ابي خالد كان قد اتفق مع الحسن بن سهل ووعد أهل بغداد بتعجيل رزق شهر إليهم والباقي متى أدركت الغلة إلا أنهم اختلفوا الاختلاف الكبير بعضهم قبل البيعة وبعضهم رفض وأنكر . وظن بعضهم أنها دسيس من الفضل ابن سهل وأما بنو العباس فغضبوا ــ وكان طبيعياً أن يغضبوا ــ «واجتمع بعضهم الى بعض وتكلموا فيه وقالوا : نولي بعضنا . وكان المتكلم في هذا والمختلف والمتقلد له (الاخوان) ابراهيم ومنصور ابنا المهدي»[٢] .

كان ذلك في الأيام الأخيرة من سنة ٢٠١ واتفق العباسيون على

---

(١) الطبري ج٨ ص ٥٥٠ (١٠٠٨/٣) وانظر كذلك اليعقوبي ج٢ ص٤٥٠.
(٢) الطبري ج٨ ص ٥٥٥ .

مبايعة ابراهيم بن المهدي بالخلافة ومن بعده ابن أخيه اسحق بن موسى ابن المهدي • وبايع البغداديون على الفور وخلعوا المأمون في أول المحرم **من** سنة ٢٠٢ وأخذ الجند أرزاقهم ٢٠٠ درهم لكل رجل !

«وتلقب ابراهيم بالمرضى وصلى بالناس وكتب بالولايات وعقد **الألوية** • وأطاعه الأبناء (الجند) وأهل الحربية وما والاها إلا من كان في طاعة المأمون »[1] • ثم غلب ابراهيم على الكوفة ولكن جيشه هزم أمام الحسن بن سهل المتحصن في واسط •••

وبلغ الخبر المأمون ، وكان الفضل بن سهل فيما يقولون يكتم عنه الأنباء كلها فاضطرب وقرر المسير الى بغداد يستقر فيها بدلا من مرو المنعزلـة •

ولكن المسيرة طالت كثيراً • بدأت مرحلتها الأولى الى سرخس حيث قتل (في مطالع شعبان سنة ٢٠٢) الفضل بن سهل الوزير •وتحرك الموكب من هذه المدينة يوم عيد الفطر الى طوس حيث مات ولي العهد علي الرضى (صفر سنة ٢٠٣) وكتب المأمون إثر ذلـك الى أهل بغداد يعلمهم موت علي ويسألهم الدخول في طاعته فأجابوه« بأغلظ ما يكتب به الى أحد» وتحرك المأمون بعد ذلك الى جرجان ثم الري ••• بينما كانت جماعته ــ على ما يبدو ــ تشتري له الناس في بغداد فقد تآمر عيسى ابن ابي خالد مع قائد جماعة المأمون عند بغداد وأخذ عدد من بني هاشم ومن القواد يتسللون إليه وبعضهم يعرض القبض على ابراهيم الخليفة

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٥١ . ويقول السيوطي (تاريخ الخلفاء ص٣٠٧) إنه لقب بالمبارك .

نفسه . وأسقط في يد ابراهيم فاختفى (أواخر ذي الحجة سنة ٢٠٣) بعد خلافة دامت سنتين إلا أياماً ...

كان المأمون إذ ذاك في الري فاتجه الى بغداد ودخلها (في صفر سنة ٢٠٤) ! وبعد سبع سنوات ظفر بابراهيم بن المهدي متنكراً في ثياب امرأة فعفا عنه مع أن أصحابه جميعاً أشاروا بقتله[1] ...

جـ ـ حركة ابن عائشة :

وهو ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام . ويبدو أن بغداد والعباسيين لم يرضوا بالمأمون حتى بعد مرور سنوات على إقامته ببغداد ولهذا نجد هذا العباسي الاصيل يسعى لاعادة الخلافة الى ابراهيم المهدي . مع فريق من موالي العباسيين وقد وشى بهم أحد الوشاة إلى المأمون (صفر سنة ٢١٠) فوقعوا في قبضته بينما كانوا على وشك تنفيذ مؤامرة للاطاحة به . وفيهم خليط من الجماعات التي كانت تضمهم بغداد مثل مالك النفري من السواد ومحمد بن ابراهيم الافريقي وفرج البغواري وكانوا قد « دونوا الدواوين وأثبتوا أسماء الرجال وسموا العمال »[2] . وفي السجن ثاروا وأيدهم المساجين وسدوا باب السجن مما اضطر المأمون حين سمع بذلك إلى أن يخرج بنفسه إلى البلد وإلى السجن . ويبدو أن المؤامرة كانت مدبرة بحيث تبدأ بحريق واضطراب في بغداد . فان ابن طيفور يذكر أن ابن عائشة وأصحابه كانوا قد دسوا

---

(١) الطبري ج٨ ص٦٠٤ ـ ٦٠٦ (١٠٧٦/٣ ـ ١٠٨١) ،اليعقوبي ج٢ ص ٤٥٨ .

(٢) الطبري ج٨ ص ٦٠٢ ـ ٦٠٤ (١٠٧٣/٣ ـ ١٠٧٦) ، اليعقوبي ج٢ ص ٤٥٩ .

من أحرق سوق العطارين والصيارفة والصفارين والفرائين وأصحاب الرامدار ... وقبل ذلك أوبعده أحرقوا أصحاب الحطب في البغيين .. ويذكر المؤلف نفسه ، أن المأمون استنفر أخاه المعتصم وجميع القوادفي الليل، وأوقف الجند بمئات الشموع على أيواب بغداد وهم على ظهور دوابهم وقد فوقوا قسيهم (أي في وضع الاستعداد للقتال) فان تحرك شيء أتوا عليه ...»[1] وقد رأى المأمون رجلا يلقب بكلب الجنة وقد جعل لحافه ترسا وتسلح بحطبة للقتال فشكره وأمر له بعشرين ألف درهم .

وأشاع أنصار المأمون أ ن ابــن عائشة وأصحابه تنصروا « ... وشدوا الزنانير ووضعوا الصلبان في أعناقهم ... » وذلك لتبرير العقوبة الفورية التي أوقعها بهم المأمون إذ ذهب الى السجن فضرب أعناق جماعة منهم وصلبهم أياما . وفيهم ابن عائشة الذي قيل إنه « شتم المأمــون في وجهه » تلك الليلة .

٢ ـ **العلويون** : أهم مايسجل للعلويين في هذه الفترة ويوضح في الوقت نفسه موقفهم تجاه العباسيين أن كلمة آل البيت أضحت مصطلحا شائعا ولكنه يحمل معاني مختلفة يمكن تلخيصها بأنها تضم بيوتات أربعا تشكل أربع دوائر متداخلة وبعضها اكبر من بعض : الدائرة الاولى الفاطمية تضم أولاد فاطمة فقط وهم بدورهم فرعان : بيت الحسن وبيت الحسين وهي أضيق الحلقات والمفاهيم . الثانية : العلوية وهي أوسع من الاولى لانها تضم العلويين أي كافة البيوت من نسل علي بن أبي طالب .

الثالثة : الطالبية وهي أشد سعة وتضم الطالبيين جميعاً من نسل

(١) انظر ابن طيفور ـ تاريخ بغداد ص ٩٧ ـ ٩٨ و ص ٩٩ .

أبي طالب ومنهم آل عقيل وال جعفر .

الرابعة : وهي أوسع الدوائر ويمكن أن ندعوها بالهاشمية أحيانا لانها تضم العباسيين خاصة في آل البيت وتضم معهم باقي الأسر من آل عبد المطلب بن هاشم .

وكان الشقاق والتزاحم بين هذه المفاهيم يعكس الاطماع المختلفة لأبناء هذه البيوتات الشريفة . في الميدان السياسي . وكثيراً ماكان أبناء الدوائر الأضيق ينفون أبناء الدوائر الاوسع عن القربى المباشرة بالرسول وبالتالي عن منابع الشرعية في الحكم وقد أدى ذلك إلى حقد بعضهم على بعض أحياناً وعمل بعضهم ضد بعض حتى درجة الوشاية للسلطات أو القتال .

وقد أدى هذا التوزع مع تكاثر الابناء والعدد في آل البيت وتشابك الاهواء السياسية والدينية المختلفة ضمن المجتمع الاسلامي الى ظهور الفرق المختلفة التي تنتسب الى آل النبي بشكل أو بآخر . والى تضارب الصلات بين هذه الفرق وتعقد العقائد التي يحملها أشياعها مع الزمن وهكذا صارت الفرق الطالبية خاصة ـ إذا تركنا جانبا الجماعة الهاشمية العباسية الحاكمة ـ مجموعة واسعة تضم أشتاتا من الآراء تمتد بين أقصى الغلو والباطنية وبين التشيع المعتدل الذي لايزيد عن احترام آل البيت .

على أننا نكتفي هنا بالاهتمام بالفرق والتحركات التي عبرت عن مطمح سياسي أو أثرت في مسيرة الدولة العباسية . وفي هذا المجال نلاحظ :

آ ــ ان البيت الذي استأثر بأكثر الحركات في هذه الفترة إنما كان البيت الفاطمي دون باقي الجماعات الأخرى بل استأثر بها خاصة الفرع الحسني من الفاطميين دون الفرع الحسيني أيضا . وبمعنى آخر قام بها من تسموا بالفرقة الزيدية دون الفرقة الاخرى التي عرفت بالامامية[1] والواقع أن الزعماء من آل الحسن هم الذين قادوا وحدهم تقريبا الطموح السياسي لآل البيت في العصر العباسي الاول فكان من ذلك ثورات عديدة فاشلة وتكوين دولة علوية في أقصى المغرب بينما اكتفى الحسينيون بالطموح العلمي فكان من ذلك انشاء الفرقة الامامية (المعروفة بالاثني عشرية) والمذهب الفقهي المعروف بالجعفري . وقد تأخر الحسينيون في تبنى الافكار والاطماع السياسية الى أواخر القرن الثالث الهجري حين ظهرت منهم الحركة القرمطية الباطنية في المشرق ثم ظهرت بعد ذلك الحركة الفاطمية في المغرب .

ب ــ بالرغم من أن العلويين (الحسنيين) نجحوا لاول مرة في التاريخ الاسلامي في اجتزاء قسم من الدولة العباسية . بعيد عن بغداد كل البعد ، فأقاموا فيه دولتهم الاولى (الادريسية) في عهد الرشيد فان الخارجين والمطالبين بالخلافة منهم كانوا رغم كثرتهم يفشلون لانهم غالبا ماكانوا يخرجون في عدد قليل من الانصار ودون تهيئة حكيمة للثورة فينتهي الامر بمقاتلهم أو بسقوطهم سجناء أو طرداء .

---

(1) بالرغم من ان زيد بن علي زين العابدين هو من نسل الحسين فان اولاد عمه آل الحسن هم الذين تبنوا الافكار السياسية التي قال بها في أواخر العهد الاموي واهمها أن الامامة محصورة في من يثور لها من ابناء الحسن والحسين . وأن الثورة واجبة على الامام الظالم . ولاقامة الحق وإزالة البغي . ولهذا دعى الحسنيون بالزيديين بينما أخذ الحسينيون اسم الامامية لقولهم بتسلسل الامامة في الائمة الاثنى عشر .

جـ ـ أدى النشاط السياسي العنيف الذي عاشته الدولة العباسية في عصرها اولا الى ظهور الجدل النظري الكلامي بين العلويين والعباسيين فاذا كانت حرب آل هاشم للامويين حربا لا يختلف عندها في افضلية اهل البيت عامة على بني أمية فقد احتاج الطالبيون الآن لمنافسة ابناء عمهم المباشرين منافسة نظرية بجانب الجهاد العسكري الحربي • واقتضى ذلك ترتيب الحجج الشرعية لأفضليتهم والدعاية الدقيقة ـ لاسيما في الشعر ـ لرأيهم وحقهم • فكان من ذلك ركام من الشعر والنثر اتتجنه قرائح الموالين لهم آنئذ في الفقه وعلم الكلام والشعر • ومن أشهر شعرائهم اذ ذاك السيد الحميري (الكيساني) اسماعيل بن محمد (١٧٣ هـ)وقد اسرف في ذم السنيين والصحابة حتى نبذ شعره • ثم دعبل بن علي الخزاعي الذي هجا خلفاء بني العباس وولاتهم وكبار دولتهم هجاء حفظت بعض كتب التاريخ والادب شيئا قليلا منه •

وظهر بالمقابل لدى العباسيين من يبين شرعية حكمهم إسلاميا بالاستناد الى الفقه الاسلامي كما ظهر من يصوغ شعرا لهم يسير على الالسن ويؤيد حقهم مثل : مروان بن أبي حفصه وغيره •

د ـ وبالمقابل فقد أدى فشل معظم الحركات العلوية مع بعض الاسباب الاخرى (كدخول الافكار غير الاسلامية في التشيع وتنافس افراد العلويين حول الامامة) الى دخول التشيع منذ نهاية عصر المأمون في طور سري ظهرت منه عقائد غريبة تغلغلت فيها الفلسفة وترسبات الاديان المختلفة الاولى ، كما تسربت هي بدورها بين الطبقات العامة فاستخدمت هذه الطبقات غرضا ووسيلة لعدة حركات مقبلة •

على ضوء هذه الملاحظات العامة ندرس بالمقابل تطور السياسة العباسية تجاه العلويين بفرعيهم الحسيني والحسني أو الامامي والزيدي[1]

أولا الحسينيون : (الامامية) رسم كل من عبد الله المحض زعيم آل الحسن وجعفر الصادق كبير الحسينيين منذ مطالع العصر العباسي الطريق السياسي لهذين الفرعين من آل البيت فاذا كان الاول ذا مطامع سياسية جعل يصبها ويحولها الى ابنه محمد (النفس الزكية) ويرجو له أن يكون « المهدي » المنتظر فان جعفرا الصادق قد اتجه الى العلم وسالم العباسيين فتقبلهم وتقبلوه • وقد استمر الخط الذي رسمه هذان الزعيمان هو خط الفرعين حتى آخر العصر العباسي الاول : للاولين الثورة وللاخرين العلم •

كان جعفر الصادق يهتم بالعلم والفقه على سنة ابيه محمد الباقر وجده زين العابدين في الشغل بالدين والبعد عن السياسة[2] وقد وجه اهتمامه مثلهما الى « إمامة » الجماعة الشيعية التي قادها ٢٨ سنة والى بناء تكوينها الفكري • وإذا عاصر الصادق ثورات الشيعة الزيدية ومصارعها أيام الامويين فقد اتخذ التقية مبدأ وكان يسمى الثائرين « بالغصاب » لأنه لايرى حمل السلاح ضد الحاكمين وهكذا رفض

---

(١) بهذين الاسمين كان يعرف الفرعان في العصر العباسي الاول • يروي الطبري أن جماعة كانوا في مجلس المامون « ... فتناظروا في التشيع فنصر محمد بن أبي العباس الامامة ونصر علي بن الهيثم الزيدية وجرى الكلام بينهما ... » انظر الطبري ج٨ ص ٥٧٧ (١٠٣٩/٣ — ١٠٤٠) •

(٢) انظر سبط ابن الجوزي — تذكرة الخواص ص ١٩٢ الذي يقول إنه شغل بالعبادة عن طلب الرئاسة والاصبهاني حلية الاولياء ج٣ ص١٩٢ الذي يقول إن الصادق «آثر العزلة والخشوع ونهى عن الرئاسة والجموع»

محاولات أولئك الذين عرضوا عليه الخلافة في مطلع العهد العباسي وكان على صلات طيبة مع ابي جعفر المنصور الذي سماه هو نفسه بالصادق وكان يظهر له الاحترام والتبجيل الشديدين مصانعة وسياسة. ويراقبه في الوقت نفسه [1] فلما سمع أن بعض الغلاة كابي الخطاب الاسدي قد التفوا حوله ويبشرون باسمه واسم ابنه اسماعيل استدعاه المنصور مع ابنه الى العراق[2] وقتل أحد انصارهما (بسام بن عبد الله الصرفي) . كما قتل الكثيرين من اتباع الصادق مثل المعلى بن جنيس الذي أخذ الصادق علنا ثأره من صاحب الشرطة الذي قتله ومثل أولئك الذين قتلوا حين قمع والي المنصور ثورة ابي الخطاب في البصرة سنة١٣٨ واذا استطاع الصادق أن يحافظ على مكانته وحياده رغم أنه وجد في فترة من أصعب وأدق الفترات التاريخية فقد تابع موسى الكاظم خطة أبيه بعد وفاته سنة ١٤٨ فكان للعلم وللمسالمة السياسية ومع ذلك فقد سجن مرتين ثم أعفى حياته في المرة الثالثة بسجن الرشيد سنة ١٨٤: كان سجنه الاول بامر المهدي نوعا من السجن الاحترازي : ويبدو انه دعابه من المدينة فأنزله منزلا إجباريا لدى بعض رجال حاشيته الربيع ابن يونس وتلا المهدي ذات يوم وهو في الصلاة :« فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم » فاستدعى موسى الكاظم وقال : قد خفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لي أنك لاتخرج علي .

---

(١) انظر ابن طولون ـ الائمة الاثنى عشر ص ٨٥ .

(٢) انظر كتاب اثبات الوصية المنسوب للمسعودي ص ١٥٣ (طبع المكتبة المرتضوية ـ النجف) .

(٣) انظر الكليني ـ الكافي ج٨ ص٣٦ ـ ٣٧ (الروضة من الكافي ـ مكتبة الصدوق طهران ١٣٨١) حيث يروي قصة حديث بين المنصور والصادق .

قال نعم : فوثق وخلاه[1] » وسجن في زمن الرشيد مرتين : **أطلقه في** المرة الاولى بعد أن رأى في منامه عبدا حبشياً يهدده أن ينحره بحربة إن لم يطلقه فأخرجه واعطاه ثلاثين ألف درهم [2] ثم سجن في المرة الثانية بسبب وشاية ــ فيما يذكرون ــ وصلت الخليفة عنه : قالوا إن يحيى بن خالد البرمكي أغرى علي بن اسماعيل بن الصادق بالمال وكان على علم بأخبار موسى الكاظم فذكر للرشيد أن الاموال تحمل اليه من المشرق والمغرب وأن له بيوت اموال وانه اشترى ضيعة بثلاثين الف دينار وسماها اليسيرة ... وذكر حساده أيضا أن الناس يعتقدون امامة الكاظم ويحملون اليه خمس أموالهم وأنه عازم على الخروج[3] ... ولكن المصادر الامامية تذكر اسبابا أخرى فتقول : إن الرشيد حين حج سنة ١٨٣ وقف أمام قبر الرسول في موكب بني هاشم والمهاجرين والانصار فقال : السلام عليك يارسول الله يابن عم » مفتخرا بنسبه فتقدم موسى فقال : السلام عليك يارسول الله ياأبت ... فتغير لون الرشيد[4] . أو تقول ان محمد بن اسماعيل بن الصادق كان يكتب لعمه موسى ويعرف اسراره فقال للرشيد : إن في الارض خليفتين يجبي اليهما الخراج فقال الرشيد ويلك ! أنا ومن ؟ قال : موسى بن جعفر وكشف أمره فقبض

---

(١) الطبري ج٨ ص ١٧٧ (٣/٥٣٣) والمصادر الامامية تجعل القصة مع الهادي (انظر بن عنبة ــ عمدة الطالب ص ١٦٩)

(٢) المسعودي يذكر القصة . مروج الذهب ج٣ ص ٣٥ ــ ٣٥٧ .

(٣) انظر الاصبهاني ــ مقاتل الطالبيين ص ٥٠١ ــ ٥٠٢ وابن طباطبا الفخري ص ١٩٦ .

(٤) انظر المفيد ــ الفصول المختارة من العيون والمحاسن ج ١ ص١٥ والطبري ــ اعلام الورى باعلام الهدى ص ٢٩٧ .

الرشيد عليه وكان سبب هلاكه[1] • أو تقول إن الرشيد اراد ارجاع « فدك » (وهي إقطاع الرسول لابنته فاطمة) الى موسى الكاظم فكان موسى يأبى ذلك ولما ألح عليه الرشيد قال : أقبلها بحدودها قال الرشيد وماحدودها ؟ قال : عدن وسمرقند وافريقيا وسيف البحر مما يلي الخزر ••• فغضب الرشيد وقال : فلم يبق لنا شيء فتحول الى مجلسي وعزم على قتله[2] •

ولم نذكر هذه الاخبار الا لاعطاء فكرة عما كان يجول فيأفكار العلويين عامة من الناحية السياسية ولكننا نرجح أنها أخبار موضوعة عامة في نطاق الجدل السياسي ــ الفقهي والارجح من خلال سيرة الكاظم وآبائه أنه لم يكن ليجبه الرشيد بالتفاخر ولاليواجهه بكشف المطمع السياسي وقد لاتكون قصة الوشاية من قبل ولدي اسماعيل بن الصادق وقصة البرمكي والاغراء بالمال أكثر من روايات وضعتللحط من قدر هؤلاء ولكن يبقى مع كل أولئك أمر هام رئيسي هو قصة « الخمس » الذي كان يجبى من أنصارهؤلاء الائمة فلاشك أن هذه الجباية بالذات كانت سبب الريبة والشكوك والسجن •

فالذي يظهر أن الامام الصادق نظم فيما نظم أمر الفرقةالامامية جمع هذا الخمس للائمة وكانت الاخبار التي تترشح لابي جعفر عن هذه الجباية هي التي تثير قلقه فكان يطمئن من الامام جعفر ويتوثقمن ولائه بين فترة وأخرى • ويبدو أن المهدي عرف بالامر على شكل

---

(١) ابن عنبه ــ عمدة الطالب ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤ •

(٢) ابن شهراشوب ــ مناقب آل ابي طالب ج٤ ص ٣٢٠ ــ ٣٢١ ، وانظر سبط ابن الجوزي ــ تذكرة الخواص ص ٣٥٩ ــ ٣٦٠ •

أوضح فخشي أن تكون هذه الاموال التي تجمع مطلع حركة انتقاض فسجن موسى حتى توثق منه فأطلقه • أما الرشيد فقد كان يقتر من عطائه لآل البيت • ذكروا أنه أعطاه مرة مائتي دينار بينما أعطى غيره خمسة آلاف وعلل ذلك قائلا لو أعطيته مأأمنت ان يضرب وجهي غدا بمائة ألف سيف ولهذا فقد كانت الجباية التي ترد من أنصار الامام بمختلف أنحاء الدولة الاسلامية جديرة بان تقلق الرشيد وتثير الريبة والشك عنده وتدفعه للحجر على الكاظم الذي يترأس عمليا منظمة دينية • له فيها الامامة ومن الممكن أ نتتحول في أي لحظة الى منظمة سياسية وقد حمل الكاظم أولا من المدينة فسجن بالبصرة لدى واليها عيسى بن جعفر بن المنصور الذي كتب الى الرشيد يسأله الاذن باطلاقه ويبدو أن الرشيد خاف تساهل هذا الوالي فنقل الكاظم الى بغداد لكن الرجل مالبث أن توفي في سجنه الثاني سنة ١٨٤ فأخرجه السندي ابن شاهك ودعا ثمانين من القواد والكتاب الهاشمين والقضاة والطالبين وكشف عن وجهه وأشهدهم انه ليس به أثر اغتيال قبل دفنه • ولئن كان هذا التصرف نفسه يؤكد الشكوك التي يثيرها الامامية حول قتله [1] لا موته فانه من المحتمل جداً أن يكون الموت طبيعيا وان تكون تلك الشهادة عملية احتراس دعوى امامية قد تتحول الى حركة سياسية لامبرر لها •

أما الذي تولى الامامة بعد الكاظم فانه علي الرضا • وقصته مع

---

(١) الدوري ــ العصر العباسي الاول ص ١٤٢ والمسعودي (مروج ٣ ص ٣٦٥) يذكر انه مات مسموماً وتجمع المصادر الامامية على موته بالسم . انظر المفيد ــ الارشاد ص ٣٠١ ــ ٣٠٢ و الصدوق ــ الامالي ص ١٤٩ ــ ١٥٠ .

المأمون سبق أن عرضنا لها في مشكلة ولاية العهد . وقد انتهى الرضا بدوره الى الموت في ظروف غامضة سنة ٢٠٣ ولكن المأمون الذي كان علويا في نزعته الفكرية النظرية رعى محمدا الجواد ابن الامام الكاظم وكان عمره ست سنوات عند موت ابيه ثمزوجه من ابنته.ولكنه احتضر وهو في ريعان الصبا سنة ٢٢٠ ليخلفه ابنه الامام الهادي علي بن محمد الذي عاصر الخلفاء حتى عهد المعتز ...

على أنه من الضروري أن نذكر للامامية ، في العصر العباسي الاول ثلاثة أمور إن لم يكن لاولهما من نتائج سياسية هامة سوى تسجيل بعض الثورات السياسية فقد كان للثاني والثالث نتائجهما الخطيرة الواسعة الأبعاد في التاريخ الاسلامي كله حتى اليوم :

فأما الأول فهو أن الجماعة الحسينية الإمامية لم تنهج كلها ، في الواقع ، المنهج السلمى وقد لجأ بعضها إلى الثورة المسلحة وثمة اكثر من خبر عن خروج بعض زعمائها : ففي زمن المهدي ظهرت بعض فرق الغلاة التي سميت بالحسينية أتباع الحسين بن أبي المنصور[1] وقدمزقها المهدي حين ثارت وقبض على زعيمها فقتله . وفي عهد الرشيد خرجأحمد ابن عيسى بن زيد الحسيني فحبسه الرشيد بالرافقة (على الفرات) سنة ١٨٨ فهرب الى البصرة وأخذ يكاتب الشيعة ويدعوهم الى نفسه فبث الرشيد عليه العيون وجعل لمن يجيء به الأموال فلم يظفر به وظفربصاحبه والمدبر لأمره وكان في التسعين من عمره ويسمى بحاضر فلم يدله على موضعه فقتله وصلبه . وطفىء أمر أحمد بن عيسى ولم يعرف خبره بعد

---

(١) وتدعى هذه الفرقة بالخناقين وقد انشأها أبو المنصور العجلي في العهد الأموي وقتل بها . وفي مذهبهم خنق مخالفيهم وقد صورالجاحظ (في الحيوان ج ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ و٢٧١ وج٦ ص ٣٩ — طبعة هارون) نشاط هؤلاء وعملهم .

ذلك[1] كما استغل بعض آل الحسين فترة الفوضى العامة التي أعقبت مقتل الأمين في الدولة فظهر منهم ثلاثة ثوار على الأقل : زيد (النار) بن موسى الكاظم في البصرة وأخوه ابراهيم في اليمن ومحمد الديباج في مكة • وسوف نعرض فيما بعد لهذه الثورات الثلاث باعتبارها ذيولا لقضية أخرى • ويكفي هنا أن نشير إلى أنها كانت مع تلك التحركات الحسينية الأخرى حركات محدودة العدد ومحدودة الأثر في وقت معاً •

وأما الثاني : فهو انقسام الفرقة الامامية ، ومنذ عهد جعفر الصادق الى طائفتين :

فرقة تسوق الإمامة لابنه الكبير اسماعيل رغم أن أباه حرمه ورغم أنه توفي في حياة أبيه (وهم الاسماعيلية)[2] فهو الامام السابع عندهم (أو ابنه محمد هو السابع) وتعرف هذه الفرقة بالسبعية أيضاً • وقد لعب الدور الأهم في وجودها الأول أبو الخطاب الأسدي بالاتفاق مع اسماعيل •

وفرقة أخرى تسوق الامامة لموسى الكاظم ، الأخ الأصغر لاسماعيل ، وهم جمهرة الإمامية وبعض منهم حول الإمامة الى محمد الأخ الثالث المعروف بالديباج ويعرف هؤلاء بالسمطية[3] •

وبعضهم يسوقها الى الأخ الرابع عبد الله الملقب بالأبطح (وإن لم يطل أمد إمامته) • وإذا نتجت عن هذه التفرعات مضاعفات كثيرة

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٧٠

(٢) ويدعون أيضاً المباركية نسبة الى المبارك مولى اسماعيل بن جعفر وسوف يدعون في المستقبل باسم الفاطمية أيضاً • وهم بالطبع غير الفرقة الاسماعيلية المعروفة اليوم •

(٣) نسبة الى رئيس لهم أيضاً يقال له يحيى بن أبي السميط •

انتهت بظهور كثير من الفرق الصغرى حول الإمامية التي اصبح اسمها فيما بعد الامامية الاثنى عشرية • فإن المضاعفات التي نجمت عن الفرق الاسماعيلية السبعية كانت أكثر خطراً وتعقيداً وأهم في الدور السياسي إذ أنها اصطنعت المذهب الباطني وخرج منها فرقة بعد فرقة الجماعة القرمطية والفاطمية والحاكمية (الدرزية) والاسماعيلية الصباحية ••• وقد لعبت هذه الفرق اكثر من دور خطير في تاريخ الاسلام كما أن بعضها ما يزال قائماً الى اليوم •

وأما الثالث فهو بلورة المذهب الإمامي وتكوينه في العصر العباسي الأول • وإذا كانت علاقات العباسيين بآل الحسن عدائية في الغالب فإنها على الأقل لم تكن على العداء مع آل الحسين والإمامية مما مكن هذه الفرقة أن تتكون بهدوء مستفيدة من علم الامام جعفر الغزير من جهة ومن الأخطاء السياسية التي ترتكبها الفرق العلوية الأخرى وهكذا ظهر « مذهب آل البيت » القائل بالامامة والعصمة والتقية كمبادىء سياسية بجانب المذاهب السنية الأخرى وأصبح أحد المذاهب الخمسة أو الستة الكبرى في الاسلام حتى اليوم •

ثانياً : حركات آل الحسن (الزيدية) : كانت علاقاتهم مع العباسيين قد وصلت أسوأ اطوارها عقب هزيمة محمد النفس الزكية وما سبقها وما تلاها من المآسي • لقد تصيد المنصور كبارهم قبل الثورة ومنهم ثلاثة من إخوة عبد الله المحض معه «•• فلم يزالوا في الحبس حتى ماتوا وقد قيل إنهم وجدوا مسمرين في الحيطان •••» وسحق رجالهم عند الثورة سواء في المدينة أو في البصرة • يقول المسعودي إنه «قتل مع (ابراهيم بن عبد الله) من الزيدية من شيعته أربع مائة وقيل خمس مائة

رجل ..»[1] ويقول ابن الساعي : « .. ابتلى الله تعالى المنصور بأذية آل الحسن السبط .. فقضوا بين مقتول ومسموم ..»[2] وهرب بعض دعاة الزيدية الى اليمن فأقاموا فيها أسس الحركات والدول التي سوف تظهر هنالك فيما بعد وسنعرض لها عند بحث حركات اليمن ...

وقد تنفس آل الحسن الصعداء عند موت أبـي جعفر . وزال الكابوس عنهم حين أعلن المهدي سياسته في اللين والرحمة العامةوحسبوا أن عهد التراحم والمسالمة الذي مر مروراً عابراً لسنوات معدودة زمن أبي العباس السفاح قد عاد كرة أخـرى حين حاول المهـدي استرضاءهم «فأخرج من كان منهم في السجن ، وأمر لهم على قـول اليعقوبي — بجوائز وصلات وأرزاق دارة ...»[3] ثم أعاد إليهم قطائعـهم التي صادرها أبوه وألغى الحصار الاقتصادي عن الحجاز ووزع عليهم أثناء حجه ، وعلى كبار أهل الحجاز ، المبالغ الطائلة . (٣٠ مليـون درهم ونصف مليون دينار) وأمن الحسن بن ابراهيم حفيد عبد الله المحض حين استأمن إليه وأقطعه مالاً من الصوافي بالحجاز وأحسن جائزته وصلته[4] كما ساعد استيزاره ليعقوب بن داوود على زيادة التفاهم معهم لما عرف من ميوله الزيدية . فإن المهدي كان يقول : «لو وجدت رجلا من الزيدية له معرفة بآل الحسن وبعيسى بن زيد (بن علي زين العابدين) فأجتلبه الى على طريق الفقه فيدخل بيني وبينهم فدل على يعقوب بن داوود» فجعله من خاصته ثم « مازال أمره يعلو حتى استوزره وفوض إليه أمر الخلافة.

(١) المسعودي — مروج الذهب ج ٣ ص ٣٠٨

(٢) ابن الساعي — مختصر اخبار الخلفاء ص ١٨ (منسوب الى ابن الساعي — المطبعة الاميرية — القاهرة سنة ١٣٩٠) .

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٤

(٤) الطبري ج ٨ ص ١٣٣ (٣ سنة ٤٨٣) .

فأرسل (يعقوب) الى الزيدية فأتى بهم من كل أوب وولاهم من أمور الخلافة في المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس ... »[1]

.. ولكن هذا العهد الرخي لم يدم طويلا لأن السعايات أقبلت تقنع المهدي أن المشرق والمغرب في يد يعقوب وأصحابه وقد كاتبهم وإنما يكفيه أن يكتب إليهم فيثوروا في يوم واحد فيأخذوا الدنيا لاسحق بن الفضل ... »[2] ونكب يعقوب وعزل أصحابه عن الولايات ولكنه لم ينكب الزيدية معه ... ولقد يكون استرابه بهم كما استراب بالامام موسى الكاظم ولكنه لم يشعر بحركة لهم إلا مرة واحدة إذ قدم علي بن العباس بن الحسن الى بغداد فدعا سراً لنفسه وتبعه بعض الزيدية ولكن امره كشف للمهدي فحبسه فلم يزل في السجن حتى استوهبه من المهدي الحسين بن علي بن الحسن فوهبه له ويذكر الاصبهاني الذي يروي الخبر أنه دس له حين أطلقه سماً «فلم يزل ينتقض عليه حتى قدم المدينة فتفسخ لحمه وتباينت اعضاؤه فمات»[3] .

وإذا كانت سياسة المهدي مع العلويين على الرحمة والوفاق بصورة عامة فان الهادي قلب هذه السياسة الى عكسها فجد «في طلب الطالبيين واخافهم خوفاً شديداً وقطع ما كان المهدي يجري لهم من الارزاق والاعطيات وكتب الى الآفاق في طلبهم وحملهم ...[4]» !

ولم يكن هذا الموقف القاسي نتيجة لفشل سياسة المهدي اللينة مع العلويين بقدر ما كان يرجع الى عنف الهادي وتعصبه المتطرف . فخرج

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١٥٦ (٣/٥٠٨)
(٢) الطبري ٨ ص ١٥٧ (٣/٥٠٩)
(٣) الاصبهاني ـ مقاتل الطالبيين ص ٤٠٣
(٤) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠٤

العلويون ضده في المدينة : تزعم الحركة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب آخر سنة ١٦٩ في موسم الحج •

ويبدو أن الرجل دفع دفعاً إلى الخروج إذ « •• عزم الشيعة وغيرهم إليه وكا نله مذهب جميل وكمال مجد وقالوا له أنت رجل أهل بيتك وقد ترى ما أنت وأهلك وشيعتك فيه من الخوف والمكروه فقال :وانني وأهل بيتي لانجدناصرين فننتصر فبايعه خلق كثيرممن حضرالموسم••»[١] على الثورة واللحاق به متى أعلنها • ولا شك أن الحسين كان متأثـراً كل التأثر بسياسة والي المدينة للهادي : عمر بن عبد العزيز العمـري (حفيد ابن الخطاب) الذي أفرط في التحامل على الطالبيين حتى أخذ كلا منهم بكفالة قريبه ونسيبه وبإثبات وجوده اليومي في البلد • كما عامل بعضهم معاملة سيئة مهينة اندفاعاً مع أهواء الخليفة[٢] • كما لا شك من جهة أخرى أن الحسين كان «تواعد» مع بعض أصحابه «على الخروج بمنى أو بمكة في الموسم كما كان قد كاتب قوماً من أهل الكوفة من شيعته» فجاؤوه « وبايعوه » «وكمنوا» في بعض الدور ••[٣] ينتظرون. فلما بايعه الخلق الكثير في الموسم بمكة اتفق معهم على كلمة السر :«من رأى الجمل الأحمر ؟» وعاد الى المدينة فخرج بأصحابه ونادى بالكلمـة « فما وافاه إلا أقل من خمس مائة»[٤] أما من كان في الموسم من الشيعة العباسية ومن الجند وممن لحق بهم عند سماع نبأ الثورة بأمر الهـادي

---

(١) اليعقوبي المصدر نفسـه

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٩٢ ـ ١٩٣ (٣/٥٥٢ ـ ٥٥٣) وهو يذكـر ان والي المدينة أوقع الحق على بعض العلويـين في شرب الخمر والمصادر الميالة للتشيع كالاصفهاني واليعقوبي تنفي ذلك .

(٣) المصدر ذاته ص ١٩٣ (٣/٥٥٣ ـ ٥٥٤)

(٤) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ والاصبهاني يجعلهم ٣٠٠ فقط .

فكانوا في تقدير المسعودي عدة جيوش في أربعة آلاف فارس[1] وأراد الحسين الثائر أن ... يتحول من المدينة الى مكة بعد ايام من خروجه وكان معه من اخوة محمد ذي النفس الزكية ادريس ويحيى (ولدا عبد الله المحض) فلاقاهم الجيش العباسي عند (فخ) قرب مكة يوم التروية (٨ ذي الحجة سنة ١٦٩/١١ حزيران سنة ٧٨٦) وكانت موقعة خاسرة لا تقل قسوة عن باخمرى وكربلاء قتل فيها الحسين الثائر وأصحابه وجماعة من أهله وتعطي بعض المصادر .. للهادي صورة يزيد وبكائه حين ورد عليه رأس الحسين ويقول المسعودي إنه قال : اتيتموني مستبشرين كأنكم جئتم برأس رجل من الترك أو الديلم . إنه من عترة رسول الله. إن أقل جزائكم عندي ألا أثيبكم . ولم تكن تلك الواقعة بالمهمة في حد ذاتها ، لولا النكال الذي كان بها . ولولا انها قضت على أثر سياسة اللين التي اتبعها المهدي [2] . ولولا أنها أخذت شأنها الكبير في النتائج التي ترتبت عليها :

١ ــ فقد فر منها ادريس بن عبد الله المحض (خال الحسين الثائر) الى مصر ومنها الى المغرب الاقصى فجمع لنفسه بعض الاشياع وفشا امره وتسمى بالخلافة (سنة ١٧٢ هـ ــ سنة ٧٨٨ م) وهي أول مرة يظهر فيها خليفتان معاً في الاسلام[3] ولم يستطع الرشيد ان يبعث اليه في مراكش بجيش يقضي عليه ، فيقال إنه استعمل له بمشورة يحيى البرمكي ، رجلا يدس له السم . وتم له مصرعه سنة ١٧٧ هـ غير أن

---

(١) المسعودي ــ مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣٦

(٢) انظر التفاصيل الواسعة لدى الطبري ج٨ ص ١٩٣ ــ ٢٠٢ (٥٥٣/٣ ــ ٥٦٧)

(٣) وكان الخوارج يسمون من يختارون بالإمام لا الخليفة .

أشياعه انتظروا ولادة جنين له من احدى إمائه ، فسموه ادريس واقاموا له الدولة التي عرفت بدولة (الادارسة) والمستقلة عن الدولة العباسية وسوف نبحثها فيما بعد ويكفي أن نشير هنا إلى أنهـا كانت اول دول العلويين • وثاني جزء من البلاد الاسلامية ينشق عن سلطـة العباسيين وبغداد ، نظرياً وعملياً •

٢ ـ وفر من موقعة فخ أيضاً اخ ثان لادريس هو يحيى بن عبد الله دخل بلاد الديلم يدعو لنفسه • وبالرغم من ان الرشيد بدأ عهده بازالة أثر سياسة اخيه القاسية ، فبذل الامان للطالبيين وأخرج الخمس لبني هاشم ، ورفع الحجز عمن كان منهم في بغداد سنة ١٧١ هـ وسيرهم الـى المدينة (عدا العباس بن الحسن بن عبد الله) وبرغم ما يروي الفضل بن الربيع من ميول الرشيد العلوية ، والتي يظهر انها لـم تكن تتجاوز حدود العطف على الاقارب ، فان هارون اضطرب لما علم بخروج يحيى في الديلم سنة ١٧٦ هـ وادعائه الامامة ، واجتماع الانصـار اليـه من الامصار والكور • هذا الى بعد البلاد ومناعتها • فندب الفضل بن يحيى البرمكي في خمسين الف رجل له • ورفده بأعظم القواد بعد ان ولاه ، جميع كور المشرق وخراسان ، وامره بقصد يحيى والجد به ، وبذل لـه الامان والصلة ان قبل ذلك[1] !••

واتبع الفضل طريقة الاقناع والمفاوضة مع يحيى • ولعلها كانت منه سياسة من جهة ، وميلا الى العلويين من جهة اخرى • ودس الى صاحب

---

(١) الاصبهاني ـ مقاتل الطالبيين ص ٤٧٠ . وانظر الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ١٩٠

الديلم من استماله بمليون درهم على قول الطبري [1] ، فانحرف عن يحيى . فلما رأى العلوي «تفرق أصحابه وسوء رأيهم فيه ، وكثرة خلافهم عليه [2] » أجاب الفضل الى الصلح . واشترط ان يكتب الرشيد الامان بخطه ، ويشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم . ورسي الرشيد أن يكتب الامان على مارسم يحيى . وجعل منه نسختين أرسل احداهما بتوقيعه وخاتمة الى يحيى[3] . فقدم هذا على الرشيد فسّر به «واجازه بجوائز سنية» وبالغ في اكرام الفضل البرمكي ووضع يحيى تحت اشرافه وفي كنفه .

على أن يحيى أحس بأن « في نفس الرشيد الحيلة عليه [4] » فاستطاع ان يؤثر على الفضل ليطلقه . فسافر الى الحجاز ثم علم الخليفة بالأمر وجاءه من يوسوس له ان يحيى يدعو لنفسه فأمر بحمله الى بغداد وسجنه في سرداب [5] .. وكان يناظره بين حين وآخر . ثم احضر الفقهاء ليجدوا له مخرجاً من الأمان المكتوب له . فلم يجرؤ أن يفتي بذلك سوى ابي البختري القاضي ؛ فحمله الرشيد مسؤولية الفتوى . وختمت حياة يحيى بشكل غامض في السجن ، بعد الفتوى بحوالي شهر [6] .

(١) الطبري ج ٨ ص /٢٤٣ (٦١٤/٣) والمسعودي (ج٣ ص ٣٥٢) يذكر انه «باعه» بمائة مليون ولعله خطأ النسخ .

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٤٧٠

(٣) المصدر نفسه وانظر الطبري ج٨ ص ٢٤٣

(٤) الاصبهاني ـ مقاتل الطالبيين ص ٤٧١

(٥) المصدر نفسه ص ٤٧٢

(٦) الطبري ج٨ ص ٢٥٠ (٦٢٣/٣ ـ ٦٢٤) . والاصبهاني ـ مقاتل الطالبيين ص٤٧٢ . واليعقوبي يقول إنه مات جوعاً بينما يذكر المسعودي انه قد بنى عليه ركن بالحصى والحجارة وهو حي .. (مرو ج٣/٣٥٢) .

وإذا تذكرنا موقف الرشيد من موسى الكاظم الذي أنهى حياته في السجن ومن أحمد بن عيسى بن زيد الذي هرب من السجن ثم أختفى أثره أمكننا القول إن الرشيد كان لا يزال على الرعاية والعلاقة الطيبة مع العلويين ما داموا مسالمين لا يعبرون عن رأي طموح سياسي فإن تنبه منهم الى طيف من ذلك تحول كغيره الى رجل دولة يريد الحفاظ على دولته بأي ثمن ودون أي اعتبار لقرابة أو حرمة ولم يتردد عن استخدام السجن والغدر والمطاردة .

ولم يظهر للعلويين من أثر واضح زمن الأمين والفتنة . أما المأمون فيتفق المؤرخون : كالطبري واليعقوبي والمسعودي والذهبي ، على وصفه بالتشيع . ويذكرون له أنه أمر سنة ٢١١ هـ بأن يقال : «خير الخلق بعد النبي صلى الله عليه وسلم على ...» وأنه جادل الفقهاء في فضل علي وكاد يأمر بلعن معاوية على المنابر .. ثم أمسك . وأنه رد (فدك) إلى آل فاطمة ، (وكان أبو بكر الخليفة الأول قد استردها منها بعد وفاة والدها الرسول الذي كان أقطعها إياها وقال : سمعت رسول الله يقول : «الأنبياء لا يورثون») . وربما كان هذا الميل العلوي في المأمون نتيجة اتصاله ببني سهل ؛ ولكن المأمون لم يكن في الواقع شيعياً إلا في الميل العاطفي الديني ، على حد قول المستشرق غبريللي ، الذي درس علاقة المأمون بالعلويين درساً وافياً خلص منه إلى هذه النتيجة . وربما كان الأصح أن نقول أن تشيعة إنما كان على أساس المنطق الفكري الاعتزالي وقد تطور هذا الميل لديه أول الامر وبتأثير الفضل بن سهل والظروف السياسية إلى درجة مبايعة أحد العلويين (علي الرضا) بولاية العهد ... على أن العلويين قبل هذه البيعة كانوا قد استغلوا الفوضى الشاملة بسبب الحرب الأخوية فاشعلوا العراق والحجاز واليمن بالثورة ووقعت هذه البلاد موقتاً في سلطانهم على اختلاف في المتزعمين لها .

ويرجع سبب سيطرتهم السريعة إلى عوامل عدة :

آ ـ بقاء المأمون في مرو بسبب خوفه من أهل بغداد وسياسة الفضل بن سهل لابقائه فيها • فبقي بعيداً لا يعلم بما يجري في قلب البلاد ليعالجه •

ب ـ سخط العناصر العربية على سياسة الفضل الفارسية•وسخط العباسيين خاصة على المأمون •

جـ ـ الفوضى الشاملة التي نتجت عن حصار بغداد ، ومقتل الأمين ورفع يد طاهر بن الحسين العسكرية وتعيين الحسن بن سهل •

د ـ طموح العلويين وسنوح الفرصة المناسبة لطعن العباسيين •

هـ ـ ويمكن أن نضيف أخيراً ضجر الناس من الخصومة الأخوية ورجاءهم الخلاص من ذلك الوضع السيء •

مهد كل ذلك لانتشار الثورات التي ظهرت أخطرها في العراق سنة ١٩٩هـ/٨١٥ م على يد أبي السرايا (السري بن منصور الشيباني) • ويختلف تصوير هذا الرجل لدى المؤرخين فهو عند الطبري مشاغب مغامر ، وعند الاصفهاني (في مقاتل الطالبيين) بطل شيعي وعند غبريللي: «فارس عربي من الطراز القديم[1]» ويقال إن السبب المباشر في خروجه أنه كان من رجال هرثمة بن أعين فمطله بأرزاقه وأخره بها فمضى الى الكوفة غاضباً ثائراً [2] •

وقد اتخذ أبو السرايا بجانبه شخصية علوية يدعو لها هي ابن طباطبا (واسمه :محمد بن ابراهيم بن أسماعيل من الفرع العلوي الحسني) الذي ظهر في الكوفة وانضمت إليه كل القوى العلوية التي كانت

---

(١) انظر الدوري ـ العصر العباسي الأول ص ٢٠٦

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٥٢٩ (١/٩٨٧)

بالعراق • ويؤكد غبريللي أن ثورته وثورة صاحبه أبي السرايا عربية عراقية صرفة • وإن التشيع كان حتى ذلك الوقت عربي الصبغة وكان هدف الثورة تحطيم بني العباس ، والصبغة الفارسية التي أغرقوا فيها (أيام المأمون خاصة) •

وأعلن ابن طباطبا برنامج الثورة في دعوته الناس إلى « كتاب الله وسنة نبيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسيرة بحكم الكتاب•• »
ولكن المأمون استطاع أن يقاوم هذه الحركة عن طريقين :
آ ـ سلبياً بنصب علي الرضا لولاية العهد والمجيء به من المدينة إلى مرو ومبايعته (في ٧ رمضان سنة ٢٠١) ونشر المأمون منشوراً على الناس يسترضيهم فيه وتظهر فيه مسحة الدعاية لصاحبه العلوي ، وحب تألف القلوب العلوية يقول فيه : «أنه بعد استخارته الله تعالى واجهاده نفسه في حقه وبلاده ••• اختار من البيتين العلوي والعباسي علي بن موسى بن جعفر (الرضا) لما رأى من فضله البارع وعلمه الناصع وورعه الظاهر وتحليه من الدنيا وتسلمه من الناس» • فلما قتل أبو السرايا (ومن قبله ابن طباطبا) تخلص المأمون من علي الرضا بدوره اذ لم يعد له لزوم في سياسته ولا مكان في خططه •

ب ـ ايجابياً إذ نصب المأمون لقيادة جيشه قائده الكبير هرثمة ابن أعين ووجهه إلى الكوفة • وأعين المأمون على أبي السرايا بعدد من العوامل: فإن ابن طباطبا العلوي توفي فجأة (ويقال إن أبا السرايا سمه لانه علم أن لا أمر له معه[1]) ثم أن أهل الكوفة تخاذلوا في نصرة الثائر وتخلى اشرافهم عنه وتهاونوا مع هرثمة لا سيما حين «أقام أبو السرايا غلاماً أمرد حدثاً من العلويين مكان ابن طباطبا (هو محمد بن محمد حفيد

---

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٢٩ (٣/٩٧٨)

زيد بن علي) فكان أبو السرايا هو الذي ينفذ الأمور ويولى من رأى ويعزل من أحب ...» ويضرب الدراهم بالكوفة بينما انتشر الطالبيون في البلاد[1] وهزم أبو السرايا عدداً من الجيوش التي أرسلها الحسن بن سهل ضده فاضطر ابن سهل الى أن يعهد الى هرثمة بن أعين «أعظم القواد بحربه رغم مغاضبته له ، لا سيما حين أضحى جنوب العراق كله حتى مشارف بغداد بيد أبي السرايا الذي وجه اثنين من العلويين أخذ أحدهما المدينة دون حرب بينما هرب الوالي العباسي (داوود بن عيسى ابن موسى) وهرب بعده موالى بني العباس[2] من مكة فتركوها للعلوي الثاني الذي وصلها في آخر موسم الحج وهو الحسين بن الحسن الافطس .

لكن هرثمة كان في تلك الأثناء قد تصدى لأبي السرايا وهزم رجاله أكثر من مرة حتى ألجأه إلى الكوفة حيث انتهب العلويون دور العباسيين ودور مواليهم وأموالهم وطردوهم أقبح الطرد[3] ولكنها كانت نوعاً من الانتقام المتأخر حين شعروا بميل الكفة ضدهم حين خسروا واسط والبصرة تكاد تسقط وهرثمة قادم في إثرهم إلى الكوفة ولم يمض من مطالع سنة ٢٠٠ سوى اسبوعين ونيفاً حين هرب أبو السرايا ومن معه من الطالبيين من الكوفة وكانوا على الطريق إلى الأهواز حين التقوا

(١) المصدر نفسه ٨ ص ٥٣٠ (٣/٩٧٨)

(٢) يذكر الطبري (ج٨ ص٥٣٢) ان بعض عبيد وموالي العباسيين حاولوا تحريض داوود بن عيسى الوالي على المقاومة والدفاع عن ملك اهله فرفض وقال : اي ملك لي والله لقد اقمت معهم حتى شيخت فما ولوني ولاية حتى كبرت سني ... إنما هذا الملك لك ولاشباهك» .

(٣) الطبري ج ٨ ص٥٣١ (٣/٩٨١)

بالحسن بن علي الباذ عيسى المعروف بالمأموني فقاتلوه فهزمهم وجرح أبو السرايا في المعركة جراحات شديدة وهرب مع جماعته شمالا يريدون الجزيرة وبلدة رأس العين منزل أبي السرايا . ولكنهم أخذوا في الطريق وجيء بهم إلى الفضل بن سهل بينما كانت البصرة تسقط في يد الجيش العباسي وأسر زيد بن موسى العلوي فيها وكان يسمى زيد النار لكثرة ما حرق من دور بني العباس واتباعهم في البصرة وما حرق من المسودة الذين كانوا يقعون بيده[1] ...

وانتهى امر ابي السرايا بالقتل والصلب بعد ان دامت حركته(منذ جمادى الاخرة سنة ١٩٩ الى ذي القعدة سنة ٢٠١ هـ) أما محمد بن محمد العلوي فقد عفا ابن سهل عنه قائلا : لعن الله من غرر بك ! ولكن موقف العلويين من المأمون لم يصف نهائياً ولا انتهى الى وفاق . فبالرغم من انه غطى على سياسته الغائية بمعاملة العلويين بالرفق ، فان بعض آل علي كانوا يدبرون الأمر للخلاص منه وقد خرج عليه عدد منهم :

١ ـ محمد الديباج ابن جعفر الصادق في مكة وإنما كانت حركته أحد ذيول حركة أبي السرايا . فإن العلوي الذي دخل باسمه مكة وهو الحسين بن الحسن الأفطس جلس في مطلع سنة ٢٠٠ فنزع «كسوة الظلمة» العباسيين عن الكعبة وكساها ثوبي قزرقيق كتب عليهما : «مما أمر به الأصفر بن الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد ... » وأقبل الحسين مع جماعته على دور بني العباس ومواليهم وأموالهم بالمصادرة والعقوبة حتى أقاموا «داراً للعذاب» فلما بلغهم مصرع أبي السرايا وطرد الطالبيين من الكوفة والبصرة جاؤوا الى محمد الديباج وكان شيخاً

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٣٥ (٣/٩٨٦) .

وادعاً محبباً إلى الناس ، يروي العلم عن أبيه ويظهـــر السمت والزهد فحملوه على أن يتسمى بإمرة المؤمنين ويؤكد الطبري أن الرجـــل أبى التورط السياسي فما زالوا به ومازال به ابنه علي حتى قبل . وبايعوه ..
وقد انقضت الأشهر القليلة التي قضاها على ذلك أسوأ الانقضاء بسبب سوء سيرة ابنه واصحابه من الناس حتى جاء الجيش العباسي من اليمن وعليه اسحق بن موسى بن عيسى العباسي وانتهى الصـــدام بأن طلب محمد الديباج وجماعته الأمان على أن يخرجوا حيث شاؤوا .. وخرج الرجل فلقي من العنت والعدوان والعذاب بعد ذلك الكثير وفقد في بعض المعارك عينه ثم طلب الأمان من الوالي العباسي فدخل إثر ذلك الى مكة وصعد المنبر فخلع نفسه وجدد البيعة للمأمون وعليه قباء أسود وقلنسوة سوداء ولكن ... دون سيف ! وذكر أنه إنما قبل البيعة لأنه سمع أن المأمون توفي ! ثم خرج به عيسى بن يزيد الجلودي إلى العراق ثم لحق بالمأمون في خراسان فعفا عنه[1] .

ب ـ عبد الرحمن بن أحمد (بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب) في اليمن سنة ٢٠٧ «وكان السبب في خروجه ـ على ما روى الطبري ـ أن العمال باليمن أساؤوا السيرة» فبايع الناس عبد الرحمن. وقد وجه اليه المأمون بجيش كثيف مع القائد دينار بن عبد الله ومعه كتاب بالأمان . واختار عبد الرحمن كتاب الأمان فجاء بهم دينار الى المأمون في بغداد ويبدو أن اللقاء بـــه لم يرض المأمون أو تطاول في الحديث

---

(١) انظر في تفصيل حركة محمد الديباج : الطبري ج٨ ص ٥٣٦ـ ٥٤٠ (٣/ ٩٨٨ ـ ٩٩٥)

«فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد ...»[1] .

حـ ـ القاسم بن اسماعيل بن ابراهيم (بن الحسن بن الحسن بن علي) . وقد استتر في مصر زهاء عشر سنين ثم بايعه أهل مكة والمدينة والكوفة والري وقزوين وطبرستان والديلم وكاتبه أهل البصرة والاهواز فعاد إلى الحجاز ومنها إلى تهامة ، واختفى في اليمن حين طلبه المأمون . ولم ينته أمره حتى زمن المعتصم سنة ٢٢٠ هـ .

وربما كان يلخص رأي المأمون وموقفه من القضية العلوية قوله لبعض العلويين حين أراد الاعتذار عن حركاتهم السابقة : كف واستمع مني : أولنا وأولكم ما تعلمون وآخرنا وآخركم ماترون وتناسوا مابين هذين ...»[2] .

٣ ـ الخوارج :

تنتهي في هذه الفترة (١٥٨ ـ ٢١٨ هـ) قصة الخوارج بعد أن دامت قرناً ونصف القرن فيسجلون في عصر الرشيد أواخر انتفاضاتهم الدموية . وتمشي عقيدتهم إلى التوطن والهدوء في بعض الاقطار النائية عن مركز الدولة أو الجبلية العسرة ذلك أن الظروف السياسية والاجتماعية للدولة الاسلامية كانت قد تجاوزت الآراء الخارجية وجعلتها متخلفة عن زمانها وغير ذات موضوع :

آ ـ فأما خوارج افريقية والمغرب فيدخل أمرهم في بحث حركات الأقاليم لما نجم عنها عن استقلال تلك الاقطار .

ب ـ وأما خوارج عمان . أصحاب الجنلدي فقد كانت الضربة

(١) الطبري ج٨ ص ٥٩٣ (١٠٦٢/٣)

التي نزلت بهم أيام ابي العباس من القسوة بحيث أخلدوا بعدها إلى الهدوء أربعين سنة وإن لم يتخلوا عن المذهب الخارجي • يقول البلاذري : «••• ولم تزل عمان مستقيمة الأمر يؤدي أهلها صدقات أموالها ويؤخذ ممن بها من الذمة جزية رؤوسهم حتى كانت خلافة الرشيد • فولاها عيسى بن جعفر بن سليمان (بن علي بن عبد الله بن العباس) فخرج إليها بأهل البصرة فجعلوا يفجرون ويسلبون ويظهرون المعازف فبلغ ذلك أهل عمان • وجلهم شراة (خوارج) فحاربوه ومنعوه من دخولها • ثم قدروا عليه فقتلوه وصلبوه • وامتنعوا على السلطان ولم يعطوه طاعة وولوا أمرهم رجلا منهم •••»[1] •

كانت هذه الثورة التي تمت سنة ١٧٥/٧٩١ احدى أخطر الثورات التي تمت في العهد العباسي وذلك بسبب النتائج البعيدة التي ترتبت عليها • فإنها رغم قرب عمان من العراق لم تكن ثورة عادية ينتهي امرها بإخمادها وقتل زعيمها ولكنها كانت ثورة شعبية كاملة أقنعت الرشيد أن لا أمل للحكم العباسي فيها • وبالرغم من أن خوارج عمان قد أقاموا لأنفسهم «إماماً» منهم ينافس خليفة بغداد فإن الرشيد لم يحاول زحزحة هذا الإمام أو حربه بعد أن بايعه الناس • وهكذا كان محمد بن عفان هو الإمام الأول ثم تلاه سنة ١٨٥ إمام آخر هو الوارث بن كعب ، وثالث سنة ١٩٢ هو غسان بن عبد الله ••• وكل ذلك في عهد الرشيد • ويستمر الأمر في يد غسان حتى يليه في عهد المأمون سنة ٢٠٨ عبد الملك ابن حميد ثم المهني بن جعفر سنة ٢٢٨ وينعم أئمة عمان بالاستقلال على هذا النحو ما يزيد على مائة سنة حتى يفتك بهم العباسيون سنة ٢٩٠ هـ (٨٩٣ م) في عهد الخليفة المعتضد فيقتلوا امامهم حسن بن سعيد ويرسلوا

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان (ط . المنجد) ج١ ص ٩٣

برأسه الى بغداد • ولكن ذلك لم يكن يعني ـ على ما يظهر ـ تبعية عمان لبني العباس لانا لانلبث ان نرى اماماً جديداً يظهر في عمان هو : الحواري بن مطرف سنة ٢٩٢ ويبقى الحكم في يد هؤلاء الأئمة (وينشرون مذهبهم الخارجي في زنجبار بشرقي افريقيا) حتى سنة ١١٩٣ هـ ، أي يبقى فيهم زهاء عشرة قرون إلى ان يزيلهم عنه جماعة «الاسياد» واولهم حميد بن سعيد وما يزال الحكم في أحفاده هناك إلى اليوم •

جـ ـ وأما خوارج الجزيرة فقد أخرجهم علي المهدي والرشيد خاصة تلك النزعة الخارجية المتأصلة فيهم منذ العهد الأموي ، وظلم الولاة الذي قال فيه شاعرهم :

أنا الوليد بن طريف الشاري ظلمكم أخرجني من داري

وأخيراً ما يأخذونه على الخلفاء من مجافاة للدين وعمل بمالا يتفق مع أوامره ومع الواجب نحو الجماعة الاسلامية • وقد تعددت حركاتهم في هذه الفترة حتى لنعد منها خلال حوالي عشرين سنة (١٦٠ ـ ١٨٠) ما يزيد على عشر ثورات ، أخذ بعضها برقاب بعض ومن تلك الثورات :

ـ خروج عبد السلام بن هاشم اليشكري في أرض الجزيرة سنة ١٦٠/٧٧٦ وقد اشتدت شوكته ما بين الموصل وحلب وكثر اتباعه للدرجة التي استطاع معها أن يقود الثورة في هذه المنطقة الواسعة المطلة على مركز الخلافة والمسيطرة على طرق التجارة مدة سنتين وأن يهزم عدداً من قواد المهدي واحداً بعد الآخر • وقد حاول المهدي محاورته • كتب إليه كتاباً يسأله فيه : «إني قد عجبت من إحداثك وبغيك حيث أسألك ما نقمت إذ حكمت (أي صرت خارجياً) • تكلمت بكلمة حق تريد بها

ما الله مخزيك به ... (ولعل اليشكري كان يطالب بالعمل بكتاب الله وسنة نبيه) ... فأقسم لأغزينك أجنادا مطيعة ... يفضون جمعك ويهتكون بناك ... فاعمل لنفسك أو دع ... » ويحفظ عن خليفة بن خياط نص جواب اليشكري الذي يقول فيه : « من عبد السلام بن هاشم الى محمد بن عبد الله (ولا يخاطبه بالخلافة) : سلام على من اتبع الهدى ، واجتنب الغي ، وقام بالحق ، فلا الهدى ابتغيت ولا الغي اجتنبت ولا بالحق قمت .. أتاني كتابك تعجب عما نقمت إذ حكمت فلست بتاركك في عمياء مما أنت مع أنك إنما خدعت عن هذا نفسك وقد علمت أني إنما ... حكمت حين تركت الأمة تائهة لا حدودها أقمت ولا حقوقها أديت . وشغلت بإمائك ... وبنائك ... والصيد فإذا انثنيت من صيدك تغذيت وغنيت فيمين الله ما أفحش هذا ممن يدعى خلافة الله وأنت إذا خطبت كذبت وإذا عاهدت نكثت .. خدعك يعقوب ابن داوود أخاً آخيت .. ففي أي دين يسعك وفي أي كتاب إذ تعدو وظيفة ، أو تنقص مساحة ، أو تصطفي بستانا ، أو تبذخ في مركب ، أو ترمي به في النزهة ، أو تفاوض في جند ، أو تحبس عطاء ، او تنسى من غزا ، أو تعاقب بالسوط سافكاً الدم أيها الطاغية ... » ونحن نقرأ في الرسالة المآخذ التي كان يأخذها الخوارج على سياسة المهدي وإدارته. لكن الطريف الذي يلفت النظر هو ما يكشفه كتاب المهدي إلى اليشكري من أن العباسيين في حربهم للخوارج كانوا ينصبون أنفسهم محامين عن علي بن أبي طالب ومن أنهم كانوا يعتبرون الخروج عليهم خروجا على طاعة الله . يقول المهدي في كتابه : «... تكلمت بكلمة حق تريد بها ما الله مخزيك به وسائلك عنه مع مناوأتك خليفته ونزعك يدك من طاعته. وشتمك أبا الحسن علي بن أبي طالب ووقوعك فيه وتنقصك إياه فقد

أتاك حديث صادق عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقوله : من كنت مولاه فعلي مولاه «فكنت المكذب بذلك والحائد عنه ..»وهما مبدآن أساسيان للعباسيين الأوائل ندر أن نجدهما مجتمعين في وثيقة كهذه الوثيقة .

وقد ندب المهدي لقتال اليشكري ألف فارس أعطى كلا منهم ألف درهم معونة ووجههم لنجدة جند الجزيرة وقائدها شبيب بن واج المرورروزي الذي واقع في النهاية عبد السلام فهزمه ثم لحق به الى مقره في قنسرين فقاتله عليها وقتله سنة ١٦٢[١] .

ــ خروج ياسين التميمي سنة ١٦٨ وقد هزم عسكر الموصل وغلب على أكثر ديار ربيعة الجزيرة قبل أن يجتمع عليه أثنان من خيار قادة المهدي : ابو هريرة محمد بن فروخ وهرثمة بن اعين فيقتل في معركة معهما ويهزم أصحابه[٢] .

ــ خروج حمزة بن مالك الخزاعي سنة ١٦٩ الذي كرر قصة سابقيه في منطقة الموصل قبل أن يقتل اغتيالا[٣] .

ــ ثورة الصحصح الخارجي سنة ١٧١ زمن الرشيد وهي نسخة أخرى من الثورات السابقة الفاشلة التي تنتصر أولا ثم تموت وقد حاربه

---

(١) انظر ابن الأثير ج٦ ص ٤٨ وص٥٧ وانظر خليفة بن خياط ــ التاريخ ج ٢ ص ٤٧٥ (طبعة العمري ــ بغداد) .
(٢) المصدر نفسه ٦ ص ٧٨
(٣) المصدر نفسه ٦ ص ٩٥

أبو هريرة ثم عزل عن الجزيرة بسببه ولكن بعد أن قتل الخارجي[1] .

- ثورة الفضل الخارجي سنة ١٧٦ الذي ظهر بنواحي نصيبين وجبى الأموال منها وسار الى آمد وأرزن ودارا وخلاط فجباها جميعاً وهزم عسكر الموصل عند الموصل ، على الزاب ولكنه .. قتل في النهاية[2] .

- ولعل أخطر الثورات وأهمها كانت ثورة الوليد بن طريف الشاري الذي خرج سنة ١٧٨ وجعل مركزه في مدينة نصيبين بعد ان فتك بها وبعامل الرشيد فيها . وهزم عدة جيوش للخليفة في ارمينية واذربيجان وجعل يتجه إلى الجنوب مهدداً السواد . وندب له الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني (ابن اخي معن بن زائدة صاحب الراوندية ومن قبيلة الوليد نفسها) . فاتبع معهم سياسة المخاتلة والمطاولة . ولكن البرامكة وسوسوا الى الرشيد انه يتهاون مع بني عمه فأمره بالجد في القتال ... وقتل الوليد سنة ١٧٩ هـ في مبارزة فرديةمع يزيدفتضعضع شمل اصحابه من بعده . وبالرغم من ان اخته ليلى(وهي شاعرةومحاربة) تولت القيادة بعده غير ان مقاومتها كانت قصيرة . وقد استطاع يزيد ان يردها الى الهدوء بأن أخجلها في الميدان .

- ومن أواخر الثورات تلك الثورة التي اعقبت هزيمةالوليدوقد قام بها في عدة مئاتة خراشة بن شنيان سنة ١٨٠ ويفصل خليفة بن خياط

---

(١) ابن الاثير ٦ ص ١١٢

(٢) المصدر نفسه ٦ ص ١٣٣

المؤرخ في خبر خراشة الذي لا يعدو أن يكون خبر مغامر شجاع انتهى نهاية اصحابه[1] على يد مسلم بن بكار العقيلي •

وسيرة هذه الثورات المختلفة تكشف عن تشابه كامل إذ تبدأ عنيفة قوية ثم تمتد على مناطق متعددة وتجبى الأموال في محاولة لايجاد نظام حكم خارجي أعدل وتهزم عدداً من الجيوش العباسية قبل أن تتكاثر عليها هذه الجيوش فتقتل زعيمها وبعض أصحابه فيؤدي ذلك إلى قتلها بدورها • وهذا التشابه قد يوحي باحتفاظ الخوارج حتى بعد مرور قرن وربع أو نصف القرن على ظهورهم الأول بالسذاجة الثورية وبالاخلاص الديني العنيف اللذين ما انفكا من ميزة الحركات الخارجية • على أن تكرر هذه الثورات دون انقطاع إنما كان دليلا وتعبيراً عن الاستياء المتمادى والنظرة الحاقدة العدائية التي كان ينظر بها عرب الجزيرة خاصة للحكم العباسي • أما السكان الاصليون ومعظمهم من الذميين واليعاقبة والأرمن فإنهم وإن كانوا ناقمين فإنا لا نجد لهم ظلا في هذه الحركات الخارجية بل كانوا بدورهم من ضحايا تلك الثورات •

على أن الظروف العامة من سياسية ودينية واقتصادية واجتماعية كانت تتغير في الشرق العربي منذ مطالع القرن الثالث الهجري ، ولهذا تهمد حدة الثـورات الخارجية في الجزيرة بعد الوليد بن طريف فلا نكاد نسمع إلا النادر من حركاتها وأخبارها سنة ١٨٠ ثم سنة ١٨٤ ثم ثورة سيف بن بكير سنة ١٩٠ ثم ابنه شروان بن سيف سنة ١٩١ ـ ١٩٢ ثم ثورة خارجية أخرى سنة ٢٠٢ ثم تموت الأخبار بعد ثورة بلال الشاري سنة

---

(١) خليفة بن خياط التاريخ ج٢ ص٤٨٨ ـ ٤٩٠

٢١٤ فلا نسمع للخوارج من حسيس في الجزيرة لأن هموماً ومشاكل أخرى كانت تجذب اهتمام أهلها .

ء ـ خوارج خراسان كانت الثورة الخارجية التي انجازت الـى خراسان منذ العهد الأموي وعششت خاصة في سجستان أي في المنطقة الجنوبية منها ما تزال ناشطة فعالة حتى عصر الرشيد . كانت الظروف العامة للمنطقة تسمح لها بالبقاء والنشاط . ولعل أخطر حركاتها :

ـ ثورة يوسف بن ابراهيم البرم : وأصل الرجل من موالي ثقيف في بخارى ويبدو أنه كان على جانب حسن من التقوى والاخلاص الحار للمعتقد الديني . وإذا كان ثمة شك حول انتمائه السياسي جعل الطبري يسكت مرة عن هذا الانتماء ويروي مرة أخرى إنه عند بعض المسلمين كافر[1] ويحكي ابن الأثير إنه «قيل إنه كان حرورياً» إلا إن جرأة الرجل وشعاراته وأعماله والمكان الذي ظهر فيه مع بعض القرائن الأخرى ترجح كلها أنه حروري خارجي . فقد دعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنكر على المهدي الحال التي هو بها وسيرته التي يسير عليها مما يذكرنا بالدعوة التي نادى بها في الوقت نفسه عبد السلام اليشكري في الجزيرة وقد ثار الاثنان في سنة واحـدة سنة ١٦٠ واتفقا لا في الأمر بالمعروف فقط ولكن في نقد سيرة المهـدي أيضاً واجتمع البشر الكثير حول يوسف البرم ومن بينهم بعض الفقهاء كابي معاذ الفاريابي . بدأت الثورة في بوشنج وعليها مصعب بن زريق (جد طاہر بن الحسين) فهرب منه وعند ذلك تغلب على بلدان أخرى في المنطقة منها مرو الروز والطالقان

---

(١) الطبري ج ٨ ص ١٢٤ وص ٣٧١

والجوزجان وفشا أمره للدرجة التي جعلت المهدي يرسل عليه قائده المشهور يزيد بن مزيد الشيباني • وفي المعركة التحم الرجلان حتى صارا إلى المصارعة الجسدية وانتصر يزيد • قيل إنه رفع علماً أحمر وأمن من يصير تحته فصار إليه كل أصحاب يوسف[1] وأسر يوسف مع بعض أصحابه فوجه بهم يزيد الى بغداد • وفي النهروان ـ حيث كانت أول هزائم الخوارج الأولين : وضع يوسف على بعير وقد حول وجهه الى ذنبه وأصحابه مثله فأدخلوهم الرصافة على تلك الحال ويذكر اليعقوبي أن يوسف حين ادخل على المهدي كلمه بكلام غليظ فشتمه المهدي وقال: لبئس ما أدبك أهلك • وانتهى الرجل بأن قطعت يداه ورجلاه ثم قتل مع أصحابه وصلبوا على الجسر قرب عسكر المهدي[2] •

ـ خروج الحصين بن الرقاد مولى قيس بن ثعلبة سنة ١٧٩ وهو من أهل أوق ثار فيها وهزم جيش والي سجستان عثمان بن عمارة واستطاع الاستيلاء على باذغيس وبوشنج وهراة ، واضطر الرشيد أن يأمر واليه على خراسان الغطريف بن عطاء (وهو خال الرشيد) بملاقاته فسير إليه جيشاً من اثنى عشر ألفاً لقيهم الحصين في ست مائة نفر فهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ثم سار في خراسان متمرداً قرابة السنة قبل أن يقتل سنة ١٧٧[3] •

ـ وما كادت ثورة الحصين تنتهي حتى ورثتها أخرى في المنطقة

---

(١) انظر ابن الأثير ج٦ ص٤٣ والطبري ج٨ ص ١٢٤ (٣/٤٧٠)
(٢) اليعقوبي ج٢ ص ٣٩٧
(٣) انظر ابن الأثير ج ٦ ص ١٢٤ وثمة بعض المصادر كالشهرستاني في الملل والنحل (ص ١٣٠) تسمي هذا الرجل بالحسين بن الرقاد .

نفسها وثائر آخر على النهج نفسه ..

ولكن الثورة كانت في هذه المرة من أطول ما عرف التاريخ العباسي من الثورات الخارجية كما كان الثائر من أعند ما لقي العباسيون من المناوئين ويعرفه المؤرخون باسم حمزة ثم يختلفون في اسم ابيه فهو تارة أترك وأخرى أدرك وثالثة عبد الله بن الازرق[1] . ولا يعني هذا الاختلاف أنه نكرة في زعماء الخوارج أو مذهبهم فإنه أحد الرؤوس ذات الرأي والفقه في الفكر الخارجي .

يتفرع مذهب حمزة من مذهب العجاردة (أصحاب عبد الكريم بن عجرد) وهو يقول بأن القدر خيره وشره من العبد . وبأن قتال السلطان الجائر واجب كما أن من الواجب حده مع من رضى بحكمه ... وكان لا يكفر القعدة بين الخوارج ولكن يكفر من يخالفه في الرأي ويضعهم جميعاً في زمرة المشركين ويستحيل على هذا الأساس قتلهم وإحراق أموالهم وعقر دوابهم بل ويقتل الأسرى منهم . وإذا سمحت له ثورته التي استمرت ثلث قرن تقريبا أن ينشيء ويوطد مذهب «الحمزية» الذي نسب إليه فإنه لم يسلم من مخالفة بعض الخوارج في المنطقة له فقد أنكر

---

(١) يسميه الطبري (ج٨ ص ٢٦١) ويتابعه ابن الأثير (ج٦ ص١٤٧) باسم حمزة بن اترك السجستاني ويسميه البغدادي في الفرق بين الفرق (ص ٥٨) حمزة بن اكرك ولكنا نجد الاسم لدى الشهرستاني (في الملل والنحل ص ١٢٩) ابن أدرك . وهو كذلك لدى المسعودي في مروج الذهب وابن ظافر الأزدي (في الدول المنقطعة ـ مخطوط المتحف البريطاني ورقة ١١١ وجه) ابن ادرك الشاري واما صاحب تاريخي سيستان (ط . طهران ١٣١٤ ـ ص١٥٦) فيسميه حمزة بن عبد الله بن الأزرق الشاري .

رأيه في القدر زميله خلف الخارجي فبرىء كل منهما من صاحبه وانحاز خلف الى كرمان ومكران بينما أعلن حمزة جواز قيام إمامين للمؤمنين في عصر واحد ما لم تجتمع الكلمة ولم تقهر الاعداء ...»[1].

ويظهر أن حمزة كان تلميذاً للحصين (أو الحسين) بن الرقاد[2] صاحب الثورة السابقة فلما قتل أستاذه قام بها سنة ١٧٩/٧٩٥ وانتشر أمره ما بين بوشنج وهراة[3] فخرج إليه عمرويه بن يزيد الأزدي ، صاحب هراة في ستة آلاف فهزمه حمزة وقتل من أصحابه جماعةوبينما مات عمرويه في الزحام ... أعلن حمزة نفسه أميراً للمؤمنين سنة ١٨١ وقد كتب إليه الرشيد ، على طريقة المهدي يدعوه الى الانضمام للجماعة ويندد بخروجه ويهدد ويعد فأجابه حمزة بجواب عنيف على الطريقة الخارجية أنهاه بالشعار الخارجي «لاحكم إلاّ لله يفصل بالحق وهو خير الفاصلين» . ولما ولي علي بن عيسى خراسان تأخر حتى بعث إليه ابنه الحسين في عشرة آلاف فلم يستطع الابن أن يفعل شيئا بل لم يحارب حمزة الذي سيطر فيما يبدو على المنطقة وقطع طرق التجارة ما بينشمال الهند وافغانستان وخراسان . فسير علي بن عيسى ولده الثاني عيسى وبالرغم من أنه انهزم بدوره فقد أعاد أبوه تجهزه وإرساله لا سيما حين استفحل الخطر واستطاع حمزة العبث بعدد من مواقع المنطقة منها باذغيس سنة ١٨٥ والانتقال منها الى نيسابور . وأدركه عيسى هناك

---

(١) انظر الشهرستاني ــ الملل والنحل ج١ ص ١٢٩ ــ ١٣٠ والبغدادي ــ الفرق بين الفرق ص ٥٨ والأشعري مقالات الاسلاميين (ط. محمد محي الدين عبد الحميد) ج١ ص ٩٤ .

(٢) الشهرستاني ــ الملل والنحل ص ١٣٠

(٣) الطبري ج٨ ص٢٦١ (٦٣٨/٣) وابن الأثير ج٦ ص١٤٧

ودارت الدائرة على حمزة الذي فقد ـ فيما يقولون ـ عشرة آلاف من اتباعه وبقي في اربعين رجلا فقصد صحراء قوهستان هربا ... بينما وزع عيسى أصحابه إلى أوق وجوين وسار بنفسه حتى بلغ كابل وزابلستان والقندهار (من الهند) فقتل من بها من الخوارج وقصد القرى التي كان أهلها يعينون حمزة فأحرقها وقتل من فيها حتى وصل إلى زرنج فقتل ثلاثين ألفاً فيها ...[1].

كان غرض عيسى أن يدمر القواعد التي يستند إليها حمزة لترفضه المنطقة ويظهر أن قاعدة عمله كانت في زرنج التي نكبت بمذبحة مروعة وخلف عيسى عليها رجلا اسمه عبد الله بن العباس النسفي فجبى منها الأموال التي فرضت عليها لإفقارها وسار عنها . وكان على حمزة أن يثبت وجوده الدفاعي فخرج لعبد الله ولمن معه من الصغد (وكانت جمهرة جيشه على ما يظهر منهم) عند بلدة أسفنديار فصبر له عبدالله في القتال حتى انهزم حمزة بعد أن جرح في وجهه وقتل كثير من اصحابه واختفى في الكروم ...

ثم عمد حمزة بعد ذلك إلى بعض الاعمال التخريبية الانتقامية ومنها قتل معلم كتاب مع ثلاثين من تلاميذه وبلغ الخبر الى طاهر بن الحسين الذي كان قد تسلم حكم بوشنج فأجاب على ذلك بعمل انتقامي أشد وأقسى إذ «أتى قرية فيها قعد الخوارج وهم الذين لا يقاتلون ولا ديوان لهم فقتلهم طاهر وأخذ أموالهم . وكان يشد الرجل منهم في شجرتين ثم يجمعهما ثم يرسلهما فتأخذ كل شجرة نصفه . فكتب القعد

(١) ابن الأثير ج٦ ص ١٥٠ ـ ١٥١ (حوادث سنة ١٨١) والطبري ج ٨ ص ٢٧٣ (٣ سنة ٦٥٠).

الى حمزة بالكف ... فوعدهم وأمن الناس مدة[1]» ...

على أن حمزة عاد فاسترد مكانته وقوته في المنطقة تدريجياً وبعد تلك الضربة الساحقة التي أصابته سنة ١٧٩ كان عليه أن ينتظر اكثر من اثنتي عشرة سنة ليستطيع الظهور من جديد سنة ١٩٢ وقد انتهز فرصة انشغال الدولة بثورة رافع بن الليث في ما وراء النهر وانصراف القوى العسكرية العباسية إليها فاستعاد السيطرة لا على المنطقة التي كان فيها ولكن تقدم نحو خراسان . يقول ابن الأثير : «... وحصر هرثمة (بن أعين) رافع بن الليث بسمرقند وضايقه واستقدم طاهر بن الحسين فحضر عنده فخلت خراسان لحمزة الخارجي حتى دخلها وصار يقتل ويجمع الأموال . ويحملها إليه عمال هراة وسجستان» ويبدو أن حمزة كان يأمل أن يعمل على إقامة دولة خارجية في تلك البقاع لأنه على ما يظهر من تصرفاته كان يقيم نوعاً من النظام والجباية ولا يأبه كثيراً لوجود المأمون ولي العهد الثاني والياً على المنطقة ...

وقد أرسل إليه المأمون بجيش من عشرين ألفاً يقوده عبدالرحمن النيسابوري استطاع بعد القتال المرير أن يصد هجوم حمزة وتوسعه وأن يرده بعد أن قتل خلقاً من أصحابه نحو الجنوب حتى بلغ هراة سنة ١٩٤ ثم كتب المأمون فرد الجيش إليه[2] ... ولعل السبب في هذا

---

(١) ابن الأثير ج٦ ص ١٥١ وانظر في اخبار الثورة كلها وغيرها كتاب المؤلف المجهول : تاريخي سيستان (ط . طهران سنة ١٣١٤) ص ١٥٦ فما بعد حتى ص ١٧٠ ــ بالفارسية .

(٢) ابن الأثير ج٦ ص ٢٠٩

الارتداد هو أن المأمون شعر أن ولايته كلها في خطر بعد مكاشفةالأمين له بنزعه عن ولاية العهد وقدر أنه أكثر حاجة للجيش في الدفــاع ضد جيش أخيه القادم عليه منه إلى إخماد ثورة هذا الثائر ...

وبالرغم من أن سجستان قد فك ارتباطها الإداري[1] بالمركز منذ عهد الأمين ثم المأمون وربطت بخراسان فقد استمر حمزةوالخوارج هم المتغلبون على سجستان حتى سنة ٨٢٧/٢١٣ حين هــزم حمزة أمام جيش المأمون . وبعض المصادر تقول إنه قتل في المعركة وبعضها تقول إنه غرق في واد بكرمان[2] .

ولم يكن بامكانه ، بعد أن أسس نوعا من الدولة الخارجية ،وقاد ضد العباسيين حركة من اطول الحركات الثورية الانفصالية ، ان يحول حكمه الى الشكل الوراثي لأن المبدأ الخارجي لا يقول بذلك ولأن مقاومة إسلامية كانت قد بدأت ضده ضمن البلاد ذات اتجاه سني عباسي . ويبدو أن العباسيين هم الذين غذوا هذه المقاومة التي أخذت بمحاربة الخوارج محلياً وبأسلحتهم . ولكن مذهبه الخارجي ظل يعرف باسمه من بعده وظهرت له في سجستان فروع منها الأطرافية والمحمدية .

لكن الحماسة للمذهب الخارجي انحسرت تدريجياً بعد ذلك حتى

---

(١) اليعقوبي ـ البلدان (طبعة دي غويا سنة ١٨٩٢ مـع كتاب لبيب رستة) ص ٢٦٨

(٢) البغدادي ـ الفرق بـين الفرق ص ٥٨ واما الغرق فيذكره ابن ظافر الازدي في الدول المنقطعة (مخطوط المتحف البريطاني رقم ٣٦٨٥ ج٥) الورقة ١١١ وجه .

صاروا يلجؤون الى الحصون وصار الناس يتطوعون «حسبة لله» لقتالهم ويؤلفون الجماعات العسكرية لذلك • ومن أواخر رؤساء هؤلاء الخوارج (في اواسط القرن الثالث) عمار بن ياسر الذي قتل في معركة مع جماعته من المطوعة اجتمعوا حول رجل «يظهر الحسبة في الغزو وقتال الخوارج» هو درهم بن نصر • وكان بين رجال درهم هذا أربعة إخوة عرفهم التاريخ باسم آل الصفار هم الذين أسسوا الدولة الصفارية[1] في سجستان •

وما من شك في أن ما عجزت عنه الدولة العباسية من محو الخوارج إنما قامت به وفي نجاح واضح الدول المحلية المنقطعة التي ظهرت في ايران أمثال الصفارية والطاهرية وما تلاهما حتى لم يعد للمذهب الخارجي من وجود في تلك البقاع وهو بالضبط ما جرى في المغرب العربي حيث تكفلت الدولتان الأغلبية والادريسية وما تلاهما بالمهمة ذاتها •

٤ ـ حركات الاقاليم :

كانت عوامل مختلفة تلعب ببعض أقطار الدولة العباسية فتدفعها، في تلك الفترات ، الى الثورة • وقد ترتب على بعض تلك الحركات نتائج خطيرة إذ كانت سبباً في بدء تجزؤ الدولة وهي في أوج قوتها •

آ ـ في افريقية :

كان المنصور قد حسم أمر ولاية افريقية والمغرب (تونس وما يليها

---

(١) انظر ابن حوقل ـ صورة الأرض ص ٣٥٣

من الشمال الافريقي) وأمر من بها من ثائرة الخوارج والبربر بتعيين قائده القدير يزيد بن حاتم المهلبي الذي استقامت افريقية على يديه فلم يعد المؤرخون يسجلون ما اعتادوا تسجيله من أخبار المعارك والحروب والفتن في عهده الذي استمر حتى وفاته سنة ١٧٠ وقد سجلوا بالعكس الأعمال الانشائية التي سمح له الأمن والسلام أن يقوم بها . فقد اهتم بأسواق القيروان ونشاطها التجاري وتنظيمها حتى قال النويري : «إنه هو الذي حضرها» وجعلها حاضرة . وعني بالزراعة كما عني بالحياة الأدبية والدينية . فاجتمع إليه الشعراء والفقهاء . وفي عهده انتشرت آراء مالك ومذهبه في افريقية .

وقد كان ممكناً أن ينشأ في تلك البقعة أسرة مهلبية شبه مستقلة وبدأت هذه الاسرة الظهور بالفعل لولا أن الظروف أوجدت بدلا منها الأسرة الأغلبية . فإن داوود بن يزيد المهلبي لم يبق في الحكم سوى تسعة أشهر بعد وفاة أبيه سنة ١٧٠ ثم أعطى الرشيد الولاية لعمه روح ابن حاتم ولكنه بالرغم من ضبطه البلاد وقمعه تمرد الخوارج الاباضية لم يطل به العمر فتوفي سنة ١٧٤ وبايع الجند ابنه قبيصة . ولكن صاحب البريد الذي كان قد كتب إلى الرشيد بشيخوخة روح وأخذ موافقته على تعيين نصر بن حبيب المهلبي بديلا له إن توفي ، مشى مع أحد القواد إلى نصر وأبلغاه عهد الرشيد ونصباه بدلاً من قبيصة(١) وعمل الجند وأمر بغداد كلاهما يعنيان أن ثمة نوعاً من الاعتراف العام الرسمي والشعبي بأن الولاية قد أصبحت لبني المهلب .

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج١ ص ٨٥ . والنويري ـ نهاية الارب (مخطوط) الجزء ٢١ الورقة ٩٩ وجه .

على أن عهد المهلبيين الذي دام حتى الآن عشرين سنة ونيفاً لم يدم أكثر من ثلاث سنوات أخرى لأنهم دمروا أنفسهم بأنفسهم : فقد سعى الفضل بن روح المهلبي لدى الرشيد حتى عهد إليه بالولاية فوصل إفريقية في مطالع سنة ١٧٧ ولكنه ما لبث إلا سنة وبعض السنة حتى اصطدم بثورة الجند عليه من تونس لأنه عهد بهم إلى ابن أخيه «وكان غير ذي تجربة ولا سياسة للجمهور»[١] كما كانوا هم بدورهم ميالين إلى نصر بن حبيب فاختاروا زعيماً لهم هو عبد الله بن الجارود وأكدوا له البيعة والمواثيق وطردوا ابن أخ الفضل . وأجابهم الفضل على ذلك بإرسال وال آخر من أهل بيته مع عدد من القواد والجند فاعترضهم بعض عسكر تونس في الطريق وقتلوا القائد الجديد وأسروا كبار أصحابه .

ويظهر أن ابن الجارود لم يكن يريد الوصول إلى مثل هذه المواجهة المباشرة ولكن أحد قواده وهو محمد بن يزيد الفارسي كان رأسها المدبر وقد كاتب القواد المختلفين في القيروان ووعدهم بالمناصب فأعطوا الثوار تأييدهم وهكذا سار ابن الجارود في العسكر إلى القيروان ففتحت له أبوابها فأخرج منها الفضل بالأمان ولكن القواد عادوا فردوا الفضل وهو في أول الطريق إلى المشرق ثم اعتقلوه وتناظروا في أمره فحسم بعضهم الجدل بقتله (شعبان سنة ١٧٨ تشرين الثاني سنة ٧٩٤) وانتهت بمقتله أسرة المهلب في إفريقية لأن

---

(١) ابن عذارى ـ البيان المغرب ج١ ص ٨٦ ، وانظر ابن الأثير (حوادث سنة ١٧٧) ج ٦ ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ولديه تفصيلات واسعة حول ثورة ابن الجارود .

ابن الجارود طرد منها كافة المهلبيين الآخرين ..

وعرفت إفريقية بعد ذلك فترة اضطراب دامت سبعة أشهر قتل خلالها الفارسي بمؤامرة من ابن الجارود نفسه وخرج ابن الجارود وخصمه العلاء بن سعيد قائد البربر كلاهما من إفريقية إلى المشرق بينما وصل القائد هرثمة بن أعين ، والياً على البلاد من قبل الرشيد [1] في مطالع سنة ١٧٩/٧٩٥ . وهدأت الأحوال واستطاع هرثمة أن يقوم ببعض أعمال التحصين الدفاعي ومنها بناء سور لمدينة طرابلس من ناحية البحر وبناء القصر الكبير المعروف بالمنستير [2] ، وهو الرباط المعروف قرب سوسة والذي سوف يصبح فيما بعد أشهر رباطات الساحل الافريقي . وهذا يعني أنه كان يشعر بتهديد الاسطول البيزنطي المرابط في صقلية .

ويظهر أن هرثمة شعر بالانقطاع البعيد عن مركز الخلافة مع « سوء الطاعة » [3] في الناس فاستعفى من الولاية ولما يقض فيها سوى سنتين ونيفاً وغادر إفريقية (رمضان سنة ١٨١/تشرين الاول سنة ٧٩٧) بعد أن حل محله محمد بن مقاتل العكي ، شقيق الرشيد بالرضاع [4] . غير أنه لم يكد يمضي ثلاث سنوات حتى ثار عليه الجند مرات بسبب سوء سيرته فيهم وفي الناس ، ومن ذلك أنه اقتطع

---

(١) انظر ابن عذاري – ج ١ ص ٨٨ وان الأثير ٦ ص ١٣٦ والنويري – نهاية الأرب الورقة ١٠٢ وجه . وقد اكرم الرشيد العلاء بالحباء والهدايا بينما مات ابن الجارود في مصر بعد قليل .

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٨٩

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٨٩

(٤) ابن الأثير ج ٦ ص ١٥٤

أرزاقهم وضرب وسجن أحد الزهاد المشهورين في إفريقية (البهلول ابن راشد) لأنه وعظه وسفه تصرفاته وخاصة منها المهاد بعض الروم في صقلية بالسلاح . وكادت تتكرر مع العكي مأساة الفضل المهلبي إذ ثار عليه جند تونس تمام المتميمي وطردوه سنة ١٨٣ وبينما كان في الطريق إلى المشرق تدخل قائد آخر فرده إلى القيروان . وهذا القائد هو إبراهيم بن الأغلب التميمي الذي سيبدأ بـه تاريخ جديد للمنطقة وتبدأ باسمه أسرة حاكمة ودولة شبه مستقلة فيها .

كان قائد الثوار تمام أضعف من ابن الأغلب الذي كان يقود البربر ولذلك استطاع أن يدخل القيروان دون قتـال وأن يرد العكى الذي صارت النساء من كوى المنازل يعيرنه بأنه يـدين لابن الأغلب بملك افريقية[1] و « ثقل ذلك على أهل البلد » مما شجع تماماً على معاودة الثورة . فتدخل ابن الأغلب مرة اخرى وسار إليه في جيش كثيف واتنهت المعركة العنيفة التي قامت بهزيمة تمام ثم باستسلامه وطلب الأمان في مطلع سنة ١٨٤ . فأرسل مع باقي رؤوس الثورة الى حيث سجن في المطبق ببغـداد[2] .

وأما ابن الأغلب فقد وضح للناس أنه يطمع في شيء من الولاية . وقد كان تمام قد جرب الوقيعة بينه وبين العكى فأرسل إليه بيتين من الشعر يقول فيهما :

---

(١) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٩٠ وابن الأثير (سـنة ١٨١) ج ٦ ص ١٥٤ ــ ١٥٥

(٢) انظر ابن خلدون ج٤ ص ٤١٩

ومـا كان ابراهيم من فضل طاعـة يرد عليـك الملـك لكن لتقتـلا
فلو كنت ذا عقل وعلم بكيـده لما كنت منه يا ابن عك لتقبلا [1]

فلما انتهى تمام وضحت أطماع الأغلبي الذي أصبح منـذ ذلك الوقت القوة الأولى في افريقية • وقد استغل قوته هذه أحسن الاستغلال ليؤسس ما عرف في التاريخ بدولة الاغالبة •

كان باقي أفريقية حتى أقصى المغرب قد عرف تطورات خطـيرة واسعة في تلك الفترة مابين سنة ١٧٠ و سنة ١٨٤ وهي تطورات أخرجته في الواقع عن نطاق الدولة العباسية وأعطته مصيره الخاص الذي سوف نبحثه فيما بعد ، في عرضنا للسياسة الخارجية ويكفي أن نذكر هنا لإتمام الصورة أن دولة للخوارج هي الدولة الرسمية كانت قد ظهرت واستقرت في المغرب الأوسط ودولة أخرى للعلويين الأدارسة كانت قد قامت في المغرب الأقصى إن لم نذكر بعض الامارات الصغيرة الأخرى أيضاً •وكان نفوذ بغداد ينتهي في افريقية (تونس) التي سوف تستقل بدورها أيضاً في ظل الأغالبـة •

الـدولة الأغلبية : يذكر ابن الأثير أن « أهل البلاد حملوا ابراهيم ابن الأغلب على أن كتب إلى الرشيد يطلب منه ولاية افريقية » وتقول رواية اخرى أن صاحب البريد كتب الى الخليفة بحسن بلاء ابن الاغلب الذي عرف من هرثمة بن أعين وغيره اخلاص ابن الاغلب « وعقله ودينه وكفايته » وحب الناس له فعينه والياً على البلاد • والواقع أن الأغلبي أرفق طلبه للولاية بعرض مغر قدمه لبغداد كان كافياً لزحزحة العكى المستند إلى رضاعه والى تأييد جعفر البرمكي وهو أن ابن الاغلب عرض على الرشيد الاستغناء عن المعونة السنوية التي كانت تحـول من مصر الى

(١) ابن عذاري ـ البيان ج١ ص ٩٠

افريقية ومقدارها مائة ألف دينار وأن يدفع بالعكس ٤٠ ألف دينـار الى بيت المال[١] •

على أن أهم الاسباب في تعيين ابن الاغلب كانت دون شك رغبة الرشيد في إقامة سد قوي في وجه الدولة الادريسية التي بدأت الظهور في المغرب وضرورة وجود وال قوي الجند والنفوذ يستطيع الوقوف ضد توسعها إن لم يستطع القضاء عليها • وهكذا كتب الرشيد عهد ابن الاغلب في مطالع سنة ١٨٤ على افريقية بينما انتزع العكى نفسه منهـا انتزاعـاً[٢] •

وبدأ ابن الاغلب حكمه بعمل ندر من الولاة من قام به[٣] وهو يدل على التصميم البعيد في الحكم هو بناء مدينة له قرب القيروان • ولا شك أن مشروعه الأول لم يكن يطمح إلى أن تكون اكثر من حصن واسع يجمع قصره مع مسجد جامع ومساكن للحاشية ومعسكرات للجند يأمن معها التمردات التي تعودها الجند في القيروان وتونس وذلك على المثال الذي جعل المنصور يبني بغداد حين خاف الهاشمية وجعل المعتصم يبني سامراء حين أراد الخلاص من ضغط الجند في بغداد وربما كانت رغبة ابن الأغلب في ان يعيش حياته الخاصة بعيداً عن أهل القيروان من بين الدوافع لبناء المدينة •

---

(١) انظر ابن الاثير ج٦ ص ١٥٥ (حوادث سنة ١٨١)

(٢) يروي النويري ـ (نهاية الأرب (المخطوط) ج ٢١ ورقـة ١٠٤ ظهر ١٠٥ وجه) أنه زيف رسالة بتجديد تعيينه فلما علم الرشيد غضب واستدعاه مع التوبيخ له .

(٣) قام به مثلا صالح بن علي العباسي في مصر حين دخلها واسس مدينة العسكر وقام به ابن طولون حين بنى القطائع .

بدأ ابن الأغلب البناء منذ السنة الأولى لحكمه سنة ١٨٤ وأتمه في السنة التالية وسمى المدينة بالعباسية[١] وإن سماها الناس باسم القصر القديم وكان من الحصافة السياسية بحيث حقق هدفه دون أن يثير ثائرة الجند عليه او ارتيابهم فقد احتمل شراسة أعمالهم وداراهم في الوقت الذي كان يشتري اعداداً واسعة من الرقيق السودان زعم أولاً أنه يريد استخدامهم في الصناعة تخفيفاً على الناس ثم جعلهم لحمل سلاح الجند كي يحملوا عنهم أثقالهم اكراماً لهم ثم استطاع ذات ليلة أن ينتقل إلى مدينته مع عبيده السودانيين وقد سبقه السلاح والعدد[٢] فإذا هو في حرس خاص له . وإذا بالجند دون سلاح .

وقد برهنت العباسية عن فائدتها فور انتهائها فقد احتمى بها ابن الأغلب من أول ثورة قامت عليه من الجند سنة ١٨٦/٨٠٢ ثم هزم الثوار بعد ذلك عند سبخة تونس (شط الجريد) أشنع هزيمة إذ فقدوا مع زعيمهم عشرة آلاف قتيل .

ثم برهنت مرة اخرى على قيمتها حين ثار على ابن الأغلب قائده الأول عمران بن مجالد اللربيعي الذي اجتذب الكثير من القادة والانصار

---

(١) موقعها على مسيرة ثلاثة اميال جنوب القيروان وقد استقبل ابن الاغلب فيها سنة ١٨٥ رسل شارلمان الذين جاؤوا لنقل رفات القديس سيبرين الى فرنسا . وقد بنى الأغالبة سنة ٢٦٤ عاصمة ثانية على بعد ثمانية اميال من جنوب القيروان هي رقادة مالبثت ان فقدت مكانتها بانهيار الدولة الاغلبية .

(٢) انظر ابن عذارى ـ البيان المغرب ج ١ ص ٩٣ والنويري ورقة ١٠٥ وجه .

إليه وغلب على معظم افريقية وعلى القيروان وحاول استعداء الفقهاء على سيده . واحتمى ابن الأغلب وراء أسوارمدينته وخندقها مدة الثورة التي استمرت عاماً طويلاً ولم يخلصه منها سوى وصول الأموال من قبل الرشيد لدفع مرتبات الجند(١) فبعث ابن الأغلب فنادى من كان من جند امير المؤمنين فليأت لأخذ عطائه ... وتراكض الجند يتركون عمران الى ابن الأغلب ، فلما قل عدده هرب ودخل الأغلبي القيروان فقلع أبوابها وهدم سورها لئلا تعود للثورة ... وحكم بعد ذلك حتى وفاته سنة ١٩٦/٨١٢ فلم تعرف افريقية ـ على حد قول ابن الرقيق المؤرخ ـ والياً اعدل ولا أحسن سياسة ولا أرفق بالرعية ولا أضبط للأمور منه ... »(٢) .

وقد بلغ من براعته أنه أقام ـ رغم تمثيله للخلافة العباسية ـ علاقات عادية وأحياناً علاقات من الود والتعاون مع دولة الخوارج الرسمية التي كان نفوذها يمتد عبر الصحراء الجنوبية حتى جبل نفوسة في طرابلس كما نجح في استمالة بعض أعوان ادريس العلوي حتى هدد دولته واضطره لطلب الموادعة والكف عنه(٣) .

وقد عهد ابراهيم بن الأغلب قبل وفاته الى ابنه عبد الله بالولاية دون الرجوع الى بغداد إما لأنها كانت أعطته الحق الوراثي أو لانه استغل حصارها في فتنة الامين والمأمون فأخذ هذا الحق لنفسه . وكان

---

(١) انظر ابن الأثير ج٦ ص ١٥٦

(٢) نقل الجملة النويري ج٢ ورقة ١٠٦ وجه . كما ذكر مثل ذلك ابن عذارى ج١ ص ١١٦

(٣) ابن الأثير ج٦ ص ١٥٧ وابن خلدون و ج٦ ص ١١٩

عبد الله يحارب الخوارج في طرابلس فصالحهم على أن تكون المدينة والبحر له والبر من جبل نفوسة وما وراءه إليهم ثم جاء القيروان فعاش على جهود ابيه خمس سنوات ذلك انه أحدث بافريقية وجوهاً من الظلم شنيعة وشدد على الناس في المغارم واستخف بالفقهاء والصالحين الذين كانوا ينصحونه وطردهم ، ولكنه توفي سنة ٢٠١ ليخلفه اخوه زيادة الله ، وكانت الخلافة في بغداد على اضطرابها ، وعلى البيعة لابراهيم بن المهدي أو للمأمون ، وهذا ما مكن للأغالبة مكانهم من الملكية الوراثية التي لا ترتبط مع بغداد باكثر من رابطة المبلغ المالي السنوي والاعتراف بالولاء الاسمي الذي كانوا الحكام الشرعيين الوحيدين في افريقية والمغرب في أنظار الناس ،

استمر عهد زيادة الله اثنتين وعشرين سنة (٢٠١ — ٢٢٣) ويعتبر في نظر المؤرخين أعظم وأفضل الأمراء الأغالبة ، كاتب المأمون أولاً فجاءه التقليد منه وظل مخلصاً له فلم يمل مع ابراهيم بن المهدي فلما وصل المأمون بغداد سنة ٢٠٤ شكر له ذلك [1] لكنه حين بعث يطلب منه الخطبة على منبره لعبد الله بن طاهر الذي ولى النصف الغربي من الخلافة كله سنة ٢١١ غضب زيادة الله وبعث مع رسول الخليفة كيساً به ألف دينار مضروبة باسماء بني ادريس العلويين بالمغرب ... يهدده بالانضمام للادارسة ... وسكوت المأمون بعدها عنه كان اعترافاً كاملاً باستقلال الأغالبة لكن قوة زيادة الله لا ترجع الى هذا الاعتراف بقدر ماترجع الى انتصاره على الثورات المتتالية التي قام بها الجند العربي ضده وخاصة سنة ٢٠٨ ،

---

(١) انظر ابن الخطيب اعمال الاعلام القسم الثالث ص١٦ .

سنة ٢٠٩ وسنة ٢١٠ وكان من نتيجتها تحطيم القوى العربية في افريقية •

ولعل أهم ماقام به زيادة الله هو أولاً جهده العمراني فقد ترك في القيروان والعباسية وتونس وسوسةالكثير من الآثار والابنية من المساجد والقناطر والأربطة وخزانات الماء •

وأما الامر الثاني فهو غزو جزيرة صقلية والنزول فيها منذ سنة ٢١٢ ولم يكن السبب في ذلك الغزو محبة التوسع السياسي والغنائم والجهاد الديني والفتح فقط ولكن كان وراءه دافعان أساسيان آخران هما قمع الأعمال العدوانية التي يقوم بها الاسطول الرومي ضد الموانىء الافريقية ثم السيطرة على طرق التجارة البحرية مابين حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربي • ويمكن أن يضاف الى ذلك رغبة زيادة الله في إشغال جنده وخاصة منهم البربر لئلا يشغبوا عليه بعد أن أخمد الثورات المختلفة التي قامت ضده •

وقد تولى الحكم بعد زيادة الله أخوه ابو عقال مدة ثلاث سنوات وقد أخذ الناس بالحسنى وقمع المظالم وزيادة ارزاق الجند والتودد الى الناس كما تابع بدوره عملية الغزو الصعب بصقلية • وأعقبه أبو العباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم ما بين سنتي ٢٢٦ و ٢٤٢ واستمر الحكم للاغالبة بعد ذلك حتى سنة ٢٩٦ حين هزم زيادة الله الاخير أمام أبي عبد الله الشيعي ، مؤسس الدولة الفاطمية وهرب الى مصر •

ب ـ في مصر : عرفت مصر في عصر الرشيد فترة حسنة من الاستقرار ولكنها مع ذلك لم تكمل حتى النهاية وبعد فترة هدوء نسبي استمرت حوالي خمس وثلاثين سنة لم يعكرها سوى حركة تمرد واحدة،

عرفت عهداً من الفوضى والتدمير وفقد الأمن لم تعرفه إلا في فترات قليلة من تاريخها • وقد استمر اكثر من خمس وعشرين سنة ولم ينته إلا مع انتهاء عهد المأمون •

والحركات التي قامت في مصر بعضها سياسي ناجم عن أطماع المتسلطين المحليين وبعض مالي ناجم عن الاهمال والظلم في الخراج وجبايته وقد أثرت أسباب هذه في تلك في معظم الاحيان وزاد في حدتها ومآسيها •

١ ـ فأما الحركات السياسية فقد ظهرت مرتين الأولى أموية في عهد المهدي والثانية انفصالية خلال فتنة الأمين والمأمون •

ففي زمن المهدي سنة ١٦٧ خرج دحية بن مصعب ، حفيد مروان ابن الحكم الأموي « في صعيد مصر ونابذ ومنع الأموال ودعا إلى نفسه بالخلافة • فبلغ ذلك ابراهيم بن صالح (والي مصر) فتراخى عنه ولم يحفل بأمره حتى ملك عامة الصعيد فبلغ ذلك المهدي فسخط على ابراهيم وعزله عزلاً قبيحاً »[١] وارسل عليها موسى بن مصعب الذي أخذها بالجور والشدة والافقار وأرسل على دحية جيشاً من خمسة آلاف من أهل الديوان[٢] وقبل أن يقوم هذا الجيش بعمل حاسم كانت مشكلة موسى الادارية قد تعقدت بانتقاض أهل الحوف العرب عليه فلما خرج إليهم قتل على أيديهم ونجت بذلك حركة دحية الذي أسرع الناس فكاتبوه ودعوه الى دخول الفسطاط[٣] فلما قدم الفضل بن صالح

---

(١) الكندي ـ الولاة والقضاة ص١٢٤ .
(٢) المصدر نفسه ص١٢٦ .
(٣) المصدر نفسه ص١٢٩ .

العباسي والياً على مصر سنة ١٦٩ • كانت « تضطرم لما كان من ثـورة أهل الحوف وخروج دحية » فأرسل إليه الفضل بجيش استطاع عند بلدة بويط (جنوب أسيوط) أن يقتل الفتح بـن الصلت صاحب أمر دحية وقائده • فانكسر دحية لمقتله « ومضى في طائفة معه الى طريـق الواحات فبعث الى أهلها يدعوهم إلى القيام معه وكانوا من المسالمـة والبربر يتدينون بالشراية (أي من الخوارج) فقالوا لا نقاتل إلا مع أهل دعوتنا فبعث إليهم دحية : إنا على مذهبكم • فخرجوا إليه وقاتلوا معه يوم الدير •• » وهي المعركة التي هزم فيها الجيش العباسي أمام دحية ولكن « أهل الواحات وجدوا عليه إيثاره العرب على الموالى وتقديمهم على البربر فقالوا هذا ظلم والاسلام واحد ولسنا نقاتل معك حتى نمتحنك بالبراءة من عثمان فامتنع دحية وقال : والله ما أرجو الجنة إلا بالرحم بيني وبين عثمان » فلما انصرفوا عنه عاد عليه الجيش العباسي فحاربه أشد الحرب حتى انهزم وأخذ أسيراً في أتون لشي الفخار فضربت عنقه[1] وصلب وأرسل رأسه الى الهادي •

وكانت الحركة السياسية الثانية عند ظهور النزاع الأخوي بـين الأمين والمأمون سنة ١٩٤ ـ ١٩٥ وقد اخذت الشكل الانفصالي • فقد كان في مصر جند من الخراسانية ميالون الى المأمون فلما خلعه الأمـين من ولاية العهد غضبوا وتزعمهم واحد منهم هو السري بن الحكم الذي دخل مصر مع جند الليث بن الفضل والى مصر زمن الرشيد (١٨٢ ـ

---

(١) الكندي المصدر نفسه ص١٣٠ ـ ١٣١ وانظر اليعقوبي ج٢ ص٤٠٥ وهو يذكر ان جيشين قد هاجما دحية أحدهما بقيادة عباسية والاخر يقوده رجل من أهل الفيوم (العرب) اسمه عبد الله بن علي المرادي •

١٨٧أ) ثم ارتفع شأنه بغضبه للمأمون • ولكن لا يبدو أن المأمون أقـام معه الصلات اللازمة لأنه لم يكن يومذاك بالوجه المعروف • وجل مافهمه المأمون وأصحابه من الحركة هو أن عليهم ألا يهملوا ، في النزاع مـع الأمين ، أمر مصر وأن فيها جماعة خراسانية يمكن الاعتمـاد على دعمها للقضية • وهكذا أسرع المأمون فكتب إلى وجوه القوم في مصر فأجابوه في السر وأرسل هرثمة بن أعين قائد المأمون الى عباد بن محمد بن حيان وكيل ضياعه في مصر فخلع مع الجند بيعة الأمين سنة ١٩٦ وطرد واليه جابر بن الأشعث وادخل البلد في طاعة المأمون •

وبغت الامين للضربة الاستراتيجية التي طوقه بها أخوه من خلفه في غرب الدولة فبعث إلى زعيم قبائل قيس في الحوف الشرقي (شرق الدلتا) فجعله والياً على مصر ليلقى بأسهم بينهم وهكذا تجندت هذه القبائل لقضية الامين وقاتلت والي المأمون ومؤيديه ••• ولكن حصار بغداد الطويل ثم مقتل الامين مع بعد المأمون أنسى الناس قضية الاخوين وحول القتال بين المتنفذين إلى نزاع على التسلط الذاتي في مصر •

وبرز في الحوف الشرقي عبد العزيز بن الوزير الجروي فتسلط عليه سنة ١٩٩ بينما سيطر في الفسطاط والصعيد السري بن الحكم الذي ولي مصر بمبايعة الجند له سنة ٢٠٠ ثم بأمر المأمون سنة ٢٠١ • اما الحوف الغربي (غرب الدلتا) فقد سيطرت فيه قبيلتا لخم وجذام ثم زاد المشكلة تعقيداً أن جاءت من الاندلس جالية واسعة من ١٥ الف لاجىء هم جماعة الربض [١] الاندلسيون فنزلوا بجوار الاسكندرية ثم مالبثوا أن سيطروا

---

(١) هم الذين طردهم الحكم بن هشام الاموي بعد موقعه الربض من

عليها وأقاموا فيها نوعاً من الجمهورية الصغيرة سنة ٢٠٠ تعاونوا فيها أولاً مع جماعة محلية من الصوفية ثم تركوهم وأستأثروا بالحكم بزعامة أبي حفص الكناني •

وتقسمت مصر ، على هذا الشكل بين أربع قوى متناحرة : ثلاث في الدلتا والرابعة تسيطر على الوادي • لكنها كانت جميعاً راغبة في الاستقلال بمصر أو بما تحت يدها منها على الاقل عن الخلافة العباسية• حتى السري بن الحكم الذي ولاه المأمون الأمر تسليماً منه بالامر الواقع لم يكن صادق الولاء لأنه انما والاه التماساً لشرعية الحكم • وقد انعكست أحداث بغداد ومرو سنة ٢٠٢ على مصرفلما بايع المأمون بولاية العهد لعلي الرضا وكتب إلى الآفاق بذلك بايع بعض الجند في مصر وامتنع آخرون ولما نصبت بغداد ابراهيم بن المهدي في الخلافة وجد هذا الخليفة نصيراً له في عبد العزيز الجروي وفي الكثيرين غيره كيداً بالسري بن الحكم ••• فلما مات الرضا وانخذل ابن المهدي وأمر المأمون بغسل المنابر التي بويع عليها للرضا عادت القوى في مصر الى خلافاتها الاولى وحروبها المتصلة •

وبالرغم من أن سنة ٢٠٥ شهدت غياب الزعيمين الكبيرين : السري والجروي إذ لقى الجروي مصرعه وهو يحاصر الاسكندرية ثم لحقه السري بالموت بعد ثلاثة أشهر فقد ورث النزاع ولداهما علي بن عبد العزيز وأبو نصر بن السري كل من موقعه هذا في الصعيد وغرب الدلتا وذاك في شرقيها وتهادنا بعد حروب دامية فلما مات أبو نصر وأعقبه أخوه

قرطبة سنة ١٩٨ هـ فاختاروا اللجوء الى مصر وجاؤوها في ٤٠ مركباً بينما بقي قسم منهم في المغرب .

عبيد الله بن السري سنة ٢٠٦ بقي الجروي على الهدنة ... لا سيما حين استطاع ابن السري هزيمة وال أرسله المأمون الى مصر وبالرغم من أن الخليفة عاد فأقر ابن السري والجروي كل منهما على مابيده سنة ٢٠٧ إلا إنه ظهر كأن مصر قد خرجت من أيدي الخلافة العباسية لاسيما حين هاجم ابن السري أرض الجروي وأخذ منه عاصمته تنيس فهرب الجروي إلى الفرما ثم العريش سنة ٢٠٩[١] ...

في تلك الاثناء ولم يكن على ابن السري إلا هزيمة الجروي هزيمة نهائية ثم أخذ الاسكندرية من أهل الربض لتصبح مصر كلها ولاية خالصة له قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين والياً من قبل المأمون سنة ٢١٠ فانضم الجروي إلى جيش ابن طاهر وقدم له الأموال والمعونة . وبالرغم مما أعد ابن السري من السفن وعدة الحرب وما حضر من الخندق حول الفسطاط فقد هزم أسطوله في البحر لأن ابن الجروي الخبير بحرب البحر قاد المعركة . كما هزمه ابن طاهر عند الفسطاط في البرفي مطلع سنة ٢١١ . وطلب ابن السري الأمان فأعطى كتاب أمان بتوقيع المأمون وخرج من مصر ليموت في سامراء سنة ٢٥١ ويمكن اعتبار أسرة السري أول أسرة شبه مستقلة في مصر وقد كانت تمهيداً لظهور اسرة ابن طولون المقبلة .

أما جمهورية الاسكندرية فقد نزل عليها ابن طاهر سنة ٢١٢ وحاصر الاندلسيين فيها بضع عشرة ليلة مما اضطرهم للخروج إليه بالأمان . وصالحهم على أن يتركوا الاسكندرية حيث أحبوا على ألا يخرجوا في مراكبهم أحداً من مصر ولا عبداً ولا آبقاً فإن فعلوا حلت دماؤهم ! وقد

---

(١) انظر في تفصيل هذه الأمور الكندي ـ الولاة والقضاة ص ١٧٢ ـ ١٨٣ .

كاد يحرق مراكبهم لأنه اكتشف بعض المخالفة ثم سألوه الرد إلى شرطهم الأول فارتضاه ••• وساروا من الاسكندرية الى كريت ففتحوها واستقروا بها •••
وعادت مصر بهذا الشكل ولاية عباسية •

٢ ـ أما الحركات النابعة من جذور مالية وبسبب التعسف في أمر الخراج فقد كان أصحابها حتى نهاية عهد المنصور هم القبط ثم تسلم أمرها العرب المسلمون النازلون في مصر منذ عهد المهدي • والواقع أن طرفي الدلتا من الشرق والغرب وهما الحوف الشرقي والحوف الغربي كانا قد أصبحا عربيين منذ زمن • إذ نزلت لخم وجذام في الغربي ثم أنزل ابن الحبحاب بطوناً من قيس في الشرقي سنة ١٠٩ هـ واشترط عليهم العمل بالزراعة •• ولما كانوا قد استقروا في عهد المهدي فقد ذاقوا عضة الخراج ومشاكله فقاموا خلال فترة خمسين سنة مابين عهدي المهدي والمأمون بخمس ثورات» :
حدث سنة ١٦٧ ان « تشدد موسى بن صعب والي المهدي في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما تقبل به ثم عاد موسى الى الرشوة في الاحكام وجعل خراجاً على أهل الاسواق والدواب •• » « واظهر الجند لموسى الكراهية والشنآن • وبعث عمالاً (للخراج) على الحوف فأخرجهم أهل الحوف ونابذوه وعقدت قيس واليمانية (أي أهل الحوفين) حلفاً فيما بينهم ••• (وعينوا والياً لهم) وكلموا أهل الفسطاط من الجند وخوفوهم الله وذكروا لهم ما أتى موسى إليهم فأعطاهم الجند من أهل مصر العهود والمواثيق أنهم ينهزموا عنه إذا خرج إليهم فلا يقاتلون معه وتحالفوا هم وأهل الفسطاط على ذلك »
في الوقت الذي كان فيه الصعيد قد ثار بزعامة دحية بن مصعب الأموي •

وقام هذا الحلف بين العرب المستقرين والجند العباسي بدوره إذ « خرج موسى بجند مصر كلهم (نحو الدلتا) وأقبل إليهم أهل الحوف يمنها وقيسها فانهزم أهل مصر بأجمعهم وأسلموا موسى بن صعب فقتل[1] « وبلغ المهدي مقتله فغضب الغضب الشديد وحلف على الانتقام ولكن الموت أعجله . وقد كتب إليه بعض الشعراء :

لو يعلم المهدي ماذا الذي يفعله موسى وأيوب
بأرض مصر حين حلا بها لم يتهم في النصح يعقوب

وكان يعقوب بن داوود كاتبه ينصح بعدم الموافقة على سياسة موسى وعمله .

وقدم الفضل بن صالح بن علي العباسي والياً على مصر سنة ١٦٩ « وهي تضطرم لما كان من أهل الحوف ولخروج دحية بن مصعب » فأرسل الجيوش ضد أهل الحوف في البر والنهر حتى خمدت الثورة . ولكن خموددها كان موقتاً لأنها مالبثت أن عادت سنة ١٧٨ اذ « كشف اسحق (بن سليمان والي مصر) أمر الخراج وزاد على المزارعين زيادة أجحف بهم فخرج عليه أهل الحوف وعسكروا . فبعث الجيوش لحربهم» فقتلوا جمعاً من أصحابه واستنجد بالرشيد « فعقد لهرثمة بن أعين في جيش عظيم » ما إن نزل الحوف حتى « لقيه أهله بالطاعة وأذعنوا باداء الخراج كله » .

ـ وخرج أهل الحوف كرة ثالثة سنة ١٨٦ على الليث بن الفضل

(١) انظر في تفصيل ذلك الكندي ـ الولاة والقضاة ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

الوالي لأنه « بعث بمساح يمسحون عليهم أراضي زرعهم فاتقصوا من القصبة أصابع فتظلم الناس الى الليث فلم يسمع منهم فعسكروا وساروا إلى الفسطاط فلما لم تسفر معركتهم مع الليث عن نصر حاسم ، رجعوا إلى منازلهم ومنعوا الخراج ... وذهب الوالي إلى بغداد يطلب جيشاً وذكر أنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف إلا بجيش وكان بباب الرشيد رجل يدعى محفوظ بن سلمان فرفع الى الخليفة أنه يضمن جباية خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا . فولاه الرشيد الخراج..» لكن الهدوء لم يدم سوى سنوات معدودة .

ـ وعاد الحوف الى الثورة مرة رابعة سنة ١٩١ من ولاية الحسين ابن جميل وامتنعوا عن اداء الخراج وذهب بعضهم لقطع الطريق حول أيلة (بين فلسطين والحجاز) وعادت الخلافة مرة رابعة فأرسلت جيشاً ما إن نزل بلبيس حتى أذعن أهل الحوف بالخراج ...

وإذا غرقت مصر في الفوضى بين المتنفذين خلال فتنة الامين والمأمون اكثر من خمس عشرة سنة وشغلت بما قاست من المآسي خلال ذلك فانها حين انتظمت الامور على يد عبد الله بن طاهر بن الحسين عادت إلى الثورة لأن صاحب الخراج « صالح بن شيرزاد ظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم فانتقض أسفل الارض (الدلتا) وعسكروا ... » في مطالع سنة ٢١٤ ... وقد كانت هذه الثورة أشد الثورات وأقساها واكثرها طولا في المدة وخطراً في النتائج رغم تقطعها وقتل زعمائها منذ السنة الاولى ..

---

(١) الكندي ـ الولاة والقضاة

وقد استمرت تلك الثورة ثلاث سنوات • وكانت تثور دوما في مطلع موسم الجباية والخراج خاصة من كل سنة وهزم المتمردون جيوش الولاة العباسيين واحدا بعد الآخر كما انهزموا مرات امامهم دون طائل • وقتل في الحروب المتقطعة جموع كثيرة ولكن الاستياء الكامن كان يفجر التمرد من جديد وكلما اخمد • ومنذ الايام الاولى شعر المأمون بخطر الثورة فأرسل عليها أخاه أبا اسحق (المعتصم) والياً على مصر ففاجأ أرض الثوار بجيش من الاتراك نزل بين أظهرهم وهزمهم وأسر زعيمي القيسية واليمانية : عبد الله بن حليس الهلالي وعبد السلام بن أبي الماضي فقيدهما ثم أقامهما للناس ثم ضرب أعناقهما وصلبهما في الفسطاط • (أواخر سنة ٢١٤) ثم خرج الى العراق ومعه جمع من الاسرى في حر وجهد شديد » لكن السنة التالية شهدت عودة بعض أهل الحوف الغربي للتمرد وهزيمتهم • ثم شهدت سنة ٢١٦ ثورة « أسفل الارض كلها عربها وقبطها ••• وأخرجوا العمال وخالفوا بالطاعة وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم ••• »[1] وثورة القبط هذه في تحالفها مع المزارعين العرب هي أول ثورة لهم بعد هدوء نصف قرن •

فأرسل أبو إسحق (المعتصم) الوالي على مصر قائدة الافشين الذي سحق بؤر التمرد في الدلتا الواحدة بعد الاخرى • وضرب أعناق زعمائها وأسر الكثير من رجالها • ومع ذلك فإن الخليفة المأمون إدراكاً منه لأبعاد تلك الثورة وخطرها قرر المجيء بنفسه الى مصر • وترك جبهة الروم إليها في مطلع سنة ٢١٧ وسماها « بالحدث العظيم » وأدرك منذ وصل سببها • قال لصاحب الخراج عيسى بن منصور : « لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك • حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتموني

---

(1) الكندي ـ الولاة والقضاة ص١٩٠

الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلد ... »[1] ثم حل لواءه وأمره « بلبس البياض » (بدل السواد ــ كأنما أضحى من الاعداء) « عقوبة له » على حد قول المقريزي[2] .

ولكن هذا لم يمنع المأمون ــ الذي بقي خمسين يوماً في مصر ــ من أخذ الناس بأقسى الشدة فقتل وسبا وتتبع (لا رؤوس الثورة فقط ولكن كل) من يومى إليه بخلاف فقتله فقتل ناساً كثيراً ... »[3] أما القبط فكان عقابهم عنده أقسى وأشد إذ نزلوا على حكمه بعد هزيمتهم أمام الأفشين « فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والاطفال فبيعوا وسبى أكثرهم ... » وهم قبط البشرود وسخا والبيما ويعلق المقريزي على ذلك بقوله « ومن ذلك اليوم ذل القبط بمصر .. » ويروي اليعقوبي أن المأمون استفتى فقيهاً مالكياً يدعى الحارث بن مسكين في عمله «فقال: « ان كان خروجهم لظلم نالهم فلا تحل دماؤهم وأموالهم ... » فقال المأمون : « أنت تيس . ومالك أتيس منك ، هؤلاء كفار لهم ذمة ، إذا ظلموا تظلموا إلى الامام . وليس لهم أن يستنصروا بأسيافهم ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم » وفي هذا اعتراف من المأمون بالظلم ولكنه ــ على قول المقريزي[4] ــ ينسب ذلك لعامل الخراج وجباته . فعزله وساق رؤساء الثورة القبطية إلى بغداد .

جـ ــ في اليمن : كان انتشار التشيع في اليمن نوعاً من المقاومة

(١) الكندي المصدر نفسه ص ١٩٢
(٢) المقريزي ــ الخطط ج١ ص ١٤٥
(٣) اليعقوبي ج٢ ص ٤٦٦
(٤) المقريزي الخطط ج ٢ ص ٩٩ .

السلبية ورد الفعل على جور الولاة العباسيين • ولكن اليمنيين في مختلف بقاع اليمن على مايظهر ، لم يكتفوا بالموقف السلبي بل قاوموا بالسلاح ذلك الجور • فقد ثارت اليمن ضد واليها حماد البربري سنة ١٧٩ هـ مدة تسع سنين • وبالرغم من إلقاء القبض بعد ذلك على زعيم الثائرين الهيصم ابن عبد المجيد الهمداني فان هذه الثورة لم تهدأ إلا بعد عزل حماد •• ولكنها تركت مكانها لثورات أخرى ، واضطر المأمون لمشاورة وزيره الحسن بن سهل في أمرها فأشار عليه برجل من ولد زياد بن أبي سفيان هو محمد بن ابراهم الزيادي فولاه اليمن سنة ٢٠٤ فتوجه إليها وفتح منطقة تهامة واختط فيها مدينة (زبيد) سنة ٢٠٤ وجعلها حاضرته وعظم أمره مع دوام ملكه إلى سنة ٢٤٥ حتى أضحى كالملك المستقل لولا خطبته لبني العباس ، وحمله الخراج والهدايا اليهم • وقد صار الملك في أبنائه، ثم في مواليهم وموالي مواليهم من آل نجاح إلى سنة ٥٥٤ هـ ؛ وتعرف دولتهم جميعاً باسم الدولة الزيادية • وهي أولى الدول استقلالا باليمن•

وبالرغم من أن يعفر بن عبد الرحيم بن ابراهيم الحوالي قام بعد ذلك سنة ٢٤٧ وقام من بعده أولاده وأحفاده بولايـة صنعاء (منطقة النجود في اليمن) وأسسوا الدولة اليعفرية بين (٢٤٧ ـ ٣٨٧) إلا انهم كانوا يخشون آل زياد ويرسلون لهم الخراج إلى زبيد كأنهم عمال لهم • ومثل ذلك موقف الأئمة الرسية الذين ظهروا في صعدة من عسير سنة ٢٨٠ وامتدت أيامهم إلى سنة ٧٠٠ هـ وتعاقب على الحكم منهم (١٧) إماماً •

د ـ **في الشام :** كان أهل الشام مايزالون عـلى موقفهم المعادي للعباسيين وإن اضطروا في كثير من الأحيان إلى إرسال وفود الطاعـة والترضية والولاء الظاهري إلى بغداد • وكان العباسيون بدورهم يعرفون

ذلك جيد المعرفة ويعاملون الشام تارة بالاهمال وتارة بالشدة العنيفة وثالثة بالمداراة تبعاً للظروف • وكانت تحركات الشام من الكثرة في هذه الفترة بحيث اجبرت الخلفاء على أن يتخيروا اليها اعظم رجال الدولة كجعفر البرمكي نفسه أو أقرب الناس رحماً إليهم كابراهيم بن المهدي أخو الرشيد وبعض أولاد المنصور أو أولاد صالح بن علي بل أزعجت أحياناً الخلفاء حتى اضطر الرشيد ذات مرة لأن يخرج إليها بنفسه • يذكر الطبري أنه حين ورد بغداد سنة ١٨٨ لم يبق بها وقال بعد ان امتدحها « ••• ولنعم الدار هي • ولكن اريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى والحب لشجرة اللعنة بني أمية مع مافيها من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبيل ولولا ذلك ما فارقت بغداد ماحييت ولا خرجت عنها أبداً •••»[١] وهكذا تبادل العراق والشام الدور في العصر العباسي وصار الشاميون هم «أهل الشقاق والنفاق» بسبب انتقال الحكم منهم ولكن حركات الشام في هذه الفترة كانت مختلفة الأسباب فبعضها فتن قبلية بين قيس ويمن • وبعضها انتقاض أموي على بني العباس وبعضها أخيراً ثورة على الظلم أو غضب للعروبة • وليست هذه الأسباب بنت هذه الفترة التي ندرس (١٥٨ ــ ٢١٨) ولا انتهت بانتهائها • لهذا فحركات الشام التي ظهرت فيها كانت حلقة من سلسلة سبق بعضها في زمن المنصور وسيتبع الباقي في زمن المعتصم والمتوكل ومن بعدهما •

فأما **العصبية القبلية** فيظهر أن العباسيين كانوا يغضون الطرف عن بقائها • وكان بعض ولاتهم يشجعها ، وينحزب لأحد القبيلين على

(١) الطبري ج ٨ ص ٣١٧ (٧٠٦/٣) •

الآخر . وكان القيسيون غالباً حزب العباسيين وبعكسهم اليمانيون . ويستمر ذلك إلا إذا استشرت الفتنة . فيتدخل جند الخليفة لإقرار الأمن . وال واحد فقط هو ابراهيم بن المهدي (ابن شكلة) ـ وقد ولي دمشق لأخيه الرشيد مرتين : سنتين ثم أربع سنوات ـ كان يفخر بأنه الوحيد الذي نجا من أن ينبذ بلقب من تلك الألقاب التي اعتاد الشاميون أن ينبذوا بها ولاتهم فإن مال لقيس لقبه اليمانيون وإن مال لليمن لقبه القيسيون كما كان يفخر بأنه نجح في إقرار التوازن القبلي بين قيس ويمن بالشام ومعاملتهم بالتساوي التام إذ جعل جلوسهم في مجلسه حسب مراتبهم وبالتناوب مابين قيسي يتلوه يماني ثم قيسي وبتناوب التحول من يمين إلى شمال يوماً بعد يوم . وكان لا يقضي مصلحة لأحد الحيين إلا نادى في الحي الآخر هل من مصلحة لأحد منه تشبهها فيقضيها ؟ .. والسبب في هذا التوازن الميكانيكي المتعب في الارادة هو تزاحم الجماعتين الاقتصادي دون شك ونزاعهم على النزول والاستئثار بأحسن الأراضي . وليست العصبية القبلية سوى الشكل الظاهري لهذا النزاع والزحام . إنهم أعطوا الاسم التقليدي للواقع الاقتصادي الاجتماعي الجديد الذي كانوا يعيشونه وهو عملية التحول من الرعي إلى الزراعة والاستقرار في كتل عربية متساندة تحفظ قراباتها المتصلة في القرى المتجاورة التي نزلتها . وتداخل القبائل الشمالية والجنوبية في النزول بهذه القرى الشامية ورغبتهم في الحفاظ على جموعهم في كتل متقاربة وفي استملاك القرى الاخصب هو الذي كان يثير الفتن التي عرفها العهد الأموي والعهد العباسي الأول باسم العصبيات القبلية .

ومن أخطر الفتن العصبية بالشام فتنة دمشق سنة ١٧٦ التي دامت سنتين ... تلتهما سنوات . وقد برزت فيها أحقاد التيسية (المضرية)

على اليمانيين واستماتتهم في الدفاع عن استقرارهم وأراضيهم لأنهم كانوا الأقل ثروة وعدداً بينما كان اليمانيون يفخرون بأنهم « أهل الثروة والعدد والعز » كما يروي المؤرخ المدائني عنهم ، كما كانوا « أجمع داراً من قيس » أي اكثر جموعاً . ولا شك مـن أن ازمات الجدب والجفاف وقلة المطر بين سنة وسنة كانت تساهم في إثارة الفتن بين الحيين وتطلق قواهم للصدام فيما بينهم بسبب الضنك والغلاء والعطالة عن العمل ونجد أثر ذلك في فتنة سنة ١٧٦ هذه فإن أيام ابن معيوف، امير دمشق اليماني ، في تلك الفترة كانت كما يروي ابن عساكر « أيام بؤس وجدب وغلاء » وقال أهل دمشق في ذلك الأشعار ومنها :

ماكنت أحسب أن الخبز فاكهـة حتى تربع في«الخضراء»معيوف[1]

والمؤرخ المدائني ، حباً منه في الإغراب ، يعزو سبب الفتنة الى النزاع على « بطيخة » ويروي أن العصبية ثارت بسبب رجل من بني القين (القيسيين) قاتله جماعة من لخم وجذام لأنه أخذ بعض البطيخ والقثاء من حائط (حقل مسور) لهم فقتل واحداً منهم وبالرغم مـن محاولات الصلح فقد غزا اليمانيون بعض القـرى القيسية فقتلوا عدة مئات وهاجم القيسيون بالمقابل بعض القرى اليمانية فقتلوا مثل ذلك ... وتوالت المعارك ... وفشل الوالي عبد الصمد بن علي الذي عينـه الرشيد للشام في ايجاد مخرج من دوامة الثارات المتبادلة !

تزعم القيسيين المضرية في هـذه الفترة « أحـد فرسان العرب المشهورين » الذي تذكرنا أعماله المثيرة للاعجاب من فروسية وشجاعة

(١) الخضراء هو قصر معاوية بن ابي سفيان في دمشق وكان لصـق الجامع الاموي على جداره الجنوبي . وقد اتخـذه الـولاة العباسيون مقرا للحكم .

وحكمة بكبار الفرسان المشهورين في الجاهلية وأصحاب المرؤات وهو : ابو الهيذام عامر بن عمارة بن خريم المري وكان مسكنه في بصرى وله منزلة في دمشق • والرواة يعطونه بدوره سبباً شخصياً إذ يروون أنه كان مــع أخيه في سجستان فقتل عامل الرشيد أخاه فعاد مغضباً وجمع الجموع للثورة•••[1] وليس يبدو أن أبا الهيذام اشترك في الفتنة من أولها فقد حافظ الرجل على برودة أعصابه ــ حسب مايظهر من الأخبار ــ اكثر من سنة وإن كان خلالها يحرك القوى القيسية ويتزعمها •• ولكن خبر غضبه لمصرع أخيه قد يكون صحيحاً فقد رويت على لسانه بعض الأشعار التي يتحدث بذلك ومنها :

سأبكيك بالبيض الرقاق وبالقنا ... فإن بها مايدرك الطالب الوترا
ولكنني أشفي الفؤاد بغـــارة ... ألهب في قطري كتائبها جمرا

وعزل الرشيد عبد الصمد بن علي واستبدل به ابراهيم بن صالح ابن علي والناس « على ذلك الشر » ثم تداعوا الى الصلح فاصطلحوا وشخص ابراهيم الى بغداد بوفد ضخم يضم ١٢٠ رجلاً من أهل الشام

---

(١) انظر تفاصيل هذه الثورة في ترجمة ابي الهيذام لدى ابن عساكر ــ تاريخ دمشق (مخطوط الظاهرية) ج ٨ الأوراق ١٩٥ وجه فيما بعـد وفي تهذيب التاريخ ج٧ ض ١٧٦ ــ ١٩٣ ويختصرها ابن الأثير في حوادث سنة ١٧٦ (ج٦ ض ١٢٧ ــ ١٣٣ ومن الهام أن نلاحظ أن هذه الترجمة تعين على معرفة منازل القبائل العربية في غوطة دمشق ومنطقتها ونجد مثل ذلك في ترجمة مسلمة بن يعقوب . (تاريخ دمشـــق لابن عساكر ــ المخطوط ج١٦ الورقة ٢٣١ فما بعد) . كما ان الهام ان نلاحظ ان الرواية التي يرويها ابن عساكر نقلا عن المدائني تميل مع القيسيين ميــلا كبيرا وتمجد بطولاتهم الخارقة وتذكر انتصارات ابي الهيذام الرائعــة بالاعداد القليلة على العدد اليماني الكبير ولعلها الرواية القيسية لتلك الاحداث . فهي اذن تفتقر الى وجهة النظر اليمانية .

قيهم أبو الهيذام . وقد مال ابراهيم ، تحت تأثير كاتبه اليماني ، مع اليمانية وهيأ خطيباً منهم يخطب بين يدي الرشيد ويثيره على قيس غير أن الخطيب القيسي قاطعه يقول : إنما ما جئنا وافدين ولكنا أتيناك مذنبين فإن يعاقبنا أمير المؤمنين يعاقب مستحقين وان يعف فأهل لذلك. فأعجب به الرشيد وأثبته في صحابته ووصل الوفد وانصرفوا ...

غير أن الأمور لم تجر على النحو السلمي في الشام لأن الوالي ابراهيم بن صالح الوالي استخلف عليه ابنه اسحق الذي حمل بدوره ميل أبيه إلى اليمانية وكان كاتبه من كندة فأغضب القيسيين ثم حبس نفراً منهم وضرب أربعين من زعمائهم وحلق لحاهم ورؤوسهم فنفروا إلى السلاح والى القتل والسلب والغارات ... أشهراً عديدة وكثر اللصوص والزواقيل . وفي هذه الفترة — على مايبدو — تحرك أبو الهيذام . جاءته امرأة قيسية قتل ابنها فألقت ثيابه بدمائه بين يديه فقال : انصرفي حتى انظر فلست أريد أمراً على ظلمة ... نأتي الامير ونرفع إليه دماءنا فإن نظر فيها وإلا فأمير المؤمنين ينظر . أو أرى رأيي ! وعرف اسحق ابن ابراهيم تحرك أبي الهيذام فأرسل إلى عامله على حوران أن يحمله الى دمشق فجاء به مع ابنه وجماعة من قومه فلم يأذن لهم اسحق وحجبهم فأثار ذلك أبا الهيذام ثم جاءه أن اليمانية أغاروا على قرية تلفياثا (تلفيتا) القيسية فركب بسلاحه الى قصر الأمير وطلب عزل الوالي المحلي وحلف لا يخلع سلاحه حتى يعزل فعزله اسحق وعاد فدبر مؤامرة ياتي بها اليمانية من أبواب دمشق على أبي الهيذام فيفتكون به ولكن الرجل انتصر على المهاجمين واحتل دمشق وأطلق كافة من به من المساجين من قيس ويمن . « فقامت اليمانية وكانوا « أجمع داراً من قيس قد ملأت كلب (اليمانية) البقاع والجولان ... » فاستنجدوا بعشائرهم واستنجد أبو الهيذام

بالمضرية • وقامت المعارك كرة أخرى •••

وبدا بوضوح أن الحرب القبلية انما كانت حرب إزاحة عن القرى والخصب وتأمين للاستقرار الجماعي في القرى الأخصب إذ قالت اليمانية: « نحن أهل الثروة والعدد والعز فتخرج مضر (قيس) من الشام فلا يدعو لهم داعية » وقال أبو الهيذام بدوره :

لولا الخليفة والاسلام ماتركت خيلي بأرض بني قحطان جوالا!

في هذه المرحلة الثانية كانت المعارك في دمشق وعند أبوابها وفي قرى الغوطة وحوران • وقد تناوب الطرفان الهدم والنهب والحرق والقتل لقرى بعضهم بعضاً : فخربت عدد من القرى اليمانية (وكانت داريا أعظمها ومنها كفر سوسية،والاوزاع وزملكا وحجيرا وعربيل•••) أحرقها حمدون السلمي قائد ابي الهيذام كما أحرق قرية ابن معيوف اليماني امير دمشق السابق وقصوره في قرية عين ثرما • وخربت بالمقابل قرى القيسيين مثل بلاس ، وتلفثايا والقطيفة ودومة وبراق وبعض قرى حوران • على أن أبا الهيذام كان يحمي من يطلب حمايته من اليمانيين يضع لواءه أمام منازله فلا يقربه أحد ! وكلما تحرج الحال مع أحد الحيين أوقد النار يستدعي الرجال من البعيد : يوقد ابو الهيذام على جبل المانع (عند الكسوة) ليأتيه المدد من حوران والبلقاء ويوف اليمانيون على جبل دير مران (سفح قاسيون عند قبة السيار) حتى لقد جاءت النجدات اليمانية من حمص وتحولت القبائل كلها جنودا وجيوشاً تقتتل وتصل الى عشرات الألوف ••• كل ذلك « وأبو الهيذام في أيام الفتنة داخل مدينة دمشق متغلباً عليها واسحق بن ابراهيم بن صالح خارج باب الجابية في قصر الحجاج •• » ويبدو أن البلد كان في معظمه قيسياً •

وتحركت بغداد فأرسل الرشيد لولاية الشام موسى بن يحيى بن خالد البرمكي ومعه جماعة كبيرة من القواد ورؤوس الكتاب منهم هرثمة ابن أعين ورجاء السندي وما أطلت طلائع الجيش العباسي مع السندي حتى حاولت اليمانية إثارته على أبي الهيذام الذي أرسل إليه وفداً لقيه عند مرج عذراء (عدرا) وأبلغه أنه على الطاعة . ودخل السندي دمشق قائلاً : لا أريد قتالك ولو أؤمر بذلك . وبعث أبو الهيذام إلى اهل دمشق يقول : اختاروا لأنفسكم إن شئتم خرجت حتى أرد السندي عنكم أو أموت وإن شئت تركتكم فلما عرف أنهم على الطاعـة تجهز فخرج بعد أسبوع من دمشق في موكب ضخم يعدتسعة آلاف فارس...

وكانت المرحلة الثالثة للمعارك حين ثارت اليمانية أن يخرج ابو الهيذام سالماً ــ كما قالوا ــ بدمائهم وأموالهم فقال لهم السندي : إن أردتم قتاله لم أمنعكم فدونكموه ... وقدم موسى البرمكي بعد أيام فقبل دعوى اليمانية ثم خرج الى حوران في القواد وأشراف أهل الشام وأبو الهيذام يظهر ويختفي في حوران وطلبه موسى بالحاح شديد فلم يفلح في أخذه ودبر مؤامرة يتسور فيها عليه بعض الجند منزله في بصرى ففشلوا وعادت الجموع فاجتمعت إلى أبي الهيذام وهزمت بعض الجند العباسي عند مسرح بصرى . وفي عدد من المواقع الاخرى من حوران وأخيراً أخذ الرجل بحيلة : « احتال عليه (الرشيد) بأخ له كتب إليه فأرغبه » فترك أصحابه في ٢٠ رمضان سنة ١٧٧ ولحق بأخيـه الذي « شد على أبي الهيذام فقيده وحمله الى الرشيد بالرقة ... فلما دخل عليه أنشده :

فأحسن أمـير المؤمنـين فإنـه أبى الله إلا أن يكون لك الفضل...

فمن عليه الرشيد وأطلقه ليموت بعد ذلك بخمس سنوات سنة

١٨٣ تاركاً للقيسيين ملحمة طويلة من المفاخر ••• ولكن العصبية القبلية لم تمت بل خمدت إلى حين لا سيما بعد أن حمل موسى البرمكي جماعات من رؤوس الفتنة إلى بغداد فرد الرشيد أمرهم إلى وزيره يحيى بن خالد البرمكي الذي عفا عنهم وأطلقهم فكانت تلك مناسبة يتحدث بها الشعراء بمناقب البرامكة :

قد هاجت الشام هيجاً يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها بخيله وجنوده • • •
فدانت الشام لما أتى نسيج وحيده •••

ثم انفجرت المشكلة مرة اخرى سنة ١٨٠ ••• كانت كل عناصرها ماتزال قائمة مستعرة • « فاغتم الرشيد بذلك » كما يقول الطبري « وعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له : إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا • فقال جعفر : بل أقيك بنفسي ! فشخص في جلة القواد والكراع والسلاح وجعل على شرطه ••• وعلى حرسه (بعض كبار القادة) فأتاهم في حملة تأديبية واحدة فأصلح بينهم وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم » على أن البرمكي الثاني اتخذ طريقة التجريد من السلاح وسيلة للخلاص من قتال الطرفين ولا شك أنه فرض على الناس ضريبة قاسية جمعها منهم « ••• حتى لم يدع بها رمحاً ولا فرساً •• »!

ويعلق الطبري بقوله : « فعادوا إلى الامن والطمأنينة » وعاد الشعراء بدورهم يغنون للبرامكة حين عاد جعفر إلى بغداد عاهداً بولاية الشام إلى عيسى بن العكي •••

وأما الانتقاض على العباسيين فكان يعتمد في الغالب على أسطورة (السفياني المنتظر) ! وقد خرج هذا السفياني الموهوم مرات عديدة أهمها خروج علي بن عبد الله حفيد خالد بن يزيد بن معاوية الملقب بأبي

العَميطَر سنة ١٩٥ وهـو عالم رواية دعا لنفسه وتسمى بالخلافـة وعمره تسعون سنة فيما يذكرون . وكان يقول : انا ابن شيخي صفين (لأنه علوي من جهة الأم) وأقبل أصحابه يدعـون الناس في أسواق دمشق قائلين : قوموا بايعوا مهدي الله ![1]

استغل أبو العميطر دون شك انشغال الأمين بحرب أخيه ثم حصار بغداد وذلك القلق الذي وقعت فيه خلافة بني العباس في السنوات الاخيرة من القرن . والتف حوله اليمانيون فقاومه القيسيون في دمشق ففتك بهم . وحاصر الوالي العباسي سليمان بن أبي جعفـر المنصور فانتهب وسبا حريمه ولم يفلت منه إلا بعـد اليأس . واحتل الخضراء ، فكان إذا خرج منها مشي في موكب بين يديه من ٥٠٠ رجـل على رؤوسهم القلانس الشاميات وفي ايديهم المقارع ... وقد استتب له الامر فترة من الوقت على مايبدو وأعانه الخطاب بن وجه الفلس مولى بني أمية وكان قد تغلب على صيدا ... كما أطاعه اليمانيون في البقاع وحوران والبلقاء ... والسواحل وحمص . ولعل مما أعانه عـلى ذلك نسبه وتقدمه في العمر وحسن سيرته وآن « الناس كانوا قد أخذوا عنه علماً كثيراً . » .

على أن الرجل وقع في دوامة العصبية القبلية . حين وقف القيسية

---

(١) نجد شيئاً من تفاصيل هذه الأحداث لدى ابن الأثير ج٦ ص٢٤٩ ـ ٢٥٠ ونجدها موسعة في المصدر الذي نقل عنه ابن الاثير وهو الترجمة الواسعة لدى ابن عساكر لأبي العميطر في ـ تاريخ دمشـق ـ مخطوط الظاهرية ج١٢ الورقة ٢٢٣ وجه وما بعدها .

والعميطر على وزن سفرجل اسم الحرذون وقد لقب به من قبل القيسية دون شك .

يناهضونه ووجدوا في محمد بن صالح بن بيهس الكلابي وهو الفارس الشاعر زعيماً يمثل موقفهم السياسي الرافض[1] • فخرج أبو العميطر الى قرية حرجلة القيسية فقتل من ظفر بـه ونهب القرية وأحرقها ثـم جعل وأصحابه من اليمن يطلبون من في دمشق من القيسية فيقولون : ريح قيسي نشمها من هذه الدار فيضربونها بالنار أو يسمرون الأبواب على من فيها ممن رفض البيعة حتى هرب القيســية كافة من دمشق • وكتب أبو العميطر الى ابن بيهس يقـول : « ••• العجب كل العجب لتخلفك عن بيعة أمير المؤمنين وجحدانك نعم آبائه عليـك وأنت تعلم مكان حرمتك بقرية تلفياثا وإن عشيرتك بالغوطة كرش منثورة وأمير المؤمنين يحلف لك بالله لئن سمعت وأطعت ليبلغن بك غايـة الشرف وليولنيك ما خلف بابه ولئن تخلفت ••• ليبعثن إليك مالاقبل لك به من الزحوف التي تتلوها الحتوف ••• » •

ولكن ابن بيهس لم يجب على الكتاب واستطاع بالعكس أن يهزم جيشاً تذكر الرواية أنـه كان في اثنى عشر ألفاً طاردهم ابن بيهس حتى أبواب دمشق فقتل منهم ألفين وأسر ثلاثة آلاف ••• حلق رؤوسهـم ولحاهم واستحلفهم أن يصيروا إلى باب أبي العميطر فيصيحوا : نحن عتقاء ابن بيهس ! وضعف أبـو العميطر وحصر بدمشـق فكتب الى السواحل وحمص وبعلبك والبقاع فاجتمع إليه خلق عظيـم فاشتبك جيشه مع ابن بيهس مرتين فقد السفياني في الأولى ابنه قائـد الجيش القاسم الذي قطع رأسه وأرسل الى الأمين ثم فقد في الثانية مولاه وقائده

---

(١) كان ابوه صالح بن بيهس سفير الرشيد الى ايرين ملكة الروم في الفداء سنة ١٨٤ (انظر خليفة بن خياط التاريخ ج٢ ص ٤٩٢) •

أيضاً : المعتمر وانهزم أصحابه هزيمة منكرة أوهنته وأطمعت فيه قبائل قيس وذلك في معركة دامت أياماً من مطالع سنة ١٩٨ بين قريتـي شبعا وقرحتا • وبينما كان جيش ابي العميطر يهزم كانت مؤامرة أخرى تتم عليه هو نفسه في دمشق • إذ أن ابن بيهس مرض فجمع رؤساء بني نمير فعرض لهم أنه عليل وأن عليهم أن يبايعوا بعض بني مروان وأشار عليهم بمسلمة بن يعقوب حفيد عبـد الملك بن مروان فتسرع هؤلاء وجاؤوا بالبيعة لمسلمة وكانت أخبار بغداد ومقتل الأمين فيها وغرقها في الفوضى أخباراً مشجعة على المغامرة • وهكذا جمع مسلمة مواليه ودخل على السفياني أبي العميطر في الخضراء فقبض عليه وقيده وجلس مكانه •••

ولعب مسلمة لعبة بارعة في تدبر البيعة له من رؤساء بني أمية • بعث إليهم على لسان أبي العميطر يطلب الحضور فكلما دخل واحدمنهم وقفوا بالسيف على رأسه يقولون : بايع ••• وبايع النـاس ! ولبس مسلمة الثياب الحمر وجعل أعلامه حمراً وأدنى بالطبع بني نمير القيسية وأقطعهم ضياع المرج (شرق دمشق) وجعل لكل رجل من وجوه قيس منزلا بدمشق وأعطاهم الولايات ••• ولكن هـذا الحـل المتسرع أغضب فيما يظهر ابن بيهس الذي شفي من مرضه وحاول السيطرة على مسلمة ودمشق فأبوا عليه ذلك فسار بقواه من شبعا عليها وما كاديصلها حتى صاح الديدبان بالسلاح ••• واصطدمت القوتان على أبواب دمشق وخاف القيسية على أنفسهم من هذا الانقسام فاتفقـوا مع ابن بيهس وانحازوا له فاستطاع بالخيل والرجالة أن يحاصر البلد ثـم تسورها بالسلالم من الجنوب (باب كيسان) واستولى على دمشـق (١٠ محرم سنة ١٩٨) بينما كان مسلمة والسفياني معـاً يهربان بثياب النساء الى المـزة •••

كان ذلك بدء حكم قيسي استمر قائماً في دمشق عشر سنوات لم يعكره على ابن بيهس إلا حرب اليمانية له : حاربه أهل المزة وداريا وبيت لهيا .. ولئن صالحة أهل بيت لهيا فقد أقام الآخرون على حربه ثم استطاع اليمانيون أن يحرضوا بعض الأمويين على ادعاء الخلافة . وهو سعيد بن خالد العثماني وكان يسكن قرية الفديـن في حوران . فتسمى بالخليفة وتطلب القيسية وقتلهم واضطر ابن بيهس أن يرسل ابنه لمطاردته في حصنه فهرب من ارضه إلى البلقاء ومنها إلى الجنوب مهزوماً مرة بعد مرة رغم جموعه الكثيرة التي تفرقت بعد ذلك .

وبقي ابن بيهس يحكم دمشق حتى استقرت أمور المأمون في العراق على ما يظهر فكاتبه « فولاه المأمون إمرة دمشق » فكان يحارب الثائرين باسم الخليفة العباسي وقد روي عنه شعر يقول فيه :

منعت بني أمية ما أرادت ... وقد كانت تسمت بالخلافة
أبدتهم من الشامات قتلا ... ولم يك لي بهم في ذاك رأفة
أناضلهم عن المأمون إني ... على من خالف المأمون آفة [1]

وقد جاء عبد الله بن طاهر دمشق سنة ٢١٠ فأقره على ما يظهر في مكانه حتى إذا عاد إليها من مصر أخذ ابن بيهس معه الى العراق فمات بها[2] وسوف يظهر في الشام ابن بيهس آخر لعله ابنه أو من ولد أبيه .

---

(١) انظر الصلاح الصفدي ـ الوافي بالوفيات ج٣ ص ١٥٦

(٢) ابن الأثير ج٧ ص ٢٥٠ والصلاح الصفدي في المصدر السابق يجعل وفاته سنة ٢١٠ أو قبلها ولا يبدو ذلك صحيحاً إذا كان رافق ابن طاهر في عودته الى العراق . ويذكر ان ابن طاهر حمله بالامان الى العراق وهو خطأ على ما يؤكد شعره .

- وأما الثورات على الظلم فقد كانت تأخذ شكل التمرد على النظام العام والسطو على الأمن وقطع الطريق عصابات عصابات . والواقع أن كثرة من كانوا يسمون في ذلك الوقت «بالزواقيل» «والمتلصصة» والمارقة كانت كثرة تسترعي النظر ولا تجد تفسيرها إلا في الفقر الاقتصادي وفي كثرة المظالم التي تخرج بالناس عن الطاعة وتدفعهم إلى التماس العيش بالنهب . ويظهر أن الاستياء العام أخذ هذا الشكل الانتقامي وكثر كثرة واسعة في أواخر عهد الرشيد وامتد في عهد الأمين والمأمون حتى مطالع عهد المعتصم حتى لقد اشترك فيه أيضاً بعض الذمة واذا كان قلق الرشيد من هذه الأمور قد أخرجه من بغداد إلى شمال الشام فإن المعتصم قد بدأ عهده بحملة على اللصوص وأزال بها قطع الطريق وكبس القرى في الجزيرة[1] وفي الشام الشمالي على الأغلب .

ومن أمثلة هذه الأعمال أن ابراهيم بن المهدي حين ولي دمشق (فيما بين سنة ١٨٥ ــ ١٩١ على الأغلب) أخبروه أن الآفة كانت في قطع الطريق في عمل دمشق من ثلاثة نفر : دعامة والنعمان وهما من موالي بني أمية ويحيى بن أرميا من يهود البلقاء (جنوب حوران) وأنهم لم يضعوا أيديهم في يد عامل قط . فكاتبهم ابراهيم فارعوى الاثنان وأبى الثالث أداء الجزية فقتل في معركة مع الجند ثم لم يقطع على أحد في عمل ابراهيم طريق[2] ... وخرج في الشام سنة ١٩١ رجل يدعى ابو النداء فوجه الرشيد في طلب يحيى بن معاذ وعقد له على الشام فاستمرت فتنة الرجل سنة حتى أسر وأخذ الى الرشيد وهو بالرقة فقتله[3] ..

---

(١) ماري بن سليمان ــ اخبار البطاركة ص ٧٧

(٢) محمد كرد علي ــ خطط الشام ج١ ص ١٩٠

(٣) الطبري ج٨ ص ٣٧٤ (٣/٧٧٦) وص ٣٢٩ (٣/٧٣٢) .

ومن الأمثلة أيضاً الفتن التي قامت بدمشق بسبب القلة البلورية التي اغتصبها الأمين من الجامع الأموي • وكان فيما قيل يعجبه البلور فلما شعر الدمشقيون بذلك ثاروا وافتتن الناس وامتدت فتنتهم حتى قالوا : لا صلاة بعد القلة فصارت مثلا ! ولعل القضية لم تكن أكثر من مجرد دسيسة من أنصار المأمون في دمشق لإثارة الناس ضد الأمين • فلما ولي المأمون أرجع القلة الى مكانها •••

ومن هذا النوع من الفتن ثورات حمص العديدة فقد وثب أهل حمص ــ وهم يمانيون ــ بواليهم سنة ١٩٠ وطردوه لظلمه دون شك لكن خروج الرشيد تلك السنة الى الشمال ووصوله منبج بخيله ورجله جعل البلد يرسل وفداً إليه هناك يعطون بأيديهم ويسألون العفو ••• حتى إذا كانت سنة ١٩٤ اختلف الحمصيون مرة أخرى مع عاملهم اسحق ابن سليمان فانتقل عنهم الى سلمية • وعلم الخليفة الأمين فعزله واستعمل مكانه قائده عبد الله بن سعيد الحرسي الذي قاتل أهل حمص وضرب المدينة من نواحيها بالنار • حتى سألوا الأمان فأمنهم ولكن العودة إلى الجباية الظالمة ــ فيما يظهر ــ هاجتهم فأخذهم الوالي بالارهاب وضرب عدة من وجوههم ورؤوس الحركة فيهم[1] •

وزادت الفوضى في الشام المتروك لمصيره أيام فتنة الأمين والمأمون وبعدها • وبرز خلالها من العصاة المتغلبين عدد كبير من بينهم ابن السرج وابن أبي الجمل وابن ابي الصقر وغيرهم • ويبدو أن المأمــون أدرك السر في فتن الشام وثوراته حين جاءه بنفسه فأصدر أمره سنة ٢١٥باعادة

---

(١) ابن الأثير ج٦ ص ٢٢٧ •

تعديل الأراضي ووجه في ذلك الى رؤساء اهل الجزيرة والموصل والرقه فاستعفوا من العمل وجلب بدلا منهم بعض مساح العـراق والأهواز فأتموا التعديل ووضع كشف جديد للارض لا أملا فقط في منح الناس بعض العدالة ولكن في زيادة الخراج الوارد منها[1] وكان عبد الله بـن طاهر قد سبق المأمون ، قبل سنوات فسار « يستقري الشـام بلداً بلداً لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواقيل وهدم الحصون وحيطان المدن وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر وضمهم جميعاً ونظر في مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج فلم يبق مخالف ولا خالع إلا خرج من قلعته وحصنه وعاد ابن طاهر الـى دار السلام يحمل معه المتغلبين على الشام امثال ابن السرج وأصحابه .

وأما الثورة التي تمثل فيها غضب الشام والجزيرة لعروبة الدولة فهي ثورة نصر بن شبث العقيلي وقد ظهرت في الجزيرة لا في الشام ولعلها أخطر ثورة هددت العرش العباسي والتقت فيها آلام الشام مع النزعة الأموية والعصبية العربية في وقت معاً ...

وكان الشاميون يأخذون على بني العباس (لا سيما زمن المأمون) ميلهم مع الفرس حتى استوقف واحد من أهل الشام مرة المأمون وكلمه في ذلك قائلاً :

يا أمير المؤمنين : انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان . فقال : لقد اكثرت علي يا أخا أهل الشام . والله ما أنزلت قيساً من ظهور الخيل إلا وأرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد . وأما اليمن فوالله

---

(١) ابن عساكر ــ تاريخ دمشق (التهذيب) ج٤ ص ١٠٧ ــ ١٠٨ .

ما أحبتها ولا أحبتني قط . وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيان وخروجه فتكون من أشياعه وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر . ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارياً (من الخوارج) اغرب ! فعل الله بك ...»(1)

ونصر بن شبث صاحب الثورة هذه المرة قيسي . وقد تزعم القيسية في شمال الشام والجزيرة الغربية خاصة وتذكر المصادر السريانية بجانبه ثائراً آخر اسمه عباس وتقول عنهما « وكان الثعبانان نصر والعباس يسودان المنطقة الغربية (من الجزيرة) كلها ويذيقون الناس العذاب وكانا يتحاضان على الشراب ويتنافسان في القدرة على احتماله ...»(2) على أن هذا لا يعني اكثر من أن العباس هو اكبر أو أهم اعوان نصر في الثورة .

ولئن كان نصر بن شبث عباسياً من أنصار الأمين فلقد ثار على الأمين والمأمون معاً سنة ١٩٨(3) ثم حارب المأمون ــ كما قال ــ « محاماة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم » فتبعه من تبعه بهذا الهدف . فكانوا جميعاً من العرب يدل على ذلك قوله لمن جاءه يشترط عليه أن يطأ بساط المأمون ليعفو عنه : « ويلي عليه ! لم يقو على

---

(١) الطبري ج٨ ص ٦٥٢ (٣/١١٤٢)

(٢) انظر تاريخ ميخائيل السرياني (الكبير) بالفرنسية ترجمة شابو ج٣ ص٣٨ وثمة تفاصيل كثيرة عن هذه الثورة نجدها في الصفحات ٢١ ــ ٢٧ و٣٠ ، ٣٦ ــ ٣٨ ، ٤٦ ــ ٤٧ و ٥٢ و ٥٥

(٣) يذكر ابو زكريا الأزدي (تاريخ الموصل ص ٣٢٨) أن ابن شبث كان والياً على الجزيرة من قبل الأمين «فعزله بعبد الله بن سعيد وأنفذ إليه داوود بن عيسى فقتله نصر ...» سنة ١٩٨

اربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعني ثورة الزط) فكيف يقوى على حلبة العرب ؟ » .

وتغلب نصر على بلدة كيسوم (شمالي حلب قرب سميساط) وفشا أمره مدة خمس سنوات وصار له ما بين سميساط الى الضفة الشرقية للفرات الى أرض الجزيرة وتبعه من بها من الاعراب .

وأتى نفر من الطالبيين الى ابن شبث فقالوا : قد وترت بني العباس وقتلت رجالهم وأغلقت المغرب عنهم فلو بايعت خليفة كان أقوى لأمرك. قال من أي الناس ؟ قالوا : بعض آل علي قال : أبايع اولاد السوداوات فيقول : إنه خلقني ورزقني ؟! قالوا : فنبايع لبعض بني أمية . قال أولئك قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبداً ... ولو سلم علي مدبر لأعداني إدباره . وإنما هواي في بني العباس وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم ... »[1] .

وقد عهد المأمون إلى قائده طاهر بن الحسين بحرب ابن شبث فتحصن منه بكيسوم سنة ١٩٩ ولم يقبل دعوته الى الطاعة ولم يظفر طاهر منه بشيء حين لقيه في القتال المرير بل عاد إلى الرقة مغلولاً أو شبه المهزوم[2] وبقيت الجزيرة وشمال الشام في يد الثائر سنوات عديدة. صادر فيها أحياناً التجار وسيطر على طرق التجارة . لكنه عامل المسيحيين

---

(١) الأزدي ــ تاريخ الموصل ص ٣٣٤ وابن الأثير ج٦ ص ٣٠٨ .
(٢) أبن العديم ــ زبدة الحلب ج١ ص ٦٥ ـ ٦٦ وابن الأثير ج٦ ص ٢٩٨

في المنطقة ـ رغم مايذكرون من « طغيانه » ـ معاملة حسنة يقول المؤرخ السرياني إنه « كان يحب المسيحيين ويفرض أقسى الجزية على من يترك منهم دينه . ويقول : ليس لي عليكم إلا الجزية وكل امرىء بعد ذلك حر في دينه . وهكذا ـ كما يقول المؤرخ نفسه ـ عاد الكثيرون من المساجد إلى الكنائس ... »

وكان في ثورة نصر شيء من السذاجة البدوية التي تمثلت من قبل في ثورات الخوارج بالجزيرة . ويظهر ان المأمون شعر بخطورة الأمر في المغرب كله فولى عليه عبد الله بن طاهر سنة ٢٠٧ فضيق هذا على نصر بن شبث ثم ضيق وحارب وفاوض ثلاث سنوات حتى لقد بعث المأمون إليه رجلا يقنعه بالحسنى أن يكف عن الثورة [1] حتى انتهى الأمر بأن قنع بقبول الصلح سنة ٢٠٩ هـ شريطة الأمان فكتب له « ... وأمير المؤمنين يختم كتابه بشهادة أن لا إله إلاّ الله وضمانة لك في دينه وذمته الصفح عن سوالف جرائمك ومتقدمات جرائرك وانزالك ما تستأهل من منازل العز والرفعة ان أتيت وراجعت ان شاء الله ... »[2] فسلم نصر بعد ثورة دامت اثنتي عشرة سنة وجيء به إلى بغداد سنة ٢٠١ هـ (آذار سنة ٨٢٥) حيث وكل به المأمون الحفظة .

ويلفت النظر ماذكرته المصادر السريانية خاصة عن علاقة نصر بن شبث بالروم وهي ظلت غائبة عن المؤرخين العرب وتقول : « حين علم نصر الثائر أن المأمون ، ملك الطائيين (العرب) تهيأ للقدوم الى بغداد

---

(١) الطبري ج٨ ص ٥٩٨ (١٠٦٧/٣ ـ ٨)
(٢) المصدر نفسه ٨ ص ٦٠٠ (١٠٧٢/٣ ـ ٣) .

دعا كاتبه وهو مسيحي متعلم وأملى عليه خطاباً للبطريق أمانويل كأنه يريد التحالف مع الروم . ولما علم الامبراطور ميخائيل بذلك بعث رسله فوصلوا الى كيسوم فوجدوا نصراً قد خرج إلى سروج وبلغه الخبر وهو بها فجمع أصحابه وأعلمهم الخبر وافتخر بقدم رسل الروم . وغضب أنصاره وقالوا : أتريد أن تغضب الله وترتد ؟ الى أن أوغروا صدره حقداً بهذا الحديث فأرسل من قتل رسل الروم ...»[1] ويبدو أن مبادرة نصر بالكتابة إلى الروم غير صحيحة ولو أنها كانت لعرف بها أصحابه من قبل ومنعوه منها . والأرجح أن امبراطور الروم أو قواده على الجبهة أرادوا الاتصال به واستغلال ثورته . ولعله مال الى التعاون معهم ثم استشار أصحابه وانتهى الى رفض التعاون الذي يوقعه في الشبهة دينياً وسياسياً فقرر قتلهم تعبيراً عن قطع كل جسر وكل احتمال لذلك التعاون . ولو أنه كان طلبهم بنفسه لاكتفى بصرفهم حيث جاؤوا.

وبعد أن وقع نصر ، جمع عبد الله بن طاهر المتغلبة على مدن الشام أمثال: ابن السرج وابن ابي الجمل وابن ابي الصقر فحملهم وراءه الى بغداد ايضاً وتابع طريقه الى دمشق ليقضي على ابن بيهس على أن أصداء ثورة نصر بقيت أزماناً طويلة في نفوس الناس واحتفظت الملحمة الرومية الشعبية بذكرى ثورته حتى اصبحت فصلا من فصولها لأنها وقعت في المنطقة نفسها (سميساط) التي تقع فيها أحداث البطل الرومي ...

هـ ـ في السواد : بالرغم من قرب هذه المنطقة من عاصمة الدولة فانها كانت في بعض السنوات من هذه الفترة مركز ثورة وشغب ولكن من قوم غريب عن العالم الاسلامي هو : الزط (النور) ويظهر ان الزط اخلاط من الهنود يقدر عددهم بسبع وعشرين الفاً وصلوا لسبب لا نزاله

نجهله الى سواحل خليج البصرة • ويظهر من أخبار البلاذري[1] أن أصل الزط من منطقة السند • وانهم كانوا أهل مستنقعات يرعون فيها الجواميس فتنقلوا في بلاد كرمان وفارس وكور الأهواز ووصلوا أخيراً إلى بطائح العراق ، وسبب ترحلهم على قول المسعودي[2] هو مجاعة وغلاء حلت بهم في ناحية الهند • واسم (الزط) في العربية مشتق من اسمهم الهندي (الجات) وما يزال منهم هناك بقايا يعيشون في الحوض الأدنى المستنقعي من حوض السند • ولغتهم هناك مستعملة إلى اليوم •

ويبدو أن قدومهم إلى العراق سابق للفتح الاسلامي لأن البلاذري يشير إلى وجود جماعة من الزط ، في منطقة البصرة عند الفتح[3] ، قد جاء بهم الساسانيون ولقيهم الفاتحون فيما بين رامهرمز وأراجان فهم يذكرون أرضاً باسمهم هناك • وقد نقل معاوية ، أسراً عديدة من الزط، من البصرة إلى سورية سنة ٦٧٠ ثم أتى الحجاج ببعضهم (او سمح لهم) باستيطان منطقة البطائح ليستفيد منهم في استغلالها • ثم نقلهم الوليد — أو نقل بعضهم — ، وكذلك يزيد الثاني في النصف الأول من القرن الثامن إلى شمال سوريا الغربي فأقراهم في أنطاكية والمصيصة يعني على التخوم مع الروم • وكان في أنطاكية منذ عهد معاوية والوليد بن عبد الملك حي يسمى بحي الزط لأنهما انزلاهم وفي بوقا من عمل اللاذقية قوم من اولادهم[4] •

ويظهر أن مستواهم المعاشي كان واطئاً جداً لأنهم أخذوا يقومون

---

(١) البلاذري ص ٤٦١

(٢) التنبيه والاشراف ص ١٩٦ .

(٣) البلاذري — فتوح ص ٤٦٠.

(٤) المصدر نفسه ص ١٩٣ و ص ٤٦٣ .

يبعض أعمال اللصوصية الصغيرة « بأن يسألـوا الشـيء الطفيف ، ويصيبوا غرة من أهل السفينة فيتناولوا منها ما يمكنهم اختلاسه[1] » وقد زاد عددهم كما زاد فقرهم وعبثهم أيـام المأمـون حتى أصبحوا خطراً على المواصلات والأمن • ويفسر البلاذري ذلك بأنهـم « غلبوا على البطيحة وتناسلوا بها ثم إنه ضوى إليهم قوم من أبـاق العبيد وموالي باهله وغيرهم فشجعوهم على قطع الطريـق ومبارزة السلطان بالمعصية » وهذا يدل على أنهم كانوا إحدى الطبقات التي دفعها سوء الوضع المعاشي إلى التذمر ثم إلى الثورة • لهذا نجدهم حين ثاروا قد « احتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة » وسوف يثور الزنج ، تلك الطبقة الأخرى التي تشبه الزط في الشروط المعاشية، بمنطقة البطائح نفسها بعد حوالي نصف قرن مثل ثورة الزنج •

وقد انتهز الزط قيام الفتنة الاخوية بين الأمين والمأمون فاستولوا على طريق البصرة ومنعوا الميرة عن بغداد وفرضوا المكوس الجائرة على السفن التجارية • وكـان على رئاستهم زعيـم يسمى محمد بن عثمان وصاحب أمره رجل يقال له : سملق •

وقد عجزت جيوش المأمون ما بين سنة ٢٠٥ حتى وفاته عن قهرهم رغم ما بعث من قواد حتى ارسل المعتصم من بعده عجيف بن عنبسـة فأحاط بهم وسد مسالك الانهار والقوت عليهم تسعة أشهر واضطرهم لطلب الامان ثم حملهم في السفن مطلع سنة ٢٢٠ فمر بهـم في بغداد وكانت عدتهم مع النساء والصبيان سبعة وعشرين ألفاً والمقاتلة منهم اثنا

---

(١) البلاذري ص ٤٦٢ •

عشر ألفاً أيضا فاستعرضهم الخليفة في سفنهم على تعبئتهم وهم ينفخون في البوقات[١] ثم نقلوا في البر إلى (عين زربة) في آسيا الصغرى فأسرهم هناك الروم سنة ٢٤١ ونقلوهم الى اوروبا وعرفوا هناك باسم جيبسي[٢] .

و ـ في الموصل : كانت الموصل رغم قربها من بغداد ـ العاصمة على علاقة سيئة مع الحكم العباسي منذ ثورتها الأولى عليه ونكبتها في تلك الثورة سنة ١٣٣ على الأقل وربما كان يشجعها على الثورة ما يقوم وراءها إلى الشمال من ثورات الخوارج وغيرهم في الجزيرة وارمينية واذربيجان . ويبدو أن خراج البلد كان ثقيلا عليها بينما تدمر الثورات حولها إنتاجها فكان يكسر عليها الخراج فلا يدفع في بعض السنوات . وقد تشكى أهل الموصل ذلك أكثر من مرة وجاء وفدهم سنة ١٧٥ الى يحيى بن خالد البرمكي فأجبرهم على تسوية تقوم على أساس مساحة الأرض[٣] .

ويبدو أن هذه التسوية لم ترض الناس فانا نجد في السنة التالية سنة ١٧٧ تحالف قائد من قواد الموصل وفرسانها المعروفين وهو العطاف ابن سفيان الأزدي مع بعض القواد الآخرين ومع صعاليك البلد وأهله ضد الرشيد . وبالرغم من أن المصادر لا تشير الى سبب هذه الثورة

---

(١) انظر ابن الأثير ج٦ ص٤٤٤ و ٤٤٦ والطبري ج٩ ص ٨١٠ (١١٦٧/٣ ـ ١١٦٨) .

(٢) يرى المستشرق (دي غويا) أن الزطهم أصل (غجر او نور) أوروبا غير أن الراي لقي معارضة شديدة لا سيما من الفرنسي (بتايار) الذي يرجع وجود الزط في أوروبا الى أزمنة سحيقة .

(٣) ابو زكريا الأزدي ـ تاريخ الموصل ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧

إلا إن قيام فارس موصلي بها وتحالفه مع صعاليكها وتأييد البلد له تأييداً شاملا جعل الرشيد يحلف بأن يقتل من يلقاه من أهل الموصل وأن يهدم سورها . كل ذلك بالإضافة الى ما قام به العطاف من «جباية الخراج وحبس العمال» إنما يدل على أن قضية الخراج هي السبب في الحركة . وكان جيش العطاف أربعة آلاف فاستطاع «منع عمال هارون (الرشيد) من الجباية واستخرج هو المال ...» وأضحى هو «الغالب على الأمر كله وهو في يده ...»[1] واستمر الأمر على ذلك ثلاث سنين حتى شخص الرشيد سنة ١٨٠ بنفسه الى الموصل وكاد العطاف يكمن له ويهاجمه لولا أن رجاه شيوخ البلد ألا يفعل بينما كان الرشيد قد أقسم أن يقتل من يلقاه من أهلها ... فذهب وفد منهم الى أبي يوسف القاضي يرجون أن يجد لهم مخرجاً فوجده : طلب إليهم أن يجهروا بالأذان في العشاء فلما فعلوا قال الرشيد : ما هذا ؟ قال ابو يوسف إنهم قوم مسلمون ومن أهل الصلاح وفيهم قراء القرآن ولا يجوز قتلهم فقال الرشيد وما الحيلة في يميني ؟ قال : ادخل المدينة ليلا فلا يجب عليك قتل من لا ترى .. وكان ذلك ثم أمر بهدم سور المدينة ونادى مناديه : من هدم ما يليه من السور فهو آمن ... وهرب العطاف الى ارمينية بجنوده فلم يعف عنه الرشيد أبداً .. أما الموصل فطولبت بخراج السنوات السابقة وقهرت وظلمت بالعسف الشديد حتى جلا عن البلد كثير من أهله الى اذربيجان وخلت قرى كثيرة من سكانها فلم تعمر بعد ذلك[2] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٥

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٧

ز ــ في خراســان : لم تجن خراسان شيئاً من كل الخدمــات التي قدمتها لبني العباس • فلقد ثارت ــ مع العرب الذين سكنوها ــ على بني أمية لتحقيق بعض الافكار الدينية والاصلاحات المالية والاجتماعية وقد هزم المنصور ثوراتها المنحرفة عن الدين فتحولت الى السر ، ثــم فشلت في تحقيق الاصلاح المالي اذ لم يكن الولاة العباسيون أقل ظلماً للخراسانيين من اسلافهم الامويين • واخيراً فان الذي افاد من المساواة الاجتماعية مع العرب كانت الارستقراطية الايرانية وحدها دون جماهير الشعب • ولهذا سنرى خراسان تثور في هذه الفترة التي ندرسها (١٥٨ ــ ٢١٨) على الظلم ثم تحاول لعب دور جديد في الدولة الاسلامية يوم الفتنة الاخوية حتى اذا فشلت انتهى بها اليأس الاخير الــى الانفصال التدريجي عن الدولة •

والواقع ان أكثر ولاة خراسان اهتموا بمصالحهم وثرائهم دون أماني الرعية • وبعضهم (كعبد الجبار بن عبد الرحمن والمسيب بن زهير) زادوا في الضرائب دون مبرر • ولعل الفضــل بن سليمــان الطوسي (٧٨٣ ــ ٧٨٧) والفضل بن يحيى البرمكي (٧٩٤ ــ ٧٩٥) هما الواليان الوحيدان اللذان سعيا لخير خراسان • ولعل اصلاحات الأخير من إزالة سيرة الجور وبناء الحياض والمساجد واحراق دفاتر البقايــا وزيادة العطاء ، قللت الوارد من خراســان وأغضبت الرشــيد ، كمــا يقول الجهشياري[1] •

وولى هارون بعد ذلك علي بن عيسى بن ماهان سنة ١٨٠/٧٩٦ في مهمة محددة عهد إليه بها فيما يبدو ــ وترمى الى تدمير القواعدالتي

(١) الجهشياري ص ٢٢٨

بناها البرامكة هناك وتبديد الجيش الذي نظموه بالأعداد الضخمة وإفقار أنصارهم وقتل الاقوياء من الدهاقين الموالين لهم • فكان الوالي القاسي الظالم مدة عشر سنين (٧٩٦ ـ ٨٠٦م) حمل من أموال الناس إلى الرشيد «ألف بدرة مسمولة من ألوان الحرير فيها عشرة آلاف الف درهم[١] » فسر الرشيد بذلك وزاد علي في الحظوة عنده • فلما شكا كبراء خراسان من ظلمه وسوء سيرته فيهم لم يستمع لشكواهم[٢] ثم ثارت المنطقة عبثاً أيضاً : قاد ثورتها سنة ١٨٣ أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي ، أحد موالي الحريش بينما كان علي بن عيسى يحمل الهدايا للرشيد • فأعاده الخليفة الى خراسان للقاء الثائر الذي كان «قد غلب على بلده نسا وعلى ابيورد وطوس وسرخس ونيسابور وخربه وأفسد وكثفت جموعه وقوي أمره فخرج إليه علي بن عيسى بجيش قضى عليه سنة ١٨٦ وقتله وانتقم من أهله وذراريه بالسبي وحمل رأسه الى مرو[٣] • ولا يبعد أن تكون هذه الثورة على علاقة بالفضل البرمكي أو أن تكون عناصرها من أشياع بيته •

ويبدو أن هذه السياسة الإرهابية كانت من وحي الرشيد وتخطيطه لتدمير قواعد البرامكة في خراسان فرضي بها وأبقاها حتى بعد مصرع البرامكة ثم وسوس إليه بعض الوشاة أن علياً ينوي الثورة فمشى بنفسه إليه (سنة ١٨٩ هـ ـ ٨٠٤م) ولكن علياً قدم على الرشيد وعلى حاشيته «بالهدايا والأموال والطرف من المتاع والمسك والجوهر وآنية الذهب

---

(١) الجهشياري ص ٢٢٨

(٢) الطبري ج٨ ص ٣١٥ (٣/٧٠٣ ـ ٤)

(٣) ابن ظافر الأزدي الدول المنقطعة ـ مخطوط المتحف البريطاني ورقة ١١١ وجه والطبري ج٨ ص ٢٧٠ وص٢٧٥ (٣/٦٤٩) و (٦٥١) •

والفضة والسلاح والدواب ، وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم» فقنع الرشيد بولائه ولعله أبقاه خوفاً من أن يكون هناك في خراسان بعض الموالين للبرامكة فيتحركون للثأر لنكبتهم ٠

وأخيراً افتضح أمر علي سنة ٨٠٥م (١٩٠ هـ) بان ثارت خراسان مرة أخرى ٠٠٠ ولكنها لم تكن ثورة برمكية ، وإنما كانت ثورة اجتماعية دينية ،مشت بها الطبقات المسحوقة وراء شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قاد الثورة رافع بن الليث (حفيد نصر بن سيار) ،وبالرغم مما يروي الطبري[١] من أن الثورة كانت لسبب شخصي (هو إيقاع الحد الشرعي برافع) فإن بعض المؤرخين كالدينوري[٢] يعزوها الى ظلم علي ٠ « وتحامله على من في خراسان من العرب » وما من شك في ان ضيق الناس بظلم هذا الوالي هو الذي يفسر نجاح رافع وكثرة أنصاره حتى بلغ عددهم زهاء ٣٠ ألف رجل وأيدته بلاد الترك أيضاً : «كتب ــ مثلا ــ أهل نسف إلى رافع: يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل علي بن عيسى فوجه صاحب الشاش في أتراكه قائداً من قواده فأتوا عيسى بن علي فأحدقوا به وقتلوه (سنة١٩١) ولم يعرضوا لأصحابه[٣] ٠ وانتشرت الحركة بين أهالي فرغانه واشروسنة والصغانيان وبخارى وخوارزم والختل[٤] فناصروا رافعاً في ثورته مما يبين انتشار التذمر من سياسة

---

(١) الطبري ج٨ ص ٣١٩ (٣/٧٠٧ ــ ٧٠٨)
(٢) الدينوري الاخبار الطوال ص ٣٩١
(٣) الطبري ج٨ ص ٣٢٣ (٣/٧١٢)
(٤) اليعقوبي ج٢ ص ٤٣٥

العباسيين ، كماأن بعض خصوم الدولة العباسية مثل «حاكم الشاش والترك والتغزغز والخرلخي (القارلوق) وجنود التبيت ، أرسلوا نجدات لمساعدته حين استنصر بهم» وهكذا على ما يظهر بدأت ثورة رافع عربية ثم لحق بها الايرانيون والترك ، الناقمون المتذمرون فصارت ثورة اقليمية ثم أيدها أمراء الترك المجاورون فصارت ذات طابع دولي على نحو ما وظهر أن نوعاً من الحلف أو الجبهة الثائرة قد قام على اقصى الحدود الشمالية الشرقية للدولة يشترك فيه كافة الترك المعاهدين مع المجموعة العربية المستقرة هناك والسكان الايرانيين . والترك (المسلمين وغير المسلمين) ويبدو أن مقر رافع بن الليث وحلفه كان في «سمرقند» «حيث تحصن» وأن الرباط الجامع بين أصحابه هو ظلم والي خراسان فإن الرشيد حين أرسل هرثمة أمره «بالشخوص الى سمرقند ومحاولة ما قبل خامل (يقصد رافع) ومن كان على رأيه ممن أظهر خلافاً وامتناعاً من أهل كور ما وراء النهر وطخارستان بالدعاء الى الفيئة والمراجعة وبسط أمانات امير المؤمنين ... إذ أجابهم الى طلبتهم .. وكفاهم ولاية من كرهوا ولايته وأمر بإنصافهم في حقوقهم وظلاماتهم ...» .

واتخذ الرشيد تدابير عديدة ، فعزل علي بن عيسى وأرسله هرثمة مع اولاده وعماله بالقيود الى بغداد «فأظهر (الناس) السرور وانفسحت آمالهم وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم ...» واستصفى الرشيد أمواله فبلغت ثمانين مليونا من الدراهم» وكتب إليه في كتاب العزل : «خالفت عهدي ونبذت وراء ظهرك أمري حتى ظلمت الرعية وأسخطت الله وخليفته لسوء سيرتك» وأوصى القائد هرثمة بن أعين الذي خلف علياً على الولاية باستخراج أموال الخراج التي اغتصبها علي «وبانصاف المسلمين والمعاهدين منه ورد حقوقهم ومعاملتهم بالحسنى وأن يتقي الله

ويهتدي بكتابه ...»[1] إلا أن هذه التدابير جاءت متأخرة فلم تستطع القضاء على الثورة التي بلغ من خطرها أن قرر الرشيد المسير إليها بنفسه سنة ١٩٢ وكان في طريقه إليها حين توفي ...

كان هرثمة القائد ، قبيل وفاة الرشيد قد هزم ابن الليث في واقعة فتح بعدها بلدة بخارى وأسر بشير بن الليث شقيق رافع فلما أدخلوه على الرشيد بطوس وهو مريض كشف الحوار الذي دار بينهما عن مدى حقد الرشيد ونقمته على الثائر ولعل لمرضه السرطاني أثراً في تأجيج تلك النقمة إذ قال حين استعطفه : والله لو لم يبق من أجلي إلا أن أحرك شفتي بكلمة لقلت :اقتلوه ثم أمر القصاب ألا يشحذ سكاكينه وأن يقطع اعضاءه فقطعه ٢٤ قطعة[2] .

ويبدو أن المأمون الذي كان يرافق أباه أراد تهدئة أبيه والثورة معاً إذ كتب «الى» أبناء أسد بن سامان وكانوا فيما يظهر من اكبر بيوت ما وراء النهر فأمرهم بمعونة هرثمة على رافع . ولكن هؤلاء الأبناء فضلوا المسعى السلمي وحملوا رافعاً على عقد صلح مع هرثمة أيدوه بمصاهرة بينهما[3] . ويقول النرشخي «وفرغ بال الرشيد من هذا الأمر» وقد كان يخشى أن يستولي رافع على كل خراسان وقد رأى المأمون أن هذا الأمر (أي الصلح) قد جاء في حينه تماماً» لأن التهدئة جاءت على ما يظهر لتعطي الرشيد بعض الراحة وهو على أبواب الوفاة . فما توفي حتى عادت الحرب كرة أخرى .

---

(١) الطبري ج٨ ص٣٢٧ (٣/٧١٦ ــ ٧١٧) وقد ذكر ان خزائن علي ابن عيسى حملت على ١٥٠٠ بعير .

(٢) الطبري ج٨ ص ٣٤١ ــ ٣٤٢ (٣/٧٣٤)

(٣) النرشخي ــ تاريخ بخارى ص ١٠٥

وبالرغم من معونة الترك فإن رافعاً «تراجع الى سمرقند فتحصن بها ... ثم استعان رافع بجيغويه (التركي) الخرلخي وكان جيغويه هذا قد أسلم على يد المهدي فجعل يخادع هرثمة ويوهمه أنه معه ومعونته وهواه لرافع . ثم أظهر المعصية والخلع فقوي أمر رافع بمكانه وأحرق السواد بالنار وتبرأ من أهله ودعا لغير بني هاشم ...»[1] وكان هذا يعني أن الأمور قد تحرجت حرجاً شديداً دعا هرثمة إلى أن يشدد القتال حتى «أخذ بأكظامهم» سنة ١٩٣ ودخل حائط (سور) سمرقند فلجأ رافع الى المدينة الداخلة وراسل الترك فوافوه فصار هرثمة بين رافع والترك ...»[2] .

ويبدو أن دبلوماسية المأمون وعمل حاشيته مع وجهاء ما وراء النهر وبيوته الكبيرة قد فعلت فعلها وفي الوقت الذي كان يترضى أهل خراسان كان يفاوض رافعاً ويعمل لدى ملوك الترك حتى يتخلوا عن رافع وقد سحبوا جيوشهم سنة ١٩٤ فعلا بينما قنع رافع بحسن سيرة المأمون ـ على قول الطبري ـ فبعث يطلب الأمان منه وأسرع هرثمة فقبل أمانه وأخرجه مع أهله وأصحابه وقدم رافع على المأمون سنة ١٩٥ ـ وهرثمة مايزال في سمرقند ـ فأكرمه وعفا عنه . وهو عفو يجد تعليله دون شك في ماكان على المأمون ان يواجهه في تلك السنة من حرب أخيه ومزاحمته على الخلافة . كان المأمون يتدبر سلم ولايته وما حوله ليتفرغ للمشكلة الكبرى[3] .

---

(١) اليعقوبي ج٢ ص ٤٣٦

(٢) الطبري ج٨ ص ٣٧٣ (٣/٧٧٥) .

(٣) يذكر ابن الأثير أن هرثمة قتل رافع بن الليث وان ذلك كان سنة ١٩٥ (انظر ج٦ ص ٢٠٩) .

ولعل أهم ما تمخضت عنه ثورة رافع بالنسبة لمستقبل خراسان التاريخي أنها فتحت الطريق لابناء أسد بسبب تعاونهم مع المأمون ليكونوا أمراء على مرو وسمرقند ثم ليكون ابناؤهم من بعدهم مؤسسي الدولة السامانية في خراسان اعتبارا من سنة ٢٥١ بمرسوم من الخليفة الواثق .

أما فيما بين ثورة رافع وأواسط عهد المأمون فقد عاشت خراسان تجربة ظنت معها أن الآمال التي فاتتها بعد الثورة العباسية قد عادت لتتحقق متأخرة ستين سنة . وكانت مسيرة جيش طاهر بن الحسين الى بغداد تجديداً ، على نحوما ، لمسيرة قحطبة الطائي وحسب المأمون أن بإمكانه أن يدير الدولة كلها من أقصى شمالها الشرقي كما حسب الخراسانيون وخاصة منهم الايرانيون المسلمون أن بإمكانهم أن يأملوا في السيطرة على الدولة محل العرب .

على أن هذه التجربة التي جربتها خراسان مع المأمون لم تنجح وكانت نوعاً من السراب فما كاد يتم له أمر الخلافة حتى فرض الواقع الجغرافي والتكوين السياسي والاقتصادي للدولة نفسه عليه فانتقل إلى بغداد وقتل الفضل بن سهل ... فمهد ذلك لانفصال المنطقة جميعاً على يد الأسرة الطاهرية . وبالرغم من ارتياب المأمون بهذه الأسرة فان أعماله هي التي وطدت أقدامها بخراسان .

كان طاهر بن الحسين هو القائد الذي فتح للمأمون العراق وبغداد وقتل الأمين . وقد كان معسكراً في الرقة ومخاصماً للحسن بن سهل والي العراق حين وصل المأمون بغداد . فاستقدمه إليه وولاه المغرب أولا ثم ولاه الشرطة ببغداد . ثم أعطاه سنة ٢٠٥ هـ ولاية خراسان والجبال

من حد حلوان . وقد أشار على المأمون بهذا وزيره أحمد بن أبي خالد وصديق طاهر وكان يعرف رغبته في الولاية لطموحه ، ولخوفه من أن يفتك به المأمون انتقاماً لأخيه . وقد علق المأمون على ذلك الاقتراح بقوله حسب رواية الطبري «هو والله خالع[1]» أو حسب رواية الفخري : «اني أخاف ان يغدر ويخلع[2]» وحاور وزيره في الأمر ولكن أحمد ضمن طاهراً (ويقال إنه قبض ثمن ذلك الضمان منه ثلاثة ملايين درهم[3] ، وحذر المأمون من ضعف غسان بن عباد (ابن عم الفضل بن سهل) والي خراسان . ويروي اليعقوبي[4] أن الوزير أحمد زور رسالة على لسان غسان يستعفي فيها من الولاية ، فأمضى المأمون المتصب إلى طاهر ، ولم يكتشف التزوير إلا فيما بعد ذلك .

ثم كان ما حذره المأمون ،فقد ظهر التمرد في كتب طاهر أولا ، ثم تطور الأمر إلى الانفصال الظاهر ، فقطع طاهر بعد قليل (سنة ٢٠٧) الخطبة للمأمون ، وأنحى الخليفة باللائمة على وزيره وطالبه بالضمان.. فتوفي طاهر فجأة في خراسان بتدبير الوزير[5] . ولعل المأمون ـ على عادته السياسية مع العلويين أو مع الفضل بن سهل ـ أراد درء التهمة عن نفسه فولى طلحة بن طاهر مكان والده ، وولى أخاه عبد الله المغرب. فلما توفي طلحة سنة ٢١٣ حول المأمون عبد الله الى خراسان فثبت بذلك أقدام هذه الأسرة التي أسست أول إمارة شبه مستقلة في ايران .

---

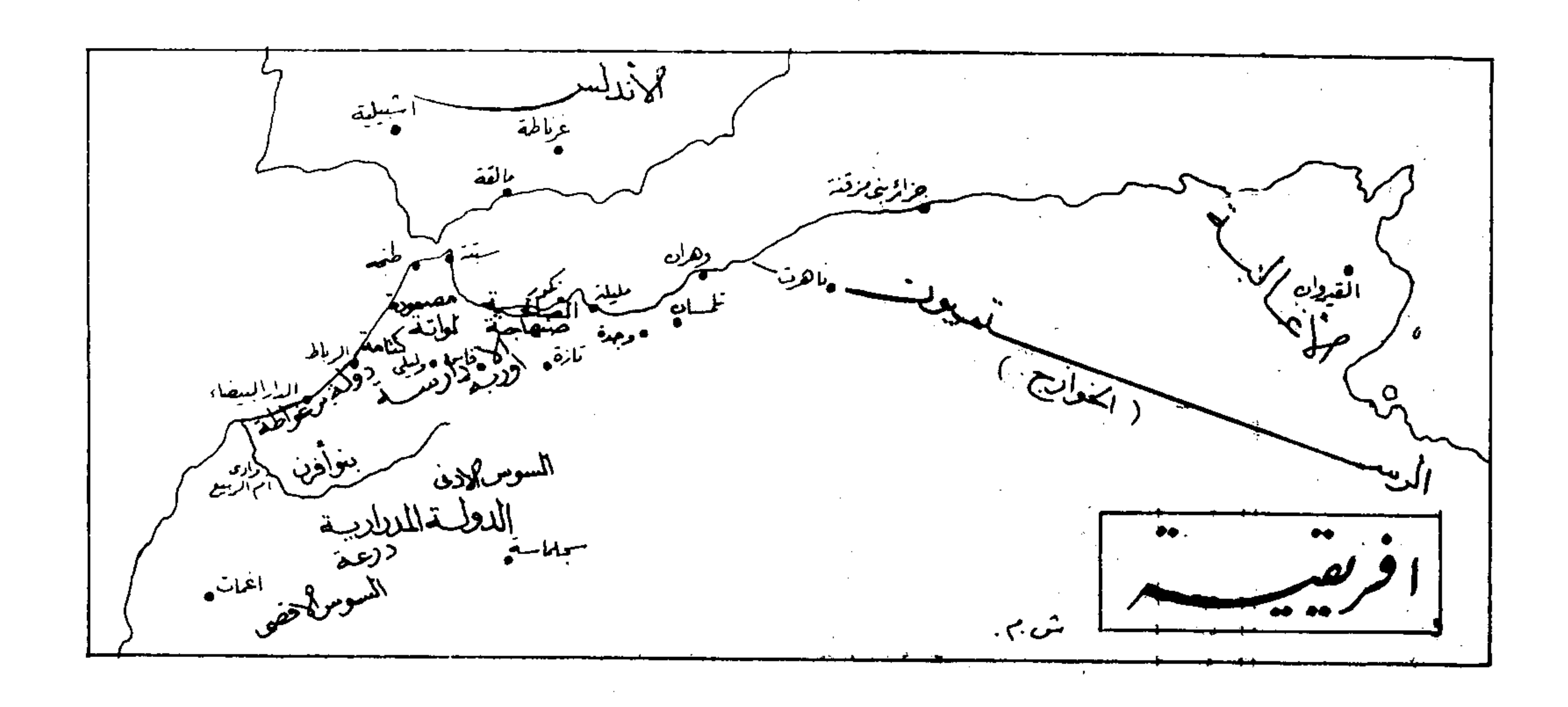
(١) الطبري ج٨ ص٥٧٩ (٣/١٠٤٢) .

(٢) الفخري ص ١٦٨

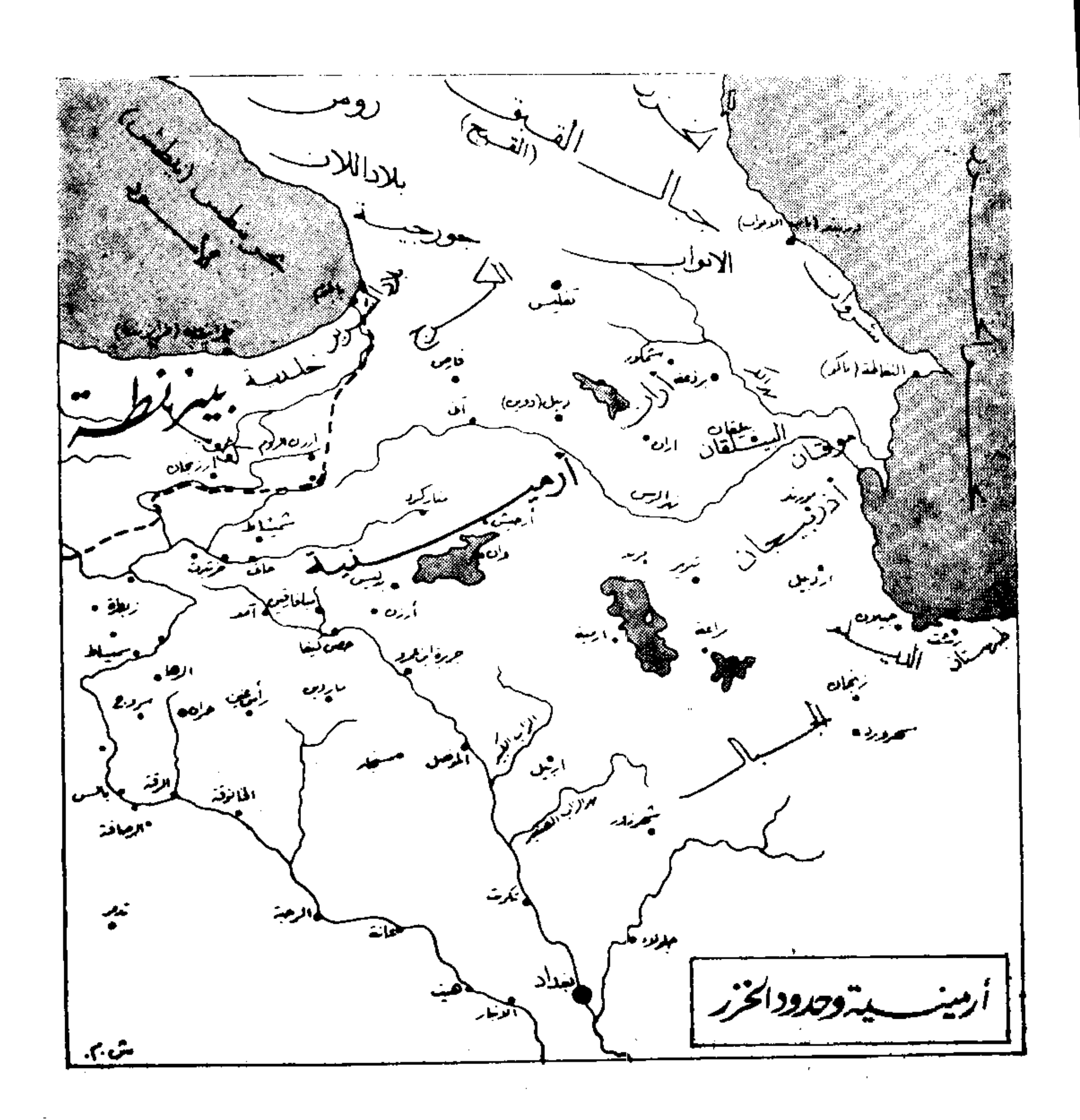
(٣) اليعقوبي ج٢ ص ٤٥٧

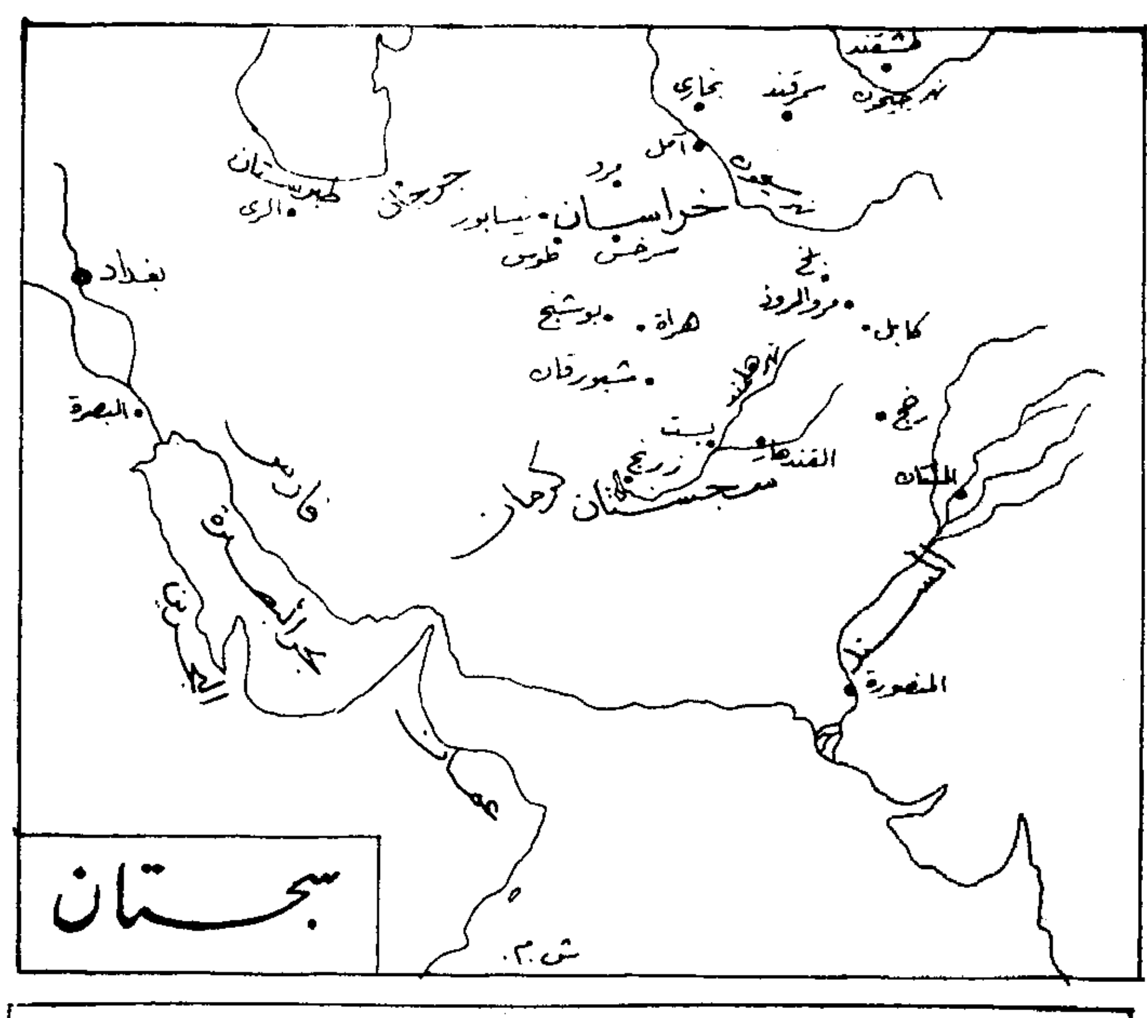
(٤) اليعقوبي ج٢ ص ٤٥٦ .

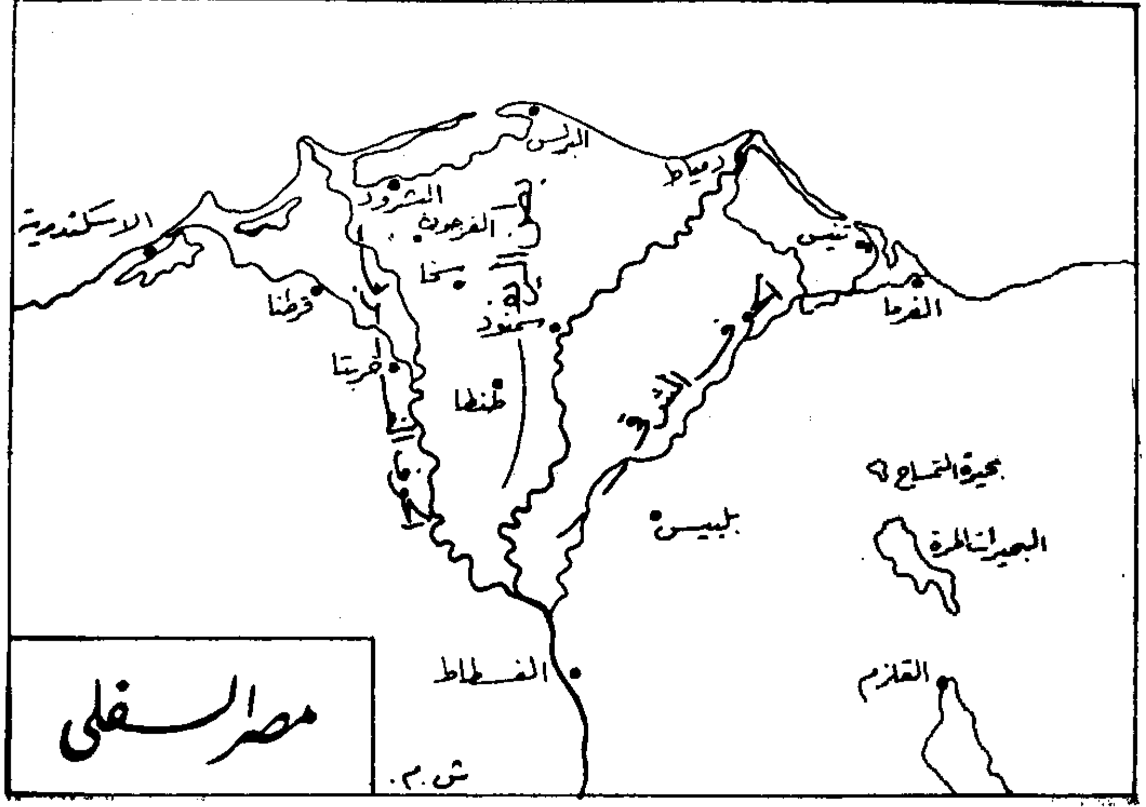
(٥) هناك روايات متعدده لموت طاهر (الطبري ج٨ ص ٥٩٤ ــ ٥٥٥) (اليعقوبي ج٢ ص ٤٥٧) (الفخري ص ١٦٨) (ابن خلكان ج١ ص ٢٣٧) .

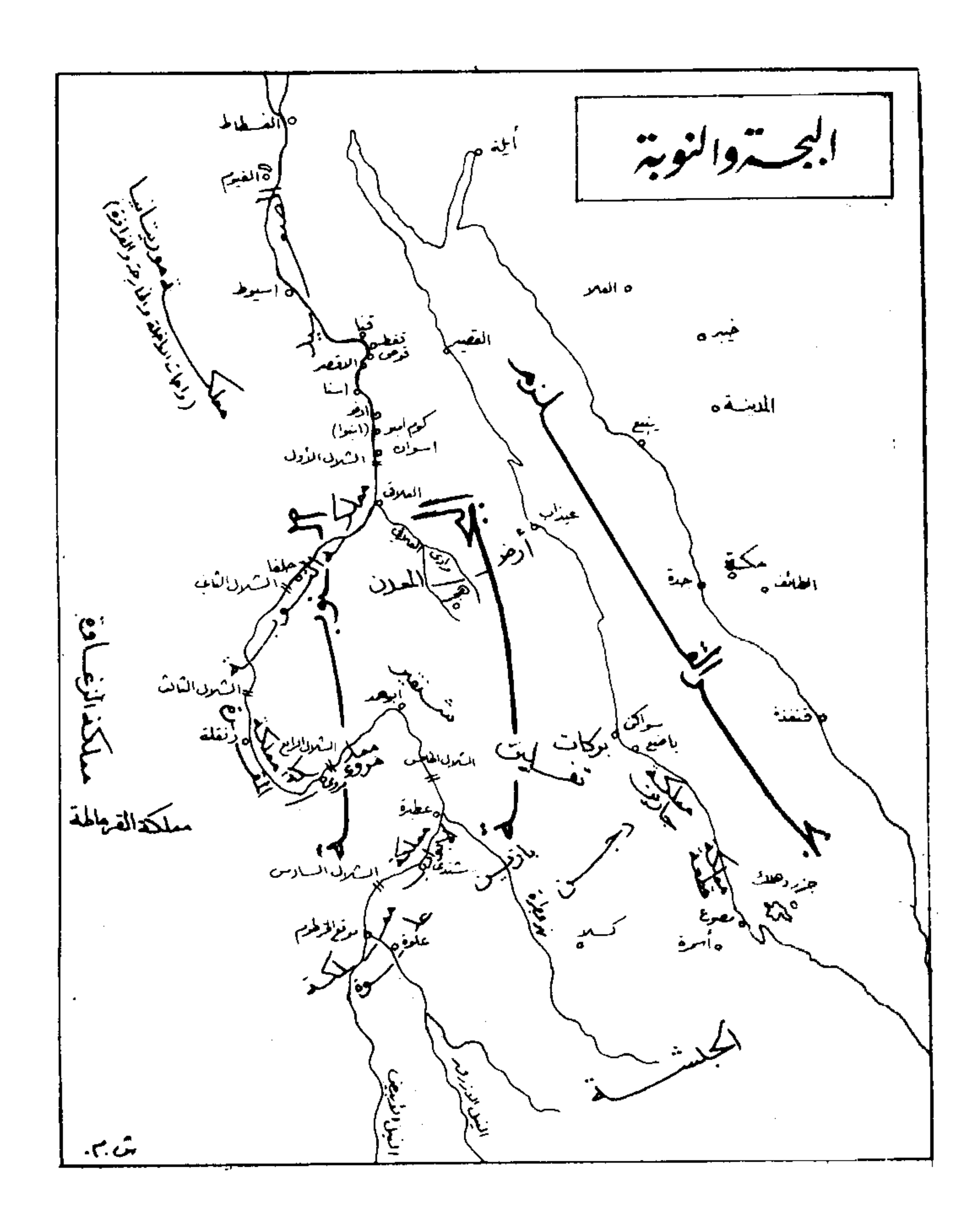


الأندلس
اشبيلية
غرناطة
مالقة
جزائر بني مزغنة
وهران
تاهرت
الخوارج
القيروان
طنجة
سبتة
مصمودة
لواتة
صنهاجة
مليلة
تلمسان
وجدة
تازة
وليلي
فاس
كتامة
الرباط
دولة الأدارسة
الدار البيضاء
دولة برغواطة
بنو أفرن
السوس الأدنى
الدولة المدرارية
سجلماسة
درعة
اغمات
السوس الأقصى
افريقية
ش.م.

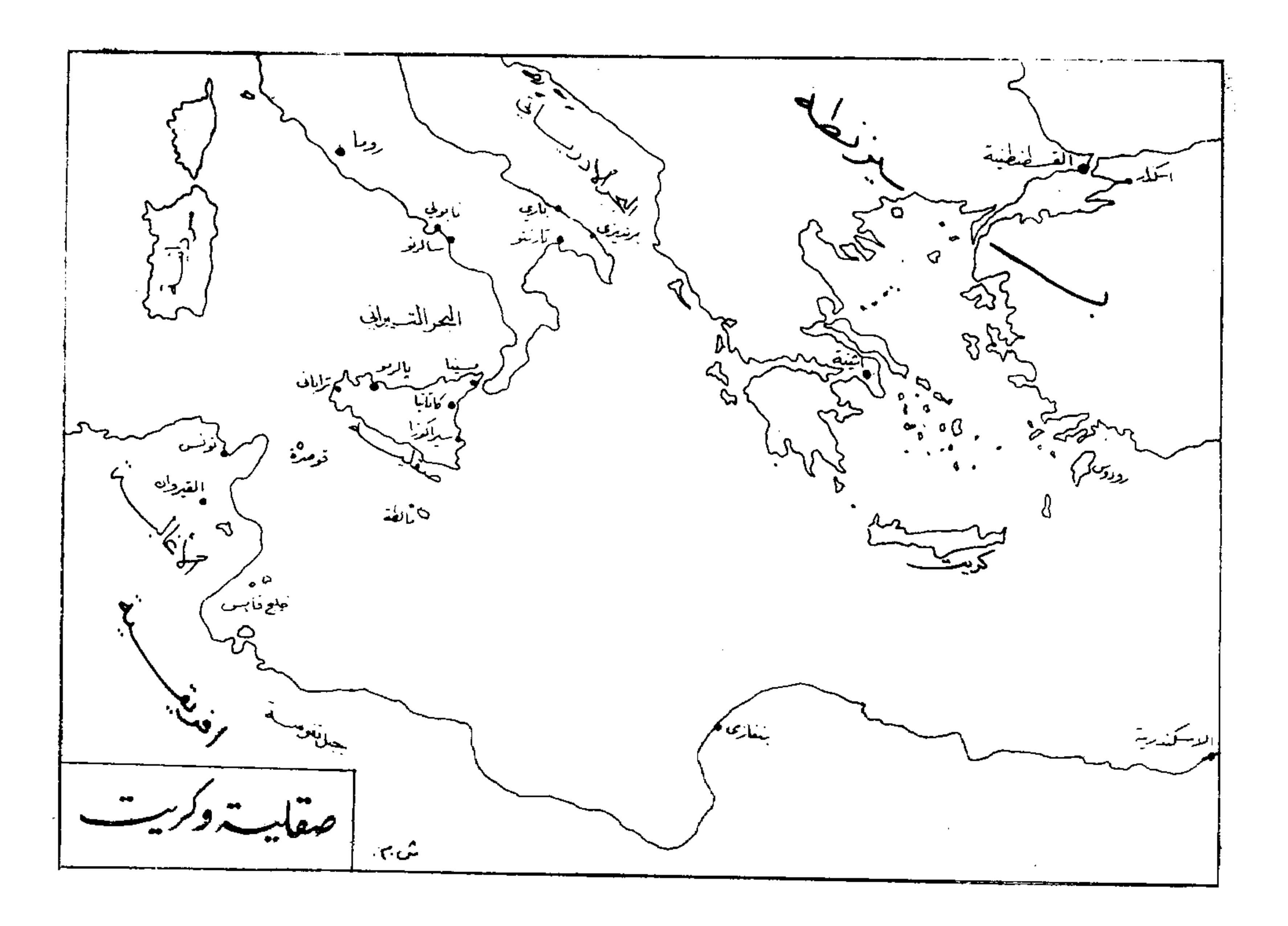

أرمينية وحدود الخزر


سجستان
بخارى
سمرقند
نهر جيحون
آمل
خراسان
نيسابور
سرخس
طوس
طبرستان
جرجان
الري
بغداد
البصرة
فارس
هراة
بوشنج
مرو الروذ
كابل
شبورقان
بست
القندهار
سجستان
كرمان
الملتان
السند
المنصورة
عمان
ش.م.


مصر السفلى
البرلس
دمياط
تنيس
الفرما
الإسكندرية
سخا
سمنود
طنطا
بلبيس
بحيرة التمساح
البحيرات المرة
الفسطاط
القلزم
ش.م.



البجة والنوبة
الفسطاط
الفيوم
أسيوط
قفط
قوص
الأقصر
أسنا
أدفو
كوم أمبو (أمبوا)
أسوان
الشلال الأول
العلاقي
أيلة
العلا
خيبر
المدينة
ينبع
القصير
عيذاب
جدة
مكة
الطائف
القنفذة
سواكن
باضع
جزر دهلك
مصوع
أسمرة
كسلا
الحبشة
الشلال الثاني
الشلال الثالث
الشلال الرابع
الشلال الخامس
الشلال السادس
دنقلة
عطبرة
المعدن
بركات
النيل الأزرق
النيل الأبيض
مملكة الزغاوة
ش.م.


صقلية وكريت
ش ٣٠
بيزنطة
القسطنطينية
الكلد
رودوس
كريت
اثينة
البحر الادرياتي
برنديزي
باري
تارنتو
روما
نابولي
سالرنو
البحر التيرياني
مسينا
بالرمو
ترابانى
كاتانيا
سيراكوزا
صقلية
قوصرة
مالطة
تونس
القيروان
الأغالبة
خليج قابس
افريقية
جبل نفوسة
بنغازي
الاسكندرية

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة